

كتاب الشعب



تفسير القرآن العظيم

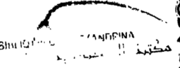
للحافظ ابن كثير
٧٠٠-٧٧٤هـ

تحقيق

د. محمد ابراهيم البنا — محمد أحمد عاشور — عبد العزيز غنيم

المجلد السادس

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني القاهرة ت: ٣١٨١٠



تفسير سورة النور

وهى مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢)

يقول تعالى : هذه (سورة أنزلناها) فيه تنبيه على الاعتناء بها ولا ينفي ما عداها .

(وفرضناها) ، قال مجاهد وقتادة : أيْ بيّنّا الحلال والحرام ، والأمر والنهى ، والحدود .

وقال البخارى : « ومن قرأ (فرَضْنَاها) (١) يقول : فرَضنا عليكم وعلى من بعدكم (٢) » .

(وأنزلنا فيها آيات بينات) ، أى : مفسرات واضحات ، (لعلكم تذكرون) .

ثم قال تعالى : (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) : هذه الآية الكريمة فيها حكم الزانى فى الحد ، وللعلماء فيه تفصيل ونزاع ؛ فان الزانى لا يخلو إما أن يكون بكراً ، وهو الذى لم يتزوج . أو محصنا ، وهو الذى قد وطىء فى نكاح صحيح ، وهو حر بالغ عاقل . فأما إذا كان بكرا لم يتزوج فإن حده مائة جلدة ، كما فى الآية ويزاد على ذلك أن يغرّب عاما عند جمهور العلماء ، خلافا لأبى حنيفة رحمه الله ؛ فان عنده أن التغريبَ إلى رأى الإمام ، إن شاء غرّب وإن شاء لم يغرب . وحجة الجمهور فى ذلك ماثبت فى الصحيحين ، من رواية الزهرى ، عن عُبَيْد الله ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، عن أبى هريرة وزيد بن خالد الجهنى ، فى الأعرابيين اللذين أتيا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أحدهما : يا رسول الله ، إن ابنى كان عسيفا — يعنى أجيرا — على هذا فزنى بامرأته ، فافتديت [ابنى] منه بمائة شاة ووَليدة ، فسألت أهل العلم ، فأخبرونى أن على ابنى جلد مائة وتغريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده لأقضين بينكما بكتاب الله : الوليدة والغنم رَدّ عليك ، وعلى ابنك جَلْدُ مائة وتغريب عام . واغد يا أنيس — لرجل من أسلم — إلى امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها . فغدا عليها ، فاعترفت ، فرجمها (٣) .

---

(١) ذكر البخارى قبل ذلك القراءة الأخرى ، وهى : (فرضناها) ، بتشديد الراء . وذكر أن معناها : أنزلنا فيها فرائض مختلفة .

(٢) البخارى ، تفسير سورة النور : ١٢٤/٦ .

(٣) البخارى ، كتاب الصلح ، باب « إذا اصطلحوا على صلح جور ، فالصلح مردود » : ٢٤٠/٣ - ٢٤١ . ومسلم ، كتاب الحدود ، باب « من اعترف على نفسه بالزنا » : ١٢١/٥ .

ففي هذا دلالة على تغريب الزاني مع جلد مائة إذا كان بكراً لم يتزوج ، فأما إنْ كان محصنا فإنه يرجم ، كما قال الإمام مالك :

حدثني ابن شهاب ، أخبرنا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، أن ابن عباس أخبره ، أن عمر ــ رضى الله عنه ــ قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، أيها الناس ، فإن الله بعث محمداً بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم ، فقرأناها ووَعَيْناها ، ورَجَمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ورَجَمْنا بعده ، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل : « لا نجد آية الرجم فى كتاب الله » ، فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله ، فالرجم فى كتاب الله حق على من زنى ، إذا أحصن ، من الرجال والنساء ، إذا قامت البينة أو الحبَل أو الاعتراف (١) .

أخرجاه فى الصحيحين من حديث مالك (٢) مطولا ، وهذا قطعة منه ، فيها مقصودنا هاهنا .

وروى الإمام أحمد عن هُشَيم ، عن الزهرى ، عن عُبَيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس : حدثنى عبد الرحمن ابن عوف : أن عمر بن الخطاب خطب الناس فسمعته يقول : ألا وإنّ أناسا يقولون : ما بالُ الرجم ؟ فى كتاب الله الجلدُ ، وقد رَجَمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ورَجَمْنا بعده ، ولولا أن يقول قائلون ــ أو يتكلم متكلمون ــ أن عمر زاد فى كتاب الله ما ليس منه ، لأثبتها كما نزلت (٣) .

وأخرجه النسائى ، من حديث عُبَيد الله بن عبد الله ، به .

وقد روى أحمد أيضا عن هُشَيم ، عن على بن زيد ، عن يوسف بن مِهْران ، عن ابن عباس قال : خطب عمر ابن الخطاب فذكر الرجم فقال : لاتُخدَعنَّ عنه ، فإنه حَدّ من حدود الله . ألا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رجم ورَجَمنا بعده ، ولولا أن يقول قائلون : زاد عمر فى كتاب الله ما ليس فيه ، لكتبت (٤) فى ناحية [من] المصحف : وشهد (٥) عمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وفلان وفلان : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم [قد] رجم ورجمنا بعده ، ألا وإنه سيكون من بعدكم قوم يكذبون بالرجم وبالدجال وبالشفاعة وبعذاب القبر ، وبقوم يخرجون من النار بعد ما امتحشُوا (٦) .

وروى أحمد أيضا عن يحيى القطان ، عن يحيى الأنصارى ، عن سعيد بن المسيب ، عن عمر بن الخطاب : إياكم أن تهلكوا عن آية الرجم (٧) .

---

(١) الموطأ « كتاب الحدود » باب « ماجاء فى الرجم » .

(٢) كذا ، والحديث ــ كما وقع لنا فى الصحيحين ــ من طريق ابن شهاب . انظر البخارى « كتاب الحدود » باب « رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت » : ٨/ ٢٠٨ ــ ٢١١ . ومسلم « كتاب الحدود أيضاً » باب « رجم الثيب فى الزنا » : ٥/ ١١٦ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١/ ٢٩ .

(٤) فى المسند : « لكتبته » .

(٥) فى المسند : « شهد » دون واو .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١/ ٢٣ . وانظر فى تفسير المحش : ٣/ ٤٨٠ .

(٧) مسند الإمام أحمد : ١/ ٣٦ .

الحديث رواه الترمذى ، من حديث سعيد عن عُمَر ، وقال : صحيح(١) .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا عُبَيْد الله بن عمر القواريرى ، حدثنا يزيد بن زُرَيْع ، حدثنا ابن عون ، عن محمد — هو ابن سيرين — قال : نُبِّئْتُ عن كثير بن الصلت قال : كنا عند مروان وفينا زيد ، فقال زيد : كنا نقرأ : (والشيخ والشيخة فارجموهما البتة) ، قال مروان : ألا كتبتَها فى المصحف؟ قال : ذكرنا ذلك وفينا عمر ابن الخطاب ، فقال : أنا أشفيكم من ذلك : قال : قلنا : فكيف ؟ قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : فذكر كذا وكذا ، وذكر الرجم(٢) فقال : يار سول الله ، أكْتِبْنِى آية الرجم ، قال : لا أستطيع الآن ، هذا أو نحو ذلك .

وقد رواه النسائى عن محمد بن المثنى ، عن غُنْدَر ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن يونس بن جُبَيْر ، عن كَثِير ابن الصَّلت ، عن زيد بن ثابت ، به .

وهذه طرق كلها متعددة ، ودالة على أن آية الرجم كانت مكتوبة فنسخ تلاوتها ، وبقى حكمها معمولا به ، ولله الحمد .

وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجم هذه المرأة ، وهى زوجة الرجل الذى استأجر الأجير لما زنَت مع الأجير . ورجم النبى صلى الله عليه وسلم ماعزًا والغامديّة . وكل هؤلاء لم يُنقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه جَلَدهم قبل الرجم ، وإنما وردت الأحاديث الصِّحاح المتعددة الطرق والألفاظ ، بالاقتصار على رجمهم ، وليس فيها ذكر الجلد . ولهذا كان هذا مذهبَ جمهور العلماء ، وإليه ذهب أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعى ، رحمهم الله . وذهب الإمام أحمد رحمه الله إلى أنه يجب أن يجمع على الزانى المحصَن بين الجلد للآية ، والرجم للسنة ، كما روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه لما أتى بشُرَاحة (٣) ، وكانت قد زنت وهى محصنة ، فجلدها يوم الخميس ، ورجمها يوم الجمعة ، ثم قال : جلدتُها بكتاب الله ، ورجمتها بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد روى الإمام أحمد ومسلم ، وأهل السنن الأربعة ، من حديث قتادة ، عن الحسن ، عن حِطّان بن عبد الله الرَّقاشى ، عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خذوا (٤) عنى ، خذوا عنى ، قد جعل الله لهن سبيلا : البكر بالبكر ، جلد مائة وتغريب سنة ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم (٥) .

---

(١) تحفة الأحوذى ، أبواب الحدود ، باب « ماجاء فى تحقيق الرجم » ، الحديث ١٤٥٤ : ٧٠١/٤ .

(٢) بعده فى المخطوطة : « فأتاه فذكر ذلك الرجل الرجم » .

(٣) كذا ضبط فى القاموس المحيط ، مادة (شرح) بضم ففتح ، قال : « كسراقة : همدانية أقرت بالزنا عند على » .

(٤) فى مسند الإمام أحمد : « خذوا عنى ، ثلاث مرار » .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٣١٧/٥ . ومسلم ، كتاب الحدود ، باب « حد الزنا » : ١١٥/٥ . وسنن أبى داود ، كتاب الحدود ، باب « فى الرجم » ، الحديث ٤٤١٥ : ١٤٤/٤ ، وتحفة الأحوذى ، أبواب الحدود ، باب « ما جاء فى الرجم على الثيب » ، الحديث ١٤٥٨ : ٧٠٥/٤ — ٧٠٦ ، وقال الترمذى : « هذا حديث صحيح » . وسنن ابن ماجه ، كتاب الحدود ، باب « حد الزنا » ، الحديث ٢٥٥٠ : ٨٥٢/٢ ، ٨٥٣ .

وقوله : (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) ، أي : في حكم الله ، لا ترجموهما وترأفوا بهما في شرع الله ، وليس المنهي عنه الرأفة الطبيعية على إقامة الحد (١) ، [وإنما هي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد] ، فلا يجوز له ذلك .

قال مجاهد : (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) ، قال : إقامة الحدود إذا رُفعت إلى السلطان ، فتقام ولا تعطل ، وكذا رُوي عن سعيد بن جبير ، وعطاء بن أبي رباح . وقد جاء في الحديث : تعافَوْا الحدود فيما بينكم ، فما بلغني من حدّ فقد وَجَب (٢) . وفي الحديث الآخر : « لَحَدّ يقام في الأرض خير لأهلها من أن يُمطروا أربعين صباحا » (٣) .

وقيل : المراد : (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) ، فلا تقيموا الحد كما ينبغي ، من شدة الضرب الزاجر عن المأثم ، وليس المراد الضرب المبرح :

قال عامر الشعبي : (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) ، قال : رحمة في شدّة الضرب . وقال عطاء : ضرب ليس بالمبرح ، وقال سعيد بن أبي عروبة ، عن حماد بن أبي سليمان : يجلد القاذف وعليه ثيابه ، والزاني تخلع ثيابه ، ثم تلا : (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) ، فقلت : هذا في الحكم ؟ قال : هذا في الحكم والجلد ـ يعني في إقامة الحد ، وفي شدة الضرب .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي ، حدثنا وكيع ، عن نافع بن عُمَر ، عن ابن أبي مليكة ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر : أن جارية لابن عمر زنت ، فضرب رجليها ـ قال نافع : أراه قال : وظهرها ـ قال : قلت : (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) ، قال : يابني ، ورأيتني أخذتني بها رأفة . إن الله لم يأمرني أن أقتلها ، ولا أن أجعل جلدها في رأسها ، وقد أوجعت حيث ضربت (٤) .

وقوله : (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) ، أي : فافعلوا ذلك ، أقيموا الحدود على من زنى ، وشددوا عليه الضرب ، ولكن ليس مبرحا ؛ ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك . وقد جاء في المسند عن بعض الصحابة أنه قال : يا رسول الله ، إني لأذبح الشاة وأنا أرحمها . فقال : ولك في ذلك أجر (٥) .

وقوله : (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) ، هذا فيه تنكيل للزانيين إذا جلدا بحضرة الناس ، فإن ذلك يكون أبلغ في زجرهما وأنجع في ردعهما ، فإن في ذلك تقريعا وتوبيخا وفضيحة إذا كان الناس حضورا .

قال الحسن البصري في قوله : (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) ، يعني علانية .

ثم قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) ، الطائفة : الرجل فما فوقه .

---

(١) في المخطوطة : « وليس المنهي عنه الرأفة الطبيعية على ترك الحد » . ولعل الصواب ما أثبتناه . وما بين القوسين بعده عن الطبعات السابقة .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الحدود ، باب « العفو عن الحدود مالم تبلغ السلطان » ، الحديث ٤٣٧٦ : ٤/١٣٣ .

(٣) سنن النسائي ، كتاب قطع يد السارق ، باب « الترغيب في إقامة الحد » : ٨/٧٥ ، وابن ماجه ، كتاب الحدود ، باب « إقامة الحدود » ، الحديث ٢٥٣٨ : ٢/٨٤٨ ، ٨٤٩ . ومسند الإمام أحمد عن أبي هريرة : ٢/٣٦٢ ، ٤٠٢ .

(٤) أخرجه الطبري من حديث نافع بن عمر : ١٨/٥٢ .

(٥) مسند الإمام أحمد عن قرة المزني : ٣/٤٣٦ ، ٥/٣٤ .

وقال مجاهد : الطائفة : رجل إلى الألف(١) . وكذا قال عكرمة ، ولهذا قال الإمام أحمد : إن الطائفة تصدق على واحد .

وقال عطاء بن أبي رباح : اثنان ، وبه قال إسحاق بن راهَوَيه . وكذا قال سعيد بن جبير : (طائفة من المؤمنين) قال : يعني رجلين فصاعدا .

وقال الزهري : ثلاثة نفر فصاعدا .

وقال عبد الرزاق : حدثني ابن وهب ، عن الإمام مالك في قوله : (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) ، قال : الطائفة أربعة نفر فصاعدا ، لأنه لا يكون شهادة في الزنا دون أربعة شهداء فصاعداً . وبه قال الشافعي .

وقال ربيعة : خمسة . وقال الحسن البصري : عشرة . وقال قتادة : أمرَ الله أن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ، أي : نفر من المسلمين ، ليكون ذلك موعظةً وعبرة ونكالا .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا يحيى بن عثمان ، حدثنا بقية قال : سمعت نصر بن علقمة في قوله : (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) ، قال : ليس ذلك للفضيحة ، إنما ذلك ليدعَى اللهَ تعالى لهما بالتوبة والرحمة .

الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾

هذا خبَرٌ من الله تعالى بأن الزاني لايَطأ إلا زانية أو مشركة ، أي : لا يطاوعه على مراده من الزنا إلا زانية عاصية أو مشركة ، لاترى حرمة ذلك ، وكذلك : (الزانية لا ينكحها إلا زان) ، أي : عاص بزناه ، (أو مشرك) ، لا يعتقد تحريمه .

قال سفيان الثوري ، عن حبيب بن أبي عَمْرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : (الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة) ، قال ليس هذا بالنكاح ، إنما هو الجماع ، لا يزني بها إلا زان أو مشرك .

وهذا إسناد صحيح عنه ، وقد رُوي عنه من غير وجه أيضا . وقد رُوي عن مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وعروة بن الزبير ، والضحاك ، ومكحول ، ومقاتل بن حيّان ، وغير واحد — نحوَ ذلك .

وقوله تعالى : (وحرم ذلك على المؤمنين) ، أي : تعاطيه والتزويج بالبغايا ، أو تزويج العفائف بالفجار من الرجال .

وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا قيس ، عن أبي حصين ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس : (وحرم ذلك على المؤمنين) ، قال : حرّم الله الزنا على المؤمنين .

وقال قتادة ، ومقاتل بن حيّان : حرّم الله على المؤمنين نكاح البغايا ، وتَقَدّم في ذلك فقال : (وحرم ذلك على المؤمنين) .

---

(١) نفسير الطبري : ١٨/٥٤ .

وهذه الآية كقوله تعالى : (محصنات غير مسافحات ، ولا متخذات أخدان (١)) ، وقوله : (محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان (٢)) .. الآية . ومن هاهنا ذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغى مادامت كذلك [حتى] تستتاب ، فإن تابت صح العقد عليها وإلا فلا ، وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح ، حتى يتوب توبة صحيحة ، لقوله تعالى : (وحرم ذلك على المؤمنين) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عارم ، حدثنا معتمر بن سليمان قال : قال أبى ، حدثنا الحضرمى ، عن القاسم بن محمد ، عن عبد الله بن عَمْرو ــ رضى الله عنهما ــ أن رجلا من المسلمين استأذن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى امرأة ــ يقال لها : « أم مهزول » ــ كانت تسافح ، وتشترط له أن تنفق عليه ــ قال : فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ أو : ذكر له أمرها ــ قال : فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ، وحُرِّم ذلك على المؤمنين (٣)) .

وقال النسائى : أخبرنا عمرو بن على ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، عن الحضرمى ، عن القاسم بن محمد ، عن عبد الله بن عمرو قال : كانت امرأة ــ يقال لها : « أم مهزول » ــ وكانت تسافح ، فأراد رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوجها ، فأنزل الله عز وجل : (الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ، وحُرِّم ذلك على المؤمنين) .

قال الترمذى : حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا رَوح بن عُبَادة ، عن عُبَيد الله بن الأخنس ، أخبرنى عمرو بن شُعَيب عن أبيه ، عن جده قال : كان رجل يقال له « مرثد بن أبى مرثد » ، وكان رجلا يحمل الأسارى من مكة حتى يأتى بهم المدينة . قال : وكانت امرأة بَغِيّ بمكة يقال لها « عناق » ، وكانت صديقة له ، وأنه واعد رجلا من أسارى مكة يحمله . قال : فجئت حتى انتهيتُ إلى ظل حائط من حوائط مكة فى ليلة مقمرة ، قال : فجاءت « عناق » فأبصرت سواد ظلى (٤) [تحت] الحائط ، فلما انتهت إلى عرفتنى ، فقالت : مرثد ؟ فقلت : مرثد . فقالت : مرحباً وأهلا ، هلم فبت عندنا الليلة . قال : فقلت : يا عناق ، حرم الله الزنا . فقالت : يا أهل الخيام ، هذا الرجل يحمل أسراكم ؛ قال : فتبعنى ثمانية ودخلت الخندمة (٥) ، فانتهيت إلى غار ــ أو : كهف ــ فدخلت فيه ، فجاءوا حتى قاموا على رأسى فبالوا ، فظل بولهم على رأسى ، فأعماهم الله عنى ــ قال : ثم رجعوا ، فرجعتُ إلى صاحبى فحملته ، وكان رجلا ثقيلا ، حتى انتهيت إلى الإذخَر (٦) ، ففككت عنه أكبُلَه (٧) ، فجعلت أحمله ويُعيينى ، حتى أتيت (٨) به

---

(١) سورة النساء ، آية : ٢٥ .
(٢) سورة المائدة ، آية : ٥ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٢/١٥٩ ، ٢٢٥ .
(٤) فى المخطوطة : « سواد ظل الحائط » . والمثبت من الترمذى .
(٥) لفظ الترمذى : « وسلكت الخندمة » . والخندمة ــ بفتح الخاء ــ : جبل بمكة .
(٦) كذا فى المخطوطة والترمذى ، وأسد الغابة : ٥/١٣٨ ، ولم نجده فى الأماكن ، على أن فى اللسان (ذخر) : « ثنية الأذاخر : هى موضع بين مكة والمدينة ، وكأنها مسماة بجمع الأذخر » .
(٧) أكبله : جمع كبل ، وهو القيد .
(٨) فى الترمذى : « حتى قدمت » .

المدينة ، فأتيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، أنكح عناقا ؟ أنكح عناقا ؟ — مرتين — فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يرد على شيئا ، حتى نزلت : (الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ، وحُرِّم ذلك على المؤمنين) ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا مرثد ، الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة [والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك(١)] ، فلا تنكحها .

ثم قال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه (٢) » . وقد رواه أبو داود والنسائى ، فى كتاب النكاح من سننهما ، من حديث عبيد الله بن الأخنس به(٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا مسدد أبو الحسن ، حدثنا عبد الوارث ، عن حبيب المعلم ، حدثنى عمرو ابن شعيب ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ينكح الزانى المجلود إلا مثله .

وهكذا أخرجه أبو داود فى سننه عن مسدد وأبى معمر — عبد الله بن عمرو — كلاهما عن عبد الوارث ، به (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب ، حدثنا عاصم بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، عن أخيه عمر بن محمد ، عن عبد الله بن يسار — مولى ابن عمر — قال : أشهد لسمعت سالماً يقول : قال عبد الله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ثلاثة لا يدخلون الجنة ، ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، والمرأة المترجلة — المتشبهة بالرجال — ، والديوث . وثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، ومدمن الخمر ، والمنان بما أعطى(٥) » .

ورواه النسائى عن عمرو بن على الفلاس ، عن يزيد بن زُرَيع ، عن عمر بن محمد العُمَرى ، عن عبد الله ابن يسار ، به (٦) .

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا يعقوب ، حدثنا أبى ، حدثنا الوليد بن كثير ، عن قَطَن بن وهب ، عن عُوَيمر ابن الأجدع ، عمن حدثه ، عن سالم بن عبد الله بن عمر قال : حدثنى عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ثلاثة حرم الله عليهم الجنة : مدمن الخمر ، والعاق ، والديوث الذى يقر فى أهله الخبث (٧) .

وقال أبو داود الطيالسى فى مسنده : حدثنا شعبة ، حدثنى رجل — من آل سهل بن حُنَيف — عن محمد بن عمّار ، عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة ديوث » (٨) .

(١) ما بين القوسين عن الترمذى .

(٢) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة النور ، الحديث ٣٢٢٧ : ٩ / ٢١ — ٢٣ .

(٣) سنن أبى داود ، كتاب النكاح ، باب قوله تعالى : (الزانى لا ينكح إلا زانية) ، الحديث ٢٠٥١ : ٢ / ٢٢ ، والنسائى ، باب « تزويج الزانية » : ٦ / ٦٦ .

(٤) سنن أبى داود ، فى الكتاب والباب المتقدمين ، الحديث ٢٠٥٢ : ٢ / ٢٢٠ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٢ / ١٣٤ .

(٦) النسائى ، كتاب الزكاة ، باب « المنان بما أعطى » : ٨ / ٨٠ .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٢ / ٦٩ .

(٨) منحة المعبود ، أبواب حد الزنا ، باب « النهى عن الزنا والرضا به ، ومن مباشرة المرأة المرأة ، والأمر بغض البصر » ١ / ٢٩٧ .

يستشهد به لما قبله من الأحاديث .

وقال ابن ماجه : حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا سَلَّام بن سَوَّار ، حدثنا كَثِير بن سُلَيم ، عن الضحاك بن مزاحم ؛ سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم [يقول] : « من أراد أن يلقى الله طاهراً مُطَهَّراً ، فليتزوج الحرائر(١) » .

في إسناده ضعف(٢) .

قال الإمام أبو نصر إسماعيل بن حَمَّاد الجوهري في كتاب « الصحاح في اللغة » : الديوث القُنْذُع وهو الذي لا غَيْرَةَ له (٣) .

فأما الحديث الذي رواه الإمام أبو عبد الرحمن النسائي في « كتاب النكاح » من سننه : أخبرنا محمد بن إسماعيل ابن عُلَيَّة ، عن يزيد بن هارون ، عن حماد بن سلمة وغيره ، عن هارون بن رئاب ، عن عبد الله بن عبيد بن عمير - وعبد الكريم ، عن عبد الله بن عُبَيد بن عمير ، عن ابن عباس - عبدُ الكريم رفعه إلى ابن عباس ، وهارون لم يرفعه - قالا : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن عندي امرأة [هي] من أحبِّ الناس إليّ ، وهي لا تمنع يد لامس ، قال : طلقها ، قال : لا صبر لي عنها (٤) ، قال : استمتع بها .

ثم قال النسائي : هذا الحديث غير ثابت ، وعبد الكريم ليس بالقوى ، وهارون أثبت منه ، وقد أرسل الحديث وهو ثقة ، وحديثه أولى بالصواب من حديث عبد الكريم (٥) .

قلت : وهو ابن أبي المخارق البصري المؤدب تابعي ضعيف الحديث ، وقد خالفه هارون بن رئاب ، وهو تابعي ثقة من رجال مسلم ، فحديثه المرسل أولى كما قال النسائي . لكن قد رواه النسائي في كتاب الطلاق ، عن إسحاق بن راهويه ، عن النضر بن شُمَيل ، عن حماد بن سلمة ، عن هارون بن رئاب ، عن عبد الله بن عُبَيد بن عمير ، عن ابن عباس مسندا ، فذكره بهذا الإسناد ، رجاله على شرط مسلم ، إلا أن النسائي بعد روايته له قال : « وهذا خطأ ، والصواب مرسل (٦) » ، ورواه غير النضر على الصواب .

وقد رواه النسائي أيضا وأبو داود ، عن الحسين بن حُرَيث ، أخبرنا الفضل بن موسى ، أخبرنا الحسين بن واقد ، عن عُمَارة بن أبي حفصة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكره . وهذا إسناد جيد (٧) .

---

(١) سنن ابن ماجه ، كتاب النكاح ، باب « تزويج الحرائر والولود » ، الحديث ١٨٦٢ : ١/٥٩٨ .

(٢) وذلك لضعف كثير بن سليم ، وأما « سلام بن سليمان بن سوار » فقال عنه ابن عدى : منكر الحديث . انظر ميزان الاعتدال : ٣/٤٠٥ ، ٢/١٧٨ - ١٧٩ .

(٣) الصحاح للجوهرى : ١/٢٨٢ . وفي المعرب للجواليقي ٢٠٣ ، عن أبي بكر بن دريد أن الديوث كلمة عبرانية أو سريانية . وانظر النهاية لابن الأثير .

(٤) لفظ النسائي : « لا أصبر عنها » .

(٥) النسائي ، كتاب النكاح ، باب « تزويج الزانية » : ٦/٦٧ .

(٦) النسائي ، كتاب الطلاق ، باب « ما جاء في الخلع » : ٦/١٧٠ .

(٧) النسائي ، كتاب الطلاق ، باب « ما جاء في الخلع » : ٦/١٦٩ ، ١٧٠ ، وسنن أبي داود ، كتاب النكاح ، باب « النهي عن تزويج من لم يلد من النساء » ، الحديث ٢٠٤٩ : ٢/٢٢٠ .

وقد اختلف الناس فى هذا الحديث ما بين مضعّف له ، كما تقدم عن النسائى وكما قال الإمام أحمد : هو حديث منكر (١) .

وقال ابن قتيبة : إنما أراد أنها سخية لا تمنع سائلا . وحكاه النسائى فى سننه عن بعضهم فقال: وقيل: « سخية تعطى »؛ ورُدّ هذا بأنه لو كان المراد لقال : لاتَرُدّ يد ملتمس .

وقيل : المراد إن سجيتها لاتَرُدّ يد لامس ، لا أن المراد أن هذا واقع منها ، وأنها تفعل الفاحشة ؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأذن فى مصاحبة من هذه صفتها ، فان زوجها — والحالة هذه — يكون دَيّوثا ، وقد تقدم الوعيد على ذلك ؛ ولكن لما كانت سجيتها هكذا ليس فيها ممانعة ولا مخالفة لمن أرادها لوخلا بها أحد ، أمره رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بفراقها ، فلما ذكر أنه يحبها أباح له البقاء معها ، لأن محبته لها محققة ، ووقوع الفاحشة منها متوهم ، فلا يُصَار إلى الضرر العاجل لتوهم الآجل ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

قالوا : فأما إذا حصلت توبة فإنه يحل التزويج ، كما قال الإمام أبو محمد بن أبى حاتم رحمه الله :

حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد ، عن ابن أبى ذئب ، قال : سمعت [شعبة] — مولى ابن عباس رضى الله عنه — قال : سمعت ابن عباس وسأله رجل قال : إنى كنت ألم بامرأة آتى منها ما حرّم الله عز وجل على ، فرزق الله عز وجل من ذلك توبة ، فأردت أن أتزوجها ، فقال أناس : إن الزانى لا ينكح إلا زانية ، فقال ابن عباس : ليس هذا فى هذا ، انكحها فما كان من إثم فعلى .

وقد ادعى طائفة آخرون من العلماء أن هذه الآية منسوخة ، قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب قال : ذُكر عنده (الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك)، قال: كان يقال: نسختها التى بعدها: (وأنكحوا الأيامى منكم) ، قال : كان يقال الأيامى من المسلمين .

وهكذا رواه الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب « الناسخ والمنسوخ » له ، عن سعيد بن المسيب : ونص على ذلك أيضا الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى رحمه الله .

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة ، وهى الحرة البالغة العفيفة ، فاذا كان المقذوف رجلا فكذلك يجلد قاذفه أيضاً ، وليس فى هذا نزاع بين العلماء ، فأما إن أقام القاذف بينة على صحة ما قاله رُدّ عنه الحد ، ولهذا قال تعالى : (ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ، فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون) ؛

---

(١) فى النهاية (لمس) من الإمام أحمد: « لم يكن ليامره بامساكها وهى تفجر » .

فأوجب على القاذف إذا لم يقم بينةعلى صحة ما قاله ثلاثة أحكام ، أحدها : أن يجلد ثمانين جلدة : الثاني : أنه ترد شهادته دائما . الثالث : أن يكون فاسقاً ليس بعدل ، لا عند الله ولا عند الناس .

ثم قال تعالى : (إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم) . اختلف العلماء فى هذا الاستثناء : هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط فترفع التوبة الفسق فقط ، ويبقى مردود الشهادة دائما وإن تاب ، أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة ؟ أما الجلد فقد ذهب وانقضى ، سواء تاب أو أصر ، ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف ـ فذهب الإمام مالك والشافعى وأحمد بن حنبل إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته ، وارتفع عنه حكم الفسق . ونص عليه سعيد بن المسيب ـ سيد التابعين ـ وجماعة من السلف أيضاً .

وقال الإمام أبو حنيفة إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط ، فيرتفع الفسق بالتوبة ، ويبقى مردود الشهادة أبداً . وممن ذهب إليه من السلف القاضى شريح ، وإبراهيم النخعى ، وسعيد بن جبير ، ومكحول ، وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم(١) .

وقال الشعبى والضحاك : لا تقبل شهادته وإن تاب ، إلا أن يعترف على نفسه بأنه قد قال البهتان ، فحينئذ تقبل شهادته ، والله أعلم .

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

هذه الآية الكريمة فيها فرج للأزواج وزيادة مخرج ، إذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه إقامة البينة ، أن يلاعنها ، كما أمر الله عز وجل ، وهو أن يحضرها إلى الإمام ، فيدعى عليها بما رماها به ، فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله فى مقابلة أربعة شهداء ، (إنه لمن الصادقين) ، أى : فيما رماها به من الزنا ، (والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين) . فاذا قال ذلك بانت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعى وطائفة كثيرة من العلماء ، وحرمت عليه أبداً ، ويعطيها مهرها ، ويتوجه عليها حد الزنا ، ولا يدرأ عنها إلا أن تلاعن ، فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، أى : فيما رماها به ، (والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين) . ولهذا قال : (ويدرأ عنها العذاب) ، يعنى : الحد ، (أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين) . فخصها بالغضب ، كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور ، وهى تعلم صدقه فيما رماها به . ولهذا كانت الخامسة فى حقها أن غضب الله عليها ، والمغضوب عليه هو الذى يعلم الحق ثم يحيد عنه .

---

(١) فى المخطوطة : « عبد الرحمن بن زيد بن جابر » . ولم نجده فى الرجال ، والمعهود فيما تقدم هو ما أثبتناه .

ثم ذكر تعالى لطفه بخلقه ، ورأفته بهم ، وشرعه لهم الفرجَ والمخرج من شدة ما يكون فيه من الضيق ، فقال : (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) ، أى : لحرجتم ولشق عليكم كثير من أموركم ، (وأن الله تواب) على عباده — وإن كان بعد الحلف والأيمان المغلظة — (حكيم) فيما يشرعه ويأمر به وفيما ينهى عنه .

وقد وردت الأحاديث بمقتضى العمل بهذه الآية ، وذكر سبب نزولها ، وفيمن نزلت فيه من الصحابة ، فقال الإمام أحمد :

حدثنا يزيد ، أخبرنا عباد بن منصور ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : (والذين يرمون المحصنات ، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ، فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً) ، قال سعد بن عبادة — وهو سيد الأنصار — : أهكذا أنزلت يارسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يامعشر الأنصار ، ألا تسمعون مايقول سيدكم ؟ قالوا : يارسول الله ، لا تَلُمه فانه رجل غيور ، والله ما تزوج امرأة قَطّ [إلا بكراً ، وما طلق امرأة له قط(١)] ، فاجترأ رجل منا أن يتزوجها ، من شدة غيرته . فقال سعد : والله — يارسول الله — إنى لأعلم أنها حق ، وأنها من الله ، ولكنى قدتعجّبت أنى لو وجدت لَكاعاً(٢) قد تَفَخّذها رجل ، لم يكن لىأن أهيّجه ولا أحركه حتى آتى بأربعة شهداء ، فوالله لا آتى بهم حتى يقضى حاجته . قال(٣) : فما لبثوا إلا يسيراً حتى جاء هلال بن أمية — وهو أحد الثلاثة الذين تِيبَ عليهم(٤) — فجاءمن أرضه عشاء ، فوجد عند أهله رجلا ، فرأى بعينيه وسمع بأذنيه ، فلم يُهَيّجه(٥) حتى أصبح ، فغدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، إنى جئت أهلى عشاء ، فوجدتُ عندها رجلا ، فرأيت بعينى وسمعت بأذنى . فكَرِهَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ما جاء به ، واشتدّ عليه ، واجتمعت الأنصار فقالوا(٦) : قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة الآن ، يضربَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هلالَ بن أمية ، ويُبْطِل شهادته فى الناس(٧) . فقال هلال : والله إنى لأرجو أن يجعل الله لى منها مخرجاً . وقال هلال : يارسول الله ، إنى قد أرى ما اشتد عليك مما جئت به ، والله يعلم إنى لصادق . فوالله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يأمر بضربه ، إذ أنزل الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحى — وكان إذا نزل عليه الوحى عرفوا ذلك ، فى تَرَبّد(٨) وجهه ، يعنى فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحى — فنزلت : (والذين يرمون أزواجهم ، ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم ، فشهادة أحدهم) ... الآية ، فسُرّى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أبشر يا هلال ، قد جعل الله لك

---

(١) ما بين القوسين عن المسند .

(٢) اللكاع : الحمقاء ، وقد لكع الرجل — بفتح فكسر — يلكع لكعا ، فهو ألكع ، ويقال للرجل أيضاً لكع — بضم ففتح — وغالب ما يستعمل « لكع » فى النداء .

(٣) فى المسند : « قالوا : فما لبثوا » .

(٤) كان هلال بن أمية أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، والاثنان الآخران : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع .

(٥) فى المسند : « فلم يهجه » .

(٦) فى المخطوطة : « فقال » . والمثبت عن المسند .

(٧) فى المسند : « ويبطل شهادته فى المسلمين » .

(٨) أى : تغير لونه إلى الربدة — بضم فسكون — ، وهى لون بين السواد والغبرة .

فرجاً ومخرجاً . فقال هلال : قد كنت أرجو ذلك من ربي عز وجل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسلوا إليها . فأرسلوا إليها ، فجاءت ، فتلاها(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما ، وذكرهما وأخبرهما أن عذابَ الآخرة أشدُّ من عذاب الدنيا . فقال هلال : والله ــ يارسول الله ــ لقد صَدَقتُ عليها . فقالت : كذب . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاعنوا بينهما . فقيل لهلال : اشهد . فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، فلما كان في الخامسة قيل له : ياهلال ، اتق الله ، فإن عذاب الدنيا أهونُ من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبةُ التي توجب عليك العذاب . فقال : والله لا يعذبني الله عليها ، كما لم يجلدني عليها . فشهد في الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ثم قيل [لها : اشهدي أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، فلما كانت الخامسة قيل](٢) لها : اتقي الله ، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبةُ التي توجب عليك العذاب . فتلكأت ساعة ، ثم قالت : والله لا أفضح قومي . فشهدت في الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين . ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما ، وقضى أن لا يدعى ولدها لأب ولا يرمى ولدها ، ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد ، وقضى أن لا [بيت لها عليه ولا] قوت لها، من أجل أنهما يتفرقان من غير طلاق ولا مُتَوَفَّى عنها، وقال : إن جاءت به أُصَيْهِبِيَ أُرَيْسِحَ حَمْشَ الساقين(٣) فهو لهلال ، وإن جاءت به أورق جعداً جُمَالياً خَدَلَّجَ الساقين سابغ(٤) الأليتين ، فهو الذي رميت به . فجاءت به أورقَ جَعداً جُمَالياً خَدَلَّج الساقين سابغ الأليتين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لولا الأيمان لكان لي ولها شأن .

قال عكرمة : فكان بعد ذلك أميراً على مصر ، وكان يدعى لأمه ولا يدعى لأب(٥) .

ورواه أبو داود عن الحسن بن عليّ ، عن يزيد بن هارون ، به نحوه مختصراً(٦) .

ولهذا الحديث شواهد كثيرة في الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة ، فمنها ما قال البخاري :

حدثني محمد بن بشار ، حدثنا ابن أبي عدي ، عن هشام بن حسان ، حدثني عكرمة ، عن ابن عباس : أن هلال ابن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سَحماء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : البينةَ أوحَدٌ في ظهرك . فقال : يارسول الله ، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة ؟ . فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : البينةَ وإلاّ حدٌ في ظهرك . فقال هلال : والذي بعثك بالحق إني لصادق ، ولينزلنّ الله مايبرئُ ظَهري من الحد . فنزل جبريل ، وأنزلَ عليه : (والذين يرمون أزواجهم) ، فقرأ حتى بلغ : (إن كان من الصادقين) : فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم ، فأرسل إليهما ، فجاء هلال فشهد ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : [إن الله

---

(١) في المسند : « فقرأها » .

(٢) ما بين القوسين عن المسند .

(٣) « الأصيهب » : تصغير الأصهب ، وهو الذي تعلو لونه صهبة ، وهي كالشقرة . و « الأريسح » : تصغير الأرسح ، وهو الذي لا عجز له . و « حمش » ــ بفتح فسكون ــ ، أي : دقيق الساقين .

(٤) « الأورق » : الأسمر ، والورقة ــ بضم فسكون ــ : السمرة . و « جعدا » ، أي : جعد الشعر ، وهو ضد السبط المسترسل . و « جماليا » ــ بضم الجيم وتشديد الياء : هو الضخم الأعضاء ، التام الأوصال . والخدلج : عظيم الساقين .

(٥) مسند الإمام أحمد : ١/٢٣٨ ، ٢٣٩ .

(٦) سنن أبي داود ، كتاب الطلاق ، باب « في اللعان » ، الحديث ٢٢٥٦ : ٢/٢٧٦ ــ ٢٧٨ .

يعلم] (١) أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟ ثم قامت فشهدت، فلما كانت عند الخامسة وقّفوها وقالوا : إنها موجبة . قال ابن عباس : فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ، ثم قالت : لا أفضح قومي سائر اليوم ، فمضت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أبصروها ، فان جاءت به أكحل العينين ، سابغ الأليتين ، خدلّج الساقين ، فهو لشريك بن سحماء . فجاءت به كذلك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لولا ما مضى من كتاب الله ، لكان لي ولها شأن(٢) .

انفرد به البخاري من هذا الوجه ، وقد رواه من غير وجه ، عن ابن عباس وغيره .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن منصور الزيادي ، حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا صالح — وهو ابن عمر — حدثنا عاصم — يعني ابن كليب — عن أبيه ، حدثني ابن عباس قال : جاء رجل إلى رسول الله ، فرمى امرأته برجل ، فكره ذلك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يزل يُردّده حتى أنزل الله : (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء) ، حتى فرغ من الآيتين ، فأرسل إليهما فدعاهما ، فقال : إن الله عزّ وجل قد أنزل فيكما . فدعا الرجل فقرأ عليه ، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، ثم أمر به فأمسك على فيه فوعظه ، فقال له : كل شيء أهون عليه من لعنة الله . ثم أرسله فقال : (لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين) ثم دعا بها ، فقرأ عليها ، فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، ثم أمر بها فأمسك على فيها فوعظها ، وقال : ويحك . كل شيء أهون من غضب الله . ثم أرسلها ، فقالت : (غضب الله عليها إن كان من الصادقين) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما والله لأقضينّ بينكما قضاء فصلا . قال : فولدت ، فما رأيت مولوداً بالمدينة [أكثر] غاشية(٣) منه، فقال : إن جاءت به لكذا وكذا فهو كذا ، وإن جاءت به لكذا وكذا فهو لكذا . فجاءت به يشبه الذي قُذفت به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان قال : سمعت سعيد بن جُبَيْر قال : سُئِلْتُ عن المتلاعنين أيفرق بينهما ؟ في إمارة ابن الزبير ، فما دريتُ ما أقول ، فقمت من مكاني إلى منزل ابن عمر فقلتُ : أبا عبد الرحمن، المتلاعنان أيفرق بينهما ؟ فقال : سبحان الله : إن أول من سأل عن ذلك فلان بن فلان ، فقال : يارسول الله ، أرأيت الرجل يرى امرأته على فاحشة فان تكلّم تكلم بأمر عظيم ، وإن سكت سكت على مثل ذلك . فسكت فلم يجبه ، فلما كان بعد ذلك أتاه فقال: الذي سألتك عنه قد ابتُليت به . فأنزل الله عز وجل هذه الآيات في سورة النور : (والذين يرمون أزواجهم) ، حتى بلغ : (أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين) ، فبدأ بالرجل فوعظه وذكّره ، وأخبره أن عذاب الدنيا أهونُ من عذاب الآخرة ، فقال : والذي بعثك بالحق ما كذَبْتُك ثم ثنّى بالمرأة فوعظها وذكّرها ، وأخبرها أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، فقالت : والذي بعثك بالحق ، إنه لكاذب . قال : فبدأ بالرجل ، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من

---

(١) ما بين القوسين من الصحيح ، ومكانه في المخطوطة : « الله يشهد » .

(٢) البخاري ، تفسير سورة النور : ٦/١٢٦ .

(٣) في الطبعات السابقة : « بالمدينة أكثر منه » . وفي المخطوطة : « بالمدينة عاشية منه » . ولعل الصواب ما أثبتناه ، والغاشية : القوم الحضور ، وكأنهم — والله أعلم — القوم الذين أرادوا أن يتعرفوا صفات هذا المولود .

الكاذبين ، ثم ثنى بالمرأة فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ، ثم فرّق بينهما(١) .

رواه النسائى فى التفسير ، من حديث عبد الملك بن أبى سليمان به . . وأخرجاه فى الصحيحين من حديث سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس(٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن حماد ، حدثنا أبو عوانة ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله قال : كنّا جلوساً عشية الجمعة فى المسجد ، فقال رجل من الأنصار : أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلا فقتله قتلتموه ، وإن تكلم جلدتموه ، وإن سكت سكت على غيظ ؟ والله لئن أصبحت صالحاً لأسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فسأله ، فقال : يارسول الله ، إن أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلا فقتله قتلتموه ، وإن تكلم جلدتموه ، وإن سكت سكت على غيظ ، اللهم احكم ، قال فأنزلت آية اللعان ، فكان ذلك الرجل أول من ابتلى به(٣) .

انفرد بإخراجه مسلم ، فرواه من طُرُق ، عن سليمان بن مهران الأعمش ، به(٤) .

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا أبو كامل ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، حدثنا ابن شهاب ، عن سهل بن سعد ، قال : جاء عُوَيمر إلى عاصم بن عدى فقال : سل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيت رجلا وجد رجلا مع امرأته فقتله ، أيقتل به أم كيف يصنع ؟ فسأل عاصم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فعاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل ، قال : فلقيه عوَيمر فقال : ما صنعت ؟ قال : ما صنعت ! إنك لم تأتنى بخير ، سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاب المسائل ، فقال عُوَيمر : والله لآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأسألنه . فأتاه فوجده قد أنزل عليه فيهما ، قال : فدعا بهما فلاعَن بينهما . قال عوَيمر : لئن انطلقتُ بها يارسول الله لقد كذبتُ عليها ، قال : ففارقها قبل أن يأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصارت سنة المتلاعنين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبصروها فإن جاءت به أسحم أدعج(٥) العينين عظيم الأليتين ، فلا أراه إلا قد صدق ، وإن جاءت به أحيمر كأنه وحَرة (٦) فلا أراه إلا كاذباً ، فجاءت به على النعت المكروه(٧) .

أخرجاه فى الصحيحين وبقية الجماعة إلا الترمذى ، من طرق ، عن الزهرى ، به(٨) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢/١٩ .

(٢) البخارى ، كتاب الطلاق ، باب « قول الإمام للمتلاعنين : إن أحدكما كاذب ... » : ٧/٧١ . ومسلم ، كتاب اللعان ، باب : ٤/٢٠٦ – ٢٠٧ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١/٤٢١ – ٤٢٢ .

(٤) مسلم ، كتاب اللعان : ٤/٢٠٨ – ٢٠٩ .

(٥) الأسحم : الأسود . الأدعج : شديد سواد العينين .

(٦) الوحرة – بفتح الواو والحاء – : دويبة تلزق بالأرض .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٥/٣٣٤ .

(٨) البخارى ، تفسير سورة النور : ٦/١٢٥ – ١٢٦ . ومسلم ، كتاب اللعان : ٤/٢٠٥ – ٢٠٦ .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا إسحاق بن الضيف ، حدثنا النضر بن شُمَيْل ، حدثنا يونس بن أبي إسحاق ، عن أبيه ، عن زيد بن يشيع ، عن حذيفة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : لو رأيت مع أم رومان رجلا ما كنتَ فاعلا به ؟ قال : كنت والله فاعلا به شراً ، قال : فأنتَ ياعمر ؟ قال : كنتُ والله فاعلا ، كنت أقول : لعن الله الأعجز ، وإنه خبيث ، قال : فنزلت : (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم) .

ثم قال : لا نعلم أحداً أسنده إلا النضر بن شميل ، عن يونس بن أبي إسحاق . ثم رواه من حديث الثوري عن [أبي] أبي إسحاق(١) عن زيد بن يُثَيْع مرسلا ، فالله أعلم .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا مسلم بن أبي مسلم الجرمي ، حدثنا مخلد بن الحسين ، عن هشام ، عن ابن سيرين ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لأول لعان كان في الإسلام أن شريكَ بن سحماء قَذَفه هلال بن أمية بامرأته ، فرفعه(٢) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أربعة شهود وإلا فحدٌ في ظهرك ، فقال : يارسول الله ، إن الله يعلم إني لصادق ، ولينزلن الله عليك ما يبرىء به ظهري من الجلد ، فأنزل الله آية اللعان : (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم) ، إلى آخر الآية ، قال : فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : اشهد بالله إنك لمن الصادقين فيما رميتها به من الزنا ، فشهد بذلك أربع شهادات ، ثم قال له في الخامسة : ولعنة الله عليك إن كنتَ من الكاذبين فيما رميتها به من الزنا ، ففعل ، ثم دعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : قومى فاشهدى بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماك به من الزنا ، فشهدت بذلك أربع شهادات ، ثم قال لها في الخامسة : وغَضَبُ الله عليك إن كان من الصادقين فيما رماك به من الزنا ، فقالت ، فلما كانت الرابعة أو الخامسة سكتت سكتة ، حتى ظنوا أنها ستعترف ، ثم قالت : لا أفضح قومي سائر اليوم ، فمضت على القول ، ففرّق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما ، وقال : انظروه ، فان جاءت به جَعْداً حَمْشَ الساقين فهو لشريك بن سحماء ، وإن جاءت به أبيض سبطا قَضىء(٣) العينين فهو لهلال بن أمية ، فجاءت به آدَمَ جَعْداً حَمْشَ الساقين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لولا ما نزل فيهما من كتاب الله لكان لي ولها شأن .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

هذه العشر الآيات كلها نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية التي غار الله تعالى لها ولنبيه — صلوات الله وسلامه عليه — فأنزل براءتها صيانة لعرض الرسول — عليه أفضل الصلاة والسلام — فقال : (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة) ، أي : جماعة منكم ، يعني ما هو

---

(١) في المخطوطة : « عن أبي إسحاق » . انظر ترجمة يونس بن أبي إسحاق في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٤/٢/٢٤٣-٢٤٤

(٢) في المخطوطة : « فرفعته » . ولعل الصواب ما أثبتناه ، يعني أن هلالا رفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٣) في المخطوطة : « فان جاءت به سبطاً قصير قصى العينين » . وفي النهاية : « سبطا » ، أي : ممتد الأعضاء تام الخلق . وقضيء — بفتح القاف ، وكسر الضاد ، بعدها ياء ، فهمزة — : فاسد العين .

واحد ولا اثنان بل جماعة، فكان المقدّم فى هذه اللعنة عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين، فانه كان يجمعه ويستوشيه، حتى دخل ذلك فى أذهان بعض المسلمين، فتكلموا به، وجوّزه آخرون منهم، وبقى الأمر كذلك قريباً من شهر، حتى نزل القرآن، وسياق ذلك فى الأحاديث الصحيحة.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهرى قال: أخبرنى سعيد بن المسيب، وعروة ابن الزبير، وعلقمة بن وقاص، وعُبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن حديث عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله، وكلّهم قد حدثنى بطائفة من حديثها، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت اقتصاصاً، وقد وعيت عن كل واحد منهم الحديث الذى حدثنى، وبعض حديثهم يصدق بعضاً: ذكروا أن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج سفَراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا فى غزوة غزاها، فخرج فيها سهمى، وخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك بعدما أنزل الحجابُ، فأنا أحْمَل فى هَودَجِى وأنزل فيه مسيرنا(١)، حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوه وقفل ودنونا من المدينة، آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى الرحل فلمست صدرى، فاذا عِقْد من جَزْع ظَفار(٢) قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدى، فحبَسَنى(٣) ابتغاؤه. وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بى فحملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب، وهم يحسبون أنى فيه ــ قالت: وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يُهَبِّلْهُنّ(٤) ولم يغشهن اللحمُ، إنما يأكلن العُلْقة(٥) من الطعام، فلم يستنكر القوم ثِقَل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدت عقدى بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت(٦) منزلى الذى كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدونى فيرجعون إلىّ. فبينا أنا جالسة فى منزلى، غلبتنى عينى فنمت ــ وكان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذّكْوانى قد عرّس من وراء الجيش، فادّلج(٧) فأصبح عند منزلى، فرأى سواد إنسان نائم، فأتانى فعرفنى حين رآنى. وقد كان يرانى قبل أن يُضْرَبَ علىّ الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه(٨) حين عرفنى، فخمّرت وجهى بجلبابى، والله ما كلمنى كلمة، ولا سمعت منه كلمة غيرَ استرجاعه، حتى(٩) أناخ راحلته، فوَطىء على يَدها فركبتُها، فانطلق يقودُ بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا مُوغرين(١٠) فى نحر الظهيرة. فهلك من هلك فى شأنى،

---

(١) فى المخطوطة: «قسرنا»، والمثبت من المسند.
(٢) الجزع: الخرز. وظفار ــ بفتح الظاء ــ: مدينة لحمير باليمن.
(٣) فى المسند: «فاحتبسنى».
(٤) أى: لم يكثر عليهن.
(٥) العلقة ــ بضم فسكون ــ: الشيء اليسير.
(٦) فى المسند: «فيممت».
(٧) الادلاج: السير من آخر الليل.
(٨) الاسترجاع أن يقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون».
(٩) فى المخطوطة: «حين أناخ». والمثبت من المسند.
(١٠) أى: فى وقت الهاجرة، وقت توسط الشمس السماء. يقال: وغرت الهاجرة وغرا، وأوغر الرجل: دخل فى ذلك الوقت.

وكان الذى تولى كبْره عبد الله بن أبى بن سلول . فقَدمتُ المدينة فاشتكيت حين قدمنا شهرا ، والناس يُفيضون فى قول أهل الإفك ، ولا أشعر بشيء من ذلك ، وهو يَريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللُّطف (١) الذى كنت أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم ، ثم يقول : كيف تيكُم ؟ فذلك يَريبنى ولا أشعر بالشر ، حتى خرجت بعد مانقِهتُ (٢) وخَرَجَتْ معى أم مِسْطح قبل المناصع — وهو مُتَبرَّزُنا — ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل ، وذلك قبل أن نتّخذ الكُنُف قريبا من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول فى التنزه (٣) ، وكنا نتأذى بالكُنُف أن نتخذها فى بيوتنا . فانطلقت أنا وأم مسْطح — وهى ابنة أبى رُهْم ابن المطلب بن عبد مناف ، وأمها ابنة صخر بن عامر ، خالة أبى بكر الصديق ، وابنها مسْطح بن أثاثة بن عَبّاد ابن المطلب(٤) — فأقبلت أنا وابنة أبى رهم قِبَلَ بيتى حين فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مِسْطح فى مِرْطها (٥) ، فقالت : « تَعس مِسْطح » . فقلت لها : بئسما قلت . تسبين رجلا شهد بدرا ؟. قالت : أىْ هَنْتَاه (٦) ؛ ألم تسمعى ما قال ؟ قلت : وماذا قال ؟ فأخبرتنى بقول أهل الإفك ، فازددتُ مرضًا إلى مرضى فلما رجعتُ إلى بيتى فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ، ثم قال : كيف تيكُم ؟ قلت : أتأذن لى أن آتى أبوىّ ؟ — قالت : وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قِبَلهما — فأذِنَ لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجئت أبوى فقلت لأمى : يا أمَّتاه ، ما يتحدث الناس ؟ فقالت : أىْ بُنَيّة ، هَوّنى عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قَطّ وضيئة ، عند رجل يحبها ، ولها ضرائر ، إلا أكثرن عليها . قالت : فقلتُ : سبحان الله . أوقد تحدث (٧) الناس بهذا ؟ قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت ، لا يرقأ (٨) لى دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكى . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عَليًا ، وأسامة بن زيد حين استلبث(٩) الوحىُ ، يستشيرهما فى فراق أهله ، قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذى يعلم من براءة أهله ، وبالذى يعلم فى نفسه لهم من الود ، فقال : يا رسول الله ، هم أهلك ، ولا نعلم إلا خيرا . وأما على ابن أبى طالب فقال : لم يُضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدقْك الخبر (١٠) . قالت : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بَريرة ، فقال : أىْ بَريرة ، هل رأيت من شىءٍ يَريبك من عائشة ؟ فقالت له بريرة : والذى بعثك بالحق ، إنْ رأيت عليها أمرا قَطّ أغْمصه (١١) عليها ، أكثر من أنها جارية حديثة السن ، تنام عن عجين أهلها ، فتأتى الداجن (١٢) فتأكله . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستعذر من عبد الله بن أبى بن سَلُول قالت : فقال رسول

(١) اللطف — بفتح اللام والطاء ، وبضم فسكون — : الرفق والبر .
(٢) أى : برأت وأفقت .
(٣) أى : التباعد ، تريد أنهم كانوا يقضون الحاجة فى مكان بعيد .
(٤) فى المخطوطة : « عباد بن عبد المطلب » . والصواب عن المسند ، وأسد الغابة : ٥/١٥٦ .
(٥) المرط — بكسر فسكون — : الكساء .
(٦) أى : يا هذه . وقيل : المعنى يا بلهاء ، تنسبها إلى قلة المعرفة ، وقال الجوهرى : هذه اللفظة مختصة بالنداء .
(٧) فى المخطوطة : « أوقد تحدث الناس بها » . والمثبت عن المسند .
(٨) أى : لا ينقطع .
(٩) أى : أبطأ وتأخر .
(١٠) كلمة « الخبر » غير ثابتة فى المسند .
(١١) أى : أعيبها به ، وأطعن به عليها .
(١٢) الداجن : الشاة التى يعلفها الناس فى منازلهم .

الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر : يا معشر المسلمين ، مَنْ يعذرني(١) من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي ، فو الله ما علمت على أهلي إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلي إلا معي ، فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال : أنا أعذرك منه يا رسول الله ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا [من] الخزرج ، أمرتنا ففعلنا أمرك ، قالت : فقام سعد بن عبادة ــ وهو سيد الخزرج ، وكان رجلا صالحا، ولكن احتملته الحميّة (٢) ــ فقال لسعد بن معاذ : لعمر الله لا تقتله ، ولا تقدر على قتله ، فقام أُسَيد بن حُضير ــ وهو ابن عم سعد ابن معاذ ــ فقال لسعد بن عبادة : كذبت ! لعمر الله لنقتلنه ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين ، فتثاور(٣) الحيان الأوس والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم [قائم على المنبر ، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤)] يُخفّضهم حتى سكتوا وسكت رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : وبكيت يومي ذلك ، لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم ، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي ، قالت : فبينا هما جالسان عندي وأنا أبكي ، استأذنت عليّ امرأة من الأنصار ، فأذنتُ لها ، فجلست تبكي معي ، فبينا نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم جلس ــ قالت : ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل ، وقد لبث شهراً لا يُوحَى إليه في شأني شيء ــ قالت : فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ، ثم قال : أما بعد يا عائشة ، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنتِ ألممْتِ بذنب فاستغفري الله ثم توبي إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب ، تاب الله عليه ، قالت : فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قَلَص (٥) دمعي ، حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبي : أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : والله ما أدري ما أقول للرسول ، فقلت لأمي : أجيبي [عني] رسول الله قالت : والله ماأدري ما أقول لرسول الله ، قالت : فقلت ، وأنا جارية حديثة السن ، لا أحفظ(٦) كثيرا من القرآن : والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا ، حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به ، ولئن قلت لكم إني بريئة ــ والله يعلم إني بريئة ــ لا تصدقوني [بذلك ، ولئن اعترفتُ لكم بأمر والله عز وجل يعلم أني بريئة تصدقوني(٧)] وإني والله ما أجد لي ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف : (فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون) ، قالت : ثم تحولت فاضطجعت على فراشي ، قالت : وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة ، وأن الله مُبَرّئي ببراءتي ، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى ، ولشأني كان أحقرَ في نفسي من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يُتلَى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرّئني الله بها ، قالت : فو الله ما رام (٨) رسول الله صلى الله عليه وسلم [من] مجلسه ، ولا خرج من أهل البيت أحد ، حتى أنزل الله على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء(٩) عند الوحي ، حتى إنه ليتحدّر منه مثل

(١) أي : من يقوم بعذري إذا كافأته بسوء صنيعه ؟ .
(٢) أي : حملته الأنفة والغضب على الجهل ، ويروى : « اجتهلته الحمية » .
(٣) في المسند : « فثار الحيان » .
(٤) ما بين القوسين عن المسند .
(٥) أي : ارتفع وذهب .
(٦) كذا في المخطوطة ، وفي المسند : « لا أقرأ » .
(٧) ما بين القوسين عن المسند .
(٨) رام يريم : برح .
(٩) البرحاء : شدة الكرب من ثقل الوحي .

الجُمَان)(١) من العرق في اليوم الشاتي، من ثقل القول الذي أنزل عليه . قالت فلما سُرِّيَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك ، كان أول كلمة تكلم بها أن قال : أبشري يا عائشة ، أما الله فقد برّأك . فقالت لي أمي : قومي إليه . فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل ، هو الذي أنزل براءتي ، وأنزل الله عز وجل : (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) ، عشر آيات ، فأنزل الله هذه الآيات براءتي . قالت : فقال أبو بكر رضي الله عنه ، وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره : والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة . فأنزل الله عز وجل : (ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة) إلى قوله : (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) ، فقال أبو بكر : والله إني لأحب أن يغفر الله لي . فرَجَعَ إلى مسطح النفقةَ التي كان ينفق عليه . وقال : لا أنزعها منه أبداً .

قالت عائشة : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل زينبَ بنت جحش — زوجَ النبي صلى الله عليه وسلم — عن أمري (٢) : يا زينب ، ما علمت ، أو : ما رأيت ؟ فقالت : يا رسول الله ، أحمي سمعي وبصري ، والله ما علمتُ إلا خيراً . قالت عائشة : وهي التي كانت تُسَامِيني (٣) من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، فعصمها الله تعالى بالورع ، وطَفِقَت أختها حَمنة بنت جحش تُحارب لها ، فهلكت فيمن هلك .

قال ابن شهاب : فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط (٤) .

أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما ، من حديث الزهري (٥) : وهكذا رواه ابن إسحاق ، عن الزهري كذلك ، قال : وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه ، عن عائشة — وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم الأنصاري ، عن عمرة ، عن عائشة بنحو ما تقدم ، والله أعلم (٦) .

ثم قال البخاري : وقال أبو أسامة ، عن هشام بن عروة قال : أخبرني أبي ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : لما ذُكِرَ من شأني الذي ذُكِر وما عَلِمتُ به ، قام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فيَّ خطيبا ، فتشهد فحَمِدَ الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ، أشيروا عَلَيَّ في أناس أبَنُوا(٧) أهلي ، وايمُ الله ما علمت على أهلي من سوء ، وأبَنُوهم بمَن والله ما علمتُ عليه من سوء قطُّ ، ولا يدخل بيتي قط إلا وأنا حاضر ، ولا غبت في سفر إلا غاب معي . فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال : ائذن يا رسول الله أن نضرب أعناقهم . فقام رجل من الخزرج — وكانت أمّ حسان [بن ثابت] من رهط ذلك الرجل ، فقال : كذبتَ ، أما والله لو كانوا من الأوس ما أحببتَ أن تُضرَبَ أعناقهم .

---

(١) الجمان : اللؤلؤ .

(٢) لفظ المسند : « عن أمري : وما علمت ، أو ما رأيت ، أو ما بلغك » .

(٣) أي : تعاليني وتفاخرني .

(٤) مسند الإمام أحمد : ١٩٤/٦ — ١٩٧ .

(٥) البخاري ، كتاب الشهادات ، باب « تعديل النساء بعضهن بعضاً » : ٢٢٧/٣ — ٢٣١ . وتفسير سورة يوسف : ٩٥/٦ — ٩٦ ، وتفسير سورة النور : ١٢٧/٦ — ١٣٢ وكتاب الإيمان ، باب « اليمين فيما لا يملك وفي المعصية وفي الغضب » : ١٧٢/٨ ، وكتاب التوحيد : ١٧٦/٩ ، ١٧٧ . ومسلم كتاب التوبة ، باب « في حديث الإفك وقبول توبة القاذف » : ١١٢/٨ — ١١٨ .

(٦) سيرة ابن هشام ، في خبر غزوة بني المصطلق : ٢٩٧/٢ — ٣٠٧ .

(٧) أي : اتهموها .

حتى كاد أن يكون بين الأوس والخزرج شرّ فى المسجد ، وما علمتُ . فلما كان مساء ذلك اليوم ، خرجت لبعض حاجتى ومعى أم مسطح ، فعثَرتْ فقالت : تَعِس مسطح . فقلت : أىْ أمّ ، أتسبين ابنك ؟ وسكتت ، ثم عثَرت الثانية فقالت : تَعِس مسطح : فقلت لها : أىْ أمّ ، تسبين ابنك ؟ ثم عثَرت الثالثة فقالت : تَعِس مسْطح . فانتهرتها فقالت : والله ما أسبه إلا فيك ، فقلت : فى أىّ شأنى ؟ قالت : فبَقَرت (١) لى الحديث . فقلت : وقد كان هذا ؟ قالت : نعم ، والله ؛ فرجعتُ إلى بيتى كأن الذى خرجت له لا أجد منه قليلا ولا كثيراً ، ووُعِكت ، وقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسلنى إلى بيت أبى ؛ فأرسل معى الغلام ، فدخلتُ الدار ، فوجدت أم رومان فى السّفل ، وأبا بكر فوقَ البيت يقرأ ، فقالت أمى : ماجاء بك يا بنية ؟ فأخبرتها ، وذكرتُ لها الحديثَ ، وإذا هو لم يبلغ منها [مثل] ما بلغ منى ، [فقالت : يا بنية ، خفّفى عليك الشأن ، فانه ــ والله ــ لقلّما كانت امرأة حسناء ، عند رجل يحبها ، لها ضرائر إلا حسَدْنها ، وقيل فيها . فقلت : وقد علم به أبى ؟ قالت : نعم . قلت : ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : نعم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم] (٢) ، فاستَعْبَرْتُ (٣) وبكيت ، فسمِعَ أبو بكر صوتى ، وهو فوق البيت يقرأ ، فنزل فقال لأمى : ما شأنها ؟ قالت : بلغها الذى ذُكر من شأنها . ففاضت عيناه وقال : أقسمت عليك ــ أىْ بُنَيّة ــ إلا رجعت إلى بيتك . فرَجعتُ ، ولقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بيتى ، فسأل عنى خادمى ، فقالت : لا ، والله ما علمت عليها عيبا ، إلا أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خميرها أو : عجينها ــ وانتهرها بعض أصحابه فقال : اصدُقِى رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم ، حتى أسقطوا (٤) لها به ، فقالت : سبحان الله ؛ والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر . وبلغ الأمر ذلك الرجلَ الذى قيل (٥) له ، فقال : سبحان الله . والله ما كشفتُ كنَف (٦) أنثى قط ــ قالت عائشة : فقتل شهيدا فى سبيل (٧) الله ــ قالت : وأصبح أبواى عندى ، فلم يزالا حتى دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صلّى العصر ، ثم دخل وقد اكتنفنى أبواى عن يمينى وعن شمالى ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد يا عائشة ، إن كنت قارفت سُوءاً أو ظلَمت فتوبى إلى الله ، فان الله يقبل التوبة عن عباده ــ قالت : وقد جاءت امرأة من الأنصار ، فهى جالسة بالباب ــ فقلت : ألا تستحى من هذه المرأة أن تذكر شيئاً ؟. فوَعَظَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فالتفتّ إلى أبى ، فقلت له أجِبْه : قال : فماذا أقول ؟ فالتفتُ إلى أمى فقلت : أجيبيه . قالت : أقول ماذا ؟ فلما لم يجيباه ، تَشَهّدت فحمدتُ الله وأثنيت عليه بما هو أهله ، ثم قلت : أما بعد ، فوَالله لئن قلت لكم إنى لم أفعل ــ والله عز وجل يشهد إنى لصادقة ــ ماذاك بنافعى عندكم ، لقد تكلمتم به ، وأُشْرِبته قلوبكم ، وإن قلت : إنى قد فعلت ــ والله يعلم أنى لم أفعل ــ لتقولُنّ :

(١) أى : فتحته وكشفته .

(٢) ما بين القوسين عن البخارى ، وقد سقط من مخطوطة الأزهر .

(٣) استعبرت ، من العبرة ، وهى : تحلب الدمع .

(٤) أى : سبوها ، وقالوا لها من سقط الكلام ، وهو رديئه ، بسبب حديث الإفك .

(٥) أى : صفوان بن المعطل .

(٦) الكنف ــ بفتحتين ــ : الجانب والناحية . والكنف ــ بكسر فسكون ــ : الوعاء . وقد جوز ابن الأثير فى النهاية الضبطين .

(٧) انظر خبر صفوان فى أسد الغابة : ٣/٣٠ ــ ٣١ بتحقيقنا .

قد باءت به على نفسها ، وإنى — والله — ما أجد لى ولكم مثلا — والتمستُ اسم يعقوب فلم أقدر عليه — إلا أبا يوسف حين قال : (فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون) ، وأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من ساعته ، فسكتنا ، فَرُفع عنه وإنى لأتبين السرور فى وجهه ، وهو يمسح جبينه ويقول : أبشرى يا عائشة ، فقد أنزل الله براءتك . قالت : وكنت أشد ما كنتُ غضباً ، فقال لى أبواى : قومى [إليه] . فقلت : لا ، والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولا أحمدكما ، ولكن أحمد الله الذى أنزل براءتى ، لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيّرتموه ، وكانت عائشة تقول : أما زينب بنت جحش فقد عصمها الله بدينها ، فلم تقل إلا خيراً ، وأما أختها حَمنة بنت جحش ، فهلكت فيمن هلك . وكان الذى يتكلم به مسطح وحسان بن ثابت . وأما المنافق (١) عبد الله بن أبى بن سلول فَهو الذى [كان] يستوشيه ويجمعه ، وهو الذى تولى كبْرَه منهم هو وحمنة . قالت : وحلف أبو بكر أن لا ينفع مسطحا بنافعة أبداً ، فأنزل الله : (ولا يأتل أولو الفضل منكم) ، إلى آخر الآية ، يعنى أبا بكر ، (والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين) ، يعنى مسطحا ، إلى قوله : (ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) . فقال أبو بكر : بلى والله يا ربَّنا ، إنا لنُحبّ أن تغفر لنا . وعاد له بما كان يصنع .

هكذا رواه البخارى من هذا (٢) الوجه مُعَلَّقًا بصيغة الجزم ، عن أبى أسامة حماد بن أسامة [أحد الأئمة الثقات . وقد رواه ابن جرير فى تفسيره عن سفيان بن وكيع ، عن أبى أسامة] به مطولا ، مثله أو نحوه (٣) . ورواه ابن أبى حاتم عن أبى سعيد الأشج ، عن أبى أسامة ببعضه .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا هُشَيم (٤) ، أخبرنا عمر بن أبى سلمة ، عن أبيه ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما نزل عُذْرى من السماء ، جاءنى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبرنى بذلك ، فقلت : نَحمدُ الله لا نَحمدُك (٥) .

وقال الإمام أحمد : حدثنى ابن أبى عدى ، عن محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن أبى بكر ، عن عَمْرَةَ ، عن عائشة قالت : لما نزل عُذْرى قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك ، وتلا القرآن ، فلما نزل أمَرَ برجلين وامرأة فَضُربوا حدهم (٦) .

وأخرجه أهل السنن الأربعة ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن (٧) » : ووقع عند أبى داود تسميتهم : حسان ابن ثابت ، ومسطح بن أثاثة ، وحمنة بنت جحش .

فهذه طرق متعددة عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، فى المسانيد والصحاح والسنن وغيرها .

---

(١) لفظ الصحيح : « وحسان بن ثابت ، والمنافق عبد الله بن أبى ، وهو الذى ... » .

(٢) البخارى ، تفسير سورة النور : ٦/١٣٤ — ١٣٦ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٨/٧٤ — ٧٦ .

(٤) فى المسند : « حدثنا هشيم قال : أنا منصور ، عن عبد الرحمن بن عمر بن أبى سلمة ، عن أبيه » . والصواب ما فى تفسير ابن كثير . وهشيم هو ابن بشير يروى عن عمر بن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، الذى يروى عن ابيه .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٦/٣٠ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٦/٣٥ .

(٧) سنن أبى داود ، كتاب الحدود ، باب « حد القذف » ، الحديث ٤٤٧٤ : ٤/١٦٢ . وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة النور ، الحديث ٣٢٣١ : ٩/٣٧ . وابن ماجه ، كتاب الحدود ، باب « حد القذف ، الحديث ٢٥٦٧ : ٢/٨٥٧ .

وقد رُوى من حديث أمها أمّ رومان ــ رضى الله عنها ــ فقال الإمام أحمد : حدثنا على بن عاصم ، أخبرنا حُصَيْن ، عن أبى وائل ، عن مسروق ، عن أم رومان قالت : بينا أنا عند عائشة ، إذ دخلت عليها امرأة من الأنصار فقالت : فعل الله ــ بابنها ــ وفعل . فقالت عائشة : ولم ؟ قالت : إنه كان فيمن حدّث الحديث . قالت عائشة : وأىّ حديث ؟ قالت : كذا وكذا . قالت : وقد بلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : نعم ، وبلغ أبا بكر ؟ قالت : نعم، فخرت عائشة رضى الله عنها مغشيا عليها، فما أفاقت إلا وعليها حمى بنافض(١) . قالت: فقمت فدثّرتها ، قالت : وجاء النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ما شأن هذه ؟ قلت : يا رسول الله ، أخذتها حمى بنافض . قال : فلعله فى حديث تُحدِّث به ؟ قالت : فاستوت [له] عائشة قاعدة فقالت : والله لئن حلفت لكم لا تصدقونى ، ولئن اعتذرت إليكم لا تَعذرونى ، فمثلى ومثلكم كمثل يعقوب وبنيه (والله المستعان على ما تصفون) . قالت: وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله عُذرها ، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر ، [فدخل فقال : يا عائشة ، إن الله تعالى قد أنزل عذرك : فقالت : بحمد الله لا بحمدك . فقال لها أبو بكر : تقولين هذا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟. قالت : نعم . قالت : فكان فيمن حدث هذا الحديث رجل كان يعوله أبو بكر](٢) فحلف أبو بكر أن لا يصله ، فأنزل الله : (ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة) ... إلى آخر الآية ، قال أبو بكر : بلى . فوصله (٣) .

تفرد به البخارى دون مسلم ، من طريق حصين (٤) . وقد رواه البخارى عن موسى بن إسماعيل ، عن أبى عوانة ــ وعن محمد بن سلام ، عن محمد بن فضيل ــ كلاهما عن حصين ، به . وفى لفظ أبى عوانة : « حدثتنى أم رومان (٥) » . وهذا صريح فى سماع مسروق منها ، وقد أنكر ذلك جماعة من الحفاظ ، منهم الخطيب البغدادى ، وذلك لما ذكره أهل التاريخ أنها ماتت فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم ، قال الخطيب : « وقد كان مسروق يرسله فيقول : « سئلت أم رومان » ، ويسوقه ، فلعل بعضهم كتب « سُئِلت » بألف ، فاعتقد الراوى أنها « سألت » ، فظنه متصلا » قال الخطيب : « وقد رواه البخارى كذلك ، ولم تظهر له علته » . كذا قال ، والله أعلم .

فقوله : (إن الذين جاءوا بالإفك) ، أى : بالكذب والبهت والافتراء ، (عصبة) ، أى : جماعة منكم ، (لا تحسبوه شرا لكم) ، أى : يا آل أبى بكر ، (بل هو خير لكم) ، أى : فى الدنيا والآخرة ، لسان صدق فى الدنيا ، ورفعة منازل فى الآخرة ، وإظهار شرف لهم باعتناء الله بعائشة أم المؤمنين ، حيث أنزل الله تعالى براءتها فى القرآن العظيم الذى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) (٦) ولهذا لما دخل عليها ابن عباس رضى

---

(١) أى : برعدة شديدة ، كأنها نفضتها ، أى : حركتها .
(٢) ما بين القوسين عن المسند .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٣٦٧/٦ ، ٣٦٨ .
(٤) البخارى ، تفسير سورة النور : ١٣٢/٦ .
(٥) انظر رواية البخارى عن موسى بن إسماعيل فى كتاب المغازى ، باب « حديث الإفك » : ١٥٤/٥ ، وروايته عن محمد ابن سلام فى كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : (لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين) : ١٨٣/٤ .
(٦) سورة فصلت ، آية : ٤٢ .

الله عنه ، وهي في سياق الموت ، قال لها : أبشري ، فانك زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يحبك ، ولم يتزوج بكراً غيرك ، وأنزل براءتك من السماء (١) .

وقال ابن جرير في تفسيره : حدثني محمد بن عثمان الواسطي ، حدثنا جعفر بن عون ، عن المعلى بن عرفان ، عن محمد بن عبد الله بن جَحْش قال : تفاخَرَت عائشةُ وزينبُ رضي الله عنهما ، فقالت زينب : أنا التي نزل تزويجي [من السماء] ، قال : وقالت عائشة : أنا التي نزل عُذري في كتابه ، حين حملني ابن المعطل على الراحلة ، فقالت لها زينب : يا عائشة ما قلت حين ركبتيها ؟ قالت : قلت : حسبي الله ونعم الوكيل . قالت : قلت كلمة المؤمنين (٢) .

وقوله : (لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم) ، أي : لكل من تكلم في هذه القضية ورَمَى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بشيءٌ من الفاحشة ، نصيبٌ عظيم من العذاب .

(والذي تولى كبره) ، قيل : ابتدأ به ، وقيل : الذي كان يجمعه ويستوشيه ويذيعه ويشيعه ، (له عذاب عظيم) ، أي : على ذلك .

ثم الأكثرون على أن المراد بذلك إنما هو عبد الله بن أبي بن سَلُول — قبحه الله ولعنه — وهو الذي تقدم النص عليه في الحديث ، وقال ذلك مجاهد وغير واحد .

وقيل : بل المراد به حسان بن ثابت . وهو قول غريب ، ولولا أنه وقع في صحيح البخاري ما قد يدل على ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة (٣) ، فانه من الصحابة الذين كان لهم فضائل ومناقب ومآثر ، وأحسن محاسنه أنه كان يَذُبّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : هاجهم وجبريل معك .

وقال الأعمش ، عن أبي الضحى ، عن مسروق قال : كنتُ عندَ عائشة — رضي الله عنها — فدخل حسان بن ثابت ، فأمرت فألقى له وسادة ، فلما خرج قلت لعائشة : ما تصنعين بهذا ؟ يعني يدخل عليك — وفي رواية قيل لها : أتأذنين لهذا يدخل عليك ، وقد قال الله (والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم) ؟ قالت : وأيّ عذاب أشدّ من العمى — وكان قد ذهب بصره — لعل الله أن يجعل ذلك هو العذاب العظيم : ثم قالت : إنه كان يُنافحُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي رواية أنه أنشدها عند ما دخل عليها [شعراً] يمتدحها به ، فقال (٤) :

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنّ بريبة وتُصْبح غَرْثَى من لحُوم الغَوافل (٥)

فقالت : أما أنت فلست كذلك . وفي رواية : لكنك لست كذلك (٦) .

---

(١) البخاري تفسير سورة النور : ٦/١٣٢ ، ١٣٣ .

(٢) تفسير الطبري : ١٨/٧٠ .

(٣) انظر البخاري ، كتاب المغازي ، باب « حديث الإفك » : ٥/١٥٥ .

(٤) ديوانه ، ط بيروت : ١٨٨ .

(٥) الحصان : العفيفة . والرزان : ذات الثبات والوقار . تزن : تتهم . غرثى : جائعة . الغوافل : جمع غافلة . يعني أنها لا ترتع في أعراض الناس .

(٦) انظر تفسير الطبري : ١٨/٧٠ . والمرجع المتقدم من البخاري .

وقال ابن جرير : حدثنا الحسن بن قزعة ، حدثنا سلمة بن علقمة ، حدثنا داود ، عن عامر : عن عائشة أنها قالت : ما سمعت بشيء أحسن من شعر حسان ، ولا تمثلت به إلا رجوت له الجنة ، قوله لأبي سفيان ، يعني (١) ابن [الحارث] ابن عبد المطلب :

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا ، فَأَجَبْتُ عنه ... وَعِندَ الله في ذاكَ الجَزَاءُ
فَإِنَّ أَبي وَوَالِدَه وعِرْضِي ... لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ منكم وِقاءُ
أَتَشْتُمُه ، ولسْتَ لَه بِكُفْءٍ ؟ ... فَشَرُّكُما لِخَيْرِكُما الفِدَاءُ
لِسَاني صارِمٌ لا عَيْبَ فيه ... وَبَحْرِي لا تُكَدِّرُه الدِّلاءُ

فقيل : يا أم المؤمنين ، أليس هذا لغوا ؟ قالت : لا ، إنما اللغو ما قيل عند النساء ، قيل : أليس الله يقول : (والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم) ، قالت : أليس قد أصابه [عذاب] عظيم ؟ [أليس] قد ذهب بصره وكُنِّع (٢) بالسيف (٣) ؟ تعنى الضربة التي ضربه إياها صفوان بن المعطل ، حين بلغه عنه أنه يتكلم في ذلك ، فعلاه بالسيف ، وكاد أن يقتله .

لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾

هذا تأديب من الله للمؤمنين في قضية عائشة ــ رضي الله عنها ــ حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السيئ ، وما ذكر من شأن الإفك ، فقال : (لولا) ، يعني هلاّ (إذ سمعتموه) ، أي : ذلك الكلام ، أي : الذي رميت به أم المؤمنين (ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا) ، أي قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم ، فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى .

وقد قيل : إنها نزلت في أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري وامرأته رضي الله عنهما ، كما قال الإمام محمد بن إسحاق ابن يسار ، عن أبيه ، عن بعض رجال بني النجار : أن أبا أيوب خالدَ بن زيد قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب ، أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها ؟ قال : نعم ، وذلك الكذب ، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا ، والله ما كنت لأفعله . قال : فعائشة والله خير منك . قال : فلما نزل القرآن ذكر الله عز وجل من قال في الفاحشة ما قال من أهل الإفك : (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) ، وذلك حسان وأصحابه ، الذين قالوا ما قالوا ، ثم قال : (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون) ... الآية ، أي : كما قال أبو أيوب وصاحبته (٤) .

---

(١) في مخطوطة الأزهر : « لأبي سفيان ، يعني ابن حرب بن عبد المطلب » ، وهو خطأ ، والصواب من الطبعات السابقة . وانظر ترجمة أبي سفيان في الكنى من أسد الغابة : ٢١٣/٥ ، ط الوهبية .

(٢) كنعه بالسيف : أيبس جلده فرقاً وخوفاً وهلعاً .

(٣) تفسير الطبري : ٦٩/١٨ ، ٧٠ . وانظر أبيات حسان في ديوانه : ٩ .

(٤) تفسير الطبري : ٧٧/١٨ . وسيرة ابن هشام : ٣٠٢/٢ .

وقال محمد بن عمر الواقدى : حدثنى ابن أبى حبيبة (١) ، عن داود بن الحصين ، عن أبى سفيان ، عن أفلح مولى أبى أيوب ، أن أم أيوب قالت لأبى أيوب : ألا تسمع ما يقول الناس فى عائشة ؟ قال : بلى ، وذلك الكذب ، أفكنت يا أم أيوب [فاعلة ذلك] ؟ قالت : لا ، والله : قال : فعائشة والله خير منك : فلما نزل القرآن ، وذكر أهل الإفك ، قال الله عز وجل : (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين) ، يعنى أبا أيوب حين قال لأم أيوب ما قال .

ويقال : إنما قالها أبى بن كعب .

وقوله : (ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً) ، أى : هلاّ ظنوا الخير ، فإن أم المؤمنين أهلُه وأولى به ، هذا ما يتعلق بالباطن ، (وقالوا) ، أى : بألسنتهم : (هذا إفك مبين) ، أى : كذب ظاهر على أم المؤمنين ، فإن الذى وقع لم يكن ريبة ، وذلك أن مجىء أم المؤمنين راكبة جَهْرَةً على راحلة صفوان بن المعطل فى وقت الظهيرة ، والجيش بكماله يشاهدون ذلك ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم ، لو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جَهْرَة ، ولا كانا يُقدمان على مثل ذلك على رءوس الأشهاد ، بل كان يكون هذا — لو قُدِّر — خفية مستورا ، فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رَمَوْا به أم المؤمنين هو الكذب البحت ، والقول الزور ، والرُّعُونة الفاحشة [الفاجرة] ، والصفقة الخاسرة .

قال الله تعالى : (لولا) ، أى : هلا (جاءوا عليه) ، أى : على ما قالوه (بأربعة شهداء) يشهدون على صحة ما جاءوا به ، (فإذ لم يأتوا بالشهداء ، فأولئك عند الله هم الكاذبون) أى : فى حكم الله كَذَبَةٌ فاجرون .

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

يقول : (ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة) أيها الخائضون فى شأن عائشة ، بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه فى الدنيا ، وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة ، (لمسكم فيما أفضتم فيه) ، من قضية الإفك ، (عذاب عظيم) . وهذا فيمن عنده إيمان رزقه الله بسببه التوبة إليه ، كمسطح ، وحسان ، وحَمْنَةَ بنت جحش ، أخت زينبَ بنت جحش . فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبى بن سلول وأضرابه ، فليس أولئك مرادين فى هذه الآية ، لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه . وهكذا شأن مايرد من الوعيد على فعل معين ، يكون مطلقاً مشروطاً بعدم التوبة ، أو ما يقابله من عَمَل صالح يوازنُه أو يَرْجَح عليه .

ثم قال تعالى : (إذ تَلَقَّوْنَه بألسنتكم) ، قال مجاهد ، وسعيد بن جبير : أى يرويه بعضكم عن بعض ، يقول هذا : سمعته من فلان ، وقال فلان كذا ، وذكر بعضهم كذا .

---

(١) فى المخطوطة : « ابن أبى حبيب » . وهو خطأ ، والصواب ماأثبتناه ، وهو : إبراهيم بن إسماعيل بن أبى حبيبة الأنصارى الأشهلى أبو إسماعيل المدنى . يروى عن داود بن الحصين ، وعنه الواقدى . انظر التهذيب : ١/١٠٤ .

وقرأ آخرون (إذ تَلِقُونه بألسنتكم) . وفى صحيح البخارى عن عائشة : أنها كانت تقرؤها كذلك(١) . وتقول : هو من وَلْق القول ، يعنى الكذب الذى يستمر صاحبه عليه ، تقول العرب : وَلَق فلانٌ فى السير : إذا استمر فيه(٢) . والقراءة الأولى أشهر ، وعليها الجمهور ، ولكن الثانية مَرْوِيّة عن أم المؤمنين عائشة .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة ، عن نافع بن عمر (٣) ، عن ابن أبى مليكة [عن عائشة أنها كانت تقرأ : (إذ تَلِقُونَه) ، وتقول : إنما هو وَلْق القول ــ والوَلْق : الكذب . قال ابن أبى مليكة (٤)] : هى أعلم به من غيرها .

وقوله : (وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم) ، أى : تقولون مالا تعلمون .

ثم قال تعالى : (وتحسبونه هيناً ، وهو عند الله عظيم) ، أى : تقولون ما تقولون فى شأن أم المؤمنين ، وتحسبون ذلك يسيرا ، ولو لم تكن زوجة النبى صلى الله عليه وسلم لما كان هيّنا ، فكيف وهى زوجة النبى الأمى ، خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ، فعظيم عند الله أن يقال فى زوجة رسوله ما قيل ! الله يغار لهذا ، وهو سبحانه وتعالى لا يُقَدّر على زوجة نبى من أنبيائه ذلك ، حاشا وكلاّ ، ولما [لم يكن ذلك] فكيف يكون هذا فى سيدة نساء الأنبياء ، وزوجة سيد ولد آدم على الإطلاق فى الدنيا والآخرة ؟! ولهذا قال تعالى : (وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم) ، وفى الصحيحين : إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سَخَط الله ، لا يدرى ما تبلغ ، يهوى بها فى النار أبعد ما بين السماء والأرض . وفى رواية : لا يلقى لها بالا (٥) .

وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾

هذا تأديب آخر بعد الأول الآمر بالظن خيرا ، أى : إذا ذكر مالا يليق من القول فى شأن الخيرة ، فأولى ينبغى الظن بهم خيرا ، وأن لا يشعر نفسه سوى ذلك . ثم إن علِق بنفسه شيء من ذلك ــ وسوسة أو خيالاً ــ فلا ينبغى أن يتكلم

---

(١) البخارى ، تفسير سورة النور : ٦/١٣٢ .

(٢) تفسير عائشة للولق فى تفسير الطبرى : ١٨/٧٨ . وقال أبو الفتح بن جنى فى المحتسب ٢/١٠٤ ، ١٠٥ : « أما تلقونه [يعنى : بكسر اللام وضم القاف] فتسرعون فيه ، وتخفون إليه ... وأصله : تلقون فيه أو إليه ، فحذف حرف الجر وأوصل الفعل إلى المفعول ، كقوله تعالى : (واختار موسى قومه سبعين رجلا) ، أى : من قومه . والهاء : ضمير الإفك » .

(٣) فى المخطوطة : « نافع ، عن ابن عمر » . وهو خطأ ، صوابه من تفسير الطبرى : ١٨/٧٨ ، وهو « نافع بن عمر ابن عبد الله الجمحى » ، مترجم فى التهذيب : ١٠/٤٠٩ ، يروى عن ابن أبى مليكة ، ويروى عنه أبو أسامة .

(٤) ما بين القوسين من الدر المنثور : ٥/٣٤ . وقد وضع فى الطبعات السابقة فى غير موضعه .

(٥) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب « حفظ اللسان » : ٨/١٢٥ . ومسلم ، كتاب الزهد ، باب « التكلم بالكلمة يهوى بها فى النار » : ٨/٢٢٣ ، ٢٢٤ .

به ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله تجاوز لأمتي عما حدَّثت به أنفسها ، ما لم تقل أو تعمل » أخرجاه في الصحيحين (١) .

وقال الله تعالى : (ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا) ، أي : ما ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد ، (سبحانك هذا بهتان عظيم) ، أي : سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسوله وحليلة خليله .

ثم قال تعالى : (يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً) ، أي : ينهاكم الله متوعدا أن يقع منكم ما يشبه هذا أبداً ، أي : فيما يستقبل فلهذا قال : (إن كنتم مؤمنين) ، أي : إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه ، وتعظمون رسوله صلى الله عليه وسلم ، فأما من كان متصفاً بالكفر فذاك له حكم آخر .

ثم قال : (ويبين الله لكم الآيات) ، أي : يوضح لكم الأحكام الشرعية والحِكَمَ القَدَرِيَّة ، (والله عليم حكيم) ، أي : عليم بما يصلح عباده ، حكيم في شَرْعه وقَدَره .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾

وهذا تأديب ثالث لمن سمع شيئا من الكلام السيء ، فقام بذهنه منه شيء ، وتكلم به ، فلا يكثر منه ويشيعه ويذيعه ، فقد قال تعالى : (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا) ، أي : يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبيح ، (لهم عذاب أليم في الدنيا) ، أي : بالحد ، وفي الآخرة بالعذاب ، (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) ، أي : فردوا الأمور إليه ترْشُدُوا .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن بكر ، حدثنا ميمون بن أبي محمد (٢) المَرَئِيّ حدثنا محمد بن عَبَّاد المخزومي ، عن ثوبان ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لاتُؤذوا عبادَ الله ولا تُعيِّروهم ، ولا تطلبوا عوراتهم ، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم ، طلب الله عورته ، حتى يفضحه في بيته (٣) .

---

(١) البخاري ، كتاب الأيمان ، باب « إذا حنث ناسياً » : ٨/١٦٨ ، ومسلم ، كتاب « الإيمان » باب « تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر ... » : ١/٨١ .

(٢) كذا في المخطوطة ، والذي في مسند أحمد — في هذا الحديث — : ثنا ميمون ، ثنا محمد بن عباد » ، دون أن ينسب ميمون . على أنه في نفس الصفحة ، في حديث آخر : « أنا ميمون أبو محمد المزني التميمي » . والمزني خطأ لاشك فيه ، صوابه المرئي . وترجمة ميمون في التهذيب : ١٠/٣٩٢ ، وهو ميمون بن موسى المرئي البصري . ولم تقع لنا كنيته ولا كنية أبيه . حتى نتبين أهو « أبو محمد » كما في المسند ، أم « ابن أبي محمد » كما في مخطوطة الأزهر .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٥/٢٧٩ .

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾

يقول تعالى : (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ، وأن الله رءوف رحيم) ، أى : لولا هذا لكان أمر آخر ، ولكنه تعالى رءوف بعباده ، رحيم بهم . فتاب على من تاب إليه من هذه [القضية] ، وطهر من طهر منهم بالحد الذى أقيم عليه .

ثم قال : (يا أيها الذين آمنوا ، لا تتبعوا خطوات الشيطان) ، يعنى طرائقه ومسالكه وما يأمر به ، (ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر) : هذا تنفير وتحذير من ذلك ، بأفصح العبارة وأوجزها وأبلغها وأحسنها .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (خطوات الشيطان) عمله . وقال عكرمة : نزغاته . وقال قتادة : كل معصية فهى من خطوات الشيطان . وقال أبو مجلز : النذور فى المعاصى من خطوات الشيطان .

[وقال] مسروق : سأل رجلٌ ابنَ مسعود فقال : إنى حرمت أن آكل طعاماً ؟ فقال : هذا من نزَغات الشيطان ، كفّر عن يمينك ، وكل .

وقال الشعبى فى رجل نذر ذبح ولده : هذا من نزغات الشيطان ، وأفتاه أن يذبح كبشاً (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا حسان بن عبد الله المصرى ، حدثنا السرى بن يحيى ، عن سليمان التيمى ، عن أبى رافع قال : غضبت على امرأتى فقالت : هى يوما يهودية ويوما نصرانية ، وكل مملوك لها حر إن لم تطلق امرأتك . فأتيت عبد الله بن عمر فقال : إنما هذه من نزغات الشيطان . وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة ، وهى يومئذ أفقه امرأة بالمدينة ، وأتيت عاصم بن عمر ، فقال مثل ذلك (٢) .

ثم قال تعالى : (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا) ، أى : لولا هو يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه ، ويزكى النفوس من شركها وفجورها ودنسها وما فيها من أخلاق رديئة ، كلٌّ بحسبه ، لما حصل أحد لنفسه زكاةً ولا خيرا ، (ولكن الله يزكى من يشاء) أى : من خلقه ، ويضل من يشاء ويرديه فى مهالك الضلال والغى .

وقوله : (والله سميع) ، أى : سميع لأقوال عباده ، (عليم) بهم ، مَنْ يستحق منهم الهدى والضلال .

---

(١) انظر بعض هذه الآثار فى سورة البقرة ، عند الآية ١٦٨ : ١/٢٩٢ .

(٢) تقدم هذا الأثر عن ابن أبى حاتم فى : ١/٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ولكن فيه : « وأتيت عاصما وابن عمر فقالا مثل ذلك » .

وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى : (ولا يأتل) من الألية ، [وهى : الحلف] ، أى : لا يحلف (أولو الفضل منكم) ، أى : الطَّوْل والصدقة والإحسان (والسعة) ، أى : الجِدَة ، (أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله) ، أى : لا تحلفوا أن لا تصلوا قراباتكم المساكين والمهاجرين . وهذه فى غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام ، ولهذا قال : (وليعفوا وليصفحوا) ، أى : عما تقدم منهم من الإساءة والأذى؟ وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم .

وهذه الآية نزلت فى الصدّيق ، حين حلف أن لا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة بعدما قال فى عائشة ما قال ، كما تقدم فى الحديث ، فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة ، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت ، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين فى ذلك ، وأقيم الحد على من أقيم عليه — شرع تبارك وتعالى ، وله الفضل والمنة ، يعطفُ الصدّيق على قريبه ونسيبه ، وهو مسطح بن أثاثة ، فإنه كان ابن خالة الصديق، وكان مسكيناً لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر رضى الله عنه ، وكان من المهاجرين فى سبيل الله ، وقد وَلَق وَلْقَة تاب الله عليه منها ، وضُرب الحد عليها . وكان الصديق رضى الله عنه معروفاً بالمعروف ، له الفضل والأيادى على الأقارب والأجانب ، فلما نزلت هذه الآية إلى قوله : (ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) ، أى : فإن الجزاء من جنس العمل ، فكما تغفر عن المذنب إليك نغفرُ لك ، وكما تصفح نصفح عنك . فعند ذلك قال الصديق : بلى ، والله إنا نحب — يا ربنا — أن تغفر لنا . ثم رَجَع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة ، وقال : والله لا أنزعها منه أبداً ، فى مقابلة ما كان قال : والله لا أنفعه بنافعة أبداً . فلهذا كان الصدّيق هو الصديق .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾

هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات — خُرِّج مخرج الغالب — المؤمنات ، فأمهات المؤمنين أولى بالدخول فى هذا من كل محصنة ، ولا سيا التى كانت سبب النزول ، وهى عائشة بنت الصديق رضى الله عنهما .

وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورماها بما رماها به [بعد هذا الذى ذكر(١)] فى هذه الآية ، فإنه كافر ، لأنه معاند للقرآن . وفى بقية أمهات المؤمنين قولان : أصحهما أنهن كهى ، والله أعلم .

(١) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة ، ومكانه فى مخطوطة الأزهر : « الذين ذكروا » .

وقوله : (لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم) ، كقوله : (إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة ، وأعدّ لهم عذاباً مهيناً) (١) .

• وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة ، فقال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عبد الله بن خراش ، عن العوّام ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات) : نزلت فى عائشة خاصة .

وكذا قال مقاتل بن حيان ، وقد ذكره ابن جرير عن عائشة فقال :

حدثنا أحمد بن عَبْدَةَ الضبى ، حدثنا أبو عوانة ، عن عمر بن أبى سلمة ، عن أبيه قال : قالت عائشة : رُميت بما رميت به وأنا غافلة ، فبلغنى بعد ذلك ، قالت : فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس عندى ، إذ أوحى إليه ، قالت : وكان إذا أوحى إليه أخذه كهيئة السّبات ، وإنه أوحى إليه وهو جالس عندى ، ثم استوى جالساً يمسح على وجهه ، وقال : ياعائشة ، أبشرى ، قالت : قلت : بحمد الله لا بحمدك ، فقرأ : (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات) ، حتى قرأ : (أولئك مبرءون مما يقولون) (٢) .

هكذا أورده ، وليس فيه أن الحكم خاص بها ، وإنما فيه أنها سبب النزول دون غيرها ، وإن كان الحكم يعمها كغيرها . ولعله مراد ابن عباس ومن قال كقوله ، والله أعلم .

وقال الضحاك ، وأبو الجوزاء ، وسلمة بن نُبَيط : المراد بها أزواج النبىّ خاصة ، دون غيرهن من النساء .

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات) ... الآية : يعنى أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، رماهن أهل النفاق ، فأوجب الله لهم اللعنة والغضب ، وباءوا بسخط من الله ، فكان ذلك فى أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم نزل بعد ذلك : (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء) إلى قوله : (فإن الله غفور رحيم) ، فأنزل الله الجلد والتوبة ، فالتوبة تقبل ، والشهادة ترد(٣) .

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا هُشَيم ، أخبرنا العوام بن حوشب ، عن شيخ من بنى أسد ، عن ابن عباس ـ قال : فسر سورة النور ، فلما أتى على هذه الآية : (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا) ... الآية ـ قال : فى شأن عائشة ، وأزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، وهى مبهمة ، وليست لهم توبة ، ثم قرأ : (والذين يرمون المحصنات ، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء) إلى قوله :(إلا الذين تابوا من بعد ذلك

---

(١) سورة الأحزاب ، آية : ٥٧ .
(٢) تفسير الطبرى : ١٨/٨٢ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٨/٨٣ .

وأصلحوا) ... الآية ، قال : فجعل لهؤلاء توبة ، ولم يجعل لمن قذف أولئك توبة ، قال : فهمّ بعضُ القوم أن يقوم إليه فيقبل رأسه ، من حسن ما فسر به سورة النور(١) .

فقوله « وهى مبهمة » ، أى : عامة فى تحريم قذف كل محصنة ، ولَعْنتهِ فى الدنيا والآخرة .

وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هذا فى عائشة ، ومن صنع مثل هذا أيضاً اليوم فى المسلمات فله ما قال الله عز وجل ، ولكن عائشة كانت إمامَ ذلك(١) .

وقد اختار ابن جرير عمومها ، وهو الصحيح ، ويعضد العموم ما رواه ابن أبى حاتم :

حدثنا أحمد بن عبد الرحمن — ابن أخى ابن وهب ، حدثنا عمى ، حدثنا سليمان بن بلال ، عن ثور بن زيد ، عن أبى الغَيث ، عن أبى هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اجتنبوا السبع الموبقات . قيل : يارسول الله وما هُنّ ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

أخرجاه فى الصحيحين ، من حديث سليمان بن بلال به(٢) .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا محمد بن عَمْرو بن خالد الحذّاء الحرانى ، حدثنى أبى ، (ح) وحدثنا أبو شُعَيب الحرانى ، حدثنا جدى أحمد بن أبى شُعَيب ، حدثنا موسى بن أعين ، عن ليث ، عن أبى إسحاق ، عن صلة بن زفر ، عن حذيفة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة .

وقوله : (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) ، قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو يحيى الرازى ، عن عمرو بن أبى قيس ، عن مُطَرِّف ، عن المنهال ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس قال : إنهم — يعنى المشركين — إذا رأوا أنه لا يدخلُ الجنةَ إلا أهلُ الصلاة قالوا : تعالوا حتى نجحد . فيجحدون فيختم على أفواههم ، وتشهد أيديهم وأرجلهم ، ولا يكتمون الله حديثاً .

وقال ابن جرير ، وابن أبى حاتم أيضاً : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى عمرو بن الحارث ، عن درّاج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا كان يوم القيامة ، عُرِّف الكافر بعمله ، فيجحد ويخاصم ، فيقال له : هؤلاء جيرانك يشهدون عليك . فيقول : كذبوا . فيقول : أهلك وعشيرتك؟ فيقول : كذبوا ، فيقول : احلفوا . فيحلفون ، ثم يصمِتهم [الله] ، فتشهد عليهم أيديهم وألسنتهم ، ثم يدخلهم النار .

---

(١) الأثر أيضاً فى تفسير الطبرى : ١٨/٨٣ .

(٢) البخارى ، كتاب الوصايا ، باب قول الله تعالى : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ، إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً) : ١٢/٤ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « بيان الكبائر وأكبرها » : ١/٦٤ .

وقال ابن أبي حاتم أيضاً : حدثنا أبو شيبة إبراهيم بن عبد الله بن أبي شيبة الكوفي ، حدثنا منجاب بن الحارث التميمي ، حدثنا أبو عامر الأسَدِيّ ، حدثنا سفيان ، عن عبيد(١) المُكْتِب ، عن فُضَيل بن عمرو الفُقَيمي ، عن الشعبي ، عن أنس بن مالك قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فضحك حتى بدت نَوَاجِذُه ، ثم قال : أتدرون مم أضحك ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : من مجادلة العبد ربه يوم القيامة ، يقول : يارب ، ألم تُجِرْني من الظلم ؟ فيقول : بلى : فيقول : لا أجيز عليّ شاهداً إلا من نفسي . فيقول : كفى بنفسك اليوم [عليك شهيدا ؟] ، وبالكرام عليك شهودا : فيختم على فيه ، ويقال لأركانه : « انطقي » ، فتنطق بعمله ، ثم يخلي بينه وبين الكلام ، فيقول : بُعداً لكُنّ وسُحقاً ، فعنكُنّ كنتُ أناضل .

وقد رواه مسلم والنسائي جميعاً ، عن أبي بكر بن أبي النضر ، عن أبيه ، عن عُبَيد الله الأشجعي ، عن سفيان الثوري(٢) ، به : ثم قال النسائي : لا أعلم أحداً روى هذا الحديث عن سفيان الثوري غيرَ الأشجعي ، وهو حديث غريب ، والله أعلم ، هكذا قال .

وقال قتادة : ابن آدم ، والله إن عليك لَشُهوداً غيرَ متهمة في بدنك ، فراقبهم واتق الله في سرك وعلانيتك ، فإنه لا يخفى عليه خافية ، الظلمة عنده ضوء ، والسر عنده علانية ، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن فليفعل ، ولا قوة إلا بالله .

وقوله : (يومئذ يوفّيهم الله دينهم الحق) ، قال ابن عباس : (دينهم) ، أي : حسابهم، وكل ما في القرآن (دينهم) ، أي : حسابهم : وكذا قال غير واحد .

ثم إن قراءة الجمهور بنصب (الحقّ) ، على أنه صفة لدينهم ، وقرأ مجاهد بالرفع ، على أنه نعت الجلالة(٣) . وقرأها بعض السلف في مصحف أبي بن كعب : (يومئذ يوفيهم الله الحقّ دينهم)(٤) .

وقوله : (ويعلمون أن الله هو الحق المبين) ، أي : وعده ووعيده وحسابه هو العدل ، الذي لا جور فيه .

ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

قال ابن عباس : الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول . والطيبات من القول للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال للطيبات من القول . قال : ونزلت في عائشة وأهل الإفك .

---

(١) في المخطوطة : « سفيان بن عبيد » ، وهو خطأ . انظر ترجمة عبيد بن مهران المكتب في الجرح لابن أبي حاتم : ٣/١/٢ .

(٢) مسلم ، كتاب الزهد : ٢١٧/٨

(٣) انظر المحتسب لابن جني : ١٠٧/٢ ، وتفسير الطبري : ٨٤/١٨ .

(٤) تفسير الطبري : ٨٤/١٨ .

وهكذا رُوى عن مجاهد ، وعطاء ، وسعيد بن جُبَير ، والشعبى ، والحسن بن أبى الحسن البصرى ، وحبيب ابن أبى ثابت ، والضحاك : واختاره ابن جرير ، ووجَّهه بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس ، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس ، فما نسبه أهل النفاق إلى عائشة هم أولى به ، وهى أولى بالبراءة والنزاهة منهم . ولهذا قال: (أولئك مبرءون مما يقولون) (١) .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء ، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء .

وهذا أيضاً يرجع إلى ما قاله أولئك باللازم ، أى : ما كان [الله] ليجعل عائشة زوجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهى طيبة ؛ لأنه أطيب من كل طيب من البشر ، ولو كانت خبيثة لما صلحت [له] ،لا شرعاً ولا قدرا ، ولهذا قال : (أولئك مبرءون مما يقولون) ، أى : هم بُعَداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان ، (لهم مغفرة)، أى: بسبب ما قيل فيهم من الكذب ، (ورزق كريم) ، أى : عند الله فى جنات النعيم . وفيه وعد بأن تكون زوجة النبىّ صلى الله عليه وسلم فى الجنة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن مسلم ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا عبد السلام بن حرب ، عن يزيد بن عبد الرحمن، عن الحكم . عن يحيى بن الجزار قال:جاء أسيربن جابر(٢) إلى عبد الله فقال : لقد سمعت الوليد بنعقبة اليوم تكلم بكلام أعجبنى ، فقال عبد الله:إن الرجل المؤمن يكون فى قلبه [الكلمة] غير [طيبة (٣)] تتجلجل فى صدره ما تستقر حتى يلفظها(٤)،فيسمعها رجل عنده يتَلَّها(٥) فيضمها إليه . وإن الرجل الفاجر يكون فى قلبه الكلمة الطيبة تتجلجل فى صدره ما تستقر حتى يلفظها ، فيسمعها الرجل الذى عنده يتَلُّها فيضمها إليه ، ثم قرأ عبد الله : (الخبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات ، والطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات) .

ويشبه هذا ما رواه الإمام أحمد فى المسند مرفوعاً : مثل الذى يسمع الحكمة ثم لا يُحدّث إلا بشرِّ ما سمع ، كمثل رجل جاء إلى صاحب غنم ، فقال: أجْزِرنى (٦) شاة . فقال: اذهب فخذ بأذُن أيها شئتَ . فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم(٧) . وفى الحديث الآخر : الحكمة ضالة المؤمن ، حيث وجدها أخذها(٨) .

---

(١) انظر أثر ابن عباس فى تفسير الطبرى : ١٨/ ٨٤ ، ٨٥ . وتوجيه ابن جرير فى : ١٨/ ٨٦ .

(٢) أسير بن جابر مترجم فى أسد الغابة : ١/ ١١٥ ، وقال ابن الأثير : « يعد فى البصريين ، فى صحبته نظر » .

(٣) فى المخطوطة : « يكون فى قلبه غير طائل » . والمثبت عن الدر المنثور للسيوطى : ٥/ ٣٧ .

(٤) فى المخطوطة : « حتى يخرجها » . والمثبت من الدر والطبعات السابقة .

(٥) أى : يستقلها .

(٦) أى : أعطنى شاة تصلح للذبح .

(٧) مسند الإمام أحمد عن أبى هريرة : ٢/ ٣٥٣ ، ٤٠٥ ، ٥٠٨ . وسنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « الحكمة » ، الحديث ٤١٧٢ : ٢/ ١٣٩٦ ، ١٣٩٧ .

(٨) تحفة الأحوذى ، أبواب العلم ، باب « فى فضل الفقه على العبادة » ، الحديث ٢٨٣٧ : ٧/ ٤٥٨ - ٤٥٩ ، وقال الترمذى : « هذا حديث غريب » . وابن ماجه ، الكتاب والباب المتقدمين ، الحديث ٤١٦٩ : ٢/ ١٣٩٥ .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

هذه آداب شرعية، أدّب الله بها عباده المؤمنين، وذلك فى الاستئذان، أمر الله المؤمنين أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأنسوا، أى: يستأذنوا قبلَ الدخول ويسلموا بعده. وينبغى أن يستأذن ثلاثاً، فإن أذن له وإلا انصرف، كما ثبت فى الصحيح: أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثاً، فلم يؤذن له، انصرف. ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له. فطلبوه فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال ما رَجَعَك؟ قال: إنى استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لى، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً، فلم يؤذن له، فلينصرف». فقال: لَتَأتيَنّ على هذا ببينة وإلا أوجعتك ضرباً. فذهب إلى ملإ من الأنصار، فذكر لهم ما قال عمر، فقالوا: لا يشهد لك إلا أصغرنا. فقام معه أبو سعيد الخُدْرِىّ فأخبر عمر بذلك، فقال: ألهانى عنه الصَّفْق(١) بالأسواق(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن ثابت، عن أنس ــ أو: غيره ــ «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استأذن على سعد بن عبادة فقال: السلام عليك ورحمة الله. فقال سعد: وعليك السلام ورحمة الله، ولم يسمع النبى صلى الله عليه وسلم حتى سلم ثلاثاً، ورد عليه سعد ثلاثاً ولم يُسْمِعه. فرجع النبى صلى الله عليه وسلم، واتبعه سعد فقال: يارسول الله، بأبى أنت وأمى ما سلمتَ تسليمة إلا وهى بأذنى، ولقد رَدَدْتُ عليك ولم أسمعك، وأردتُ(٣) أن أستكثر من سلامك ومن البركة. ثم أدخله البيت. فقرّبَ إليه زَبِيباً، فأكل نبى الله، فلما فرغ قال: أكل طعامكم الأبرار، وصلّت عليكم الملائكة، وأفطر عندكم الصائمون(٤)».

وقد رَوَى أبو داود والنسائى، من حديث أبى عمرو الأوزاعى: سمعت يحيى بن أبى كثير يقول: حدثنى محمد ابن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة، عن قيس بن سعد ــ هو ابن عبادة ــ قال: زارنا رسولُ الله صلى الله عليه

---

(١) أى: شغلنى عن ذلك الحديث أمر التجارة والمعاملة فى الأسواق.

(٢) البخارى، كتاب الاستئذان، باب «التسليم والاستئذان ثلاثا»: ٦٧/٨. ومسلم، كتاب الآداب، باب «الاستئذان»: ١٧٧/٦ - ١٨٠.

(٣) لفظ المسند: «أحببت أن أستكثر».

(٤) مسند الإمام أحمد: ١٣٨/٣.

وسلم في منزلنا ، فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فردّ سعد رداً خفياً، قال قيس : فقلت : ألا تأذنْ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : ذَرْه يكثر علينا من السلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : السلام عليكم ورحمة الله . فرد سعد رَدّاً خفياً ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: السلام عليكم ورحمة الله ، ثم رَجَع رسول الله صلى الله عليه وسلم،واتبعه سعد فقال : يارسول الله ، إني كنت أسمع تسليمك ، وأرد عليك ردا خفياً ، لتكثر علينا من السلام . قال : فانصرف معه [رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر له سعد بغسل ، فاغتسل ، ثم ناوله ملْحَفة مصبوغة] (١) بزعفران – أو :ورس – فاشتمل بها،ثم رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وهو يقول : اللهم اجعل صلاتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة . قال : ثم أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطعام ، فلما أراد الانصراف قَرّب إليه سعد حماراً قد وَطّأ(٢) عليه بقطيفة ، فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال سعد : ياقيس ، اصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال قيس : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اركب . فأبيت ، فقال : إما أن تركب وإما أن تنصرف . قال : فانصرفت(٣) .

وقد روى هذا من وجه آخر ، فهو حديث جيد قويّ ، والله أعلم .

ثم ليُعلَمْ أنه ينبغي للمستأذِن على أهل المنزل أن لا يقف تلقاء الباب بوجهه ، ولكن ليكنِ البابُ عن يمينه أو يساره ، لما رواه أبو داود : حدثنا مؤمل بن الفضل الحراني – في آخرين – قالوا : حدثنا بقية ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن ، عن عبد الله بن بُسْر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ، ويقول : السلام عليكم ، السلام عليكم . وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور . تَفَرّد به أبو داود(٤) .

وقال أبو داود أيضاً : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا جرير – (ح) – قال أبو داود : وحدثنا أبو بكر ابن أبي شيبة ، حدثنا حفص ، عن الأعمش ، عن طلحة ، عن هُزَيل قال : جاء رجل – قال عثمان : سعد – فوقف على باب النبي صلى الله عليه وسلم يستأذن ، فقام على الباب – قال عثمان : مستقبل الباب – فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : هكذا عنك – أو : هكذا – فإنما الاستئذان من النظر(٥) .

وقد رواه أبو داود الطيالسي ، عن سفيان الثوري ، عن الأعمش ، عن طلحة بن مُصَرّف ، عن رجل ، عن سعد ، عن النبي صلى الله عليه وسلم . رواه أبو داود من حديثه(٦) .

---

(١) ما بين القوسين عن سنن أبي داود . والملحفة : ما يلبس فوق سائر اللباس ، يتدثر به من البرد .
(٢) أي : جعل عليه فراشاً وطيئا ، والفراش الوطيء : الذي لا يؤذي راكبه .
(٣) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب «كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان» ، الحديث ٥١٨٥ : ٣٤٧/٤ .
(٤) سنن أبي داود ، في الكتاب والباب المتقدمين ، الحديث ٥١٨٦ : ٣٤٨/٤ .
(٥) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب «في الاستئذان» ، الحديث ٥١٧٤ : ٣٤٤/٤ .
(٦) سنن أبي داود ، في الكتاب والباب المتقدمين ، الحديث ٥١٧٥ : ٣٤٤/٤ .

وفى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فخذفته(١) بحصاة ، ففقأت عينه ، ما كان عليك من جُنَاح(٢) .

وأخرج الجماعة من حديث شعبة ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر قال : أتيتُ النبى صلى الله عليه وسلم فى دَين كان على أبى ، فدققتُ الباب ، فقال : من ذا ؟ قلت : أنا . قال : أنا ، أنا . كأنه كرهه(٣) .

وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لا يُعرَف صاحبها حتى يُفصح باسمه أو كنيته التى هو مشهور بها ، وإلا فكل أحد يُعبّر عن نفسه بـ « أنا » فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان ، الذى هو الاستئناس المأمور به فى الآية .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : الاستئناس : الاستئذان . وكذا قال غيرُ واحد .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى هذه الآية : (لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا) ، قال : إنما هى خطأ من الكاتب ، (حتى تستأذنوا وتسلموا) .

وهكذا رواه هشيم عن أبى بشر — وهو جعفر بن إياس — به . وروى معاذ بن سليمان ، عن جعفر بن إياس ، عن سعيد ، عن ابن عباس ، بمثله ، وزاد : وكان ابن عباس يقرأ : (حتى تستأذنوا وتسلموا) ، وكان يقرأ على قراءة أبى بن كعب رضى الله(٤) عنه .

وهذا غريب جدا عن ابن عباس .

وقال هشيم : أخبرنا مغيرة ، عن إبراهيم قال : فى مصحف ابن مسعود : (حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا) ، وهذا أيضاً رواية عن ابن عباس ، وهو اختيار ابن جرير .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا روح ، حدثنا ابن جُرَيج ، أخبرنى عمرو بن أبى سفيان : أن عمرو بن أبى صفوان أخبره ، أن كَلَدَةَ بن الحنبل أخبره ، أن صفوان بن أمية بعثه فى الفتح بلبأ وجدايةَ وضغابيس(٥) ، والنبى

---

(١) الخذف : رميك بحصاة أو نواة .

(٢) البخارى ، كتاب الديات ، باب « من اطلع فى بيت قوم ، ففقئوا عينه ، فلا دية له » : ٩/١٣ . ومسلم ، كتاب الآداب ، باب « تحريم النظر فى بيت غيره » : ٦/١٨١ .

(٣) البخارى ، كتاب الاستئذان ، باب « إذا قال : من ذا ؟ قال : أنا » : ٨/٦٨ . ومسلم ، كتاب الآداب ، باب « كراهة قول المستأذن « أنا » إذا قيل : من هذا ؟ » : ٦/١٨٠ ، وسنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب « الرجل يستأذن بالدق » ، الحديث ٥١٨٧ : ٤/٣٤٨ . ومسند الإمام أحمد : ٣/٣٦٣ .

(٤) انظر هذه الآثار فى تفسير الطبرى : ١٨/٨٧ .

(٥) « اللبأ » — بوزن عنب — : أول ما يحلب عند الولادة . « والجداية » — بفتح الجيم — : من أولاد الظباء ما بلغ ستة أشهر أو سبعة ، ذكراً كان أو أنثى ، بمنزلة الجدى من الماعز . و« الضغابيس » : جمع ضغبوس — بضم فسكون — ، وهى : صغار القثاء .

صلى الله عليه وسلم بأعلى الوادى ، قال : فدخلتُ عليه ولم أسلم ولم أستأذن ، فقل النبى صلى الله عليه وسلم : ارجع فقل : السلام عليكم ، أأدخل ؟ وذلك بعد ما أسلم صفوان (١) .

ورواه أبو داود والترمذى والنسائى من حديث ابن جريج به ، وقال الترمذى : حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديثه .

وقال أبو داود : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا أبو الأحوص ، عن منصور ، عن ربعى قال : حدثنا رجل (٢) من بنى عامر استأذن على النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو فى بيته ، فقال : أألج ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم لخادمه : اخرج إلى هذا فعلّمه الاستئذان ، فقل له : قل : السلام عليكم ، أأدخل ؟ فسمعه الرجل فقال : السلام عليكم ، أأدخل ؟ فأذن له النبى صلى الله عليه وسلم ، فدخل .

وقال هشيم : أخبرنا منصور ، عن ابن سيرين — وأخبرنا يونس بن عبيد ، عن عَمْرو بن سعيد الثقفى (٣) : أن رجلا استأذن على النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أألج — أو : أنلج ؟ — فقال النبى صلى الله عليه وسلم لأمة له ، يقال لها روضة : قومى إلى هذا فعلميه ، فإنه لا يحسن يستأذن ، فقولى له يقول : السلام عليكم ، أأدخل ؟ فسمعها الرجل ، فقالها ، فقال : ادخُلْ (٤) .

وقال الترمذى : حدثنا الفضل بن الصباح ، حدثنا سعيد بن زكريا ، عن عنبَسَة بن عبد الرحمن ، عن محمد ابن زاذان ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : السلام قبل الكلام .

ثم قال الترمذى : عنبسة ضعيف الحديث ذاهب ، ومحمد بن زاذان مُنْكَر الحديث (٥) .

وقال هشيم : قال مغيرة : قال مجاهد : جاء ابن عمر من حاجة ، وقد آذاه الرمضاء (٦) ، فأتى فسطاط امرأة من قريش ، فقال : السلام عليكم ، أأدخل ؟ قالت : ادخل بسلام . فأعاد ، فأعادت ، وهو يراوح (٧) بين قدميه ، قال : قولى : ادخل . قالت : ادخل . فدخل (٨) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٤١٤/٣ ، وسنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب «كيف الاستئذان» ، الحديث ٥١٧٦ : ٣٤٤/٤ ، وتحفة الأحوذى أبواب الاستئذان ، باب «التسليم قبل الاستئذان» ٢٨٥٣ : ٤٩٠/٧ ، ٤٩١ .

(٢) فى المخطوطة : «جاء رجل» . والمثبت من سنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب «كيف الاستئذان» ، الحديث ٥١٧٧ : ٣٤٥/٤ .

(٣) انظر الإصابة ، ترجمة عمرو بن سعيد الثقفى : ٥٣٢/٢ ، وترجمة عمر بن شعثم : ٥٣٥/٢ .

(٤) تفسير الطبرى : ٨٧/١٨ .

(٥) تحفة الأحوذى ، أبواب الاستئذان ، باب «السلام قبل الكلام» ، الحديث ٢٨٤٢ : ٤٧٨/٧ — ٤٧٩ .

(٦) أى : شدة الحر .

(٧) أى : يعتمد على إحداهما مرة ، وعلى الأخرى مرة ، ليوصل الراحة إلى كل منهما .

(٨) تفسير الطبرى : ٨٧/١٨ .

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو نعيم الأحول، حدثنا خالد بن إياس، حدثتني جدتي أم إياس قالت: كنت في أربع نسوة نستأذن [على عائشة] فقلت: ندخل؟ قالت: لا، قلن (١) لصاحبتكن: تستأذن. فقالت: السلام عليكم، أندخل؟ قالت: ادخلوا، ثم قالت: (يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها).

وقال هشيم: أخبرنا أشعث بن سوار، عن كردوس، عن ابن مسعود قال: عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم. قال أشعث، عن عدى بن ثابت: أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله، إني أكون في منزلي على الحال التي لا أحب أن يراني أحد عليها، والد ولا ولد، وإنه لا يزال يدخل عليّ رجل من أهلي، وأنا على تلك الحال؟ قال: فنزلت: (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها (٢)).

وقال ابن جُرَيج: سمعت عطاء بن أبي رباح يخبر عن ابن عباس — رضي الله عنه — قال: ثلاث آيات جَحَدها الناس: قال الله: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)، قال: ويقولون: إن أكرمهم عند الله أعظمهم بيتا (٣). قال: والإذن كله [قد] جحده الناس. قال: قلت: أستأذن على أخواتي أيتام في حجرى، معى في بيت واحد؟ قال: نعم. فرددت ليرخّص لى فأبى قال: تحب أن تراها عريانة؟. قلت: لا. قال: فاستأذن. قال: فراجعته أيضاً، فقال: أتحب أن تطيع الله؟ قلت: نعم. قال: فاستأذن.

قال ابن جريج: وأخبرنى ابن طاوس عن أبيه قال: مامن امرأة أكره إلى أن أرى عريتها من ذات محرم. قال: وكان يشدد في ذلك.

وقال ابن جريج، عن الزهرى: سمعت هُزَيل بن شرحبيل الأودى الأعمى أنه سمع ابن مسعود يقول: عليكم الإذن على أمهاتكم.

وقال ابن جريج: قلت لعطاء: أيستأذن الرجل على امرأته؟ قال: لا.

وهذا محمول على عدم الوجوب، وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به، لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها.

وقال أبو جعفر بن جَرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا محمد بن حازم، عن الأعمش، عن عمرو ابن مرة، عن يحيى بن الجزار، عن ابن أخى زينب — امرأة عبد الله بن مسعود — عن زينب رضى الله عنها قالت:

---

(١) في المخطوطة: «قلت لصاحبتكن» والمثبت من الطبعات السابقة: ولفظ الدر: ٥/٣٨: «فقلت: ندخل؟ فقالت: لا. فقالت واحدة: السلام عليكم».

(٢) تفسير الطبرى: ١٨/٨٧، ٨٨.

(٣) في تفسير الطبرى: «أعظمهن شأناً».

كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب ، تنحنح وبزق ، كراهية أن يهجُم منا على أمر يكرهه (١) » إسناد صحيح »

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطى ، حدثنا عبد الله بن نمير ، حدثنا الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي هبيرة قال : كان عبد الله إذا دخل الدار استأنس — تكلم ورفع صوته »

قال مجاهد : (حتى تستأنسوا) ، قال : تنحنحوا — أو : تَنَخَّموا »

وعن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أنه قال : إذا دخل الرجل بيته ، استحب له أن يتنحنح ، أو يحرك نعليه »

ولهذا جاء فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه نَهَى أن يطرقَ الرجل أهلَه طُرُوقاً — وفى رواية : ليلا يتَخوَّنهم » (٢) »

وفى الحديث الآخر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة نهارا ، فأناخ بظاهرها ، وقال : انتظروا حتى ندخل عشاء — يعنى آخر النهار — حتى تمتشط الشَّعِثَة وتستحدّ المُغيبة(٣) »

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا عبد الرحمن بن سليمان ، عن واصل بن السائب ، حدثني أبو سَوْرَة ابن أخى أبي أيوب ، عن أبي أيوب قال : قلت : يارسول الله ، هذا السلام ، فما الاستئناس ؟ قال : يتكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتحميدة ، ويتنحنح فيُؤذِنُ أهل البيت(٤) » هذا حديث غريب »

وقال قتادة فى قوله : (حتى تستأنسوا) ، قال : هو الاستئذان ، [قال : وكان يقال : الاستئذان] (٥) ثلاث ، فمن لم يؤذن له فيهن فليرجع ، أما الأولى فليسمع الحى ، وأما الثانية فليأخذوا حذرهم ، وأما الثالثة فإن شاءوا أذنوا وإن شاءوا ردّوا . ولا تَقفنّ على باب قوم ردوك عن بابهم ؛ فإن للناس حاجات ولهم أشغال ، والله أولى بالعذر »

---

(١) تفسير الطبرى : ١٨/٨٨ .
(٢) البخارى ، أبواب العمرة ، باب « لا يطرق أهله إذا بلغ المدينة » : ٣/٩ ، وكتاب النكاح ، باب « لا يطرق أهله ليلا » : ٧/٥٠ . ومسلم ، كتاب الإمارة ، باب « كراهة الطروق — وهو الدخول ليلا — لمن ورد من سفر » : ٦/٥٥ . وتحفة الأحوذى ، أبواب الاستئذان ، باب « فى كراهية طروق الرجل أهله ليلا » ، الحديث ٢٨٥٥ : ٧/٤٩٣ ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » .
(٣) البخارى ، كتاب النكاح ، باب « تستحد المغيبة وتمتشط الشعثة » : ٧/٥١ . ومسلم ، كتاب الإمارة ، باب « كراهة الطروق » : ٦/٥٥ .
والمغيبة : الغائب زوجها عنها . والاستحداد : استعمال الموسى . والشعثة : التى أغبر وتلبد وتوسخ شعر رأسها .
(٤) الدر المنثور عن ابن أبي شيبة ، والحكيم الترمذى ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والطبرانى : ٥/٣٨ .
(٥) ما بين القوسين عن الدر المنثور ، ونحسبه سقط نظر . وقد أخرجه السيوطى عن عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، والبيهقى فى شعب الإيمان : ٥/٣٩ .

وقال مقاتل بن حيّان فى قوله : (يا أيها الذين آمنوا ، لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها) : كان الرجل فى الجاهلية إذا لقى صاحبه لا يسلم عليه ، ويقول : حييت صباحاً وحييت مساء ، وكان ذلك تحية القوم بينهم ، وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم ، ويقول : « قد دخلتُ » : فيشق ذلك على الرجل ، ولعله يكون مع أهله ، فغيَّر الله ذلك كله ، فى ستر وعفة ، وجعله نقياً نزهاً من الدنس والقذر والدرن ، فقال : (يا أيها الذين آمنوا ، لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها (١)) ».

وهذا الذى قاله مقاتل : حسن ؛ ولهذا قال : (ذلكم خير لكم) ، يعنى الاستئذان خير لكم ، بمعنى هو خير للطرفين : للمستأذن(٢) ولأهل البيت ، (لعلكم تذكرون) .

وقوله : (فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم) ، وذلك لما فيه من التصرف فى ملك الغير بغير إذنه ، فإن شاء أذن ، وإن شاء لم يأذن (وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم) ، أى : إذا ردّوكم من الباب قبلَ الإذن أو بعده ، (فارجعوا ، هو أزكى لكم) ، أى : رجوعكم أزكى لكم وأطهر ، (والله بما تعملون عليم) .

وقال قتادة : قال بعض المهاجرين : لقد طلبتُ عمرى كلّه هذه الآية فما أدركتها : أن أستأذنَ على بعض إخوانى ، فيقول لى : « ارجع » فأرجع وأنا مغتبط [لقوله] (وإن قيل لكم : ارجعوا ، فارجعوا ، هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم (٣)) .

وقال سعيد بن جبير : (وإن قيل لكم : ارجعوا ، فارجعوا) ، أى : لا تقفوا على أبواب الناس .

وقوله : (ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم ، والله يعلم ماتبدون وماتكتمون) ، هذه الآية الكريمة أخص من التى قبلها ، وذلك أنها تقتضى جواز الدخول إلى البيوت التى ليس فيها أحد ، إذا كان له فيها متاع ، بغير إذن ، كالبيت المعد للضيف ، إذا أذن له فيه أولَ مرة كفى .

قال ابن جريج : قال ابن عباس : (لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم) ، ثم نُسخ واستثنى فقال : (ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة ، فيها متاع لكم (٤) ؛ وكذا روى عن عكرمة ، والحسن البصرى .

وقال آخرون : هى بيوت التجار ، كالخانات ومنازل الأسفار وبيوت مكة وغير ذلك ، واختار ذلك ابن جرير ، وحكاه عن جماعة ؛ والأول أظهر ، والله أعلم .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : هى بيوت الشَّعَر .

---

(١) الدر المنثور عن ابن أبى حاتم : ٥/٤٠ .
(٢) فى المخطوطة : « هو خير من الطرفين » . ولعل الصواب ما أثبتناه .
(٣) تفسير الطبرى : ١٨/٨٩ . وما بين القوسين عنه .
(٤) تفسير الطبرى : ١٨/٩١ .

قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم ، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه ، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم ، فان اتفق أن وقع البصر على مُحرَّم من غير قصد فليصرف بصره عنه سريعا ، كما رواه مسلم فى صحيحه ، من حديث يونس بن عُبَيد ، عن عَمرو بن سعيد ، عن أبى زُرعة بن عمرو بن جرير ، عن جده جرير بن عبد الله البجلى رضى الله عنه قال : سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن نظره الفجأة ، فأمرنى أن أصرف بَصَرى (١) »

وكذا رواه الإمام أحمد ، عن هشيم ، عن يونس بن عبيد(٢)، به . ورواه أبو داود والترمذى والنسائى ، من حديثه أيضا ، وقال الترمذى : « حسن صحيح (٣) » وفى رواية لبعضهم : « فقال : أطرقْ بصرك » ، يعنى : انظر إلى الأرض ، والصرف أعم ، فانه قد يكون إلى الأرض ، وإلى جهة أخرى ، والله أعلم .

وقال أبو داود : حدثنا إسماعيل بن موسى الفزارى ، حدثنا شَريك ، عن أبى ربيعة الإيادى ، عن عبد الله ابن بُرَيدة ، عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى : يا على ، لا تتبع النظرةَ النظرةَ ؛ فان لك الأولى ، وليس لك الآخرة (٤) .

ورواه الترمذى من حديث شَريك ، وقال : « غريب ، لا نعرفه إلا من حديثه » .

وفى الصحيح عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إياكم والجلوس على الطرقات . قالوا : يا رسول الله ، لابد لنا من مجالسنا ، نتحدث فيها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أبيتم فأعطوا الطريقَ حقّه . قالوا : وما حقّ الطريق يا رسول الله ؟ قال : غضّ البصر ، وكف الأذى ، وردّ السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر(٥) »

---

(١) مسلم ، كتاب الآداب ، باب « نظر الفجأة » : ٦/١٨١ ، ١٨٢ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٤/٣٦١ .

(٣) تحفة الأحوذى ، أبواب الاستئذان ، باب « ما جاء فى نظرة الفجاءة » ، الحديث ٢٩٢٦ : ٨/٦٠ ، وسنن أبى داود ، كتاب النكاح ، باب « ما يؤمر به من غض البصر » ، الحديث ٢١٤٨ : ٢/٢٦٤ .

(٤) سنن أبى داود ، كتاب النكاح ، باب « ما يؤمر به من غض البصر » ، الحديث ٢١٤٩ : ٢/٢٤٦ . وتحفة الأحوذى ، أبواب الاستئذان ، باب « ما جاء فى نظرة الفجاءة » ، الحديث ٢٩٢٧ : ٨/٦١ .

(٥) البخارى ، كتاب المظالم ، باب « أفنية الدور والجلوس فيها ، والجلوس على الصعدات » : ٣/١٧٣ . وكتاب الاستئذان ، باب قول الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ، لا تدخلوا بيوتاً ...) : ٨/٦٣ . ومسلم ، كتاب اللباس ، باب « النهى عن الجلوس فى الطرقات » : ٦/١٦٥ .

وقال أبو القاسم البغوى : حدثنا طالوت بن عباد ، حدثنا فضل بن جبير (١) ، سمعت أبا أمامة يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اكفلوا لى بست أكفل لكم بالجنة : إذا حدث أحدكم فلا يكذب ، وإذا اؤتمن فلا يَخُن ، وإذا وَعَد فلا يخلف ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم ، واحفظوا فروجكم » .

وفى صحيح البخارى : من يكفل (٢) لى مابين لَحْيَيْه (٣) و [ما بين] رجليه أكفل له الجنة » (٤) .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر ، عن أيوب ، عن ابن سيرين ، عن عبيدة (٥) قال : كل ماعصى الله به فهو كبيرة ، وقد ذكر الطَّرْفين فقال : (قل للمؤمنين : يغضوا من أبصارهم) .

ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب ، كما قال بعض السلف : « النظر سهام سم إلى القلب » ، ولذلك أمر الله بحفظ الفروج كما أمر بحفظ الأبصار التى هى بواعث إلى ذلك ، فقال : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم) . وحفظُ الفَرْج تارةً يكون بمنعه من الزنا ، كما قال : (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، فإنهم غير ملومين (٦)) وتارة يكون بحفظه من النظر إليه ، كما جاء فى الحديث فى مسند أحمد والسنن : احفظ عورتك ، إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك (٧) .

(ذلك أزكى لهم) ، أى : أطهر لقلوبهم وأنقى لدينهم ، كما قيل : « من حفظ بصره ، أورثه الله نورا فى بصيرته » ، ويروى : « فى قلبه » .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عتّاب ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، أخبرنا يحيى بن أيوب ، عن عُبَيْد الله ابن زَحْر ، عن على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة [أوّل مرّة (٨)] ، ثم يَغُض بصره ، إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها (٩) .

---

(١) كذا فى مخطوطة الأزهر : « نفيل بن جبير » . وفى أسد الغابة ٥/١٣٨ ما الوهبية : « فضال بن جبير » ، ومثله فى مصورة أسد الغابة . ولم تقع لنا ترجمة له .

(٢) لفظ البخارى : « من يضمن لى » .

(٣) تقدم تفسير هذه الكلمة فى ٣/١٢٥ .

(٤) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب « حفظ اللسان » : ٨/١٢٥ .

(٥) تقدم الأثر فى سورة النساء ، عند الآية « الحادية والثلاثين : ٢/٢٤٧ ، من طريق ايوب عن محمد بن سيرين ، قال : نبئت أن ابن عباس كان يقول : « كل ما نهى الله عنه كبيرة ، وقد ذكرت الطرف ، قال : هى النظرة » .

.. هذا ومحمد بن سيرين يروى عن عبد الله بن عباس ، وعبيدة السلمانى . انظر التهذيب : ٩/٢١٤ .

(٦) سورة المعارج ، آية : ٢٩ ، ٣٠ .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٥/٣ ، ٤ . وسنن أبى داود ، كتاب الحمام ، باب « ما جاء فى التعرى » ، الحديث ٤٠١٧ : ٤/٤٠ ــ ٤١ . وتحفة الأحوذى ، أبواب الاستئذان ، باب « ما جاء فى حفظ العورة » الحديث ٢٩٤٦ : ٨/٧٧ ، ٧٨ . وقال الترمذى : هذا حديث حسن » . وسنن ابن ماجه ، كتاب النكاح ، باب « التستر عند الجماع » ، الحديث ١٩٢٠ : ١/٦١٨ .

(٨) ما بين القوسين من المسند .

(٩) مسند الإمام أحمد : ٥/٢٦٤ .

ورُوِى هذا مرفوعا عن ابن عمر ، وحذيفة ، وعائشة رضى الله عنهم ؛ ولكن فى إسنادها ضعف ، إلا أنها فى الترغيب ومثله يُتسامح فيه .

وفى الطبرانى من طريق عبيد الله بن زَحْر (١) ، عن على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة مرفوعا : « لتغضُنّ أبصاركم ، ولتحفظنّ فروجكم ، ولتقيمُنّ وجوهكم — أو : لتكسفنّ وجوهكم » .

وقال الطبرانى : حدثنا أحمد بن زهير التسترى قال : قرأنا على محمد بن حفص بن عمر الضرير المقرىء ، حدثنا يحيى بن أبى بكير ، حدثنا هُرَيم بن سفيان ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم ، من تركه مخافتى أبدلته إيمانا يجد حلاوته فى قلبه » .

وقوله : (إن الله خبير بما يصنعون) ، كما قال تعالى : (يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور) .

وفى الصحيح ، عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كُتِبَ على ابن آدم حظّه من الزنا ، أدركَ ذلك لا محالة ، فزنا العينين النظر ، وزنا اللسان النطقُ ، وزنا الأذنين الاستماع ، وزنا اليدين البطش ، وزنا الرجلين الخطى ، والنفس تَمَنَّى وتشتهى ، والفرج يُصَدِّق ذلك أو يُكَذِّبه » (٢) .

رواه البخارى تعليقا ، ومسلم مسندا من وجه آخر ، بنحو ما تقدم .

وقد قال كثير من السلف : إنهم كانوا ينهَون أن يحدّ الرجل بَصَره إلى الأمرد ؛ وقد شدّد كثير من أئمة الصوفية فى ذلك ، وحرّمه طائفه من أهل العلم ، لما فيه من الافتتان ، وشدّد آخرون فى ذلك كثيرا جدا .

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنا أبو سعيد المدنى ، حدثنا عمر بن سهل المازنى ، حدثنى عمر بن محمد بن صهبان ، حدثنى صفوان بن سليم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل عين باكية يوم القيامة ، إلا عيناً غَضّت عن محارم الله ، وعيناً سهرت فى سبيل الله ، وعيناً يخرج منها مثل رأس الذباب ، من خشية الله(٣) ، عز وجل .

---

(١) فى المخطوطة : « عبيد الله بن يزيد » . ولعل الصواب ما أثبتناه وانظر ترجمة « عبيد الله بن زحر » فى التهذيب : ٧/ ٣٩٦ والجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٢/٢/ ٣١٥ .

(٢) البخارى ، كتاب الاستئذان ، باب « زنا الجوارح دون الفرج » : ٨/ ٦٧ ، وكتاب القدر ، باب (وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون) : ٨/ ١٥٦ ، ومسلم ، كتاب القدر ، باب « قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره » : ٨/ ٥٢٠ وسنن أبى داود ، كتاب النكاح ، باب « ما يؤمر به من غض البصر » ، الحديث ٢١٥٢ : ٢/ ٢٤٦-٢٤٧ ، ومسند الإمام أحمد : ٢/ ٢٧٦ ، ٣٤٣ ، ٣٧٩ ، ٤٣١ ، ٥٣٦ .

(٣) الأثر فى الدر المنثور عن ابن أبى الدنيا والديلمى : ٥/ ٤١ .

وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

هذا أمرٌ من الله تعالى للنساء المؤمنات ، وغَيْرَةٌ منه لأزواجهن عباده المؤمنين ، وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات : وكان سبب نزول هذه الآية ماذكره مقاتل بن حيان قال : بلغنا ــ والله أعلم ــ أن جابر بن عبد الله الأنصارى حدّث : أن « أسماء بنت مُرْشِدَةَ (١) » كانت فى محل لها فى بنى حارثة ، فجعل النساء يدخلن عليها غير مُتَأَزِّرات (٢) فيبدو ما فى أرجلهن من الخلاخل ، وتبدو صدورهن وذوائبهن ، فقالت أسماء: ما أقبح هذا . فأنزل الله : (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن) الآية .

فقوله تعالى : (وقل للمؤمنات : يغضضن من أبصارهن) ، أى : عما حرّم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن . ولهذا ذهب [كثير من العلماء] إلى أنه لا يجوز للمرأة أن تنظر إلى الأجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلا . واحتج كثير منهم بما رواه أبو داود والترمذى ، من حديث الزهرى ، عن نبهان ــ مولى أم سلمة ــ أنه حدثه : أن أم سلمة حدّثته : أنها كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وميمونة ، قالت : فبينا نحن عنده أقبل ابنُ أمّ مكتوم ، فدخل عليه ، وذلك بعد ما أُمِرْنا بالحجاب . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : احتجبا منه . فقلت : يا رسول الله ، أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو عمياوان أنتما ؟ ألستما تبصرانه .

ثم قال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح (٣) » .

---

(١) كذا فى مخطوطة الأزهر : « أسماء بنت مرشدة » . ومثله فى الطبقات الكبرى لابن سعد : ٨/ ٢٤٥ . وفى أسد الغابة ٥/ ٣٩٦ ط الوهبية : « أسماء بنت مرشد » ، دون هاء . ومثله فى مصورة أسد الغابة التى بين أيدينا ، على أنه قد ثبت على هامش هذه المصورة : « فى الاستيعاب : مرشدة ، بخط العمرى ، وكذا ذكره الدومى فى بعض النسخ » . أما الذى ثبت فى طبعة الاستيعاب ٤/ ١٧٨٥ فهو : « أسماء بنت مرثد » ، بالثاء دون هاء . وقد أشار السيد محقق الاستيعاب إلى أن فى بعض النسخ « مرشدة » . وأما الإصابة ٤/ ٢٢٧ ، الترجمة ٥٦ ، فلها أيضاً : « أسماء بنت مرثد » . ويبدو ــ والله أعلم ــ أن الصواب : « مرشدة » . وأن « مرشد » أو « مرثد » تحريف .

هذا وسيرد أثر آخر عن مقاتل بن حيان ، وفيه ذكر « أسماء بنت مرشدة » ، وذلك عند الآية ٥٨ من هذه السورة .

(٢) أى : غير لابسات للإزار ، وهو ما يستر أسفل البدن .

(٣) سنن أبى داود ، كتاب اللباس ، باب فى قول الله عز وجل : (وقل للمؤمنات يغضضن) ، الحديث ٤١١٢ : ٤/ ٦٣-٦٤ وتحفة الأحوذى ، أبواب الاستئذان ، باب « ما جاء فى احتجاب النساء من الرجال » ، الحديث ٢٩٢٨ : ٨/ ٦١ ــ ٦٢ .

وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرهن إلى الأجانب بغير شهوة ، كما ثبت فى الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جَعَلَ ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد فى المسجد ، وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من ورائه ، وهو يسترها منهم حتى مَلَّتْ ورجعت (١) .

وقوله : (ويحفظن فروجهن) ، قال سعيد بن جُبَيْر : عن الفواحش . وقال قتادة وسفيان : عما لا يحل لهن . وقال مقاتل : عن الزنا . وقال أبو العالية : كل آية أنزلت فى القرآن يذكرفيها حفظ الفروج، فهو من الزنا ، إلا هذه الآية : (ويحفظن فروجهن) أن لا يراها أحد .

وقال : (ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر منها) ، أى : ولا يُظهِرْنَ شيئا من الزينة للأجانب ، إلا مالا يمكن إخفاؤه .

وقال ابن مسعود : كالرداء والثياب (٢) : يعنى على ما كان يتعاناه (٣) نساء العرب ، من المقنعة التى تُجلّل ثيابها ، وما يبدو من أسافل الثياب فلا حرج عليها فيه ، لأن هذا لا يمكن اخفاؤه . [ونظيره فى زى النساء ما يظهر من إزارها ، وما لا يمكن إخفاؤه . وقال] بقول ابن مسعود : الحسن ، وابن سيرين ، وأبو الجوزاء ، وإبراهيم النخَعِي ، وغيرهم .

وقال الأعمش ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس : (ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها) ، قال : وجهها وكفيها والخاتم . ورُوى عن ابن عمر ، وعطاء ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وأبى الشعثاء ، والضحاك ، وإبراهيم النخَعى ، وغيرهم — نحوُ ذلك : وهذا يحتمل أن يكون تفسيرا للزينة التى نُهين عن إبدائها ، كما قال أبو إسحاق السَّبِيعى ، عن أبى الأحوَص ، عن عبد الله قال فى قوله : (ولا يبدين زينتهن) : الزينة القُرْط والدُّمْلُج (٤) والخلخال والقلادة — وفى رواية عنه بهذا الإسناد قال : الزينة زينتان ، فزينة لا يراها إلا الزوج : الخاتم والسوار ، [وزينة يراها الأجانب ، وهى] الظاهر من الثياب .

وقال الزهرى : [لا يبدو] لهؤلاء الذين سَمَّى الله ممن لا تحل له إلا الأسورة والأخمرة والأقرطة من غير حسر ، وأما عامة الناس فلا يبدو منها إلا الخواتم .

وقال مالك ، عن الزهرى : (إلا ما ظهر منها) ، الخاتم والخلخال .

ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين ، وهذا هو المشهور عند الجمهور ، ويستأنس له بالحديث الذى رواه أبو داود فى سننه :

---

(١) البخارى ، كتاب الصلاة ، باب « أصحاب الحراب فى المسجد » : ١٢٣/١ . ومسلم ، كتاب صلاة العيدين ، باب « الرخصة فى اللعب الذى لا معصية فيه فى أيام العيد » : ٢١/٣ — ٢٢ .

(٢) تفسير الطبرى : ٩٢/١٨ — ٩٣ .

(٣) أى : يأخذن أنفسهن به . والمقنعة — بكسر الميم — : ما تغطى به المرأة رأسها .

(٤) الدملج والدملوج : المعضد من الحلى .

حدثنا يعقوب بن كعب الإنطاكي ومؤمّل بن الفضل الحراني قالا : حدثنا الوليد ، عن سعيد بن بشير ، عن قتادة ، عن خالد بن دُرَيك عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ : أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها وقال : يا أسماء ، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يُرَى منها إلا هذا ــ وأشار إلى وجهه وكفيه .

لكن قال أبو داود وأبو حاتم الرازي : هذا مرسل ؛ خالد بن دُرَيك لم يسمع من عائشة (١) ، فالله أعلم .

وقوله : (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) ، يعني : المقانع يعمل لها صَنِفات (٢) ضاربات على صدور النساء ، لتواري ما تحتها من صدرها وترائبها ، ليخالفن شعارَ نساء أهل الجاهلية ، فإنهن لم يكن يفعلن ذلك ، بل كانت المرأة تمر بين الرجال مسفحة (٣) بصدرها ، لا يواريه شيء ، وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة آذانها ، فأمر الله المؤمنات أن يستترن في هيئاتهن وأحوالهن ، كما قال الله تعالى : (يا أيها النبي ، قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين ، يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين (٤)) . وقال في هذه الآية الكريمة : (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) ، والخمر : جمع خمار ، وهو ما يُخَمَّر به ، أي : يغطى به الرأس ، وهي التي تسميها الناس المقانع .

قال سعيد بن جبير : (وليضربن) : وليشددن (بخمرهن على جيوبهن) ، يعني على النحر والصدر ، فلا يرى منه شيء .

وقال البخاري : وقال أحمد بن شبيب (٥) ، حدثنا أبي ، عن يونس ، عن ابن شهاب ، عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : يرحم الله نساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) ، شققن مُرُوطهن (٦) فاختمرن به (٧) .

وقال أيضاً : حدثنا أبو نُعَيم ، حدثنا إبراهيم بن نافع ، عن الحسن بن مسلم ، عن صَفية بنت شيبة : أن عائشة رضي الله عنها [كانت تقول (٨)] : لما نزلت هذه الآية : (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) ، أخذن أزرهن فشققنها من قبل الحواشي ، فاختمرن (٩) بها .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس ، حدثني الزنجيّ بن خالد ، حدثنا عبد الله ابن عثمان بن خُثَيم ، عن صفية بنت شيبة قالت : بينا نحن عند عائشة ، قالت : فذكرنا نساء قريش وفضلهن ،

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب اللباس ، باب « فيما تبدى المرأة من زينتها » ، الحديث ٤١٠٤ : ٤ / ٦٢ .
(٢) في المخطوطة : « يعمل لها صيقات » ، بالياء والقاف . ولعل الصواب ما أثبتناه . والصنفات جمع صنفة ــ بفتح فكسر ، وبكسر فسكون أيضاً ــ : وهي حاشية الثوب . وعن الليث : « الصنفه : قطعة من الثوب »
(٣) كذا ، ولم نجد في مادة « سفح » مثل هذا الاستعمال ، يعني : كاشفة صدرها . وقد تبين لنا أنها من عامية أهل الشام .
(٤) سورة الأحزاب ، آية : ٥٩ .
(٥) في المخطوطة : « ثنا أحمد بن شبيب » . والمثبت من البخاري .
(٦) المروط : جمع مرط ــ بكسر فسكون ــ وهو كساء من صوف .
(٧) البخاري ، تفسير سورة النور : ٦/١٣٦ .
(٨) ما بين القوسين من البخاري ، ومكانه في المخطوطة : « قالت » .
(٩) البخاري ، تفسير سورة النور : ٦/١٣٦ ــ ١٣٧ .

فقالت عائشة رضى الله عنها : إن لنساء قريش لفضلا ، وإنى — والله — ما رأيت أفضلَ من نساء الأنصار أشدَّ تصديقا بكتاب الله ، ولا إيمانا بالتنزيل ، لقد أنزلت سورة النور : (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) ، انقلب إليهن رجالهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها ، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته ، وعلى كل ذى قرابة ، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرْطها المُرَحَّل (١) فاعتجرت به ، تصديقا وإيمانا بما أنزل الله من كتابه ، فأصبحْنَ وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح معتجرات ، كأن على رءوسهن الغربان .

ورواه أبو داود من غير وجه ، عن صفية بنت شيبة ، به (٢) .

وقال ابن جرير : حدثنا يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أن قُرَّةَ بن عبد الرحمن أخبره ، عن ابن شهاب ، عن عروة ، عن عائشة أنها قالت : يرحم الله النساء المهاجرات الأُوَل ، لما أنزل الله : (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) ، شَقَقْن أكثفَ مروطهن فاختمرن (٣) به . ورواه أبو داود من حديث ابن وهب ، به (٤) .

وقوله : (ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن) ، يعنى أزواجهن ، (أو آبائهن أو آباء بعولتهن ، أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن ، أو اخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن) ، كل هؤلاء محارم المرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزينتها ، ولكن من غير اقتصاد وتبهرج .

وقال ابن المنذر : حدثنا موسى — يعنى ابن هارون — ، حدثنا أبو بكر — يعنى ابن أبى شيبة — حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا داود ، عن الشعبى وعكرمة فى هذه الآية : (ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن) — حتى فرغ منها قال : لم يذكر العم ولا الخال ، لأنهما ينعتَان لأبنائهما ، ولا تضع خمارَها عند العم والخال ، فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله ، فتتصنع له ما لا يكون بحضرة غيره .

وقوله : (أو نسائهن) ، يعنى : تُظهر زينتها أيضاً للنساء المسلمات دون نساء [أهل] الذمة ، لئلا تصفهن لرجالهن ، وذلك — وإن كان محذوراً فى جميع النساء — إلا أنه فى نساء أهل الذمة أشدّ ، فإنهن لا [يمنعهن] من ذلك مانع ، وأما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فتنزجر عنه . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تباشر المرأة المرأة ، تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها . أخرجاه فى الصحيحين ، عن ابن مسعود (٥) .

وقال سعيد بن منصور فى سننه : حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن هشام بن الغاز ، عن عبادة بن نُسَى ، عن أبيه ، عن الحارث بن قيس قال : كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة : أما بعد ، فإنه بلغنى أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك ، فإنه من قِبَلَكَ فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهلُ ملتها .

---

(١) مرط مرحل : نقش فيه تصاوير الرحال . واعتجرت المرأة : لبست المعجر ، وهو الثوب الذى تشده على رأسها .

(٢) سنن أبى داود ، كتاب اللباس ، باب قوله تعالى (يدنين عليهن من جلابيبهن) ، الحديث ٤١٠٠ ، ٤١٠١ : ٦١/٤

(٣) تفسير الطبرى : ٩٤/١٨ .

(٤) سنن أبى داود ، كتاب اللباس ، باب فى قوله (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) ، الحديث ٤١٠٢ : ٦١/٤ .

(٥) البخارى ، كتاب النكاح ، باب لا تباشر المرأة المرأة ، ٤٩/٧ .

وقال مجاهد فى قوله : (أو نسائهن) ، قال : نساؤهن المسلمات ، ليس المشركات من نسائهن ، وليس للمرأة المسلمة أن تنكشف بين يدى المشركة .

وروى عَبْدٌ فى تفسيره ، عن الكلبى ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس : (أو نسائهن) ، قال : هن المسلمات ، لا تبديه ليهودية ولا نصرانية ، وهو النحر والقرط والوشاح ، وما لا يحل أن يراه إلا محرم .

وروى سعيد : حدثنا جرير ، عن ليث ، عن مجاهد قال : لا تضع المسلمة خمارها عند مشركة ، لأن الله تعالى يقول : (أو نسائهن) ، فليست من نسائهن .

وعن مكحول وعبادة بن نُسى : أنهما كرها أن تقبل النصرانيةُ واليهودية والمجوسية المسلمةَ .

فأما ما رواه ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أبو عمير ،حدثنا ضمرة قال : قال ابن عطاء ، عن أبيه : ولما قدم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بيت المقدس ، كان قَوَابلُ نسائهم اليهوديات والنصرانيات ـ فهذا إن صح مَحمول على حال الضرورة ، أو أن ذلك من باب الامتهان. ثم إنه ليس فيه كشف عورة ولا بد ، والله أعلم .

وقوله : (أو ما ملكت أيمانهن) قال ابن جريج : يعنى من نساء المشركين ، فيجوز لها أن تظهر [زينتها لها وإن كانت مشركة ، لأنها أمتها : وإليه ذهب سعيد بن المسيب . وقال الأكثرون: بل يجوز أن تظهر] على رقيقها من الرجال والنساء ، واستدلوا بالحديث الذى رواه أبو داود :

حدثنا محمد بن عيسى ، حدثنا أبو جميع سالم بن دينار ، عن ثابت ، عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها ـ قال : وعلى فاطمة ثوب إذا قَنّعت به رأسها لم يبلغ رجليها ، وإذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها ، فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم ماتلقى قال :إنه ليس عليك بأس ، إنما هو أبوك وغلامك (١).

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى تاريخه ترجمة خَدِيج الخَصِىّ ـ مولى معاوية أن عبد الله بن مَسْعَدَة الفزارى كان أسود شديد الأدمة ، وأنه قد كان النبى صلى الله عليه وسلم وهبه لابنته فاطمة ، فربّته ثم أعتقته ، ثم قد كان بعد ذلك كله مع معاوية أيام صفين ، وكان [من] أشد الناس [على] علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان بن عيينة ، عن الزهرى ، عن نَبْهان ، عن أم سلمة ذكرت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كان لإحداكن مُكَاتَب » ، وكان له ما يؤدى ، فلتحتجب منه (٣) .

ورواه أبو داود ، عن مسدد ، عن سفيان ، به (٤) .

---

(١) سنن أبى داود ، كتاب اللباس ، باب « فى العبد ينظر إلى شعر مولاته » ، الحديث ٤١٠٦ : ٦٢/٤ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٢٨٩/٦ .
(٤) سنن أبى داود ، كتاب العتق ، باب « فى المكاتب يؤدى بعض كتابته فيعجز أو يموت » ، الحديث ٣٩٢٨ : ٢١/٤ .

وقوله : (أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال) ، يعنى كالأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء ، وهم مع ذلك فى عقولهم وَله وخَوَث (١) ، ولا هَمّ لهم إلى النساء ولا يشتهونهن .

قال ابن عباس : هو المغفل الذى لا شهوة له .

وقال مجاهد : هو الأبله .

وقال عكرمة : هو المخنث الذى لا يقوم زُبّه (٢) . وكذلك قال غير واحد من السلف .

وفى الصحيح من حديث الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة : أن مخنثا كان يدخل على أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يعدّونه من غير أولى الإربة ، فدخل النبىّ صلى الله عليه وسلم وهو ينعَت امرأة : إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت أدبرت بثمان . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أرى هذا يعلم ما هاهنا ، لا يدخلنّ عليكُنّ فأخرجه ، فكان بالبيداء يدخل يوم كل جمعة يستطعم (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن زينب بنت أبى سلمة ، عن أم سلمة قالت : دخل عليها [رسول الله — صلى الله عليه وسلم] — وعندها مخنث ، وعندها [أخوها] عبد الله بن أبى أمية [والمخنث يقول لعبد الله : يا عبد الله بن أبى أمية] إن فتح الله عليكم الطائف غداً ، فعليك بابنة غيلان ، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان . قال : فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لأم سلمة : لا يدخلن هذا عليك (٤) .

أخرجاه فى الصحيحين ، من حديث هشام بن عروة ، به (٥) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهرى ، عن عروة بن الزبير ، عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : كان رجل يدخل على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم مخنث ، وكانوا يَعُدّونه من غير أولى الإربة ، فدخل النبى صلى الله عليه وسلم [يوما] وهو عند بعض نسائه ، وهو ينعت امرأة ، فقال : إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت أدبرت بثمان . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ألا أرى هذا يعلم ماهاهنا ؟ لا يدخلَنّ عليكم هذا ، فحجبوه (٦) .

---

(١) كذا فى المخطوطة مضبوطاً .

(٢) الزب — بضم الزاى — : الذكر بلغة أهل اليمن . والأثر فى تفسير الطبرى : ١٨/٩٦ .

(٣) سنن أبى داود ، كتاب اللباس ، باب فى قوله : (غير أولى الإربة) ، الحديث ٤١٠٩ : ٤/٦٣ . والمعنى أنها تقبل بأربع عكن — بضم ففتح — وتدبر بثمان عكن ، والعكن : جمع عكنة ، وهى ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمناً .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٦/٢٩٠ . وما بين الأقواس عن المسند .

(٥) البخارى ، كتاب اللباس ، باب « إخراج المتشبهين بالنساء من البيوت » : ٧/٢٠٥ . ومسلم ، كتاب السلام ، باب « منع المخنث من الدخول على النساء الأجانب » : ٧/١٠ — ١١ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٦/١٥٢ .

ورواه مسلم ، وأبو داود ، والنسائي من طريق عبد الرزاق ، (١) به .

وقوله : (أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) ، يعني لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهنّ من كلامهنّ الرخيم ، وتعطفهن في المشية وحركاتهن وسكناتهن ، فإذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك فلا بأس بدخوله على النساء ، فأما إن كان مراهقا أو قريبا منه ، بحيث يعرف ذلك ويدريه ، ويفرق بين الشوهاء والحسناء ، فلا يمكن من الدخول على النساء : وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إياكم والدخول على النساء . قالوا : يا رسول الله ، أفرأيت الحمُوُ(٢) ؟ قال : الحَمْوُ الموت (٣) .

وقوله : (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) ، كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت ــ لا يسمع صوته ــ ضربت برجلها الأرض ، فيعلم الرجال طنينه ، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك : وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستوراً ، فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي ، دخل في هذا النهي ؛ لقوله تعالى : (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) : ومن ذلك أيضا أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها ليَشْتَمّ الرجال طيبها ، فقد قال أبو عيسى الترمذي :

حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا يحيى بن سعيد القطان ، عن ثابت بن عُمَارة الحنفي ، عن غُنَيم بن قيس ، عن أبي موسى ــ رضي الله عنه ــ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كل عين زانية ، والمرأة إذا استعطرت فمرّت بالمجلس ، فهي كذا وكذا ــ يعني زانية .

قال : « وفي الباب عن أبي هريرة ، وهذا حسن صحيح (٤) » .

رواه أبو داود والنسائي ، من حديث ثابت بن عمارة ، (٥) به .

وقال أبو داود : حدثنا محمد بن كثير ، أخبرنا سفيان ، عن عاصم بن عبيد الله ، عن عبيد مولى أبي رهم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لقيته امرأة وجد منها ريح الطيب ، ولذيلها إعصار فقال : يا أمة الجبار(٦) ، جئت من

---

(١) مسلم ، كتاب السلام ، باب « منع المخنث من الدخول على النساء الأجانب » : ١١/٨ . وسنن أبي داود ، كتاب اللباس ، باب في قوله : (غير أولى الإربة) ، الحديث ٤١٠٨ : ٦٣/٤ .

(٢) الحمو ــ بفتح فسكون ــ : أحد الأحماء ، وهم أقارب الزوج . والمعنى فيه أنه إذا كان رأيه هذا في أبي الزوج ــ وهو محرم ــ فكيف بالغريب ؟ أي : فلتمت ولا تفعلن ذلك . وهذه كلمة تقولها العرب ، كما تقول : الأسد الموت ، والسلطان النار ، أي لقاؤهما مثل الموت والنار .

(٣) البخاري ، كتاب النكاح ، باب « لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم ، والدخول على المغيبة » : ٤٨/٧ . ومسلم ، كتاب السلام ، باب « تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها » : ٧/٧ .

(٤) تحفة الأحوذي ، أبواب الاستئذان ، باب « ما جاء في كراهية خروج المرأة متعطرة » ، الحديث ٢٩٣٧ : ٧٠/٨-٧١ .

(٥) سنن أبي داود ، كتاب الترجل ، باب « ما جاء في المرأة تتطيب للخروج » ، الحديث ٤١٧٣ : ٧٩/٤ . والنسائي ، كتاب الزينة ، باب « ما يكره للنساء من الطيب » : ١٥٣/٨ .

(٦) قال أبو داود : « الإعصار : غبار » . وفي رواية : « عصرة » ــ بفتح العين والصاد ــ والعصرة والإعصار : الغبار الصاعد إلى السماء مستطيلا ، وهي الزوبعة ، قيل : وتكون العصرة من فوح الطيب ، فشبهه بما تثير الريح من الإعاصير ، هذا وقد ناداها بأمة الجبار تخويفاً لها ، حتى تقلع عن الحال التي هي عليها من إظهار الطيب .

المسجد ؟ قالت : نعم . قال لها : [وله] (١) تطيبت ؟ قالت : نعم . قال : إني سمعت حبي أبا القاسم صلى الله عليه وسلم يقول « لا يقبل الله صلاة امرأة تطيبت لهذا المسجد ، حتى ترجع فتغتسل غسلها من الجنابة (٢) .

ورواه ابن ماجه ، عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن سفيان — هو ابن عيينة — (٣) به .

وروى الترمذي أيضاً من حديث موسى بن عبيدة ، عن أيوب بن خالد ، عن ميمونة بنت سعد (٤) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الرافلة في الزينة (٥) في غير أهلها ، كمثل ظلمة يوم القيامة لا نور لها (٦) .

ومن ذلك أيضا أنهن ينهين عن المشي في وسط الطريق ، لما فيه من التبرج ؛ قال أبو داود :

حدثنا القعنبي ، حدثنا عبد العزيز — يعني ابن محمد — عن ابي اليمان ، عن شداد بن أبي عمرو بن حماس ، عن أبيه ، عن حمزة بن أبي أسيد الأنصاري ، عن أبيه : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو خارج من المسجد — وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء : « استأخرن ، فإنه ليس لكن أن تحققن (٧) الطريق ، عليكن بحافات الطريق . فكانت المرأة تلصق بالجدار ، حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار ، من لصوقها (٨) به .

وقوله : (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) ، أي : افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة ، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة ، فان الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله ، وترك ما نهيا عنه ، والله تعالى هو المستعان

وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

اشتملت هذه الآيات الكريمات المبينة على جمل من الأحكام المحكمة ، والأوامر المبرمة ، فقوله تعالى : (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم) هذا أمر بالترويج . وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه ، على كل من

(١) ما بين القوسين عن سنن أبي داود .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الترجل ، باب « ما جاء في المرأة تتطيب للخروج » ، الحديث ٤١٧٤ : ٤/٧٩ .

(٣) سنن ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب « فتنة النساء » ، الحديث ٤٠٠٢ : ٢/١٣٢٦ .

(٤) في الترمذي أن ميمونة هذه كانت خادماً للنبي صلى الله عليه وسلم .

(٥) الرافلة : هي التي تتبختر في ثوبها . و « في غير أهلها » ، أي : بين من يحرم نظره إليها .

(٦) تحفة الأحوذي ، أبواب الرضاع ، باب « ما جاء في كراهية خروج النساء في الزينة » ، الحديث ١١٧٧ : ٤/٣٢٩ . وقال الترمذي : « هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث موسى بن عبيدة ، وموسى بن عبيدة يضعف في الحديث من قبل حفظه ، وهو صدوق . وقد روى عنه شعبة والثوري . وقد رواه بعضهم عن موسى بن عبيدة ولم يرفعه » .

(٧) أي تركبن حقها — بضم فسكون — وهو : وسط الطريق .

(٨) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « في مشي النساء مع الرجال في الطريق » ، الحديث ٥٢٧٢ : ٤/٣٦٩ .

قَدَّر عليه . واحتجوا بظاهر قوله صلى الله عليه وسلم : يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فانه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ؛ ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فانه له وجاء : أخرجاه من حديث ابن مسعود (١) .

وجاء فى السنن ـ من غير وجه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تزوجوا توالدوا تناسلوا ، فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة (٢) : وفى رواية : حتى بالسقط .

الأيامى : جمع أيم ، ويقال ذلك للمرأة التى لا زوج لها ، وللرجل الذى لا زوجة له ؛ وسواء كان قد تزوج ثم فارق ، أولم يتزوج واحد منهما ، حكاه الجوهرى عن أهل اللغة ، يقال : رجل أيمٌ وامرأة أَيِّم أيضا (٣) .

وقوله تعالى : (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم) قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : رغبهم الله فى التزويج ، وأمر به الأحرار والعبيد ، ووعدهم عليه الغنى ، فقال : (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من (٤) فضله) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمود بن خالد الأزرق ، حدثنا عمر بن عبد الواحد ، عن سعيد ـ يعنى ابن عبد العزيز ـ قال : بلغنى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال : أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ، ينجز ماوعدكم من الغنى ، قال : (إن يكونوا فقراء يغنهم الله [من فضله)

وعن ابن مسعود : التمسوا الغنى فى النكاح ، يقول الله تعالى: (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله)] ، رواه ابن جرير (٥) ، وذكر البغوى [عن عمر] بنحوه .

وعن الليث ، عن محمد بن عجلان ، عن سعيد المقبُرى، عن أبى هُرَيْرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ثلاثة حق على الله عونهم : الناكح يريد العفاف ، والمكاتَب يريد الأداء، والغازى فى سبيل الله » . رواه الإمام أحمد ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه (٦) .

---

(١) البخارى ، كتاب الصوم ، باب « الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة » : ٣/٣٤ . ومسلم ، أول كتاب النكاح : ٤/١٢٨ .

والباءة : النكاح والتزويج . وهو من المباءة ، وهى المنزل ، لأن من تزوج امرأة بوأها منزلا . وقيل : لأن الرجل يتبوأ من أهله ، أى : يستمكن ، كما يتمكن من منزله .

والوجاء : أن ترض أنثيا الفحل رضا شديداً ، يذهب شهوة الجماع حتى يكون أشبه بالخصى ، وإن لم تقطع أنثياه . أراد أن الصوم يقطع النكاح كما يقطعه الوجاء .

(٢) سنن أبى داود ، كتاب النكاح ، باب « النهى عن تزويج من لم يلد من النساء » ، الحديث ٢٠٥٠ : ٢/٢٢٠ . والنسائى ، كتاب النكاح ، باب « كراهية تزويج العقيم » : ٦/٦٥ .

(٣) الصحاح للجوهرى : ٥/١٨٦٨ .

(٤) تفسير الطبرى : ١٨/٩٨ .

(٥) الأثر فى تفسير الطبرى : ١٨/٩٨ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٢/٢٥١ ، ٤٣٧ من طريق يحيى عن ابن عجلان . وتحفة الأحوذى ، أبواب فضائل الجهاد ، باب « ما جاء فى المجاهد والمكاتب والناكح وعون الله إياهم » ، الحديث ١٧٠٦ : ٥/٢٩٦ . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن » . والنسائى ، كتاب النكاح ، باب « معونة الله الناكح الذى يريد العفاف » : ٦/٦١ ، وكتاب الجهاد ، باب « فضل الروحة فى سبيل الله عز وجل » : ٦/١٥ ـ ١٦ . وابن ماجه ، كتاب العتق ، باب « المكاتب » ، الحديث ٢٥١٨ : ٢/٨٤١ـ٨٤٢ .

وقد زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الرجل الذى لم يجد إلا إزاره ، ولم يقدر على خاتم من حديد ، ومع هذا فزوّجه بتلك المرأة ، وجعل صداقها عليه أن يعلمها ماتحفظه من القرآن :

والمعهود من كرم الله تعالى ولطفه أن يرزقه مافيه كفاية له ولها . فأما مايورده كثير من الناس على أنه حديث : « تزوجوا فقراء يغنكم الله » فلا أصل له ، ولم أره بإسناد قوى ولا ضعيف إلى الآن ، وفى القرآن غنية عنه وكذا هذا الحديث الذى أوردناه ولله الحمد .

وقوله : (وليستعفف الذين لايجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله) ، هذا أمر من الله تعالى لمن لايجد تزويجاً [بالتعفف] عن الحرام ، كما قال — عليه الصلاة والسلام — : يامعشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج . ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » .

وهذه الآية مطلقة ، والتى فى سورة النساء أخص منها ، وهى قوله تعالى : (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات ، فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) ، إلى أن قال : (ذلك لمن خشى العنت منكم وأن تصبروا خير لكم) (١) ، أى : صبركم عن تزويج الإماء خير ، لأن الولد يجىء رقيقا ، (والله غفور رحيم) .

قال عكرمة فى قوله : (وليستعفف الذين لايجدون نكاحاً) ، قال : هو الرجل يرى المرأة فكأنه يشتهى ، فإن كانت له امرأة فليذهب إليها وليقض حاجته منها ، وإن لم يكن له امرأة فلينظر فى ملكوت السموات [والأرض] حتى يغنيه الله .

وقوله : (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً) ، هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب منهم عبيدهم الكتابة أن يكاتبوا ، بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب يؤدى إلى سيده المال الذى شارطه على أدائه . وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا الأمر أمرُ إرشاد واستحباب ، لا أمر تحتم وإيجاب ، بل السيد مخير ، إذا طلب منه عبده الكتابة إن شاء كاتبه ، و إن شاء لم يكاتبه :

وقال الثورى ، عن جابر ، عن الشعبى : إن شاء كاتبه وإن شاء لم يكاتبه .

وقال ابن وهب ، عن إسماعيل بن عياش ، عن رجل ، عن عطاء بن أبى رباح : إن يشأ يكاتبه وإن لم يشأ لم يكاتبه . وكذا قال مقاتل بن حيان ، والحسن البصرى .

وذهب آخرون إلى أنه يجب على السيد إذا طلب منه عبده ذلك أن يجيبه إلى ماطلبه ؛ أخذاً بظاهر هذا الأمر :

قال البخارى : وقال روح ، عن ابن جريج قلت لعطاء : [أواجب علىّ إذا علمت له مالا أن أكاتبه ؟ قال : ماأراه إلا واجباً . وقال عمرو بن دينار : قلت لعطاء] أتأثره عن أحد ؟ قال : لا : ثم أخبرنى أن موسى بن أنس أخبره ، أن سيرين سأل أنساً المكاتبة — وكان كثير المال فأبى ، فانطلق إلى عمر بن الخطاب فقال : كاتبه . فأبى ، فضربه بالدّرة ، ويتلو عمر رضى الله عنه : (فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً) ، فكاتبه (٢) .

---

(١) سورة النساء ، آية : ٢٥ .

(٢) البخارى ، كتاب العتق ، باب فى المكاتب ، : ٣/١٩٨ . وما بين القوسين منه .

هكذا ذكره البخارى تعليقا ، ورواه عبد الرزاق : أخبرنا ابن جريج قال : قلت لعطاء : أواجب علىّ إذا علمت له مالا أن أكاتبه ؟ قال : ما أراه إلا واجباً ، وقالها عمرو (١) بن دينار ، قال : قلت لعطاء : أتأثره عن أحد ؟ قال : لا ، (٢) .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن بكر ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك : أن سيرين أراد أن يكاتبه ، فتلكأ عليه ، فقال له عمر : لتكاتبنّه : إسناد صحيح(٢) .

وقال سعيد بن منصور : حدثنا هُشَيم بن جويبر ، عن الضحاك قال : هى عَزْمة .

وهذا هو القول القديم من قولىّ الشافعى رحمه الله ، وذهب فى الجديد إلى أنه لا يجب ، لقوله عليه الصلاة والسلام : لا يحلّ مال امرىء مسلم إلا بطيب من نفسه .

وقال ابن وهب : قال مالك : الأمر عندنا أنْ ليس على سيد العبد أن يكاتبه إذا سأله ذلك ، ولم أسمع أحداً من الأئمة أكره أحداً على أن يكاتب عبده ، قال مالك وإنما ذلك أمر من الله ، وإذن منه للناس ، وليس بواجب .

وكذا قال الثورى ، وأبو حنيفة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهم ، واختار ابنُ جرير قولَ الوجوب لظاهر الآية .

وقوله : (إن علمتم فيهم خيراً) ، قال بعضهم : أمانة ، وقال بعضهم : صدقا، [وقال بعضهم : مالا] ، وقال بعضهم : حيلة وكسبا .

وروى أبو داود فى كتاب المراسيل ، عن يحيى بن أبى كثير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً) ، قال : إن علمتم فيهم حرفة ، ولا ترسلوهم كَلاًّ (٣) على الناس .

وقوله : (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) ، اختلف المفسرون فيه ، فقال قائلون : معناه اطرحوا لهم من الكتابة بعضها ، ثم قال بعضهم : مقدار الربع ، وقيل : الثلث ، وقيل : النصف ، وقيل : جزء من الكتابة من غير حد .

وقال آخرون : بل المراد من قوله : (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) : هو النصيب الذى فرض الله لهم من أموال الزكوات ، وهذا قول الحسن ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وأبيه ، ومقاتل بن حيان ، واختاره ابن جرير (٤) .

وقال إبراهيم النخعى فى قوله : (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) ، قال : حَثّ الناس عليه ، مولاه وغيره ، وكذلك قال بُرَيدة بن الحُصَيب الأسلمى ، وقتادة .

وقال ابن عباس : أمر الله المؤمنين أن يعينوا فى الرقاب . وقد تقدّم فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثلاثة حق على الله عونهم » ، فذكر منهم المكاتَب يريد الأداء ، والقول الأول أشهر .

---

(١) فى المخطوطة : « وقال عمرو بن دينار » . والمثبت من تفسير الطبرى .
(٢) تفسير الطبرى : ١٨/٩٨ .
(٣) الكل – بفتح الكاف : العالة .
(٤) تفسير الطبرى : ١٨/١٠٢ .

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل(١)، حدثنا وكيع، عن ابن شبيب، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن عمر: أنه كاتب عبدا له، يكنى أبا أمية، فجاء بنجمه (٢) حين حل، فقال: يا أبا أمية، اذهب فاستعن به في مكاتبتك. قال: يا أمير المؤمنين، لو تركته حتى يكون من آخر نجم؟ قال: أخاف أن لا أدرك ذلك، ثم قرأ: (فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً، وآتوهم من مال الله الذي آتاكم (٣)). قال عكرمة: كان أول نجم أُدّي في الإسلام.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا هارون بن المغيرة، عن عنبسة، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير قال: كان ابن عمر إذا كاتب مكاتبه لم يضع عنه شيئا من أول نجومه، مخافة أن يعجز فرجع إليه صدقته. ولكنه إذا كان في آخر مكاتبته، وضع عنه ما أحب (٤).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم)، قال: يعني ضعوا عنهم من مكاتبتهم. وكذلك قال مجاهد، وعطاء، والقاسم بن أبي بزّة، وعبد الكريم بن مالك الجزري، والسدي.

وقال محمد بن سيرين في قوله: (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم): كان يعجبهم أن يدع الرجل لمكاتبه طائفة من مكاتبته.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا الفضل بن شاذان المقرىء، أخبرنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام بن يوسف، عن ابن جريج، أخبرني عطاء بن السائب: أن عبد الله بن جندب أخبره، عن علي – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: ربع الكتابة.

وهذا حديث غريب، ورفعه منكر، والأشبه أنه موقوف على علي رضي الله عنه كما رواه [عنه] أبو عبد الرحمن السلمي، رحمه الله.

وقوله: (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) الآية، كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت. فلما جاء الإسلام نهى الله المسلمين عن ذلك.

وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة – فيما ذكره غير واحد من المفسرين، من السلف والخلف – في شأن عبد الله ابن أبي ابن سلول، فإنه كان له إماء، فكان يكرههن على البغاء طلبا لخراجهن، ورغبة في أولادهن، ورياسة منه فيما يزعم.

---

(١) هو محمد بن إسماعيل بن البختري الحساني الواسطي، قال ابن أبي حاتم في الجرح ٣/٢/١٩٠: «سمع منه أبي، وأدركته بسامراء، ولم يقض لي السماع منه». وعلى هذا يبدو أنه سقط من سند ابن أبي حاتم ذكر أبيه، والله أعلم.

(٢) النجم هنا: القسط، وقد كان السيد يقسم ما يريده من عبده على أقساط ليتمكن من دفعها له. وأصله أن العرب كانت تجعل مطالع منازل القمر ومساقطها مواقيت لحلول ديونها وغيرها، فتقول: إذا طلع النجم حل عليك مالي، أي: الثريا. وكذا باقي المنازل.

(٣) أخرجه السيوطي في الدر المنثور: ٥/٤٦، عن عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، والبيهقي.

(٤) تفسير الطبري: ١٨/١٠١.

[ذكر الآثار الواردة فى ذلك]

قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار رحمه الله فى مسنده : حدثنا أحمد بن داود الواسطى ، حدثنا أبو عمرو اللخمى ــ يعنى محمد بن الحجاج ــ حدثنا محمد بن إسحاق ، عن الزهرى قال : كانت جارية لعبد الله ابن أبى ابن سلول ، يقال لها معاذة (١) ، يكرهها على الزنا ، فلما جاء الإسلام نزلت : (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) ، إلى قوله : (فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) .

وقال الأعمش ، عن أبى سفيان عن جابر فى هذه الآية : (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) ، قال : نزلت فى أمة لعبد الله بن أبى ابن سلول يقال لها مسيكة ، كان يكرهها على الفجور ، وكانت لا بأس بها ، فتأبى . فأنزل الله عز وجل هذه الآية إلى قوله : (ومن يكرههن فان الله من بعد إكراههن غفور رحيم (٢)) .

وروى النسائى ، من حديث ابن جريج ، عن أبى الزبير ، عن جابر نحوه .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا عمرو بن على ، حدثنا على بن سعيد ، حدثنا الأعمش ، حدثنى أبو سفيان ، عن جابر قال : كان لعبد الله بن أبى ابن سلول جارية يقال لها مسيكة ، وكان يكرهها على البغاء ، فأنزل الله : (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) إلى قوله : (ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) .

صرح الأعمش بالسماع من أبى سفيان طلحة بن نافع ، فدل على بطلان قول من قال : لم يسمع منه ، إنما هو صحيفة ؛ حكاه البزار .

قال أبو داود الطيالسى ، عن سليمان بن معاذ ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن جارية لعبد الله بن أبى كانت تزنى فى الجاهلية ، فولدت أولادا من الزنا ، فقال لها : مالك لا تزنين قالت : لا ، والله لا أزنى . فضربها ، فأنزل الله عز وجل : (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا (٣)) .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن الزهرى : أن رجلا من قريش أُسر يوم بدر ، وكان عند عبد الله بن أُبَىّ أسيراً ، وكانت لعبد الله بن أُبَىّ جارية يقال لها معاذة ، وكان القرشى الأسير يريدها على نفسها ، وكانت مسلمة ، وكانت تمتنع منه لإسلامها ، وكان عبد الله بن أبى يكرهها على ذلك ويضربها ، رجاءَ أن تحمل للقرشى ، فيطلب فداء ولده ، فقال تبارك وتعالى : (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ، إن أردن تحصنا) (٤) .

وقال السدى : أنزلت هذه الآية الكريمة فى عبد الله بن أبى ابن سلول رأس المنافقين ، وكانت له جارية تدعى معاذة ، وكان إذا نزل به ضيف أرسلها إليه ليواقعها ، إرادةَ الثواب منه والكرامة له فأقبلت الجارية إلى أبى بكر ــ رضى الله عنه ــ

---

(١) انظر ترجمة معاذة فى الاستيعاب لابن عبد البر : ١٩١٣/٤ ، وأسد الغابة لابن الأثير : ٥٤٧/٥ ط الوهبية .

(٢) تفسير الطبرى : ١٠٣/١٨ ، وأسد الغابة : ٥٤٦/٥ .

(٣) تكرر فى المخطوطة والطبعات السابقة بعد حديث أبى داود هذا ، الحديث الذى رواه البزار عن احمد بن داود الواسطى ، والذى تقدم فى صدر هذه الآثار .

(٤) تفسير الطبرى : ١٠٣/١٨ .

فشكت إليه ذلك ، فذكره أبو بكر للنبي صلى الله عليه وسلم ، فأمره بقبضها : فصاح عبد الله بن أبي : من يَعْذُرني (١) من محمد ، . يغلبنا على مملوكتنا . فأنزل الله فيهم هذا .

وقال مقاتل بن حيان : بلغنا — والله أعلم — أن هذه الآية نزلت في رجلين كانا : يكرهان أمتين لهما إحداهما اسمها مسيكة وكانت للأنصاري (٢) وكانت أميمة أم مسيكة لعبد الله بن أبي ، وكانت معاذة وأروى بتلك المنزلة ، فأتت مسيكة وأمها النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكرتا ذلك له ، فأنزل الله في ذلك : (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) يعني الزنا .

وقوله : (إن أردن تحصنا) : هذا خرج مخرج الغالب ، فلا مفهوم له .

وقوله : (لتبتغوا عرض الدنيا) ، أي : من خَرَاجِهن (٣) ومهورهن وأولادهن : وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كسب الحجّام ، ومهر البَغيّ ، وحُلْوان الكاهن (٤) — وفي رواية : مهر البغي خبيث ، وكسب الحجام خبيث ، وثمن الكلب خبيث (٥) .

وقوله : (ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) ، [أي ، لهن ، كما تقدم في الحديث عن جابر .

وقال ابن أبي طلحة ، عن ابن عباس : فإن فعلتم فإن الله لهن غفور رحيم] وإثمهن على من أكرههن . وكذا قال مجاهد ، وعطاء الخراساني ، والأعمش وقتادة .

وقال أبو عبيد : حدثني إسحاق الأزرقُ ، عن عوف ، عن الحسن في هذه الآية : (فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) ، قال : لهن والله ، لهن والله .

وعن الزهري قال : غفور لهن ما أُكْرِهْنَ عليه .

وعن زيد بن أسلم قال : غفور رحيم للمكرهات .

حكاهن ابن المنذر في تفسيره بأسانيده .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا يحيى بن عبد الله ، حدثني ابن لهيعة ، حدثني عطاء ، عن سعيد بن جبير قال : في قراءة عبد الله بن مسعود (فإن الله من بعد إكراههن لَهُنَّ غفور رحيم) وإثمهن على من أكرههن .

---

(١) أي : من يقوم بعذري ، إن كافأته على صنيعه . ؟

(٢) في المخطوطة : «وكانت للأنصار» . والمثبت عن الدر المنثور : ٥/٤٧ . ولفظ الدر : «وكانت للأنصاري ، والأخرى أميمه أم مسيكة لعبد الله بن أبي» .

(٣) الخراج : غلة العبد .

(٤) البخاري ، كتاب البيوع ، باب «ثمن الكلب» : ٣/١١٠ . وكتاب الإجارة ، باب «كسب البغي والإماء» : ٣/١٢٢ . وكتاب الطلاق ، باب «مهر البغي والنكاح الفاسد» : ٧/٧٩ . وكتاب الطب ، باب «الكهانة» : ٧/١٧٦ . وكتاب اللباس ، باب «من لعن المصور» : ٧/٢١٧ . ومسلم ، كتاب «البيوع» ، باب «تحريم ثمن الكلب ...» : ٥/٣٥ .

(٥) سنن أبي داود ، كتاب البيوع ، باب «في كسب الحجام» ، الحديث ٣٤٢١ : ٣/٢٦٦ . وتحفة الأحوذي ، أبواب البيوع ، باب «ما جاء في ثمن الكلب» ، الحديث ١٢٩٤ : ٤/٤٩٥ — ٤٩٧ . ومسند الإمام أحمد عن رافع بن خديج : ٣/٤٦٤ ، ٤٦٥ .

وفى الحديث المرفوع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال: « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه » (١) .

ولما فصل تعالى هذه الأحكام وبيّنها قال : (ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات) ، يعنى : القرآن فيه آيات واضحات مفسرات ، (ومثلا من الذين خلوا من قبلكم) ، أى : خبرا عن الأمم الماضية ، وما حل بهم فى مخالفتهم أوامر الله تعالى ، كما قال تعالى : (فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين) (٢)

(وموعظة) ، أى : زاجرا عن ارتكاب المآثم والمحارم (للمتقين) ، أى : لمن اتقى الله وخافه .

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه فى صفة القرآن : فيه حكم مابينكم ، وخبر ماقبلكم ، ونبأ مابعدكم . وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله . ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله (٣) .

* ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (الله نور السموات والأرض) ، يقول : هادى أهل السموات والأرض .

وقال ابن جريج : قال مجاهد وابن عباس فى قوله : (الله نور السموات والأرض) : يدبر الأمر فيهما ، نجومهما وشمسهما وقمرهما :

وقال ابن جرير : حدثنا سليمان بن عمر بن خالد الرقى(٤)،حدثنا وهب بن راشد، عن فرقد ، عن أنس بن مالك قال : إن إلهى يقول : نورى هداى (٥) .

واختار هذا القول ابن جرير ، رحمه الله .

وقال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، عن أبىّ بن كعب فى قول الله تعالى : (الله نور السموات والأرض مثل نوره) ، قال : هو المؤمن الذى قد جعل [الله] الإيمان والقرآن فى صدره ، فضرب الله مثله فقال : (الله نور السموات والأرض) ، فبدأ بنور نفسه : ثم ذكر نور المؤمن فقال : مثل نور من آمن به ــ قال فكان أبى بن كعب يقرؤها : (مثل نور من آمن به) ، فهو المؤمن جعل الإيمان والقرآن فى صدره (٦) .

---

(١) ابن ماجه ، كتاب الطلاق ، باب « طلاق المكره والناسى » ، الأحاديث ٢٠٤٣ ــ ٢٠٤٥ : ١/٦٥٩ .
(٢) سورة الزخرف ، آية : ٥٦ .
(٣) انظر نهج البلاغة ، باب المختار من حكم أمير المؤمنين ، الحكمة ٣١١ : ٤٠٦ بتحقيقنا .
(٤) فى تفسير الطبرى : « سليمان بن عمر بن خلدة » والصواب ما فى مخطوطة الأزهر . وترجمة « سليمان بن عمر بن خالد » فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٢/١/١٣١ .
(٥) تفسير الطبرى : ١٨/١٠٥ .
(٦) انظر تفسير الطبرى : ١٨/١٠٥ ، والبحر المحيط لأبى حيان : ٦/٤٥٥ .

وهكذا قال سعيد بن جُبير ، وقيس بن سعد ، عن ابن عباس أنه قرأها كذلك (نور من آمن بالله) .

وقرأ بعضهم : (الله نَوّر السموات والأرض (١)) .

وعن الضحاك : (الله نوّر السموات والأرض) .

وقال السدى فى قوله : (الله نور السموات والأرض) : فبنوره أضاءت السموات والأرض .

وفى الحديث الذى رواه محمد بن إسحاق فى السيرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فى دعائه يوم آذاه أهل الطائف : « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل بى غضبك ، أو ينزل بى سَخَطك ، لك العتبى (٢) حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك (٣) .

وفى الصحيحين عن ابن عباس : كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا قام من الليل يقول : « اللهم لك الحمد ، أنت قَيّم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن » ... الحديث (٤) .

وعن ابن مسعود – رضى الله عنه – قال : إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش من نور وجهه .

وقوله : (مثل نوره) ، فى هذا الضمير قولان . :

أحدهما : أنه عائد إلى الله عز وجل ، أى : مثل هداه فى قلب المؤمن ، قاله ابن عباس (كمشكاة) .

والثانى : أن الضمير عائد إلى المؤمن الذى دل عليه سياق الكلام ، تقديره : مثل نور المؤمن الذى فى قلبه كمشكاة . فشبه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى ، وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه ، كما قال تعالى : (أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه)، فشبه قلب المؤمن فى صفائه فى نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهرى ، وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافى المشرق المعتدل ، الذى لا كدر فيه ولا انحراف .

فقوله : (كمشكاة) ، قال ابن عباس ، ومجاهد ، ومحمد بن كعب ، وغير واحد : هو موضع الفتيلة من القنديل . هذا هو المشهور ، ولهذا قال بعده : (فيها مصباح) ، وهو الذّبالة التى تضىء .

وقال العوفى ، عن ابن عباس قوله : (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) ، وذلك أن اليهود قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم : كيف يخلص نور الله من دون السماء ؟ فضرب الله مثل [ذلك] لنوره ، فقال :

---

(١) البحر المحيط لأبى حيان : ٦/٤٥٥ .

(٢) العتبى : الرجوع عن الذنب .

(٣) فى المخطوطة : « إلا بالله » . والمثبت عن سيرة ابن هشام : ١/٤٢٠ .

(٤) البخارى ، باب التهجد بالليل : ٢/٦٠ – ٦١ ، وكتاب التوحيد : ٩/١٤٣ – ١٤٤ . ومسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب « الدعاء فى صلاة الليل » : ٢/١٨٤ . ومسند الإمام أحمد : ١/٣٥٨ .

(الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة) — والمشكاة : كوّة في البيت — قال : وهو مثل ضرّبه الله لطاعته ، فسمى الله طاعتَه نُوراً ، ثم سمّاها أنواعا شتّى (١) .

وقال ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : الكوة بلغة الحبشة (٢) . وزاد غيره فقال : المشكاة الكوة التي لا منفذ لها . وعن مجاهد : المشكاة : الحدائد التي يعلق بها القنديل .

والقول الأول أولى ، وهو أن المشكاة هي موضع الفتيلة من القنديل ، ولهذا قال : (فيها مصباح) ، وهو النور الذي في الذبالة .

قال أبي بن كعب : المصباح : النور ، وهو القرآن والإيمان الذي في صدره (٣) .

وقال السدي : هو السراج .

(المصباح في زجاجة) ، أي : هذا الضوء مشرق في زجاجة صافية .

قال أبيّ بن كعب وغير واحد : وهي نظير قلب المؤمن ، (الزجاجة كأنها كوكب درى) ، قرأ بعضهم بضم الدال من غير همزة ، من الدّر ، أي : كأنها كوكب من درّ .

وقرأ آخرون : (درّيء) و (درّيء) بكسر الدال وضمها (٤) مع الهمز ، من الدَّرْء وهو الدفع ، وذلك أن النجم إذا رُمِي به يكون أشدّ استنارةً من سائر الأحوال ، والعرب تسمي مالا يعرف من الكواكب دراريْ (٥) .

قال أبيّ بن كعب : كوكب مضيء . وقال قتادة : مضيء مبين ضخم .

(يوقد من شجرة مباركة) ، أي : يستمد من زيت زيتون شجرة مباركة : (زيتونة) ، بدل أو عطف بيان ، (لا شرقية ولا غربية) ، أي : ليست في شرقي بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار ، ولا في غربيها فيتقلّص عنها الفيء قبل الغروب ، بل هي في مكان وسط ، تفْرَعه (٦) الشمس من اول النهار إلى آخره ، فيجيء زيتها معتدلا صافيا مشرقا (٧) .

---

(١) في تفسير الطبري ١٨/١٠٦ : «ثم سماها أنواراً شتى» .

(٢) انظر المعرب للجواليقي : ٣٥١ .

(٣) تفسير الطبري : ١٨/١٠٧ .

(٤) لم يرد في كلام العرب على وزن فعيل — بضم الفاء ، وكسر العين مشددة — إلا كلمتان : دريء ، ومريق ، وهو المصبوغ بالعصفر . انظر البحر المحيط لأبي حيان : ٦/٤٥٦ ، والممتع لابن عصفور : ١/٩٩ — ١٠٠ .

(٥) معاني القرآن للفراء : ٢/٢٥٢ .

(٦) في المخطوطة : «تقصرها» . وسيأتي بعد قليل عند قول المؤلف : «وأولى هذه الأقوال ...» : «تقرعه من أول النهار» . ولعل الصواب ما أثبتناه ، وفي اللسان : «وفرع الشيء يفرعه فرعاً وفروعاً ، وتفرعه : علاه» .

(٧) عبارة ابن جرير أدل على المعنى مما قاله ابن كثير ، قال ١٨/١٠٩—١١٠ : «أي : ليست شرقية وحدها حتى لا تصيبها الشمس إذا غربت ، وإنما لها نصيبها من الشمس بالغداة ، ما دامت بالجانب الذي يلي الشرق ، ثم لا يكون لها نصيب منها إذا مالت إلى جانب الغرب . ولا هي غربية وحدها ، فتصيبها الشمس بالعشي إذا مالت إلى جانب الغرب ، ولا تصيبها بالغداة ، ولكنها شرقية غربية ، تطلع عليها الشمس بالغداة ، وتغرب عليها ، فيصيبها حر الشمس بالغداة والعشي ، قالوا : وإذا كانت كذلك ، كان أجود لزيتها» .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عمار قال : حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن سعد ، أخبرنا عمرو بن أبي قيس ، عن سماك بن حرب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس في قوله : (زيتونة لا شرقية ولا غربية) ، قال : شجرة بالصحراء ، لا يظلها جبل ولا شجر ولا كهف ، ولا يواريها شيء ، وهو أجود لزيتها (١) .

وقال يحيى بن سعيد القطان ، عن عمران بن حُدَير ، عن عكرمة ، في قوله (لا شرقية ولا غربية) ، قال : هي بصحراء ، وذلك أصفى لزيتها .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو نُعَيم ، حدثنا عُمَر بن فَرّوخ ، عن حبيب بن الزبير ، عن عكرمة — وسأله رجل عن : (زيتونة لا شرقية ولا غربية) ، قال : تلك بأرض فلاة ، إذا أشرقت الشمس أشرقت عليها ، وإذا غربت غربت عليها فذاك أصفى ما يكون من الزيت .

وقال مجاهد في قوله : (لا شرقية ولا غربية) ، قال : ليست بشرقية ، لا تصيبها الشمس إذا غربت ، ولا غربية لا تصيبها الشمس إذا طلعت ، [ولكنها شرقية وغربية ، تصيبها إذا طلعت] وإذا غربت .

وقال سعيد بن جُبَير في قوله : (زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء) ، قال : هو أجود الزيت ، قال : إذا طلعت الشمس أصابتها من صَوب المشرق ، فإذا أخذت في الغروب أصابتها الشمس ، فالشمس تصيبها بالغداة والعشي ، فتلك لا تعد شرقية ولا غربية .

وقال السدي قوله : (زيتونة لا شرقية ولا غربية) ، يقول : ليست بشرقية يحوزها المشرق ، ولا غربية يحوزها المغرب دون المشرق ، ولكنها على رأس جبل ، أو في صحراء ، تصيبها الشمس النهارَ كلَّه .

وقيل : المراد بقوله (زيتونة لا شرقية ولا غربية) : أنها في وسط الشجر ، وليست بادية للمشرق ولا للمغرب :

وقال أبو جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب ، في قول الله تعالى : (زيتونة لا شرقية ولا غربية) قال : فهي خضراء ناعمة ، لا تصيبها الشمس على أي حال كانت ، لا إذا طلعت ولا إذا غربت — قال : فكذلك هذا المؤمن ، قد أجير من أن يصيبه شيء من الفتن ، وقد ابتلي بها فيثبته الله فيها ، فهو بين أربع خلال : إن قال صدَق ، وإن حكم عدل ، وإن ابتلي صبر ، وإن اعطى شكر ، فهو في سائر الناس كالرجل الحي يمشي في قبور الأموات (٢) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا مسدد قال : حدثنا أبو عوانة ، عن أبي بشر عن سعيد بن جبير في قوله : (زيتونة لا شرقية ولا غربية) ، قال : هي وسط الشجر ، لا تصيبها الشمس شرقا ولا غربا .

وقال عطية العوفي : (لا شرقية ولا غربية) ، قال : هي شجرة في موضع من الشجر ، يرَى ظل ثمرها في ورقها ، وهذه من الشجر لا تطلع عليها الشمس ولا تغرب .

---

(١) الأثر في الدر المنثور : ٥/٤٩ عن ابن أبي حاتم والفريابي .

(٢) الدر المنثور ، عن عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والحاكم — وصححه : ٥/٤٨ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عمار ، حدثنا عبد الرحمن الدشتكي ، حدثنا عمرو بن أبي قيس ، عن عطاء ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : (لا شرقية ولا غربية) ، ليست شرقية ليس فيها غرب ، ولا غربية ليس فيها شرق ، ولكنها شرقية غربية .

وقال محمد بن كعب القرظي : (لا شرقية ولا غربية) ، قال : هي القبلية .

وقال زيد بن أسلم : (لا شرقية ولا غربية) ، قال : الشام .

وقال الحسن البصري : لو كانت هذه الشجرة في الأرض لكانت شرقية أو غربية ، ولكنه مثل ضربه الله لنوره .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : (توقد من شجرة مباركة) ، قال : رجل صالح ، (زيتونة لا شرقية ولا غربية) ، قال : لا يهودي ولا نصراني .

وأولى هذه الأقوال القول الأول ، وهو أنها في مستوى من الأرض، في مكان فسيح بارز ظاهر ضاح للشمس ، تقرعه (١) من أول النهار إلى آخره ، ليكون ذلك أصفى لزيتها وألطف ، كما قال غير واحد ممن تقدم . ولهذا قال : (يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار) ، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعني لضوء إشراق الزيت .

وقوله : (نور على نور) ، قال العوفي ، عن ابن عباس : يعني بذلك إيمان العبد وعمله .

وقال مجاهد ، والسدي : يعني نور النار ونور الزيت .

وقال أبي بن كعب : (نور على نور) ، فهو يتقلب في خمسة من النور : فكلامه نور ، وعمله نور ، ومدخله نور ، ومخرجه نور ، ومصيره إلى النور يوم القيامة إلى الجنة .

وقال شمر بن عطية : جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال : حدثني عن قول الله : (يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار) ، قال : يكاد محمد يبين للناس، وإن لم يتكلم، أنه نبي ، كما يكاد ذلك الزيت أن يضيء .

وقال السدي في قوله : (نور على نور) ، قال : نور النار ونور الزيت ، حين اجتمعا أضاءا ، ولا يضيء واحد بغير صاحبه [كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتمعا ، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه] .

وقوله : (يهدي الله لنوره من يشاء) ، أي : يرشد الله إلى هدايته من يختاره ، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد :

حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا إبراهيم بن محمد الفزاري ، حدثنا الأوزاعي ، حدثني ربيعة بن يزيد ، عن عبد الله [ابن] الديلمي ، عن عبد الله بن عمرو ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله خلق خلقه في ظلمة ،

---

(١) انظر تعليقنا من قريب على هذه الكلمة .

ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ ، فمن أصاب يومئذ من نوره اهتدى ، ومن أخطأه ضل ، فلذلك أقول : جف القلم على علم الله عز وجل (١) :

طريق أخرى عنه ، قال البزار : حدثنا أيوب بن سويد ، عن يحيى بن أبي عمرو السَّيباني عن أبيه ، عن عبد الله ابن عمرو : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله خلق خلقه في ظلمة ، فألقى عليهم نوراً من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل » [ورواه البزار عن عبد الله بن عمرو ، من طريق آخر ، بلفظه وحروفه] :

وقوله تعالى : (ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شيء عليم) ، لما ذكر تعالى هذا مثلا لنور هداه في قلب المؤمن ، ختم الآية بقوله : (ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شيء عليم) ، أي : هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال :

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر ، حدثنا أبو معاوية — [يعني (٢)] شيبان — عن ليث ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي البَخْتَرِيّ ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « القلوب أربعة : قلب أجرد (٣) فيه مثل السراج يُزهِرُ ، وقلب أغلف (٤) مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مُصْفَح (٥) : فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن ، سراجه فيه نوره : وأما القلب الأغلف فقلب الكافر : وأما القلب المنكوس فقلب [المنافق] — عرَفَ ثم أنكر — وأما القلب المُصْفَح فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمُدّها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القَرحة يمُدّها القيح والدم ، فأي المدّتين غلبت على الأخرى غلبت عليه (٦) » إسناد جيد ، ولم يخرجوه :

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

لما ضرب الله تعالى [مثل] قلب المؤمن ، وما فيه من الهدى والعلم ، بالمصباح في الزجاجة الصافية المتوقد من زيت طيب ، وذلك كالقنديل ، ذكر محلها وهي المساجد ، التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض ، وهي بيوته

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١٧٦/٢ .

(٢) في المخطوطة : « حدثنا أبو معاوية ، حدثنا شيبان » . وهو خطأ ، والصواب من المسند . وانظر ترجمة « شيبان بن عبد الرحمن » في التهذيب : ٣٧٣/٤ — ٣٧٤ .

(٣) قال ابن الأثير في النهاية : « قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر » ، أي : ليس فيه غل ولا غش ، فهو على أصل الفطرة ، فنور الإيمان فيه يزهر » .

(٤) أي : عليه غشاء عن سماع الحق وقبوله .

(٥) أي : له وجهان ، يلقى أهل الكفر بوجه ، وأهل الإيمان بوجه . وصفح كل شيء : وجهه وناحيته .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١٧/٣ .

التي يعبد فيها ويوحد ، فقال : (في بيوت أذن الله أن ترفع) ، أي : أمر الله تعالى برفعها ، أي : بتطهيرها من الدنس واللغو ، والأفعال والأقوال التي لا تليق فيها ، كما قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في هذه الآية الكريمة : (في بيوت أذن الله أن ترفع) ، قال : نهى الله سبحانه عن اللغو فيها (١) . وكذا قال عكرمة ، وأبو صالح ، والضحاك ، ونافع بن جبير ، وأبو بكر بن سليمان بن أبي حثمة ، وسفيان بن حسين ، وغيرهم من علماء المفسرين .

وقال قتادة : هي هذه المساجد ، أمر الله سبحانه ببنائها ورفعها ، وأمر بعمارتها وتطهيرها (٢) . وقد ذكر لنا أن كعبا كان يقول : إن في التوراة مكتوبا : «ألا إن بيوتي في الأرض المساجد، وإنه من توضأ فأحسن وضوءه ، ثم زارني في بيتي أكرمته ، وحق على المزور كرامة الزائر » . رواه عبد الرحمن بن أبي حاتم في تفسيره :

وقد وردت أحاديث كثيرة في بناء المساجد ، واحترامها وتوقيرها ، وتطييبها وتبخيرها ، وذلك له محل مفرد يذكر فيه ، وقد كتبت في ذلك جزءاً على حدة ، ولله الحمد والمنة . ونحن بعون الله تعالى نذكر هاهنا طرفا من ذلك ، إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان :

فعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ــ رضي الله عنه ــ قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «من بنى مسجدا يبتغي به وجه الله ، بنى الله له مثله في الجنة» . أخرجاه في الصحيحين (٣) .

وروى ابن ماجه ، عن عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من بنى مسجدا يذكر فيه اسم الله ، بنى الله له بيتا في الجنة » (٤) .

وللنسائي عن عمرو بن عَبَسَة مثله (٥) . والأحاديث في هذا كثيرة جدا :

وعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء المساجد في الدور وأن تنظف وتطيب (٦) ، رواه أحمد وأهل السنن إلا النسائي . ولأحمد وأبي داود ، عن سَمُرة بن جندب نحوه (٧) .

وقال البخاري : قال عمر : ابن للناس ما يكنهم ، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس (٨) .

---

(١) تفسير الطبري : ١١١/١٨ .

(٢) الأثر في الدر المنثور عن عبد بن حميد : ٥٠/٥ .

(٣) البخاري ، كتاب الصلاة ، باب « من بنى مسجداً » : ١٢٢/١ . ومسلم ، كتاب المساجد ، باب « فضل بناء المساجد والحث عليها » : ٦٨/٢ .

(٤) سنن ابن ماجه ، كتاب المساجد ، باب « من بنى لله مسجدا » ، الحديث ٧٣٥ : ٢٤٣/١ .

(٥) النسائي ، كتاب المساجد ، باب « الفضل في بناء المساجد » : ٣١/٢ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٢٧٩/٦ ، وسنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب « اتخاذ المساجد في الدور » ، الحديث ٤٥٥ : ١٢٤/١ ، وتحفة الأحوذي ، أبواب ، السفر ، باب « ما ذكر في تطييب المساجد » ، الحديث ٥٩١ : ٢٠٦/٣ . وسنن ابن ماجه ، كتاب المساجد ، باب « تطهير المساجد وتطييبها » ، الحديث ٧٥٨ : ٢٥٠/١ .
وقال الترمذي : « قال سفيان » « ببناء المساجد في الدور » ، يعني القبائل » .

(٧) مسند الإمام أحمد : ١٧/٥ ، ولفظه : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتخذ المساجد في ديارنا ، وأمرنا أن ننظفها » وسنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب « اتخاذ المساجد في الدور » ، الحديث ٤٥٦ : ١٢٥/١

(٨) البخاري ، كتاب الصلاة ، باب « بنيان المسجد » : ١٢١/١ ، ولفظه : « وقال أبو سعيد : كان سقف المسجد من جريد النخل ، وأمر عمر ببناء المسجد وقال : أكن الناس من المطر ، وإياك ... » .

وروى ابن ماجه عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ساء عملُ قوم قطّ إلا زخرفوا مساجدهم (١) . وفى إسناده ضعف .

وروى أبو داود عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أُمِرْتُ بتشييد المساجد . قال ابن عباس : لَتُزَخرِفُنَّها كما زَخْرَفت اليهود والنصارى (٢) .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس فى المساجد » رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذى (٣) .

وعن بُرَيدَةَ أنّ رَجلاً أنشدَ فى المسجد ، فقال : من دعا إلى الجمل الأحمر (٤) ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا وجدت ، إنما بُنيت المساجد لما بُنيت (٥) له : رواه (٦) مسلم .

وعن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البيع والابتياع ، وعن تناشد الأشعار فى المساجد . رواه أحمد وأهل السنن ، وقال الترمذى : حسن (٧) .

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد ، فقولوا : لا أربح الله تجارتك » وإذا رأيتم من يَنشُد ضالة فى المسجد ، فقولوا : لا ردّ الله عليك » : رواه الترمذى ، وقال : « حسن غريب » (٨) .

وقد روى ابن ماجه وغيره ، من حديث ابن عمر مرفوعاً ، قال : خصال لا تنبغى فى المسجد : لا يُتَّخَذُ طريقاً ،

---

(١) سنن ابن ماجه ، باب « تشييد المساجد » ، الحديث ٧٤١ : ١/٢٤٤ — ٢٤٥ . وفى إسناده أبو إسحاق ، وكان يدلس ، وجبارة بن المغلس ، وهو كذاب .

(٢) سنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « فى بناء المساجد » ، الحديث ٤٤٨ : ١/١٢٢ . وانظر البخارى ، كتاب الصلاة ، باب « بنيان المساجد » : ١/١٢١ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣/١٣٤ ، ١٤٥ ، ١٥٢ ، ٢٣٠ ، ٢٨٣ . وسنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « فى بناء المساجد » الحديث ٤٤٩ : ١ / ١٢٣ ، والنسائى كتاب المساجد ، باب « المباهاة فى المساجد » : ٢/٣٢ . وابن ماجه ، كتاب المساجد ، باب « تشييد المساجد » ، الحديث ٧٣٩ : ١/٢٤٤ .

(٤) أى : من وجد ضالتى ، وهو الجمل الأحمر ، فدعانى إليه ؟ .

(٥) أى : من العبادات .

(٦) مسلم ، كتاب المساجد ، باب « النهى عن نشد الضالة فى المسجد ، وما يقوله من سمع الناشد » : ٢/٨٢ .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٢/١٧٩ ، ٢١٢ ، وتحفة الأحوذى ، أبواب الصلاة ، باب « ما جاء فى كراهية البيع والشراء وإنشاد الضالة والشعر فى المسجد » ، الحديث ٣٢١ : ٢/٢٧١ — ٢٧٥ . والنسائى ، كتاب المساجد ، باب « النهى عن البيع والشراء فى المسجد » : ٢/٤٧ — ٤٨ . وسنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « التحلق يوم الجمعة قبل الصلاة » ، الحديث ١٠٧٩ : ١/٢٨٣ .

(٨) تحفة الأحوذى ، أبواب البيوع ، باب « النهى عن البيع فى المسجد » ، الحديث ١٣٣٩ : ٤/٥٥٠ — ٥٥١ —

ولا يُشْهر(١) فيه سلاح ، ولا يُنْبَض(٢) فيه بقوس، ولا ينثر(٣) فيه نبل،ولا يُمَرّ فيه بلحم نيء ، ولا يُضرَبُ فيه حَدّ ولا يُقتَص فيه [من] أحد ، ولا يُتَّخذ سوقاً(٤) .

وعن واثلة بن الأسقع،عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «جنبوا مساجدكم(٥) صبيانكم ومجانينكم، وشراءكم(٦) وبيعكم ، وخصوماتكم ورفع أصواتكم ، وإقامة حدودكم وسل سيوفكم ، واتخذوا على أبوابها المطاهر ، وجمّروها في الجُمَع(٧) .

ورواه ابن ماجه أيضاً ، وفي إسنادهما ضعف .

أما أنه « لا يتخذ طريقاً » ، فقد كره بعض العلماء المرور فيه إلا لحاجة إذا وجد مندوحة عنه، وفي الأثر : « إن الملائكة لتتعجب من الرجل يمر بالمسجد لا يصلي فيه » .

وأما أنه « لا يشهر فيه بسلاح ، ولا ينبض فيه بقوس ، ولا ينثر فيه نبل » ، فلما يخشى من إصابة بعض الناس به ، لكثرة المصلين فيه ، ولهذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مر أحد بسهام أن يقبض على نصالها ، لئلا يؤذي أحداً ، كما ثبت في الصحيح(٨) .

وأما النهي عن المرور باللحم النيء فيه ، فلما يخشى من تقاطر الدم منه ، كما نهيت الحائض عن المرور فيه إذا خافت التلويث .

وأما أنه « لا يضرب فيه حد أو يقتص » فلما يخشى من إيجاد نجاسة فيه من المضروب أو المقطوع .

وأما أنه « لا يتخذ سوقاً » ، فلما تقدم من النهي عن البيع والشراء فيه ، فإنه إنما بني لذكر الله والصلاة كما قال النبي ــ عليه الصلاة والسلام ــ لذلك الأعرابي الذي بال في طائفة المسجد : إن المساجد لم تبن لهذا ، إنما بنيت لذكر الله والصلاة فيها . ثم أمر بسَجْل من ماء ، فأهريق على بوله(٩) .

---

(١) أي : لا يسل فيه سلاح .

(٢) أي : لا يشد فيه .

(٣) في سنن ابن ماجه : « ولا ينشر » . بالشين . ولعل الصواب ما هنا . وفي اللسان : « النثر : نثرك الشيء بيدك ترمي به متفرقاً ، مثل نثر الجوز واللوز والسكر » .

(٤) سنن ابن ماجه ، كتاب المساجد ، باب « ما يكره في المساجد » ، الحديث ٧٤٨ : ١/٢٤٧ .

(٥) في المخطوطة : « جنبوا مساجدنا » . والمثبت عن سنن ابن ماجه .

(٦) في سنن ابن ماجه: « وشراركم » . ولا نشك في أنه خطأ .

(٧) سنن ابن ماجه ، في الكتاب والباب المتقدمين ، الحديث ٧٥٠ : ١/٢٤٧ .

(٨) مسند الإمام أحمد عن أبي موسى : ٤/٣٩٢ .

(٩) انظر البخاري ، كتاب الوضوء ، باب « ترك النبي صلى الله عليه وسلم الأعرابي حتى فرغ من بوله في المسجد » ، وباب « صب الماء على البول في المسجد » ، وباب « يهريق الماء على البول » : ١/٦٥ . وكتاب الأدب ، باب « قول النبي صلى الله عليه وسلم : (يسروا ولا تعسروا) وكان يحب التخفيف واليسر على الناس » : ٨/٣٧ . وتحفة الأحوذي ، أبواب الطهارة ، باب « ما جاء في البول يصيب الأرض » ، الحديث ١٤٧ : ١/٤٥٧ ــ ٤٥٩ . وسنن أبي داود ، كتاب الطهارة ، باب ١٣٦ ، ومسند الإمام أحمد عن أبي هريرة : ٢/٢٣٩ ، ٢٨٢ ، ٥٠٣ . وعن أنس بن مالك : ٣/١١٠ ــ ١١١ .

وفى الحديث الثانى : « جنبوا مساجدكم صبيانكم » ، وذلك لأنهم يلعبون فيه ولا يناسبهم ، وقد كان عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — إذا رأى صبياناً يلعبون فى المسجد ، ضربهم بالمِخْفَقَة — وهى الدِّرَّة — وكان يَعُسُّ(١) المسجد بعد العشاء ، فلا يترك فيه أحداً .

« ومجانينكم » ، يعنى : لأجل ضعف عقولهم ، وسَخَر الناس بهم ، فيؤدى إلى اللعب فيها ، ولما يخشى من تقذيرهم المسجد ونحو ذلك .

« وبيعكم وشراءكم » ، كما تقدم .

« وخصوماتكم » ، يعنى التحاكم والحكم فيه : ولهذا نص كثير من العلماء على أن الحاكم لا ينتصب لفصل الأقضية فى المسجد ، بل يكون فى موضع غيره ، لما فيه من كثرة الحكومات والتشاجر والعياط(٢) الذى لا يناسبه ، ولهذا قال بعده : ورفع أصواتكم » .

وقال البخارى : حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا الجُعَيْد بن عبد الرحمن [قال : حدثنى] يزيد بن خصيفة ، عن السائب بن يَزِيدَ الكِنْدِىّ قال : كنت قائماً فى المسجد ، فحصبنى رجل ، فنظرت فإذا عمر ابن الخطاب ، فقال : اذهب فائتنى بهذين . فجئته بهما ، فقال : من أنتما ؟ أو : من أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف . قال : لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما . ترفعان أصواتكما فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم(٣) .

وقال النسائى : حدثنا سويد بن نصر ، عن عبد الله بن المبارك ، عن شعبة ، عن سعد بن إبراهيم ، عن أبيه إبراهيم ابن عبد الرحمن بن عوف قال : سمع عمر صوت رجل فى المسجد فقال : أتدرى أين أنت ؟ . وهذا أيضاً صحيح .

وقوله : « وإقامة حدودكم ، وسل سيوفكم » تقدماً .

وقوله : « واتخذوا على أبوابها المطاهر » ، يعنى : المراحيض التى يستعان بها على الوضوء وقضاء الحاجة : وقد كانت قريباً من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم آبار يستقون منها ، فيشربون ويتطهرون ، ويتوضئون وغير ذلك .

وقوله : « وجمروها فى الجُمَع » ، يعنى بخروها فى أيام الجُمَع لكثرة اجتماع الناس يومئذ .

وقد قال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا عبيدالله ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، عن عبدالله بن عمر ، عن نافع عن ابن عمر : أن عمر كان يجَمِّر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم كل جمعة . إسناده حسن لا بأس به ، والله أعلم .

وقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « صلاة الرجل فى الجماعة تُضَعَّف على صلاته فى بيته وفى سوقه ، خمساً وعشرين ضعفاً . وذلك انه إذا توضأ فأحسن وضوءه ، ثم خرج إلى المسجد ، لا يخرجه

---

(١) أى : يطوف بالليل .

(٢) العياط — ككتاب — : الصراخ والزعقة ، كذا فى مستدرك تاج العروس .

(٣) البخارى ، كتاب الصلاة ، باب « رفع الصوت فى المساجد » ١ : ١٢٧ .

إلا الصلاة ، لم يَخطُ خَطوة إلا رُفع له بها درجة ، وحطّ عنه بها خطيئة . فإذا صلّى لم تزل الملائكة تصلى [عليه] ما دام فى مُصلّاه : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه : ولا يزال فى صلاة ما انتظر الصلاة »(١) .

وعند الدارقطنى مرفوعاً « لا صلاة لجار المسجد إلا فى المسجد»(٢) .

وفى السنن : « بشر المشائين إلى المساجد فى الظلم بالنور التام يوم القيامة »(٣) .

والمستحب لمن دخل المسجد أن يبدأ برجله اليمنى ، وأن يقول كما ثبت فى صحيح البخارى(٤) عن عبدالله بن عمرو — رضى الله عنه — عن رسول صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا دخل المسجد قال : « أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم » [قال : أقط ؟ قال : نعم] قال : فإذا قال ذلك قال الشيطان: حُفظ منى سائر اليوم .

وروى مسلم بسنده عن أبى حميد — أو : أبى أسَيد — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا دخل أحدكم المسجد فليقل : اللهم افتح لى أبواب رحمتك . وإذا خرج فليقل : اللهم إنى أسألك من فضلك(٥) » .

ورواه النسائى عنهما ، عن النبى صلى الله عليه وسلم(٦) .

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا دخل أحدكم المسجد ، فليسلم على النبى صلى الله عليه وسلم وليقل : اللهم افتح لى أبواب رحمتك ، وإذا خرج فليسلم على النبى صلى الله عليه وسلم وليقل : اللهم اعصمنى من الشيطان الرجيم » .

ورواه ابن ماجه ، وابن خزيمة وابن حبّان فى صحيحيهما(٧) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا ليث بن أبى سليم ، عن عبد الله بن حسن(٨) ، عن أمه فاطمة بنت حسين ، عن جدتها فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) البخارى ، كتاب الأذان ، باب « فضل صلاة الجماعة » : ١/١٦٥ — ١٦٦ .

(٢) سنن الدارقطنى ، كتاب الصلاة ، باب « الحث لجار المسجد على الصلاة فيه إلا من عذر » : ١/٤٢٠ .

(٣) تحفة الأحوذى ، أبواب الصلاة ، باب « ما جاء فى فضل العشاء والفجر فى الجماعة » ، الحديث ٢٢٣ : ٢/١٤ ، وقال الترمذى : « هذا حديث غريب من هذا الوجه مرفوع — هو صحيح مسند وموقوف إلى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يسند إلى النبى صلى الله عليه وسلم » . وسنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « ما جاء فى المشى إلى الصلاة فى الظلم » ، الحديث ٥٦١ : ١/١٥٤ ، وسنن ابن ماجه ، كتاب المساجد ، باب « المشى إلى الصلاة » ، الأحاديث ٧٧٩ — ٧٨١ : ١/٢٥٦—٢٥٧ .

(٤) كذا ، ولم نجده إلا فى سنن أبى داود ، فى كتاب الصلاة ، باب « فما يقول الرجل عند دخوله المسجد » ، الحديث ٤٦٦ : ١/١٢٧ . وما بين القوسين منه .

(٥) مسلم ، كتاب المسافرين ، باب « ما يقول إذا دخل المسجد » : ٢/١٥٥ .

(٦) سنن النسائى ، كتاب المساجد ، باب « القول عند دخول المسجد ، وعند الخروج منه » : ٢/٥٣ . وسنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « فيما يقوله الرجل عند دخوله المسجد » ، الحديث ٤٦٥ : ١/١٢٦ . ومسند الإمام أحمد عن أبى أسيد : ٣/٤٩٧ . وعن أبى حميد وأبى أسيد : ٥/٤٢٥ . وسنن ابن ماجه ، كتاب المساجد ، باب « الدعاء عند دخول المسجد » ، الحديث ٧٧٢ : ١/٢٥٤ .

(٧) سنن ابن ماجه ، فى الكتاب والباب المتقدمين ، الحديث ٧٧٣ : ١/٢٥٤ .

(٨) فى المخطوطة : « عن عبد الرحمن بن حسين » . والصواب من المسند . وانظر ترجمة « عبد الله بن حسن » فى الخلاصة .

إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ، ثم قال: «اللهم ، اغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب رحمتك» ، وإذا خرج صلى على محمد وسلم ثم قال : «اللهم ، اغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب فضلك» (١) .

ورواه الترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن ، وإسناده ليس بمتصل ؛ لأن فاطمة بنت الحسين الصغرى لم تدرك فاطمة الكبرى (٢) » .

فهذا الذى ذكرناه ، مع ما تركناه من الأحاديث الواردة فى ذلك لحال الطول(٣) ، كله داخل فى قوله تعالى :(فى بيوت أذن الله أن ترفع) .

وقوله : (ويذكر فيها اسمه) ، أى : اسم الله ، كقوله : (يابنى آدم ، خذوا زينتكم عند كل مسجد (٤)) ، وقوله : (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين (٥)) ، وقوله : (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً(٦)) .

قال ابن عباس : (ويذكر فيها اسمه) ، يعنى : يتلى فيها كتابه(٧) .

وقوله : (يسبح له فيها بالغدو والآصال) ، أى : فى البُكُرات والعَشِيَّات . والآصال : جمع أصيل ، وهو آخر النهار .

وقال سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس : كل تسبيح فى القرآن هو الصلاة .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : يعنى بالغدو صلاة الغداة ، ويعنى بالآصال صلاة العصر ، وهما أول ما افترض الله من الصلاة ، فأحب أن يَذْكُرها وأن يُذكرَ بهما عباده(٨) .

وكذا قال الحسن ، والضحاك : (يسبح له فيها بالغدو والآصال) ، يعنى : الصلاة .

ومن قرأ من القَرَأة : (يُسَبَّح له فيها بالغدو والآصال) (٩) - بفتح الباء من (يُسَبَّح)،على أنه مبنى لما لم

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢٨٢/٦ .
(٢) تحفة الأحوذى ، أبواب الصلاة ، باب ما جاء ما يقول عند دخوله المسجد ، الحديث ٣١٣ ، ٣١٤ : ٢٥٣/٢ - ٢٥٥ . وسنن ابن ماجه ، باب الدعاء عند دخول المسجد ، الحديث ٧٧١ ، ٢٥٣/١ - ٢٥٤ .
(٣) فى المخطوطة : « لحال القول » . ولعل الصواب ما أثبتناه .
(٤) سورة الأعراف ، آية : ٣١ .
(٥) سورة الأعراف ، آية : ٢٩ .
(٦) سورة الجن ، آية : ١٨ .
(٧) تفسير الطبرى : ١١٢/١٨ .
(٨) تفسير الطبرى : ١١٣/١٨ .
(٩) انظر هذه القراءة فى تفسير الطبرى : ١١٢/١٨ . والبحر المحيط لأبى حيان : ٤٥٧/٦ .

يسم فاعله ـ وقف على قوله : (والآصال) وقفاً تاماً ، وابتدا بقوله : (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) ، وكأنه مُفَسِّر للفاعل المحذوف ، كما قال الشاعر(١) :

لِيُبْكَ يزيدُ ، ضارعٌ لخُصُومة • ومُخْتَبِطٌ مما تُطيح الطَّوائح(٢)

كأنه قال : من يبكيه ؟ قال : هذا يبكيه ، وكأنه قيل : من يسبح له فيها ؟ قال : رجال .

وأما على قراءة مَنْ قرأ (يُسبِّح) ـ بكسر الباء ـ فجعله فعلا ، وفاعله (رجال) ، فلا يحسن الوقف إلا على الفاعل ، لأنه تمام الكلام .

فقوله : (رجال) فيه إشعار بهممهم السامية ، ونياتهم وعزائمهم العالية ، التى بها صاروا عُمَّارا للمساجد ، التى هى بيوت الله فى أرضه ، ومواطن عبادته وشكره ، وتوحيده وتنزيهه ، كما قال تعالى : (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه (٣)) .

فأما النساء فصَلاتهن فى بيوتهن أفضل لهن ، لما رواه أبو داود ، عن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «صلاة المرأة فى بيتها أفضل من صلاتها فى حجرتها ، وصلاتها فى مخدعها أفضل من صلاتها فى بيتها (٤) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن غيلان ، حدثنا رشدين ، حدثنى عمرو ، عن أبى السمح ، عن السائب ـ مولى أم سلمة ـ عن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «خير مساجد النساء [قعر] بيوتهن »(٥) .

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا هارون ، أخبرنى عبد الله بن وهب ، حدثنا داود بن قيس ، عن عبد الله بن سُوَيد الأنصارى ، عن عمته أم حميد ـ امرأة أبى حميد الساعدى ـ : أنها جاءت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله ، إنى أحب الصلاة معك ، قال : «قد علمت أنك تحبين الصلاة معى ، وصلاتك فى بيتك خير من صلاتك فى حجرتك ، وصلاتك فى حُجْرَتك خير من صلاتك فى دارك ، وصلاتك فى دارك خير من صلاتك فى مسجد قومك ، وصلاتك فى مسجد قومك خير من صلاتك فى مسجدى» . قال : فأمَرَت فبُنِى لها مسجد فى أقصى بيت (٦) من بيوتها [وأظلمه] (٧) ، فكانت تصلى فيه حتى لقيت الله عز وجل(٨) ، لم يخرجوه .

---

(١) ينسب البيت لنهشل بن حرى ولغيره ، وهو من شواهد الكتاب : ١/١٤٥، ١٨٣، ١٩٦ ، والمقتضب للمبرد : ٢٨٢/٣ ومغنى اللبيب لابن هشام ، الشاهد ١٠٤٨ : ٦٤٨/٢ .

(٢) الضارع : الذليل . والمختبط : الذى يأتيك للمعروف من غير وسيلة ، وأصله من « خبطت الشجرة » : إذا ضربها بالعصا ليسقط ورقها . تطيح ــ : تذهب وتهلك . والطوائح : المطيحات المهلكات .

(٣) سورة الأحزاب ، آية : ٢٣ .

(٤) سنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « التشديد فى ذلك » ، الحديث ٥٨٠ : ١٩٦/١ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٢٩٧/٦ . وانظر : ٣٠١/٦ .

(٦) فى المسند : « فى أقصى شىء من بيوتها » .

(٧) فى المخطوطة : « فى أقصى بيت من بيوتها والله » . والمثبت عن المسند .

(٨) مسند الإمام أحمد : ٣٧١/٦ .

هذا ويجوز لها شهود جماعة الرجال ، بشرط أن لا تؤذى أحداً من الرجال بظهور زينة ولا ريح طيب ، كما ثبت فى الصحيحين عن عبدالله بن عمر أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله »(١) ، رواه البخارى ومسلم ، ولأحمد وأبى داود : « وبيوتهن خير لهن(٢) » ، وفى رواية : وليخرجن وهن تفلات(٣) ، أى : لا ريح لهن .

وقد ثبت فى صحيح مسلم ، عن زينب امرأة ابن مسعود قالت : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيباً »(٤) .

وفى الصحيحين عن عائشة — رضى الله عنها — أنها قالت : كان نساء المؤمنين يشهدن الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يرجعن متلفعات بمروطهن ، ما يُعْرَفْن من الغلس(٥) .

وفى الصحيحين أيضاً عنها أنها قالت : لو أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدث النساء لمنعهن المساجد ، كما منعت نساء بنى إسرائيل(٦) .

وقوله : (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) ، كقوله : (يا أيها الذين آمنوا ، لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون(٧)) . وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ، فاسعوا إلى ذكر الله ، وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون(٨)) .

يقول تعالى : لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها ، وملاذ بيعها وربحها ، عن ذكر ربهم الذى هو خالقهم ورازقهم ، والذين يعلمون أن الذى عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم ، لأن ما عندهم ينفد وما عند الله باق ، ولهذا قال : (لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) ، أى : يقدمون طاعته ومراده ومحبته على مرادهم ومحبتهم .

---

(١) البخارى ، كتاب الجمعة ، باب « هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان » : ٧/٢ . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب « خروج النساء إلى المساجد ، إذا لم يترتب عليه فتنة .. » : ٣٢/٢ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٧٦/٢ ، ٧٧ . وسنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « ما جاء فى خروج النساء إلى المسجد » ، الحديث ٥٦٧ : ١٥٥/١ .

(٣) مسند الإمام أحمد عن أبى هريرة : ٤٣٨/٢ ، ٤٧٥ ، ٥٢٨ . وعن زيد بن خالد الجهنى : ١٩٢/٥ — ١٩٣ . وعن عائشة رضى الله عنها : ٦٩/٦ — ٧٠ . وسنن أبى داود ، فى الكتاب والباب المتقدمين ، الحديث ٥٦٥ : ١٥٥/١ .

(٤) مسلم ، كتاب الصلاة ، باب « خروج النساء إلى المساجد » : ٣٣/٢ .

(٥) البخارى ، كتاب المواقيت ، باب « فضل صلاة الفجر » : ١٥١/١ . وكتاب الأذان ، باب « سرعة انصراف النساء من الصبح ، وقلة مقامهن فى المسجد » : ٢٢٠/١ . ومسلم ، كتاب المساجد ، باب « استحباب التبكير بالصبح » : ١١٨/٢ — ١١٩ . والغلس — بفتحتين : ظلمة آخر الليل .

(٦) البخارى كتاب الأذان ، باب « انتظار الناس قيام الإمام العالم » : ٢١٩/١ — ٢٢٠ . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب « خروج النساء إلى المساجد .. » ٣٣/٢ .

(٧) سورة المنافقون ، آية : ٩ .

(٨) سورة الجمعة ، آية ٩ .

قال هشيم : عن سيَّار : حُدِّثت عن ابن مسعود أنه رأى قوما من أهل السوق، حيث نودى بالصلاة ، تركوا بياعاتهم ونهضوا إلى الصلاة ، فقال عبد الله : هؤلاء من الذين ذكر الله فى كتابه : (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله (١)) .

وهكذا روى عَمْرو بن دينار القَهْرَمَانِىّ(٢) ، عن سالم (٣) ، عن عبد الله بن عمر — رضى الله عنهما — أنه كان فى السوق فأقيمت الصلاة ، فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد ، فقال ابن عمر : فيهم نزلت : (رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) . رواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن عبد الله بن بكر الصنعانى ، حدثنا أبوسعيد مولى بنى هاشم ، حدثنا عبد الله بن بجير ، حدثنا أبو عبد رب قال : قال أبو الدرداء رضى الله عنه : إنى قمت على هذا الدرج أبايع عليه ، أربح كل يوم ثلاثمائة دينار ، أشهد الصلاة فى كل يوم فى المسجد ، أما إنى لا أقول : « إن ذلك ليس بحلال » ، ولكنى أحب أن أكون من الذين قال الله : (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) .

وقال عمرو بن دينار الأعور : كنت مع سالم بن عبد الله ونحن نريد المسجد ، فمررنا بسوق المدينة وقد قاموا إلى الصلاة، وخمرّوا متاعهم(٤) ، فنظر سالم إلى أمتعتهم ليس معها أحد، فتلا سالم هذه الآية : (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) ، ثم قال : هم هؤلاء .

وكذا قال سعيد بن أبى الحسن ، والضحاك : لا تلهيهم التجارة والبيع أن يأتوا الصلاة فى وقتها .

وقال مطر الورّاق: كانوا يبيعون ويشترون ، ولكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانه فى يده خفضه ، وأقبل إلى الصلاة .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) ، يقول : عن الصلاة المكتوبة .
وكذا قال الربيع بن أنس ومقاتل بن حيان .

وقال السدى : عن الصلاة فى جماعة .

وعن مقاتل بن حيان : لا يلهيهم ذلك عن حضور الصلاة ، وأن يقيموها كما أمرهم الله ، وأن يحافظوا على مواقيتها ، وما استحفظهم الله فيها

---

(١) تفسير الطبرى : ١١٣/١٨ .

(٢) فى التهذيب ٣٠/٨ : « عمرو بن دينار البصرى ، أبو يحيى الأعور ، قهرمان آل الزبير » وفى الجرح لابن أبى حاتم ٢٣٢/١/٣ : « قهرمان آل الزبير ، ويقال : « وكيل آل الزبير » . والقهرمان فى اللغة « القائم بأمور الرجل » ، وهو فارسى معرب .

(٣) فى تفسير الطبرى ١١٣/١٨ : « عن سالم بن عبدالله أنه نظر » ومعنى ذلك أن الأثر عن سالم . ويبدو أن الصواب ما هنا ، بدليل ما فى الرواية بعد : « فقال ابن عمر » .

(٤) أى « غطوه » .

وقوله : (يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار) ، أي : يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار ، أي : من شدة الفزع وعظمة الأهوال ، كما قال تعالى: (وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين(١)) ، وقال تعالى : (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار (٢)) ، وقال تعالى : (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا . إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا . فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً . وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا(٣)) .

وقال هاهنا (ليجزيهم الله أحسن ما عملوا) ، أي : هؤلاء من الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم .

وقوله : (ويزيدهم من فضله) ، أي : يتقبل منهم الحسن ويضاعفه لهم ، كما قال تعالى : (إن الله لا يظلم مثقال ذرة . وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجراً عظيماً(٤)) ، وقال تعالى : (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها(٥)) ، وقال : (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسنا فيضاعفه له أضعافاً كثيرة(٦)) ، وقال : (والله يضاعف لمن يشاء(٧)) ، كما قال هاهنا : (والله يرزق من يشاء بغير حساب) .

وعن ابن مسعود : أنه جيء بلبن فعرضه على جلسائه واحداً واحداً ، فكلهم لم يشربه لأنه كان صائماً ، فتناوله ابن مسعود وكان مفطراً فشربه ، ثم تلا قوله تعالى : (يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار) ، رواه النسائي ، وابن أبي حاتم ، من حديث الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عنه .

وقال أيضاً : حدثنا أبي ، حدثنا سويد بن سعيد ، حدثنا علي بن مسهر ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن شهر بن حوشب ، عن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، جاء مناد فنادى بصوت يُسمِع الخلائق: سيعلم أهلُ الجمع من أولى بالكرم، ليقم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . فيقومون وهم قليل ، ثم يحاسب سائر الخلائق(٨) .

وروى الطبراني ، من حديث بقية ، عن إسماعيل بن عبد الله الكندي ، عن الأعمش ، عن أبي وائل ، عن ابن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : (ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) ، قال : أجورهم يدخلهم الجنة ، ويزيدهم من فضله الشفاعة لمن وجبت له الشفاعة ، لمن صنع لهم المعروف في الدنيا .

---

(١) سورة غافر ، آية : ١٨ .
(٢) سورة إبراهيم ، الآية : ٤٢ .
(٣) سورة الإنسان ، الآيات : ٨ — ١٢ .
(٤) سورة النساء ، آية : ٤٠ .
(٥) سورة الأنعام ، آية : ١٦٠ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ٢٤٥ .
(٧) سورة البقرة ، آية : ٢٦١ .
(٨) أخرجه السيوطي في الدر المنثور عن هناد بن السري في الزهد ، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان : ٥/٥٢ .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

هذان مثلان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار ، كما ضرب للمنافقين في أول « البقرة » مثلين ناريا ومائياً ، وكما ضرب لما يقر في القلوب من الهدى والعلم في « سورة الرعد »(١) مثلين مائياً ونارياً : وقد تكلمنا على كل منها في موضعه بما أغني عن إعادته ، ولله الحمد والمنة .

فأما الأول من هذين المثلين فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم ، الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات ، وليسوا في نفس الأمر على شيء ، فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يرى في القيعان من الأرض عن بعد كأنه بحر طام .

والقيعة : جمع قاع ، كجار وجيرة : والقاع أيضاً : واحد القيعان ، كما يقال : جار وجيران : وهي : الأرض المستوية المتسعة المنبسطة ، وفيه يكون السراب ، وإنما يكون ذلك بعد نصف النهار . وأما الآل فانما يكون أول النهار ، يرى كأنه ماء بين السماء والأرض ، فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء حسبه ماء فقصده ليشرب منه ، فلما انتهى إليه (لم يجده شيئاً) ، فكذلك الكافر يحسب أنه قد عمل عملا ، وأنه قد حصّل شيئاً ، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها ، ونوقش على أفعاله ، لم يجد له شيئاً بالكلية قد قُبل ، إما لعدم الإخلاص ، وإما لعدم سلوك الشرع ، كما قال تعالى : (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً(٢)) .

وقال هاهنا : (ووجد الله عنده فوفاه حسابه ، والله سريع الحساب) . وهكذا رُوي عن أُبي بن كعب ، وابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة وغير واحد .

وفي الصحيحين أنه يقال يوم القيامة لليهود : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد عُزَيْر ابن الله فيقال : كذبتم ، ما اتخذ الله من ولد ، ماذا تبغون ؟ فيقولون ، أي رَبَّنا ، عطشنا فاسقنا . فيقال : ألا ترون ؟ فتمثل لهم النار كأنها سَرَاب يحطم بعضها بعضاً ، فينطلقون فيتهافتون فيها(٣) .

---

(١) انظر تفسير الآية ١٧ من سورة الرعد : ٤/٣٦٩ – ٣٧١ ، وإحالتنا هنالك على الموضع الآخر في سورة البقرة .
(٢) سورة الفرقان ، آية : ٢٣ .
(٣) البخاري ، تفسير سورة النساء : ٦/٥٦ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « معرفة طريق الرؤية » : ١/١١٤ – ١١٧ .

وهذا المثال مثال لذوى الجهل المركب(١) ، فأما أصحاب الجهل البسيط ، وهم الطماطم(٢) الأغشام المقلدون لأئمة الكفر ، الصم البكم الذين لا يعقلون ، فمثلهم كما قال تعالى : (أو كظلمات فى بحر لجى) – قال قتادة : وهو العميق – (يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها) ، أى : لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام ، فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذى لا يدرى أين يذهب ، ولا يعرف حال من يقوده ، بل كما يقال فى المثل للجاهل : أين تذهب ؟ قال: معهم . قيل : فإلى أين يذهبون ؟ قال : لا أدرى .

وقال العوفى ، عن ابن عباس – رضى الله عنهما – (يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب) ، يعنى بذلك الغشاوة التى على القلب والسمع والبصر ، وهى كقوله : (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم)، وكقوله : (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون (٣)) .

وقال أبى بن كعب فى قوله : (ظلمات بعضها فوق بعض) ، فهو يتقلب فى خمسة من الظلم : كلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار .

وقال الربيع بن أنس ، والسدى نحو ذلك أيضاً .

وقوله :(ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) ، أى : من لم يهده الله فهو هالك جاهل حائر بائر كافر ، كما قال تعالى : (من يضلل الله فلا هادى له) ، وهذا مقابلة ما قال فى مثل المؤمنين : (يهدى الله لنوره من يشاء) ، فنسأل الله العظيم أن يجعل فى قلوبنا نوراً ، وعن أيماننا نوراً ، وعن شمائلنا نوراً ، وأن يعظم لنا نوراً .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

يخبر تعالى أنه يسبحه من فى السموات والأرض ، أى : من الملائكة والأناسى ، والجان والحيوان ، حتى الجماد ، كما قال تعالى : (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليما غفوراً (٤)) .

---

(١) الجهل نوعان ، أحدهما ، جهل مركب ، وهو اعتقاد ما هو بخلاف الواقع مع الادعاء بمطابقته له ، والثانى ، عدم العلم من غير ادعاء له .

(٢) الطماطم ، جمع طمطم – بكسر فسكون ، فكسر الطاء الثانية – وهو الذى فى لسانه عجمة .

(٣) تفسير الطبرى ، ١١٦/١٨ .

(٤) سورة الإسراء ، آية ، ٤٤ .

وقوله : (والطير صافات) ، أى : فى حال طيرانها ، تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه ، وهو يعلم ما هى فاعلة ، ولهذا قال : (كل قد علم صلاته وتسبيحه) أى : كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه فى عبادة الله عز وجل

ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك ، لا يخفى عليه من ذلك شىء ولهذا قال : (والله عليم بما يفعلون) .

ثم أخبر تعالى : أن له ملك السموات والأرض ، فهو الحاكم المتصرف الذى لا معقب لحكمه ، وهو الإله المعبود الذى لا تنبغى العبادة إلا له ، (وإلى الله المصير) ، أى : يوم القيامة ، فيحكم فيه بما يشاء ، (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) (١) ، فهو الخالق المالك ، ألا له الحكم فى الدنيا والآخرى ، وله الحمد فى الأولى والآخرة .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾

يذكر تعالى أنه بقدرته يسوق السحاب أول ماينشئها وهى ضعيفة ، وهو الإزجاء ، (ثم يؤلف بينه) ، أى : يجمعه بعد تفرقه ، (ثم يجعله ركاماً) ، أى : متراكماً ، أى : يركب بعضه بعضا ، (فترى الودق) ، أى : المطر (يخرج من خلاله) ، أى : من خَلَلِه : وكذا قرأها ابن عباس(٢) والضحاك .

قال عبيد بن عمير الليثى : يبعث الله المثيرة فتَقُمّ الأرض قمّاً(٣) ، ثم يبعث الله الناشئة فتنشىء السحاب ، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه ، ثم يبعث اللواقح فتلقح السحاب . رواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير(٤) ، رحمهما الله .

وقوله : (وينزل من السماء من جبال فيها من برد) ــ قال بعض النحاة : (من) الأولى لابتداء الغاية ، والثانية للتبغيض ، والثالثة لبيان الجنس . وهذا إنما يجيء على قول من ذهب من المفسرين إلى أن قوله : (من جبال فيها من برد) ، معناه : أن فى السماء جبالَ بَرَد ينزل الله منها البرد . وأما من جعل الجبال هاهنا عبارة(٥) عن السحاب ، فإن « من » الثانية عند هذا لابتداء الغاية أيضاً ، لكنها بدل من الأولى ، والله أعلم(٦) .

---

(١) سورة النجم ، آية : ٣١ .
(٢) تفسير الطبرى : ١٨/١١٨ . والبحر المحيط لأبى حيان : ٦/٤٦٤ .
(٣) أى : تكنسها كنساً .
(٤) تفسير الطبرى : ١٨/١١٨ .
(٥) فى المخطوطة : « ها هنا عبارة كفاية » .
(٦) انظر البحر المحيط : ٦/٤٦٤ ــ ٤٦٥ .

وقوله : (فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء) ، يحتمل أن يكون المراد بقوله (فيصيب به) ، أى : بما ينزل من السماء من نوعى البرد والمطر ، فيكون قوله : (فيصيب به من يشاء) ، رحمة لهم ، (ويصرفه عمن يشاء) ، أى : يؤخر عنهم الغيث .

ويحتمل أن يكون المراد بقوله : (فيصيب به) ، أى : بالبرد نقمة على من يشاء ، لما فيه من نثر ثمارهم ، وإتلاف زروعهم وأشجارهم ، ويصرفه عمن يشاء رحمة بهم .

وقوله : (يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار) ، أى : يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته(١) .

وقوله : (يقلب الله الليل والنهار) ، أى : يتصرف فيهما ، فيأخذ من طول هذا فى قصر هذا حتى يعتدلا ، ثم يأخذ من هذا فى هذا ، فيطول الذى كان قصيراً ، ويقصر الذى كان طويلا . والله هو المتصرف فى ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه .

(إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) ، أى : لدليلا على عظمته تعالى ، كما قال الله تعالى : (إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، لآيات لأولى الألباب(٢)) ، وما بعدها من الآيات الكريمات .

وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾

يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم ، فى خلقه أنواع [المخلوقات] ، على اختلاف أشكالها وألوانها ، وحركاتها وسكناتها ، من ماء واحد ، (فمنهم من يمشى على بطنه) ، كالحية وما شاكلها ، (ومنهم من يمشى على رجلين) ، كالإنسان والطير ، (ومنهم من يمشى على أربع) ، كالأنعام وسائر الحيوانات ، ولهذا قال : (يخلق الله ما يشاء) ، أى : بقدرته ، لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولهذا قال : (إن الله على كل شىء قدير) .

لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾

يقرر تعالى أنه أنزل فى هذا القرآن من الحكم(٣) والأمثال البينة المحكمة ، كثيراً جداً ، وأنه يرشد إلى تفهمها وتعقلها ولى الألباب والبصائر والنهى ، ولهذا قال : (والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) .

---

(١) فى المخطوطة : « وإذا أتبعته وأرادته » . والمثبت من الطبعات السابقة .
(٢) سورة آل عمران ، آية : ١٩٠ .
(٣) فى المخطوطة : « من الحكم والحكم والأمثال » ، فحذفنا « والحكم » .

وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾

يخبر تعالى عن صفات المنافقين ، الذين يظهرون خلاف ما يبطنون ، يقولون قولا بألسنتهم : (آمنا بالله وبالرسول وأطعنا، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك) ، أي: يخالفون أقوالهم بأعمالهم، فيقولون مالا يفعلون، ولهذا قال تعالى: (وما أولئك بالمؤمنين) .

وقوله : (وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون) ، أي إذا طلبوا إلى اتباع الهدى ، فيما أنزل الله على رسوله ، أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه ، وهذه كقوله : (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ، وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا (١)) .

وفي الطبراني من حديث روح بن عطاء بن أبي ميمونة ، عن أبيه ، عن الحسن ، عن سَمُرة مرفوعاً : « من دُعي إلى سلطان فلم يجبه ، فهو ظالم لا حق له »(٢) .

وقوله : (وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين) ، أي : إذا كانت الحكومة لهم لا عليهم ، جاءوا سامعين مطيعين ، وهو معنى قوله : (مذعنين) ، وإذا كانت الحكومة عليه أعرض ودعا إلى غير الحق ، وأحب أن يتحاكم إلى غير النبي صلى الله عليه وسلم، ليروج باطله ثَمّ ، فإذعانه أولا لم يكن عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحق ، بل لأنه موافق لهواه ، ولهذا لما خالف الحقّ قصده، عدل عنه إلى غيره ، ولهذا قال تعالى : (أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا ، أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله) ، يعني : لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مَرَض لازم لها ، أو قد عرض لها شك في الدين، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم ! وأيا ما كان فهو كفر محض، والله عليم بكل منهم ، وما هو عليه منطو من هذه الصفات .

وقوله : (بل أولئك هم الظالمون) ، أي : بل هم الظالمون الفاجرون ، والله ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور ، تعالى الله ورسوله عن ذلك

---

(١) سورة النساء ، آية : ٦٠ ، ٦١ .
(٢) الدر المنثور عن الطبراني : ٥٤/٥ .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا موسى بن إسماعيل(١) ، حدثنا مبارك ، حدثنا الحسن قال : كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعة ، فدعى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو محق أذعن ، وعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم سيقضى له بالحق ، وإذا أراد أن يظلم فدُعى إلى النبي صلى الله عليه وسلم أعرض، وقال : أنطلقُ إلى فلان : فأنزل الله هذه الآية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من كان بينه وبين أخيه شىء ، فدُعِىَ إلى حَكَمٍ من حُكَّام المسلمين فأبى أن يجيب ، فهو ظالم لا حق له» .

وهذا حديث غريب وهو مرسل .

ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ، الذين لا يبغون دينا سوى كتاب الله وسنة رسوله ، فقال : (إنما كان قولَ المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا) ، أى : سمعا وطاعة؛ ولهذا وصفهم تعالى بالفلاح ، وهو نيل المطلوب والسلامة من المرهوب ، فقال : (وأولئك هم المفلحون).

وقال قتادة فى هذه الآية : (أن يقولوا سمعنا وأطعنا) : ذُكر لنا أن عُبَادة بن الصامت ــ وكان عَقَبِيًّا (٢) بدريا ، أحد نقباء الأنصار ــ : أنه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة بن أبى أمية (٣) : ألا أنبئك بماذا عليك وَمَاذا لك ؟ قال : بلى . قال : فإن عليك السمع والطاعة ، فى عسرك ويسرك ، ومَنْشَطك ومكرهك ، وأثرةً عليك ، وعليك أن تقيم لسانك بالعدل ، وأن لا تنازع الأمرَ أهله ، إلا أن يأمروك بمعصية الله بَوَاحا (٤) ، فما أمرت به من شىء يخالف كتاب الله ، فاتبع كتاب الله .

وقال قتادة : وَذُكر لنا أن أبا الدرداء قال : لا إسلام إلا بطاعة الله ، ولا خير إلا فى جماعة ، والنصيحة لله ولرسوله ، وللخليفة وللمؤمنين عامة .

قال : وقد ذُكر لنا أن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ كان يقول : عُرْوة الإسلام شهادةُ أن لا إله إلا الله ، وإقامُ الصلاة ، وإيتاءُ الزكاة ، والطاعة لمن ولاه الله أمر المسلمين .

رواه ابن أبى حاتم . والأحاديث والآثار فى وجوب الطاعة لكتاب الله [وسنة رسوله ، وللخلفاء الراشدين ، والأئمة إذا أمروا بطاعة الله] كثيرة جداً ، أكثر من أن تحصر فى هذا المكان .

وقوله : (ومن يطع الله ورسوله) ، أى : فيما أمراه به وترك مانهياه عنه ، (ويخش الله) فيما مضى من ذنوبه ، (ويتقه) فيما يستقبل .

---

(١) وهو أبو سلمة موسى بن أسماعيل المنقرى ، مترجم فى الجرح ١٣٦/١/٤ ، ومبارك هو ابن فضالة مترجم فى الجرح أيضاً : ٣٣٨/١/٤ .

(٢) أى : إنه شهد بيعة العقبة وبدراً . وفى العقبة - وهى بمنى - كان بدء التقاء الأنصار برسول الله عليه الصلاة والسلام ، وقد شهد عبادة بن الصامت العقبة الأولى والثانية . انظر سيرة ابن هشام : ٤٣١/١ ، وأسد الغابة : ١٦٠/٣ - ١٦١ بتحقيقنا .

(٣) كذا ، والذى نعرفه أن جنادة بن أبى أمية دوسى وليس بابن أخيه ، انظر أسد الغابة ، والجرح والتعديل لابن أبى حاتم ، ٥١٥/١/١ .

(٤) مضى تفسير هذه الكلمة فى : ٣٠١/٢ .

وقوله : (فأولئك هم الفائزون) ، يعني : الذين فازوا بكل خير ، وأمنوا من كل شر في الدنيا والآخرة :

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَٰغُ الْمُبِينُ (٥٤) ﴾

يقول تعالى مخبرا عن أهل النفاق ، الذين كانوا يحلفون للرسول صلى الله عليه وسلم : لئن أمرهم بالخروج ليخرجن ، قال الله تعالى : (قل : لا تقسموا) ، أي : لاتحلفوا .

وقوله : (طاعة معروفة) ؛ قيل : معناه طاعتكم طاعة معروفة ، أي : قد علمت (١) طاعتكم ، إنما هي قول لا فعل معه ، وكلما حلفتم كذبتم ، كما قال تعالى : (يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم ، فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) (٢) وقال تعالى : (اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون (٣)) ، فهم من سجيتهم الكذب حتى فيما يختارونه ، كما قال تعالى : (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب : لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولا نطيع فيكم أحداً أبداً ، وإن قوتلتم لننصرنكم ؛ والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون (٤)) .

وقيل : المعنى في قوله : (طاعة معروفة) ، أي : ليكن أمركم طاعة معروفة ، أي : بالمعروف من غير حلف ولا إقسام ، كما يطيع الله ورسوله المؤمنون بغير حلف ، فكونوا أنتم مثلهم .

(إن الله خبير بما تعملون) ، أي : هو خبير بكم وبمن يطيع ممن يعصى . فالحلف وإظهار الطاعة ــ والباطن بخلافه ، وإن راج على المخلوق ــ فالخالق تعالى يعلم السر وأخفى ، لا يروج عليه شيء من التدليس ، بل هو خبير بضمائر عباده ، وإن أظهروا خلافها .

ثم قال تعالى : (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) ؛ أي : اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله .

وقوله : (فإن تولوا) ، أي : تتولوا عنه وتتركوا ما جاءكم به ، (فإنما عليه ما حمل) ، أي : إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة ، (وعليكم ما حملتم) ، أي : من ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه ، (وإن تطيعوه تهتدوا) ، وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم (صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور (٥)) .

---

(١) في المخطوطة : « قد علمتم طاعتكم » . ولعل الصواب ما أثبتناه .
(٢) سورة التوبة ، آية : ٩٦ .
(٣) سورة المنافقون ، آية : ٢ .
(٤) سورة الحشر ، آية : ١١ ، ١٢ .
(٥) سورة الشورى ، آية : ٥٣

وقوله : ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ كقوله : ﴿ فإنما عليك البلاغ ، وعلينا الحساب ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمصيطر (٢) ﴾ :

وقال وهب بن مُنَبِّه : أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل – يقال له : شعياء – : أن قم في بني إسرائيل فإني سأطلق لسانك بوحي . فقام فقال : يا سماء اسمعي ، ويا أرض أنصتي ، فإن الله يريد أن يقضي شأناً ويدبر أمراً هو منفذه ، إنه يريد أن يحول الريف إلى الفلاة ، والآجام (٣) في الغيطان ، والأنهار في الصحارى ، والنعمة في الفقراء ، والملك في الرعاة ، ويريد أن يبعث أميا من الأميين ، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخّاب (٤) في الأسواق ، لو يمر إلى جنب السراج لم يطفئه من سكينته ، ولو يمشي على القصب اليابس لم يسمع من تحت قدميه . أبعثه مبشّرا ونذيراً ، لا يقول الخنا (٥) ، أفتح به أعينا عميا ، وآذاناً صما ، وقلوبا غلفا ، وأسدده لكل أمر جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة منطقه ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والحق شريعته ، والعدل سيرته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملته ، وأحمد اسمه ، أهدي به بعد الضلالة ، وأعلّم به من الجهالة ، وأرفعُ به بعد الخمالة (٦) ، وأعرف به [بعد] النكْرة ، وأكثر [به] بعد القلّة ، وأغني [به] بعد العَيْلة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف به بين أمم متفرقة ، وقلوب مختلفة ، وأهواء متشتتة ، وأستنقذ به فئاما (٧) من الناس عظيما من الهلكة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، موحدين مؤمنين مخلصين ، مصدقين بما جاءت به رُسُلي . رواه ابن أبي حاتم (٨) :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (٥٥) ﴾

هذا وعد من الله لرسوله – صلى الله عليه وسلم – بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض ، أي : أئمةَ الناس والولاةَ عليهم ، وبهم تصلح البلاد ، وتخضع لهم العباد ، وليُبْدِلَن بعد خوفهم من الناس أمنا وحكما فيهم ، وقد فعل تبارك وتعالى

(١) سورة الرعد ، آية ٤٠ .
(٢) سورة الغاشية ، آية : ٢١ ، ٢٢ .
(٣) الآجام : جمع أجمة – بفتح الهمزة والجيم – وهي : الشجر الكثير الملتف . والغيطان : جمع غائط ، وهي الأرض المنبتة .
(٤) الصخب والسخب : الضجة ، واضطراب الأصوات الخصام .
(٥) الخنا : الفحش في القول .
(٦) يقال : « خمل ذكره خمولا خفي » ، ضد « نبه » . وهذا المصدر وهو خمالة – بفتح الخاء – أثبته أهل الأندلس ، وقالوا هو مثل : كرم كرامة . واعتمد القاضي عياض في إثباته على هذا الأثر . وزعم بعض العلماء أنه لمشاكلة : « الضلالة » ، والجهالة . وصوبه الزبيدي في تاج العروس ، وقال : لإطباقهم على أنه من حد « نصر » . يعني أنه ماضيه بفتح العين ، لا من باب كرم .
(٧) تقدم تفسير هذه الكلمة في : ٢/٢٦٠ ، ٤١٥ .
(٨) أخرجه القاضي عياض في الشفاء عن عبد الله بن سلام وكعب الأحبار ، ١/٤٥ .

ذلك، وله الحمد والمنة ؛ فإنه لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين ، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها ، وأخذ الجزية من مَجُوس هَجَر ، ومن بعض أطراف الشام ، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية ــ وهو المقوقس ــ وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة ، الذى تملك بعد أصحمة ، رحمه الله وأكرمه .

ثم لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم واختار الله له ما عنده من الكرامة ، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق ، فلَمّ شعَثَ ما وَهَى (١) عند موته ــ عليه الصلاة والسلام ــ وأطّدَ (٢) جزيرة العرب ومهدها ، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد ــ رضى الله عنه ــ ففتحوا طرفا منها ، وقتلوا خلقا من أهلها . وجيشا آخر صحبة أبى عبيدة ــ رضى الله عنه ــ ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام ، وثالثاً صحبة عمرو بن العاص رضى الله عنه إلى بلاد مصر ، ففتح الله للجيش الشامى فى أيامه بُصرَى ودمشق ومَخَاليفها من بلاد حَوران وما والاها ، وتوفاه الله عز وجل واختار له ما عنده من الكرامة ؛ ومَنّ على الإسلام وأهله بأن ألهم الصديق أن استخلف عمر الفاروق ، فقام فى الأمر بعده قياما تاما ، لم يَدُر الفلك بعد الأنبياء على مثله ، فى قوة سيرته وكمال عدله ؛ وتم فى أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها ، وديار مصر إلى آخرها ، وأكثر إقليم فارس ، وكَسّر كسرى وأهانه غاية الهوان ، وتقهقر إلى أقصى مملكته ، وقَصّر قيصر ، وانتزع يده عن بلاد الشام فانحاز إلى قسطنطينة ، وأنفق أموالهما فى سبيل الله ، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله ، عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة .

ثم لما كانت الدولة (٣) العثمانية امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها ، ففتحت بلاد المغرب (٤) إلى أقصى ما هنالك : الأندلس ، وقبرص ، وبلاد القيروان ، وبلاد سَبْتة مما يلى البحر المحيط ، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين ، وقتل كسرى ، وباد ملكه بالكلية . وفتحت مدائن العراق ، وخراسان ، والأهواز ، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدا ، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان ، وجُبِىَ الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ؛ وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن . ولهذا ثبت فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن الله زَوَى لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زُوِى لى منها (٥) ؛ فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله فنسأل الله الإيمان به ، وبرسوله ، والقيام بشكره على الوجه الذى يرضيه عنا .

قال الإمام مسلم بن الحجاج : حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن عبد الملك بن عمير ، عن جابر بن سَمُرة قال : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يزال أمر الناس ماضيا ماوليهم اثنا عشر رجلا » . ثم تكلم

---

(١) يريد قضاءه ــ رضى الله عنه ــ على الردة ، وإعادة القبائل إلى حظيرة الدين .

(٢) أى : ثبتها وقواها .

(٣) يريد خلافة عثمان رضى الله عنه . هذا والمؤرخون قد اصطلحوا على أن يطلقوا لقب الدولة العثمانية على دولة الأتراك العثمانيين .

(٤) لم تبلغ فتوحات الإسلام فى عهد عثمان ــ رضى الله عنه ــ هذا المبلغ ، فقد تم ذلك كله فى عهد بنى أمية ، ولعل المفسر يعنى ذلك .

(٥) تقدم الحديث فى : ٣/٢٦٨ ، ٤/٧٨ ، وخرجناه هنالك ، وشرحنا غريبه .

النبيّ صلى الله عليه وسلم بكلمة خفيت عني (١) فسألت أبي : ماذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : كلهم من قريش (٢) .

ورواه البخاري من حديث شعبة ، عن عبد الملك بن عمير ، به (٣) .

وفي رواية لمسلم (٤) أنه قال ذلك عشية رجم ماعز بن مالك ، وذكر معه أحاديث أخر .

وهذا الحديث فيه دلالة على أنه لا بد من [وجود] اثني عشرَ خليفة عادلا ، وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثني عشر ، فإن كثيرا من أولئك لم يكن إليهم من الأمر شيء ، فأما هؤلاء فإنهم يكونون من قريش ، يلُون فيعدلون ، وقد وقعت البشارة بهم في الكتب المتقدمة ، ثم لا يشترط أن يكونوا متتابعين ، بل يكون وجودهم في الأمة متتابعا ومتفرقا ، وقد وُجِد منهم أربعة على الولاء ، وهم : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي رضي الله عنهم ، ثم كانت بعدهم (٥) فترة ، ثم وُجِد منهم ما شاء الله ، ثم قد يُوجَد منهم مَن بقي في وقت يعلمه [الله] ، ومنهم المهدي الذي يطابق اسمه اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكنيته كنيته ، يملأ الأرض عدلا وقسطا ، كما ملئت جوراً وظلما .

وقد روى الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، من حديث سعيد بن جُمْهان ، عن سَفِينة ـ مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم [أن رسول الله صلى الله عليه وسلم] قال : « الخلافة بعدي ثلاثون سنة ، ثم تكون ملكا عَضُوضا »(٦) .

وقال الربيع بن أنس ، عن أبي العالية في قوله : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) ... الآية ، قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بمكة نحوا من عشر سنين ، يدعون إلى الله وحده ، وعبادته وحده لاشريك له ، سراً وهم خائفون ، لا يؤمرون بالقتال ، حتى أمروا بعدُ بالهجرة إلى المدينة ، فقدموا المدينة ، فأمرهم الله بالقتال ، فكانوا بها خائفين يُمْسُون في السلاح ويصبحون في السلاح ، فَغَبَّرُوا بذلك (٧) ما شاء الله ، ثم إن رجلا من أصحابه

---

(١) في الصحيح : « خفيت علي » .

(٢) مسلم ، كتاب الامارة ، باب « الناس تبع لقريش » : ٦/٣ .

(٣) البخاري ، كتاب الأحكام ، باب « الاستخلاف » : ٩/١٠١ .

(٤) مسلم ، في الكتاب والباب المتقدمين : ٦/٤ .

(٥) في المخطوطة : « ثم كانت بعدهم فترة بينهم » . فحذفنا كلمة « بينهم » .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٥/٢٢٠ - ٢٢١ . وسنن أبي داود ، كتاب السنة ، باب « في الخلفاء » ، الحديث ٤٦٤٦ : ٤/٢١١ وتحفة الأحوذي ، أبواب الفتن ، باب « ما جاء في الخلافة » ، الحديث ٢٣٢٦ : ٦/٤٧٦ - ٤٧٨ . وقال الترمذي : « وهذا حديث حسن ، قد رواه غير واحد عن سعيد بن جمهان ، ولا نعرفه إلا من حديثه » .

هذا ، ولم ترد في المسند ، ولا سنن أبي داود والترمذي - لفظة « عضوضا » . وملك عضوض : ظالم ، يعسف بالرعية وينكل بهم .

(٧) أي : مكثوا على هذه الحال . وقد وردت كلمة « فغبروا » في المخطوطة دون نقط . وفي الدر المنثور : « فغيروا » ، بالياء المثناة .

قال : يا رسول الله ، أبدَ الدهر نحن خائفون هكذا ؟. أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لن تَغْبَرُوا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا (١) ليست فيهم حديدة. وأنزل الله هذه الآية ، فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب ، فأمِنوا ووضعوا السلاح . ثم إن الله ــ عز وجل ــ قبض نبيه صلى الله عليه وسلم ، فكانوا كذلك آمنين فى إمارة أبى بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا (٢) ، فأدخل عليهم الخوف (٣) فاتخذوا الحَجَزَةَ (٤) والشرط وغيّروا ، فغير (٥) بهم .

وقال بعض السلف : خلافة أبى بكر وعمر ــ رضى الله عنهما ــ حق فى كتابه ، ثم تلا هذه الآية .

وقال البراء بن عازب : نزلت هذه الآية ، ونحن فى خوف شديد .

وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى : (واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس ، فآواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون (٦)) :

وقوله : (كما استخلف الذين من قبلهم) ، كما قال تعالى عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه : (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون (٧)) ، وقال تعالى : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون (٨)) .

وقوله : (وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعدىّ بن حاتم ، حين وفد عليه : أتعرف الحيرة ؟ قال : لم أعرفها ، ولكن قد سمعت بها . قال : « فوالذى نفسى بيده ، ليُتمّنّ الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة (٩) من الحِيرَة حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز . قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : نعم ، كسرى بن هرمز ، وليُبذَلَنّ المالُ حتى لا يقبله أحد » . قال عدى بن حاتم : فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قالها (١٠) .

---

(١) الاحتباء : أن يضم الإنسان رجليه إلى بطنه بثوب ، يجمعهما به مع ظهره ، ويشده عليها .

(٢) بعده فى الدر المنثور : « وكفروا النعمة » .

(٣) بعده فى الدر المنثور : « الذى كان رفع عنهم » .

(٤) كذا فى المخطوطة ، ولعله يعنى جمع حاجز ، وهو الذى يحجز عنك ، ويمنع عنك غيرك . وفى الدر المنثور : « الحجر » جمع حجرة .

(٥) الدر المنثور عن عبد بن حميد وابن أبى حاتم : ٥/٥٥ .

(٦) سورة الأنفال ، آية : ٢٦ .

(٧) سورة الأعراف ، آية : ١٢٩ .

(٨) سورة القصص ، آية : ٥ ، ٦ .

(٩) الظعينة : المرأة.

(١٠) انظر البخارى ، كتاب المناقب ، باب « علامات النبوة فى الإسلام » : ٤/٢٣٩ ــ ٢٤٠ . وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة الفاتحة ، الحديث ٤٠٢٩ : ٨/٢٨٦ ــ ٢٨٩ . ومسند الإمام أحمد : ٤/٢٥٧ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا سفيان ، عن أبي سلمة ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة ، والدين والنصر والتمكين في الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب »(١) .

وقوله : (يعبدونني لا يشركون بي شيئاً) ، قال الإمام أحمد :

حدثنا عفان ، حدثنا همام ، حدثنا قتادة ، عن أنس ، أن معاذ بن جبل حدثه قال : بينا أنا رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينه إلا آخرة (٢) الرحل ، قال : « يامعاذ . قلت : لبيك يارسول الله وسعديك . قال : ثم سار ساعة ثم قال : يامعاذ بن جبل قلت : لبيك يارسول الله وسعديك [ثم سار ساعة ، ثم قال : يامعاذ بن جبل . قلت : لبيك يارسول الله وسعديك] قال : هل تدري ما حق الله على العباد . قلت : الله ورسوله أعلم . قال [فإن] حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، قال : ثم سار ساعة . ثم قال : يامعاذ بن جبل . قلت : لبيك يارسول الله وسعديك . قال : فهل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قال : قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإن حق العباد على الله أن لا يعذبهم »(٣) .

أخرجاه في الصحيحين من حديث قتادة (٤) .

وقوله : (ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) ، أي : فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك فقد فسق عن أمر ربه وكفى بذلك ذنباً عظيماً ، فالصحابة ، رضي الله عنهم — لما كانوا أقوم الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم بأوامر الله عز وجل ، وأطوعهم لله — كان نصرهم بحسبهم ، أظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب ، وأيدهم تأييداً عظيماً ، وتحكموا في سائر العباد والبلاد . ولما قصّر الناس بعدهم في بعض الأوامر ، نقص ظهورهم بحسبهم ، ولكن قد ثبت في الصحيحين من غير وجه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة » . وفي رواية : « حتى يأتي أمر الله ، وهم كذلك » . وفي رواية : « حتى يقاتلوا الدجال » ، وفي رواية : « حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم ظاهرون (٥) » . وكل هذه الروايات صحيحة ، ولا تعارض بينها .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/١٣٤ .

(٢) آخرة الرحل — بمد الهمزة — : الخشبة التي يستند إليها الراكب من كور البعير .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٥/٢٤٢ .

(٤) البخاري ، كتاب اللباس ، باب « إرداف الرجل خلف الرجل » : ٧/٢١٨ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « من لقي الله بالإيمان ، وهو غير شاك ، دخل الجنة وحرم على النار » : ١/٤٣ .

(٥) البخاري ، كتاب الاعتصام ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تزال طائفة من أمتي ... » : ٩/١٢٤ — ١٢٥ . وكتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : (إنما قولنا لشيء) : ٩/١٦٦ — ١٦٧ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « نزول عيسى ابن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم » : ١/٩٥ . وكتاب الإمارة ، باب قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال طائفة من أمتي ... » : ٦/٥٢ — ٥٤ . وسنن أبي داود ، كتاب الفتن ، باب « ذكر الفتن ودلائلها » ، الحديث ٤٢٥٢ : ٤/٩٧ — ٩٨ . وكتاب الجهاد ، باب « في دوام الجهاد » ، الحديث ٢٤٨٤ : ٣/٤ . وتحفة الأحوذي ، أبواب الفتن ، باب « ما جاء في الأئمة المضلين » ، الحديث ٢٣٣٠ : ٦/٤٨٣ — ٤٨٤ . وابن ماجه ، المقدمة ، الأحاديث : ٦ ، ٧ ، ٩ ، ١٠ : ١/٤ — ٦ . ومسند الإمام أحمد عن معاوية بن أبي سفيان : ٤/٩٣ — ٩٩ . وعن سلمة بن نفيل : ٤/١٠٤ . وعن المغيرة ابن شعبة : ٤/٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، وعن عمران بن حصين : ٤/٤٢٩ ، ٤٣٤ ، ٤٣٧ ، وعن أبي أمامة : ٥/٢٦٩ ، وعن ثوبان : ٥/٢٧٨ ، ٢٧٩ .

وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بإقام الصلاة ، وهي : عبادة الله وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة ، وهي : الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم ، وأن يكونوا في ذلك مطيعين للرسول — صلوات الله وسلامه عليه — أي سالكين وراءه فيما [به] أمرهم وتاركين ما عنه زجرهم ، لعل الله يرحمهم بذلك ، ولا شك أن من فعل ذلك أن الله سيرحمهم ، كما قال تعالى في الآية الأخرى : (أولئك سيرحمهم الله (١)) .

وقوله (لا تحسبن) ، أي : [لا تظن] يا محمد (الذين كفروا) ، أي : خالفوك وكذبوك ، (معجزين في الأرض) ، أي ، لا يعجزون الله ، بل الله قادر عليهم ، وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب ، ولهذا قال (ومأواهم) ، أي : في الدار الآخرة (النار ، ولبئس المصير) ، أي : بئس المآل مآلُ الكافرين ، وبئس القرار وبئس المهاد .

يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ الْعِشَآءِ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْـَٔايَـٰتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا كَمَا اسْتَـْٔذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَٰعِدُ مِنَ النِّسَآءِ الَّـٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض . وما تقدم في أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض ، فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خَدَمُهم مما ملكت أيمانهم وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم في ثلاثة أحوال : الأول من قبل صلاة الغداة (٢) ، لأن الناس إذ ذاك يكونون نياماً في فرشهم ، (وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة) ، أي : في وقت القيلولة ، لأن الإنسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله ، (ومن بعد صلاة العشاء) ، لأنه وقت النوم ، فيُؤمَرُ الخدمُ والأطفال أن لا يهجمُوا على أهل البيت في هذه الأحوال ، لما يخشى من أن يكون الرجل على أهله ، ونحو ذلك من الأعمال ، ولهذا قال : (ثلاث عورات لكم ، ليس عليكم ولا عليهم

(١) سورة التوبة ، آية : ٧١ .
(٢) أي : صلاة الصبح .

جناح بعدهن) ، أى : إذا دخلوا فى حال غير هذه الأحوال فلا جناح عليكم فى تمكينكم إياهم من ذلك ، ولا عليهم إن رأوا شيئا فى غير تلك الأحوال ، لأنه قد أذن لهم فى الهجوم ، ولأنهم (طوّافون) عليكم ، أى : فى الخدمة وغير ذلك . ويغتفر فى الطوافين مالا يغتفر فى غيرهم . ولهذا روَى الإمام مالك وأحمد بن حنبل وأهل السنن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى الهرّة : «إنها ليست بنجَس ؛ إنها من الطوافين عليكم ، أو : والطوافات (١)» .

ولما كانت هذه الآية محكمة ولم تنسخ بشىء ، وكان عمل الناس بها قليلا جداً ، أنكر عبد الله بن عباس ذلك على الناس ، كما قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبو زرعة ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير ، حدثنى عبد الله بن لهيعة ، حدثنى عطاء بن دينار ، عن سعيد ابن جبير قال : قال ابن عباس : ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن : (يا أيها الذين آمنوا ، ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم) إلى آخر الآية ، والآية التى فى سورة النساء : (وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين ، فارزقوهم منه) ، والآية التى فى الحجرات (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

وروى أيضاً من حديث إسماعيل بن مسلم — وهو ضعيف — عن عمرو بن دينار ، عن عطاء بن أبى رباح ، عن ابن عباس قال : غلب الشيطان الناس على ثلاث آيات ، فلم يعملوا بهن : (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) ... إلى آخر الآية .

وقال أبو داود : حدثنا ابن الصباح بن سفيان وابن عبدة — وهذا حديثه — أخبرنا سفيان ، عن عبيد الله بن أبى يزيد ، سمع ابن عباس يقول : لم يؤمن بها أكثر الناس آية الإذن ، وإنى لآمر جاريتى هذه تستأذن على .

قال أبو داود : وكذلك رواه عطاء ، عن ابن عباس يأمر به (٢) .

وقال الثورى ، عن موسى بن أبى عائشة سألت الشعبى : (ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) ، قال : لم تنسخ . قلت : فإن الناس لا يعملون بها ؟ فقال : الله المستعان (٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا الربيع بن سليمان ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنا سليمان بن بلال ، عن عمرو بن أبى عَمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن رجلين سألاه عن الاستئذان فى الثلاث عورات التى أمر الله بها فى القرآن ، فقال

---

(١) سنن أبى داود ، كتاب الطهارة ، باب « سؤر الهرة » ، الحديث ٧٥ : ١/١٩ — ٢٠ . وتحفة الأحوذى ، أبواب الطهارة ، باب « ما جاء فى سؤر الهرة » ، الحديث ٩٢ : ١/٣٠٧ — ٣١٢ ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » . والنسائى ، كتاب الطهارة ، باب « سؤر الهرة » : ١/٥٥ ، وكتاب المياه ، باب « سؤر الهرة » : ١/١٧٨ . وابن ماجه ، كتاب الطهارة ، باب « الوضوء بسؤر الهرة والرخصة فى ذلك » ، الحديث ٣٦٧ : ١/١٣٠ — ١٣١ . ومسند الإمام أحمد عن أبى قتادة : ٥/٢٩٦ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩ .

(٢) سنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب « الاستئذان فى العورات الثلاث » ، الحديث ٥١٩١ : ٤/٣٤٩ . وفى الدر المنثور ٥/٥٦ زيادة وهى : « وإنى لآمر جاريتى هذه — لجارية قصيرة قائمة على رأسه — أن تستأذن على » .

(٣) تفسير الطبرى : ١٨/١٢٤ — ١٢٥ .

ابن عباس : إن الله ستّير يحب الستر ، كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم ولا حجال (١) فى بيوتهم ، فربما فاجأ الرجلَ خادمُه أو ولده أو يتيمه فى حجره ، وهو على أهله ، فأمرهم الله أن يستأذنوا فى تلك العورات التى سمى الله . ثم جاء الله بعد بالستور ، فبسط عليهم الرزق ، فاتخذوا الستور واتخذوا الحِجَال ، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذى أمروا به (٢) ؛

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس ، ورواه أبو داود ، عن القعنبى ، عن الدراوردى ، عن عمرو بن أبى عَمْرو (٣) به ؛

وقال السدّى : كان أناس من الصحابة ــ رضى الله عنهم ــ يحبون أن يُوَاقعوا نساءهم فى هذه الساعات ، ليغتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة ، فأمرهم الله أن يأمروا المملوكين والغلمان أن لا يدخلوا عليهم فى تلك الساعات إلا بإذن ؛

وقال مقاتل بن حيان : بلغنا ــ والله أعلم ــ أن رجلا من الأنصار وامرأته أسماء بنت مُرْشدة صنعا للنبى صلى الله عليه وسلم طعاما ، فجعل الناس يدخلون بغير إذن . فقالت أسماء : يا رسول الله ، ما أقبح هذا ! إنه ليدخل على المرأة وزوجها ، وهما فى ثوب واحد ، غلامهما بغير إذن ! فأنزل الله فى ذلك : (يا أيها الذين آمنوا ، ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم) ..... الآية ؛

ومما يدل على أنها محكمة لم تنسخ ، قولهُ : (كذلك يبين الله لكم الآيات ، والله عليم حكيم) ؛

ثم قال تعالى : (وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم ، فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم) ، يعنى إذا بلغ الأطفال الذين إنما كانوا يستأذنون فى العورات الثلاث ، إذا بلغوا الحلم ، وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال ، يعنى بالنسبة إلى أجانبهم وإلى الأحوال التى يكون الرجل على امرأته ، وإن لم يكن فى الأحوال الثلاث .

قال الأوزاعى ، عن يحيى بن أبى كثير : إذا كان الغلام رباعيا (٤) فإنه يستأذن فى العورات الثلاث على أبويه ، فإذا بلغ الحلم فليستأذن على كل حال . وهكذا قال سعيد بن جبير .

وقال فى قوله : (كما استأذن الذين من قبلهم) ، يعنى كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه ؛

وقوله : (والقواعد من النساء) ، قال سعيد بن جبير ، ومقاتل بن حيان ، وقتادة ، والضحاك : هن اللواتى انقطع عنهن الحيض ويَئسن من الولد ، (اللاتى لا يرجون نكاحاً) ، أى : لم يبق لهن تشوف إلى التزويج ، (فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة) ، أى : ليس عليها من الحجر فى التستّر كما على غيرها من النساء ؛

---

(١) الحجلة ــ بفتح الحاء والجيم ــ بيت كالقبة يستر بالثياب ، وتكون له أزرار كبار . وتجمع على حجال .
(٢) الدر المنثور عن أبى داود ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه . والبيهقى فى السنن : ٥/٩٦ .
(٣) سنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب « الاستئذان فى العورات الثلاث » ، الحديث ٥١٩٢ : ٣٤٩/٤ .
(٤) أى : طوله أربعة أشبار .

قال أبو داود : حدثنا أحمد بن محمد المروزى ، حدثنى على بن الحسين بن واقد ، عن أبيه ، عن يزيد النحوى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) ::: الآية فنسخ ، واستثنى من ذلك (القواعد من النساء اللاتى لايرجون نكاحاً (١)) ::: الآية .

قال ابن مسعود : (فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن) ، قال : الجلباب ، أو الرداء (٢) : وكذا رُوى عن ابن عباس ، وابن عمر ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وأبى الشعثاء ، وإبراهيم النخعى ، والحسن ، وقتادة ، والزهرى ، والأوزاعى ، وغيرهم .

وقال أبو صالح : تضع الجلباب ، وتقوم بين يدى الرجل فى الدرع (٣) والخمار .

وقال سعيد بن جُبير وغيره ، فى قراءة عبد الله بن مسعود : (أن يضعن من ثيابهن) : وهو الجلباب من فوق الخمار ، فلا بأس أن يضعن عند غريب أو غيره ، بعد أن يكون عليها خمار صَفيق .

وقال سعيد بن جبير : (غير متبرجات بزينة) ، يقول : لايتبرجن بوضع الجلباب ، ؛ أن يرى ما عليها من الزينة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عبيد الله (٤) ، حدثنا ابن المبارك ، [حدثنى سوار بن ميمون ، حدثتنا طلحة بنت عاصم ، عن أم الضا ، عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : دخلت علىّ (٥)] فقلت : يا أم المؤمنين، ما تقولين فى الخضاب ، والنفاض (٦) ، والصباغ ، والقُرطين ، والخلخال ، وخاتم الذهب ، وثياب الرقاق ؟ فقالت : يا معشر النساء ، قصتكن كلها واحدة ، أحل الله لكن الزينة غير متبرجات ، أى : لا يحلّ لكنّ أن يَرَوْا منكن محرما .

وقال السدى : كان شريك لى يقال له « مسلم » ، وكان مولى لامرأة حذيفة بن اليمان ، فجاء يوما إلى السوق وأثر الحنّاء فى يده ، فسألته عن ذلك ، فأخبرنى أنه خَضَب رأس مولاته — وهى امرأة حذيفة — فأنكرت ذلك ، فقال : إن شئت أدخلتك عليها ؟ فقلت : نعم . فأدخلنى عليها ، فإذا امرأة جليلة ، فقلت : إن مسلما حدثنى أنه خضب رأسك ؟ فقالت : نعم ، يابنى ، إنى من القواعد اللاتى لا يرجون نكاحاً ، وقد قال الله فى ذلك ماسمعت .

وقوله : (وأن يستعففن خير لهن) ، أى : وترك وضعهن لثيابهن ، وإن كان جائزاً خير وأفضل لهن ، والله سميع عليم .

---

(١) سنن أبى داود ، كتاب اللباس ، باب فى قول الله تعالى عز وجل : (وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن) ، الحديث ٤١١١ : ٦٣/٤ .
(٢) تفسير الطبرى : ١٨/١٢٧ .
(٣) الدرع : القميص
(٤) فى المخطوطة : « هشام بن عبد الله » . وما أثبتناه عن الجرح : ٤/٢/٦٧ .
(٥) ما بين القوسين صورة لما فى مخطوطة الأزهر ، ولم يتيسر لنا ضبطه لا سنداً ولا متناً ، ونسأل الله أن يوفقنا لضبطه فيما يستقبل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .
(٦) ؟؟؟ ؟؟؟ ؟؟؟

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

اختلف المفسرون ـ رحمهم الله ـ فى المعنى الذى رفع من أجله الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض هاهنا ، فقال عطاء الخراسانى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : نزلت فى الجهاد ؛ وجعلوا هذه الآية هاهنا كالتى فى سورة الفتح (١)، وتلك فى الجهاد لا محالة ، أى : إنهم لا إثم عليهم فى ترك الجهاد ، لضعفهم وعجزهم ، وكما قال تعالى فى سورة براءة : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ، ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم . ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه ، تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون) .

وقيل : المراد أنهم كانوا يتحرجون من الأكل مع الأعمى ، لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات ، فربما سبقه غيره إلى ذلك ، ولا مع الأعرج لأنه لا يتمكن من الجلوس ، فيفتات عليه جليسُه ، والمريض لا يستوفى من الطعام كغيره ، فكرهوا أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم ، فأنزل الله هذه الآية رخصة فى ذلك . وهذا قول سعيد بن جبير ، ومِقْسَم .

وقال الضحاك : كانوا قبل المبعث يتحرجون من الأكل مع هؤلاء تقذراً وتقززاً ، ولئلا يتفضلوا عليهم ، فأنزل الله هذه الآية .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد فى قوله تعالى : (ليس على الأعمى حرج) ... الآية قال : كان الرجل يذهب بالأعمى أو الأعرج أو المريض إلى بيت أبيه ، أو بيت أخيه ، أو بيت أخته ، أو بيت عمته ، أو بيت خالته ، فكان الزَّمْنَى يتحرجون من ذلك ، يقولون : إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم، فنزلت هذه الآية رخصة لهم (٢) .

وقال السُّدّى : كان الرجل يدخل بيت أبيه ، أو أخيه أو ابنه ، فتُتْحفه المرأة بالشىء من الطعام ، فلا يأكل من أجل أن ربّ البيت ليس ثَمّ . فقال الله تعالى : (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ، ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم) ، إلى قوله : (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتاً) .

---

(١) انظر الآية ١٧ من سورة الفتح .
(٢) تفسير الطبرى ١٢٩/١٨ .

وقوله تعالى : (ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم) ، إنما ذكَر هذا ، وهو معلوم ، ليعطفَ عليه غيره في اللفظ ، وليستأديه (١) ما بعده في الحكم : وتضمن هذا بيوت الأبناء ، لأنه لم ينص عليهم ؛ ولهذا استدل بهذا من ذهب إلى أنّ مال الولد بمنزلة مال أبيه ، وقد جاء في المسند والسنن ، من غير وجه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : أنت ومالك لأبيك (٢) .

وقوله : (أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم) ، إلى قوله : (أو ما ملكتم مفاتحه) ، هذا ظاهر ؛ وقد يستدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض ، كما هو مذهب أبي حنيفة والإمام أحمد بن حنبل ، في المشهور عنهما .

وأما قوله : (أو ما ملكتم مفاتحه) ، فقال سعيد بن جُبَيْر ، والسدّي : هو خادم الرجل من عبد وقَهْرَمان(٣) ، فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف .

وقال الزهري ، عن عروة ، عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : كان المسلمون يرغبون في النفير(٤) مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيدفعون مفاتحهم إلى ضُمَنَائهم ، ويقولون : قد أحللنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه ، فكانوا يقولون : إنه لا يحل لنا أن نأكل ؛ إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم ، وإنما نحن أمناء ، فأنزل الله : (أو ما ملكتم مفاتحه) .

وقوله : (أو صديقكم) ، أي : بيوت أصدقائكم وأصحابكم ، فلا جناح عليكم في الأكل منها ، إذا علمتم أن ذلك لا يَشُقّ عليهم ولا يكرهون ذلك .

وقال قتادة : إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه .

وقوله : (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً) – قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في هذه الآية : وذلك لما أنزل الله : (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) ، قال المسلمون : إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، والطعام هو أفضل من الأموال ، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد ؛ فكفّ الناسُ عن ذلك ، فأنزل الله : (ليس على الأعمى حرج) ، إلى قوله : (أو صديقكم) ؛ وكانوا أيضاً يأنفون ويتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده ، حتى يكون معه غيره ، فرخص الله لهم في ذلك ، فقال : (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً) .

---

(١) كذا في مخطوطة الأزهر ، وفي اللسان : « استأداه فآداه » أي : أعانه وقواه » . وعليه فيكون المعنى هنا : وليستعين به على أداء حكم ما بعده . وفي الطبعات السابقة : « وليساوي به ما بعده » .

(٢) مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو : ٢/١٧٩ ، ٢٠٤ ، ٢١٤ . وسنن ابن ماجه ، كتاب التجارات ، باب « ما للرجل من مال ولده » ، الحديث ٢٢٩١ ، ٢٢٩٢ : ٢/٧٦٩ .

(٣) تقدم تفسير هذه الكلمة في : ٢/٥٦٤ .

(٤) النفير : القوم الذين ينفرون معك في القتال ، أي : يتقدمون .

وقال قتادة : وكان هذا الحي من بني كنانة ، يرى أحدهم أن مخزاة عليه أن يأكل وحده في الجاهلية ، حتى إن كان الرجلُ ليَسوقُ الذَّودَ الحُفَّل وهو جائع ، حتى يجد من يؤاكله ويشاربه ، فأنزل الله : (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً) .

فهذه رخصة من الله تعالى في أن يأكل الرجل وحده ، ومع الجماعة ، وإن كان الأكل مع الجماعة أفضل وأبرك ، كما رواه الإمام أحمد .

حدثنا يزيد بن عبد ربه ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن وَحْشيِّ بن حَرْب ، عن أبيه ، عن جده : أنَّ رجلا قال للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : إنا نأكلُ ولا نشبَع ؟! ، قال : «فلعلكم تأكلون متفرقين ، اجتمعوا على طعامكم ، واذكروا اسم الله يُبارَكْ لكم فيه » (١) .

ورواه أبو داود وابن ماجه ، من حديث الوليد بن مسلم(٢) ، به .

وقد روَى ابن ماجه أيضاً ، من حديث عمرو بن دينار القهرماني ، عن سالم ، عن أبيه ، عن عمر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «كلوا جميعاً ولا تفَرّقوا ، فإن البركة مع الجماعة» (٣) .

وقوله : (فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم) ، قال سعيد بن جبير ، والحسن البصري ، وقتادة ، والزهري : فليسلم بعضكم على بعض .

وقال ابن جريج : حدثنا أبو الزبير : سمعتُ جابر بن عبد الله يقول : إذا دخلتَ على أهلك فسلِّم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة . قال : ما رأيته إلا يوجبه (٤) .

قال ابن جريج : وأخبرني زياد ، عن ابن طاوس أنه كان يقول : إذا دخلَ أحدكم بيته فليسلم .

قال ابن جُرَيج : قلت لعطاء : أواجب إذا خرجت ثم دخلت أن أسلم عليهم ؟ قال : لا ، ولا آثُرُ(٥) وجوبه عن أحد ، ولكن هو أحب إلي ، وما أدعه إلا ناسياً(٩) .

وقال مجاهد : إذا دخلت المسجد فقل : السلام على رسول الله ، وإذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

وروى الثوري ، عن عبد الكريم الجزَرَيّ ، عن مجاهد : إذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل : بسم الله ، والحمد لله السلام علينا من ربنا ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥٠١/٣ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الأطعمة ، باب « في الاجتماع على الطعام » ، الحديث ٣٧٦٤ : ٣٤٦/٣ . وسنن ابن ماجه ، كتاب الأطعمة ، باب « الاجتماع على الطعام » ، الحديث ٣٢٨٦ : ١٠٩٣/٢ .

(٣) سنن ابن ماجه ، في الكتاب والباب المتقدمين ، الحديث ٣٢٨٧ : ١٠٩٣/٢ ، ١٠٩٤ .

(٤) تفسير الطبري : ١٣٢/١٨ .

(٥) أي : ولا أرويه .

وقال قتادة :[إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد ، فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين](١) . فانه كان يؤمر بذلك ، وحدثنا أن الملائكة ترد عليه .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا عُوَيْبَدُ بن أبي عمران(٢) الجونى ، عن أبيه ، عن أنس قال : أوصانى النبىّ صلى الله عليه وسلم بخمس خصال ، قال : «يا أنس ، أسبغ الوضوء يُزَد فى عمرك، وسلّم على من لقيك من أمتى تكثُر حسناتك . وإذا دخلت – يعنى بيتك – فسلم على أهل بيتك ، يكثر خير بيتك ؛ وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك . يا أنس ، ارحم الصغير ، ووقّر الكبير ، تكُنْ من رفقائى يوم القيامة» .

وقوله : (تحية من عند الله مباركة طيبة) ، قال محمد بن إسحاق : حدثنى داود بن الحصين ، عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقول : ما أخذت التشهد إلا من كتاب الله ، سمعت الله يقول : (فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة) ، فالتشهد فى الصلاة : التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . ثم يدعو لنفسه ويسلم .

هكذا رواه ابن أبى حاتم ، من حديث ابن إسحاق (٣) .

والذى فى صحيح مسلم ، عن ابن عباس ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخالف هذا(٤) ، والله أعلم .

وقوله : (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون) ، لما ذكر تعالى ما فى هذه السورة الكريمة من الأحكام المحكمة ، والشرائع المتقنة المبرمة ، نبّه تعالى على أنه يُبَيِّن لعباده الآيات بياناً شافياً ، ليتدبروها ويتعقلوها .

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾

وهذا أيضاً أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه ، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول ، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف ، لاسيما إذا كانوا فى أمر جامع مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه – من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة ، أو اجتماع لمشورة ونحو ذلك ، أمرهم الله تعالى أن لا ينصرفوا عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته ، وإن من يفعل ذلك فهو من المؤمنين الكاملين .

---

(١) ما بين القوسين المعقوفين سقط من مخطوطة الأزهر ، وقد أثبتناه عن الطبعات السابقة . ونحسبه سقط نظر . وانظر الدر المنثور : ٥/٥٩ – ٦٠ .

(٢) عويد بن أبى عمران الجونى مترجم فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٣/٢/٤٥ . وانظر ترجمة أبيه عبد الملك بن حبيب فى التهذيب : ٦/٣٨٩ .

(٣) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور عن ابن حاتم : ٥/٦٠ .

(٤) مسلم ، كتاب الصلاة ، باب « التشهد فى الصلاة » : ٢/١٤ .

ثم أمر رسوله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ إذا استأذنه أحد منهم فى ذلك أن يأذن له ، إن شاء : ولهذا قال : (فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ، إن الله غفور رحيم) .

وقد قال أبو داود : حدثنا أحمد بن حَنْبَل ومُسَدَّد قالا : حدثنا بشر ــ هو ابن المفضل ــ عن ابن عجلان ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم ، فاذا أراد أن يقوم فليسلم ، فليست الأولى بأحق من الآخرة(١) .

وهكذا رواه الترمذى والنسائى ، من حديث محمد بن عجلان ، به : وقال الترمذى : حسن (٢) :

لَا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

قال الضحاك ، عن ابن عباس : كانوا يقولون : « يامحمد » ، « يا أبا القاسم » . فنهاهم الله عز وجل [عن ذلك] ، إعظاماً لنبيه ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ قال : فقالوا يارسول الله(٣) يانبى الله : وهكذا قال مجاهد ، وسعيدبن جُبَير ، وقال قتادة : أمر الله أن يهاب نبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأن يُبَجَّل وأن يعظم وأن يسود(٤) .

وقال مقاتل فى قوله : (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) ، يقول : لا تُسَمّوه إذا دَعَوتموه « يا محمد » ، ولا تقولوا : « يا ابن عبد الله » . ولكن شرِّفوه فقولوا : « يانبى الله » ، « يارسول الله » .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم فى قوله : (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) ، قال : أمرهم الله أن يشرفوه .

هذا قول ، وهو الظاهر من السياق ، كما قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا، لا تقولوا راعنا وقولوا : انظرنا واسمعوا)(٥) ، وقال : (يا أيها الذين آمنوا ، لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول ، كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) إلى قوله : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لايعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم) (٦) .

---

(١) سنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب « السلام إذا قام من المجلس » ، الحديث ٥٢٠٨ : ٣٥٣/٤ .

(٢) تحفة الأحوذى ، أبواب الاستئذان ، باب « التسليم عند القيام والقعود » ، الحديث ٢٨٤٩ : ٤٨٥/٧ ــ ٤٨٦ . وقال الحافظ أبو العلى ــ صاحب تحفة الأحوذى ــ : « وأخرجه أحمد ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن حبان ، والحاكم » .

(٣) الأثر فى الدر المنثور عن ابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، وأبى نعيم فى الدلائل : ٦١/٥ .

(٤) فى المخطوطة : « وأن يعظم ، وأن يودد » . والمثبت من الطبعات السابقة . والأثر فى الدر المنثور عن عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم : ٦١/٥ ، ولفظه : « أن يهاب نبيه وأن يبجل ، وأن يعظم وأن يفخم ويشرف » .

(٥) سورة البقرة ، آية : ١٠٤ .

(٦) سورة الحجرات ، آية : ٤ ، ٥ .

فهذا كله من باب الأدب (١) [في مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم والكلام معه وعنده كما أمروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته] .

والقول الثاني في ذلك أن المعنى في : (لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) ، أي : لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره ، فإن دعاءه مستجاب ، فاحذروا أن يدعوا عليكم فتهلكوا .

حكاه ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، والحسن البصري ، وعطية العوفي(٢) ، والله أعلم .

وقوله : (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً) ، قال مقاتل بن حيّان : هم المنافقون ، كان يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة – ويعني بالحديث الخطبة – فيلوذون ببعض الصحابة – أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم – حتى يخرجوا من المسجد ، وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن من النبيّ صلى الله عليه وسلم في يوم الجمعة ، بعد ما يأخذ في الخطبة . وكان إذا أراد أحدهم الخروجَ أشارَ بأصبعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل ، لأن الرجل [منهم] كان إذا تكلم والنبي – صلى الله عليه وسلم – يخطب ، بطلتْ جُمعته (٣) .

وقال السدي : كانوا إذا كانوا معه في جماعة لاذ بعضهم ببعض ، حتى يتغيبوا عنه ، فلا يراهم .

وقال قتادة في قوله : (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا) ، يعني : لواذا [عن نبي الله وعن كتابه .

وقال سفيان : (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا) ، قال : مَن الصف ، وقال مجاهد في الآية (لواذا)] . قال : خلافاً .

وقوله : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) ، أي : عن أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سبيله هو ومنهاجه وطريقته [وسنته] وشريعته ، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله ، فما وافق ذلك قُبِل ، وما خالفه فهو مرْدُود على قائله وفاعله ، كائنا ما كان ، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما ، عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : من عمل عمَلا ليس عليه أمرنا فهو رَدّ (٤) .

أي : فليحذر وليخْش من خالف شريعة الرسول باطناً أو ظاهراً (أن تصيبهم فتنة) ، أي : في قلوبهم ، من كفر أو نفاق ، أو بدعة ، (أو يصيبهم عذاب أليم) ، أي : في الدنيا ، بقتل أو حدّ أو حبس أو نحو ذلك .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن همام بن مُنَبّه قال : هذا ما حدثنا أبو هُرَيرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مثلي ومثلكم كمثل(٥) رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش

---

(١) في مخطوطة الأزهر : «من باب الآداب» . وما بعده ، وهو ما بين القوسين ، أثبتناه من الطبعات السابقة

(٢) أخرجه السيوطي في الدر المنثور عن ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه : ٦١/٥ .

(٣) الأثر في الدر المنثور عن ابن أبي حاتم : ٦١/٥ .

(٤) البخاري ، كتاب الصلح ، باب «إذا اصطلحوا على صلح جور ، فالصلح مردود» : ٢٤١/٣ . ومسلم ، كتاب الأقضية ، باب «نقض الأحكام الباطلة ، ورد محدثات الأمور» : ١٣٢/٥ . وسنن أبي داود ، كتاب السنة ، باب «في لزوم السنة» ، الحديث ٤٦٠٦ : ٢٠٠/٤ ، وابن ماجه ، المقدمة ، الحديث ١٤ : ٧/١ . ومسند الإمام أحمد عن عائشة : ١٤٦/٦ .

(٥) لفظ المسند : «مثلي كمثل رجل ...» .

وهذه الدواب اللاتي [يقعن في النار] يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبنه ويتقحّمن(١) فيها : قال : فذلك مثلى ومثلكم ، أنا آخذ بحُجَزِكم عن النار : هلم عن النار فتغلبونى وتقتحمون فيها(٢) : أخرجاه من حديث عبد الرزاق (٣) .

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأنه عالم [الغيب والشهادة] (٤) ، وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم ، فقال : (قد يعلم ما أنتم عليه) — « وقد » للتحقيق ، كما قال قبلها : (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا) ، وقال تعالى : (قد يعلم الله المعوقين منكم ، والقائلين لإخوانهم : هلم إلينا (٥)) : وقال تعالى : (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ، وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ؛ إن الله سميع بصير (٦)) : وقال : (قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون ؛ فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون (٧)) . وقال : (قد نرى تقلب وجهك في السماء) (٨) : فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل بقد ، كما يقول المؤذن تحقيقاً وثبوتاً : « قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة » : فقوله تعالى : (قد يعلم ما أنتم عليه) ، أى : هو عالم به، مشاهد له ، لا يعزب عنه مثقال ذرة، كما قال تعالى: (وتوكل على العزيز الرحيم : الذى يراك حين تقوم : وتقلبك في الساجدين : إنه هو السميع العليم) (٩) : وقال : (وما تكون في شأن ، وما تتلو منه من قرآن، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين) (١٠) : وقال تعالى : (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) (١١) ، أى : هو شهيد على عباده بما هم فاعلون من خير وشر : وقال تعالى : (ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون)(١٢): وقال تعالى : (سواء منكم

---

(١) لفظ المسند : « فتقتحم » .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٣١٢/٢ ، من حديث طويل .

(٣) مسلم ، كتاب الفضائل ، باب « شفقته — صلى الله عليه وسلم — على أمته ، ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم » : ٦٣/٧ — ٦٤ . وقد وقع لنا هذا الحديث في صحيح البخارى من غير هذه الطريق ، انظر كتاب الرقاق ، باب « الانتهاء عن المعاصى » : ١٢٦/٨ — ١٢٧ . وكتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : (ووهبنا لداود سليمان ، نعم العبد) : ١٩٧/٤ — ١٩٨ .

(٤) فى مخطوطة الأزهر : « وأنه عالم غيب السموات والأرض » . وقد أثبتنا ما فى الطبعات السابقة .

(٥) سورة الأحزاب ، آية : ١٨ .

(٦) سورة المجادلة ، آية : ١ .

(٧) سورة الأنعام ، آية : ٣٣ .

(٨) سورة البقرة ، آية : ١٤٤ .

(٩) سورة الشعراء ، الآيات : ٢١٧ — ٢٢٠ .

(١٠) سورة يونس ، آية : ٦١ .

(١١) سورة الرعد ، آية : ٣٣ .

(١٢) سورة هود ، آية : ٥ .

من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) (١) . وقال تعالى : (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل فى كتاب مبين)(٢) ، وقال : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) (٣) . والآيات والأحاديث فى هذا كثيرة جداً .

وقوله : (ويوم يرجعون إليه) ، أى : ويوم ترجع الخلائق إلى الله — وهو يوم القيامة — (فينبئهم بما عملوا) ، أى : يخبرهم بما فعلوا فى الدنيا ، من جليل وحقير ، وصغير وكبير ، كما قال تعالى :(ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) (٤) . وقال : (ووضع الكتاب ، فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون : يا ويلتنا ، مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ،ووجدوا ما عملوا حاضراً ، ولا يظلم ربك أحداً)(٥) : ولهذا قال هاهنا : (ويوم يرجعون إليه ، فينبئهم بما عملوا ، والله بكل شىء عليم) . والحمد لله رب العالمين ، ونسأله التمام .

---

(١) سورة الرعد ، آية : ١٠ .
(٢) سورة هود ، آية : ٦ .
(٣) سورة الأنعام ، آية : ٥٩ .
(٤) سورة القيامة ، آية : ١٣ .
(٥) سورة الكهف ، آية : ٤٩ .

تفسير سورة الفرقان

(وهى مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢)

يقول تعالى حامداً لنفسه الكريمة على ما نزّله على رسوله الكريم من القرآن العظيم ، كما قال تعالى : (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، قيما لينذر بأساً شديداً من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات) (١) وقال هاهنا : (تبارك) ، وهو تفاعل من البركة المستقرة الدائمة الثابتة (الذى نزل الفرقان) — نزّل : فعّل ، من التكرر والتكثر ، كما قال : (والكتاب الذى نزّل على رسوله ، والكتاب الذى أنزل من قبل) (٢) ؛ لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة ، والقرآن نزل منجّماً مفرّقاً مفصّلا ، آيات بعد آيات ، وأحكاماً بعد أحكام ، وسوراً بعد سور ؛ وهذا أشد وأبلغ ، وأشد اعتناء بمن أنزل عليه ، كما قال فى أثناء هذه السورة : (وقال الذين كفروا : لولا نُزّل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا : ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) ؛ ولهذا سماه هاهنا الفرقان ؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغى والرشاد ، والحلال والحرام .

وقوله : (على عبده) ، هذه صفة مدح وثناء ، لأنه أضافه إلى عبوديته ، كما وصفه بها فى أشرف أحواله ، وهى ليلة الإسراء ، فقال : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا) (٣) ، وكما وصفه بذلك فى مقام الدعوة إليه : (وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا) (٤) ، وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه ، فقال : (تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) .

وقوله : (ليكون للعالمين نذيراً) ، أى : إنما خصه بهذا الكتاب العظيم المبين المفصل المحكم الذى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد) (٥) ، الذى جعله فرقاناً عظيما — إنما خصّه به ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء ، ويستقل على الغبراء (٦) ، كما قال — صلوات الله وسلامه عليه — : «بعثت إلى الأحمر

---

(١) سورة الكهف ، آية : ١ ، ٢ .
(٢) سورة النساء ، آية : ١٣٦ .
(٣) سورة الإسراء ، آية : ١ .
(٤) سورة الجن ، آية : ١٩ .
(٥) سورة فصلت ، آية : ٤٢ .
(٦) يعنى بالخضراء السماء ، وبالغبراء الأرض .

والأسود» (١) : وقال : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى » ، فذكر منهن : أنه «كان النبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة (٢) » وقال الله تعالى : (قل : يا أيها الناس ، إنى رسول الله إليكم جميعاً ، الذى له ملك السموات والأرض ، يحيى ويميت) (٣) ، أى : الذى أرسلنى هو مالك السموات والأرض ، الذى يقول للشىء كن فيكون . وهو الذى يحيى ويميت ، وهكذا قال هاهنا : (الذى له ملك السموات والأرض ، ولم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك فى الملك) ، فنَزَّه نفسه عن الولد ، وعن الشريك .

ثم أخبر أنه (خلق كل شىء فقدره تقديراً) ، أى : كل شىء مما سواه مخلوق مربوب ، وهو خالق كل شىء وربه ومليكه وإلهه ، وكل شىء تحت قهره [وتسخيره] ، وتدبيره وتقديره :

وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين فى اتخاذهم آلهة من دون الله ، الخالق لكل شىء ، المالك لأزمَّة الأمور ، الذى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . ومع هذا عَبَدُوا معه من الأصنام مالا يقدر على خلق جناح بعوضة ، بل هم مخلوقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، فكيف يملكون لعابديهم ؟ (ولا يملكون موتاً ، ولا حياة ولا نشورا) ، أى : ليس لهم من ذلك شىء ، بل ذلك مرجعه كله إلى الله عز وجل ، الذى هو يحيى ويميت ، وهو الذى يعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم ، (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة)(٤) ، (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) (٥) ، (فإنما هى زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة)(٦) ، (فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون) (٧) ، (إن كانت إلا صيحة واحدة ، فإذا هم جميعاً لدينا محضرون) (٨) . فهو الله الذى لا إله غيره ولا رب سواه ، ولا تنبغى العبادة إلا له ، لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . وهو الذى لا ولد له ولا والد ، ولا عديل ولا نَديد(٩) ولا وزير ولانظير ، بل هو الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

(١) مسلم ، كتاب المساجد : ٦٣/٢ . ومسند الإمام أحمد عن ابن عباس : ٢٥٠/١ ، ٣٠١ ، وعن أبى موسى : ٤١٦/٤ ، وعن أبى ذر : ١٤٥/٥ ، ١٤٨ ، ١٦٢ .
(٢) تقدم الحديث فى سورة النساء ، عند تفسير الآية ٤٣ : ٢٨١/٢ ، وخرجناه هنالك .
(٣) سورة الأعراف ، آية : ١٥٨ .
(٤) سورة لقمان ، آية : ٢٨ .
(٥) سورة القمر ، آية : ٥٠ .
(٦) سورة النازعات ، آية : ١٣ ، ١٤ .
(٧) سورة الصافات ، آية : ١٩ .
(٨) سورة « يس » ، آية : ٥٣ .
(٩) النديد : المثيل والشبيه ، يقال : هذا ند فلان ، ونديده ، ونديدته .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن سخافة عقول الجهلة من الكفار ، فى قولهم عن القرآن : (إن هذا إلا إفك) ، أى : كذب ، (افتراه) ، يعنون النبى صلى الله عليه وسلم ، (وأعانه عليه قوم آخرون) ، أى : واستعان على جمعه بقوم آخرين – قال الله تعالى : (فقد جاءوا ظلماً وزورا) ، أى : فقد افتروا هم قولا باطلا ، هم يعلمون أنه باطل ، ويعرفون كذب أنفسهم فيا يزعمون .

(وقالوا أساطير الأولين اكتتبها) ، يعنون كتب الأوائل استنسخها ، (فهى تملى عليه) ، أى : تقرأ عليه (بكرة وأصيلا) ، أى : فى أول النهار وآخره .

وهذا الكلام – لسخافته وكذبه وبهته منهم – كلّ أحد يعلم بطلانه ، فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة : أن محمداً رسول الله لم يكن يعانى شيئاً من الكتابة ، لا فى أول عمره ولا فى آخره (١) ، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحوا من أربعين سنة ، وهم يعرفون مدخله ومخرجه ، وصدقه ، وبره وأمانته ونزاهته من الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة ، حتى إنهم لم يكونوا يسمونه فى صغره إلى أن بعث إلا الأمين ، لما يعلمون من صدقه وبره . فلما أكرمه الله بما أكرمه به ، نصبوا له العداوة ، ورموه بهذه الأقوال التى يعلم كل عاقل براءته منها ، وحاروا ماذا يقذفونه به ، فتارة من إفكهم يقولون : ساحر ، وتارة يقولون : شاعر ، وتارة يقولون : مجنون ، وتارة يقولون : كذاب ، قال الله تعالى : (انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا ، فلا يستطيعون سبيلا)(٢) .

وقال تعالى فى جواب ما عاندوا ههنا وافتروا : (قل : أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض) ، أى : أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخباراً حقاً صدقاً مطابقاً للواقع فى الخارج ، ماضياً ومستقبلا (أنزله الذى يعلم السر) ، أى : الله الذى يعلم غيب السموات والأرض ، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر .

وقوله : (إنه كان غفوراً رحيماً) ، دعاء لهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار بأن رحمته واسعة ، وأن حلمه عظيم ، وأن من تاب إليه تاب عليه . فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتهم وكفرهم وعنادهم ، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا ، يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى ، كما قال تعالى : (لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذى كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون

---

(١) فى هذا التفسير نظر ؛ فإن القوم لم يتهموا محمدا بكتابة الأساطير بنفسه ، فقد كانوا يعلمون أنه لا يقرأ ولا يكتب ، وإنما كانوا يزعمون أنه قد اكتتبها ، أى : قد طلب من غيره أن يكتبها له . فأجابهم الله بأن هذا غير صحيح ، وإنما الله هو الذى أنزل القرآن ، ولهذا لم يناقشهم فيما قالوا ، لأنهم لم يقيموا عليه حجة .

(٢) سورة الإسراء ، آية : ١٨ .

إلى الله ويستغفرونه ، والله غفور رحيم) (١) . وقال تعالى : (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا ، فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق) . قال الحسن البصري : انظروا إلى هذا الكرم والجود ، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة .

وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾

يخبر تعالى عن تعنّت الكفار وعنادهم ، وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم ، وإنما تعللوا بقولهم : (ما لهذا الرسول يأكل الطعام) ، يعنون كما نأكله ، ويحتاج إليه كما نحتاج إليه ، (ويمشي فى الأسواق) ، أى : يتردد فيها وإليها طلباً للتكسب والتجارة ، (لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا) ، يقولون : هلا أنزل إليه [ملك] من عند الله ، فيكون له شاهداً على صدق ما يدعيه ! وهذا كما قال فرعون : (فلولا ألقى عليه أساورة(٢) من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين) . وكذلك قال هؤلاء على السواء ، تشابهت قلوبهم ، ولهذا قال : (أو يلقى إليه كنز) ، أى : علم كنز ينفق منه ، (أو تكون له جنة يأكل منها) ، أى : تسير معه حيث سار : وهذا كله سهل يسير على الله ، ولكن له الحكمة فى ترك ذلك ، وله الحجة البالغة . (وقال الظالمون : إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) . قال الله تعالى : (انظر كيف ضربوا لك الأمثال) ، أى : جاءوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك ، من قولهم « ساحر ، مسحور ، مجنون ، كذاب ، شاعر » ، وكلها أقوال باطلة ، كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم فى ذلك ، ولهذا قال : (فضلوا) ، أى : عن طريق الهدى ، (فلا يستطيعون سبيلا) ، وذلك لأن كل من خرج عن الحق فإنه ضال حيثما توجه ، لأن الحق واحد ومنهج متحد ، يُصَدّق بعضه بعضاً .

ثم قال تعالى مخبراً نبيه أنه لو شاء لآتاه خيراً مما يقولون فى الدنيا وأفضل وأحسن ، فقال : (تبارك الذى إن شاء جعل لك خيراً من ذلك : جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ويجعل لك قصورا) .

قال مجاهد : يعنى فى الدنيا ، قال : وقريش يسمون كل بيت من حجارة قصراً سواء كان كبيرا أو صغيرا (٣) ،

---

(١) سورة المائدة ، آية : ٧٣ ، ٧٤ .

(٢) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وهى قراءة مروية . انظر البحر المحيط لأبي حيان : ٨/٢٣ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٨/١٣٩ — ١٤٠ .

وقال سفيان الثورى ، عن حبيب بن أبى ثابت ، عن خيثمة ، قيل للنبى صلى الله عليه وسلم : إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم يعط نبىّ قبلك ، ولا يُعطى أحد من بعدك ، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله ؟ فقال : اجمعوها لى فى الآخرة . فأنزل الله عز وجل فى ذلك : (تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك : جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ويجعل لك قصورا) (١) .

وقوله : (بل كذبوا بالساعة) ، أى : إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيباً وعناداً ، لا أنهم يطلبون ذلك تبصرا واسترشادا ، بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال ، (وأعتدنا) ، أى : وأرصدنا (لمن كذب بالساعة سعيراً) ، أى : عذاباً أليما حاراً لا يطاق فى نار جهنم .

وقال الثورى ، عن سلمة بن كُهَيل ، عن سعيد بن جبير : (السعير) : واد من قيح جهنم .

وقوله : (إذا رأتهم) ، أى : جهنم (من مكان بعيد) ، يعنى : فى مقام المحشر – قال السدى : من مسيرة مائة عام – (سمعوا لها تغيظاً وزفيراً) ، أى : حنقاً عليهم ، كما قال تعالى : (إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهى تفور . تكاد تميز من الغيظ) ، أى : يكاد ينفصل بعضها من بعض ، من شدة غيظها على من كفر بالله .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا إدريس بن حاتم بن الأخيف الواسطى(٢) : أنه سمع محمد بن الحسن الواسطى ، عن أصبغ بن زيد ، عن خالد بن كثير ، عن خالد بن دُرَيك ، عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يقل علىّ ما لم أقل ، أو ادعى إلى غير والديه ، أو انتمى إلى غير مواليه فليتبوأ مقعده من النار . وفى رواية : فليتبوأ] بين عينى جهنم مقعدا . قيل : يارسول الله ، وهل لها من عينين ؟ قال : أما سمعتم الله يقول : (إذا رأتهم من مكان بعيد) ... الآية .

ورواه ابن جرير ، عن محمد بن خداش ، عن محمد بن يزيد الواسطى ، به (٣) .

وقال أيضاً : حدثنا أبى ، حدثنا على بن محمد الطنافسى ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن عيسى بن سليم ، عن أبى وائل قال : خرجنا مع عبد الله – يعنى ابن مسعود – ومعنا الربيع بن خُثَيْم فمروا على حداد ، فقام عبد الله ينظر إلى حديدة فى النار ، ونظر الربيع بن خيثم إليها فتمايل ليسقط ، فمر عبدالله على أتّون(٤) على شاطىء الفرات ، فلما رآه عبد الله والنار تلتهب فى جوفه قرأ هذه الآية : (إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيراً) فصُعق – يعنى الربيع بن خيثم – فحملوه إلى أهل بيته ، ورابطه عبد الله إلى الظُّهر فلم يفق ، رضى الله عنه .

وحدثنا أبى : حدثنا عبد الله بن رجاء ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى يحيى ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : إن العبد ليجر إلى النار ، فتشهق إليه شهقة البغلة إلى الشعير ، ثم تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف .

---

(١) الأثر فى تفسير الطبرى عن سفيان ، عن حبيب . انظر : ١٨/١٤٠ .

(٢) إدريس بن حاتم بن الأخيف الواسطى يروى عن محمد بن يزيد ، ومحمد بن الحسن الواسطيين . انظر ترجمته فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ١/١/٢٦٦ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٨/١٤٠ .

(٤) الأتون : أخدود الجيار والجصاص .

هكذا رواه ابن أبي حاتم مختصرا ، وقد رواه الإمام أبو جعفر بن جرير :

حدثنا أحمد بن إبراهيم الدَّورقي ، حدثنا عُبَيْد الله بن موسى ، أخبرنا إسرائيل ، عن أبي يحيى ، عن مجاهد عن ابن عباس قال : إن الرجل ليجرّ إلى النار ، فتنزوى وتنقبض بعضها إلى بعض ، فيقول لها الرحمن : مالك ؟ قالت : إنه يستجير مني . فيقول : أرسلوا عبدى . وإن الرجل ليُجَرّ إلى النار ، فيقول : يارب ، ما كان هذا الظن بك ؟ فيقول : فما كان ظنك ؟ فيقول : أن تَسَعَني رحمتك . فيقول : أرسلوا عبدى : وإن الرجل ليُجَرّ إلى النار ، فتشهق إليه النار شُهوق (١) البغلة إلى الشعير ، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف . وهذا إسناد صحيح (٢) .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن منصور ، عن مجاهد ، عن عُبَيْد بن عُمَيْر في قوله : (سمعوا لها تغيظا وزفيراً) ، قال : إن جهنم تزفر زفرة ، لا يبقى ملك ولا نبي إلا خرّ ترْعَد فرائصه ، حتى إن إبراهيم عليه السلام ليجثو على ركبتيه ويقول : رب ، لا أسألك اليوم إلا نفسي (٢) .

وقوله : (وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا) ، قال قتادة ، عن أبي أيوب ، عن عبد الله بن عمرو قال : مثل الزّج (٣) في الرمح ، أي : من ضيقه .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرني نافع بن يزيد ، عن يحيى بن أبي أسيد — يرفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم — أنه سئل عن قول الله : (وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين) ، قال : « والذى نفسى بيده . إنهم ليُستَكرهون في النار ، كما يستكره الوتد في الحائط » .

وقوله : (مقرنين) ، قال أبو صالح : يعنى مُكتّفين : (دعوا هنالك ثبوراً) ، أي : بالويل والحسرة والخيبة (لاتدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن يزيد ، عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أولَ من يُكْسَى حُلّةً من النار إبليسُ ، فيضعها على حاجبيه ويسحبها منْ خلْفه ، (٤) وذريته من بعده ، وهو ينادى : ياثبوراه . وينادون : ياثبورهم . حتى يقفوا على النار ، فيقول : ياثبوراه . ويقولون : ياثبورهم . فيقال لهم : لاتدعوا اليوم ثبوراً واحداً ، وادعوا ثبوراً كثيراً . (٥)

---

(١) يقال : شهق — كمنع ، وضرب ، وسمع — شهيقا ، وشهوقا ، وشهاقا ، بالفم ليهما : إذا تردد البكاء في صدره . ومن المجاز : شهقت عين الناظر عليه : إذا أعجبه فأدام النظر إليه . وشهيق الحمار وتشهاقه : نهاقه .

(٢) تفسير الطبرى : ١٨/١٤٠ .

(٣) الزج — بضم الزاى — : الحديدة التي تركب في أسفل الرمح ، والسنان : يركب في أعلاه . والزج : تركز به الرمح في الأرض ، والسنان : يطعن به .

(٤) في رواية أخرى في المسند : ٣/١٥٣ : «وهو يسحبها من خلفه» .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٣/١٥٢ ، وانظر أيضاً : ٣/٢٠٤٩ .

لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ، ورواه ابن أبي حاتم ، عن أحمد بن سنان ، عن عفان ، به ؛ ورواه ابن جرير ، من حديث حماد بن سلمة (١) به .

وقال العوفي ، عن ابن عباس في قوله : (لاتدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعُوا ثُبوراً كثيراً) ، أي : لاتدعوا اليوم ويلا واحداً ، وادعوا ويلا كثيرا .

وقال الضحاك : الثبور : الهلاك .

والأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار ، كما قال موسى لفرعون : (وإني لأظنك يافرعون مثبوراً (٢)) ، أي : هالكا ؛ وقال عبد الله بن الزِّبَعْرَى :

إذْ أجَارِي الشَّيطانَ في سَنَنِ الغَـ ـيِّ ، وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ (٣)

﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ ﴾

يقول تعالى : يا محمد ، هذا الذى وصفناه من حال أولئك الأشقياء ، الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم ، فتتلقاهم بوجه عبوس وبغيظ وزفير ، ويُلقَون في أماكنها الضيقة مقرَّنين ، لا يستطيعون حراكا ، ولا انتصاراً ولا فكاكا مما هم فيه — : أهذا خير أم جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده ، التي أعدها لهم ، وجعلها لهم جزاء على ماأطاعوه في الدنيا ، وجعل مآلهم إليها . (لهم فيها ما يشاءون) من الملاذ : من مآكل ومشارب ، وملابس ومساكن ، ومراكب ومناظر ، وغير ذلك ، مما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطَر على قلب أحد . وهم في ذلك خالدون أبدا دائماً سرمدا بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء ، لا يبغون عنها حوَلا . وهذا من وَعْد الله الذى تفضل به عليهم ، وأحسن به إليهم . ولهذا قال : (كان على ربك وعدا مسئولا) ، أي : لابد أن يقع وأن يكون ، كما حكاه أبو جعفر ابن جرير ، عن بعض علماء العربية أن معنى قوله : (وعدا مسئولا) أي وعدا واجبا (٤) .

وقال ابن جُرَيج ، عن عطاء ، عن ابن عباس : (كان على ربك وعدا مسئولا) ، يقول : سلوا الذى واعدتكم — أو قال : واعدناكم — نُنْجِزْ ؛ (٥) .

---

(١) تفسير الطبري : ١٨ / ١٤١ .

(٢) سورة الإسراء ، آية : ١٠٢ .

(٣) تقدم البيت في : ٥ / ١٢٤ ، ٣٧٦ ، وخرجناه هنالك .

(٤) قال الطبري ١٨ / ١٤١ : « وقد كان بعض أهل العربية يوجه معنى قوله : (وعدا مسئولا) ، إلى أنه معنى به : وعداً واجباً ، وذلك أن المسئول واجب ، وإن لم يسأل كالدين ، ويقول : ذلك نظير قول العرب : لأعطينك ألفاً وعداً مسئولا ، بمعنى : واجب لك فتسأله » .

(٥) كذا في مخطوطة الأزهر . وفي تفسير الطبري ١٨ / ١٤١ ، والطبعات السابقة من تفسير ابن كثير : « فسألوا الذى وعدتم وتنجزوه » .

وقال محمد بن كعب القُرَظي فى قوله : (كان على ربك وعدا مسئولا) : إن الملائكة تسأل لهم ذلك : (ربنا ، وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم) .

وقال أبو حازم : إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون : ربنا عملنا لك بالذى أمرتنا ، فأنجز لنا ما وعدتنا ، فذلك قوله : (وعدا مسئولا) .

وهذا المقام فى هذه السورة من ذكر النار ، ثم التنبيه على حال أهل الجنة ، كما ذكر تعالى فى « سورة الصافات » حال أهل الجنة ، وما فيها من النضرة والحبور ، ثم قال : (أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم . إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم . طلعها كأنه رءوس الشياطين . فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون . ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم . ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم . إنهم ألفوا آباءهم ضالين . فهم على آثارهم يهرعون (١)) .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

يقول تعالى مخبراً عما يقع يوم القيامة من تقريع الكفار فى عبادتهم مَن عبدوا من دون الله ، من الملائكة وغيرهم ، فقال : (ويوم نَحْشُرُهم (٢) وما يعبدون من دون الله) ، قال مجاهد : عيسى ، والعُزَير ، والملائكة (٣) : (فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل) ، أى : فيقول الرب تبارك وتعالى : أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دونى ، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم ، من غير دعوة منكم لهم ؟ كما قال الله تعالى : (وإذ قال الله : يا عيسى ابن مريم ، أأنت قلت للناس : اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ، ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم (٤)) ، إلى آخر الآية .

ولهذا قال تعالى مخبراً عما يُجيب به المعبودون يوم القيامة : (قالوا : سبحانك . ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء) — قرأ الأكثرون بفتح « النون » من قوله (نَتخذ من دونك من أولياء) ، أى : ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحدا سواك ، لا نحن ولاهم ، فنحن مادعوناهم إلى ذلك ، بل هم قالوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا ونحن برآء منهم ومن عبادتهم ، كما قال تعالى : (ويوم نحشرهم (٥) جميعا ثم نقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا

---

(١) سورة الصافات ، الآيات : ٦٢ — ٧٠ .

(٢) كذا فى مخطوطة الأزهر : (نحشرهم) ، بالنون ، وهى قراءة فى السبعة . انظر البحر المحيط : ٦/٤٨٧ — ٤٨٨ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٨/١٤٢ .

(٤) سورة المائدة ، آية : ١١٦ .

(٥) كذا فى مخطوطة الأزهر : (نحشرهم) ، و(نقول) ، بالنون فيهما ، وهى قراءة الجمهور . فأما قراءة حفص فبالياء . انظر البحر المحيط : ٧/٢٨٦ .

يعبدون » قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم به مؤمنون)(١) . وقرأ آخرون : (ماكان ينبغي لنا أن نُتَّخَذَ (٢) من دونك من أولياء) ، أي : ما ينبغي لأحد أن يعبدنا ، فإنا عبيد لك ، فقراء إليك . وهي قريبة المعنى من الأولى .

(ولكن متعتهم وآباءهم) ، أي : طال عليهم العمر حتى نَسُوا الذكر ، أي : نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك ، من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك .

(وكانوا قوما بوراً) ، قال ابن عباس : أي هلكى . وقال الحسن البصري ، ومالك عن الزهري : أي لا خير فيهم . وقال ابن الزِّبعرى حين أسلم (٣) :

يا رَسُولَ المَلِيكِ إنَّ لِسانِي رَاتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أنا بُورُ
إذْ أُجارِي الشَّيطانَ في سَنَنِ الغَـ ـيِّ ، وَمَن مالَ مَيْلَه مَثْبُورُ

قال الله تعالى : (فقد كذبوكم بما تقولون) ، أي : فقد كذبكم الذين عَبَدْتُم فيما زعمتم أنهم لكم أولياء ، وأنكم اتخذتموهم قربانا ليقربوكم إليه زلفى ، كما قال تعالى: (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) (٤)

وقوله : (فما يستطيعون (٥) صرفا ولا نصرا) ، أي : لايقدرون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم .

(ومن يظلم منكم) ، أي : يشرك بالله ، (نذقه عذابا كبيراً) .

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

يقول تعالى مخبرا عن جميع مَن بعثه من الرسل المتقدمين : أنهم كانوا يأكلون الطعام ، ويحتاجون إلى التغذي به (ويمشون في الأسواق) ، أي : للتكسب والتجارة ، وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم ؛ فان الله جعل لهم من السمات الحسنة ، والصفات الجميلة ، والأقوال الفاضلة ، والأعمال الكاملة ، والخوارق الباهرة ، والأدلة ، مايستدل به كلُّ ذي لب سليم ، وبصيرة مستقيمة ، على صدق ماجاءوا به من الله عز وجل . ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى : (وما أرسلنا

(١) سورة سبأ ، آية : ٤٠ ، ٤١ .
(٢) قرأ الجمهور : (نتخذ) ، مبنيا للفاعل ، وأما بالبناء للمجهول فهي قراءة زيد بن ثابت وأبي الدرداء ، وآخرين . انظرها في المحتسب لابن جني : ٢/١١٩ – ١٢٠ .
(٣) تقدم من قريب تخريج أبيات ابن الزبعرى .
(٤) سورة الأحقاف ، آية : ٥ ، ٦ .
(٥) كذا في مخطوطة الأزهر : (فما يستطيعون) ، بالياء المثناة من تحت . وهي قراءة مروية . انظر البحر المحيط : ٦/٤٩٠ .

من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى (١)) ، (وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين) (٢)

وقوله : (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون) ، أى : اختبرنا بعضكم ببعض ، وبلونا بعضكم ببعض ، لنعلم مَن يُطيع ممن يعصى . ولهذا قال : (أتصبرون وكان ربك بصيرا) ، أى : بمن يستحق أن يوحى إليه ، كما قال تعالى : (الله أعلم حيث يجعل رسالته (٣)) ، ومن يستحق أن يهديه الله لما أرسلهم به ، ومن لا يستحق ذلك .

وقال محمد بن إسحاق فى قوله : (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون) ، قال : يقول الله : لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى فلا يخالفون ، لفعلت ، ولكنّى قد أردتُ أن أبتلى العباد بهم ، وأبتليهم بهم .

وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله : إنى مبتليك ومُبْتَل بك » (٤) وفى المسند عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة » وفى الصحيح أنه — عليه أفضل الصلاة والسلام — خُيِّر بين أن يكون نبياً ملكا أو عبداً رسولا ، فاختار أن يكون عبداً رسولا .

* وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾

يقول تعالى مخبرا عن تعنّت الكفار فى كفرهم ، وعنادهم فى قولهم : (لولا أنزل علينا الملائكة) ، أى : بالرسالة كما نُزّل على الأنبياء ، كما أخبر عنهم تعالى فى الآية الأخرى : (قالوا : لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله (٥)) ويحتمل أن يكون مرادهم هاهنا : (لولا أنزل علينا الملائكة) فنراهم عيانا ، فيخبرونا أن محمداً رسول الله ، كقولهم : (أو تأتى بالله والملائكة قبيلا (٦)) . وقد تقدم تفسيرها فى « سورة سبحان (٧) » ؛ ولهذا قال : (أو نرى ربنا) ، ولهذا قال الله تعالى : (لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا) ؛ وقد قال تعالى : (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كلّ شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ، ولكن أكثرهم يجهلون) (٨) ؛

وقوله : (يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ، ويقولون : حجرا محجورا) ، أى : هم لا يرَوْن الملائكة فى يوم خير لهم ، بل يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ لهم ، وذلك يَصْدُق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة

(١) سورة يوسف ، آية : ١٠٩ .
(٢) سورة الأنبياء ، آية : ٨ .
(٣) سورة الأنعام ، آية : ١٢٤ .
(٤) مسلم ، كتاب الجنة ، باب « الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة — وأهل النار » : ٨/١٥٨ — ١٥٩ ، ولفظ مسلم : « إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك » .
(٥) سورة الأنعام ، آية : ١٢٤ .
(٦) سورة الإسراء ، آية : ٩٢ .
(٧) انظر : ٥/١١٨ .
(٨) سورة الأنعام ، آية : ١١١ .

بالنار ، وغضب الجبار ، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه : اخرجي أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث ، اخرجي إلى سموم وحميم ، وظل من يحموم . فتأبى الخروج وتتفرق في البدن ، فيضربونه ، كما قال الله تعالى : (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم (١)) . وقال : (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت ، والملائكة باسطو أيديهم) ، أي : بالضرب ، (أخرجوا أنفسكم ، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق ، وكنتم عن آياته تستكبرون (٢)) . ولهذا قال في هذه الآية الكريمة : (يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين) ، وهذا بخلاف حال المؤمنين في وقت احتضارهم ، فإنهم يبشرون بالخيرات ، وحصول المسرات ؛ قال الله تعالى : (إن الذين قالوا : ربنا الله ، ثم استقاموا ، تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون. نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون . نزلا من غفور رحيم (٣)) .

وفي الحديث الصحيح عن البراء بن عازب : أن الملائكة تقول لروح المؤمن : « اخرجي أيتها النفس الطيبة في الجسد الطيب ، كنت تعمرينه ، اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان » . وقد تقدم الحديث في « سورة إبراهيم (٤) » ، عند قوله تعالى : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويضل الله الظالمين ، ويفعل الله ما يشاء (٥)) .

وقال آخرون : بل المرادُ بقوله : (يوم يرون الملائكة) ، يعني : يوم القيامة ، قاله مجاهد ، والضحاك ، وغيرهما .

ولا منافاة بين هذا وبين ما تقدم ، فإن الملائكة في هذين اليومين يوم الممات ويوم المعاد تتجلى للمؤمنين وللكافرين ، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان ، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران ، فلا بشرى يومئذ للمجرمين .

(ويقولون حجرا محجورا) ، أي : وتقول الملائكة للكافرين حَرَام محرم عليكم الفلاح اليوم .

وأصل « الحجر » : المنع ، ومنه يقال : حَجَر القاضي على فلان ، إذا منعه التصرف إما لسَفَه ، أو فَلَس ، أو صغر ، أو نحو ذلك . ومنه سمي « الحِجْر » عند البيت الحرام ؛ لأنه يمنع الطُّوَّاف أن يطوفوا فيه ، وإنما يطاف من ورائه . ومنه يقال للعقل « حِجْر » لأنه يمنع صاحبه عن تعاطي ما لا يليق .

والغرض أن الضمير في قوله : (ويقولون) عائد على الملائكة . هذا قول مجاهد ، وعكرمة ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، وعطية العَوْفي ، وعطاء الخراساني ، وخُصَيف ، وغير واحد . واختاره ابن جرير (٦) .

---

(١) سورة الأنفال ، آية : ٥٠ .
(٢) سورة الأنعام ، آية : ٩٣ .
(٣) سورة فصلت ، آية : ٣٠ - ٣٢ .
(٤) انظر : ٤/٤١٧ .
(٥) سورة ابراهيم ، آية : ٢٧ .
(٦) تفسير الطبري : ١٩/٢ - ٣ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا موسى – يعني ابن قيس – عن عطية العَوْفي ، عن أبي سعيد الخدري : (ويقولون حجراً محجوراً) ، قال : حراما مُحَرّما أن يُبَشّر بما يبشر به المتقون .

وقد حكى ابن جَرِير ، عن ابن جُريج أنه قال : ذلك من كلام المشركين : (يوم يرون الملائكة) ، [أي : يتعوذون من الملائكة ؛ وذلك أن العرب كانوا إذا نزل بأحدهم نازلة أو شدة] يقولون : (حِجْراً محجوراً) .

وهذا القول – وإن كان له مأخذ ووجه – ولكنه بالنسبة إلى السياق في الآية بعيد ، ولا سيما قد نص الجمهور على خلافه . ولكن قد روى ابنُ أبي نَجيح ، عن مجاهد أنه قال في قوله : (حجراً محجوراً) ، أي : عوذاً معاذاً ، فيحتمل أنه أراد ما ذكره ابن جُرَيج . ولكن في رواية ابن أبي حاتم ، عن ابن أبي نَجيح ، عن مجاهد أنه قال : (حجراً محجوراً) ، عوذاً معاذاً ، الملائكة تقُوله . فالله أعلم .

وقوله تعالى : (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هَبَاءً منثورا) ، وهذا يوم القيامة ، حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من خير وشر ، فأخبر أنه لا يتحصّل لهؤلاء المشركين من الأعمال – التي ظنوا أنها منجاة لهم – شيءٌ ؛ وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي ، إما الإخلاص فيها ، وإما المتابعة لشرع الله . فكل عمل لا يكون خالصا وعلى الشريعة المرضية ، فهو باطل . فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين ، وقد تجمعهما معا ، فتكون أبعد من القبول حينئذ ، ولهذا قال تعالى : (وقَدمنا إلى ماعملوا من عمل ، فجعلناه هباء منثورا) .

قال مجاهد ، والثوري : (وقدمنا) ، أي : عَمَدنا .

وقال السدي : (قدمنا) : عَمَدنا . وبعضهم يقول : أتينا عليه .

وقوله : (فجعلناه هباء منثورا) ، قال سفيان الثوري ، عن أبي إسحاق ، عن الحارث ، عن علي – رضي الله عنه – في قوله : (هباء منثورا) ، قال : شعاع الشمس إذا دخل في الكوة . وكذا رَوى من غير هذا الوجه عن علي ؛ ورُوى مثله عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جُبَير ، والسدّي ، والضحاك وغيرهم . وكذا قال الحسن البصري : هو الشعاع في كوة أحدهم ، ولو ذهب يقبض عليه لم يستطع .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (هباء منثورا) ، قال : هو الماء المهراق (١) ؛

وقال أبو الأحوص ، عن أبي إسحاق ، عن الحارث ، عن علي : (هباء منثورا) ، قال : الهباء رَهْج الدواب (٢) ؛ ورُوى مثله عن ابن عباس أيضا ، والضحاك ، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وقال قتادة في قوله : (هباء منثورا) قال : أما رأيت يبيس الشجر إذا ذرته الريح ؟ فهو ذلك الورق ؛

---

(١) تفسير الطبري : ١٩/٤ .

(٢) في المخطوطة : « وهج الدواب » . ولا معنى للوهج هنا . فأما الرهج – بفتح فسكون – فهو الغبار . والأثر في الدر المنثور ٥/٦٦ ، ولفظه : « ريح الغبار » .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرنى عاصم بن حكيم ، عن أبى سريع الطائى ، عن يعلى بن عبيد (١) قال : وإن الهباء الرماد .

وحاصل هذه الأقوال التنبيهُ على مضمون الآية ، وذلك أنهم عملوا أعمالا اعتقدوا أنها شىء ، فلما عرضت على الملك الحكيم العدل الذى لايجور ولا يظلم أحدا ، إذا إنها لاشىء بالكلية . وشبهت فى ذلك بالشىء التافه الحقير المتفرق ، الذى لايقدر منه صاحبه على شىء بالكلية ، كما قال الله تعالى : (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، لايقدرون مما كسبوا على شىء ، ذلك هو الضلال البعيد (٢)) . وقال تعالى : (ياأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب ، فأصابه وابل فتركه صلداً لايقدرون على شىء مما كسبوا)(٣) . وقال تعالى : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا)(٤) . وتقدم الكلام على تفسير ذلك ، ولله الحمد والمنة .

وقوله : (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) ، أى : يوم القيامة (لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون)(٥) ، وذلك لأن أهل الجنة يصيرون إلى الدرجات العاليات ، والغرفات الآمنات ، فهم فى مقام أمين ، حسن المنظر ، طيب المقام ، (خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما (٦)) ، وأهل النار يصيرون إلى الدركات السافلات ، والحسرات المتتابعات ، وأنواع العذاب والعقوبات ، (إنها ساءت مستقرا ومقاما(٧)) ، أى : بئس المنزل منظرا ، وبئس المقيل مقاما ، ولهذا قال : (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) ، أى : بما عملوه من الأعمال المتقبلة ، نالوا مانالوا ، وصاروا إلى ماصاروا إليه ، بخلاف أهل النار فإنه ليس لهم عمل واحد يقتضى لهم دخول الجنة والنجاة من النار ، فنبَّه ـ تعالى ـ بحال السعداء على حال الأشقياء ، وأنه لاخير عندهم بالكلية ، فقال : (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) .

قال الضحاك ، عن ابن عباس : إنما هى ضحوة ، فيقيل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين ، ويقيل أعداء الله مع الشياطين مقرنين .

وقال سعيد بن جبير : يفرغ الله منَ الحساب نصف النهار ، فيقيل أهل الجنة فى الجنة ، وأهل النار فى النار ، قال الله تعالى : (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) .

---

(١) فى المخطوطة : « عبيد بن يعلى » . وفى الدر المنثور ٥/٦٧ : « المعلى بن عبيدة » ، ولم نجدها . ولعل الصواب ما أثبتناه . و « يعلى بن عبيد » مترجم فى الجرح : ٤/٢/٣٠٤ .
(٢) سورة إبراهيم ، آية : ١٨ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٦٤ .
(٤) سورة النور ، آية : ٣٩ .
(٥) سورة الحشر ، آية : ٢٠ .
(٦) سورة الفرقان ، آية : ٧٦ .
(٧) سورة الفرقان ، آية : ٦٦ .

وقال عكرمة : إنى لأعرف الساعة التى يدخل فيها أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار : هى الساعة التى تكون فى الدنيا عند ارتفاع الضحى الأكبر ، إذا انقلب الناس إلى أهليهم للقيلولة ، فينصرف أهل النار إلى النار ، وأما أهل [الجنة فينطلق بهم إلى] الجنة ، فكانت قيلولتهم [فى الجنة] وأطعموا كبد حوت ، فأشبعهم كلهم ، وذلك قوله : (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) (١) .

وقال سفيان ، عن ميسرة ، عن المنهال ، عن أبى عبيدة ، عن عبدالله بن مسعود أنه قال : لا ينتصف النهار حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء ، ثم قرأ : (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) . وقرأ : (ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم) (٢) .

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) ، قال : قالوا فى الغرف من الجنة ، وكان حسابهم أن عُرضوا على [ربهم] عرضة واحدة ، وذلك الحساب اليسير ، وهو مثل قوله تعالى : (فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا . وينقلب إلى أهله (٣) مسرورا) .

وقال قتادة فى قوله : (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) ، أى مأوى ومنزلا — قال قتادة : وحدّث صفوان بن مُحرز أنه قال : يجاء يوم القيامة برجلين ، أحدهما كان ملكا فى الدنيا — إلى الحمرة والبياض (٤) فيحاسب ، فإذا عبدٌ (٥) ، لم يعمل خيرا فيؤمر به إلى النار . والآخر كان صاحب كساء فى الدنيا ، فيحاسب فيقول : يارب ، ما أعطيتنى من شىء فتحاسبنى به . فيقول : صدق عبدى ، فأرسلوه . فيؤمر به إلى الجنة ، ثم يتركان ماشاء الله . ثم يدعى صاحب النار ، فإذا هو مثل الحُمَمَة السوداء ، فيقال له : كيف وجدت ؟ فيقول : شر مَقيل . فيقال له : عُدْ . ثم يُدعَى بصاحب الجنة ، فإذا هو مثل القمر ليلة البدر ، فيقال له : كيف وجدت ؟ فيقول : رَبِّ ، خير مَقيل . فيقال له : عد . رواها ابن أبى حاتم كلها (٧) .

وقال ابن جرير : حدثنى يونس ، أنبأنا ابن وهب ، أنبأنا عمرو بن الحارث ، أن سعيدا الصوّاف حدّثه ، أنه بلغه : أن يوم القيامة يَقصرُ على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس ، وأنهم ليقيلون فى رياض الجنة حتى يفرغ من الناس ، وذلك قوله تعالى : (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا (٨) .

---

(١) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور عن ابن أبى حاتم : ٥/٦٧ . وما بين الأقواس منه .
(٢) تفسير القرآن الكريم للإمام سفيان الثورى : ١٨٦ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٩/٤ .
(٤) أى : أقرب وأميل إلى الحمرة والبياض .
(٥) أى : فاذا هو عبد ، يعنى الملك .
(٦) الحممه — بضمة ففتحة — : واحدة الحمم ، وهو الفحم .
(٧) الأثر فى الدر المنثور عن عبد بن حميد ، وابن أبى حاتم : ٥/٦٧ .
(٨) تفسير الطبرى : ١٩/٥ .

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ
عَسِيرًا (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ
فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا (٢٩)

يخبر تعالى عن هَول يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأمور العظيمة ، فمنها انشقاق السماء وتفطرها وانفراجها بالغمام ، وهو ظُلَل النور العظيم الذى يبهر الأبصار ، ونزول ملائكة السموات يومئذ ، فيحيطون بالخلائق فى مقام المحشر . ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء .

قال مجاهد : وهذا كما قال تعالى : (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور)(١) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عمار بن الحارث ، حدثنا مؤمل ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس ، أنه قرأ هذه الآية : (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا) ، قال ابن عباس : يجمع الله الخلق يوم القيامة فى صعيد واحد ، الجن والإنس والبهائم والسباع والطير وجميع الخلق ، فتنشق السماء الدنيا ، فينزل أهلها ــ وهم أكثر من الجن والإنس ومن جميع الخلائق ــ فيحيطون بالجن والإنس وبجميع الخلق ، ثم تنشق السماء الثانية فينزل أهلها ، وهم أكثر من أهل السماء الدنيا ومن الجن والإنس ، ومن جميع الخلق [فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم والجن والإنس وجميع الخلق (٢)] . ثم تنشق السماء الثالثة ، فينزل أهلها ، وهم أكثر من أهل السماء الثانية والسماء الدنيا ومن جميع الخلق ، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم ، وبالجن والإنس وبجميع الخلق . ثم كذلك كل سماء ، حتى تنشق السماء السابعة ، فينزل أهلها وهم أكثر ممن نزل قبلهم من أهل السموات ومن الجن والإنس ومن جميع الخلق ، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم من أهل السموات ، وبالجن والإنس وجميع الخلق ، [وينزل] ربنا عز وجل فى ظلل من الغمام ، وحوله الكَرُوبيون (٣) ، وهم أكثر من أهل السموات السبع الإنس والجن وجميع الخلق ، لهم قرون كأكعب القنا (٤) ، وهم تحت العرش ، لهم زَجَل بالتسبيح والتهليل والتقديس لله عز وجل ،ما بين إخمص قدم أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام ،وما بين كعبه إلى ركبته مسيرة خمسمائة عام ، وما بين ركبته إلى حُجْزَته(٥) مسيرة خمسمائة عام ومابين حُجْزَته إلى تَرقُوته(٦) مسيرة خمسمائة عام ، ومابين ترقوته إلى موضع القُرط مسيرة خمسمائة عام . ومافوق ذلك مسيرة خمسمائة عام ،وجهنم مجنبته (٧). هكذا رواه ابن أبى حاتم بهذا السياق ،

(١) سورة البقرة : آية ٢١٠

(٢) ما بين القوسين عن الدر المنثور : ٥/٦٨ ، وهو فى الطبعات السابقة بعد : « ثم تنشق السماء الثانية فينزل أهلها » .

(٣) انظر : ١/٣٦٣ .

(٤) أى : الرماح .

(٥) فى المخطوطة : « وما بين ركبته إلى أرنبته مسيرة خمسمائة عام ، وما بين أرنبته إلى ترقوته ... » ولا يستقيم عليه السياق ، والمثبت عن الطبعات السابقة ، وفى الدر المنثور : وما بين ركبته إلى فخذه ... » . والحجزة ــ بضم فسكون ــ : موضع شد الإزار .

(٦) الترقوة : العظم الذى بين ثغرة النحر والعاتق .

(٧) فى المخطوطة دون نقط . وفى الطبعات السابقة : « وجهنم محسه » . وقوله : « وجهنم محسه » غير ثابت فى الدر المنثور .

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثني الحجاج ، عن مبارك بن فضالة ، عن على بن زيد ابن جدعان ، عن يوسف بن مهران ، أنه سمع ابن عباس يقول : إن هذه السماء إذا انشقت نزل منها من الملائكة أكثر من الجن والإنس ، وهو يوم التلاق ، يوم يلتقى أهل السماء وأهل الأرض ، فيقول أهل الأرض : جاء ربنا ؟ فيقولون : لم يجىء ، وهو آت . ثم تنشق السماء الثانية ، ثم سماء سماء ، على قدر ذلك من التضعيف إلى السماء السابعة ، فينزل منها من الملائكة أكثر من [جميع من] نزل من السموات ومن الجن والإنس . قال : فتنزل الملائكة الكَرُوبيّون ، ثم يأتى ربنا فى حملة العرش الثمانية ، بين كعب كل ملك وركبته مسيرة سبعين سنة ، وبين فخذه ومنكبه مسيرة سبعين سنة . قال : وكل ملك منهم لم يتأمل وجه صاحبه ، وكل ملك منهم واضع رأسه بين ثدييه يقول : سبحان الملك القدوس . وعلى رءوسهم شىء مبسوط كأنه القَبَاء ، والعرش فوق ذلك .

ثم وقف ، فمداره على على بن زيد بن جُدْعان ، وفيه ضعف ، وفى سياقاته غالبا نكارة شديدة : وقد ورد فى حديث الصور المشهور (١) قريب من هذا ، والله أعلم .

وقد قال تعالى : (فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهى يومئذ واهية . والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية (٢)) ، قال شهر بن حوشب : حملة العرش ثمانية ، أربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على حلمك بعد علمك . وأربعة يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك . رواه ابن جرير عنه . (٣)

وقال أبو بكر بن عبد الله : إذا نظر أهل الأرض إلى العرش يهبط عليهم من فوقهم ، شخصت إليه أبصارهم ، ورَجَفَت كُلاَهم فى أجوافهم ، وطارت قلوبهم من مَقَرّها من صدورهم إلى حناجرهم (٣) .

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا . معتمر بن سليمان ، عن عبد الجليل ، عن أبى حازم ، عن عبد الله بن عمرو قال : يهبط الله حين يهبط وبينه وبين خلقه سبعون ألف (٤) حجاب ، منها النور والظلمة ، فيُصَوّت الماء فى تلك الظلمة صوتا تنخلع منه القلوب (٥) .

وهذا موقوف على عبد الله بن عمرو من كلامه ، ولعله من الزاملتين ، والله أعلم .

وقوله تعالى : (الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيرا) ، كما قال تعالى : (لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار (٦) . وفى الصحيح أن الله يطوى السموات بيمينه ويأخذ الأرضين بيده الأخرى ثم يقول : أنا الملك ،

---

(١) انظر حديث الصور فى سورة الأنعام ، عند الآية ٧٣ : ٣/٢٧٦ - ٢٨٢ . كما ينظر : ١/٣٦٣ .
(٢) سورة الحاقة ، الآيات : ١٥ - ١٧ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٩/٦ .
(٤) فى تفسير الطبرى : « سبعون حجاباً » .
(٥) تفسير الطبرى : ١٩/٥ .
(٦) سورة غافر ، آية : ١٦ .

أنا الديان ، أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون (١) ؟

وقوله (وكان يوما على الكافرين عسيراً) ، أى : شديداً صعباً ، لأنه يوم عدل وقضاء فصل ، كما قال تعالى : (فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير (٢)) ، فهذا حال الكافرين فى ذلك اليوم . وأما المؤمنون فكما قال تعالى : (لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة ، هذا يومكم الذى كنتم توعدون (٣)) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا درّاج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخدرى قال : قيل : يارسول الله : (يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) : ما أطول هذا اليوم ؟. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده ، إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا (٤) .

وقوله : (ويوم يعض الظالم على يديه يقول : ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا) ، يخبر تعالى عن ندم الظالم الذى فارق طريق الرسول وما جاء به من عند الله من الحق المبين ، الذى لا مرْية فيه ، وسلك طريقاً أخرى غير سبيل الرسول ، فإذا كان يومُ القيامة نَدم َحيثُ لا ينفعه النَدَمَ ، وعضّ على يديه حسرةً وأسفا .

وسواء كان سبب نزولها فى عقبة بن أبى مُعَيط (٥) أو غيره من الأشقياء ، فإنها عامة فى كل ظالم ، كما قال تعالى : (يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون : ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا. وقالوا : ربنا ، إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا (٦)) . فكل ظالم يندَم يوم القيامة غايةَ الندم ، ويَعَض على يديه قائلا : (يا ليتنى ، اتخذتُ مع الرّسُول سبيلا . يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا) ، يعنى : مَنْ صرفه عن الهدى ، وعدل به إلى طريق الضلالة ، وسواء فى ذلك أمية بن خلف ، أو أخوه أبى بن خلف ، أو غيرهما .

(لقد أضلنى عن الذكر) ـ [وهو القرآن] ـ (بعد إذ جاءنى) ، أى : بعد بلوغه إلىّ ، قال الله تعالى : (وكان الشيطان للإنسان خذولا) ، أى : يخذله عن الحق ، ويصرفه عنه ، ويستعمله فى الباطل ، ويدعوه إليه .

---

(١) مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار : ٨/١٢٦ وسنن أبى داود ، كتاب السنة ، باب « فى الرد على الجهمية » ، الحديث ٤٧٣٢ : ٤/٢٣٤ . وابن ماجه ، المقدمة ، باب « فيما أنكرت الجهمية » ، الحديث ١٩٨ : ١/٧١ ـ ٧٢ ، كتاب الزهد ، باب « ذكر البعث » ، الحديث ٤٢٧٥ : ٢/١٤٢٩ .

(٢) سورة المدثر ، آية : ٩ ، ١٠ .

(٣) سورة الأنبياء ، آية : ١٠٣ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٣/٧٥ .

(٥) أخرج ابن جرير عن ابن عباس ١٩/٦ : « كان أبى بن خلف يحضر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فزجره عقبة بن أبى معيط ، فنزل : (ويوم يعض الظالم على يديه يقول : يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا) إلى قوله : (خذولا) ، قال : (الظالم) عقبة ، و (فلانا خليلا) أبى بن خلف » .

(٦) سورة الأحزاب ، الآيات : ٦٦ ـ ٦٨ .

وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾

يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمد — صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين — أنه قال : (يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا) ، وذلك أن المشركين كانوا لا يُصغُون للقرآن ولا يسمعونه ، كما قال تعالى : (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون (١))، وكانوا إذا تُلى عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام فى غيره ، حتى لا يسمعوه . فهذا من هجرانه ، وتركُ الإيمان بهوتصديقه من هجرانه، [وتركُ تدبره وتفهمه من هجرانه ، وتركُ العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه] ، والعدولُ عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره — من هجرانه ، فنسأل الله الكريمَ المنانَ القادرَ على ما يشاء ، أن يخلّصنا مما يُسْخطه ، ويستعملنا فيما يرضيه ، من حفظ كتابه وفهمه ، والقيام بمقتضاه آناءَ الليل وأطرافَ النهار ، على الوجه الذى يحبه ويرضاه ، إنه كريم وهاب .

وقوله : (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين) ، أى : كما حصل لك — يا محمد — فى قومك من الذين هجروا القرآن ، كذلك كان فى الأمم الماضين ؛ لأن الله جعلَ لكل نبى عدوا من المجرمين ، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم ، كما قال تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، ولو شاء ربك مافعلوه ، فذرهم وما يفترون . ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وليرضوه وليقترفوا ماهم مقترفون) (٢) ولهذا قال هاهنا : (وكفى بربك هاديا ونصيرا) ، أى : لمن اتبع رسوله، وآمن بكتابه وصدقه واتبعه ، فإن الله هاديه وناصره فى الدنيا والآخرة . وإنما قال (هاديا ونصيرا) لأن المشركين [كانوا] يصدون الناس عن اتباع القرآن ، لئلا يهتدى أحد به ، ولتغلب طريقتهم طريقةَ القرآن ، فلهذا قال (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين وكفى بربّك هادياً ونصيراً) .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم ، وكلامهم فيما لا يعنيهم، حيث قالوا : (لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) ، أى : هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذى أوحى إليه جملة واحدة ؛ كما نزلت الكتب قبله ، كالتوراة والإنجيل والزبور، وغيرها من الكتب الإلهية . فأجابهم الله عن ذلك بأنه إنما أنزل منجما فى ثلاث وعشرين

(١) سورة فصلت ، آية : ٢٦ .

(٢) سورة الأنعام ، الآيات : ١١٢ ، ١١٣ .

سنة بحسب الوقائع والحوادث ، وما يحتاج [إليه] من الأحكام لتثبيت قلوب المؤمنين به كما قال : (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ، ونزلناه تنزيلا (١)) ، ولهذا قال : (لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا) – قال قتادة : وبيناه تبيينا ؛ وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : وفسرناه تفسيرا(٢) .

(ولا يأتونك بمثل) ، أى : بحجة وشبهة (إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) ، أى : ولا يقولون قولا يعارضون به الحق ، إلا أجبناهم بما هو الحق فى نفس الأمر وأبين وأوضحُ وأفصحُ من مقالتهم .

قال سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس : (ولا يأتونك بمثل) ، أى : بما يلتمسون به عيبَ القرآن والرسول (إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) ، أى : إلا نزل جبريلُ مِنَ الله بجوابهم .

ثم فى هذا اعتناء كبير ، لشرف الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – ، حيث كان يأتيه الوحى من الله بالقرآن صباحا ومساء ، ليلا ونهارا ، سفرا وحضرا ، فكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن كإنزال كتاب مما قبله من الكتب المتقدمة ، فهذا المقام أعلى وأجل ، وأعظم مكانة من سائر إخوانه من الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله ، ومحمد – صلوات الله وسلامه عليه – أعظم نبى أرسله الله وقد جمع الله تعالى للقرآن الصفتين معا ، ففى الملأ الأعلى أنزل جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى سماء الدنيا ، ثم نزل بعد ذلك إلى الأرض منجما بحسب الوقائع والحوادث .

قال أبو عبد الرحمن النسائى : أخبرنا أحمد بن سليمان ، حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا داود ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا فى ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك فى عشرين سنة ، قال : (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) ، وقوله : (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ، ونزلناه تنزيلا) .

ثم قال تعالى مخبراً عن سوء حال الكفار فى معادهم يوم القيامة وحشرهم إلى جهنم ، فى أسوأ الحالات وأقبح الصفات : (الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا) . وفى الصحيح ، عن أنس : أن رجلا قال : يارسول الله ، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ فقال : « إن الذى أمشاه على رجليه قادر أن يُمشيَه على وجهه يوم القيامة (٣) » . وهكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وغير واحد من المفسرين .

---

(١) سورة الإسراء ، آية : ١٠٦ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٩/٨ .

(٣) البخارى ، تفسير سورة الفرقان : ١٣٧/٦ . ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب « يحشر الكافر على وجهه » : ١٣٥/٨ . وقد أخرجه الترمذى عن أبى هريرة فى تفسير سورة الإسراء ، انظر تحفة الأحوذى ، الحديث ٥١٥٠ : ٥٧٨/٨ – ٥٧٩ . وانظره فى مسند الإمام أحمد عن أبى هريرة أيضاً : ٣٥٤/٢ ، ٣٦٣ .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾

يقول تعالى متوعداً من كذّب رسولَه محمداً — صلوات الله وسلامه عليه— من مشركي قومه ومن خالفه، ومحذرهم من عقابه وأليم عذابه ، مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله ، فبدأ بذكر موسى عليه السلام : وأنه ابتعثه وجعل معه أخاه هارون وزيراً ، أي : نبياً مُوَازرا ومؤيداً وناصراً ، فكذبهما فرعون وجنوده ، فـ (دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها)(١) . وكذلك فعلَ بقوم نوح حين كذّبوا رسوله نوحاً عليه السلام ، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل ، إذ لا فرق بين رسول ورسول، ولو فرض أن الله بعث إليهم كلّ رسول فانهم كانوا يكذبونه ، ولهذا قال : (وقوم نوح لما كذبوا الرسل) ، ولم يبعثْ إليهم إلا نوح فقط ، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، يدعوهم إلى الله ، ويحذرهم نقمته ، فما آمن معه إلا قليل . ولهذا أغرقهم الله جميعاً ، ولم يَبْقَ منهم أحد، ولم يبق على وجه الأرض من بني آدم سوى أصحاب السفينة فقط .

(وجعلناهم للناس آية) ، أي: عبرة يعتبرون بها ، كما قال تعالى : (إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية . لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية (٢)) ، أي : وأبقينا لكم من السفن ما تركبون في لُجَجِ البحار ، لتذكروا نعمة الله عليكم في إنجائكم من الغرق ، وجَعْلكم من ذرّية مَن آمن به وصَدّق أمره .

وقوله : (وعادا وثمود) قد تقدم الكلام على قصتيهما في غير ما سورة ، منها في « سورة الأعراف » بما أغنى عن الإعادة .

وأما أصحاب الرس فقال ابن جُرَيج ، عن ابن عباس : هم أهل قرية من قرى ثمود (٣) .

وقال ابن جريج : قال عكرمة : أصحاب الرس بفَلَج وهم أصحاب يس .(٤)

وقال قتادة : فَلَج من قرى اليمامة .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم ، حدثنا الضحاك بن مخلد أبوعاصم ، حدثنا شبيب بن بشر ، حدثنا عكرمة عن ابن عباس في قوله (وأصحاب الرس) ، قال : بئر بأذربيجان .

---

(١) سورة محمد ، آية : ١٠ .

(٢) سورة الحاقة ، آية : ١١ ، ١٢ .

(٣) تفسير الطبري : ١٩/١٠ .

(٤) انظر مراصد الاطلاع : ٢/٦١٦ ، ٣/١٠٤١ .

وقال سفيان الثوري عن أبي بكير(١) ، عن عكرمة : الرس بئر رسّوا فيها(٢) نبيهم : أي دفنوه بها ؛

وقال محمد بن إسحاق ، عن محمد بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبدُ الأسود ، وذلك أن الله –تعالى وتبارك– بعث نبياً إلى أهل قرية ، فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك العبد الأسود ، ثم إن [أهل] القرية عدَوا على النبي ، فحفروا له بئراً فألقوه فيها ، ثم أطبقوا عليه بحجر ضخم(٣) ؛ قال : فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره ، ثم يأتي بحطبه فيبيعه ، ويشترى به طعاماً وشراباً ، ثم يأتي به إلى تلك البئر ، فيرفع تلك الصخرة ، ويعينه الله عليها ، فيدلى إليه طعامه وشرابه ، ثم يردها كما كانت . قال : فكان كذلك ما شاء الله أن يكون ، ثم إنه ذهب يوماً يحتطب كما كان [يصنع] ، فجمع حطبه وحزم حزْمته وفرغ منها ، فلما أراد أن يحتملها وجد سنة(٤) ، فاضطجع فنام . فضرب [الله] على أذنه سبع سنين نائماً ، ثم إنه هبّ فتمطى ، فتحول لشقه الآخر فاضطجع ، فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى . ثم إنه هب واحتمل حزْمته ولا يحسبُ إلا أنه نام ساعة من نهار ، فجاء إلى القرية فباع حزمته ، ثم اشترى طعاماً وشراباً كما كان يصنع . ثم ذهب إلى الحفيرة في موضعها الذي كانت فيه ، فالتمسه فلم يجده . وكان قد بدا لقومه فيه بداء ، فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه ؛ قال : فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الأسود : ما فعل ؟ فيقولون له : ما ندرى . حتى قبض الله النبي ، وأهبّ الأسودَ من نومته بعد ذلك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن ذلك الأسودَ لأولُ من يدخل الجنة .

هكذا رواه ابن جرير(٥) ، عن ابن حميد ، عن سلمة عن ابن إسحاق ، عن محمد بن كعب مرسلا . وفيه غرابة ونكارة ، ولعل فيه إدْرَاجاً(٦) ، والله أعلم . وأما ابن جرير فقال : لا يجوز أن يحمل هؤلاء على أنهم أصحاب الرسّ الذين ذكروا في القرآن ؛ لأنّ الله أخبر عنهم أنه أهلكهم ، وهؤلاء قد بدا لهم فآمنوا بنبيهم ، اللهم إلا أن يكون حدث لهم أحداث ، آمنوا بالنبي بعد هلاك آبائهم(٧) . والله أعلم .

---

(١) في تفسير الطبرى : « عن أبي بكر » . وهو خطأ ، وما في مخطوطة الأزهر هو الصواب ، وهو « مرزوق أبو بكير التيمى » . مترجم في التهذيب : ١٠/٨٧ ، والجرح : ٤/١/٢٦٣ . يروى عن عكرمة ، وعنه الثورى .

(٢) تفسير الطبرى : ١٩/١٠ .

(٣) في المخطوطة : « بحجر أصم » . والمثبت من تفسير الطبرى والدر المنثور . وهو أنسب بالسياق ؛ أما الحجر الأصم فهو الصلب ، والمراد هنا ثقل الحجر وضخامته .

(٤) أخرجه السيوطى في الدر المنثور عن ابن إسحاق وابن جرير : ٥/٧١ .

(٥) تفسير الطبرى : ١٩/١٠ – ١١ .

(٦) المدرج من مصطلحات علم الحديث ، وهو أقسام ، أحدها : مدرج في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بأن يذكر الراوى عقيبه كلاماً لنفسه أو غيره ، فيرويه من بعده متصلا بالحديث من غير فصل ، فيتوهم أنه من الحديث . الثانى : أن يكون عنده متنان بإسنادين ، فيرويهما بأحدهما . الثالث : أن يسمع حديثاً من جماعة مختلفين في إسناده أو متنه ، فيرويه عنهم باتفاق ، ولا يبين ما اختلف فيه .

يقول علماء الحديث : تعمد كل واحد من الثلاثة حرام ، وصاحبه ممن يحرف الكلم عن مواضعه ، وهو ملحق بالكذابين ؛ أما ما أدرج لتفسير غريب فغير ممنوع ، وقد فعله الزهرى وغير واحد من الأئمة .

والمقصود من هذه الأقسام هنا هو الأول .

(٧) كذا في تفسير ابن كثير ، ولفظ الطبرى : ١٩/١١ : « ... فلا ينبغى أن يكونوا المعنيين بقوله (وأصحاب الرس) ، لأن الله أخبر عن أصحاب الرس أنه دمرهم تدميراً ، إلا أن يكونوا دمروا بأحداث أحدثوها بعد نبيهم الذى استخرجوه من الحفرة وآمنوا به ، فيكون ذلك وجها » .

واختار ابن جرير أن المراد بأصحاب الرس هم أصحاب الأخدود ، الذين ذكروا فى سورة البروج ، فالله أعلم .

وقوله : (وقروناً بين ذلك كثيراً) ، أى : وأمما بين أضعاف مَنْ ذُكر أهلكناهم كثيرة ، ولهذا قال : (وكلا ضربنا له الأمثال) ، أى : بينا لهم الحجج ، ووضَّحنا لهم الأدلة ــ كما قال قتادة : أزحنا عنهم الأعذار ــ (وكلا تبرنا تتبيراً) ، أى : أهلكنا إهلاكاً ، كقوله : (وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح (١)) .

والقرن : هو الأمة من الناس ، كقوله : (ثم أنشأنا من بعدهم قرْناً آخرين (٢)) . وحَدّه بعضهم بمائة وعشرين سنة ، وقيل : بمائة سنة ، وقيل : بثمانين سنة ، وقيل : أربعين . وقيل غير ذلك . والأظهر أن القرن هم الأمة المتعاصرون فى الزمن الواحد ، فاذا ذهبوا وخلفهم جيل آخر فهم قرن ثان ، كما ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه قال : خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم(٣) . الحديث .

وقوله : (ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء) ، يعنى قرية قوم لوط ، وهى سدوم ومعاملتها(٤) التى أهلكها الله بالقلب ، وبالمطر الحجارة من سجيل ، كما قال تعالى : (وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين (٥)) ، وقال : (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون (٦)) ، وقال تعالى : (وإنها لبسبيل مقيم (٧)) ، وقال : (وإنهما لبإمام مبين (٨)) ، ولهذا قال : (أفلم يكونوا يرونها) ، أى : فيعتبروا بما حَلّ بأهلها من العذاب والنَّكال بسبب تكذيبهم بالرسول و بمخالفتهم أوامر الله .

وقوله : (بل كانوا لايرجون نشورا) ، يعنى : المارين بها من الكفار لا يعتبرون لأنهم لا يرجون نشوراً ، أى : معاداً يوم القيامة .

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا
عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ
عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ إذا رأوه ، كما قال : (وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً : أهذا الذى يذكر آلهتكم ؟ (٩)) يعنونه بالعيب والنقص ، وقال هاهنا : (وإذا

---

(١) سورة الإسراء ، آية : ١٧ .

(٢) سورة المؤمنون ، آية : ٣١ .

(٣) البخارى ، كتاب الشهادات ، باب « لا يشهد على جور إذا أشهد » : ٣/٢٢٤ . ومسلم كتاب فضائل الصحابة ، باب « فضل الصحابة ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » : ٧/١٨٤ .

(٤) يقصد بالمعاملة ما يتبع سدوم من القرى .

(٥) سورة الشعراء ، آية : ١٧٣ .

(٦) سورة الصافات ، آية : ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٧) سورة الحجر ، آية : ٧٦ .

(٨) سورة الحجر ، آية : ٧٩ .

(٩) سورة الأنبياء ، آية : ٣٦ .

رأوك إن يتخذونك إلا هزواً : أهذا الذي بعث الله رسولا) ؟ : أي : على سبيل التنقص والازدراء – قبّحهم الله – كما قال : (ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب) ؟(١) .

وقولهم : (إن كاد ليضلنا عن آلهتنا ، لولا أن صبرنا عليها) ، يعنون أنه كاد يثنيهم عن عبادة أصنامهم ، لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا على عبادتها . قال الله تعالى متوعداً لهم ومتهددا : (وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا) .

ثم قال تعالى لنبيه ، منبهاً له أن من كتب الله عليه الشقاوة والضلال ، فإنه لا يهديه أحد إلا الله .

(أرأيت من اتخذ إلهه هواه) ، أي : مهما استحسن من شيء ورآه حسناً في هوى نفسه ، كان دينَه ومذهبَه ، كما قال تعالى : (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ، فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات (٢)) . ولهذا قال هاهنا : (أفأنت تكون عليه وكيلا) – قال ابن عباس : كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً ، فإذا رأى غيره أحسن منه عبدَ الثاني وترك الأول .

ثم قال : (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا) ، أي : أسوأ حالا من الأنعام السارحة ، فإن تلك تعقل ما خلقت له ، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له وهم يعبدون غيره ويشركون به ، مع قيام الحجة عليهم ، وإرسال الرسل إليهم .

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾

من هاهنا شرع تعالى في بيان الأدلة الدالة على وجوده ، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة ، فقال : (ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ؟) – قال ابن عباس ، وابن عمر ، وأبو العالية ، وأبو مالك ، ومسروق ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي ، والضحاك ، والحسن البصري ، وقتادة ، والسدي ، وغيرهم ، هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس(٣) . (ولو شاء لجعله ساكناً) ، أي : دائماً لا يزول ، كما قال تعالى : (قل : أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة) ، (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة)(٤) .

وقوله : (ثم جعلنا الشمس عليه دليلا) ، أي : لولا أن الشمس تطلع عليه ، لما عرف ، فان الضد لا يعرف إلا بضده .

وقال قتادة ، والسدّي : دليلا يتلوه ويتبعه حتى يأتي عليه كله .

---

(١) سورة الرعد آية : ٣٢

(٢) سورة فاطر ، آية : ٨ .

(٣) انظر تفسير الطبري : ١٩/١٢ – ١٣ .

(٤) سورة القصص ، آية : ٧١ ، ٧٢ .

وقوله : (ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً) ، أى : الظل . وقيل : الشمس : (يسيراً) ، أى : سهلا — قال ابن عباس : سريعاً . وقال مجاهد : خفياً . وقال السدّى : قبضاً خفيّاً ، حتى لا يبقى فى الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة ، وقد أظلت الشمس ما فوقه .

وقال أيوب بن موسى : (ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً) ، أى : قليلا قليلا .

وقوله : (وهو الذى جعل لكم الليل لباساً) ، أى : يلبس الوجود ويُغشّيه ، كما قال : (والليل إذا يغشاها (١)) ، (والنوم سباتا) ، أى : قطْعاً للحركة لراحة الأبدان ، فان الأعضاء والجوارح تكِلّ من كثرة الحركة فى الانتشار بالنهار فى المعايش ، فاذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات ، فاستراحت فحصل النوم الذى فيه راحة البدن والروح معاً .

(وجعل النهار نشوراً) ، أى : ينتشر الناسُ فيه لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم ، كما قال تعالى : (ومن رحمته جعلَ لكم الليلَ والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (٢)) .

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم ، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات ، أى : بمجيء السحاب بعدها ، والرياح أنواع ، فى صفات كثيرة من التسخير ، فمنها ما يثير السحاب ، ومنها ما يحمله ، ومنها ما يسوقه ، ومنها ما يكون بين يدى السحاب مبشراً ، ومنها ما يكون قبل ذلك يقُمّ الأرض(٣) ، ومنها ما يلقح السحاب ليمطر ، ولهذا قال : (وأنزلنا من السماء ماء طهوراً) ، أى : آلة يتطهر بها ، كالسَّحُور والوقود(٤) وماجرى مجراه ، فهذا أصح ما يقال فى ذلك ، وأما من قال : إنه فعول بمعنى فاعل ، أو : إنه مبنى للمبالغة أو التعدى ، فعلى كل منهما إشكالات من حيث اللغة والحكم(٥) ، ليس هذا موضع بسطها ، والله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، حدثنا أبى ، عن أبى جعفر الرازى ، حدثنى حُمَيد الطويل ، عن ثابت البُنانى قال : دخلت مع أبى العالية فى يوم مطير ، وطرق البصرة قذرة ، فصلى فقلت له ، فقال : (وأنزلنا من السماء ماء طهوراً) ، قال : طهره ماء السماء .

وقال أيضاً : حدثنا أبى ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا وُهَيب ، عن داود ، عن سعيد بن المسيب فى هذه الآية : (وأنزلنا من السماء ماء طهورا) لا ينجسه شىء .

(١) سورة الشمس ، آية : ٤ .
(٢) سورة القصص ، آية : ٧٣ .
(٣) أى : يكنسها .
(٤) فى المخطوطة : « الوجود » . وهو خطأ ، والمثبت من تفسير القرطبى عند هذه الآية : ١٣/٣٩ .
(٥) انظر تفسير الطبرى : ١٣/٣٩ — ٤٠ فقد عرض لهذه الآراء . كما ينظر البحر المحيط لأبى حيان : ٦/٥٠٥ .

وعن أبي سعيد قال : قيل : يارسول الله، أنتوضأ من بئر بُضَاعة ؟ ـ وهي بئر يُلقَى فيها النَّتَن ولحومُ الكلاب ـ فقال : إن الماء طهور لا ينجسه شيء : رواه الشافعي ، وأحمد وصححه ، وأبو داود ، والترمذي وحسنه ،والنسائي (١).

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو الأشعث ، حدثنا معتمر ، سمعت أبي يحدث عن سيار ، عن خالد ابن يزيد ـ قال : كان عند عبد الملك بن مروان ، فذكروا الماء ، فقال خالد بن يزيد : منه من السماء ، ومنه ما يسقيه الغيم من البحر فَيُعْذِبه(٢) الرعد والبرق : فأما ما كان من البحر ، فلا يكون له نبات ، فأما النبات فما كان من السماء .

وروى عن عكرمة قال : ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبت بها في الأرض عشبة أو في البحر لؤلؤة . وقال غيره : في البر بُر ، وفي البحر دُرّ .

وقوله : (لنحيي به بلدة ميتاً) ، أي : أرضاً قد طال انتظارها للغيث ، فهي هامدة لا نبات فيها ولا شيء : فلما جاءها الحيا(٣) عاشت واكتست رباها أنواع الأزاهير والألوان ، كما قال تعالى : (فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج (٤)) .

(ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً) ، أي : وليشرب منه الحيوان من أنعام وأناسيّ محتاجين إليه غاية الحاجة ، لشربهم وزروعهم وثمارهم ، كما قال تعالى : (وهو الذي ينزل الغيث من بعد ماقنطوا وينشر رحمته ، وهو الولي الحميد(٥)) ، وقال تعالى : (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى ، إنه على كل شيء قدير (٦)) .

وقوله : (ولقد صرفناه بينهم ليذكروا) ، أي : أمطرنا هذه الأرض دون هذه ، وسقنا السحابَ فمر على الأرض وقعداها وجاوزها إلى الأرض الأخرى ، لم ينزل فيها قطرة من ماء ، وله في ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة .

قال ابن مسعود وابن عباس : ليس عام بأكثر مطراً من عام ، ولكن الله يصرفه كيف يشاء ، ثم قرأ هذه الآية : (ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفوراً) .

أي : ليذكروا باحياء الله الأرضَ الميتةَ أنه قادر على إحياء الأموات والعظام الرفات : أو : ليذكر من منع القَطْر أنما أصابه ذلك بذنب أصابه ، فيقلع عما هو فيه .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١٥/٣ ـ ١٦ ، ٣١ ، ٨٦ . وسنن أبي داود ، كتاب الطهارة ، باب « ما جاء في بئر بضاعة » ، الحديث ٦٦ : ١٧/١ . والترمذي ، أبواب الطهارة ، باب « ما جاء أن الماء لا ينجسه شيء » ، الحديث ٦٦ : ٢٠٣/١ ـ ٢١٥ . والنسائي ، كتاب المياه ، باب « ذكر بئر بضاعة » : ١٧٤/١ .

(٢) أي : يجعله عذبا .

(٣) الحيا ـ مقصورا ـ : المطر .

(٤) سورة الحج ، آية : ٥ .

(٥) سورة الشورى ، آية : ٢٨ .

(٦) سورة الروم ، آية : ٥٠ .

وقال عُمَيْر مولى غُفْرَة : كان جبريل عليه السلام فى موضع الجنائز ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : ياجبريل ، إنى أحب أن أعلم أمرَ السحاب ؟ قال : فقال جبريل : يانبى الله ، هذا ملك السحاب فسله ، فقال : تأتينا صكاكٌ مختّمة : أسق بلاد كذا وكذا ، كذا وكذا قطرة(١) . رواه ابن أبى حاتم ، وهو حديث مرسل .

وقوله : (فأبى أكثر الناس إلا كفورا) ، قال عكرمة : يعنى الذين يقولون : مطرنا بنوء(٢) كذا وكذا .

وهذا الذى قاله عكرمة كما صحّ فى الحديث المخرّج فى صحيح مسلم، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأصحابه يوماً ، على أثر سماء أصابتهم من الليل : أتدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم. قال : قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال : مُطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب . وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا . فذاك كافر بى ، مؤمن بالكوكب(٣) .

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ۝٥١ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢ * وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ۝٥٣ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝٥٤﴾

يقول تعالى : (ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيراً) ، يدعوهم إلى الله عز وجل،ولكنا خصصناك — يامحمد — بالبعثة إلى جميع أهل الأرض ، وأمرناك أن تبلغ الناس هذا القرآن ، (لأنذركم به ومن بلغ(٤)) ،(ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده (٥)) ، (لتنذر أم القرى ومن حولها (٦)) (قل : يا أيها الناس ، إنى رسول الله إليكم جميعاً (٧)) . وفى الصحيحين :بعثت إلى الأحمر والأسود . وفيهما : وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة (٨) . ولهذا قال : (فلا تطع الكافرين وجاهدهم به) ، يعنى : بالقرآن ، قاله ابن عباس (٩) ، (جهاداً كبيراً) ، كما قال تعالى : (يا أيها النبى ، جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم (١٠)) .

---

(١) الأثر فى الدر المنثور للسيوطى ، من ابن أبى حاتم : ٥/٧٣ .
(٢) كانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى النوء ، وهو : سقوط النجم فى المغرب مع الفجر وطلوع آخر يقابله من ساعته بالمشرق .
(٣) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « بيان كفر من قال : مطرنا بالنوء » : ٥٩/١ .
(٤) سورة الأنعام ، آية : ١٩ .
(٥) سورة هود ، آية : ١٧ .
(٦) سورة الأنعام ، آية : ٩٢ .
(٧) سورة الأعراف ، آية : ١٥٨ .
(٨) تقدم الحديثان عند الآية الأولى من هذه السورة ، وخرجناهما هنالك .
(٩) تفسير الطبرى : ١٠/١٩ .
(١٠) سورة التوبة ، آية : ٧٣ .

وقوله : (وهو الذى مرج البحرين ، هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج) ، أى : خلق الماءين : الحلو والملح ، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار ، وهذا هو البحر الحلو الفرات العذب الزلال . قاله ابن جريج[١] . واختاره ابن جرير : وهذا الذى لا شك فيه ، فإنه ليس فى الوجود بحر ساكن وهو عذب فرات . والله سبحانه إنما أخبر بالواقع لينبه العباد على نعمه عليهم ليشكروه ، فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس، فرقه تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهارا وعيوناً فى كل أرض بحسب حاجتهم وكفايتهم لأنفسهم وأراضيهم .

وقوله : (وهذا ملح أجاج) ، أى : مالح مُرّ زعاق[٢] لا يستساغ ، وذلك كالبحار المعروفة فى المشارق والمغارب : البحر المحيط وما يتصل به من الزقاق[٣] وبحر القلزم ، وبحر اليمن ، وبحر البصرة ، وبحر فارس وبحر الصين والهند وبحر الروم وبحر الخزر ، وما شاكلها وشابهها من البحار الساكنة التى لا تجرى ، ولكن تتموج وتضطرب وتغتلم[٤] فى زمن الشتاء وشدة الرياح ، ومنها ما فيه مد وجَزْر ، ففى أول كل شهر يحصل منها مد وفيض ، فاذا شرع الشهر فى النقصان جَزَرت[٥] ، حتى ترجع إلى غايتها الأولى ، فاذا استهل الهلال من الشهر الآخر شرعت فى المد إلى الليلة الرابعة عشرة ثم تشرع فى النقص ، فأجرى الله سبحانه وتعالى — وله القدرة التامة — العادة بذلك . فكل هذه البحار الساكنة خلقها الله سبحانه وتعالى مالحة الماء، لئلا يحصل بسببها نتن الهواء، فيفسد الوجود بذلك ، ولئلا تجوَى[٦] الأرض بما يموت فيها من الحيوان . ولما كان ماؤها ملحاً كان هواؤها صحيحاً وميتتها طيبة ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن ماء البحر : أنتوضأ به ؟ فقال : هو الطهور ماؤه ، الحل ميتته . رواه الأئمة : مالك ، والشافعى ، وأحمد ، وأهل السنن بإسناد جيد[٧] .

وقوله : (وجعل بينهما برزخاً وحجرا) ، أى : بين العذب والمالح (برزخاً) ، أى : حاجزاً ، وهو اليَبَس من الأرض ، (وحجراً محجوراً) ، أى : مانعاً أن يصل أحدهما إلى الآخر ، كما قال : (مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان . فبأى آلاء ربكما تكذبان [٨]) ، وقال تعالى : (أمن جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزاً ، أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون[٩]) .

---

(١) يبدو أنه قد وقع سقط من تفسير الحافظ ابن كثير ، فأثر ابن جريج — كما فى تفسير الطبرى ١٩ /١٦ : « فلم أجد بحراً عذبا إلا الأنهار العذاب ، فإن دجلة تقع فى البحر ، فأخبرنى الخبير بها أنها تقع فى البحر فلا تمور فيه ، بينهما مثل الخيط الأبيض ، فإذا رجعت لم يرجع فى طريقها من البحر شىء ، والنيل يصب فى البحر » . وانظر أيضاً الدر المنثور : ٥ /٧٢ .

(٢) ماء زعاق : مر غليظ ، لا يطاق شربه .

(٣) الزقاق — كما فى مراصد الاطلاع — : مجاز البحر بين طنجة ، مدينة المغرب على البر المتصل بالاسكندرية ، والجزيرة الخضراء وهى فى جزيرة الأندلس ، وبينهما اثنا عشر ميلا .

(٤) أى : تضطرب وتهيج .

(٥) جزر الماء يجزر — بضم الزاى وكسرها — : نقص .

(٦) أى : تنتن .

(٧) تقدم الحديث فى سورة المائدة ، عند تفسير الآية الثالثة منها ، وخرجناه هنالك . انظر : ٢ / ١٢ .

(٨) سورة الرحمن ، الآيات : ١٩ — ٢١ .

(٩) سورة النمل ، آية : ٦١ .

وقوله : (وهو الذى خلق من الماء بشرا ، فجعله نسباً وصهراً ، وكان ربك قديراً) ، أى : خلق الإنسان من نطفة ضعيفة ، فسواه وعدّله ، وجعله كامل الخلقة ، ذكراً أو أنثى ، كما يشاء ، (فجعله نسباً وصهرا) ، فهو فى ابتداء أمره ولد نسيب ، ثم يتزوج فيصير صهراً ، ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات ؛ وكل ذلك من ماء مهين ؛ ولهذا قال : (وكان ربك قديراً) .

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين فى عبادتهم غير الله من الأصنام ، التى لا تملك لهم نفعاً ولا ضراً ، بلا دليل قادهم إلى ذلك ، ولا حجة أدتهم إليه ، بل بمجرد الآراء ، والتشهى والأهواء ، فهم يوالونهم ويقاتلون فى سبيلهم ، ويعادون الله ورسوله فيهم ، ولهذا قال : (وكان الكافر على ربه ظهيرا) ، أى : عوناً فى سبيل الشيطان على حزب الله ، وحزب الله هم الغالبون ، كما قال تعالى : (واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون . لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون (١)) ، أى : آلهتهم التى اتخذوها من دون الله لا تملك لهم نصرا ، وهؤلاء الجهلة للأصنام جند محضرون يقاتلون عنهم ، ويذبّون عن حوزتهم ، ولكنّ العاقبة والنصرةَ لله ولرسوله فى الدنيا والآخرة .

قال مجاهد : (وكان الكافر على ربه ظهيراً) ، قال : يظاهر الشيطان على معصية الله ، يعينه(٢) .

وقال سعيد بن جُبَير : (وكان الكافر على ربه ظهيراً) ، يقول : عوناً للشيطان على ربه بالعداوة والشرك .

وقال زيد بن أسلم : (وكان الكافر على ربه ظهيراً) ، قال : موالياً .

ثم قال تعالى لرسوله — صلوات الله وسلامه عليه — : (وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً) ، أى : بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين ، مبشرا بالجنة لمن أطاع الله ، ونذيراً بين يدى عذاب شديد لمن خالف أمر الله .

(قل ما أسالكم عليه من أجر) ، أى : على هذا البلاغ وهذا الانذار من أجرة أطلبها من أموالكم ، وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله ، (لمن شاء منكم أن يستقيم (٣)) ، (إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً) ، أى : طريقاً ومسلكا ومنهجاً يقتدى فيها بما جئت به .

---

(١) سورة « يس » ، آية : ٧٤ ، ٧٥ .
(٢) تفسير الطبرى : ١٩/ ١٧ .
(٣) سورة التكوير ، آية : ٢٨ .

ثم قال : (وتوكل على الحى الذى لا يموت) ، أى : فى أمورك كلها كُن متوكلا على الله الحى الذى لا يموت أبداً، الذى هو (الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم)(١) ،الدائم الباقى السرمدى الأبدى ، الحى القيوم ربّ كل شىء ومليكه ، اجعله ذُخْرك وملجأك ، وهو الذى يُتَوكل عليه ويفزع إليه ، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك ، كما قال تعالى : (يا أيها الرسول ، بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس (٢)) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عبد الله بن محمد بن على بن نفيل قال : قرأت على معقل ــ يعنى ابن عبيد الله ــ عن عبد الله بن أبى حسين ، عن شهر بن حوشب قال : لقى سلمانُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى بعض فجاج (٣) المدينة ، فسجد له ، فقال : لا تسجد لى يا سلمان ، واسجد للحى الذى لا يموت . وهذا مرسل حسن .

[وقوله تعالى : (وسبح بحمده) ، أى : اقرن بين حمده وتسبيحه] ، ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : سبحانك اللهم ربّنا وبحمدك ، ، أى : أخلص له العبادة والتوكل ، كما قال تعالى : (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا (٤)) .

وقال : (فاعبده وتوكل عليه (٥)) ، (قل : هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا (٦)) .

وقوله : (وكفى به بذنوب عباده خبيراً) ، أى : لعلمه التام الذى لا يخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة .

وقوله : (الذى خلق السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام) ، أى : هو الحى الذى لا يموت، وهو خالق كل شىء وربه ومليكه ، الذى خلق بقدرته وسلطانه السموات السبع ، فى ارتفاعها واتساعها ، والأرضين السبع فى سفولها وكثافتها ، (فى ستة أيام ثم استوى على العرش) ، أى : يدبر الأمر ،ويقضى الحق ، وهو خير الفاصلين .

وقوله : (ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً) ، أى : استعلم عنه من هو خبير به عالم به فاتبعه واقتد به ، وقد عُلِم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد ــ صلوات الله وسلامه على سيد ولد آدم على الإطلاق ، فى الدنيا والآخرة ، الذى لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ــ فما قاله فهو حق ، وما أخبر به فهو صدق ، وهو الإمام المحكم الذى إذا تنازع الناس فى شىء وجب رَدّ نزاعهم إليه ، فما يوافق أقواله وأفعاله فهو الحق ، وما يخالفها فهو مردود على قائله وفاعله ، كائنا من كان ، قال الله تعالى : (فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول (٧)) ،

---

(١) سورة الحديد آية : ٣
(٢) سورة المائدة ، آية : ٦٧ .
(٣) أى : طرقها .
(٤) سورة المزمل ، آية : ٩ .
(٥) سورة هود ، آية : ٢٣ .
(٦) سورة الملك ، آية : ٢٩ .
(٧) سورة النساء ، آية : ٥٩ .

وقال : (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله(١)) ، وقال تعالى : (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا (٢)) ، أى : صدقا فى الإخبار وعدلا فى الأوامر والنواهى ، ولهذا قال : (فاسأل به خبيرا) — قال مجاهد فى قوله : (فاسأل به خبيرا) ، قال : ما أخبرتك من شيء فهو كما أخبرتك . وكذا قال ابن جُرَيج .

وقال شمِر بن عطية فى قوله : (فاسأل به خبيرا) ، قال : هذا القرآن خبير به .

ثم قال تعالى منكرا على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد : (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن ، قالوا : وما الرحمن) ؟ أى : لا نعرف الرحمن . وكانوا ينكرون أن يُسَمَّى الله باسمه الرحمن ، كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبي صلى الله عليه وسلم للكاتب : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » ، فقالوا : لا نعرف الرحمن ولا الرحيم ، ولكن اكتب كما كنت تكتب : باسمك اللهم (٣) . ولهذا أنزل الله : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ، أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى) (٤) ، أى : هو الله وهو الرحمن . وقال فى هذه الآية : (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن ، قالوا : وما الرحمن) ؟ أى : لا نعرفه ولا نُقَرّ به ، (أنسجد لما تأمرنا) ؟ أى : لمجرد قولك ؟ (وزادهم نفورا) ، أما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذى هو الرحمن الرحيم ، ويُفْرِدُونه بالإلهية ويسجدون له . وقد اتفق العلماء — رحمهم الله — على أن هذه السجدة التى فى الفرقان مشروعٌ السجودُ عندها لقارئها ومستمعها ، كما هو مقرر فى موضعه ، والله أعلم .

تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾

يقول تعالى ممجدا نفسه ، ومعظّما على جميل ما خلق فى السماء من البروج — وهى الكواكب [العظام] — فى قول مجاهد (٥) ، وسعيد بن جُبير ، وأبى صالح ، والحسن ، وقتادة .

وقيل : هى قصور فى السماء للحرس ، يروى هذا عن على ، وابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وإبراهيم النخَعى ، وسليمان بن مِهْران الأعمش . وهو رواية عن أبى صالح أيضا ، والقول الأول أظهر . اللهم إلا أن يكون الكواكب العظام هى قصور للحرس ، فيجتمع القولان ، كما قال تعالى : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين (٦)) ، ولهذا قال : (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا) ، وهى الشمس المنيرة ، التى هى كالسراج فى الوجود ، كما قال : (وجعلنا سراجا وهاجاً (٧)) .

---

(١) سورة الشورى ، آية : ١٠ .
(٢) سورة الأنعام ، آية : ١١٥ .
(٣) سيرة ابن هشام : ٢ /٣١٧ .
(٤) سورة الإسراء ، آية : ١١٠ .
(٥) تفسير الطبرى : ١٩ /١٩ .
(٦) سورة الملك ، آية : ٥ .
(٧) سورة النبأ ، آية : ١٣ .

(وقمراً منيرا) ، أى : مضيئا مشرقا بنور آخر ونوع وفن آخر ، غير نور الشمس ، كما قال : (وهو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا(١)) ، وقال مخبرا عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه : (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا (٢)) .

ثم قال : (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة) ، أى : يخلف كل واحد منهما الآخر ، يتعاقبان لا يفتران ، إذا ذهب هذا جاء هذا ، وإذا جاء هذا ذهب ذاك ، كما قال : (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار (٣)) ، وقال : (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس القمر والنجوم مسخرات بأمره (٤)) وقال : (لاالشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون (٥)) .

وقوله : (لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً) ، أى : جعلهما يتعاقبان ، توقيتا لعبادة عباده له ، فمن فاته عمل فى الليل استدركه فى النهار ، ومن فاته عمل فى النهار استدركه فى الليل . وقد جاء فى الحديث الصحيح : « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل (٦) » .

قال أبو داود الطيالسى : حدثنا أبو حُرَّة (٧) ، عن الحسن : أن عمر بن الخطاب أطال صلاة الضحى ، فقيل له : صنعت اليوم شيئا لم تكن تصنعه ؟ فقال : إنه بقى علىّ من وردى شىء ، فأحببت أن أتمه ــ أو قال : أقضيه ــ وتلا هذه الآية : (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قوله : (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة) يقول : من فاته شىء من الليل أن يعمله ، أدركه بالنهار ، أو من النهار أدركه بالليل (٨) . وكذا قال عكرمة ، وسعيد بن جبير ، والحسن .

وقال مجاهد ، وقتادة : (خلفة) ، أى : مختلفين ، هذا بسواده ، وهذا بضيائه .

---

(١) سورة يونس ، آية : ٥ .

(٢) سورة نوح ، آية : ١٥ ، ١٦ .

(٣) سورة إبراهيم ، آية : ٣٣ .

(٤) سورة الأعراف ، آية : ٥٤ .

(٥) سورة « يس » ، آية : ٤٠ .

(٦) مسلم ، كتاب التوبة ، باب « قبول التوبة من الذنوب ، وإن تكررت الذنوب والتوبة » : ٩٩/٨ . وأخرجه الإمام أحمد عن أبى موسى : ٣٩٥/٤ ، ٤٠٤ .

(٧) فى المخطوطة : « حدثنا أبو حمزة » . والصواب ما أثبتناه ، وأبو حرة هو واصل بن عبد الرحمن ، مترجم فى كتب الرجال يروى عن الحسن . وانظر منحة المعبود : ٧٧/١ ، فى مسند حديث آخر .

(٨) تفسير الطبرى : ٢٤/١٩ .

وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

هذه صفات عباد الله المؤمنين (الذين يمشون على الأرض هونا) ، أى : بسكينة ووقار من غير جَبْرِيَّة (١) ولا استكبار ، كما قال : (ولا تمش فى الأرض مرحاً ، إنك لن تخرق الأرض ، ولن تبلغ الجبال طولا (٢)) ، فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح ، ولا أشر ولا بطر ، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى من التصانع (٣) تصنعاً ورياء ، فقد كان سيد ولد آدم — صلى الله عليه وسلم — إذا مشى كأنما ينحط من صَبَب ، (٤) وكأنما الأرض تطوى له . وقد كره بعض السلف المشى بتضعف وتصنع ، حتى روى عن عمر أنه رأى شاباً يمشى رُوَيداً ، فقال : ما بالك ؟ أأنت مريض ؟ قال : لا ، يا أمير المؤمنين . فعلاه بالدّرة ، وأمره أن يمشى بقوة . وإنما المراد بالهَوْن هاهنا السكينة والوقار ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، وأتوها وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا (٥) » .

وقال عبد الله بن المبارك ، عن معمر ، عن يحيى (٦) بن المختار ، عن الحسن البصرى فى قوله : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا) قال : إن المؤمنين قوم ذُلُل ، ذلت منهم — والله — الأسماعُ والأبصار والجوارح ، حتى تحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض ، وإنهم لأصحاء ، ولكنهم دخلهم من الخوف مالم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة ، فقالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن . أما والله ما أحزنهم حزن الناس ، ولا تعاظم فى نفوسهم شىء طلبوا به الجنة ، أبكاهم الخوف من النار ، وإنه من لم يتعز بعزاء الله تَقَطَّعُ نفسُه على الدنيا حسرات ، ومن لم ير لله نعمة إلا فى مطعم أو فى مشرب ، فقد قل علمه وحَضَر عذابهُ (٧) .

وقوله : (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) ، أى : إذا سفّه عليهم الجهال بالسّيء ، لم يقابلوهم عليه بمثله ، بل يعفون ويصفحون ، ولا يقولون إلا خيراً ، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتزيده شدة الجهل عليه إلا حلما ، وكما قال تعالى : (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا : لنا أعمالنا ، ولكم أعمالكم ، سلام عليكم ، لانبتغى الجاهلين(٨)

---

(١) الجبرية — بفتح الجيم والباء — : الكبر .
(٢) سورة الإسراء ، آية : ٣٧ .
(٣) فى مخطوطة الأزهر : « من الصايع » . ولعل الصواب ما أثبتناه .
(٤) أى : من موضع منحدر .
(٥) البخارى ، كتاب الجمعة ، باب « المشى إلى الجمعة » : ٩/٢ . ومسلم ، كتاب المساجد ، باب « استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة ، والنهى عن إتيانها سعياً » : ٩٩/٢ — ١٠٠ .
(٦) فى المخطوطة : « عمر بن المختار » . والمثبت من تفسير الطبرى ، انظر ترجمة « يحيى بن المختار » فى الخلاصة .
(٧) تفسير الطبرى : ٢٢/١٩ .
(٨) سورة القصص ، آية : ٥٥ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا أبو بكر ، عن الأعمش ، عن أبي خالد الوالبي ، عن النعمان بن مُقَرّن المُزَنيّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ [وسبّ رجلٌ رجلاً عنده ، قال : فجعل الرجل المسبوب يقول : عليك السلام . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما] إن (١) ملكا بينكما يذب عنك ، كلما شتمك هذا قال له : بل أنتَ وأنت أحق به . وإذا قال له : عليك السلام ، قال : لا ، بل (٢) عليك ، وأنت أحق به (٣) .
إسناد حسن ، ولم يخرجوه .

وقال مجاهد : (قالوا سلاماً) ، يعني قالوا : سداداً .

وقال سعيد بن جبير : ردوا معروفاً من القول .

وقال الحسن البصري : (قالوا : [سلاما) ، قال: حلماء لايجهلون] ، وإن جهل عليهم حلموا . يصاحبون عبادالله نهارهم بما تسمعون . ثم ذكر أن ليلهم خير ليل . (٤)

وقوله : (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) ،أي: في عبادته وطاعته ، كما قال تعالى : (كانوا قليلا من الليل ماىهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون(٥)) . وقال : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا، ومما رزقناهم ينفقون)(٦)، وقال : (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه (٧)) الآية ، ولهذا قال:(والذين يقولون: ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ، إن عذابها كان غراماً) ، أي : ملازماً دائماً ، كما قال الشاعر : (٨) .

إنْ يُعَذِّبْ يَكُنْ غَرَاماً ، وإن يُعْـ ـطِ جزيلا ، فإنه لا يُبَالى (٩)

ولهذا قال الحسن في قوله : (إن عذابها كان غراماً) : كل شيء يصيبه ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام ، وإنما الغرام اللازم مادامت السموات والأرض (١٠). وكذا قال سليمان التيمي .

وقال محمد بن كعب : (إن عذابها كان غراماً) ، يعني : ما نعموا في الدنيا ، إن الله سأل الكفار عن النعمة فلم يردوها إليه ، فأغرمهم فأدخلهم النار (١١) .

(إنها ساءت مستقرا ومقاماً) ، أي : بئس المنزل منظرا ، وبئس المقيل مقاماً ،

---

(١) ما بين القوسين عن مسند الإمام أحمد ، وقد سقط من مخطوطة الأزهر .
(٢) لفظ المسند : «قال : لا ، بل لك ، أنت أحق به» .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٥/٤٤٥ .
(٤) الأثر في الدر المنثور : ٥ /٧٦ ، ٧٧ ، عن عبد بن حميد ، وقد وقع اضطراب في لفظه في مخطوطة الأزهر . وما أثبتناه عن الدر المنثور .
(٥) سورة الذاريات ، آية : ١٧ ، ١٨ .
(٦) سورة السجدة ، آية : ١٦ .
(٧) سورة الزمر ، آية : ٩
(٨) هو الأعشى ميمون بن قيس ، ديوانه ط بيروت : ١٦٧ ، والبيت أيضاً في تفسير الطبري : ١٩ /٢٣ .
(٩) في الديوان وتفسير الطبري : «إن يعاقب يكن ... » .
(١٠) الأثر في الدر المنثور عن عبد بن حميد : ٥/٧٧ .
(١١) تفسير الطبري : ١٩ / ٢٣ .

قال ابن أبي حاتم عند قوله : (إنها ساءت مستقرا ومقاماً) : حدثنا أبي ، حدثنا الحسن بن الربيع ، حدثنا أبو الأحوص عن الأعمش ، عن مالك بن الحارث قال : إذا طُرح الرجل في النار هوى فيها ، فإذا انتهى إلى بعض أبوابها قيل له : مكانَكَ حتى تتحف ، قال : فيسقى كأسا من سُمّ الأساود (١) والعقارب ، قال : فيميز الجلد (٢) على حدة ، والشعر على حدة ، [والعصب على حدة] والعروق على حدة .

وقال أيضاً : حدثنا أبي ، حدثنا الحسن بن الربيع ، حدثنا أبو الأحوص ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن عُبيد ابن عمير قال : إن في النار لجباباً(٣) فيها حيات أمثال البخت (٤) ، وعقارب أمثال البغال الدُّلْم (٥) ، فإذا قذف بهم في النار خرجت إليهم من أوطانها فأخذت بشفاههم وأبشارهم وأشعارهم ، فكشطت لحومهم إلى أقدامهم ، فإذا وجدت حر النار رجعت .

وقال الإمام أحمد : حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا سلام – يعني ابن مسكين – عن أبي ظلال ، عن أنس ابن مالك – رضي الله عنه – عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن عبداً في جهنم لينادي ألف سنة : ياحنان ، يامنان ، فيقول الله لجبريل : اذهب فأتني بعبدي هذا ، فينطلق جبريل فيجد أهل النار مُنكبّين يبكون ، فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره ، فيقول الله عز وجل : آتني به فإنه في مكان كذا وكذا . فيجيء به فيوقفه على ربه عز وجل ، فيقول له : ياعبدي ، كيف وجدت مكانك ومقيلك ؟ فيقول : يارب، شر مكان وشر مقيل ! فيقول : ردوا عبدي . فيقول : يارب ، ما كنت أرجو إذ أخرجتني منها أن تردني فيها ! فيقول : دعوا عبدي (٦) .

وقوله : (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) ، أي : ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة ، ولا بخلاء على أهليهم فيقصرون في حقهم فلا يكفونهم ، بل عدلا خياراً ، وخير الأمور أوسطها ، لا هذا ولا هذا ، (وكان بين ذلك قواما)، كما قال : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً (٧)) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عصام بن خالد ، حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم(٨) الغساني ، عن ضمرة ، عن أبي الدرداء ، عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : من فقه الرجل رفقه في معيشته(٩) . ولم يخرجوه .

---

(١) الأساود : جمع أسود ، وهو أخبث الحيات وأعظمها .
(٢) مازه يميزه : عزله .
(٣) جباب : جمع جب – بضم الجيم – وهو : البئر .
(٤) البخت – بضم فسكون – : الإبل الخراسانية .
(٥) الدلم – بضم فسكون – : جمع أدلم ، وهو الأسود .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٣/٢٣٠ .
(٧) سورة الإسراء ، آية : ٢٩ .
(٨) كان في المخطوطة : « عبد الله بن أبي مريم » ، ولكن الناسخ أحال « مريم » إلى « تميم » ، وهو خطأ ، والصواب من المسند والخلاصة .
(٩) مسند الإمام أحمد : ٥/١٩٤ .

وقال أحمد أيضاً : حدثنا أبو عبيدة الحداد ، حدثنا سكين بن (١) عبد العزيز العبْدى ، حدثنا إبراهيم الهَجَرى عن أبي الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما عال من اقتصد(٢) ، ولم يخرجوه .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أحمد بن يحيى ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن ميمون ، حدثنا سعيد بن حكيم ، عن مسلم بن حبيب ، عن بلال – يعنى العبسى – عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أحسن القصد فى الغنى ، وأحسن القصد فى الفقر ، وأحسن القصد فى العبادة . ثم قال : لا نعرفه يروى إلا من حديث حذيفة رضى الله عنه :

وقال إياس بن معاوية : ما جاوزت به أمر الله فهو سرف .

وقال غيره : السرف النفقة فى معصية الله .

وقال الحسن البصرى : ليس النفقة فى سبيل الله سرف .

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) ﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن شقيق ، عن عبد الله – هو ابن مسعود – قال : سُئِل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الذنب أكبر ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قال : ثم أيّ ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قال : ثم أى ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك . قال عبد الله : وأنزل الله تصديق ذلك : (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً) (٣)

وهكذا رواه النسائى عن هنّاد بن السرى ، عن أبي معاوية ، به (٤)

وقد أخرجه البخارى ومسلم ، من حديث الأعمش ومنصور – زاد البخارى : وواصل – ثلاثتهم عن أبي وائل ، شقيق بن سلمة ، عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل ، عن ابن مسعود ، به ، فالله أعلم ، ولفظهما عن ابن مسعود قال : قلت : يارسول الله ، أى الذنب أعظم ؟ الحديث (٥) .

---

(١) فى المخطوطة : « مسكين » . والمثبت من المسند والخلاصة .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٤٤٧/١ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٣٨٠/١ ، وانظر أيضاً : ٤٣١/١ ، ٤٣٤ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ .
(٤) الحديث فى كتاب المجتبى للنسائى من غير هذه الطريق، انظر كتاب تحريم الدم ، باب « ذكر أعظم الذنب ... » : ٨٩/٧–٩٠ .
(٥) انظر تفسير سورة الأنعام ، الآية ١٥١ : ٣٥٦/٣ ، فقد خرجنا الحديث هنالك عن الصحيحين .

طريق غريبه ، وقال ابن جرير : حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازى ، حدثنا عامر بن مدرك ، حدثنا السرى — يعنى ابن إسماعيل — حدثنا الشعبى ، عن مسروق قال : قال عبد الله : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فاتبعته ، فجلس على نَشَزٍ (١) من الأرض ، وقعدت أسفل منه ، ووجهى حيال ركبتيه ، واغتنمت خلوته وقلت : بأبى أنت وأمى يارسول الله ، أىّ الذنوب أكبر ؟ قال : أن تدعو لله نداً وهو خلقك . قلت : ثم مه ؟ قال : أن تقتل ولدك كراهية أن يطعَم معك . قلت : ثم مه ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك . ثم قرأ : (والذين لايدعون مع الله إلها آخر) : الآية (٢)

وقال النسائى : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا جرير ، عن منصور ، عن هلال بن يساف ، عن سلمة بن قيس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع : ألا إنما هى أربع ، فما أنا بأشح عليهن منى (٣) منذ سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا على بن المدينى — رحمه الله — حدثنا محمد بن فضيل بن غَزْوان ، حدثنا محمد بن سعد الأنصارى ، سمعت أباطيبة الكَلاعى ، سمعت المقداد بن الأسود — رضى الله عنه — يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : ماتقولون فى الزنا ؟ قالوا : حرّمه الله ورسوله ، فهو حرَام إلى يوم القيامة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : لأن يزنى الرجل بعشر نسوة أيسرُ عليه من أن يزنى بامرأة جاره . قال : ماتقولون فى السرقة ؟ قالوا : حرمها الله ورسوله ، فهى حرام . قال : لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره (٤) .

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنا عمار بن نصر ، حدثنا بقية ، عن أبى بكر بن أبى مريم ، عن الهيثم بن مالك الطائى عن النبى صلى الله عليه وسلم : قال : مامن ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نُطفة وضعها رجل فى رَحِم لايحل له (٥) .

وقال ابن جُرَيج : أخبرنى يعلى ، عن سعيد بن جبير أنه سمعه يحدث عن ابن عباس : أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن ، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة ، فنزلت : (والذين لايدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون) ، ونزلت : (قل : ياعبادى الذى أسرفوا على أنفسهم ، لاتقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا) ،

---

(١) النشز : الموضع المرتفع .

(٢) تفسير الطبرى : ١٩/٢٦-٢٧ .

(٣) فى المخطوطة : « عليهن شيء » . والمثبت عن مسند الإمام أحمد . والحديث لم نجده فى مجتبى النسائى . وهو فى المسند من طريق منصور بإسناده . انظر : ٤/٣٣٩ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٦/٨ .

(٥) تقدم الحديث بهذا الإسناد فى سورة الإسراء ، عند الآية ٣٢ ، انظر : ٥/٧٠ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن أبي فاختة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل : « إن الله ينهاك أن تعبد المخلوق وتدع الخالق ، وينهاك أن تقتل ولدك وتغذو كلبك ، وينهاك أن تزني بحليلة جارك . قال سفيان : وهو قوله : (والذين لايدعون مع الله إلها آخر ولايقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون) .

وقوله : (ومن يفعل ذلك يلق أثاما) ــ رُوي عن عبد الله بن عمرو أنه قال : (أثاماً) : واد في جهنم .

وقال عكرمة : (يلق أثاما) ، أودية في جهنم يعذب فيها الزناة . وكذا رُوي عن سعيد بن جبير ، ومجاهد .

وقال قتادة : (يلق أثاماً) : نكالا ، كنا نُحدث أنه واد في جهنم .

وقد ذُكر لنا أن لقمان كان يقول : يابني ، إياك والزنا ، فإن أوله مخافة ، وآخره ندامة .

وقد ورد في الحديث الذي رواه ابن جرير وغيره، عن أبي أمامة الباهلي ــ موقوفا ومرفوعا ــ : أن « غيا » و« أثاما » بئران في قعر (١) جهنم . أجارنا الله منها بمنه وكرمه .

وقال السدي : (يلق أثاماً) جزاء .

وهذا أشبه بظاهر الآية ، ولهذا فسره بما بعده مبدلا منه ، وهو قوله : (يضاعف له العذاب يوم القيامة) ، أي : يكرر عليه ويغلظ ، (ويخلد فيه مهانا) ، أي : حقيرا ذليلا .

وقوله : (إلا من تاب وآمن وعمل صالحا) ، أي : جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ماذكر (إلا من تاب) في الدنيا إلى الله من جميع ذلك ، فإن الله يتوب عليه .

وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل ، ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء : (ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ، وغضب الله عليه ولعنه ، وأعد له عذاباً عظيما) (٢) فإن هذه وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة ، فتحمل على من لم يتب ، لأن هذه مقيدة بالتوبة ، ثم قد قال تعالى : (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء).(٣)

وقد ثبتت السنة الصحيحة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصحة توبة القاتل ، كما ذكر مقررا من قصة الذي قتل مائة رجل ثم تاب ، وقبل منه(٤) ، وغير ذلك من الأحاديث .

وقوله : (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما) ، في معنى قوله : (يبدل الله سيئاتهم حسنات) قولان أحدهما : أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات ، قال علي بن أبي طلحة ،عن ابن عباس في قوله : (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) قال : هم المؤمنون ، كانوا من قبل إيمانهم على السيئات ، فرغب الله بهم عن [ذلك] فحولهم إلى الحسنات ، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات (٥) .

---

(١) تفسير الطبري : ٢٩/١٩ .
(٢) سورة النساء ، آية : ٩٣ .
(٣) سورة النساء ، آية : ٤٨ .
(٤) تقدم الحديث في سورة النساء : ٢ /٣٣٥ ، وخرجناه هنالك .
(٥) تفسير الطبري : ٢٩/١٩ .

وروى مجاهد ، عن ابن عباس أنه كان ينشد عند هذه الآية (١) :

بُدِّلْنَ بَعْدَ حَرِّهِ خَرِيفا • وَبَعْدَ طُولِ النَّفَسِ الوَجِيفا (٢)

يعني : تغيرت تلك الأحوال إلى غيرها :

وقال عطاء بن أبي رباح : هذا في الدنيا ، يكون الرجل على هيئة قبيحة ، ثم يبدله الله بها خيراً .

وقال سعيد بن جبير : أبدلهم بعبادة الأوثان عبادة الله ، وأبدلهم بقتال المسلمين قتالا مع المسلمين للمشركين ، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات)(٣)

وقال الحسن البصري : أبدلهم الله بالعمل السيء العمل الصالح ، وأبدلهم بالشرك إخلاصا ، وأبدلهم بالفجور إحصانا و[بالكفر] إسلاما :

وهذا قول أبي العالية ، وقتادة ، وجماعة آخرين .

والقول الثاني : أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات ، وماذاك إلا أنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر ، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار ، فيوم القيامة وإن وجده مكتوبا عليه لكنه لايضره وينقلب حسنة في صحيفته ، كما ثبتت السنة بذلك ، وصحت به الآثار المروية عن السلف رحمهم الله تعالى — و هذا سياق الحديث — قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن المعرور بن سويد ، عن أبي ذر — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار ، وآخر أهل الجنة دخولا إلى الجنة : يؤتى برجل فيقول : أنحوا كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها ، قال : فيقال له : عملت يوم كذا وكذا كذا ، وعملت يوم كذا وكذا كذا ؟ فيقول : نعم — لايستطيع أن ينكر من ذلك شيئا — فيقال : فإن لك بكل سيئة حسنة : فيقول : يارب ، عملت أشياء لا أراها هاهنا : قال : فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه(٤) : وانفرد به مسلم (٥) .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا هاشم بن يزيد ، حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثني أبي ، حدثني ضمضم ابن زرعة ، عن شُرَيح بن عبيد ، عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا نام ابن آدم قال الملك للشيطان : أعطني صحيفتك : فيعطيه إياها ، فما وجد في صحيفته من حسنة محا بها عشر سيئات من صحيفة الشيطان ، وكتبهن حسنات ، فإذا أراد أن ينام أحدكم فليكبر ثلاثاً وثلاثين تكبيرة ، ويحمد أربعا وثلاثين تحميدة ، ويسبح ثلاثاً وثلاثين تسبيحة ، فتلك مائة (٦) .

(١) البيت في تفسير الطبري : ١٩/٣٠ غير منسوب .
(٢) وجف القلب وجيفا : خفق .
(٣) تفسير الطبري : ١٩/٢٩ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٥/١٧٠ .
(٥) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « أدنى أهل الجنة منزلة فيها » : ١/١٢١ — ١٢٢ .
(٦) الأثر في الدر المنثور من الطبراني وحده : ٥/٨٠ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو سلمة وعارم قالا : حدثنا ثابت ـ يعني ابن يزيد أبو زيد(١) ـ حدثنا عاصم ، عن أبي عثمان ، عن سلمان قال : يعطى رجل يوم القيامة صحيفته فيقرأ أعلاها ، فإذا سيئاته ـ فإذا كاد يسوء ظنه نظر في أسفلها فإذا حسناته ، ثم ينظر في أعلاها فإذا هي قد بدلت حسنات (٢) .

وقال أيضا : حدثنا أبي ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا سليمان بن موسى الزهري أبو داود ، حدثنا أبو العنبس ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : ليأتين الله عز وجل بأناس يوم القيامة رأوا أنهم قد استكثروا من السيئات ، قيل : من هم ياأبا هريرة ؟ قال : الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات .

وقال أيضاً : حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن أبي زياد ، حدثنا سيّار ، حدثنا جعفر ، حدثنا أبو حمزة ، عن أبي الضيف ـ وكان من أصحاب معاذ بن جبل ـ قال : يدخل أهل الجنة الجنة على أربعة أصناف : المتقين ، ثم الشاكرين ثم الخائفين ، ثم أصحاب اليمين . قلت : لم سموا أصحاب اليمين ؟ قال : لأنهم عملوا الحسنات والسيئات فأعطوا كتبهم بأيمانهم ، فقرءوا سيئاتهم حرفا حرفا ـ قالوا : ياربنا ، هذه سيئاتنا ، فأين حسناتنا ؟ . فعند ذلك محا الله السيئات وجعلها حسنات ، فعند ذلك قالوا : (هاؤم اقرءوا كتابيه) ، فهم أكثر أهل الجنة .

وقال علي بن الحسين زين العابدين : (يبدل الله سيئاتهم حسنات) ، قال : في الآخرة .

وقال مكحول : يغفرها لهم فيجعلها حسنات . [رواهما ابن أبي حاتم ، وروى ابن جرير ، عن سعيد بن المسيب(٣) مثله] .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن الوزير الدمشقي ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا أبو جابر ، أنه سمع مكحولا يحدث قال : جاء شيخ كبير هرم قد سقط حاجباه على عينيه ، فقال : يارسول الله ، رجل غدر وفجر ، لم يدع حاجة ولا داجة(٤) إلا اقتطعها بيمينه ، لو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم(٥) ، فهل له من توبة ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أسلمت ؟ قال : أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فإن الله غافر لك ما كنت كذلك ، ومبدل سيئاتك حسنات . فقال : يارسول الله ، وغدَرَاتي وفجَرَاتي ؟ فقال : وغدَرَاتك وفجَرَاتك . فولّى الرجل يهلل ويكبر .

وروى الطبراني من حديث أبي المغيرة ، عن صفوان بن عمرو ، عن عبد الرحمن بن جبير ، عن أبي فروة ـ شَطْب(٦) ـ أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أرأيت رجلا عمل الذنوب كلها ، ولم يترك حاجة ولا داجة ،

---

(١) ثابت بن يزيد مترجم في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ١/١/٢٦٠ .
(٢) أخرجه السيوطي أيضاً في الدر المنثور عن عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم : ٥/٧٩ .
(٣) تفسير الطبري : ١٩/٣٠ .
(٤) الداجة : كلمة مؤكدة لحاجة .
(٥) أي : أهلكتهم .
(٦) كذا ، وشطب ـ كما في أسد الغابة ٢/٥٢٤ ـ يكنى أبا طويل . والأثر أيضاً في الدر المنثور ٥/٢٨ من البغوي وابن قانع ، والطبراني بإسنادهم إلى أبي طويل شطب الممدود .

فهل له من توبة ؟ فقال : أسلمت ؟ فقال : نعم ، قال : فافعل الخيرات ، واترك السيئات ، فيجعلها الله لك خيرات كلها . قال : وغَدَراتى وفَجَراتى ؟ قال : نعم : قال فما زال يكبّر حتى توارى(١) .

ورواه الطبرانى من طريق أبى فَروة الرهاوى ، عن ياسين الزيات ، عن أبى سلمة الحمصى ، عن يحيى بن جابر ، عن سلمة بن نفيل مرفوعاً .

وقال أيضاً : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا إبراهيم بن المنذر ، حدثنا عيسى بن شعيب بن ثوبان ، عن فليح الشماس ، عن عبيد (٢) بن أبى عبيد ، عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : جاءتنى امرأة فقالت : هل لى من توبة ؟ إنى زنيت وولدت وقتلته . فقلت : لا ، ولا نَعِمت(٣) العينُ ولا كرامة . فقامت وهى تدعو بالحسرة . ثم صليت مع النبى صلى الله عليه وسلم الصبح ، فقصصت عليه ما قالت المرأة وما قلت لها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بئسما قلت ! أما كنت تقرأ هذه الآية : (والذين لايدعون مع الله إلهاً آخر) إلى قوله : (إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيماً) فقرأتها عليها ، فخرت ساجدة وقالت : الحمد لله الذى جعل لى مخرجاً .

هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وفى رجاله من لا يُعرف والله أعلم . وقد رواه ابن جرير من حديث إبراهيم ابن المنذر الحِزامى بسنده بنحوه ، وعنده : فخرجت تدعو بالحسرة وتقول : ياحسرتا ! أخُلِق هذا الحسن للنار ؟ وعنده أنه لما رجع من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تَطلَّبها فى جميع دور المدينة فلم يجدها ، فلما كان من الليلة المقبلة جاءته ، فأخبرها بما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرت ساجدة وقالت : الحمد لله الذى جعل لى مخرجاً وتوبة مما عملت . وأعتقت جارية كانت معها وابنتها(٤) ، وتابت إلى الله عز وجل(٥) .

ثم قال تعالى مخبراً عن عموم رحمته بعباده ، وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أى ذنب كان ، جليل أو حقير ، كبير أو صغير ، فقال : (ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً) ، أى : فإن الله يقبل توبته ، كما قال تعالى : (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما(٦)) ، وقال : (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ، وأن الله هو التواب الرحيم(٧)) ، وقال : (قل : ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم(٨)) ، أى : لمن تاب إليه .

---

(١) أخرجه ابن الأثير فى أسد الغابة عن أبى بكر بن أبى عاصم بإسناده عن أبى طويل شطب الممدود : ٢/٥٢٥ .

(٢) فى المخطوطة : «عن فليح بن عبيد بن أبى عبيد الشماس ، عن أبيه» . والمثبت من تفسير الطبرى ، وانظر ترجمة فليح الشماس فى الجرح : ٣/٢/٨٥ ، وترجمة عبيد فى الجرح أيضاً : ٢/٢/٤١١ .

(٣) ومعنى « لا نعمت العين » : لا سرت العين ولا قرت .

(٤) فى تفسير الطبرى : « وابنها » .

(٥) تفسير الطبرى : ١٩/٢٧ — ٢٨ .

(٦) سورة النساء ، آية : ١١٠ .

(٧) سورة التوبة ، آية : ١٠٤ .

(٨) سورة الزمر ، آية : ٥٣ .

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾

وهذه أيضاً من صفات عباد الرحمن ، أنهم : (لا يشهدون الزور) ، قيل : هو الشرك وعبادة الأصنام . وقيل : الكذب، والفسق، واللغو، والباطل .

وقال محمد بن الحنفية : اللهو والغناء .

وقال أبو العالية ، وطاوس ، ومحمد بن سيرين ، والضحاك ، والربيع بن أنس ، وغيرهم : هي أعياد المشركين .

وقال عمرو بن قيس : هي مجالس السوء والخنا(١) .

وقال مالك ، عن الزهري : [شرب الخمر](٢) لا يحضرونه ولا يرغبون فيه ، كما جاء في الحديث : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر »(٣).

وقيل : المراد بقوله تعالى : (لا يشهدون الزور) ، أي : شهادة الزور ، وهي الكذب متعمداً على غيره ، كما في الصحيحين عن أبي بكرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ثلاثا ، قلنا : بلى ، يا رسول الله . قال : الشرك بالله وعقوق الوالدين . وكان متكئاً فجلس ، فقال : ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور . فما زال يكررها ، حتى قلنا : ليته سكت (٤) .

والأظهر من السياق أن المراد : لا يشهدون الزور ، أي : لا يحضرونه ، ولهذا قال : (وإذا مروا باللغو مروا كراماً) ، أي : لا يحضرون الزور ، وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشيء ، ولهذا قال : (مروا كراماً) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو الحسين العجلي ، عن محمد بن مسلم ، أخبرني إبراهيم ابن ميسرة ، أن ابن مسعود مر بلهو معرضاً (٥) فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «لقد أصبح ابن مسعود ، وأمسى كريماً» .

[وحدثنا الحسن(٦) بن محمد بن سلمة النحوي ، حدثنا حبان ، أنا عبد الله ، أنا محمد بن مسلم ، أخبرني ميسرة قال : بلغني أن ابن مسعود مر بلهو معرضاً فلم يقف ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً» ، ثم تلا إبراهيم بن ميسرة : (وإذا مروا باللغو مروا كراماً)].

---

(١) الخنا : الفحش في القول .

(٢) ما بين القوسين من الطبعات السابقة . ومكانه في المخطوطة : « المعاصي » .

(٣) سنن الدارمي ، كتاب الأشربة ، باب « النهي عن القعود على مائدة يدار عليها الخمر » ، الحديث ٢٠٩٨ : ٢ / ٣٧ .

(٤) تقدم الحديث في سورة النساء ، عند تفسير الآية الحادية والثلاثين : ٢ / ٢٤٠ ، وخرجناه هنالك .

(٥) في المخطوطة : « معرضة » .

(٦) ما بين القوسين المعقوفين من الطبعات السابقة ، وقد كان فيها : « الحسين بن محمد » ، والصواب من الجرح لابن أبي حاتم : ١ / ٢ / ٣٦ .

وقوله : (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعمياناً) — هذه من صفات المؤمنين — (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون(١))، بخلاف الكافر، فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ولا يُقْصِر(٢) عما كان عليه ، بل يبقى مستمراً على كفره وطغيانه وجهله وضلاله ، كما قال تعالى : (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول : أيكم زادته هذه إيماناً ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون • وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم) (٣) .

فقوله : (لم يخروا عليها صما وعمياناً) ، أى : بخلاف الكافر الذى ذكر بآيات ربه ، فاستمر على حاله ، كأن لم يسمعها أصم أعمى .

قال مجاهد : قوله : (لم يخروا عليها صما وعمياناً) : لم يسمعوا ولم يبصروا ، ولم يفقهوا شيئاً .

وقال الحسن البصرى : كم من رجل يقرؤها ويخر عليها أصم أعمى .

وقال قتادة : قوله تعالى : (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعمياناً) ، يقول : لم يصموا عن الحق ولم يعموا فيه ، فهم — والله — قوم عقلوا عن الله وانتفعوا بما سمعوا من كتابه .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أسيد بن عاصم ، حدثنا عبد الله بن حُمْران ، حدثنا ابن عون قال : سألت الشعبى قلت : الرجل يرى القوم سجودا ولم يسمع ما سجدوا ، أيسجد معهم ؟ قال : فتلا هذه الآية : (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم ، لم يخروا عليها صما وعميانا)، يعنى : أنه لا يسجد معهم لأنه لم يتدبر آية السجدة فلا ينبغى للمؤمن أن يكون إمعة ، بل يكون على بصيرة من أمره ، ويقين واضح بيِّن .

وقوله : (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين) ، يعنى الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم وذرياتهم مَن يطيعه ويعبده وحده لا شريك له .

قال ابن عباس : يعنون من يعمل بالطاعة ، فتقرُّ به أعينهم فى الدنيا والآخرة .

وقال عكرمة : لم يريدوا بذلك صَباحة ولا جمالا ، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين .

وقال الحسن البصرى — وسئل عن هذه الآية — فقال أن يُرِىَ اللهُ العبدَ المسلم من زوجته ، ومن أخيه ، ومن حميمه طاعة الله : لا والله ما شىء أقر لعين المسلم من أن يرى ولدا ، أو ولد ولد ، أو أخا ، أو حميماً مطيعاً لله عز وجل .

وقال ابن جريج فى قوله : (هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين) ، قال : يعبدونك ويحسنون عبادتك ، ولا يجرون علينا الجرائر .

---

(١) سورة الأنفال ، آية : ٢ .

(٢) أى : يكف عنه .

(٣) سورة التوبة ، آية : ١٢٤ ، ١٢٥ .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى يسألون الله لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يعمر(١) بن بشر ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، أخبرنا صفوان بن عمرو ، حدثنى عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، عن أبيه قال : جلسنا إلى المقداد بن الأسود [يوماً] ، فمر به رجل فقال : طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله صلى الله عليه وسلم ! لوددنا أنا رأينا ما رأيت ، وشهدنا ما شهدت . فاستغضب ، فجعلت أعجبُ ، ما قال إلا خيراً ! ثم أقبل إليه فقال : ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضراً غيّبه الله عنه ، لا يدرى لو شهده كيف كان يكون فيه ؟ والله لقد حضر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أقوام أكبّهم الله على مناخرهم فى جهنم ، لم يجيبوه ولم [يصدقوه] ، أو لا تحمدون الله إذ أخرجكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين لما جاء به نبيكم ، قد كُفيتم البلاء بغيركم ؟ لقد بعث الله النبى صلى الله عليه وسلم على أشد(٢) حال بعث عليها نبياً من الأنبياء فى فترة من جاهلية ، ما يرون أن ديناً أفضل من عبادة الأوثان . فجاء بفُرقان فَرّقَ به بين الحق والباطل ، وفَرّقَ بين الوالد وولده ، [حتى] إن كان الرجل ليرى والده وولده ، أو أخاه كافراً ، وقد فتح الله [قُفْل] قلبه للإيمان ، يعلم أنه إن هلك دخل النار ، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه فى النار ، وإنها التى قال الله تعالى : (والذين يقولون : ربنا ، هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قُرة أعين (٣)) . وهذا إسناد صحيح ، ولم يخرجوه .

وقوله : (واجعلنا للمتقين إماماً) ، قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والسدى ، والربيع بن أنس : أئمة يقتدى بنا فى الخير .

وقال غيرهم : هداة مهتدين إلى الخير ، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم ، وأن يكون هداهم متعدياً إلى غيرهم بالنفع ، وذلك أكثر ثواباً ، وأحسن مآباً ولهذا ورد فى صحيح مسلم عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له ، أو علم ينتفع به من بعده ، أو صدقة جارية(٤) .

أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾
قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ماذكر من الصفات الجميلة ، والأفعال والأقوال الجليلة ــ قال بعد ذلك كله : (أولئك) ، أى : المتصفون بهذه (يجزون) ، أى : يوم القيامة (الغُرْفة) ، وهى الجنة .

قال أبو جعفر الباقر ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، والسدى : سميت بذلك لارتفاعها .

---

(١) فى المخطوطة : «معمر بن بشر» . وصوابه من المسند ، والجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٤/٢/٣١٣ .
(٢) فى المخطوطة : «أشرحال» . والمثبت من المسند .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٦/٢ ــ ٣ .
(٤) مسلم «كتاب الوصية» باب «ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته» : ٥/٧٣ .

(بما صبروا) ، أى : على القيام بذلك ، (ويُلَقَّوْن فيها) ، أى : فى الجنة (تحية وسلاما) ، أى : يُبْتَدَرُون فيها بالتحية والإكرام . ويلقّون التوقير والاحترام ، فلهم السلام وعليهم السلام ، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار .

وقوله : (خالدين فيها) ، أى : مقيمين ، لا يظعنون ولا يَتَحَوَّلون ، [ولا يموتون] ، ولا يزولون عنها ولا يبغون عنها حولا ، كما قال تعالى : (وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك ، عطاء غير مجذوذ (١)) .

وقوله (حسنت مستقراً ومقاما) ، أى : حسنت منظرا وطابت مَقيلا ومنزلا .

ثم قال تعالى : (قل ما يعبأ بكم ربى) ، أى : لا يبالى ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه ؛ فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلا .

وقال مجاهد ، وعمرو بن شعيب : (مايعبأ بكم ربى) ، يقول : ما يفعل بكم ربى (٢) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : (قل مايعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم) يقول : لولا إيمانكم ، وأخبر الله الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين ، ولو كان له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببه إلى المؤمنين .

وقوله : (فقد كذبتم) ، أى : أيها الكافرون ، (فسوف يكون لزاماً) ، أى : فسوف يكون تكذيبكم لزاماً لكم ، يعنى مقتضيا لهلاككم وعذابكم ودماركم فى الدنيا والآخرة ، ويدخل فى ذلك يوم بدر ، كما فسره بذلك عبد الله بن مسعود ، وأبى بن كعب ، ومحمد بن كعب القرظى ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، والسدى ، وغيرهم .

وقال الحسن البصرى : (فسوف يكون لزاماً) ، يعنى : يوم القيامة . ولا منافاة بينهما . والله أعلم .

---

(١) سورة هود ، آية : ١٠٨ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٩/٧٠ .

تفسير سورة الشعراء

﴿ وهى مكية ﴾

(ووقع فى تفسير مالك المروىّ عنه تسميتها : سورة الجامعة)

بسم الله الرحمن الرحيم

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ
عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ
مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا
مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور ، فقد تكلمنا عليه فى أول تفسير سورة البقرة (١) ؛

وقوله (تلك آيات الكتاب المبين) ، أى : هذه آيات القرآن المبين ، أى : البين الواضح ، الذى يفصل بين الحق والباطل ، والغى والرشاد ؛

وقوله (لعلك باخع) ، أى : مهلك (نفسك) ، أى : مما تحرص وتحزن عليهم ؛ (ألا يكونوا مؤمنين) : وهذه تسلية من الله لرسوله — صلوات الله وسلامه عليه — فى عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار ، كما قال تعالى : (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) (٢) ، وقال : (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) (٣) .

قال مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، وعطية ، والضحاك ، (لعلك باخع نفسك) ، أى : قاتل نفسك . قال الشاعر (٤) :

أَلاَ أيّهذا الباخعُ الحُزنُ نفسَه • لشيء نحتْهُ عنْ يديه المقادرُ

ثم قال الله تعالى : (إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية ، فظلت أعناقهم لها خاضعين) ، أى : لو شئنا لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهرا ، ولكنا لا نفعل ذلك ؛ لأنا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختيارى ؛ وقال تعالى : (ولو شاء

(١) انظر : ١/٥٦ — ٦٠ .
(٢) سورة فاطر ، آية : ٨ .
(٣) سورة الكهف ، آية : ٦ .
(٤) هو ذو الرمة . والبيت فى تفسير الطبرى : ١٩/٣٧ .

ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين (١)) ، وقال : (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين : إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم)(٢) ، فنفذ قدَرُه ، ومضت حكمته ، وقامت حجته البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم ، وإنزال الكتب عليهم .

ثم قال : (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين) ، أى : كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس ، كما قال : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين (٣)) ، وقال : (يا حسرةً على العباد ، ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون (٤)) ، وقال : (ثم أرسلنا رسلنا تترى، كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا ، وجعلناهم أحاديث ، فبعداً لقوم لا يؤمنون (٥)) ولهذا قال تعالى هاهنا : (فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون) ، أى : فقد كذبوا بما جاءهم من الحق ، فسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حين ، (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) .

ثم نبه تعالى على عظمته فى سلطانه وجلالة قدره وشأنه ، الذين اجترءوا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه ، وهو القاهر العظيم القادر ، الذى خلق الأرض وأنبت فيها من كل زوج كريم ، من زروع وثمار وحيوان .

قال سفيان الثورى ، عن رجل ، عن الشعبى : الناس من نبات الأرض ، فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لئيم .

(إن فى ذلك لآية) ، أى : دلالة على قدرة الخالق للأشياء ، الذى بسط الأرض ورفع بناء السماء ، ومع هذا ما آمن أكثر الناس ، بل كذبوا به وبرسله وكتبه ، وخالفوا أمره وارتكبوا زواجره .

وقوله : (وإن ربك لهو العزيز) ، أى : الذى عزّ كلَّ شىء وقهره وغلبه ، (الرحيم) ، أى : بخلقه ، فلا يعجل على من عصاه بل ينظره ويؤجله ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر .

قال أبو العالية ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، وابن إسحاق : العزيز فى نقمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره .

وقال سعيد بن جبير : الرحيم بمن تاب إليه وأناب .

---

(١) سورة يونس ، آية : ٩٩ .

(٢) سورة هود ، آية : ١١٨ ، ١١٩ .

(٣) سورة يوسف ، آية : ١٠٣ .

(٤) سورة « يس » ، آية : ٣٠ .

(٥) سورة « المؤمنون » ، آية : ٤٤ .

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾.

يقول تعالى مخبراً عما أمر به عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ حين ناداه من جانب الطور الأيمن ، وكلمه وناجاه ، وأرسله واصطفاه ، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه ، ولهذا قال : (أن ائت القومَ الظالمين قوم فرعون ألا يتقون . قال: رب إنى أخاف أن يكذبون . ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هارون . ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون) : هذه أعذار سأل من الله إزاحتها عنه ، كما قال فى سورة طه : (قال : رب ، اشرح لى صدرى . ويسرلى أمرى.واحلل عقدة من لسانى . يفقهوا قولى .واجعل‌لى وزيرا من أهلى . هارون أخى . اشدد به أزرى . وأشركه فى أمرى . كى نسبحك كثيرا . ونذكرك كثيرا . إنك كنت بنا بصيرا . قال: قد اوتيت سؤلك يا موسى (١)) .

وقوله : (ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون)، أى : بسبب ما كان قتل ذلك القبطى الذى كان سبب خروجه من بلاد مصر : (قال : كلا) ، أى : قال الله له : لا تخف من شىء من ذلك كما قال : (سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا) ، أى : برهانا (فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون (٢)) .

(فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون) ، كما قال تعالى : (إننى معكما أسمع وأرى (٣)) ، أى : إننى معكما بحفظى وكلاءتى ونصرى وتأييدى .

(فائتيا فرعون فقولا : إنا رسول رب العالمين) ، وقال فى الآية الأخرى : (إنا رسولا ربك) ، أى : كل منا رسول الله إليك ، (أن أرسل معنا بنى إسرائيل) ، أى : أطلقهم من إسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك ، فإنهم عباد الله المؤمنون ، وحزبه المخلصون ، وهم معك فى العذاب المهين. فلما قال‌له موسى ذلك أعرض فرعون عما هنالك بالكلية ، ونظر بعين الازدراء والغمص فقال : (ألم نربك فينا وليداً ، ولبثت فينا من عمرك سنين) ، [أى : أما أنت الذى ربيناه فينا] ، وفى بيتنا وعلى فراشنا (٤) ، وأنعمنا عليه مدة من السنين ، ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة ،

---

(١) سورة طه ، الآيات : ٢٥ - ٣٦ .

(٢) سورة القصص ، آية : ٣٥.

(٣) سورة طه ، آية : ٤٦ .

(٤) بعد كلمة « فراشنا » فى المخطوطة كلمة لم نتبينها ، وهى : « وهوما » .

أن قتلت منا رجلا ، وجحدت نعمتنا عليك . ولهذا قال : (وأنت من الكافرين) ، أى : الجاحدين : قاله ابن عباس ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، واختاره ابن جرير (١) :

(قال : فعلتها إذاً) ، أى : فى تلك الحال ، (وأنا من الضالين) أى : قبل أن يُوحَى إلىّ وينعم الله على بالرسالة والنبوة .

قال ابن عباس — رضى الله عنهما — ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك، وغيرهم : (وأنا من الضالين) ، أى : الجاهلين .

قال ابن جريج : وهى كذلك فى قراءة عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه (١) :

(ففررت منكم لما خفتكم ، فوهب لى ربى حكما ، وجعلنى من المرسلين) أى : الحال الأول انفصل وجاء أمر آخر ، فقد أرسلنى الله إليك ، فإن أطعته سلمت ، وإن خالفته عطبت .

ثم قال موسى : (وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل) ، أى : وما أحسنت إلى وربيتنى مقابل ما أسأت إلى بنى إسرائيل ، فجعلتهم عبيدا وخدما ، تصرفهم فى أعمالك ومشاق رعيتك ، أفيكفى إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم ؟. أى : ليس ما ذكرته شيئاً بالنسبة إلى ما فعلت بهم (٢) :

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى مخبرا عن كفر فرعون ، وتمرده وطغيانه وجحوده ، فى قوله : (وما رب العالمين ؟) وذلك أنه كان يقول لقومه : (ما علمت لكم من إله غيرى (٣))، (فاستخف قومه فأطاعوه (٤)) ، وكانوا يجحدون الصانع — تعالى — ويعتقدون أنه لارب لهم سوى فرعون . فلما قال له موسى : (إنى رسول رب العالمين) ، قال له : ومن هذا الذى تزعم أنه رب العالمين غيرى؟ هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف ، حتى قال السدى : هذه الآية كقوله تعالى : (قال : فمن ربكما يا موسى . قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) :

---

(١) تفسير الطبرى : ١٩/٤٢ .

(٢) قال الطبرى فى تفسير هذه الآية ١٩/٤٢ — ٤٣ : «وتربيتك إياى وتركك استعبادى كما استعبدت بنى إسرائيل ، نعمة منك تمنها على بحق ؟! وفى الكلام محذوف ، استغنى بدلالة ما ذكر عليه عنه ، وهو : (وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل) وتركتنى ، فلم تستعبدنى . فترك ذكر «وتركتنى» ، لدلالة قوله : (أن عبدت بنى إسرائيل) عليه . والعرب تفعل ذلك اختصاراً» .

(٣) سورة القصص ، آية : ٣٨ .

(٤) سورة الزخرف ، آية : ٥٤ .

ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم : أن هذا سؤال عن الماهية ، فقد غلط ؛ فإنه لم يكن مقرا بالصانع حتى يسأل عن الماهية ، بل كان جاحدا له بالكلية فيما يظهر ، وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه ، فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين : (قال : رب السموات والأرض وما بينهما) ، أى : خالق جميع ذلك ومالكه ، والمتصرف فيه وإلهه ، لا شريك له ، هو الله الذى خلق الأشياء كلها ، العالم العلوى وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيرات ، والعالم السفلى وما فيه من بحار وقفار ، وجبال وأشجار ، وحيوان ونبات وثمار ، وما بين ذلك من الهواء والطيور ، وما يحتوى عليه الجو ، الجميع عبيد له خاضعون ذليلون .

(إن كنتم موقنين) ، أى : إن كانت لكم قلوب موقنة ، وأبصار نافذة . فعند ذلك التفت فرعون إلى من حوله من ملئه ورؤساء دولته قائلا لهم ، على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله : (ألا تستمعون ؟) ، أى : ألا تعجبون مما يقول هذا فى زعمه : أن لكم إلها غيرى ؟ فقال لهم موسى : (ربكم ورب آبائكم الأولين) ، أى : خالقكم وخالق آبائكم الأولين ، الذين كانوا قبل فرعون وزمانه . (قال) ، أى : فرعون لقومه : (إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) ، أى : ليس له عقل فى دعواه أن ثمّ ربا غيرى . (قال) ، أى : موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبهة ، فأجاب موسى بقوله : (رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) ، أى : هو الذى جعل المشرق مشرقا تطلع منه الكواكب ، والمغرب مغربا تغرب فيه الكواكب ، ثوابتها وسياراتها ، مع هذا النظام الذى سخّرها فيه وقدّرها ، فإن كان هذا الذى يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقا فليعكس الأمر ، وليجعل المشرق مغربا ، والمغرب مشرقا ، كما أخبر تعالى عن (الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ، إذ قال إبراهيم : ربى الذى يحيى ويميت ، قال : أنا أحيى وأميت ، قال إبراهيم : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين (١)) . ولهذا لما غُلب فرعون وانقطعت حجته ، عدل إلى استعمال جاهه وقوته وسلطانه ، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ فى موسى عليه السلام ، فقال ما أخبر الله تعالى عنه :

قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾

لما قامت على فرعون الحجة بالبيان والعقل ، عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه ، وظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال(٢) ، فقال : (لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين) . فعند ذلك قال موسى : (أولو جئتك بشىء مبين ؟) ، أى : ببرهان قاطع واضح ، (قال : فأت به إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هى ثعبان

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٥٨ .

(٢) فى المخطوطة : «وراء هذا المقام مقام» . والمثبت من الطبعات السابقة .

مبين) ، أي : ظاهر واضح فى غاية الجلاء والوضوح والعظمة ، ذات قوائم(١) وفم كبير ، وشكل هائل مزعج ، (ونزع يده) ، أى : من جيبه ، (فإذا هى بيضاء للناظرين) ، أى : تتلألأ كقطعة من القمر : فبادر فرعون بشقائه إلى التكذيب والعناد ، فقال للملأ حوله : (إن هذا لساحر عليم) ، أى : فاضل بارع فى السحر : فروّج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة ، ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته ، والكفر به : فقال : (يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون) ، أى : ؟[أراد أن] يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا ، فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه ويغلبكم على دولتكم ، فيأخذ البلاد منكم ، فأشيروا على فيه ماذا أصنع به ؟ (قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل سحار عليم) ، [أى : أخره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحار عليم] يقابلونه ، ويأتون بنظير ما جاء به ، فتغلبه أنت وتكون لك النصرة والتأييد : فأجابهم إلى ذلك : وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم فى ذلك ، ليجتمع الناس فى صعيد واحد ، ولتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس فى النهار جهرة :

فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿٤٨﴾

ذكر تعالى هذه المناظرة الفعلية(٢) بين موسى والقبط فى « سورة الأعراف » وفى « سورة طه » ، وفى هذه السورة : وذلك أن القبط أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون : وهذا شأن الكفر والإيمان ، ما تواجها وتقابلا إلا غلبه الإيمان ، (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون (٣)) ، (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا (٤)) : ولهذا لما جاء السحرة ، وقد جمعوهم من أقاليم بلاد مصر ، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس وأصنعهم وأشدهم تخييلا فى ذلك ، وكان السحرة جمعاً كثيراً ؟ وجما غفيراً ، قيل: كانوا اثنى عشر ألفاً . وقيل : خمسة عشر ألفا : وقيل : سبعة عشر ألفاً [وقيل : تسعة عشر ألفاً : وقيل : بضعة وثلاثين ألفاً] وقيل : ثمانين ألفاً : وقيل غير ذلك ، والله أعلم بعدتهم :

---

(١) كذا ، ولا ندرى ما ذا يقصد بالقوائم ، وهو ثعبان ؟

(٢) فى المخطوطة : « المناظرة العقلية » ، والمثبت من الطبعات السابقة .

(٣) سورة الأنبياء آية : ١٨ .

(٤) سورة الإسراء ، آية : ٨١ .

قال ابن إسحاق : وكان أمرهم راجعاً إلى أربعة منهم وهم رؤساؤهم : وهم : ساتور وعازور وحطحط ويصفى(١) .

واجتهد الناس فى الاجتماع ذلك اليوم ، وقال قائلهم : (لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين) ، ولم يقولوا : نتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى ، بل الرعية على دين ملكهم . (فلما جاء السحرة) ، أى : إلى مجلس فرعون وقد ضرب له وطاقاً(٢) ، وجمع حشمه وخدمه ووزراءه ورؤساء دولته وجنود مملكته . فقام السحرة بين يدي فرعون ، يطلبون منه الإحسان إليهم والتقرب إليه إن غلبوا ، أى هذا الذى جمعتنا من أجله ، فقالوا : (أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين . قال : نعم ، وإنكم إذا لمن المقربين) ، أى : وأخص مما تطلبون أجعلكم من المقربين عندي وجلسائي. فعادوا إلى مقام المناظرة ، (قالوا: ياموسى ، إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى . قال: بل ألقوا (٣)) ، وقد اختصر هذا هاهنا . فقال لهم موسى: (ألقوا ما أنتم ملقون . فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون) ، وهذا كما يقوله الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئاً : هذا بثواب فلان . وقد ذكر الله فى « سورة الأعراف » : أنهم (سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم (٤)) ، وقال فى « سورة طه » : (فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس فى نفسه خيفة موسى . قلنا : لا تخف ، إنك أنت الأعلى . وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا ، إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى (٥)) . وقال هاهنا : (فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون) ، أى : تختطفه وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه فلم تدع منه شيئا ، قال تعالى : (فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين . وألقى السحرة ساجدين . قالوا : آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون (٦)) . وكان هذا أمرا عظيما جداً ، وبرهاناً قاطعاً للعذر وحجة دامغة ، وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا ، قد غلبوا وخضعوا وآمنوا بموسى فى الساعة الراهنة ، وسجدوا لله رب العالمين ، الذى أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة ، فغُلب فرعون غلبا لم يشاهد العالم مثله ، وكان وقحاً جريئاً عليه لعنة الله ، فعدل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل ، فشرع يتهددهم ويتوعدهم ، ويقول : (إنه لكبيركم الذى علمكم السحر(٧)) . وقال : (إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها ، فسوف تعلمون (٨)) .

---

(١) كذا وردت أسماؤهم فى مخطوطة الأزهر ، ولم يقع لنا أثر ابن إسحاق .

(٢) كذا ، ولا ندرى ما المقصود بالوطاق ، ولعله من عامية أهل الشام .

(٣) سورة طه ، آية : ٦٥ ، ٦٦ .

(٤) سورة الأعراف ، آية : ١١٦ .

(٥) سورة طه ، الآيات : ٦٦ — ٦٩

(٦) سورة الأعراف ، الآيات : ١١٨ — ١٢٢ .

(٧) سورة طه ، آية : ٧١ .

(٨) سورة الأعراف ، آية : ١٢٣ .

قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

تهددهم فلم يقطع ذلك فيهم ، وتوعدهم فما زادهم إلا إيماناً وتسليما . وذلك أنه قد كشف عن قلوبهم حجاب الكفر ، وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهل قومهم ، من أن هذا الذى جاء به موسى لا يصدر عن بشر ، إلا أن يكون الله قد أيده به ، وجعله له حجة ودلالة على صدق ما جاء به من ربه . ولهذا لما قال لهم فرعون : (آمنتم له قبل أن آذن لكم) ؟ أى : كان ينبغى أن تستأذنونى فيما فعلتم ، ولا تفتاتوا على فى ذلك ، فإن أذنت لكم فعلتم ، وإن منعتكم امتنعتم ، فإنى أنا الحاكم المطاع ؛ (إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) . وهذه مكابرة يعلم كل أحد بُطلانها ، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم ، فكيف يكون كبيرهم الذى أفادهم صناعة السحر ؟ هذا لا يقوله عاقل .

ثم توعدهم فرعون بقطع الأيدى والأرجل والصلب ، فقالوا : (لاضير) ، أى : لا حرج ولا يضرنا ذلك ولا نبالى به (إنا إلى ربنا منقلبون) ، أى : المرجع إلى الله ، وهو لايضيع أجر من أحسن عملا ، ولا يخفى عليه مافعلت بنا ، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء . ولهذا قالوا : (إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا) ، أى : ما قارفناه من الذنوب ، وما أكرهتنا عليه من السحر ، (أن كنا أول المؤمنين) ، أى : بسبب أنا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان . فقتلهم كلهم .

* وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾

لما طال مُقام موسى عليه السلام ببلاد مصر ، وأقام بها حُجَج الله وبراهينه على فرعون وملئه ، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون ، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال ، فأمر الله موسى عليه السلام أن يخرج ببنى إسرائيل ليلا من مصر ، وأن يمضى بهم حيث يُؤمَر ، ففعل موسى عليه السلام ما أمره به ربه عز وجل : خرج بهم بعد ما استعاروا من قوم فرعون حلياً كثيراً ، وكان خروجه بهم ، فيما ذكر غير واحد من المفسرين ، وقت طلوع القمر . وذكر مجاهد رحمه الله أنه كُسف القمر تلك الليلة ، فالله أعلم ، وأن موسى عليه السلام سأل عن قبر يوسف عليه السلام ، فدلته امرأة عجوز من بنى إسرائيل عليه ، فاحتمل تابوته معهم ، ويقال : إنه هو الذى حمله بنفسه عليهما السلام ، وكان يوسف قد أوصى بذلك إذا خرج بنو إسرائيل أن يحملوه معهم ، وقد ورد فى ذلك حديث رواه ابن أبى حاتم ، رحمه الله فقال :

حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا عبدالله بن عمر [ابن محمد](١) بن أبان بن صالح ، حدثنا ابن فضل ، عن عبد الله ابن أبي إسحاق ، عن ابن أبي بردة ، [عن أبيه] ، عن أبي موسى قال : نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعرابي فأكرمه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : تعاهدنا . فأتاه الأعرابي فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما حاجتك ؟ قال : ناقة برحلها وأعنز يحتلبها أهلي ، فقال : أعجزت أن تكون مثل عجوز بني إسرائيل ؟ فقال له أصحابه : وما عجوز بني إسرائيل يارسول الله ؟ قال : إن موسى لما أراد أن يسير ببني إسرائيل أضل الطريق ، فقال لبني إسرائيل : ما هذا ؟ فقال له علماء بني إسرائيل : نحن نحدثك أن يوسف عليه السلام لما حضره الموت أخذ علينا موثقاً من الله أن لانخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا ، فقال لهم موسى : فأيكم يدرى أين قبر يوسف ؟ قالوا : ما يعلمه إلا عجوز لبني إسرائيل ، فأرسل إليها فقال لها : دليني على قبر يوسف . فقالت : والله لا أفعل حتى تعطيني حكمي ، قال لها : وما حكمك ؟ قالت : حكمي أن أكون معك في الجنة . فكأنه ثقل عليه ذلك، فقيل له : اعطها حكمها . قال : فانطلقت معهم إلى بحيرة — مستنقع ماء — فقالت لهم : أنضبوا(٢) هذا الماء. فلما أنضبوه قالت : احتفروا ، فلما احتفروا استخرجوا قبر يوسف ، فلما احتملوه إذا الطريق مثل ضوء النهار

هذا حديث غريب جداً ، والأقرب أنه موقوف ، والله أعلم .

فلما أصبحوا وليس في ناديهم داع ولا مجيب ، غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بني إسرائيل ، لما يريد الله به من الدمار ، فأرسل سريعاً في بلاده حاشرين ، أي : من يحشُر الجندَ ويجمعه ، كالنقباء والحُجاب ، ونادى فيهم : (إن هؤلاء) — يعني : بني إسرائيل — (لشرذمة قليلون) ، أي : لطائفة قليلة ، (وإنهم لنا لغائظون) ، أي : كل وقت يصل لنا منهم ما يغيظنا ، (وإنا لجميع حاذرون) ، أي : نحن كل وقت نحذر من غائلتهم وإني أريد أن أستأصل شأفتهم ، وأبيد خضْراءهم ، فجوزي في نفسه وجنده بما أراد لهم ، قال الله تعالى : (فأخرجناهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم) ، أي : فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم ، وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق والملك والجاه الوافر في الدنيا ، (كذلك وأورثناها بني إسرائيل) ، كما قال تعالى : (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون(٣)) ، وقال تعالى : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون (٤)) .

---

(١) ما بين القوسين عن ترجمته في الجرح والتعديل : ٣/٢/١١٠ .

(٢) يقال : نضب الماء — من باب قعد — : إذا ذهب في الأرض . ولم نجد منه فعلا متعديا بهذا المعنى .

(٣) سورة الأعراف ، آية : ١٣٧ .

(٤) سورة القصص ، آية : ٥ ، ٦ .

فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾
فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ
ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

ذكر غير واحد من المفسرين : أن فرعون خرج فى جحفل عظيم وجمع كبير ، هو عبارة عن مملكة الديار المصرية فى زمانه ، أولى الحَل والعقد والدول(١) ، من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود ، فأما ما ذكره غير واحد من الإسرائيليات ، من أنه خرج فى ألف ألف وستمائة ألف فارس ، منها مائة ألف على خيل دُهْم ، وقال كعب الأحبار : فيهم ثمانمائة ألف حصان أدهم — ففى ذلك نظر . والظاهر أنه من مجازفات بنى إسرائيل ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، والذى أخبر به هو النافع ، ولم يعين عدتهم ؛ إذ لا فائدة تحته ، إلا أنهم خرجوا بأجمعهم .

(فأتبعوهم مشرقين) ، أى : وصلوا إليهم عند شروق الشمس ، وهو طلوعها . (فلما تراءى الجمعان) ، أى : رأى كل من الفريقين صاحبه ، فعند ذلك (قال أصحاب موسى : إنا لمدركون) ، وذلك أنه انتهى بهم السير إلى سيف (٢) البحر ، وهو بحر القلزم ، فصار أمامهم البحر ، وفرعون قد أدركهم بجنوده ، فلهذا قالوا : (إنا لمدركون . قال : كلا ، إن معى ربى سيهدين) ، أى : لا يصل إليكم شىء مما تحذرون ؛ فإن الله سبحانه هو الذى أمرنى أن أسير هاهنا بكم ، وهو لا يخلف الميعاد .

وكان هارون عليه السلام فى المقدمة ، ومعه يوشع بن نُون ، [ومؤمن آل فرعون وموسى عليه السلام فى الساقة وقد ذكر غير واحد من المفسرين : أنهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون ، وجعل يوشع بن نون] ، أو مؤمن آل فرعون يقول لموسى عليه السلام : يانبى الله ، هاهنا أمرك الله أن تسير ؟ فيقول : نعم ، واقترب فرعون وجنوده ، ولم يبق إلا القليل . فعند ذلك أمر الله نبيه موسى أن يضرب بعصاه البحر ، فضربه وقال : انفلق بإذن الله .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان بن صالح ، حدثنا الوليد ، حدثنا محمد بن حمزة [بن محمد] (٣) ابن يوسف بن عبد الله بن سلام : أن موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر قال : يامن كان قبل كل شىء ، والمكوِّن لكل شىء ، والكائن بعد كل شىء ، اجعل لنا مخرجاً . فأوحى الله إليه : (أن اضرب بعصاك البحر) .

---

(١) كذا : « والدول » . ولعله يعنى الذين يتداولون الأمر ، ويستشارون فيه .

(٢) سيف البحر : شاطئه .

(٣) فى المخطوطة : « حدثنا محمد بن حمزة بن يوسف، عن عبد الله بن سلام » . والمثبت من ترجمته فى الجرح لابن أبى حاتم : ٣/٢/٢٣٦ . وانظر الدر المنثور : ٥/٨٦ .

وقال قتادة : أوحى الله تلك الليلة إلى البحر : أن إذا ضربك موسى بعصاه فاسمع له وأطع ، فبات البحر تلك الليلة وله(١) اضطراب ، ولا يدرى من أىّ جانب(٢) يضربه موسى ، فلما انتهى إليه موسى قال له فتاه يوشع بن نون : يانبي الله ، أين أمرك ربك ؟ قال : أمرنى أن أضرب البحر . قال : فاضربه .

وقال محمد بن إسحاق : أوحى الله ـ فيما ذكر لى ـ إلى البحر : أن إذا ضربك موسى بعصاه فانفلق له . قال : فبات البحر يضرب بعضه بعضاً ، فرقا من الله تعالى،وانتظاراً لما أمره الله، وأوحى الله إلى موسى : (أن اضرب بعصاك البحر) ، فضربه بها ، وفيها سلطان الله الذى أعطاه ، فانفلق (٣) .

وذكر غير واحد أنه كناه فقال : انفلق علىّ أبا خالد بحول الله(٤) .

قال الله تعالى : (فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم) ، أى : كالجبل الكبير : قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، ومحمد بن كعب ، والضحاك ، وقتادة ، وغيرهم .

وقال عطاء الخراسانى : هو الفجّ بين الجبلين .

وقال ابن عباس : صار البحر اثنى عشر طريقاً ، لكل سبط طريق ـ وزاد السدى : وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض ، وقام الماء على حيله(٥) كالحيطان ، وبعث الله الريح على قعر البحر فلفحته ، فسار يَبَساً كوجه الأرض ، قال الله تعالى : (فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبساً لا تخاف دركا ولا تخشى (٦)) ، وقال فى هذه القصة : (وأزلفنا) ، أى : هنالك (الآخرين) .

قال ابن عباس ، وعطاء الخراسانى ، وقتادة ، والسدى : (وأزلفنا) ، أى : قربنا(٧) فرعون وجنوده من البحر وأدنيناهم إليه .

(وأنجينا موسى ومن معه أجمعين : ثم أغرقنا الآخرين) ، أى : أنجينا موسى وبنى إسرائيل ومن معهم على دينهم فلم يهلك منهم أحد ، وأغرق فرعون وجنوده فلم يبق منهم رجل إلا هلك .

---

(١) كلمة « اضطراب » غير ثابتة فى المخطوطة ، ومكانها بياض ، وكان فى المخطوطة : « فبات البحر تلك الليلة وله » وفى الطبعات السابقة « وله » ، فأثبتناه .

(٢) فى المخطوطة : « من أى باب يضربه » . فأثبتنا « جانب » عن الطبعات السابقة .

(٣) تفسير الطبرى : ١٩/٥٠ .

(٤) فىالمخطوطة : « انفلق على إنه بحول الله » . وفى الطبعات السابقة : انفلق على أبا خالد بإذن الله » وفى تفسير الطبرى من أبى السليل ١٩/٥٠ : « قال : إيها أبا خالد » . وفى مستدرك تاج العروس ، مادة خلد : « وأبو خالد كنية البحر كما فى الروض للسهيلى » .

(٥) كذا ، ونحسبه من استعمالات العامة ، يقولون :وقف على حيله ، أى :انتصب . ولم نجده بهذا المعنى فى المعاجم التى اتيحت لنا .

(٦) سورة طه ، آية : ٧٧ .

(٧) تفسير الطبرى : ١٩/٥١ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا شبابة ، حدثنا يونس بن أبي إسحاق عن أبي إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله — هو ابن مسعود — أن موسى عليه السلام حين أسرى ببني إسرائيل بلغ فرعون [ذلك] ، فأمر بشاة فذبحت، ثم قال: لا ، والله لا يُفرَغ من سلخها حتى يجتمع إليّ ستمائة ألف من القبط . فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر ، فقال له : انفرق . فقال البحر : لقد استكبرت ياموسى ، وهل انفرقت لأحد من ولد آدم فأنفرق لك ؟ قال : ومع موسى رجل على حصان له ، فقال له ذلك الرجل : أين أمرتَ يانبي الله ؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه ، [يعني البحر ، فأقحم فرسه فسبَح به فخرج ، فقال : أين أمرت يانبي الله ؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه] . قال : والله ما كَذَبتَ ولا كُذبت . ثم اقتحم الثانية فسبح ، ثم خرج فقال : أين أمرت يانبي الله ؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه ؟ قال : والله ما كَذَبت ولا كُذبت . قال : فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر ، فضربه موسى بعصاه ، فانفلق ، فكان فيه اثنا عشر طريقاً(١) لكل سبط طريق يتراءون ، فلما خرج أصحاب موسى وتتامّ أصحاب فرعون ، التقى البحر عليهم فأغرقهم .

وفي رواية إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله قال : فلما خرَج آخر أصحاب موسى ، وتكامل أصحاب فرعون ، اضطم عليهم البحر ، فما رُئي سواد أكثر من يومئذ ، وغرق فرعون لعنه الله .

ثم قال تعالى : (إن في ذلك لآية) ، أي : في هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين ، لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة ، (وماكان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم) تقدم تفسيره .

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ
﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ
﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء، أمر الله رسوله محمداً — صلوات الله وسلامه عليه — أن يتلوه على أمته ، ليقتدوا به في الإخلاص والتوكل ، وعبادة الله وحده لا شريك له ، والتبري من الشرك وأهله ؛ فإن الله تعالى آتى إبراهيم رشده من قبل ، أي : من صغره إلى كبره، فإنه من وقت نشأ وشبّ، أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله عز وجل فقال (لأبيه وقومه : ماذا تعبدون) ؟، أي : ماهذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ (قالوا : نعبد أصناما فنظل لها عاكفين) ، أي : مقيمين على عبادتها ودعائها ، (قال: هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) ، يعني : اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئا من ذلك ، وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون ، فهم على آثارهم يُهرعون . فعند ذلك قال لهم إبراهيم : (أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لي إلا رب العالمين) ، أي : إن كانت هذه الأصنام شيئا ولها تأثير ، فلتخلص إليّ بالمساءة ،

(١) في المخطوطة : « فكان فيه اثنا عشر سبطا » والمثبت من الدر المنثور للسيوطي : ٥/٨٧ .

فإني عدولها لا أباليها ولا أفكر فيها ؛ وهذا كما قال تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام : (فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة، ثم اقضوا إلى ولا تنظرون (١))، وقال هود عليه السلام : (إنى أشهد الله ، واشهدوا أنى برئ مما تشركون ؛ من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون • إنى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم (٢)) . وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم وقال (وكيف أخاف ما أشركتم، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا (٣)) . وقال تعالى : (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم : إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدًا (٤) حتى تؤمنوا بالله وحده) ، وقال تعالى : (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه : إننى براء مما تعبدون • إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين • وجعلها كلمة باقية فى عقبه ، لعلهم يرجعون) ، يعنى : لا إله إلا الله.

ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾

يعنى : لا أعبد إلا الذى يفعل هذه الأشياء ، (الذى خلقنى فهو يهدين) ، أى : هو الخالق الذى قدر قدراً ، وهدى الخلائق إليه، فكل يجرى على قَدَر ، وهو الذى يهدى من يشاء ويُضلّ من يشاء ؛ (والذى هو يطعمنى ويسقين) ، أى : هو خالقى ورازقى ، بما سخر ويسّر من الأسباب السماوية والأرضية ،فساق المُزْن ، وأنزل الماء ، وأحيا به الأرض، وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد ، وأنزل الماء عذبا زلالا لـ (نُسْقيَه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا(٥)).

وقوله : (وإذا مرضت فهو يشفين) ، أسند المرض إلى نفسه ، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخَلْقه ، ولكن أضافه إلى نفسه أدبا ، كما قال تعالى آمرا للمصلى أن يقول : (اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فأسند الإنعام إلى الله سبحانه وتعالى ، والغضب حُذف فاعله أدبا ، وأسند الضلال إلى العبيد ، كما قالت الجن : (وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشدا (٦)) ، ولهذا قال إبراهيم : (وإذا مرضت فهو يشفين)، أى: إذا وقعت فى مرض فإنه لا يقدر على شفائى أحد غيره، بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه ؛

(والذى يميتنى ثم يحين) ، أى : هو الذى يحيى ويميت ، لا يقدر على ذلك أحد سواه ، فإنه هو الذى يبدئ ويعيد ، (والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) ، أى : هو الذى لا يقدر على غَفْر الذنوب فى الدنيا والآخرة، إلا هو ومن يغفر الذنوب إلا الله ، وهو الفعال لما يشاء .

---

(١) سورة يونس ، آية : ٧١ .
(٢) سورة هود ، الآيات : ٥٤ - ٥٦ .
(٣) سورة الأنعام ، آية : ٨١ .
(٤) سورة الممتحنة ، آية : ٤ .
(٥) سورة الفرقان ، آية : ٤٩ .
(٦) سورة الجن ، آية : ١٠ .

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

وهذا سؤال من إبراهيم عليه السلام أن يؤتيه [ربه] حكما :

قال ابن عباس : وهو العلم : وقال عكرمة : هو اللب : وقال مجاهد : هو القرآن ، وقال السدى : هو النبوة .

وقوله : (وألحقنى بالصالحين) ، أى : اجعلنى مع الصالحين فى الدنيا والآخرة ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم عند الاحتضار : « [اللهم فى الرفيق الأعلى (١) قالها ثلاثاً : وفى الحديث فى الدعاء] : اللهم أحينا مسلمين ، وأمتنا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين ، غير خزايا ولا مبدلين» (٢) :

وقوله : (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) ، أى : واجعل لى ذكراً جميلا بعدى أذكر به ، ويقتدى بى فى الخير ، كما قال تعالى : (وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إبراهيم . كذلك نجزى المحسنين (٣)) :

قال مجاهد ، وقتادة : (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) ، يعنى : الثناء الحسن : قال مجاهد : وهو كقوله تعالى : (وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين)(٤) ، وكقوله : (وآتيناه فى الدنيا حسنة ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين)(٥) : .

قال ليث بن أبى سليم : كل ملة تحبه وتتولاه : وكذا قال عكرمة :

وقوله : (واجعلنى من ورثة جنة النعيم) ، أى : أنعم على فى الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدى ، وفى الآخرة بأن تجعلنى من ورثة جنة النعيم .

وقوله : (واغفر لأبى إنه كان من الضالين) كقوله : (ربنا اغفر لى ولوالدى (٦))، وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام ، كما قال تعالى : (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم (٧)) : وقد قطع تعالى الإلحاق فى استغفاره لأبيه ، فقال : (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم : إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً ، حتى تؤمنوا بالله وحده ، إلا قول إبراهيم لأبيه : لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء (٨)) :

(١) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » : ١٣٢/٨ - ١٣٣ . ومسلم ، كتاب السلام ، باب « استحباب رقية المريض » : ١٥/٧ .
(٢) مسند الإمام أحمد عن عبد الله الزرقى : ٤٢٤/٣ ، ولفظه : « غير خزايا ولا مفتونين » .
(٣) سورة الصافات ، الآيات : ١٠٨ - ١١٠ .
(٤) سورة العنكبوت ، آية : ٢٧ .
(٥) سورة النحل ، آية : ١٢٢ .
(٦) سورة إبراهيم ، آية : ٤١ .
(٧) سورة التوبة ، آية : ١١٤ .
(٨) سورة الممتحنة ، آية : ٤ .

وقوله : (ولا تخزني يوم يبعثون) ، أي : أجرني من الخزي يوم القيامة و ا يوم ا يبعث الخلائق أولهم وآخرهم :

قال البخاري في قوله : (ولا تخزني يوم يبعثون) وقال إبراهيم بن طهمان ، عن ابن ابى دتب ، عن سعيد بن أبي سعيد المقبُريّ ، عن أبيه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن إبراهيم رأى أباه يوم القيامة عليه الغَبَرَةُ والقَتَرَةُ (١) :

حدثنا إسماعيل ، حدثنا أخي ، عن ابن أبي ذئب ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يلقى إبراهيم أباه ، فيقول : يا رب ، إنك وعدتني أنك لا تخزيني (٢) يوم يبعثون . فيقول الله : إني حرمت الجنة على الكافرين :

هكذا رواه عند هذه الآية (٣) . وفي أحاديث الأنبياء بهذا الإسناد بعينه منفردا به ، ولفظه : يلقى إبراهيمُ أباه آزرَ يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قَتَرَةٌ وغَبَرَة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك : لا تعصني ؟ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك . فيقول إبراهيم : يا رب ، إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون ، فأى خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين . ثم يُقَال : يا إبراهيم ، ما تحت رجليك ؟ فينظر فإذا هو بِذِيخ (٤) متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار (٥) .

وقال أبو عبد الرحمن النسائي في التفسير من سننه الكبير قوله : (ولا تخزني يوم يبعثون) : أخبرنا أحمد بن حفص ابن عبد الله، حدثني أبي، حدثني إبراهيم بن طهمان ، عن محمد بن عبد الرحمن ، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن إبراهيم رأى أباه يوم القيامة عليه الغَبَرَة والقَتَرَة ، وقال له : قد نهيتك عن هذا فعصيتني . قال : لكني اليوم لا أعصيك واحدة . قال : يارب ، وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون ، فإن أخزيت أباه فقد أخزيت الأبعد . قال : يا إبراهيم . إني حرمتها على الكافرين . فأخذ منه ، قال : يا إبراهيم ، أين أبوك ؟ قال : أنت أخذته مني . قال : انظر أسفل منك . فنظر فإذا ذيخ يتمرغ في نَتَنه ، فأخذ بقوائمه فألقى في النار .

هذا إسناد غريب ، وفيه نكارة :

والذيخ : هو الذكر من الضباع ، كأنه حول آزر إلى صورة ذيخ متلطخ بعَذَرته ، فيلقى في النار كذلك .

وقد رواه البزار من حديث حماد بن سلمة ، عن أيوب ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هُرَيرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : وفيه غرابه : ورواه أيضا من حديث قتادة عن جعفر بن عبد الغافر ، عن أبي سعيد ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، بنحوه :

---

(١) القترة ـ بفتح القاف والتاء ـ : الغبرة أيضاً .
(٢) كذا في مخطوطة الأزهر . ولفظ البخاري : «وعدتني أن لا تخزني» وفي رواية : «أن لا تخزيني» .
(٣) البخاري ، تفسير سورة الشعراء : ٦/١٣٩ ـ ١٤٠ .
(٤) تقدم تفسير هذه الكلمة في : ٤/١٦١ .
(٥) البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : (واتخذ الله إبراهيم خليلا) : ٤/١٦٩ .

وقوله : (يوم لا ينفع مال ولا بنون) ، أى : لا يقى المرء من عذاب الله ماله ، ولو افتدى بملء الأرض ذهبا ، (ولا بنون) ، ولو افتدى بمن فى الأرض جميعا ، ولا ينفعُ يومئذ إلا الإيمانُ بالله، وإخلاص الدين له، والتبرى من الشرك ولهذا قال : (إلا من أتى الله بقلب سليم) ، أى : سالم من الدنس والشرك .

قال محمد بن سيرين : القلب السليم أن يعلم أن الله حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور .

وقال ابن عباس : (إلا من أتى الله بقلب سليم) حَيِيَ(١) يشهد أن لا إله إلا الله .

وقال مجاهد ، والحسن ، وغيرهما : (بقلب سليم) ، يعنى : من الشرك .

وقال سعيد بن المسيب : القلب السليم : هو القلب الصحيح ، وهو قلب المؤمن ، لأن قلب المنافق مريض ، قال الله : (فى قلوبهم مرض) .

وقال أبو عثمان النيسابورى : هو القلب الخالى من البدعة ، المطمئن على السنة .

وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

(وأزلفت الجنة) ، أى : قربت الجنة وأدنيت من أهلها يوم القيامة مزخرفة مزينة لناظريها ، وهم المتقون الذين رغبوا فيها ، وعملوا لها فى الدنيا . (وبرزت الجحيم للغاوين) ، أى : أظهرت وكُشف عنها ، وبدت منها عُنُق (٢)، فزفرت زفرة بلغت منها القلوب الحناجر ،وقيل لأهلها تقريعا وتوبيخا:(أينما كنتم تعبدون من دون الله،هل ينصرونكم أو ينتصرون) ؟ أى: ليست الآلهة التى عبدتموها من دون الله ، من تلك الأصنام والأنداد تغنى عنكم اليوم شيئاً ، ولا تدفع عن أنفسها ؛ فإنكم وإياها اليوم حَصَبُ جهنم أنتم لها واردون .

وقوله : (فكبكبوا فيها هم والغاوون) — قال مجاهد : يعنى :فَدُهْوِرُوا (٣) فيها .

---

(١) كذا فى مخطوطة الأزهر . وفى الطبعات السابقة : « بقلب سليم ، القلب السليم أن يشهد » . والسياق غير مستقيم فيها . وانظر الدر المنثور : ٥/ ٩٠ .

(٢) أى : قطعة منها .

(٣) فى اللسان ، دهر : « وقال الزجاج فى قوله : (فكبكبوا فيها هم والغاوون) ، أى : فى الجحيم . قال : ومعنى « كبكبوا » : طرح بعضهم على بعض . وقال غيره من أهل اللغة : معناه دهوروا . ودهور : سلح ، ودهور كلامه : قحم بعض فى اثر بعض . ودهور الحائط : دفعه فسقط » .

وقال غيره : كبوا فيها : والكاف مكررة ، كما يقال : صرصر(١). والمراد : أنه ألقى بعضهم على بعض ، من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك ، (وجنود إبليس أجمعون) ، أى : ألقوا فيها عن آخرهم . (قالوا : وهم فيها يختصمون . تالله إن كنا لفى ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين) ، أى : يقول الضعفاء للذين استكبروا : (إنا كنا لكم تبعا ، فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار)(٢) . ويقولون وقد عادوا على أنفسهم بالملامة : (تالله إن كنا لفى ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين) ، أى : نجعل أمركم مطاعا كما يطاع أمر رب العالمين ، وعبدناكم مع رب العالمين ، (وما أضلنا إلا المجرمون) أى : ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون ، (فما لنا من شافعين) ، قال بعضهم : يعنى من الملائكة ، كما يقولون : (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ، أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل(٣)) . وكذا قالوا : (فما لنا من شافعين ، ولا صديق حميم) ، أى : قريب .

قال قتادة : يعلمون — والله — أن الصديق إذا كان صالحا نفع ، وأن الحميم إذا كان صالحا شفع (٤) .

(فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين) ، وذلك أنهم يتمنون أنهم يردون إلى الدار الدنيا ، ليعملوا بطاعة ربهم فيما يزعمون — وهو سبحانه وتعالى يعلم أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . وقد أخبر تعالى عن تخاصم أهل النار فى سورة « ص » ، ثم قال : (إن ذلك لحق تخاصم أهل النار (٥)) .

ثم قال تعالى : (إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) ، أى : إن فى محاجة إبراهيم لقومه وإقامته الحجج عليهم فى التوحيد لآية ودلالة واضحة جلية على أنه لا إله إلا الله ، (وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك هو العزيز الرحيم)

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾

هذا إخبار من الله عزوجل عن عبده ورسوله نوح عليه السلام ، وهو أول رسول بُعث إلى الأرض بعد ما عبدت الأصنام والأنداد ، بعثه الله ناهيا عن ذلك ، ومحذرا من وبيل عقابه ، فكذبه قومه واستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة فى عبادتهم أصنامهم ، ويتنزل تكذيبهم له بمنزلة تكذيب جميع الرسل ، ولهذا قال : (كذبت قوم نوح المرسلين . إذ قال لهم أخوهم نوح : ألا تتقون) ، أى : ألا تخافون الله فى عبادتكم غيره ؟ (إنى لكم رسول أمين) ، أى : أنى رسول من الله إليكم ، أمين فيما بعثنى به ، أبلغكم رسالة الله لا أزيد فيها ولا أنقص منها ، (فاتقوا الله وأطيعون .

---

(١) انظر تفسير الطبرى : ١٩/٥٥ .
(٢) سورة غافر ، آية : ٤٧ .
(٣) سورة الأعراف ، آية : ٥٣ .
(٤) تفسير الطبرى : ١٩/٥٦ .
(٥) سورة « ص » ، آية : ٦٤ .

وما أسألكم عليه من أجر) ، أي : لا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم ، بل أدخر ثوابَ ذلك عند الله ، (فاتقوا الله وأطيعون) ، فقد وضح لكم وبان صدقي ونصحي وأمانتي فيما بعثني به وائتمنني عليه :

* قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾

يقولون: أنؤمن لك ونتبعك، ونتساوى في ذلك بهؤلاء الأراذل الذين اتبعوك وصدقوك، وهم أراذلنا، ولهذا قالوا (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون . قال : وما علمي بما كانوا يعملون) ؟ أي : وأيّ شيء يلزمني من اتباع هؤلاء لي ، ولو كانوا على أي شيء كانوا عليه لا يلزمني التنقيب عنه والبحث والفحص ، إنما على أن أقبل منهم تصديقهم إياي ، وأَكِل سرائرهم إلى الله عز وجل ، (إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين) ، كأنهم سألوا منه أن يبعدهم عنه ليتابعوه ، فأبى عليهم ذلك ، وقال : (وما أنا بطارد المؤمنين . إن أنا إلا نذير مبين) ، أي : إنما بعثت نذيرا ، فمن أطاعني واتبعني وصدقني كان مني وكنت منه ، سواء كان شريفا أو وضيعا ، أو جليلا أو حقيراً .

قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله ليلا ونهارا ، وجهراً وإسراراً ، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ ، والامتناع الشديد ، وقالوا في الآخر : (لئن لم تنته) ، أي : عن دعوتك إيانا إلى دينك يا نوح (لتكونن من المرجومين) ، أي : لنرجمنك . فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه ، فقال : (رب إن قومي كذبون . فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني ومن معي من المؤمنين) ، كما قال في الآية الأخرى : (فدعا ربه أني مغلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر[1]) وقال هاهنا : (فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون . ثم أغرقنا بعد الباقين) . والمشحون : هو المملوء بالأمتعة والأزواج التي حمل فيه من كل زوجين اثنين ، أي : نجيناه ومن معه كلهم ، وأغرقنا من كذبه وخالف أمره كلهم ، (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم) .

(١) سورة القمر ، الآيات : ١٠ - ١٤ .

كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً
تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ
﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾

وهذا إخبار من [الله تعالى عن] عبده ورسوله هود ــ عليه السلام ــ : أنه دعا قومه عاداً وكانوا قوماً يسكنون الأحقاف ، وهي جبال الرمل قريباً من بلاد حضرموت متاخمة لبلاد اليمن ، وكان زمانهم بعد قوم نوح ، [كما قال في « سورة الأعراف » (واذكروا إذ جعلكم خلفاءمن بعد قوم نوح] وزادكم في الخلق بسطة(١))،وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب ، والقوة والبطش الشديد ، والطول المديد ، والارزاق الدارة ، والأموال والجنات والعيون ، والأبناء والزروع والثمار ، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه ، فبعث الله إليهم رجلا منهم رسولا وبشيراً ونذيراً ، فدعاهم إلى الله [وحده] ، وحذرهم نقمته وعذابه في مخالفته ، فقال لهم كما قال نوح لقومه ، إلى أن قال : (أتبنون بكل ريع آية تعبثون) ، اختلف المفسرون في الريع بما حاصله : أنه المكان المرتفع عند جواد(٢) الطرق المشهورة ــ تبنون هناك بناء محكما باهراً هائلا ، ولهذا قال : (أتبنون بكل ريع آية) ، أي : معلما بناء مشهوراً ، [تعبثون] ، وإنما تفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة . ولهذا أنكر عليهم نبيهم عليه السلام ذلك ، لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان في غير فائدة ، واشتغال بما لا يجدى في الدنيا ولا في الآخرة .

ثم قال : (وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) ، قال مجاهد : المصانع : البروج المشيدة ، والبنيان المخلد . وفي رواية عنه : بروج الحمام .

وقال قتادة : هي مأخذ الماء . قال قتادة : وقرأ بعض القراء : (وتتخذون مصانع كأنكم خالدون (٣)) .

وفي القراءة المشهورة : (لعلكم تخلدون) ، أي : لكي تقيموا فيها [أبداً] ، وليس ذلك بحاصل لكم ، بل زائل عنكم ، كما زال عمن كان قبلكم .

وقال ابن أبي حاتم رحمه الله: حدثنا أبي ، حدثنا الحكم بن موسى ، حدثنا الوليد، حدثنا ابن عجلان، حدثني عون ابن عبد الله بن عتبة ، أن أبا الدرداء ــ رضى الله عنه ــ لما رأى ما أحدث المسلمون في الغُوطة من البنيان ونصب الشجر ، قام في مسجدهم فنادى : يا أهل دمشق . فاجتمعوا إليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ألا تستحيون ! ألا تستحيون! تجمعون مالا تأكلون، وتبنون مالا تسكنون ، وتأملون مالا تدركون، إنه كانت قبلكم قرون، يجمعون فيوعون،

---

(١) سورة الأعراف ، آية : ٦٩ .
(٢) الجواد : جمع جادة ــ بتشديد الدال ــ وهي : الطريق الأعظم الذى يجمع الطرق ، ولا بد من المرور عليه .
(٣) تفسير الطبرى : ١٩/٥٩ .

ويبنون فيوثقون ، ويأملون فيطيلون ، فأصبح أملهم غروراً ، وأصبح جمعهم بوراً ، وأصبحت مساكنهم قبوراً ، ألا إن عادا ملكت ما بين عدن وعمان خيلا وركابا ، فمن يشترى منى ميراث عاد بدرهمين ؟ .

وقوله : (وإذا بطشتم بطشتم جبارين) ، وصفهم بالقوة والغلظة والجبروت ، (فاتقوا الله وأطيعون) ، أى : اعبدوا ربكم ، وأطيعوا رسولكم .

ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم فقال : (واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون : إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) ، أى : إن كذبتم وخالفتم ، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب ، فما نفع فيهم .

قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

يقول تعالى مخبرا عن جواب قوم هود له . بعد ما حذرهم وأنذرهم ، ورغبهم ورهبهم ، وبين لهم الحق ووضحه (قالوا : سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين) ، أى : لا نرجع عما نحن فيه ، (وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين) [١] . وهكذا الأمر ، فان الله تعالى قال : (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) [٢] ، وقال تعالى : (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون : ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم [٣]) .

وقولهم : (إن هذا إلا خلق الأولين) ، قرأ بعضهم : (إن هذا إلا خَلْق) ، بفتح الخاء وتسكين اللام .

قال ابن مسعود ، والعوفى عن عبد الله بن عباس، وعلقمة ، ومجاهد : يعنون ما هذا الذى جئتنا به إلا أخلاق الأولين [٤] : كما قال المشركون من قريش: (وقالوا : أساطير الأولين) [اكتتبها ، فهى تملى عليه بكرة وأصيلا(٥)، وقال : (وقال الذين كفروا : إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون . فقد جاءوا ظلماً وزورا : وقالوا : أساطير الأولين)(٦)، وقال: (وإذا قيل لهم : ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : أساطير الأولين) (٧)] :

وقرأ آخرون : (إن هذا إلا خُلُقُ الأولين) — بضم الخاء واللام — يعنون : دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأوائل من الآباء والأجداد . ونحن تابعون لهم ، سالكون وراءهم ، نعيش كما عاشوا ، ونموت كما ماتوا ، ولا بعث ولا معاد : ولهذا قالوا : (وما نحن بمعذبين) :

---

(١) سورة هود ، آية : ٥٣ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٦ .
(٣) سورة يونس ، آية : ٩٦ ، ٩٧ .
(٤) تفسير الطبرى : ١٩/٦٠ .
(٥) سورة الفرقان ، آية : ٥ .
(٦) سورة الفرقان ، آية : ٤ .
(٧) سورة النحل ، آية : ٢٤ ، وما بين القوسين المعقوفين من الطبعات السابقة ، وكان فيها — فى هذه الآية — : وقيل للذين كفروا : ماذا أنزل ربكم ، وليست آية .

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : (إن هذا إلا خُلق الأولين) ، يقول : دين الأولين . وقاله عكرمة ، وعطاء الخراساني ، وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، واختاره ابن جرير (١) .

قال الله تعالى : (فكذبوه فأهلكناهم) ، أي : فاستمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده ، فأهلكهم الله ؛ وقد بين سبب إهلاكه إياهم في غير موضع من القرآن بأنه أرسل عليهم ريحا صرصرا عاتية ، أي : ريحا شديدة الهبوب ، ذات برد شديد جداً ، فكان إهلاكهم من جنسهم ، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره ، فسلط الله عليهم ماهو أعتى منهم وأشد قوة ، كما قال : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد ؛ إرم) (٢) ، وهم عاد الأولى ، كما قال : (وأنه أهلك عادا الأولى) (٣) ، وهم من [نسل] إرم بن سام بن نوح (ذات العماد) ، أي : الذين كانوا يسكنون العَمَد . ومن زعم أن « إرم » مدينة ، فإنما أخذ ذلك من الإسرائيليات من كلام كعب ووهب ، وليس لذلك أصل أصيل . ولهذا قال : (التي لم يخلق مثلها في البلاد) ، أي : لم يخلق مثل هذه القبيلة في قوتهم وشدتهم وجبروتهم ، ولو كان المراد بذلك مدينة لقال : التي لم يبن مثلها في البلاد ، وقال : (فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق ، وقالوا : من أشد منا قوة ؟ أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يجحدون) (٤) .

وقد قدمنا أن الله تعالى لم يرسل عليهم من الريح إلا بمقدار أنف الثور ، عتت على الخزنة ، فأذن الله لها في ذلك ، وسلكت وحصبت بلادهم ، فحصبت كل شيء لهم ، كما قال تعالى : (تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم) (٥) الآية ؛ وقال تعالى : (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما) ، أي : كاملة ، (فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية (٦)) ، أي : بقوا أبدانا بلا رءوس ؛ وذلك أن الريح كانت تأتي الرجل منهم فتقتلعه وترفعه في الهواء ، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخ دماغه ، وتكسر رأسه ، وتلقيه ، كأنهم أعجاز نخل منقعر ؛ وقد كانوا تحصنوا في الجبال والكهوف والمغارات ، وحفروا لهم في الأرض إلى أنصافهم ، فلم يغن عنهم ذلك [من أمر الله شيئاً ، (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر) (٧) ، ولهذا قال : (فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم] مؤمنين ؛ وإن ربك لهو العزيز الرحيم) .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾

وهذا إخبار من الله ــ عز وجل ــ عن عبده ورسوله صالح ــ عليه السلام : أنه بعثه إلى قومه ثمود ــ وكانوا عربا يسكنون مدينة الحِجْر ، التي بين وادي القُرَى وبلاد الشام ، ومساكنهم معروفة مشهورة . وقد قدمنا في « سورة »

---

(١) تفسير الطبري : ١٩/ ٦٠ – ٦١ .
(٢) سورة الفجر ، آية : ٦ ، ٧ .
(٣) سورة النجم ، آية : ٥٠ .
(٤) سورة فصلت ، آية : ١٥ .
(٥) سورة الأحقاف ، آية : ٢٥ .
(٦) سورة الحاقة ، آية : ٧ .
(٧) سورة نوح ، آية : ٧١ .

الأعراف(١) الأحاديث المروية فى مُرور رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بهم حين أراد غَزْوَ الشام ، فوصل إلى تَبُوك ، ثم عاد إلى المدينة ليتأهب لذلك . وقد كانوا بعد عاد وقبل الخليل عليه السلام : فدعاهم نبيهم صالح إلى الله — عز وجل — أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوه فيا بلغهم من الرسالة ، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه : فأخبرهم أنه لا يبتغى بدعوتهم أجرا منهم ، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله — عز وجل — ثم ذكرهم آلاء الله عليهم فقال :

أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾

يقول لهم واعظا لهم ومحذراً إياهم نقم الله آن تحل بهم ، ومذكرا بأنعم الله عليهم فيا رزقهم من الأرزاق الدارّة ، وجعلهم فى أمن من المحذورات . وأنبت لهم من الجنات : وأنبع لهم من العيون الجاريات ، وأخرج لهم من الزروع والثمرات ، ولهذا قال : (ونخل طلعها هضيم) — قال العوفى ، عن ابن عباس : أينع وبلَغ ، فهو هضيم (٢) :

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (ونخل طلعها هضيم) ، يقول : مُعْشِبة .

قال إسماعيل بن أبى خالد ، عن عمرو بن أبى عمرو — وقد أدرك الصحابة — عن ابن عباس ، فى قوله : (ونخل طلعها هضيم) ، قال : إذا رطُب واسترخى : رواه ابن أبى حاتم ، قال : ورُوى عن أبى صالح نحوُ هذا .

وقال أبو إسحاق ، عن أبى العلاء : (ونخل طلعها هضيم) ، قال : هو المذنب من الرطب .

وقال مجاهد : هو الذى إذا كُبِس تَهشم وتفتت وتناثر :

وقال ابن جريج : سمعت عبد الكريم أبا أمية (٣) ، سمعت مجاهدا يقول : (ونخل طلعها هضيم) ، قال : حين يطلعُ تقبض عليه فتهضمه ، فهو من الرطب الهضيم ، ومن اليابس الهشيم ، تقبض عليه فتهشمه .

وقال عكرمة ، وقتادة : الهضيم : الرطب اللين .

وقال الضحاك : إذا كثر حَمل الثمرة ، وركب بعضه بعضا ، فهو هضيم :

وقال مرة : هو الطَّلْعُ (٤) حين يتفرق ويخضر :

وقال الحسن البصرى : هو الذى لا نوى له .

وقال أبو صخر : ما رأيتَ للطلعَ حين يُشقّ عنه الكم (٥) ، فترى الطلع قد لصق بعضه ببعض ، فهو الهضيم :

وقوله : (وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين) : قال ابن عباس ، وغير واحد : يعنى حاذقين . وفى رواية عنه : شرهين أشرين : وهو اختيار مجاهد وجماعة . ولا منافاة بينهما ، فانهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة فى الجبال أشراً وبطراً وعبثاً ، من غير حاجة إلى سكناها ، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها ، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم.

---

(١) انظر : ٣/٤٣٥ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٩/٦١ .

(٣) هو عبد الكريم بن أبى المخارق ، أبو أمية المعلم . مترجم فى الجرح لابن أبى حاتم : ٣/١/٥٩ . والتهذيب : ٦/٣٧٦ — ٣٧٩ .

(٤) الطلع من النخل : شىء يخرج كأنه نعلان مطبقان ، والحمل بينهما منضود والطرف محدد ، أو هو : ما يبدو من ثمرته فى أول ظهورها .

(٥) الكم — بكسر الكاف — : غلاف الثمر .

ولهذا قال : (فاتقوا الله وأطيعون) ، أى : أقبلوا على عمل ما يعود نفعه عليكم فى الدنيا والآخرة ، من عبادة ربكم الذى خلقكم ورزقكم لتوحدوه وتعبدوه وتسبحوه بكرة وأصيلا ، (ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون) يعنى : رؤساءهم وكبراءهم ، الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ، ومخالفة الحق .

قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

يقول تعالى مخبرا عن ثمود فى جوابهم لنبيهم صالح – عليه السلام – حين دعاهم إلى عبادة ربهم ، (قالوا : إنما أنت من المسحَّرين) – قال مجاهد ، وقتادة : يعنون من المسحورين .

وروى أبو صالح ، عن ابن عباس : (من المسحرين) : يعنى من المخلوقين(١) ، واستشهد بعضهم على هذا القول بما قال الشاعر (٢) :

فإنْ تسألينا : فيم نحنُ ؟ فإنّنا * عصافيرُ من هذا الأنام المُسَحَّر

يعنى الذين لهم سُحور (٣) ، والسَّحر : هو الرئة .

والأظهر فى هذا قول مجاهد وقتادة : أنهم يقولون : إنما أنت فى قولك هذا مسحور لا عقل لك .

ثم قالوا : (ما أنت إلا بشر مثلنا) ، يعنى : فكيف أوحى إليك دوننا ؟ كما قالوا فى الآية الأخرى : (أألقى عليه الذكر من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر . سيعلمون غدا من الكذاب الأشر (٤)) .

ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ، ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم فطلبوا منه – وقد اجتمع ملؤهم – أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة – وأشاروا إلى صخرة عندهم – ناقة عُشَراء من صفتها كذا وكذا . فعند ذلك أخذ عليهم نبى الله صالح العهود والمواثيق ، لئن أجابهم إلى ما سألوا ليُؤْمِنُنّ به ، وليتبعنه ، فأنعموا بذلك (٥) . فقام نبى الله صالح عليه السلام فصلى ، ثم دعا الله عز وجل أن يجيبهم إلى سؤالهم ، فانفطرت تلك الصخرة التى أشاروا إليها عن ناقة عُشَراء ، على الصفة التى وصفوها . فآمن بعضهم وكفر أكثرهم ، (قال : هذه ناقة لها شِرْبٌ ولكم شرب يوم معلوم) يعنى : ترد ماءكم يوما ، ويوما تردونه أنتم ، (ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم) ، فحذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء ، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر ترد الماء ، وتأكل الورق والمرعى ، وينتفعون بلبنها ،

---

(١) تفسير الطبرى : ١٩/٦٣ .
(٢) تقدم البيت عند الآية ٤٦ من سورة الإسراء : ٥/٨٠ ، وخرجناه هنالك .
(٣) السحر – بفتح فسكون ، وبفتحتين ، وبضم فسكون – : الرئة ، وجمعه : سحور وأسحار .
(٤) سورة القمر ، آية : ٢٥ ، ٢٦ .
(٥) أى : قالوا له : نعم .

يحتلبون منها ما يكفيهم شربا وريا ؛ فلما طال عليهم الأمد وحضر شقاؤهم ، تمالئوا على قتلها وعقرها ، (فعقروها فأصبحوا نادمين . فأخذهم العذاب) ، وهو أن أرضهم زُلزلت زلزالا شديداً ، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب عن محالها ، وأتاهم من الأمر مالم يكونوا يحتسبون،فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، (إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم)

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله لوط — عليه السلام — وهو : لوط بن هاران بن آزر ، وهو ابن أخى إبراهيم الخليل ، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة فى حياة إبراهيم ، وكانوا يسكنون « سَدُوم » وأعمالها التى أهلكها [الله بها] ،وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة ، وهى مشهورة ببلاد الغور ، متاخمة لجبال البيت المقدس ، بينها وبين بلاد الكَرَك(١) والشَّوبَك . فدعاهم إلى الله — عز وجل —أن يعبدوه وحده لا شريك له ؛ وأن يطيعوا رسولهم الذى بعثه الله إليهم ، ونهاهم عن معصية الله ، وارتكاب ماكانوا قد ابتدعوه فى العالم ، مما لم يسبقهم الخلائق إلى فعله ، من إتيان الذكران دون الإناث ، ولهذا قال تعالى :

أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

لما نهاهم نبى الله عن إتيانهم الفواحش،وغشيانهم الذكور ، وأرشدهم إلى إتيان نسائهم اللاتى خلقهن الله لهم—ماكان جواب قومه له إلا أن قالوا :(لئن لم تنته يا لوط)، يعنون عما جئتنا به،(لتكونن من المخرجين) ،أى : ننفيك من بين أظهرنا، كما قال تعالى :(وماكان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم،إنهم أناس يتطهرون(٢)). فلمارأى:أنهم لا يرتدعون عما هم فيه وأنهم مستمرون على ضلالتهم،تبرأ منهم فقال :(إنى لعملكم من القالين)، أى : المُبغضين، لا أحبه ولا أرضى به ؛ فأنا برىء منكم : ثم دعا الله عليهم قال : (رب نجنى وأهلى مما يعملون) : قال الله تعالى : (فنجيناه وأهله أجمعين) ، أى : كلهم ، (إلا عجوزاً فى الغابرين) ، وهى امرأته ، وكانت عجوز سوء، بقيت فهلكت

---

(١) الكرك — بفتحتين — : قلعة حصينة جداً فى طرف الشام ، من نواحى البلقاء فى جبالها . والشوبك : قلعة حصينة أيضاً فى أطراف الشام ، بين عمان وأيلة .

(٢) سورة الأعراف ، آية : ٨٢ .

مع من بقي من قومها ، وذلك كما أخبر الله تعالى عنهم في « سورة الأعراف » و « هود » ، وكذا في « الحجر » حين أمره الله أن يسرى بأهله إلا امرأته ،وأنهم لا يلتفتون إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه، فصبروا لأمر الله واستمروا . وأنزل الله على أولئك العذابَ الذى عمّ جميعهم ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود،ولهذا قال : (ثم دمرنا الآخرين . وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين . إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم) .

كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾

هؤلاء ــ أعنى أصحاب الأيكة ــ هم أهل مدين على الصحيح . وكان نبى الله شعيب من أنفسهم ، وإنما لم يقل هاهنا أخوهم [شعيب] ، لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة ، وهى شجرة . وقيل : شجر ملتف كالغَيضة ، كانوا يعبدونها ، فلهذا لما قال : كذب أصحاب الأيكة المرسلين ، لم يقل : « إذ قال لهم أخوهم شعيب » ، وإنما قال : (إذ قال لهم شعيب) ، فقطع نسبة الأخوة بينهم ، للمعنى الذى نسبوا إليه ، وإن كان أخاهم نسبا . ومن الناس من لم يتفطن لهذه النكتة ، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين ، فزعم أن شعيبا عليه السلام بعثه الله إلى أمتين ، ومنهم من قال : ثلاث أمم .

وقد روى إسحاق بن بشر الكاهلي ــ وهو ضعيف (١) ــ : حدثنى ابن السدى، عن أبيه ــ وزكريا بن عمر ، عن خصيف ، عن عكرمة قالا : ما بعث الله نبيا مرتين إلا شعيبا ، مرة إلى مدين فأخذهم الله بالصيحة ومرة إلى أصحاب الأيكة فأخذهم الله بعذاب يوم الظلة .

وروى أبو القاسم البغوى ، عن هُدْبَة ، عن هَمّام ،عن قتادة في قوله تعالى : (وأصحاب الرس) : قوم شعيب ، وقوله : (وأصحاب الأيكة) : قوم شعيب .

قال إسحاق بن بشر : وقال غير جُويبر : أصحاب الأيكة ومدين هما واحد . والله أعلم .

وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة « شعيب » ، من طريق محمد بن عثمان بن أبي شيبة ، عن أبيه ، عن معاوية ابن هشام ، عن هشام بن سعد (٢) ، عن سعيد بن أبي هلال ، عن ربيعة بن سيف ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان ، بعث الله إليهما شعيبا النبي عليه السلام » .

وهذا غريب ، وفي رفعه نظر ، والأشبه أن يكون موقوفا . والصحيح أنهم أمة واحدة ، وصفوا في كل مقام بشيء ، ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان ، كما في قصة مدين سواء بسواء ، فدل ذلك على أنهم أمة واحدة .

---

(١) قال ابن أبي حاتم في الجرح ١/١/٢١٤ عن أبي زرعة : « إسحاق بن بشر الكاهلي كان يكذب ، يحدث عن مالك وأبي معشر بأحاديث موضوعة » .

(٢) في المخطوطة : « هشام بن سعيد » . والصواب من ترجمته في التهذيب : ١١/٣٩ ، وترجمة سعيد بن أبي هلال : ٤/٩٥ .

* أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾

يأمرهم تعالى بإيفاء المكيال والميزان ، وينهاهم عن التطفيف فيهما ، فقال : (أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين) ، أى : إذا دفعتم إلى الناس فكملوا الكيل لهم ، ولا تخسروا الكيل فتعطوه ناقصا ، وتأخذوه — إذا كان لكم — تاما وافيا ، ولكن خذوا كما تعطون ، وأعطوا كما تأخذون .

(وزنوا بالقسطاس المستقيم) ، والقسطاس هو : الميزان ، وقيل : القَبَّان(١) ، قال بعضهم : هو معرب من الرومية (٢) .

وقال مجاهد : القسطاس المستقيم : العدل بالرومية . وقال قتادة : القسطاس العدل .

وقوله : (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) ، أى : لا تنقُصوهم أموالهم ، (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) ، يعنى : قطع الطريق ، كما قال فى الآية الأخرى : (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون (٣)) .

وقوله : (واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين) ، يخوفهم بأس الله الذى خلقهم وخلق آباءهم الأوائل ، كما قال موسى عليه السلام : (ربكم ورب آبائكم الأولين) — قال ابن عباس ، ومجاهد ، والسدى ، وسفيان بن عيينة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (والجبلة الأولين) ، يقول : خلق الأولين . وقرأ ابن زيد : (ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً (٤)) .

قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها — تشابهت قلوبهم — حيث قالوا : (إنما أنت من المسحرين) ، يعنون : من المسحورين ، كما تقدم . (وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين) ، أى : تتعمد الكذب فيما تقوله ، لا أن الله أرسلك إلينا ، (فأسقط علينا كسفا من السماء) — قال الضحاك : جانبا من السماء . وقال قتادة : قطعا من السماء . وقال السدى : عذابا من السماء . وهذا شبيه بما قالت قُرَيْش فيما أخبر الله عنهم فى قوله تعالى :

---

(١) القبان — كشداد — : القسطاس .

(٢) المعرب للجواليقى : ٢٩٩ .

(٣) سورة الأعراف ، آية : ٨٦ .

(٤) سورة « يس » ، آية : ٦٢ .

(وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً) ، إلى أن قالوا : (أو تسقط السماء ــ كما زعمت ــ علينا كسفا ، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا (١)) . وقوله : (وإذ قالوا : اللهم ، إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم (٢)) . وهكذا قال هؤلاء الكفرة الجهلة (فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين) .

(قال : ربى أعلم بما تعملون) ، يقول : الله أعلم بكم،فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به غير ظالم لكم . وكذلك وقع بهم كما سألوا ، جزاء وفاقا ولهذا قال تعالى : (فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم) . وهذا من جنس ماسألوا من إسقاط الكسف عليهم ، فإن الله سبحانه وتعالى جعل عقوبتهم أن أصابهم حر شديد جدا مدة سبعة أيام لا يكنهم منه شيء ، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم ، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر ، فلما اجتمعوا تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شررا من نار ، ولهبا ووهجا عظيما ، ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم ، ولهذا قال : (إنه كان عذاب يوم عظيم) .

وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم فى ثلاثة مواطن ، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق ، ففى الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ، وذلك لأنهم قالوا : (لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا (٣)) ، فأرجفوا بنبى (٤) الله ومن اتبعه ، فأخذتهم الرجفة . وفى سورة هود قال : (وأخذت الذين ظلموا الصيحة) (٥) وذلك لأنهم استهزؤوا بنبى الله فى قولهم : (أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ، أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ؛ إنك لأنت الحليم الرشيد (٦)) . قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء ، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم ، فقال : (وأخذت الذين ظلموا الصيحة) . وهاهنا قالوا : (فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين) ، على وجه التعنت والعناد ، فناسب أن يحق عليهم ما استبعدوا وقوعه : (فأخذهم عذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم) .

قال قتادة : قال عبد الله بن عمر ــ رضى الله عنه ــ : إن الله سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلهم منه شيء ، ثم إن الله أنشأ لهم سحابة ، فانطلق إليها أحدهم واستظل بها ، فأصاب تحتها بردا وراحة ، فأعلم بذلك قومه ، فأتوها جميعا ، فاستظلوا تحتها ، فأججت عليهم نارا .

---

(١) سورة الإسراء ، آية : ٩٢ .

(٢) سورة الأنفال ، آية : ٣٢ .

(٣) سورة الأعراف ، آية : ٨٨ .

(٤) الإرجاف : إيقاع الرجفة ــ وهى الزلزلة ــ إما بالقول وإما بالفعل ، ويقال : ارجفوا فى الشيء ، وبه : إذا خاضوا فيه .

(٥) فى المخطوطة : وفى سورة هود قال : (فأخذتهم الصيحة) ، والآية ليست من سورة هود . وإنما هى من سورة الحجر فى قصة لوط ، انظر الآية : ٧٣ ، ٨٣ . أما آية هود فرقمها : ٩٤ .

(٦) سورة هود ، آية : ٨٧ .

وهكذا رُوى عن عكرمة ، وسعيد بن جُبَيْر ، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، بعث الله إليهم الظلة ، حتى إذا اجتمعوا كلّهم كشف الله عنهم الظلة ، وأحمى عليهم الشمس فاحترقوا كما يحترق الجراد فى المقْلَى (١) .

وقال محمد بن كعب القُرَظى : إن أهل مدين عذبوا بثلاثة أصناف من العذاب : أخذتهم الرجفة فى دارهم حتى خرجوا منها ، فلما خرجوا منها أصابهم فزع شديد ، فَفَرِقُوا أن يدخلوا إلى البيوت فتسقط عليهم ، فأرسل الله عليهم الظلة ، فدخل تحتها رجل فقال : ما رأيت كاليوم ظلا أطيب ولا أبرد من هذا . هلموا أيها الناس : فدخلوا جميعا تحت الظلة ، فصاح بهم صيحة واحدة ، فماتوا جميعا . ثم تلا محمد بن كعب : (فأخذهم عذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم) (٢) .

وقال ابن جرير : حدثنى الحارث ، حدثنى الحسن ، حدثنى سعيد بن زيد — أخو حماد بن زيد — حدثنى حاتم ابن أبى صغيرة ، حدثنى يزيد الباهلى : سألت ابن عباس عن هذه الآية : (فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) ، قال : بعث الله عليهم وَمَدَةً (٣) وحرا شديدا ، فأخذ بأنفاسهم [فدخلوا البيوت ، فدخل عليهم أجواف البيوت ، فأخذ بأنفاسهم (٤)] ، فخرجوا من البيوت هراباً إلى البرية ، فبعث الله سحابة فأظلتهم من الشمس ، فوجدوا لها برداً ولذة ، فنادى بعضهم بعضا ، حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسلها [الله] عليهم ناراً . قال ابن عباس : فذلك عذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم (٥) .

(إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم) ، أى : العزيز فى انتقامه من الكافرين ، الرحيم بعباده المؤمنين .

وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾

يقول تعالى مخبرا عن الكتاب الذى أنزله على عبده ورسوله محمد — صلوات الله وسلامه عليه — : (وإنه) ، أى : القرآن الذى تقدم ذكره فى أول السورة فى قوله : (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث) — (لتنزيل رب العالمين) ، أى : أنزله الله عليك وأوحاه إليك ، (نزل به الروح الأمين) ، وهو جبريل عليه السلام ، قاله غير واحد من السلف : ابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وقتادة ، وعطية العوفى ، والسدى ، والضحاك ، والزهرى ، وابن جريج . وهذا ما لا نزاع فيه .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٩/ ٦٨ .

(٢) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور عن ابن المنذر وابن أبى حاتم : ٥/ ٩٣ .

(٣) فى المخطوطة : « بعث الله عليهم رعدة » . والمثبت من تفسير الطبرى . والومدة — بفتح الواو والميم — : ندى من البحر يقع على الناس فى شدة الحر وسكون الريح .

(٤) ما بين القوسين عن تفسير الطبرى ، وقد سقط من تفسير ابن كثير ، وهو سقط نظر .

(٥) تفسير الطبرى : ١٩/ ٦٧ .

قال الزهرى : وهذه كقوله : (قل : من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله) [١]الآية .

وقال مجاهد : من كلمه الروح الأمين لاتأكله الأرض .

(على قلبك لتكون من المنذرين) ، [أى : نزل به ملك كريم أمين ،ذو مكانة عند الله ، مطاع فى الملأ الأعلى ، (على قلبك) يامحمد ، سالماً من الدنس والزيادة والنقص ؛ (لتكون من المنذرين)] ،أى : لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه ، وتبشر به المؤمنين المتبعين له .

وقوله : (بلسان عربى مبين) ، أى : هذا القرآن الذى أنزلناه إليك بلسانك العربى الفصيح الكامل الشامل ، ليكون بيّناً واضحاً ظاهراً ، قاطعا للعذر ، مقيما للحجة ، دليلا إلى المحجة [٢] .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن أبى بكر العَتَكىّ ، حدثنا عباد بن عباد المُهَلّبى ، عن موسى ابن محمد بن [٣] إبراهيم التيمى ، عن أبيه قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه فى يوم دَجْن[٤]إذ قال لهم : كيف ترون بواسقها [٥] قالوا : ما أحسنها وأشد تراكمها [٦]. قال : فكيف ترون قواعدها [٧] ؟ قالوا : ماأحسنها وأشد تمكنها . قال : فكيف ترون جَوْنَها ؟ [٨]) قالوا : ماأحسنه وأشد سواده . قال : فكيف ترون رحاها استدارت ؟ قالوا : ماأحسنها وأشد استدارتها . قال : فكيف ترون برقها، أوَمَيض أم خَفْو[٩] أم يَشُق شَقّاً ؟ قالوا : بل يشق شقا . قال : الحياء الحياء إن شاء الله . قال : فقال رجل : يارسول الله ، بأبى وأمى ماأفصحك ، ما رأيت الذى هو أعربُ منك . قال : فقال : حق لى ، وإنما أنزل القرآن بلسانى ، والله يقول : (بلسان عربى مبين) .

وقال سفيان الثورى : لم ينزل وحى إلا بالعربية ، ثم تَرْجم كل نبى لقومه ، واللسان يوم القيامة بالسريانية ، فمن دخل الجنة تكلم بالعربية . رواه ابن أبى حاتم .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٩٧ .
(٢) المحجة : الطريق .
(٣) فى المخطوطة : « عن موسى بن محمد ، عن ابراهيم التيمى » . ولعل الصواب ما أثبتناه . ؛ فالذى فى كتب الرجال — التهذيب : ٣٦٨/١٠ ، والجرح : ١٥٩/١/٤ — أن موسى يروى عن أبيه ، وهو محمد بن ابراهيم بن الحارث التيمى .
(٤) الدجن — بفتح فسكون — : الغيم .
(٥) فى النهاية : « ومنه الحديث فى صفة السحاب : « كيف ترون بواسقها ؟ » ، أى : ما استطال مَن فروعها » .
(٦) ارتكم الشىء وتراكم : اجتمع .
(٧) فى النهاية : « وفيه أنه سأل عن سحائب مرت فقال : « كيف ترون قواعدها وبواسقها ؟ » ، أراد بالقواعد : ما اعترض منها وسفل ، تشبيها بقواعد البنيان » .
(٨) فى المخطوطة : « حربها » ، دون نقط . والمثبت من المخصص لابن سيده : ٩٦/٩ .
(٩) فى المخطوطة : « أم خفق » . والصواب من المخصص لابن سيده : ٩٦/٩ ، والنهاية لابن الأثير : « وخفا البرق يخفو ويخفى خفوا : إذا برق برقا ضعيفا » .

وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾

يقول تعالى : وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود فى كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم ، الذين بشروا به فى قديم الدهر وحديثه ، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك ، حتى قام آخرهم خطيبا فى ملئه بالبشارة بأحمد : (وإذ قال عيسى ابن مريم : يابنى إسرائيل ، إنى رسول الله إليكم ، مصدقا لما بين يدى من التوراة ، ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد (١)) والزبر : هاهنا هى الكتب وهى جمع زَبُور(٢) ، وكذلك الزبور ، وهو كتاب داود ؛ وقال تعالى : (وكل شىء فعلوه فى الزبر) ، أى : مكتوب عليهم فى صحف الملائكة .

ثم قال تعالى: (أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل) ، أى : أو ليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك : أن العلماء من بنى إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن فى كتبهم التى يدرسونها ؟. والمراد العدول منهم ، الذين يعترفون بما فى أيديهم من صفة محمد — صَلّى الله عليه وسلم — ومبعثه وأمته ، كما أخبر بذلك مَنْ آمن منهم كعبدالله ابن سلاَم ، وسلمان الفارسى ، عمن أدركه منهم ومن شاكلهم . وقال الله تعالى : (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل (٣)) الآية .

ثم قال تعالى مخبراً عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن أنه لو أنزله على رجل من الأعاجم ، ممن لا يدرى من العربية كلمة ، وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته ، لا يؤمنون به ، ولهذا قال : (ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين) ، كما أخبر عنهم فى الآية الأخرى : (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون)(٤)، وقال تعالى :(ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قُبُلا ، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله (٥)) ؛ وقال : (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم (٦)) .

كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾

يقول تعالى : كذلك سلكنا التكذيب والكفر والجحود والعناد ، أى : أدخلناه فى قلوب المجرمين ، (لا يؤمنون به) ، أى : بالحق ، (حتى يروا العذاب الأليم) ، أى : حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار .(فيأتيهم

(١) سورة الصف ، آية : ٦ .
(٢) فى المخطوطة : « جمع زبرة » . والمثبت من الطبعات السابقة .
(٣) سورة الأعراف ، آية : ١٥٧ .
(٤) سورة الحجر ، آية : ١٤، ١٥
(٥) سورة الأنعام ، آية : ١١١ .
(٦) سورة يونس ، آية : ٩٦ ، ٩٧ .

بغتة) ، أى : عذاب الله بغتة ، (وهم لا يشعرون . فيقولوا : هل نحن منظرون ؟) أى : يتمنون حين يشاهدون العذاب أن لو أُنظِرُوا قليلا ليعملوا بطاعة الله ، كما قال تعالى : (وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا : ربنا ، أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل ، أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال (١)) ، فكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته ندم ندما شديدا ؛ هذا فرعون لما دعا عليه الكليم بقوله : (ربنا ، إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . قال : قد أجيبت دعوتكما (٢)) ، فأثرت هذه الدعوة فى فرعون ، فما آمن حتى رأى العذاب الأليم ، (حتى إذا أدركه الغرق قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين . الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين (٣)) : وقال : (فلما رأوا بأسنا قالوا : آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) ، الآية (٤) .

وقوله تعالى : (أفبعذابنا يستعجلون) ، إنكار عليهم ، وتهديد لهم ، فإنهم كانوا يقولون للرسول تكذيباً واستبعاداً : (ائتنا بعذاب الله (٥)) ، كما قال تعالى : (ويستعجلونك بالعذاب (٦)) .. الآيات .

ثم قال : (أفرأيت إن متعناهم سنين . ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) ، أى : لو أخرناهم وأنظرناهم ، وأملينا لهم برهة من الزمان وحيناً من الدهر وإن طال ، ثم جاءهم أمر الله ، أى شىء يجدى عنهم ما كانوا فيه من النعيم ، (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها (٧)) ، وقال تعالى : (يود أحدهم لو يُعمَّر ألف سنة ، وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر (٨)) ، وقال تعالى : (وما يغنى عنه ماله إذا تردى) (٩) ، ولهذا قال : (ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) .

وفى الحديث الصحيح : يؤتى بالكافر فيغمس فى النار غمسة ، ثم يقال له : هل رأيت خيراً قط ؟ هل رأيت نعيما قط ؟ فيقول : لا ! والله يارب ! ؛ ويؤتى بأشد الناس بؤسا ــ كان فى الدنيا ــ فيصبغ فى الجنة صبغة ، ثم يقال له : هل رأيت بؤسا قط ؟ فيقول : لا ! والله يارب (١٠) ! . أى : ما كأن شيئاً كان . ولهذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يتمثل بهذا البيت :

---

(١) سورة إبراهيم ، آية : ٤٤ .
(٢) سورة يونس ، الآية : ٨٨ ، ٨٩ .
(٣) سورة يونس ، الآية : ٩٠ ، ٩١ .
(٤) سورة غافر ، الآية : ٨٤ ، ٨٥ .
(٥) سورة العنكبوت ، آية : ٢٩ .
(٦) سورة العنكبوت ، آية : ٥٣ .
(٧) سورة النازعات ، آية : ٤٦ .
(٨) سورة البقرة ، آية : ٩٦ .
(٩) سورة الليل ، آية : ١١ .
(١٠) أخرجه الإمام أحمد فى مسند أنس بن مالك : ٣/٢٠٣ ، ٢٥٣ .

كَأَنَّكَ لَمْ تُوتَرْ (١) مِنَ الدَّهْرِ لَيْلَةً . إذا أَنْتَ أَدْرَكْتَ الذى كنتَ تَطْلُبُ

ثم قال الله تعالى مخبراً عن عدله فى خلقه : أنّه ما أهلك أمة من الأمم إلا بعد الإعذار إليهم ، والإنذار لهم وبعثة الرسل [إليهم] ، وقيام الحجج عليهم . ولهذا قال : (وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون ، ذكرى وما كنا ظالمين) ، كما قال تعالى : (وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولا (٢)) ، وقال تعالى : (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا) إلى قوله : (وأهلها ظالمون (٣)) .

وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾

يقول تعالى مخبرا عن كتابه العزيز ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد : أنه نزل به الروح الأمين المؤيد من الله ، (وما تنزلت به الشياطين) ، ثم ذكر أنه يمتنع عليهم من ثلاثة أوجه ، أحدها : [أنه ما ينبغى لهم ، أى : ليس هو من بُغْيتهم ولا من طَلِبَتهم ؛ لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد ، وهذا فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ونور وهدى وبرهان عظيم ، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة ، ولهذا قال تعالى : (وما ينبغى لهم) .

وقوله : (وما يستطيعون) ، أى : ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك ، قال الله تعالى : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله (٤)) .

ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته ، لما وصلوا إلى ذلك ؛ لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله ، لأن السماء ملئت حرسا شديدا وشُهُبا فى مُدّة إنزال القرآن على رسوله ، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه ، لئلا يشتبه الأمر . وهذا من رحمة الله بعباده ، وحفظه لشرعه ، وتأييده لكتابه ولرسوله ، ولهذا قال : (إنهم عن السمع لمعزولون) ، كما قال تعالى مخبرا عن الجن : (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديداً وشهباً ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا . وأنا لا ندرى أشرّ أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا (٥)) .

---

(١) البيت فى سيرة عمر بن خطاب لابن الجوزى : ١٣٥ ، وفيها وفى المخطوطة والطبعات السابقة : «كأنك لم تؤثر» ، والسياق يقتضى ما أثبتناه ؛ يقول : كأنك لم يصبك الدهر بشىء عند ما تدرك مناك .
(٢) سورة الإسراء ، آية : ١٥ .
(٣) سورة القصص ، آية : ٥٩ .
(٤) سورة الحشر ، آية : ٢١
(٥) سورة الجن ، الآيات : ٨ — ١٠ .

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾

يقول تعالى آمرا بعبادته وحده لا شريك له ، ومخبرا أنّ من أشرك به عذبه .

ثم قال تعالى آمرا لرسوله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ أن ينذر عشيرته الأقربين ، أى : الأدنين إليه ، وأنه لا يُخَلِّص أحداً منهم إلا إيمانُه بربه عز وجل ، وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين . ومن عصاه من خلق الله كائنا من كان فليتبرأ منه ، ولهذا قال : (فإن عصوك فقل : إنى برىء مما تعملون) . وهذه النِّذارة الخاصة لا تنافى العامة ، بل هى فرد من أجزائها ، كما قال : (لتُنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون (١)) ، وقال : (لتنذر أم القرى ومن حولها (٢)) ، وقال : (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم (٣)) ، وقال : (لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا (٤)) ، وقال : (لأنذركم به ومن بلغ (٥)) ، كما قال : (ومن يكفر به من الأحزاب فالنارُ موعده (٦)) .

وفى صحيح مسلم : والذى نفسى بيده ، لا يسمع بى أحدٌ من هذه الأمة ، يهودىّ ولا نصرانى ، ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار (٧) .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى نزول هذه الآية الكريمة ، فلنذكرها :

الحديث الأول ، قال الإمام أحمد ــ رحمه الله ــ : حدثنا عبد الله بن نُمير ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مُرّة ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس قال : لما أنزل الله عز وجل : (وأنذرْ عشيرتك الأقربين) ، أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم الصفا فصعد عليه ، ثم نادى : يا صباحاه (٨) . فاجتمع الناس إليه بين رجل يجىء إليه ، وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهر ، يا بنى [لؤى] ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل ، تريد أن تغير عليكم ، صدقتمونى ؟ قالوا : نعم . قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبا لك سائرَ اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا ؟. وأنزل الله : (تبت يدا أبى لهب وتب (٩)) .

(١) سورة « يس » ، آية : ٦ .
(٢) سورة الأنعام ، آية : ٩٢ .
(٣) سورة الأنعام ، آية : ٥١ .
(٤) سورة مريم ، آية : ٩٧ .
(٥) سورة هود ، آية : ١٩ .
(٦) سورة هود ، آية : ١٧ .
(٧) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « وجوب الإيمان برسالة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى جميع الناس ، ونسخ الملل بملته » : ١/٩٣ .
(٨) « يا صباحاه » : كلمة يقولها المستغيث ، وأصلها إذا صاحوا للغارة ؟ لأنهم أكثر ما كانوا يغيرون عند الصباح ، ويسمون يوم الغارة يوم الصباح ، فكان القائل « يا صباحاه » يقول : قد غشينا العدو .
(٩) مسند الإمام أحمد : ١/٣٠٧ .

ورواه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي ، من طرق ، عن الأعمش ، به (١)

الحديث الثاني ، قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا هشام ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : لما نزلت : (وأنذر عشيرتك الأقربين) ، قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا فاطمة ابنةَ محمد ، يا صفيةَ ابنةَ عبد المطلب ، يا بني عبد المطلب ، لا أملك لكم من الله شيئا ، سلوني من مالي ما شئتم (٢) : انفرد بإخراجه مسلم (٣) .

الحديث الثالث ، قال أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا زائدة ، حدثنا عبد الملك بن عُمَير ، عن موسى بن طلحة ، عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال: لما نزلت هذه الآية : (وأنذر عشيرتك الأقربين) ، دعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم [قريشا] ، فعم وخص(٤)،فقال: يامعشر قريش ، أنقذوا أنفسكم من النار : يامعشر بني كعب، أنقذوا أنفسكم من النار . يامعشر بني عبد مناف ، أنقذوا أنفسكم من النار : يامعشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار . يامعشر بني عبد المطلب ، أنقذوا أنفسكم من النار ، [يافاطمة بنت محمد ، أنقذي نفسك من النار] ،(٥) فاني — والله — ما أملك لكم من الله شيئا ، إلا أن لكم رَحِماً سأبُلّها (٦) ببلالها (٧) .

ورواه مسلم والترمذي ، من حديث عبد الملك بن عمير ، به ، وقال الترمذي : غريب من هذا الوجه : (٨) ورواه النسائي من حديث موسى بن طلحة مرسلا ، لم يذكر فيه أبا هريرة (٩) : والموصول هو الصحيح : وأخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري ، عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة (١٠) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا محمد ، يعني ابن إسحاق — عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « يابني عبد المطلب ، اشتروا أنفسكم من الله ، ياصفيةُ عمة رسول الله . ويافاطمة بنت رسول الله ، اشتريا أنفسكما من الله ، لا أُغني عنكما من الله شيئا ، سلاني من مالي ماشئتما (١١) .

---

(١) البخاري ، تفسير سورة (تبت يدا أبي لهب وتب) : ٦/٢٢١ — ٢٢٢ . وتفسير سورة الشعراء : ٦/١٤٠ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب في قوله تعالى : (وأنذر عشيرتك الأقربين) : ١/١٣٤ . وتحفة الأحوذي ، تفسير سورة « تبت » ، الحديث ٣٤٢٢ : ٩/٢٩٦ — ٢٩٨ ، وقال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٦/١٨٧ .

(٣) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب قوله تعالى : (وأنذر عشيرتك الأقربين) : ١/١٣٣ .

(٤) « فعم وخص » ، أي : في النداء . وقوله : « يا معشر قريش » ، وما بعده ، بيان لما عم وخصه .

(٥) ما بين القوسين عن مسند الإمام أحمد .

(٦) سأبلها : سأصلها . والبلال — بكسر الباء — : جمع بلل — بفتحتين — وهو كل ما بل الحلق من ماء أو لبن أو غيره .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٢/٣٦٠ .

(٨) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب قوله تعالى : (وأنذر عشيرتك الأقربين) : ١/١٣٣ . وتحفة الأحوذي ، تفسير سورة الشعراء ، الحديث ٣٢٣٧ : ٩/٤١ — ٤٢ .

(٩) النسائي ، كتاب الوصايا ، باب « إذا أوصى لعشيرته الأقربين » : ٦/٢٤٨ — ٢٤٩ .

(١٠) البخاري ، تفسير سورة الشعراء : ٦/١٤٠ ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب قوله تعالى : (وأنذر عشيرتك الأقربين) : ١/١٣٣ .

(١١) مسند الإمام أحمد : ٢/٤٤٨ — ٤٤٩ .

تفرد به من هذا الوجه ؛ وتفرد به أيضا ، عن معاوية ، عن زائدة ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه (١) . ورواه أيضا عن حسن ، ثنا ابن لهيعة ، عن الأعرج [سمعت] أبا هريرة مرفوعا (٢) .

وقال أبو يعلى : حدثنا سُوَيد بن سَعيد ، حدثنا ضِمام بن إسماعيل ، عن موسى بن وَرْدان ، عن أبي هريرة ، عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « يابني قصي ، يابني هاشم ، يابني عبد مناف ، أنا النذير والموت المغير ، والساعة الموعد » .

الحديث الرابع : قال أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا التيمي ، عن أبي عثمان ، عن قَبيصة بن مُخارق وزُهَير بن عمرو قالا : لما نزلت : (وأنذر عشيرتك الأقربين) ، صَعِد رسول الله صلى الله عليه وسلم رَضْمَةً (٣) من جبل على أعلاها حجراً ، فجعل ينادي : « يابني عبد مناف ، إنما أنا نذير ، إنما مثلي ومثلكم كرجل رأى العدو ، فذهب يربأ أهله ــ يخشى (٤) أن يسبقوه ــ فجعل ينادي ويهتف : ياصباحاه (٥) » .

ورواه مسلم والنسائي ، من حديث سليمان بن طرخان التيمي ، عن أبي عثمان عبد الرحمن بن مُلٍّ النَّهْدِيّ ، عن قَبيصة وزُهَير بن عَمْرو الهلالي ، به (٦) .

الحديث الخامس : قال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا شريك عن الأعمش ، عن المنهال ، عن عباد ابن عبد الله الأسدي ، عن علي ــ رضي الله عنه ــ قال : لما نزلت هذه الآية : (وأنذر عشيرتك الأقربين) ، جمع النبي صلى الله عليه وسلم من أهل بيته ، فاجتمع ثلاثون ، فأكلوا وشربوا قال : وقال لهم : « من يَضْمَنُ عني ديني ومواعيدي ، ويكون معي في الجنة ، ويكون خليفتي في أهلي ؟ فقال رجل ــ لم يسمه شريك ــ : يارسول الله ، أنت كنت بحراً (٧) ، من يقوم بهذا ؟ قال : ثم قال الآخر ، قال : فعرض ذلك على أهل بيته ، فقال عليٌّ : أنا (٨)

طريق أخرى بأبسط من هذا السياق ، قال أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا أبو عوانة ، عن عثمان بن المغيرة ، عن أبي صادق ، عن ربيعة بن ناجذ ، عن علي ــ رضي الله عنه ــ قال : جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ أودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ بني عبد المطلب ، وهم (٩) رَهْطٌ ، كلهم يأكل الجذعة ويشرب الفَرَق (١٠) ــ قال :

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢/٣٩٨ – ٣٩٩ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٢/٣٥٠ . وما بين القوسين المعقوفين منه .

(٣) في المسند : « رقمة من جبل » . وقد أثبتها ابن الأثير في النهاية ، مادة رقم ، وقال : « رقمة الوادي : جانبه . وقيل : مجتمع مائه » . وفي موضع آخر من المسند ٣/٤٧٦ مثل ما هنا : « رضمة من جبل » وفي النهاية مادة رضم : « الرضمة : واحدة الرضم ــ بفتح فسكون ــ والرضام ، وهي دون الهضاب . وقيل : صخور بعضها فوق بعض » .

(٤) في المسند : « فخشي » .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٥/٦٠ .

(٦) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب قوله تعالى : (وأنذر عشيرتك الأقربين) : ١/١٣٤ .

(٧) في المخطوطة : « بحرى » . والمثبت عن المسند . ومعنى « كنت بحرا » أنه واسع الكرم والجود : صلى الله عليه وسلم .

(٨) مسند الإمام أحمد : ١/١١١ .

(٩) في المسند : « فيهم رهط » .

(١٠) الفرق ــ بفتح الفاء والراء ــ : مكيال يسع ستة عشر رطلا .

وصنع لهم (١) مداً من طعام فأكلوا حتى شبعوا – قال : وبقى الطعام كما هو كأنه لم يمس ، ثم دعا بغُمَر (٢) فشربوا حتى رَوُوا ، وبقى الشراب كأنه لم يمس – : أو لم يشرب – وقال : يابنى عبد المطلب ، إنى بعثت إليكم خاصة وإلى الناس عامة ، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم ، فأيكم يبايعنى على أن يكون أخى وصاحبى ؟ قال : فلم يقم إليه أحد ، قال : فقمتُ إليه – وكنت أصغر القوم – قال : فقال : اجلس ، ثم قال ثلاث مرات ، كل ذلك أقوم إليه فيقول لى : اجلس ، حتى كان فى الثالثة ضرب بيده على يدى (٣) .

طريق أخرى أغرب وأبسط من هذا السياق بزيادات أخر ، قال الحافظ أبو بكر البيهقى فى دلائل النبوة : أخبرنا محمد ابن عبد الله الحافظ ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، حدثنا أحمد بن عبد الجبار ، حدثنا يُونُس بن بكير (٤) ، عن محمد بن إسحاق قال : فحدثنى من سمع عبد الله بن الحارث بن نوفل – واستكتمنى اسمه – عن ابن عباس ، عن على بن أبى طالب – رضى الله عنه – قال : لما نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وأنذر عشيرتك الأقربين * واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عرفت أنى إن بادأتُ بها قومى ، رأيت منهم ما أكره ، فَصَمَتُّ ، فجاءنى جبريل – عليه السلام – فقال : يامحمد ، إن لم تفعل ما أمرك به ربك عذبك ربك . قال على رضى الله عنه : فدعانى فقال : ياعلى ، إن الله قد أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، فعرفت أنى إن بادأتهم بذلك رأيتُ منهم ما أكره ، فصَمَتُّ عن ذلك ، ثم جاءنى جبريل فقال : يامحمد ، إن لم تفعل ما أمرتَ به عذبك ربك . فاصنع لنا ياعلى شاة على صاع من طعام ، وأعدَّ لنا عُسًّا (٥) لبن ، ثم اجمع لى بنى عبد المطلب ، ففعلتُ فاجتمعوا له ، وهم يومئذ أربعون رجلا ، يزيدون رجلا أو ينقصون رجلا ، فيهم أعمامه : أبو طالب ، وحمزة ، والعباس ، وأبو لهب الكافر الخبيث ، فقدَّمت إليهم تلك الجفْنة ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم منها حِذْيَةً (٦) ، فشقها بأسنانه ثم رمى بها فى نواحيها ، وقال : كلوا بسم الله . فأكل القومُ حتى نَهِلوا (٧) عنه ما يرى إلا آثار أصابعهم ، والله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اسقهم يا على . فجئت بذلك القَعْب (٨) فشربوا منه حتى نَهِلُوا جميعاً ، وأيم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله . فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم ، بدَرَه أبو لهب إلى الكلام فقال : لَهَدَّ ما سحركم (٩) صاحبكم . فتفرقوا ولم يكلّمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما كان الغدُ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا على ، عُدْ لنا بمثل الذى كنت صنعت بالأمس

(١) المد – بضم الميم – : ربع صاع .

(٢) الغمر – بضم ففتح – : القدح الصغير .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١٥٩/١ .

(٤) فى المخطوطة : « يوسف بن بكير » . وهو خطأ واضح .

(٥) العس – بضم فسكون – : القدح الكبير .

(٦) الحذية – بكسر الحاء ، وسكون الذال ، ثم ياء وهاء – : ما قطع من اللحم طولا .

(٧) فى تاج العروس : « وقد ورد فى كلامهم : « أكل من الطعام حتى نهل » ، قال شيخنا : « والظاهر أنه من المجاز ، وعلاقته لزوم الشرب للأكل ، غالباً ؛ وإلا فالنهل إنما هو فى الشراب كالعلل » .

(٨) القعب – بفتح العين – : القدح العظيم .

(٩) لهد : كلمة يتعجب بها ، يقال : « لهد الرجل » أى : ما أجلده ؟ ويقال : « إنه لهد الرجل » ، أى : لنعم الرجل ؟

من الطعام والشراب ، فان هذا الرجل قد بدرني إلى ماسمعت قبل أن أكلم القوم : ففعلت ، ثم جمعتهم له ، فصنع رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صنع بالأمس ، فأكلوا حتى نهلوا عنه ، وأيم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اسقهم يا علي : فجئت بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعاً ، وأيم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله : فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم بدره أبو لهب بالكلام فقال : لهد ما سحركم صاحبكم : فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله ، فلما كان الغد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا علي ، عد لنا بمثل الذي كنت صنعت لنا بالأمس من الطعام والشراب ، فان هذا الرجل قد بدرني إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم : ففعلت ، ثم جمعتهم له فصنع رسول الله صلى الله عليه وسلم [كما صنع] بالأمس ، فأكلوا حتى نهلوا عنه ، ثم سقيتهم من ذلك القعب حتى نهلوا عنه ، وأيم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ويشرب مثلها ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا بني عبد المطلب ، إني ــ والله ــ ما أعلم شابا من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، إني قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة ».

قال أحمد بن عبد الجبار : بلغني أن ابن إسحاق إنما سمعه من عبد الغفار بن القاسم أبي مريم ، عن المنهال بن عمرو ، عن عبد الله بن الحارث (١).

وقد رواه أبو جعفر بن جرير ، عن ابن حميد ، عن سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن عبد الغفار بن القاسم ، عن المنهال بن عمرو ، عن عبد الله بن الحارث ، عن ابن عباس ، عن علي بن أبي طالب ــ فذكر مثله ، وزاد بعد قوله : « إني جئتكم بخير الدنيا والآخرة » ــ : وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه ، فأيكم يوازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ، وكذا وكذا ؟ قال : فأحجم القوم عنها جميعاً ، وقلت ــ وإني لأحدثهم سناً ، وأرمصهم (٢) عينا ، وأعظمهم بطنا ، وأحمشهم (٣) ساقا ــ : أنا يا نبي الله ، أكون وزيرك عليه : فأخذ برقبتي ثم قال : إن هذا أخي ، وكذا وكذا ، فاسمعوا له وأطيعوا : قال : فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع (٤).

تفرد بهذا السياق عبد الغفار بن القاسم أبي مريم ، وهو متروك كذاب شيعي ، اتهمه علي بن المديني (٥) وغيره بوضع الحديث ، وضعفه الأئمة رحمهم الله.

طريق أخرى ، قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا الحسين بن عيسى (٦) بن ميسرة الحارثي ، حدثنا عبد الله ابن عبد القدوس ، عن الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن عبد الله بن الحارث قال : قال علي ، رضي الله عنه : لما نزلت

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ، مخطوط بدار الكتب برقم ٧٠١ حديث : ٢ ورقة : ٢٣ ، ٢٤ . ورواية الحديث كما في الدلائل تفيد أن الرسول أعد لهم الطعام في يومين لا في ثلاثة أيام كما هنا .

(٢) الرمص ــ بفتحتين ــ : البياض الذي يجتمع في زوايا الأجفان .

(٣) أي : دقيق الساق .

(٤) تفسير الطبري : ١٩/٧٥ .

(٥) انظر ميزان الاعتدال : ٢/٦٤٠ ــ ٦٤١ .

(٦) في المخطوطة : « حدثنا الحسين ، عن عيسى » ، والصواب ما أثبتناه من ترجمته في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ١/٢/٦٠ .

هذه الآية : (وأنذر عشيرتك الأقربين) ، قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اصنع لى رجل شاة بصاع من طعام وإناء لبنا . قال : ففعلت ، ثم قال : ادع بنى هاشم . قال : فدعوتهم وإنهم يومئذ لأربعون غير رجل — أو : أربعون ورجل — قال : وفيهم عشرة كلهم يأكل الجذعة بإدامها . قال : فلما أتوا بالقصعة أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذروتها ثم قال : كلوا فأكلوا حتى شبعوا ، وهى على هيئتها لم يرزأوا (١) منها إلا يسيراً ، قال : ثم أتيتهم بالإناء فشربوا حتى رووا . قال : وفضل فضل ، فلما فرغوا أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم ، فبدروه الكلام ، فقالوا : ما رأينا كاليوم فى السحر . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : اصنع رجل شاة بصاع من طعام ، [فصنعت ، قال] : فدعاهم ، فلما أكلوا وشربوا قال : فبدروه فقالوا مثل مقالتهم الأولى ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لى : اصنع رجل شاة بصاع من طعام . فصنعت ، قال : فجمعتهم ، فلما أكلوا وشربوا بدرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الكلام فقال : أيكم يقضى عنى دينى ويكون خليفتى فى أهلى ؟ قال : فسكتوا وسكت العباس خشية أن يحيط ذلك بماله ، قال : وسكتّ أنا لسن العباس . ثم قالها مرة أخرى فسكت العباس ، فلما رأيت ذلك قلت : أنا يا رسول الله . قال : وإنى يومئذ لأسوأهم هيئة ، وإنى لأعمش العينين ، ضخم البطن ، حمش الساقين » .

فهذه طرق متعددة لهذا الحديث عن على رضى الله عنه . ومعنى سؤاله — عليه الصلاة والسلام — لأعمامه وأولادهم أن يقضوا عنه دينه ، ويخلفوه فى أهله ، يعنى إن قتل فى سبيل الله ، كأنه خشى إذا قام بأعباء الإنذار أن يقتل ، ولما أنزل الله عز وجل : (يا أيها الرسول ، بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس)(٢) ، فعند ذلك أمن . وكان أولا يحرس حتى نزلت هذه الآية : (والله يعصمك من الناس) . ولم يكن فى بنى هاشم إذ ذاك أشد إيمانا وإيقانا وتصديقا لرسول الله صلى الله عليه وسلم من على — رضى الله عنه — ، ولهذا بدرهم إلى التزام ماطلب منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم كان بعد هذا — والله أعلم — دعاؤه الناس جهرة على الصفا ، وإنذاره لبطون قريش عموما وخصوصا ، حتى سمى من سمى من أعمامه وعماته وبناته ، لينبه بالأدنى على الأعلى ، أى : إنما أنا نذير ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة عبد الواحد الدمشقى — غير منسوب — من طريق عمرو بن سمرة ، عن محمد بن سوقة ، عن عبد الواحد الدمشقى قال : رأيت أبا الدرداء — رضى الله عنه — يحدث الناس ويفتيهم ، وولده إلى جنبه ، وأهل بيته جلوس فى جانب المسجد يتحدثون ، فقيل له : ما بال الناس يرغبون فيما عندك من العلم ، وأهل بيتك جلوس لاهين ؟ فقال : لأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أزهد الناس فى الدنيا الأنبياء ، وأشدهم عليهم الأقربون . وذلك فيما أنزل الله عز وجل : (وأنذر عشيرتك الأقربين) ، ثم قال : إن أزهد الناس فى العالم أهله حتى يفارقهم . ولهذا قال : (وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فإن عصوك فقل : إنى برىء مما تعملون) .

---

(١) أى : لم ينقصوا منها إلا شيئاً يسيراً .

(٢) سورة المائدة ، آية : ٦٧ .

وقوله : (وتوكل على العزيز الرحيم) ، أى : فى جميع أمورك ؛ فإنه مؤيدك وناصرك وحافظك ومظفرك ومُعْلٍ كلمتك .

وقوله : (الذى يراك حين تقوم) ، أى : هو معتن بك ، كما قال تعالى : (فاصبر لحكم ربك فإنك باعيننا) (١)

قال ابن عباس : (الذى يراك حين تقوم) ، يعنى : إلى الصلاة .

وقال عكرمة : يرى قيامه وركوعه وسجوده .

وقال الحسن : (الذى يراك حين تقوم) ، إذا صليت وحدك .

وقال الضحاك : (الذى يراك حين تقوم) ، أى : من فراشك أو مجلسك .

وقال قتادة : (الذى يراك) قائما وجالسا وعلى حالاتك .

وقوله : (وتقلبك فى الساجدين) ــ قال قتادة : (الذى يراك حين تقوم ، وتقلبك فى الساجدين) ، قال : فى الصلاة ، يراك وحدك ويراك فى الجمع . وهذا قول عكرمة ، وعطاء الخراسانى ، والحسن البصرى .

وقال مجاهد : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى من خلفه كما يرى من أمامه ؛ ويشهد لهذا ماصح فى الحديث : « سوّوا صفوفكم ؛ فإنى أراكم من وراء ظهرى» (٢) .

وروى البزار وابن أبى حاتم ، من طريقين ، عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : يعنى تقلبه من صلب نبى إلى صلب نبى ، حتى أخرجه نبيا .

وقوله : (إنه هو السميع العليم) ، أى : السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم ، كما قال تعالى : (وما تكون فى شأن وماتتلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه) (٣) ... الآية .

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

يقول تعالى مخاطبا لمن زعم من المشركين أن ماجاء به الرسول ليس حقا ، وأنه شىء افتعله من تلقاء نفسه ، أو أنه أتاه به رَئِىّ (٤) من الجن ، فنزه الله ــ سبحانه ــ جنابَ رسوله عن قولهم وافترائهم ، ونبه أن ما جاء به إنما هو من من عند الله ، وأنه تنزيله ووحيه ، نزل به ملك كريم أمين عظيم ، وأنه ليس من قَبيل الشياطين ، فإنهم ليس لهم رغبة

(١) سورة الطور ، آية : ٤٨ .

(٢) البخارى ، كتاب الأذان ، باب « إقبال الإمام على الناس عند تسوية الصفوف » : ١/١٨٤ ، ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب « تسوية الصفوف ... » : ٢/٣٠ ــ ٣١ .

(٣) سورة يونس آية : ٦١ .

(٤) الرئى : التابع من الجن ، سمى كذلك لأنه يتراءى لمتبوعه .

فى مثل هذا القرآن العظيم ، وإنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة ؛ ولهذا قال الله : (هل أنبئكم) ، أى : أخبركم (على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم) ، أى : كذوب فى قوله ، وهو الأفاك الأثيم ، أى : الفاجر فى أفعاله . فهذا هو الذى تنزل عليه الشياطين كالكهان وماجرى مجراهم من الكذبة الفسقة ، فإن الشياطين أيضا كذبة فسقة .

(يلقون السمع) ، أى : يسترقون السمع من السماء ، فيسمعون الكلمة من علم الغيب ، فيزيدون معها مائة كذبة ، ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس فيتحدثون بها ، فيصدقهم الناس فى كل ماقالوه ، بسبب صدقهم فى تلك الكلمة التى التى سمعت من السماء ، كما صح بذلك الحديث ، كما رواه البخارى ، من حديث الزهرى : أخبرنى يحيى بن عُرْوَةَ ابن الزبير ، أنه سمع عُرْوَةَ بن الزبير يقول : قالت عائشة — رضى الله عنها — : سأل ناس النبىّ صلى الله عليه وسلم عن الكهان ، فقال : إنهم ليسوا بشىء . قالوا : يا رسول الله ، فإنهم يحدثون بالشىء يكون حقا ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى ، فَيُقَرْقِرُها (١) فى أذن وليه كقَرْقَرة الدجاجة ، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة (٢) .

وقال البخارى أيضا : حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو قال : سمعت عكرمة يقول : سمعت أبا هريرة يقول : إن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا قضى الله الأمر فى السماء ، ضربت الملائكة بأجنحتها خُضْعاناً (٣) لقوله ، كأنها سلسلة على صَفْوان ، حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا : ماذا ؟ قال : ربكم [قالوا للذى قال] : الحق (٤) وهو العلى الكبير . فيسمعها مسترقو السمع ، ومسترقو السمع — هكذا بعضهم فوق بعض — ووصف سفيان بيده فَحَرَفَها ، وبَدَّدَ بين أصابعه (٥) — فيسمع الكلمة ، فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخرُ إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر — أو : الكاهن — فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة . فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : كذا وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التى سُمعت من السماء . انفرد به البخارى (٦) .

وروى مسلم من حديث الزهرى ، عن على بن الحسين ، عن ابن عباس ، عن رجال من الأنصار قريباً من هذا . وسيأتى عند قوله تعالى فى سبأ : (حتى إذا فزع عن قلوبهم (٧)) ... الآية .

وقال البخارى : وقال الليث : حدثنى خالد بن يزيد ، عن سعيد بن أبى هلال : أن أبا الأسود أخبره ، عن عروة ، عن عائشة ، عن النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : إن الملائكة تَحَدَّثُ فى العَنَان — والعَنَان : الغَمَام —

(١) قرقرت الدجاجة : رددت صوتها .
(٢) البخارى ، كتاب التوحيد ، باب « قراءة الفاجر والمنافق » : ١٩٨/٩ .
(٣) انظر تفسير هذه الكلمة فى : ٤٤٦/٤ .
(٤) فى المخطوطة : « قال الذى قال الحق » والمثبت من الصحيح .
(٥) حرفها : أمالها . وبدد بين أصابعه : فرق بينها ، والتبديد : التفريق .
(٦) البخارى ، تفسير سورة سبأ : ١٥٢/٦ ، ١٥٣ .
(٧) مسلم ، كتاب السلام ، باب « تحريم الكهانة وأتيان الكهان » : ٣٦/٧ — ٣٧ .

ــ بالأمر : يكون : فى الأرض ، فتسمع الشياطين الكلمة ، فتقرها فى أذن الكاهن كما تُقَرّ القارورة ، فيزيدون معها مائة كذبة (١) .

وقال البخارى فى موضع آخر من كتاب « بدء الخلق » عن سعيد بن أبى مريم ، عن الليث ، عن عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبى الأسود محمد بن عبد الرحمن ، عن عروة ، عن عائشة ، بنحوه (٢) .

وقوله : (والشعراء يتبعهم الغاوون) ، قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : يعنى الكفار يتبعهم ضلال الإنس والجن . وكذا قال مجاهد رحمه الله ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهما .

وقال عكرمة : كان الشاعران يتهاجيان ، فينتصر لهذا فِئَام (٣) من الناس ، ولهذا فئام من الناس ، فأنزل الله : (والشعراء يتبعهم الغاوون) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا ليث ، عن ابن الهاد ، عن يُحَنَّس ــ مولى مصعب بن الزبير ــ عن أبى سعيد قال : بينا نحن نسير مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالعَرْج (٤) ، إذ عرض شاعر يُنشد ، فقال النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ : خذوا الشيطان ــ أو : أمسكوا الشيطان ــ لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً (٥) .

وقوله : (ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون) ــ قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : فى كل لغو يخوضون (٦) .
وقال الضحاك عن ابن عباس : فى كل فن من الكلام . وكذا قال مجاهد وغيره .
وقال الحسن البصرى : قد ــ والله ــ رأينا أوديتهم التى يهيمون فيها ، مرة فى شتمة فلان ، ومرة فى مدحة فلان .
وقال قتادة : الشاعر يمدح قوماً بباطل ، ويذم قوماً بباطل .

وقوله : (وأنهم يقولون مالا يفعلون) ــ قال العوفى ، عن ابن عباس : كان رجلان على عهد رسول الله ، أحدهما من الأنصار ، والآخر من قوم آخرين ، وإنهما تهاجيا ، فكان مع كل واحد منهما غُوَاة من قومه ــ وهم السفهاء ــ فقال الله تعالى : (والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون مالا يفعلون (٧)) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : أكثر قولهم يكذبون فيه .

وهذا الذى قاله ابن عباس ــ رضى الله عنه ــ هو الواقع فى نفس الأمر ؛ فان الشعراء يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ، ولا عنهم ، فيتكثرون بما ليس لهم . ولهذا اختلف العلماء ــ رحمهم الله ــ فيما إذا اعترف الشاعر فى شعره بما يوجب حداً : هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا ، لأنهم يقولون مالا يفعلون على قولين . وقد ذكر محمد

(١) البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب « صفة إبليس وجنوده » : ٤/١٥٢ .
(٢) البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب « ذكر الملائكة » : ٤/١٣٥ .
(٣) أى : جماعات من الناس .
(٤) العرج ــ بفتح فسكون ــ : قرية جامعة فى واد من نواحى الطائف .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٣/٨ . وانظره من طريق أخرى : ٣/٤١ .
(٦) تفسير الطبرى : ١٩/٧٨ ــ ٧٩ .
(٧) تفسير الطبرى : ١٩/٧٨ .

ابن إسحاق ، ومحمد بن سعد فى الطبقات ، والزبير بن بكار فى كتاب الفكاهة : أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — استعمل النعمان بن عدى بن نضلة على «ميسان» — من أرض البصرة — وكان يقول الشعر ، فقال : (١)

أَلاَ هَلْ أَتَى الحَسْنَاءَ أَنَّ حَلِيلَهَا بِمَيْسَانَ ، يُسقَى فى زُجاجٍ وَحَنْتَمِ (٢)
إِذَا شِئْتُ غَنَّتْنِى دَهَاقِينُ قَرْيَةٍ وَرَقَّاصَةٌ (٣) تَجذُو (٤) على كل مَنْسِمِ
فإنْ كُنتَ نَدْمَانِى فَبالأكْبَرِ اسْقِنِى وَلاَ تَسْقِنِى بِالأَصْغَرِ المُتَثَلِّمِ
لَعَلَّ أَمِيرَ المؤمنِينَ يَسُوؤُه تَنَادُمُنَا بِالجَوْسَقِ المُتَهَدِّمِ (٥)

فلما بلغ أميرَ المؤمنين قال : إى والله ، إنه ليسوؤنى ذلك ، ومن لقيه فليخبره أنى قد عزلته ، وكتب إليه :

(بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو ، إليه المصير) ، أما بعد فقد بلغنى قولك :

لَعَلَّ أَمِيرَ المُؤمنِينَ يَسُوؤُهُ تَنَادُمُنَا بِالجَوْسَقِ المُتَهَدِّمِ

وَأَيمُ (٦) الله ، إنه ليسوؤنى وقد عزلتك : فلما قدم على عمر بكته بهذا الشعر ، فقال : والله — يا أمير المؤمنين — ما شربتُها قطّ ، وما ذاك الشعر إلا شئ طَفَح على لسانى (٧) . فقال عمر : أظن ذلك ، ولكن والله لا تعمل لى على عمل أبدا ، وقد قُلْتَ ما قلتَ .

فلم يُذكر أنه حَدَّه على الشراب ، وقد ضمنه شعره ، لأنهم يقولون مالا يفعلون ، ولكنه ذمه عمر — رضى الله عنه — ولامه على ذلك وعزله به . ولهذا جاء فى الحديث : لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً ، يَرِيه (٨) خير له من أن يمتلئ شعراً (٩) .

---

(١) الأبيات فى سيرة ابن هشام ، فى ذكرى قدوم جعفر من الحبشة : ٢/٢٦٦ ، وكتاب نسب قريش لمصعب الزبيرى : ٣٨٢ ، والاستيعاب لابن عبد البر : ٤/١٥٠٢ ، وأسد الغابة ، الترجمة ٥٢٤٨ : ٥/٣٣٥ ، ومعجم البلدان لياقوت (ميسان) . والمعرب للجواليقى : ١٤٥ ، واللسان (جذا) . والأول فى جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ١٥٨ ، واللسان (حنتم) ، والثانى فى اللسان (صنج) ، والرابع فى اللسان (جسق) .

(٢) الحنتم — بفتح الحاء والتاء ، بينهما نون ساكنة — : جرار خضر تضرب إلى الحمرة .

(٣) كذا فى ابن كثير ، وفى المراجع المتقدمة : « وصناجة » . والصنج — بفتح فسكون — : ما يكون فى الدفوف ، وذو الأوتار . وهو معرب — وامرأة صناجة : ذات صنج . وسموا أعشى بكر صناجة لجودة شعره .

(٤) تجذوا — بجيم وذال معجمة — : تثبت قائمة . وقال ثعلب : « الجذو — بضم الجيم والذال وواو مشدودة — : على أطراف الأصابع . وأما منسم — بفتح الميم ، وسكون النون ، وسين مكسورة — فالأصل فيه منسماً خف البعير ، وهما كالظفرين فى مقدمه بهما يستبان أثر البعير الضال ، واستعماله هنا على سبيل الاستعارة .

(٥) الجوسق — بفتح الجيم والسين ، بينهما واو ساكنة — : الحصن وقيل : شبيه بالحصن . وأصله « كوشك » — بضم الكاف وواو ساكنة ، وفتح الشين — بالفارسية .

(٦) أيم : اسم وضع للقسم ، ويقول اللغويون : أصله أيمن الله .

(٧) فى المعرب للجواليقى ١٤٥ : « ويقال : إن الرجل كان صالحا ، وإنما قال هذا الشعر ليعزله عمر » .

(٨) أى يفسده ؛ من الورى — بفتح فسكون — وهو الداء .

(٩) تحفة الأحوذى ، أبواب الآداب ، باب « ما جاء : لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلئ شعرا » ، الحديث ٣٠١٠ : ٨/١٤٤ ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » ، وقال الحافظ أبو العلى صاحب تحفة الأحوذى : « وأخرجه الشيخان وابن ماجه » . وأخرجه الإمام أحمد عن أبى هريرة : ٢ / ٢٨٨ ، ٣٩١ ، ٤٧٨ .

والمراد من هذا أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – الذى أنزل عليه القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر ، لأن حاله مناف لحالهم من وجوه ظاهرة كما قال تعالى : (وما علمناه الشعر وما ينبغى له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين (١)) ، وقال تعالى : (إنه لقول رسول كريم • وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون • ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون • تنزيل من رب العالمين (٢)) ، وهكذا قال هاهنا : (وإنه لتنزيل رب العالمين • نزل به الروح الأمين • على قلبك لتكون من المنذرين • بلسان عربى مبين) ... إلى أن قال : (وما تنزلت به الشياطين • وما ينبغى لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون) ، إلى أن قال : (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين • تنزل على كل أفاك أثيم • يلقون السمع وأكثرهم كاذبون • والشعراء يتبعهم الغاوون • ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ؟ وأنهم يقولون مالا يفعلون) .

وقوله : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) – قال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيط ، عن أبى الحسن سالم البَرّاد مولى تميم الدارىّ قال : لما نزلت : (والشعراء يتبعهم الغاوون) ، جاء حسان بن ثابت ، وعبد الله ابن رَوَاحة ، وكعب بن مالك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم يبكون فقالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء ، فتلا النبى صلى الله عليه وسلم : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) ، قال : أنتم (وذكروا الله كثيرا) ، قال : أنتم ، (وانتصروا من بعد ما ظلموا) ، قال : أنتم .

رواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير (٣) ، من رواية ابن إسحاق .

وقد روى ابن أبى حاتم أيضا ، عن أبى سعيد الأشج ، عن أبى أسامة ، عن الوليد بن كثير ، عن يزيد بن عبد الله ، عن أبى الحسن مولى [بنى] نوفل : أن حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة أتيا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حين نزلت (والشعراء يتبعهم الغاوون) يبكيان ، فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وهو يقرؤها عليهما : (والشعراء يتبعهم الغاوون) ، حتى بلغ : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) ، قال : أنتم .

وقال أيضاً : حدثنا أبى ، حدثنا أبو سلمة حدثنا حماد بن سلمة ، عن هشام بن عروة ، عن عروة قال : لما نزلت : (والشعراء يتبعهم الغاوون) إلى قوله : (يقولون مالا يفعلون) ، قال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ، قد علم الله أنى منهم ، فأنزل الله (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) إلى قوله : (ينقلبون) .

وهكذا قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، وزيد بن أسلم ، وغير واحد أن هذا استثناء مما تقدم . ولا شك أنه استثناء ، ولكن هذه السورة مكية ، فكيف يكون سبب نزول هذه الآية شعراء الأنصار ؟ فى ذلك نظر ، ولم يتقدم إلا مرسلات لا يعتمد عليها ، والله أعلم ، ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم ، حتى يدخل فيه من كان متلبساً من شعراء الجاهلية بذم الإسلام وأهله ، ثم تاب وأناب ، ورجع وأقلع ، وعمل صالحاً ، وذكر الله كثيراً

---

(١) سورة « يس » ، آية : ٦٩ .
(٢) سورة الحاقة : ٤٠ – ٤٣ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٩ / ٧٩ .

فى مقابلة ما تقدم من الكلام السيء ، فإن الحسنات يذهبن السيئات ، وامتدح الإسلام وأهله فى مقابلة ما كذب بذمه ، كما قال عبد الله بن الزِّبَعْرَى حين أسلم (١) :

يَا رَسُولَ المَلِيكِ ، إنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إذْ أنَا بُورُ
إذْ أُجَارِى الشَّيْطَانَ فى سَنَن الغَـ ـيِّ ، وَمَن مَالَ مَيْلَه مَثْبُورُ

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، كان من أشد الناس عداوة للنبى — صلى الله عليه وسلم — وهو ابن عمه ، وأكثرهم له هجواً ، فلما أسلم لم يكن أحد أحبَّ إليه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يمدح رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بعد ما كان يهجوه ، ويتولاه بعد ما كان قد عاداه : وهكذا روى مسلم فى صحيحه ، عن ابن عباس : أن أبا سفيان صخر بن حرب لما أسلم قال : يا رسول الله ؟ ثلاث أعْطنيهِنَّ قال : نعم : قال : معاويه تجعله كاتبا بين يديك . قال : نعم . قال : وتؤمرنى حتى أقاتل الكفار ، كما كنت أقاتل المسلمين : قال : نعم ، وذكر الثالثة(٢) .

ولهذا قال تعالى : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيراً) ، قيل : معناه ذكروا الله كثيرا فى كلامهم ، وقيل : فى شعرهم ، وكلاهما صحيح مُكَفِّر لما سبق .

وقوله : (وانتصروا من بعد ما ظلموا) — قال ابن عباس : يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين (٣) . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، وغير واحد . وهذا كما ثبت فى الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان : اهجهم — أو قال : هاجهم — وجبريل معك (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهرى ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن أبيه أنه قال للنبى صلى الله عليه وسلم : إن الله — عز وجل — قد أنزل فى الشِّعر ما أنزل ، فقال : إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذى نفسى بيده ، لكأنَّ ما ترمونهم به نَضْحُ(٥) النَّبْل (٦) .

وقوله : (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) ، كما قال تعالى : (يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ، ولهم سوء الدار (٧)) ، وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إياكم والظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة(٨) .
وقال قتادة بن دِعَامَة فى قوله : (وسيعلم الذين ظلموا أىَّ مُنقَلَب ينقلبون) ، يعنى من الشعراء وغيرهم .

---

(١) تقدم البيتان من قريب ، وانظر : ٦/١٠٦ ، ١٠٨ .
(٢) مسلم كتاب الفضائل ، باب « من فضائل أبى سفيان بن حرب » : ٧/١٧١ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٩/٨٠ .
(٤) البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة : ٤/١٣٦ . ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب « فضائل حسان ابن ثابت » : ٧/١٦٣ . ومسند الإمام أحمد عن البراء بن عازب : ٤/٢٨٦ . ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ .
(٥) أى : رمى النبل .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٦/٣٨٧ .
(٧) سورة غافر ، آية : ٥٢ .
(٨) مسلم ، كتاب البر ، باب « تحريم الظلم » : ٨/١٨ . ومسند الإمام أحمد عن ابن عمر : ٢/٩٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ — وعن جابر بن عبد الله : ٣/٣٢٣ .

وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا إياس بن أبي تميمة ، قال : حضرت الحسن ومُرَّ عليه بجنازة نصراني ، فقال الحسن : (وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون) :

وقال عبد الله بن رَبَاح ، عن صفوان بن مُحْرِز : أنه كان إذا قرأ هذه الآية ـ بكى حتى أقول : قد اندق قَضِيب زَوره : (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) :

وقال ابن وهب : أخبرني ابن سُرَيج الإسكندراني ، عن بعض المشيخة : أنهم كانوا بأرض الروم ، فبينما هم ليلةً على نار يشتوون (١) عليها ـ أو: يصطلون(٢) ـ إذا بركاب(٣) قد أقبلوا ، فقاموا إليهم ، فإذا فضالة بن عُبيد فيهم ، فأنزلوه فجلس معهم ـ قال : وصاحب لنا قائم يصلي ـ قال : حتى مرّ بهذه الآية : (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) ، قال فضالة بن عبيد : هؤلاء الذين يخربون البيت .

وقيل : المراد بهم أهل مكة : وقيل : الذين ظلموا من المشركين : والصحيح أن هذه الآية عامة في كل ظالم ، كما قال ابن أبي حاتم : ذُكر عن زكريا بن يحيى الواسطي : حدثني الهيثم بن محفوظ أبو سعد النهدي ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن ابن المحبر ، حدثنا هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : كتب أبي وصيته سطرين : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبي قُحافة ، عند خروجه من الدنيا ، حين يؤمن الكافر ، وينتهي الفاجر ، ويصدُق الكاذب : إني استخلفت عليكم عُمَر بن الخطاب ، فإن يعدل فذاك ظني به ، ورجائي فيه ، وإن يجر ويبدِّل فلا أعلم الغيب ، (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) .

آخر تفسير سورة الشعراء والحمد لله رب العالمين

---

(١) أي : يتخذون عليها شواء .
(٢) أي يستدفئون .
(٣) كذا في مخطوطة الأزهر : « ركاب » والركاب بكسر الراء ـ جمع راكب . نقل ذلك ابن منظور في اللسان عن ابن الأعرابي.

تفسير سورة النمل

وهى مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

طس تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

قد تقدم الكلام فى « سورة البقرة (١) » على الحروف المتقطعة فى أوائل السُّوَر .

وقوله : (تلك آيات) ، أى : هذه آيات (القرآن وكتاب مبين) ، أى : بين واضح ، (هدى وبشرى للمؤمنين) ؛ أى : إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقه ، وعمل بما فيه ، وأقام الصلاة المكتوبة ، وآتى الزكاة المفروضة ، وآمن بالدار الآخرة والبعث بعد الموت ، والجزاء على الأعمال ، خيرها وشرها ، والجنة والنار ، كما قال تعالى : (قل : هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عَمىً ، أولئك ينادون من مكان بعيد (٢)) ، وقال : (لتبشر به المتقين ، وتنذر به قوما لُدًّا (٣)) ، ولهذا قال هاهنا : (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة) ، أى : يكذبون بها ، ويستبعدون وقوعها (زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون) ، أى : حسَّنَّا لهم ما هم فيه ، ومددنا لهم فى غَيِّهم فهم يتيهون فى ضلالهم . وكان هذا جزاء على ما كذبوا به من الدار الآخرة ، كما قال تعالى : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون (٤)) ، (أولئك الذين لهم سوء العذاب) ، أى : فى الدنيا والآخرة ، (وهم فى الآخرة هم الأخسرون) ، أى : ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر .

وقوله : (وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) ، أى : (وإنك) يا محمد — قال قتادة : (لتلقى) ، أى : لتأخذ (القرآن من لدن حكيم عليم) ، أى : من عند حكيم عليم ، أى : حكيم فى أوامره ونواهيه ، عليم بالأمور جليلها وحقيرها ، فخبره هو الصدق المحض ، وحكمه هو العدل التام ، كما قال تعالى : (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا (٥)) .

---

(١) انظر : ١/٥٦ — ٦٠ .
(٢) سورة فصلت ، آية : ٤٤ .
(٣) سورة مريم ، آية : ٩٧ .
(٤) سورة الأنعام ، آية : ١١٠ .
(٥) سورة الأنعام ، آية : ١١٥ .

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾
فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى
لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ
تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ
ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مذكراً له ماكان من أمر موسى ، كيف اصطفاه الله وكلمه ، وناجاه وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة ، والأدلة القاهرة ، وابتعثه إلى فرعون وملئه ، فجحدوا بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له ، فقال تعالى : (إذ قال موسى لأهله) ، أي : أذكر حين سار موسى بأهله ، فأضل الطريق ، وذلك في ليل وظلام ؛ فآنس من جانب الطور ناراً ، أي : رأى ناراً تأجج وتضطرم ، فقال (لأهله : إني آنست ناراً ، سآتيكم منها بخبر) ، أي : عن الطريق ، (أو آتيكم منها بشهاب قبس لعلكم تصطلون) ، أي : تتدفئون به ؛ وكان كما قال ، فانه رجع منها بخبر عظيم ، واقتبس منها نورا عظيما ، ولهذا قال تعالى: (فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها) أي : فلما أتاها رأى منظراً هائلا عظيما ، حيث انتهى إليها ، والنار تضطرم في شجرة خضراء ، لا تزداد النار إلا توقداً ، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة ، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء ،

قال ابن عباس ، وغيره : لم تكن ناراً ، إنما كانت نوراً يتوهج .

وفي رواية عن ابن عباس : نور رب العالمين . فوقف موسى متعجبا مما رأى ، فنودي أن بورك من في النار .قال ابن عباس : قدّس (١) .

(ومن حولها) ، أي : من الملائكة . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جُبير ، والحسن ، وقتادة .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن حبيب ، حدثنا أبو داود ـ هو الطيالسي ـ حدثنا شعبة والمسعودي ، عن عمرو ابن مرة ، سمع أبا عُبَيدة يحدث ، عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط(٢) ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ـ زاد المسعودي : وحجابه [النور أو] النار ، لو كشفها لأحرقت سُبُحات(٣) وجهه كل شيء أدركه بصره . ثم قرأ أبو عُبَيدة : (أن بُورِكَ من في النار ومن حولها) . وأصل هذا الحديث مخرج في الصحيح لمسلم ، من حديث عمرو بن مرّة (٤)، به .

(١) تفسير الطبري : ١٩ / ٨٢ .

(٢) القسط : الميزان .

(٣) سبحات وجهه : نوره وجلاله وبهاؤه .

(٤) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب في قوله عليه السلام : « إن الله لا ينام » : ١ / ١١١ .

وقوله : (وسبحان الله رب العالمين) ، أى : الذى يفعل ما يشاء ولا يشبه شيئا من مخلوقاته ، ولا يحيط به شىء من مصنوعاته ، وهو العلى العظيم ، المباين لجميع المخلوقات ، ولا يكتنفه الأرض والسموات ، بل هو الأحد الصمد ، المنزه عن مماثله المحدثات .

وقوله : (يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم) ، أعلمه أن الذى يخاطبه ويناجيه هو ربه الله العزيز ، الذى عز كل شىء وقهره وغلبه ، الحكيم فى أفعاله وأقواله .

ثم أمره أن يلقى عصاه من يده ليظهر له دليلا واضحا على أنه الفاعل المختار ، القادر على كل شىء : فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت فى الحال حيّة عظيمة هائلة فى غاية الكبر ، وسرعة الحركة مع ذلك ، ولهذا قال : (فلما رآها تهتز كأنها جان) ، والجان : ضرب من الحيات ، أسرعه حركة ، وأكثره اضطرابا — وفى الحديث نُهِىَ عن قتل جنّان (١) البيوت — فلما عاين موسى ذلك (ولى مدبرا ولم يعقب) ، أى : لم يلتفت من شدة فَرَقه (٢) : (يا موسى لا تخف ، إنى لا يخاف لدى المرسلون) ، أى : لا تخف مما ترى ، فانى أريد أن أصطفيك رسولا وأجعلك نبيا وجيها .

وقوله : (إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء ، فإنى غفور رحيم) ، هذا استثناء منقطع ، وفيه بشارة عظيمة للبشر ، وذلك أن من كان على شىء ثم أقلع عنه ، ورجع وأناب ، فان الله يتوب عليه ، كما قال تعالى : (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى (٣)). وقال تعالى : (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله ، يجد الله غفوراً رحيما) (٤) والآيات فى هذا كثيرة جداً .

وقوله : (وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء) ، هذه آية أخرى ، ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار ، وصدق من جعل له معجزة ، وذلك أن الله — تعالى — أمره أن يُدخل يده فى جيب درعه ، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة ، كأنها قطعة قمر ، لها لمعان يتلألأ كالبرق الخاطف .

وقوله : (فى تسع آيات) ، أى : هاتان ثنتان من تسع آيات أؤيدك بهن ، وأجعلهن برهانا لك إلى فرعون وقومه ، (إنهم كانوا قوما فاسقين) .

وهذه هى الآيات التسع التى قال الله تعالى : (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) (٥) كما تقدم تقرير ذلك (٦) هنالك ، وقوله (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة) أى : بينة واضحة ظاهرة (قالوا : هذا سحر مبين) ، وأرادوا معارضته بسحرهم فغلبوا وانقلبوا صاغرين (وجحدوا بها) أى فى ظاهر أمرهم (واستيقنتها أنفسهم) أى علموا فى أنفسهم أنها حقّ من عند الله ، ولكن جحدُوها وعاندوها وكابروها (ظلما وعلواً) ، أى : ظلما من أنفسهم ، سجيّة ملعونة ، وعلواً ، أى : استكباراً عن اتباع الحق . ولهذا قال : (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) ، أى : انظر يامحمد كيف كان عاقبة كفرهم ، فى إهلاك الله إياهم ، وإغراقهم عن آخرهم فى صبيحة واحدة .

---

(١) البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب « ذكر الجن وثوابهم » : ٤/١٥٤ . ومسلم ، كتاب قتل الحيات : ٧/ ٣٨ — ٣٩ .
، والجنان — بكسر الجيم — : جمع جان ، وهى الحية الصغيرة .

(٢) الفرق : الخوف .

(٣) سورة طه ، آية : ١٠٢ .

(٤) سورة النساء ، آية : ١١٠ .

(٥) سورة الإسراء : ١٠١ .

(٦) انظر فيما تقدم : ٥/١٢٢ .

وفحوى الخطاب يقول : احذروا أيها المكذبون بمحمد، الجاحدون لما جاء به من ربه ، أن يصيبكم ماأصابهم بطريق الأولى والأحرى ؛ فإن محمداً ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أشرف وأعظم من موسى،وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى ، بما آتاه الله من الدلائل المقترنة بوجوده فى نفسه وشمائله ، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به ، وأخذ المواثيق له ، عليه من ربه أفضلُ الصلاة والسلام .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ولبيبه داود وابنه سليمان ـ عليهما من الله السلام ـ من النعم الجزيلة ، والمواهب الجليلة ، والصفات الجميلة ، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة ، والملك والتمكين التام فى الدنيا ، والنبوة والرسالة فى الدين ، ولهذا قال : (ولقد آتينا داود وسليمان علما ، وقالا : الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) :

قال ابن أبى حاتم: ذُكر عن إبراهيم بن يحيى بن تمام(١) : أخبرنى أبى ، عن جدى قال : كتب عمر بن عبد العزيز : إن الله لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها ، إلا كان حَمْدُه أفضلَ من نعمته ، لو كنت لاتعرف ذلك إلا فى كتاب الله المنزل ؛ قال الله تعالى : (ولقد آتينا داود وسليمان علما ، وقالا : الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) ، وأىّ نعمة أفضلُ مما أوتى داود وسليمان عليهما السلام (٢) .

وقوله : (وورث سليمان داود) ، أى : فى الملك والنبوة ، وليس المراد وراثةَ المال ؛ إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود ، فانه قد كان لداودَ مائةُ امرأة . ولكن المرادَ بذلك وراثةُ الملك والنبوة ؛ فإن الأنبياء لاتورث أموالهم ، كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم: « نحن معشر الأنبياء لانورث، ماتركناه (٣) صدقة » :

---

(١) كذا فى مخطوطة الأزهر : « تمام » . وفى الطبعات السابقة : « هشام » . ولم تقع لنا ترجمته .

(٢) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور ـ عن ابن أبى حاتم : ١٠٣/٥ .

(٣) البخارى ، كتاب الفرائض ، باب قول النبى : « لا نورث ، ما تركنا ، صدقة » : ١٨٥/٨ ـ ١٨٧ . ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لا نورث ، ما تركنا صدقة » : ١٥٣/٥ ـ ١٥٦ . ومسند الإمام أحمد عن أبى بكر : ٤/١ ، ٦ ، ٩ ، ١٠ ، ومن عمر : ٢٥/١ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٧٩ ، ١٩١ ، ٢٠٨ . ومن أبى هريرة : ٤٦٣/٢ . ومن عائشة : ١٤٥/٦ ، ٢٦٢ .

وقوله : (ياأيها الناس ، عُلّمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء) ، أى : أخبر سليمان بنعم الله عليه ، فيما وهبه له من الملك التام ، والتمكين العظيم ، حتى إنه سَخَّر له الإنس والجن والطير ؛ وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً ، وهذا شيء لم يُعطَه أحد من البشر — فيما علمناه — مما أخبر الله به ورسوله ؛ ومن زعم من الجهلة والرّعاع أنّ الحيوانات كانت تنطق كنطق بنى آدم قبل سليمان بن داود — كما يتفوه به كثير من الناس — فهو قولٌ بلا علم ؛ ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة ، إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم ، ويعرف ماتقول ، فليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا ، بل لم تزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خُلقت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال ؛ ولكن الله — سبحانه وتعالى — كان قد أفهم سليمان — عليه السلام — مايتخاطب به الطيور فى الهواء ، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها ، ولهذا قال : (علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شيء) ، أى : مما يحتاج إليه المُلك ، (إن هذا لهو الفضل المبين) ، أى : الظاهر البين لله علينا .

قال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن ، عن عمرو بن أبى عمرو ، عن المطلب ، عن أبى هريرة — رضى الله عنه — : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كان داود — عليه السلام — فيه غيرة شديدة ، فكان إذا خرج أغلقت الأبواب ، فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع — قال : فخرج ذات يوم وأغلقت الأبواب ، فأقبلت امرأته (١) تطلع إلى الدار ، فإذا رجل قائم وسط الدار ، فقالت لمن فى البيت : منْ أين دخل هذا الرجل ، والدار مغلقة ؟ والله لنفتضحن (٢) بداود ، فجاء داود عليه السلام فإذا الرجل قائم وسط الدار ، فقال له داود : من أنت؟ قال : الذى (٣) لايهاب الملوك ، ولا يمتنع من الحجاب . فقال داود : أنت والله إذاً ملك الموت ؛ مرحباً بأمر الله ، فتزمل(٤) داود — عليه السلام — مكانه حتى قبضت نفسه ، حتى فرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس، فقال سليمان عليه السلام للطير : أظلى على داود فأظلت عليه الطير حتى أظلمت [عليهما] الأرض ، فقال لها سليمان : اقبضى جناحا جناحا قال أبو هريرة(٥) : يارسول الله، كيف فعلت الطير؟ فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم يده ، وغلبت عليه يومئذ المضْرَحيّة(٦) .

قال أبو الفرج بن الجَوْزىّ : المَضْرَحيّة : النسور الحُمر .

وقوله تعالى : (وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون) ، أى : وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير ، يعنى : ركب فيهم فى أبهة وعظَمة كبيرة فى الإنس ، وكانوا هم الذين يلونه ، والجن وهم بعدهم فى المنزلة ، والطير ومنزلتها فوق رأسه ، فإن كان حر أظلته منه بأجنحتها .

---

(١) فى المخطوطة : « امرأة » . والمثبت من المسند .

(٢) فى المسند : « لتفتضحن » . بالتاء .

(٣) لفظ المسند : « أنا الذى لا أهاب الملوك ، ولا يمتنع منى شىء » .

(٤) فى المسند : « فرمّل » . ولم يتبين لنا فى المعجم معنى مناسب للسياق .

(٥) لفظ المسند : « قال أبو هريرة : يرينا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كيف فعلت الطير ، وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم . وغلبت عليه المضرحية » .

(٦) فى مخطوطة الأزهر ، والمسند : « المصرحية » ، بالصاد المهملة . والمثبت من اللسان قال : «المضرحى من الصقور : ماطال جناحاه » .

وقوله : (فهم يُوزَعون) ، أى : يكف أولهم على آخرهم ، لئلا يتقدم أحد عن منزلته التى هى مرتبة له .

قال مجاهد : جعل على كل صنف وَزَعَة ، يردّون أولاها على أخراها ، لئلا يتقدموا فى المسير ، كما يفعل الملوك اليوم .

وقوله : (حتى إذا أتوا على وادى النمل) ، أى : حتى إذا مر سليمان عليه السلام بمن معه من الجيوش والجنود على وادى النمل ، (قالت نملة : يأيها النمل ، ادخلوا مساكنكم ، لايحطمنكم سليمان وجنوده ، وهم لايشعرون) .

أورد ابن عساكر ، من طريق إسحاق بن بشر ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن : أن اسم هذه النملة حرس ، وأنها من قبيلة يقال لهم : بنو الشيصان ، وأنها كانت عرجاء ، وكانت بقدر الذّيب .

أى : خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها ، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنها ، ففهم ذلك سليمان ــ عليه السلام ــ منها ، (فتبسم ضاحكا من قولها ، وقال : رب ، أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ ، وأن أعمل صالحاً ترضاه) ، أى : ألهمنى أن أشكر نعمتك التى مننت بها على ، من تعليمى منطق الطير والحيوان ، وعلى والدى بالإسلام لك ، والإيمان بك ، (وأن أعمل صالحاً ترضاه) ، أى : عملا تحبه وترضاه ، (وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) ، أى : إذا توفيتنى فألحقنى بالصالحين من عبادك ، والرفيق الأعلى من أوليائك .

ومن قال من المفسرين : إن هذا الوادى كان بأرض الشام أو بغيره ، وإن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب ، أو غير ذلك من الأقاويل ، فلا حاصل لها .

وعن نوف البكالى أنه قال : كان نمل سليمان أمثال الذئاب : هكذا رأيته مضبوطاباالياءالمثناة من تحت.وإنما هوبالباء الموحدة ، وذلك تصحيف ، والله أعلم .

والغرض أن سليمان ــ عليه السلام ــ فهم قولها ، وتبسم ضاحكا من ذلك ، وهذا أمر عظيم جدا .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا مسْعَر ، عن زيد العَمّى ، عن أبى الصدّيق الناجى قال : خرج سليمان ــ عليه السلام ــ يستسقى ، فإذا هو بنملة مستلقية على ظهرها ، رافعة قوائمها إلى السماء ، وهى تقول : اللهم ، إنا خلق من خلقك ، ولا غنى بنا عن سقياك ، وإلا تسقنا تهلكنا . فقال سليمان ــ عليه السلام : ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم .

وقد ثبت فى الصحيح ــ عند مسلم ــ من طريق عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همام ، عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : قَرَصَتْ نبياً من الأنبياء نملة ، فأمر بقرية النمل فأحرقت ، فأوحى الله إليه ، أفى أنْ قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تُسَبّح ؟ فهلا نملة واحدة ! » (١)

---

(١) مسلم ، كتاب قتل الحيات وغيرها ، باب « النهى من قتل النمل » : ٧/ ٤٣ .

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾

قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وغيرهما ، عن ابن عباس وغيره : كان الهدهد مهندسا ، يدل سليمان عليه السلام على الماء ، إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء فى تخوم الأرض ، كما يرى الإنسان الشىء الظاهر على وجه الأرض ، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض ، فإذا دلهم عليه أمر سليمان — عليه السلام — الجان فحفروا له ذلك المكان ، حتى يستنبط الماء من قراره ، فنزل سليمان عليه السلام بفلاة من الأرض ، فتفقد الطير ليرى الهدهد ، فلم يره ، (فقال : مالى لأرى الهدهد أم كان من الغائبين) :

حدث يوما عبد الله بن عباس بنحو هذا ، وفى القوم رجل من الخوارج ، يقال له « نافع بن الأزرق » ، وكان كثير الاعتراض على ابن عباس ، فقال له : قف ياابن عباس ، غُلبت اليوم ! قال : ولم ؟ قال : إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء فى تخوم الأرض ، وإنّ الصبى ليضع له الحبة فى الفخ ، ويحثو على الفخ ترابا ، فيجىء الهدهد ليأخذها فيقع فى الفخ ، فيصيده الصبى . فقال ابن عباس : لولا أن يذهب هذا فيقول : رددت على ابن عباس ، لما أجبته : فقال له : ويحك ! إنه إذا نزل القَدَر عَمِى البصر ، وذهب الحَذَر : فقال له نافع : والله لا أجادلك فى شىء من القرآن أبداً :

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أبى عبد الله البَرْزِىّ — من أهل « بَرْزَة » من غوطة دمشق ، وكان من الصالحين بصوم الاثنين والخميس ، وكان أعور قد بلغ الثمانين — فروى ابن عساكر بسنده إلى أبى سليمان بن زيد : أنه سأله عن سبب عَوَره ، فامتنع عليه ، فألح عليه شهوراً ، فأخبره أن رجلين من أهل خراسان نزلا عنده جمعة فى قرية برزة ، وسألاه عن واد بها ، فأريتهما إياه ، فأخرجا مجامرَ وأوقدا فيها بخوراً كثيراً ، حتى عجعج الوادى بالدخان ، فأخذا يَعْزِمان(١) والحيات تقبل من كل مكان إليهما ، فلا يلتفتان إلى شىء منها ، حتى أقبلت حية نحو الذراع ، وعيناها توقدان مثل الدينار . فاستبشرا بها عظيما ، وقالا : الحمد لله الذى لم يُخَيِّب سفرنا من سنة ، وكسرا المجامر ، وأخذا الحية فأدخلا فى عينها ميلا فاكتحلا به ، فسألتهما أن يكحلانى ، فأبيا ، فألححت عليهما وقلت : لابد من ذلك ، وتوعدتهما بالدَّولة(٢) ، فكحلا عينى الواحدة اليمنى ، فحين وقع فى عينى نظرت إلى الأرض تحتى مثل المرآة ، أنظر ماتحتها كما تُرى المرآة ، ثم قالالى : سر معنا قليلا ، فسرت معهما وهما يحدثان ، حتى [إذا] بعدت عن القرية ، أخذانى فكتفانى ، وأدخل أحدهما يده فى عينى ففقأها ، ورمى بها ومضيا . فلم أزل كذلك ملقى مكتوفاً ، حتى مر بى نفر ففكّ وثاقى : فهذا ما كان من خبر عينى :

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة بن عمرو الغسانى ، حدثنا عبّاد ابن ميسرة المنقرى ، عن الحسن قال : اسم هدهد سليمان عليه السلام : عنبر :

---

(١) أى : يقرآن العزائم ، وهى الرقى .
(٢) الدولة : العاقبة .

وقال محمد بن إسحاق : كان سليمان عليه السلام إذا غدا إلى مجلسه الذى كان يجلس فيه : تفقد الطير ، وكان فيما يزعمون يأتيه نُوَب من كل صنف من الطير ، كلّ يوم طائر ، فنظر فرأى من أصناف الطير كلّها من حَضَره إلا الهُدهد ، (فقال : مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين) ، أخطأه بصرى من الطير ، أم غاب فلم يحضر ؟

وقوله : (لأعذبنه عذاباً شديداً) ، قال الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد عن ابن عباس : يعنى نتف ريشه (١) .

وقال عبد الله بن شداد : نتفُ ريشه وتشميسه . وكذا قال غير واحد من السلف : إنه نتف ريشه ، وتركه مُلقًى يأكله الذّر والنمل .

وقوله : (أو لأذبحنه) ، يعنى : قتله ، (أو ليأتينى بسلطان مبين) أى : بعذر واضح بين .

وقال سفيان بن عيينة ، وعبد الله بن شداد : لما قدم الهدهد قال له الطير : ماخلفك ، فقد نذر سليمان دمك ، فقال : هل استثنى ؟ فقالوا : نعم ، قال : (لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين) ، فقال : نجوتُ إذاً .

قال مجاهد : إنما دُفع عنه ببرّه بأمه .

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ﴾

يقول تعالى : (فمكث) الهدهد (غير بعيد) ، أى : غاب زماناً يسيراً ، ثم جاء فقال لسليمان : (أحطتُ بما لم تحط به) ، أى : اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ، (وجئتك من سبأ بنبأ يقين) ، أى : بخبر صدق حق يقين . وسبأ هم : حمير ، وهم ملوك اليمن .

ثم قال : (إنى وجدت امرأة تملكهم) ، قال الحسن البصرى : وهى بلقيس بنت شَرَاحيل ملكة سبأ .

وقال قتادة : كانت أمها جنية ، وكان مُؤخّر قدميها مثل حافر الدابة ، من بيت مملكة .

وقال زهير بن محمد : هى بلقيس بنت شَرَاحيل بن مالك بن الريان ، وأمها فارعة الجنية (٢) .

وقال ابن جريج : بلقيس بنت ذى شرخ ، وأمها بلتقة (٣) .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٩ / ٩٠ .

(٢) انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ٤٣٩ .

(٣) كذا فى مخطوطة الأزهر : « بلتقة » . وفى أثر عثمان بن حاضر فى الدر المنثور ٥/١٠٥ : « يقال لها : بلقمة بنت شيصبان » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا مسدد ، حدثنا سفيان – يعني ابن عيينة – عن عطاء بن السائب ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : [كان مع] صاحبة سليمان ألف قَيْل(١) ، تحت كل قيل مائة ألف :

وقال الأعمش ، عن مجاهد : كان تحت يدى ملكة سبأ اثنا عشر ألف قيل : تحت كل قَيْل : مائة ألف مقاتل .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر ، عن قتادة فى قوله : (إنى وجدت امرأة تملكهم) ، كانت من بيت مملكة ، وكان أولو مشورتها ثلاثمائة واثنى عشر رجلا ، كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل : وكانت بأرض يقال لها مأرب ، على ثلاثة أميال من صنعاء .

وهذا القول هو أقرب ، على أنه كثير على مملكة اليمن ، والله أعلم .

وقوله : (وأوتيت من كل شئ) ، أى : من متاع الدنيا ما يحتاج إليه الملك المتمكن : (ولها عرش عظيم) ، يعنى : سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب ، وأنواع الجواهر واللآلئ .

قال زهير بن محمد : كان من ذهب صفحتاه ، مرمول بالياقوت والزبرجد (٢) ، [طوله ثمانون ذراعاً ، وعرضه أربعون ذراعاً .

وقال محمد بن إسحاق: كان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد] واللؤلؤ، وكان إنما يخدمها النساء ، لها ستمائة امرأة تلى الخدمة (٣) .

قال علماء التاريخ: وكان هذا السرير فى قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم، كان فيه ثلاثمائة وستون طاقة من شرقه ومثلها من غربه ، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة ، وتغرب من مقابلتها ، فيسجدون لها صباحا ومساء . ولهذا قال : (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل) ، أى : عن طريق الحق ، (فهم لا يهتدون) .

وقوله : (ألا يسجدوا لله) : [معناه : (وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل ، فهم لا يهتدون : ألا يسجدوا لله] ، أى : لا يعرفون سبيل الحق التى هى إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من شئ من الكواكب وغيرها ، كما قال تعالى : (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون (٤)) .

وقرأ بعض القراء : (ألاَ يا اسجُدوا لله (٥)) ، جعلها « ألا » الاستفتاحية ، و « يا » للنداء ، وحذف المنادى ، تقديره عنده : « ألا يا قوم ، اسجدوا لله » .

---

(١) أثر ابن أبى حاتم – كما فى الدر المنثور : ٥/١٠١ – : «كان لصاحبة سليمان اثنا عشر ألف قيل ، تحت كل قيل مائة ألف » .

(٢) فى المخطوطة : « صفحتاه مرمولة » ، بالتاء . ولا يستقيم عليه النص . وفى الدر المنثور ٥/١٠٦ عن زهير بن محمد قال : « سرير من ذهب وصفحتاه ، مرمول » فاثبتنا « مرمول » دون تاء ، على أنه صفة لذهب . والمرمول فى اللغة المنسوج . ولعل المقصود : مزين ومطعم .

(٣) فى المخطوطة « تليها للخدمة » والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٤) سورة فصلت ، آية ٣٧ .

(٥) نسبت هذه القراءة إلى ابن عباس وجماعة . انظر البحر المحيط : ٧/٦٨ .

وقوله : (الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض) ، قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : يعلم كل خبيئة فى السماء والأرض . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وغير واحد .

وقال سعيد بن المسيب : الخَبْء : الماء . وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : خبء السموات والأرض ما جعل فيها من الأرزاق : المطر من السماء ، والنبات من الأرض (١) .

وهذا مناسب من كلام الهدهد ، الذى جعل الله فيه من الخاصية ما ذكره ابن عباس وغيره ، من أنه يرى الماء يجرى فى تخوم الأرض ودواخلها .

وقوله : (ويعلم ما تخفون وما تعلنون) ، أى : يعلم ما يخفيه العباد ، وما يعلنونه من الأقوال والأفعال . وهذا كقوله تعالى : (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار (٢)) .

وقوله : (الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) ، أى : هو المدعو الله ، وهو الذى لا إله إلا هو رب العرش العظيم ، الذى ليس فى المخلوقات أعظم منه .

ولما كان الهدهد داعيا إلى الخير ، وعبادة الله وحده والسجود له ، نُهى عن قتله ، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه ، عن أبى هريرة(٣) ـــ رضى الله عنه ـــ قال : نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن قتل أربع من الدواب : النملة والنحلة والهدهد والصُّرَد (٤) . وإسناده صحيح .

* قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾

يخبر تعالى عن قيل سليمان ـــ عليه السلام ـــ للهدهد حين أخبره عن [أهل] سبأ وملكتهم : (قال : سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين) ، أى : أصدقت فى إخبارك هذا ، (أم كنت من الكاذبين) فى مقالتك ، فتتخلص من الوعيد الذى أوعدتك ؟ (اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ، ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون) ، وذلك أن سليمان ـــ عليه السلام ـــ كتب كتابا إلى بلقيس وقومها . وأعطاه لذلك الهدهد فحمله ، قيل : فى جناحه كما هو عادة الطير ، وقيل : بمنقاره ، وذهب إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس ، إلى الخلوة التى كانت تختلى فيها بنفسها ، فألقاه إليها من كُوَّة هنالك بين يديها ،

---

(١) تفسير الطبرى : ١٩ / ٩٣ .

(٢) سورة الرعد ، آية : ١٠ .

(٣) الحديث كما وقع لنا ـــ فى المسند عن ابن عباس ، انظر : ١/ ٣٣٢ ، ٣٤٧ . وكذلك هو فى سنن أبى داود ، عن ابن عباس أيضاً . انظر كتاب الأدب ، باب « فى قتل الذر » ، الحديث ٥٢٦٧ : ٤/ ٣٦٧ .

وقد أخرجه ابن ماجه عن أبى هريرة وابن عباس . انظر كتاب الصيد ، باب « ما ينهى عن قتله » ، الحديث ٣٢٢٣ ، ٣٢٢٤ : ٢/ ٩٧٤ ٢/ ١٠٧٤ .

(٤) الصرد ـــ بضم ففتح ـــ : طائر ضخم الرأس ، أبيض البطن أخضر الظهر ، يصطاد صغار الطير .

ثم تولى ناحية أدباً ورياسة : فتحيرت مما رأت ، وهالها ذلك . ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته ، ففتحت ختمه وقرأته ، فإذا فيه : (إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم • ألا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين) : فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكتها ، ثم قالت لهم : (يا أيها الملأ ، إنى ألقى إلىّ كتاب كريم) ، تعنى بكرمه ما رأته من عجيب أمره ، كون طائر أتى به فألقاه إليها ، ثم تولى عنها أدبا . وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك ، ولا سبيل لهم إلى ذلك ، ثم قرأته عليهم ، (إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم • ألا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين) : فعرفوا أنه من نبى الله سليمان ، وأنه لا قبل لهم به . وهذا الكتاب فى غاية البلاغة والوجازة والفصاحة ، فإنه حصّل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها ، قال العلماء : ولم يكتب أحد (بسم الله الرحمن الرحيم) قبل سليمان عليه السلام .

وقد روى ابن أبى حاتم فى ذلك حديثاً فى تفسيره ، حيث قال : حدثنا أبى ، حدثنا هارون بن الفضل أبو يعلى الحناط ، حدثنا أبو يوسف ، عن سلمة بن صالح ، [عن عبد الكريم] أبى أمية ، عن ابن بريدة ، عن أبيه قال : كنت أمشى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنى أعلم آية لم تنزل على نبى قبلى بعد سليمان بن داود : قال : قلت : يارسول الله ، أىّ آية ؟ قال : « سأعلمكها قبل أن أخرج من المسجد » : قال : فانتهى إلى الباب ، فأخرج إحدى قدميه ، فقلت : نسى ، ثم التفت إلىّ وقال : (إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم) .

هذا حديث غريب ، وإسناده ضعيف .

وقال ميمون بن مهران : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب : باسمك اللهم ، حتى نزلت هذه الآية ، فكتب : (بسم الله الرحمن الرحيم) .

وقوله : (أن لا تعلوا علىّ) ، يقول قتادة : لا تجبروا علىّ (وأتونى مسلمين) .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لا تمتنعوا ولا تتكبروا علىّ .

(وأتونى مسلمين) ، قال ابن عباس : موحدين : وقال غيره : مخلصين : وقال سفيان بن عيينة : طائعين .

قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم فى أمرها ، وما قد نزل بها ، ولهذا قالت : (يا أيها الملأ ، أفتونى فى أمرى ماكنت قاطعة أمراً حتى تشهدون) ، أى : حتى تحضرون وتشيرون : (قالوا : نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد) ، أى : منوا إليها بعددهم وعددهم وقوتهم ، ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا : (والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين) ، أى : نحن ليس لنا عاقة (١) [ولا بنا بأس ، إن شئت أن تقصديه وتحاربيه ، فما لنا عاقة] عنه ، وبعد هذا فالأمر إليك ، مرى فينا برأيك نمتثله ولطيعه .

---

(١) كذا « عاقة » ، ولم نجده فيما أتيح لنا من المعاجم ، وفى اللغة « عاقه عن الشىء ، يعوقه عوقاً : صرفه وحبسه » .

قال الحسن البصرى رحمه الله : فوضوا أمرهم إلى علجة (١) تضطرب ثدياها ، فلما قالوا لها ما قالوا ، كانت هى أحزم رأياً منهم ، وأعلم بأمر سليمان ، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه ، وما سُخّر له من الجن و الإنس والطير ، وقد شاهدَت من قضية الكتاب مع الهدهد أمراً عجيباً بديعا ، فقالت لهم : إنى أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه ، فيقصدنا بجنوده ، ويهلكنا بمن معه ، ويخلص إلىّ وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا ؛ ولهذا قالت : (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها) .

قال ابن عباس : أى إذا دخلوا بلداً عنوة أفسدوه ، أى : خرّبوه ، (وجعلوا أعزة أهلها أذلة) ، أى : وقصدوا من فيها من الولاة والجنود ، فأهانوهم غاية الهوان ، إما بالقتل أو بالأسر .

قال ابن عباس : قالت بلقيس : (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة) ، قال الرب عز وجل : (وكذلك يفعلون) ؛ ثم عدلت إلى المهادنة والمصالحة والمسالمة والمخادعة و المصانعة ، فقالت : (وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون) ، أى : سأبعث إليه بهدية تليق به وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك ، فلعله يقبل ذلك ويكف عنا ، أو يضرب علينا خراجا نحمله إليه فى كل عام ، ونلتزم له بذلك ويترك قتالنا ومحاربتنا : قال قتادة : رحمها الله ورضى عنها ، ماكان أعقلها فى إسلامها وفى شركها !! علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس .

وقال ابن عباس وغير واحد : قالت لقومها : إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه ، وإن لم يقبلها فهو نبى فاتبعوه .

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧)

ذكر غير واحد من المفسرين ، من السلف وغيرهم : أنها بعثت إليه بهدية عظيمة من ذهب وجواهر ولآلئ وغير ذلك . وقال بعضهم : أرسلت إليه بلَبِنَة (٢) من ذهب : والصحيح أنها أرسلت بآنية من ذهب .

قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وغيرهما : وأرسلت جوارىَ فى زىّ الغلمان ، وغلمان فى زى الجوارى ، وقالت : إن عرف هؤلاء من هؤلاء فهو نبى ؛ قالوا : فأمرهم عليه السلام أن يتوضئوا ، فجعلت الجارية تُفرغ على يدها من الماء ، وجعل الغلام يغترف ، فيز هم بذلك .

وقيل : بل جعلت الجارية تغسل باطن يدها قبل ظاهرها ، والغلام بالعكس .

وقيل : بل جعلت الجوارى يغتسلن من أكفهن إلى مرافقهن ، والغلمان من مرافقهم إلى أكفهم ؛ ولا منافاة بين ذلك كله ، والله أعلم .

وذكر بعضهم : أنها أرسلت إليه بقدح ليملأه ماء رواء ، لا من السماء ولا من الأرض ، فأجرى الخيل حتى عرقت ، ثم ملأه من ذلك ؛ وبخرزة وسلك ليجعله فيها ، ففعل ذلك ؛ والله أعلم أكان ذلك أم لا ، وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات .

(١) العلجة ـ بكسر فسكون ـ : مؤنث علج ، وهو الرجل من كفار العجم .
(٢) اللبنة ـ بفتح فكسر ـ : واحدة اللبن ، وهى التى يبنى بها الجدار .

والظاهر أن سليمان — عليه السلام — لم ينظر إلى ما جاءوا به بالكلية ، ولا اعتنى به ، بل أعرض عنه ، وقال منكراً عليهم : (أتمدونن بمال ؟) ، أي : أتصانعونني بمال لأتركم على شرككم وملككم ؟! (فما آتاني الله خير مما آتاكم) ، أي : الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خيرٌ مما أنتم فيه ، (بل أنتم بهديتكم تفرحون) ، أي : أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف ، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف .

قال الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس ، رضى الله عنه — : أمر سليمانُ الشياطينَ فموّهوا له ألف قصر من ذهب وفضة . فلما رأت رسلُها ذلك قالوا : ما يصنع هذا بهديتنا . وفي هذا دلالة على جواز تهيؤ الملوك وإظهارهم الزينة للرسل والقصاد .

(ارجع إليهم) ، أي : بهديتهم ، (فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها) ، أي : لا طاقة لهم بقتالهم ، (ولنخرجنهم منها) ، أي : من بلدهم (أذلة وهم صاغرون) ، أي : مهانون مدحورون .

فلما رجعت إليها رسلُها بهديتها ، وبما قال سليمان ، سمعت وأطاعت هي وقومها ، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة ، معظمة لسليمان ، ناوية متابعته في الإسلام . ولما تحقق سليمان — عليه السلام — قدومهم عليه ووفودهم إليه ، فرح بذلك وسرّه .

قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾

قال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رُومان قال : فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت : « قد — والله — عرفت ما هذا بملك ، وما لنا به من طاقة ، وما نصنع بمكاثرته (١) شيئاً » . وبعثت إليه : « إني قادمة عليك بملوك قومي ، لأنظر ما أمرُك وما تدعونا إليه من دينك » . ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه — وكان من ذهب مُفَصَّص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ — فجعل في سبعة أبيات ، بعضها في بعض ، ثم أقفلت عليه الأبواب ، ثم قالت لمن خلّفت على سلطانها : احتفظ بما قبلك ، وسرير ملكي ، فلا يخلص إليه أحد من عباد الله ، ولا يَرَيَنَّه أحد ، حتى آتيك . ثم شخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف قيل من ملوك اليمن ، تحت يدي كل قيل منهم ألوف كثيرة . فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة ، حتى إذا دنت جمع من عنده من الجن والإنس ، ممن تحت يديه ، فقال : (يا أيها الملأ ، أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين) .

---

(١) في المخطوطة : « بمكابرته » . والمثبت من تفسير الطبري ، من ابن إسحاق ، عن بعض أهل العلم ، عن وهب بن منبه ، ١٩ / ١٠٠ .

وقال قتادة : لما بلغ سليمان أنها جائية ، وكان قد ذُكر له عرشها فأعجبه ، وكان من ذهب ، وقوائمه لؤلؤ وجوهر ، وكان مستّرا بالديباج والحرير ، وكانت عليه تسعة مغاليق ، فكره أن يأخذه بعد إسلامهم . وقد علم نبي الله أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم مع دمائهم فقال : (يا أيها الملأ ، أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين) .

وهكذا قال عطاء الخراسانى ، والسدّى ، وزُهير بن محمد : (قبل أن يأتونى مسلمين) ، فتحرم على أموالهم بإسلامهم

(قال عفريت من الجن) ــ قال مجاهد : أى مارد من الجن .

قال شُعَيب الجبائى : وكان اسمه كوزن ، وكذا قام محمدبن إسحاق ، عن يزيدبن رومان (١) . وكذا قال أيضا وهب ابن منبه .

قال أبو صالح : وكان كأنه جبل .

(أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) ــ قال ابن عباس : يعنى قبل أن تقوم من مجلسك . وقال مجاهد : مقعدك ، وقال السدى ، وغيره : كان يجلس للناس للقضاء والحكومات وللطعام من أول النهار إلى أن تزول الشمس .

(وإنى عليه لقوى أمين) ــ قال ابن عباس أى قوىّ على حمله ، أمين على ما فيه من الجوهر .

فقال سليمان عليه السلام : أريد أعجل من ذلك . ومن هاهنا يظهر أن النبي سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهبه الله له من الملك ، وسخّر له من الجنود ، الذى لم يعطه أحد قبله ، ولا يكون لأحد من بعده . وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها ؛ لأن هذا خارق عظيم أن يأتى بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدَموا عليه . هذا وقد حجبته بالأغلاق والأقفال والحفظة . فلما قال سليمان : أريد أعجل من ذلك ، (قال الذى عنده علم من الكتاب) ــ قال ابن عباس : وهو آصف كاتب سليمان . وكذا رَوَى محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان : أنه آصف بن برخياء ، وكان صدّيقاً يعلم الاسم الأعظم .

وقال قتادة : كان مؤمنا من الإنس ، واسمه آصف . وكذا قال أبو صالح ، والضحاك وقتادة : إنه كان من الإنس ــ زاد قتادة : من بنى إسرائيل .

وقال مجاهد : كان اسمه أسطوم .

وقال قتادة ــ فى رواية عنه ــ كان اسمه بليخا .

وقال زهير بن محمد : هو رجل من الأندلس يقال له : ذو النور .

وزعم عبد الله بن لهيعة : أنه الخضر . وهو غريب جداً .

وقوله : (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) ، أى : ارفع بصرك وانظر مدّ بصرك مما تقدر عليه ، فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك .

وقال وهب بن منبه : امدد بصرك ، فلا يبلغ مداه حتى آتيك به .

فذكروا أنه أمره أن ينظر نحو اليمن التى فيها هذا العرش المطلوب ، ثم قام فتوضأ ، ودعا الله عز وجل .

(١) انظر تفسير الطبرى ، ١٩/١٤٢ .

قال مجاهد : قال : ياذا الجلال والأكرام . وقال الزهري : قال : يا إلهنا وإله كل شيء ، إلهاً واحداً ، لا إله إلا أنت ، ائتني بعرشها . قال : فتمثل له بين يديه .

قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، ومحمد بن إسحاق ، وزهير بن محمد ، وغيرهم : لما دعا الله عز وجل ، وسأله أن يأتيه بعرش بلقيس – وكان في اليمن ، وسليمان عليه السلام ببيت المقدس – غاب السرير ، وغاص في الأرض ، ثم نبع من بين يدي سليمان عليه السلام .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، لم يشعر سليمان إلا وعرشها يحمل بين يديه . قال : وكان هذا الذي جاء به من عُبَّاد البحر ، فلما عاين سليمان وملأوه ذلك ، ورآه مستقراً عنده ، (قال : هذا من فضل ربي) ، أي : هذا من نعم الله عليّ ، (ليبلوني) ، أي : ليختبرني (أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، كقوله : (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها) (١) ، وكقوله : (ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون) (٢) .

وقوله : (ومن كفر فإن ربي غني كريم) ، أي : هو غني عن العباد وعبادتهم ، (كريم) ، أي : كريم في نفسه ، وإن لم يعبده أحد ، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد ، وهذا كما قال موسى : (إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد) (٣) .

وفي صحيح مسلم : « يقول الله تعالى : يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً . يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل منكم ، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً . يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم [ثم أوفيكم إياها] فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » (٤) .

قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾

لما جيء سليمان – عليه السلام – بعرش بلقيس قبل قدومها ، أمر به أن يغير بعض صفاته ، ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته ، هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس به ، فقال : (نكروا لها عرشها ، ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون) .

قال ابن عباس : نزع عنه فصوصه ومرافقه .

---

(١) سورة فصلت ، آية : ٤٦ .

(٢) سورة الروم ، آية : ٤٤ .

(٣) سورة إبراهيم ، آية : ٨ .

(٤) تقدم الحديث في تفسير الآية الثامنة من سورة إبراهيم ، وخرجناه هناك . انظر ٤/٣٩٩ – ٤٠٠ .

وقال مجاهد : أمر به فغير ما كان أحمر جعل أصفر ، وما كان أصفر جعل أحمر ، وما كان أخضر جعل أحمر ، غير كل شيء عن حاله .

وقال عكرمة : زادوا فيه ونقصوا .

[وقال قتادة : جعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره ، وزادوا فيه ونقصوا] .

(فلما جاءت قيل أهكذا عرشك) ، أي : عرض عليها عرشها ، وقد غير ونُكّر ، وزيد فيه ونقص منه ، فكان فيها ثبات وعقل ، ولها لُبّ ودهاء وحزم ، فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها ، ولا أنه غيره ، لما رأت من آثاره وصفاته ، وإن غير وبدل ونكر ، فقالت : (كأنه هو) ، أي : يشبهه ويقاربه ، وهذا غاية في الذكاء والحزم .

وقوله : (وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) ، قال مجاهد : سليمان يقوله (١) .

وقوله : (وصدها ما كانت تعبد من دون الله ، إنها كانت من قوم كافرين) هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام — في قول مجاهد ، وسعيد بن جبير ، رحمهما الله — أي : قال سليمان : (وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) ، وهي كانت قد صدّها ، أي : منعها من عبادة الله وحده (ما كانت تعبد من دون الله ، إنها كانت من قوم كافرين) . وهذا الذي قاله مجاهد وسعيد حَسَنٌ ، وقاله ابن جرير أيضا .

ثم قال ابن جرير : ويحتمل أن يكون في قوله : (وصدها) ، ضمير يعود إلى سليمان ، أو إلى الله عز وجل ، تقديره : ومنعها (ما كانت تعبد من دون الله) ، أي : صدها عن عبادة غير الله ، (إنها كانت من قوم كافرين) .

قلت : ويؤيد قول مجاهد : أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح كما سيأتي .

وقوله : (قيل لها : ادخلي الصرح ، فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها) ، وذلك أن سليمان عليه السلام أمر الشياطين فبنوا له قصراً عظيما من قوارير ، أي : من زجاج ، وأجرى تحته الماء ، فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء ، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه . واختلفوا في السبب الذي دعا سليمان عليه السلام إلى اتخاذه ، فقيل : إنه لما عزم على تزويجها واصطفائها لنفسه ، ذكر له جمالها وحسنها ، ولكن في ساقيها هُلْبٌ (٢) عظيم ، ومؤخر أقدامها كمؤخر الدابة . فساءه ذلك ، فاتخذ هذا ليعلم صحته أم لا ؟ — هذا قول محمد بن كعب القُرَظي ، وغيره — فلما دخلت وكشفت عن ساقيها ، رأى أحسن الناس وأحسنه (٣) قدماً ، ولكن رأى على رجليها شعراً ، لأنها ملكة ليس لها بعل ، فأحب أن يذهب ذلك عنها فقيل لها : الموسى ؟ فقالت : لا أستطيع ذلك . وكره سليمان ذلك ، وقال للجن : اصنعوا شيئاً غير الموسى يذهب به هذا الشعر ،

(١) تفسير الطبري : ١٩ / ١٠٥ . وقال ابن جرير : « وقوله : (وأوتينا العلم من قبلها) يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل سليمان : وقال سليمان : وأوتينا العلم من قبل هذه المرأة ، بالله وبقدرته على ما يشاء ، وكنا مسلمين لله من قبلها » .

(٢) أي : شعر .

(٣) أي : « وأحسنهم قدماً » . وقد أفرد الضمير ، وهو أسلوب عربي جيد ، ورجال العربية يقولون : إنه في معنى « وأحسن شيء » ، فلذلك أفرد الضمير .

قصنعوا له النُّورَةَ (١) : وكان أول من اتخذت له النُّورة ، قاله ابن عباس،ومجاهد،وعكرمة ، ومحمد بن كعب القرظى، والسدى ، وابن جريج ، وغيرهم .

وقال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رُومَان : ثم قال لها : ادخلى الصرح ، ليريها مُلْكاً هو أعز من ملكها ، وسلطانا هو أعظم من سلطانها . فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها ، لا تشك أنه ماء تخوضه ، فقيل لها : إنه صرح مُمَرَّد من قوارير : فلما وقفت على سليمان ، دعاها إلى عبادة الله وعاتبها فى عبادتها الشمس من دون الله .

وقال الحسن البصرى : لما رأت العلْجَةُ الصرح عرفت — والله — أن قد رأت ملكا أعظم من ملكها .

وقال محمد بن إسحاق ، عن بعض أهل العلم ، عن وهب بن منبه قال : أمر سليمان بالصرح ، وقد عملته له الشياطين من زجاج ، كأنه الماء بياضا . ثم أرسل الماء تحته ، ثم وضع له فيه سريره ، فجلس عليه ، وعكفت عليه الطير والجن والإنس ، ثم قال : ادخلى الصرح ، ليريها ملكا هو أعز من ملكها ، وسلطانا هو أعظم من سلطانها ، (فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها) ، لا تشك أنه ماء تخوضه ، قيل لها : (إنه صرح مُمَرَّد من قوارير) ، فلما وقفت على سليمان ، دعاها إلى عبادة الله عز وجل ، وعاتبها فى عبادتها الشمس من دون الله ، فقالت بقول الزنادقة ، فوقع سليمان ساجداً إعظاما لما قالت ، وسجد معه الناس ، فسقط فى يديها حين رأت سليمان صنع ما صنع ، فلما رفع سليمان رأسه قال : ويحك ، ماذا قلت ؟ — قال : وأنسيت ما قالت — فقالت : (رب ، إنى ظلمت نفسى ، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) ، فأسلمت وحسن إسلامها (٢) .

وقد روى الإمام أبو بكر بن أبى شيبة فى هذا أثراً غريبا عن ابن عباس ، قال : حدثنا الحسين بن على ، عن زائدة ، حدثنى عطاء بن السائب ، حدثنا مجاهد — ونحن فى الأزد — قال : حدثنا ابن عباس قال : كان سليمان — عليه السلام — يجلس على سريره ، ثم تُوضَعُ كراسى حوله ، فيجلس عليها الإنس ، ثم يجلس الجن ثم الشياطين ، ثم تأتى الريح فترفعهم ، ثم تظلهم الطير ، ثم يغدون قدر ما يشتهى الراكب أن ينزل شهراً ورواحها شهراً ، قال : فبينا هو ذات يوم فى مسير له ، إذ تفقد الطير ففقد الهدهد فقال : (مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين . لأعذبنه عذابا شديداً أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين) ، قال : فكان عذابه إياه أن ينتفه ، ثم يلقيه فى الأرض ، فلا يمتنع من نملة ولا من شىء من هوام الأرض .

قال عطاء : وذكر سعيد بن جُبَيْر عن ابن عباس مثل حديث مجاهد — (فمكث غير بعيد) — فقرأ حتى انتهى إلى قوله — : (سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب بكتابى هذا) وكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، إلى بلقيس : (أن لا تعلوا علىّ وائتونى مسلمين) ، فلما ألقى الهدهد الكتابَ إليها ، أُلقى فى رُوعها : إنه كتاب كريم ، وإنه من سليمان، وأن لا تعلوا علىّ وائتونى مسلمين : قالوا : نحن أولو قوة : قالت: إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وإنى مرسلة إليهم بهدية . فلما جاءت الهدية سليمانَ قال: أتمدوننى بمال ، ارجع اليهم . فلما نظر إلى الغبار— أخبرنا ابن عباس قال : وكان بين سليمان وبين ملكة سبأ ومن معها حين نظر إلى الغبار كما بيننا وبين الحيرة ، قال عطاء : ومجاهد حينئذ فى الأزد — قال سليمان : أيكم يأتينى بعرشها ؟ قال : وبين عرشها وبين سليمان حين نظر إلى الغبار مسيرة شهرين ، (قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) — قال : وكان لسليمان مجلس يجلس فيه للناس ، كما يجلس الأمراء ثم يقوم — قال : (أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) ، قال سليمان : أريد أعجل من ذلك . فقال الذى عنده علم من الكتاب : أنا أنظر فى كتاب ربى ،

---

(١) النُّورة — بضم فسكون — : حجر يحرق ، يحلق به شعر العانة .
(٢) تفسير الطبرى : ١٩ / ١٠٦ .

ثم آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . قال : [فنظر إليه سليمان فلما قطع كلامه رد سليمان بصره](١) ، فنبع عرشها من تحت قدم سليمان ، من تحت كرسي كان سليمان يضع عليه رجله ، ثم يصعد إلى السرير . قال : فلما رأى سليمان عرشها قال : (هذا من فضل ربي) ، (قال : نكروا لها عرشها) ، فلما جاءت قيل لها : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو : قال : فسألته [حين جاءته] عن أمرين ، قالت لسليمان : [أريد] ماء ليس من أرض ولا من سماء ـ وكان سليمان إذا سئل عن شيء ، سأل الإنس ثم الجن ثم الشياطين ـ فقالت الشياطين : هذا هين، أجر الخيل ثم خذ عرقها ، ثم املأ منه الآنية . قال : فأمر بالخيل فأجريت ، ثم أخذ عرقها فملأ منه الآنية . قال : وسألت عن لون الله عز وجل . قال : فوثب سليمان عن سريره ، فخر ساجداً ، فقال : يا رب ، لقد سألتني عن أمر إنه يتكايد ، أي : يتعاظم في قلبي ن أذكره لك . قال : ارجع فقد كفيتكهم، قال : فرجع إلى سريره فقال : ما سألت عنه ؟ قالت : ما سألتك إلا عن الماء . فقال لجنوده : ما سألت عنه ؟ فقالوا : ما سألتك إلا عن الماء . قال : ونسوه كلهم . قال : وقالت الشياطين لسليمان : تريد أن تتخذها لنفسك ، فان اتخذها لنفسه ثم ولد بينهما ولد ، لم تنفك من عبوديته(٢) . قال : فجعلوا صرحاً ممرداً من قوارير ، فيه السمك ـ قال : فقيل لها : ادخلي الصرح . فلما رأته حسبته لجة ، وكشفت عن ساقيها ، فإذا هي شعراء . فقال سليمان : هذا قبيح ، ما يذهبه ؟ فقالوا : تذهبه المواسي . فقال : أثر الموسى قبيح ! قال : فجعلت الشياطين النورة . قال : فهو أول من جعلت له النورة .

ثم قال أبو بكر بن أبي شيبة : ما أحسنه من حديث(٣) !

قلت : بل هو منكر غريب جداً ، ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس ، والله أعلم . والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب ، مما يوجد في صحفهم ، كروايات كعب ووهب ـ سامحهما الله تعالى ـ فيما نقلا إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل ، من الأوابد والغرائب والعجائب ، مما كان وما لم يكن ، ومما حرف وبدل ونسخ . وقد أغنانا الله ـ سبحانه ـ عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ، ولله الحمد والمنة .

أصل الصرح في كلام العرب : هو القصر ، وكل بناء مرتفع ، قال الله سبحانه وتعالى إخباراً عن فرعون ـ لعنه الله ـ أنه قال لوزيره هامان : (ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب. أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى)(٤) الآية . والصرح : قصر في اليمن عالي البناء ، والممرد أي : المبني بناء محكما أملس (من قوارير) ، أي : زجاج ، وتمريد البناء تمليسه . ومارد : حصن بدومة الجندل .

والغرض أن سليمان عليه السلام اتخذ قصراً عظيما منيفاً من زجاج لهذه الملكة ، ليريها عظمة سلطانه وتمكنه ، فلما رأت ما آتاه الله ـ تعالى ـ وجلالة ما هو فيه ، وتبصرت في أمره انقادت لأمر الله وعرفت أنه نبي كريم ، وملك عظيم ، فأسلمت لله عز وجل ، وقالت : (رب إني ظلمت نفسي) ، أي : بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها الشمس من دون الله ، (وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) ، أي : متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده ، لا شريك له ، الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً .

---

(١) ما بين القوسين من الدر المنثور .

(٢) لفظ الدر : « فرجع الشياطين بعضهم إلى بعض فقالوا لسليمان : رسول الله قد سخر الله لك ما سخر ، وبلقيس ملكة سبأ ينكحها ، فتلد له غلاماً ، فلا ننفك له من العبودية أبداً » .

(٣) أخرجه السيوطي في الدر المنثور عن ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم : ٥/١١٠ ـ ١١١ .

(٤) سورة غافر آية : ٣٦ ، ٣٧ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾

يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح عليه السلام ، حين بعثه الله إليهم ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، (فإذا هم فريقان يختصمون) — قال مجاهد : مؤمن وكافر (١) — كقوله تعالى : (قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا ، لمن آمن منهم: أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون : قال الذين استكبروا : إنا بالذى آمنتم به كافرون) (٢) .

(قال: يا قوم ، لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة) ، أى : لم تدعون بحضور العذاب ، ولا تطلبون من الله رحمته ؟ ولهذا قال : (لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون . قالوا : اطّيرنا بك وبمن معك)،أى : ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيرا . وذلك أنهم — لشقائهم — كان لا يصيب أحداً منهم سوء إلا قال : هذا من قِبَل صالح وأصحابه .

قال مجاهد : تشاءموا بهم . وهذا كما قال تعالى إخباراً عن قوم فرعون : (فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله (٣)) . وقال تعالى : (وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك ، قل : كل من عند الله (٤)) ، أى : بقضاء الله وقدره . وقال مخبرا عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون : (قالوا إنا تطيرنا بكم ، لئن لم تنتهوا لنرجمنكم ، وليمسنكم منا عذاب أليم . قالوا طائركم معكم (٥) . وقال هؤلاء : (اطيرنا بك وبمن معك قال : طائركم عند الله) ، أى : الله يجازيكم على ذلك (بل أنتم قوم تفتنون) ، قال قتادة : تبتلون بالطاعة والمعصية .

والظاهر أن المراد بقوله : (تفتنون) ، أى : تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال .

وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورءوسهم ، الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلالة والكفر وتكذيب صالح ، وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة ، وهموا بقتل صالح أيضاً ، بأن يبيتوه فى أهله ليلا فيقتلوه غيلة ، ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه :

---

(١) تفسير الطبرى : ١٩ / ١٠٧ .
(٢) سورة الأعراف ، آية : ٧٥ ، ٧٦ .
(٣) سورة الأعراف ، آية : ١٣١ .
(٤) سورة النساء ، آية : ٧٨ .
(٥) سورة « يس » ، آية ١٨ ، ١٩ .

أنهم ما علموا بشيء من أمره ، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به ، من أنهم لم يشاهدوا ذلك . فقال تعالى : ﴿ وكان في المدينة ﴾ ، أي : مدينة ثمود ﴿ تسعة رهط ﴾ ، أي : تسعة نفر ، ﴿ يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾ ، وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود ، لأنهم كانوا كبراء فيهم ورؤساءهم .

قال العوفى ، عن ابن عباس : هؤلاء هم الذين عقروا(١) الناقة . أي : الذين صدر ذلك عن آرائهم ومشورتهم ـ قبحهم الله ولعنهم ـ وقد فعل ذلك .

وقال السدى ، عن أبي مالك ، عن ابن عباس : كان أسماء هؤلاء التسعة : دعمى ، ودعيم ، وهرما ، وهريم ، وداب ، وصواب ، [ورياب] ، ومسطع ، وقدار بن سالف عاقر الناقة . أي : الذى باشر ذلك بيده . قال الله تعالى : ﴿ فنادوا صاحبهم ، فتعاطى فعقر ﴾(٢) ، وقال تعالى : ﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾(٣) .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا يحيى بن ربيعة الصنعانى ، سمعت عطاء ـ هو ابن أبي رباح ـ يقول : ﴿ وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾ ، قال : كانوا يقرضون الدراهم . يعني أنهم كانوا يأخذون منها ، وكأنهم كانوا يتعاملون بها عدداً ، كما كان العرب يتعاملون .

وقال الإمام مالك ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب أنه قال : قَطْع الذهب والورق من الفساد في الأرض (٤) .

وفي الحديث ـ الذى رواه أبو داود وغيره ـ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن كسر(٥) سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس(٦) .

والغرض أن هؤلاء الكفرة الفسقة ، كان من صفاتهم الإفساد في الأرض بكل طريق يقدرون عليها ، فمنها ما ذكره هؤلاء الأئمة وغير ذلك .

وقوله : ﴿ قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ﴾ ، أي : تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح ـ عليه السلام ـ من لقيه ليلا غيلة . فكادهم الله ، وجعل الدائرة عليهم .

قال مجاهد : تقاسموا وتحالفوا على هلاكه ، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين .

وقال قتادة : توافقوا على أن يأخذوه ليلا فيقتلوه ، وذكر لنا أنهم بينما هم معانيق (٧) إلى صالح ليفتكوا به ، إذ بعث الله عليهم صخرة فأهمدتهم .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٩ / ١٠٨ .

(٢) سورة القمر آية : ٢٩ .

(٣) سورة الشمس آية : ١٢ .

(٤) الموطأ ، كتاب البيوع ، باب « بيع الذهب بالفضة تبرا وعينا » ، الحديث ٣٧ : ١ / ٦٣٥ .

(٥) المقصود بالسكة هنا ـ بكسر السين ـ : الدراهم والدنانير المضروبة .

(٦) سنن أبي داود ، كتاب البيوع ، باب « في كسر الدراهم » ، الحديث ٣٤٤٩ : ٣ / ٢٧١ ـ ٢٧٢ وابن ماجه ، كتاب التجارات ، باب « النهى عن كسر الدراهم والدنانير » ، الحديث ٢٢٦٣ : ٢ / ٧٦١ ، ومسند الإمام أحمد عن عبد الله المزنى : ٣ / ٤١٩ .

(٧) معانيق مسرعين ، جمع معنق ، من أعنق : إذا أسرع .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : هم الذين عقروا الناقة قالوا حين عقروها : لَنُبَيِّتَنَّ (١) صالحا وقومه فنقتلهم ، ثم نقول لأولياء صالح : ما شهدنا من هذا شيئاً ، وما لنا به علم : فدمرهم الله أجمعين .

وقال محمد بن إسحاق : قال هؤلاء التسعة بعد ما عقروا الناقة : هلُمّ فلنقتل صالحا ، فإن كان صادقاً عجلناه قبلنا ، وإن كان كاذباً كنا قد ألحقناه بناقته ! فأتوه ليلا ليبيِّتوه فى أهله ، فدمغتهم الملائكة بالحجارة ، فلما أبطأوا على أصحابهم ، أتوا مَنْزِل صالح ، فوجدوهم منشدخين قد رضخوا(٢) بالحجارة ، فقالوا لصالح : أنت قتلتهم ، ثم هموا به ، فقامت عشيرته دوله ، ولبسوا السلاح ، وقالوا لهم : والله لا تقتلونه أبداً ، وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم فى ثلاث ، فإن كان صادقاً فلا تزيدوا ربكم عليكم غضباً ، وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون : فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك .

وقال عبد الرحمن بن أبى حاتم : لما عقروا الناقة وقال لهم صالح : (تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب) ، قالوا : زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام ، فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث : وكان لصالح مسجد فى الحِجْر عند شعب هناك يصلى فيه ، فخرجوا إلى كهف ، أى : غار هناك ليلا ، فقالوا : إذا جاء يصلى قتلناه ، ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله ، ففرغنا منهم : فبعث الله صخرة من الهضَب(٣) حيالهم ، فخشوا أن تشدخهم فتبادروا فانطبقت عليهم الصخرة وهم فى ذلك الغار ، فلا يدرى قومهم أين هم : ولا يدرون ما فعل بقومهم : فعذب الله هؤلاء هاهنا ، وهؤلاء هاهنا ، وأنجى الله صالحاً ومن معه ، ثم قرأ : (ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين * فتلك بيوتهم خاوية) ، أى : فارغة ليس فيها أحد (بما ظلموا ، إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون * وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) :

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾

يخبر تعالى عن عبده لوط – عليه السلام – : أنه أنذر قومه نقمة الله بهم ، فى فعلهم الفاحشة التى لم يسبقهم إليها أحد من بنى آدم ، وهى إتيان الذكور دون الإناث ، وذلك فاحشة عظيمة : استغنى الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء – قال : (أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون) ، أى : يرى بعضكم بعضاً ، وتأتون فى ناديكم المنكر ؟ (أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون) ، أى : لا تعرفون شيئاً لا طبعاً ولا شرعاً ، كما قال فى الآية الأخرى : (أتأتون الذكران من العالمين : وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون)(٤) :

---

(١) تبييت العدو : أن يقصد ليلا من غير أن يعلم ، فيؤخذ بغتة .

(٢) الرضخ : الدق والشدخ .

(٣) الهضب – بكسر ففتح – جمع هضبة ، وهى الجبل المنبسط على الأرض .

(٤) سورة الشعراء ، آية : ١٦٥ ، ١٦٦ .

(فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : أخرجوا آل لوط من قريتكم ، إنهم أناس يتطهرون) ، أى : يتحرجون من فعل ما تفعلونه ، ومن إقراركم على صنيعكم ، فأخرجوهم من بين أظهركم فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم فى بلادكم ، فعزموا على ذلك ، فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، قال الله تعالى : (فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين) ، أى : من الهالكين مع قومها ، لأنها كانت ردءاً لهم على دينهم ، وعلى طريقتهم فى رضاها بأفعالهم القبيحة ، فكانت تدل قومها على ضيفان لوط ، ليأتوا إليهم ، لا أنها كانت تفعل الفواحش تكرمة لنبى الله — صلى الله عليه وسلم — لا كرامة لها .

وقوله : (وأمطرنا عليهم مطراً) ، أى : حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك ، وما هى من الظالمين ببعيد ، ولهذا قال : (فساء مطر المنذرين) ، أى : الذين قامت عليهم الحجة ، ووصل إليهم الإنذار ، فخالفوا الرسول وكذبوه ، وهموا بإخراجه من بينهم .

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

يقول تعالى آمراً رسوله — صلى الله عليه وسلم — أن يقول : (الحمد لله) ، أى : على نعمه على عباده ، من النعم التى لا تعد ولا تحصى ، وعلى ما اتصف به من الصفات العُلى والأسماء الحسنى ، وأن يُسلّم على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم ، وهم رسله وأنبياؤه الكرام — عليهم من الله الصلاة والسلام — هكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيره : إن المراد بعباده الذين اصطفى ، هم الأنبياء ، قال : وهو كقوله تعالى : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين[1]) .

وقال الثورى ، والسدى : هم أصحاب محمد — صلى الله عليه وسلم — ورضى عنهم أجمعين ، وروى نحوه عن ابن عباس .

ولا منافاة ، فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى ، فالأنبياء بطريق الأولى والأحرى ، والقصد أن الله تعالى أمر رسوله ومن اتبعه بعد ما ذكر لهم ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد ، وما أحل بأعدائه من الخزى والنكال والقهر ، أن يحمدوه على جميع أفعاله ، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار .

وقد قال أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن عمارة بن صبيح ، حدثنا طلق بن غنام ، حدثنا الحكم بن ظهير ، عن السدى — إن شاء الله — عن أبى مالك ، عن ابن عباس : (وسلام على عباده الذين اصطفى) ، قال : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، اصطفاهم الله لنبيه رضى الله عنهم .

---

(١) سورة الصافات ، الآيات ١٨٠ — ١٨٢ .

وقوله : (آلله خير أم ما يشركون) ، استفهام إنكار على المشركين فى عبادتهم مع الله آلهة أخرى . ثم شرع تعالى يبين أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره ، فقال : (أمن خلق السموات والأرض) أى : تلك السموات بارتفاعها وصفائها ، وما جعل فيها من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة والأفلاك الدائرة ، والأرض باستفالها وكثافتها ، وما جعل فيها من الجبال والأوعار والسهول ، والفيافى والقفار ، والأشجار والزروع ، والثمار والبحور ، والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك .

وقوله : (وأنزل لكم من السماء ماء) ، أى : جعله رزقاً للعباد ، (فأنبتنا به حدائق) ، أى : بساتين (ذات بهجة) ، أى : منظر حسن وشكل بهى ، (ما كان لكم أن تنبتوا شجرها) ، أى : لم تكونوا تقدرون على إنبات شجرها . وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق ، المستقل بذلك المتفرد به ، دون ما سواه من الأصنام والأنداد ، كما يعترف به هؤلاء المشركون، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله[1])،(ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله[2])،أى : هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له ، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق ، وإنما يستحق أن يُفرَدَ بالعبادة مَن هو المتفرد بالخلق والرزق ، ولهذا قال : (أإله مع الله ؟) ، أى : أإله مع الله يعبد ، وقد تبين لكم ولكل ذى لب مما يعرفون به أيضاً أنه الخالق الرازق ؟

ومن المفسرين من يقول معنى قوله : (أإله مع الله) ، [أى : أإله مع الله[3]] فعل هذا ، وهو يرجع إلى معنى الأول ، لأن تقدير الجواب أنهم يقولون : ليس ثَمّ أحد فعل هذا معه ، بل هو المتفرد به ، فيقال : فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقل المتفرد بالخلق والتدبير ؟ كما قال : (أفمن يخلق كمن لا يخلق[4]) .

وقوله ها هنا : (أمن خلق السموات والأرض) ، (أمن) فى هذه الآيات تقديره : أمن يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شىء منها ؟ هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر ، لأن فى قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك ، وقد قال : (آلله خير أم ما يشركون) .

ثم قال فى آخر الآية : (بل هم قوم يعدلون) ، أى : يجعلون لله عدلا ونظيراً ، وهكذا قال تعالى : (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه[5]) ، أى : أمن هو هكذا كمن ليس كذلك ؟ ولهذا قال : (قل : هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ إنما يتذكر أولو الألباب[6]) ، (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ، أولئك فى ضلال مبين[7]) ، وقال : (أمن هو قائم على كل نفس بما كسبت[8]) ، أى : أمن هو شهيد على أفعال الخلق ، حركاتهم وسكناتهم ،

---

(١) سورة الزخرف ، آية : ٨٧ .
(٢) سورة العنكبوت ، آية : ٦٣ .
(٣) زدنا ما بين القوسين ليستقيم السياق .
(٤) سورة النحل ، آية : ١٧ .
(٥) سورة الزمر ، آية : ٩ .
(٦) سورة الزمر ، آية : ٩
(٧) سورة الزمر ، آية : ٢٢ .
(٨) سورة الرعد ، آية : ٣٣ .

يعلم الغيب جليله وحقيره ، كمن هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر من هذه الأصنام التى عبدوها ؟ ولهذا قال : (وجعلوا لله شركاء ، قل : سموهم) ، وهكذا هذه الآيات الكريمات كلها .

أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١)

يقول : (أمن جعل الأرض قراراً) ، أى : قارة ساكنة ثابتة ، لا تميد ولا تتحرك بأهلها ولا ترجف بهم ، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة ، بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً بساطاً ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك ، كما قال فى الآية الأخرى : (الله الذى جعل لكم الأرض قراراً ، والسماء بناء(١)) .

(وجعل خلالها أنهاراً) ، أى : جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة تشقها فى خلالها ، وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك ، وسيرها شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالا ، بحسب مصالح عباده فى أقاليمهم وأقطارهم حيث ذرأهم فى أرجاء الأرض ، سيرلهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه ، (وجعل لها رواسى) ، أى : جبالا شامخة ترسى الأرض وتثبتها لئلا تميد بكم ، (وجعل بين البحرين حاجزاً) ، أى : جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزاً ، أى : مانعاً يمنعها من الاختلاط ، لئلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا ، فإن الحكمة الإلهية تقتضى بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه ، فان البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس ، والمقصود منها أن تكون عذبة زلالا تسقى الحيوان والنبات والثمار منها ، والبحار المالحة هى المحيطة بالأرجاء والأقطار ، من كل جانب ، والمقصود منها أن يكون ماؤها ملحاً أجاجاً ، لئلا يفسد الهواء بريحها ، كما قال تعالى : (وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخا وحجرا محجوراً (٢)) ، ولهذا قال : (أ إله مع الله) ، أى : فعل هذا ؟ أو يعبد على القول الأول والآخر ؟ وكلاهما متلازم صحيح ، (بل أكثرهم لا يعلمون) ، أى : فى عبادتهم غيره :

أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢)

ينبه تعالى أنه هو المدعوّ عند الشدائد ، المرجوّ عند النوازل ، كما قال : (وإذا مسكم الضر فى البحر ، ضل من تدعون إلا إياه (٣)) ، وقال تعالى : (ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون (٤)) ، وهكذا قال هاهنا : (أمن يجيب المضطر إذا دعاه) ، أى : من هو الذى لا يلجأ المضطر إلا إليه ، والذى لا يكشف ضر المضرورين سواه .

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا وُهَيب ، حدثنا خالد الحذّاء ، عن أبى تميمة الهُجَيمى ، عن رجل من بلهجيم قال : قلت : يا رسول الله ، إلام تدعو ؟ قال : أدعو إلى الله وحده ، الذى إن مسّك ضر فدعوته كشف عنك ، والذى

(١) سورة غافر ، آية : ٦٤ .
(٢) سورة الفرقان ، آية : ٥٣ .
(٣) سورة الإسراء ، آية : ٦٧ .
(٤) سورة النحل ، آية : ٥٣ .

إن أضْلَلْتَ بأرض قَفْر فدعوتَه رَدّ عليك ، والذى إن أصابتك سَنَة(١) فدعوتَه أنبتَ لك ؛ قال ؛ قلت ؛ أوصنى . قال : لاتسبن أحداً ، ولا تَزْهَدَنّ فى المعروف ، ولو أن تلقى أخاك وأنت منبسط إليه وجهك ، ولو أن تُفرغ من دَلوك فى إناء المستقى ، واتّزر إلى نصف الساق ، فإن أبيت فإلى الكعبين ، وإياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة ! وإن الله — تبارك وتعالى — لا يحب المخيلة] (٢) .

وقد رواه الإمام أحمد من وجه آخر ، فذكر اسم الصحابى فقال ؛ حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة حدثنا يونس — هو ابن عبيد — حدثنا عَبِيدَةُ الهُجَيْمى (٣) ، عن أبى تَمِيمَةَ الهُجَيْمى ، عن جابر بن سُلَيم الهُجَيْمِيّ قال ؛ أتيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو مُحتَبٍ (٤) بشَمْلَة ، وقد وقع هُدْبها (٥) على قدميه ، فقلت ؛ أيكم محمد — أو : رسول الله ؟ فأومأ بيده إلى نفسه ، فقلت ؛ يا رسول الله ، أنا من أهل البادية ، وفىّ جفاؤهم ، فأوصنى ، فقال ؛ لا تحقرنّ من المعروف شيئا ، ولو أن تلقى أخاك ووجهك مُنْبَسِط ، ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستقى ، وإن امرؤ شَتَمك بما يعلم فيك فلاتشتمه بما تعلم فيه ، فإنه يكون لك أجره وعليه وزْرَه ، وإياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المَخيلة ، وإن الله لا يحب المخيلة ، ولا تَسُبَّنّ أحداً : قال ؛ فما سببت بعده أحدا ، ولا شاة ولا بعيرا (٦) .

وقد روى أبو داود والنسائى لهذا الحديث طرقا ، وعندهما طرف صالح (٧) منه :

وقال ابن أبى حاتم ؛ حدثنا أبى ، حدثنا على بن هاشم ، حدثنا عبدَةَ بن نوح ، عن عمر بن الحجاج ، عن عبيد الله ابن أبى صالح قال ؛ دخل علىّ طاوس يعودنى ، فقلت له ؛ ادع الله لى يا أبا عبد الرحمن فقال ؛ ادع لنفسك ، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه .

وقال وهب بن منبه ؛ قرأت فى الكتاب الأول ؛ إن الله يقول ؛ بعزتى إنه من اعتصم بى فإن كادته السموات ومن فيهن ، والأرض بمن فيها ، فإنى أجعل له من بين ذلك مخرجاً ؛ ومن لم يعتصم بى فإنى أخسف به من تحت قدميه الأرض ، فأجعله فى الهواء ، فأكله إلى نفسه .

وذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة رجل — حكى عنه أبو بكر محمد بن داود الدَّيْنَوَرِى ، المعروف بالدُّقّى الصوفى — قال هذا الرجل ؛ كنت أكارى على بغل لى من دمشق إلى بلد الزَّبَدَانى (٨) ، فركب معى ذات مرة رجل ، فمررنا على بعض الطريق ، على طريق غير مسلوكة ، فقال لى ؛ خذ فى هذه ، فإنها أقرب ، فقلت ؛ لا خِبْرَةَ لى فيها ،

---

(١) السنة — بفتح السين — الجدب والقحط .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٥/٦٤ .
(٣) فى المخطوطة : « عن عبيدة الهجيمى ، عن أبيه » . « وعن أبيه » غير ثابتة فى المسند ولم نجد فى ترجمة عبيدة أنه يروى عن أبيه . انظر التهذيب : ٧/٨٦ .
(٤) انظر تفسير الاحتباء فى ٦/٨٦ .
(٥) الهدب : بضم فسكون — : فضول الثوب .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٥/٦٣ — ٦٤ .
(٧) سنن أبى داود ، كتاب اللباس ، باب « ما جاء فى إسبال الإزار » : ٤/٥٦ — ٥٨ .
(٨) الزبدانى : كورة مشهورة بين دمشق وبعلبك ، منها مخرج نهر دمشق .

فقال : بل هي أقرب . فسلكناها فانتهينا إلى مكان وَعْر وواد عميق ، وفيه قتلى كثير ، فقال لى : أمسك رأس البغل حتى أنزل . فنزل وتشمر ، وجمع عليه ثيابه ، وسل سكينا معه وقصدنى ، ففررت من بين يديه وتبعنى ، فناشدته الله وقلت : خذ البغل بما عليه . فقال : هو لى ، وإنما أريد قتلك . فخوفته الله والعقوبة فلم يقبل ، فاستسلمت بين يديه وقلت : إن رأيت أن تتركنى حتى أصلى ركعتين ؟ فقال : وعجل . فقمت أصلى فأُرْتِج (١) علىّ القرآنُ فلم يحضرنى منه حرف واحد ، فبقيت واقفا متحيرا وهو يقول : هيه : افرُغ . فأجرى الله على لسانى قوله تعالى : (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء) ، فاذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادى ، وبيده حربة ، فرمى بها الرجل فما أخطأت فؤاده ، فخر صريعا ، فتعلقت بالفارس وقلت : بالله من أنت ؟ فقال : أنا رسول الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء . قال : فأخذت البغل والحمل ورجعت سالما .

وذكر فى ترجمة « فاطمة بنت الحسن أم أحمد العجلية » ، قالت : هزم الكفار يوما المسلمين فى غزاة ، فوقف جوَاد جيِّد بصاحبه ، وكان من ذوى اليسار ومن الصلحاء ، فقال للجواد : مالك ؟ ويلك . إنما كنت أعدّك لمثل هذا اليوم . فقال له الجواد : ومالى لا أقصّر وأنت تَكِلُ علوفتى إلى السّواس فيظلموننى ولا يطعموننى إلا القليل ؟ فقال : لك علىّ عهد الله أنى لا أعلفك بعد هذا اليوم إلا فى حجْرى . فجرى الجواد عند ذلك ، ونجّى صاحبه ، وكان لا يعلفه بعد ذلك إلا فى حجره . واشتهر أمره بين الناس ، وجعلوا يقصدونه ليسمعوا منه ذلك ، وبلغ ملكَ الروم أمرُه ، فقال : ما تُضَام بلدة يكون هذا الرجل فيها . واحتال ليحصّله فى بلده ، فبعث إليه رجلا من المرتدين عنده ، فلما انتهى إليه أظهر له أنه قد حَسُنت نيته فى الإسلام وقومه ، حتى استوثق ، ثم خرجا يوما يمشيان على جنب الساحل ، وقد واعد شخصا آخر من جهة ملك الروم ليتساعدا على أسره ، فلما اكتنفاه ليأخذاه رَفَع طرفه إلى السماء وقال : اللهم ، إنه إنما خدَعنى بك فاكفنيهما بما شئت . قال : فخرج سبعان إليهما فأخذاهما ، ورجع الرجل سالما .

وقوله تعالى : (ويجعلكم خلفاء الأرض) ، أى : يُخْلِفُ قَرنا لقرن قبلهم وخَلَفاً لسلف ، كما قال تعالى : (إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء ، كما أنشأكم من ذُرِّيَّة قوم آخرين)(٢) ، وقال تعالى : (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات (٣)) ، وقال تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة(٤)) ، أى : قوما يخلف بعضهم بعضا كما قدمنا تقريره . وهكذا هذه الآية : (ويجعلكم خلفاء الأرض) أى : أمة بعد أمة ، وجيلا بعد جيل ، وقوما بعد قوم . ولو شاء لأوجدهم كلهم فى وقت واحد ، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض ، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين ، كما خلق آدم من تراب . ولو شاء أن يجعلهم بعضَهم من ذرية (٥) بعض ، ولكن لا يميت أحدا حتى تكون وفاة الجميع فى وقت واحد ، فكانت تضيق عليهم الأرض ، وتضيق عليهم معايشهم وأكسابهم ، ويتضرر بعضهم ببعض . ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة ، ثم يكثرهم غاية الكثرة ،

(١) أى : استغلقت عليه القراءة .
(٢) سورة الأنعام ، آية : ١٣٣ .
(٣) سورة الأنعام ، آية ١٦٥ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ٣٠ .
(٥) فى المخطوطة : « أن يجعلهم من ذرية بعضهم بعضا » . وما أثبتناه من الطبعات السابقة .

ويذرأهم فى الأرض ، ويجعلهم قرونا بعد قرون ، وأمما بعد امم ، حتى ينقضى الأجل وتفرغ البَرِيّة ، كما قدر ذلك تبارك وتعالى ، وكما أحصاهم وعَدّهم عَدّا ، ثم يقيم القيامة ، ويُوفى كلّ عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله ، ولهذا قال تعالى : (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ، أ إله مع الله) ، أى : يقدر على ذلك ، أو إله مع الله يُعْبَد ، وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك (قليلا ما يَذّكّرون(١)) ، أى : ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم .

أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾

يقول : (أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر) ، أى : بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية ، كما قال : (وعلامات وبالنجم هم يهتدون (٢)) وقال تعالى : (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر (٣)) الآية .

(ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته) ، أى : بين يدى السحاب الذى فيه مطر ، يغيث به عبادَه المجدبين الأزلين(٤) القنطين ، (أ إله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون) .

أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾

أى : هو الذى بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : (إن بطش ربك لشديد ، إنه هو يبدىء ويعيد(٥)) ، وقال : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه(٦)) .

(ومن يرزقكم من السماء والأرض) ، أى : بما ينزل من مطر السماء ، وينبت من بركات الأرض ، كما قال : (والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع (٧)) ، وقال : (يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها (٨)) . فهو تبارك وتعالى ينزل من السماء ماء مباركاً فيسكنه فى الأرض ، ثم يخرج به أنواع الزروع والثمار والأزاهير ، وغير ذلك من ألوان شتى ، (كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى(٩)) ، ولهذا قال : (أ إله مع الله) ، أى : فعل هذا . وعلى القول الآخر : يعبد ؟ ، (قل : هاتوا برهانكم) على صحة

---

(١) كذا فى مخطوطة الأزهر : « يذكرون » : وهى قراءة الحسن والأعمش وأبى عمرو . انظر البحر المحيط : ٧/٩٠ .
(٢) سورة النحل ، آية : ١٦ .
(٣) سورة الأنعام ، آية : ٩٧ .
(٤) الأزل - بفتح فسكون - : الضيق والشدة .
(٥) سورة البروج ، آية : ١٢ ، ١٣ .
(٦) سورة الروم ، آية : ٢٧ .
(٧) سورة الطارق ، آية : ١١ ، ١٢ .
(٨) سورة الحديد ، آية : ٤ .
(٩) سورة طه ، آية : ٥٤ .

ما تدعونه من عبادة آلهة أخرى ، (إن كنتم صادقين) فى ذلك، وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان ، كما قال : (ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به ، فإنما حسابه عند ربه ، إنه لا يفلح الكافرون) (١).

قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقول معلماً لجميع الخلق : أنه لا يَعْلَم أحد من أهل السموات والأرض الغيب . وقوله : (إلا الله) استثناء منقطع ، أى : لا يعلم أحد ذلك إلا الله عز وجل ، فإنه المنفرد بذلك وحده ، لا شريك له ، كما قال : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو)(٢) ... الآية ، وقال : (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير) (٣) ، والآيات فى هذا كثيرة .

وقوله : (وما يشعرون أيان يبعثون) ، أى : وما يشعر الخلائق الساكنون فى السموات والأرض بوقت الساعة ، كما قال : (ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة)(٤) ، أى : ثقل علمها على أهل السموات والأرض .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى : حدثنا على بن الجعد ، حدثنا أبو جعفر الرازى ، عن داود بن أبى هند ، عن الشعبى ، عن مسروق ، عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : من زعم أنه يعلم ـ يعنى النبى صلى‌الله عليه وسلم ـ ما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفرية ، لأن الله تعالى يقول : (لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله) .

وقال قتادة : إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصلات : جعلها زينة للسماء ، وجعلها يهتدى بها ، وجعلها رجوماً فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه ، وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه وتكلف مالا علم له به . وإن ناساً جَهَلَة بأمر الله ، قد أحدثوا من هذه النجوم كهانة : من أعرّس بنجم كذا وكذا ، كان كذا وكذا . ومن سافر بنجم كذا وكذا ، كان كذا وكذا : ومن ولد بنجم كذا وكذا ، كان كذا وكذا . ولعمرى ما من نجم إلا يولد به الأحمر و الأسود ، والقصير والطويل ، والحسن والدّميم ، وما علِمْ هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطير بشىء من الغيب ! وقضى الله : أنه لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون أيان يبعثون .

رواه ابن أبى حاتم عنه بحروفه ، وهو كلام جليل متين صحيح ، وقوله : (بل ادارك علمهم فى الآخرة ، بل هم فى شك منها) ، أى : انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها .

---

(١) سورة المؤمنون ، آية : ١١٧ .
(٢) سورة الأنعام ، آية : ٥٩ .
(٣) سورة لقمان ، آية : ٣٤ .
(٤) سورة الأعراف ، آية : ١٨٧ .

وقرأ آخرون : (بل أدرك علمهم)(١) ، أى : تساوى علمهم فى ذلك ، كما فى الصحيح لمسلم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل — وقد سأله عن وقت الساعة — : ما المسئول عنها بأعلم من السائل(٢) ، أى : تساوى فى العجز عن دَرْك ذلك علمُ المسئول والسائل .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (بل أدرك علمهم فى الآخرة) ، أى : غاب(٣) .

وقال قتادة : (بل ادارك(٤) علمهم فى الآخرة) ، يعنى بجهلهم ربهم ، يقول : لم ينفذ لهم إلى الآخرة علم ، هذا قول .

وقال ابن جُرَيج ، عن عطاء الخراسانى ، عن ابن عباس : (بل أدرك(٥) علمهم فى الآخرة) ، حين لم ينفع العلم . وبه قال عطاء الخراسانى ، والسدّى : أن علمهم إنما يُدرك ويكمل يوم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك ، كما قال تعالى : (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ، لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين(٦)) .

وقال سفيان ، عن عمرو بن عبيد ، عن الحسن أنه كان يقرأ : (بل أدرك علمهم(٧)) ، قال : اضمحل علمهم فى الدنيا ، حين عاينوا الآخرة .

وقوله : (بل هم فى شك منها) ، عائد على الجنس ، والمراد الكافرون ، كما قال تعالى : (وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ، بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً(٨)) ، أى : الكافرون منكم . وهكذا قال هاهنا : (بل هم فى شك منها) ، أى : شاكون فى وجودها ووقوعها ، (بل هم منها عمون) ، أى : فى عَمَاية وجهل كبير فى أمرها وشأنها .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن منكرى البعث من المشركين : أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظاماً ورفاتاً وتراباً ، ثم قال : (لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل) ، أى : مازلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا ، ولانرى له حقيقة ولا وقوعاً ،

---

(١) انظر القراءات فى البحر المحيط : ٧/٩٢ . والدر المنثور : ١٣/٢٢٦ .

(٢) أخرجاه فى كتاب الإيمان . انظر البخارى ، باب « سؤال جبريل النبى صلى الله عليه وسلم عن الإيمان ، والإسلام ، والإحسان ، وعلم الساعة » : ١/١٩ — ٢٠ . ومسلم ، باب « معرفة الإيمان ، والإسلام ، والقدر ، وعلامة الساعة » . ١/٢٩ ، ٣٠ ، ٣١

(٣) تفسير الطبرى : ٢٠/٦ . وكان فى المخطوطة : (بل ادارك) . وقد أثبتنا ما فى تفسير الطبرى .

(٤) كذا أثر قتادة فى مخطوطة الأزهر . وأثره — كما فى تفسير الطبرى ٢٠ / ٦ — : « كان يقرؤها : (بل أدرك علمهم فى الآخرة) ، قال لم يبلغ لهم فيها علم ، ولا يصل إليها منهم رغبة » . وانظر الدر المنثور : ٥/١١٤ .

(٥) فى المخطوطة : « بل ادارك » . والمثبت أيضا عن تفسير الطبرى .

(٦) سورة مريم ، آية : ٣٨ .

(٧) الدر المنثور : ٥/١١٤ ، عن عبد بن حميد ، وابن المنذر .

(٨) سورة الكهف ، آية : ٤٨ .

وقولهم : (إن هذا إلا أساطير الأولين) ، يعنون : ما هذا الوعد بإعادة الأبدان (إلا أساطير الأولين) ، أي : أخذه قوم عمن قبلهم ، مَنْ قبلهم يتلقاه بعض عن بعض ، وليس له حقيقة . قال الله تعالى مجيباً لهم عما ظنوه من الكفر وعدم المعاد : (قل) ــ يامحمد ــ لهؤلاء : (سيروا فى الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين) ، أى : المكذبين بالرسل وما جاءوهم به من أمر المعاد وغيره ، كيف حلت بهم نقمُ الله وعذابه ونكاله ، ونجى الله من بينهم رسله الكرام ومن اتبعهم من المؤمنين ، فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته .

ثم قال تعالى مسلياً لنبيه ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ (ولا تحزن عليهم) ، أى : المكذبين بما جئت به ، ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات ، (ولا تكن فى ضيق مما يمكرون) ، أى : فى كيدك وردّ ما جئت به ، فإن الله مؤيدك وناصرك ، ومظهرٌ دينَك على من خالفه وعانده فى المشارق والمغارب .

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ، فى سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك : (ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟) قال الله مجيباً لهم : (قل) ــ يا محمد ــ (عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون) . [قال ابن عباس أن يكون قرب ــ أو : أن يقرب ــ لكم بعض الذى تستعجلون (١)] . وهكذا قال مجاهد ، والضحاك ، وعطاء الخراسانى ، وقتادة والسدى .

وهذا هو المراد بقوله تعالى : (ويقولون : متى هو ؟ قل : عسى أن يكون قريباً(٢)) : وقال تعالى : (ويستعجلونك بالعذاب ، وإن جهنم لمحيطة بالكافرين (٣)) :

وإنما دخلت « اللام » فى قوله : (ردف لكم) ، لأنه ضُمن معنى « عَجِل لكم » ، كما قال مجاهد فى رواية عنه : (عسى أن يكون ردف لكم) : عجل لكم .

ثم قال الله تعالى : (وإن ربك لذو فضل على الناس) ، أى : فى إسباغه نعمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم ، وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا القليل منهم ، (وإن ربك ليعلم ماتكن صدورهم وما يعلنون) ، أى : يعلم السرائر والضمائر ، كما يعلم الظواهر ، (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به) (٤) ، (يعلم السر وأخفى(٥)) ، (ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون (٦)).

(١) ما بين القوسين من الطبعات السابقة . انظر تفسير الطبرى ٢٠/٧ .
(٢) سورة الإسراء ، آية : ٥١ .
(٣) سورة العنكبوت ، آية : ٥٤ .
(٤) سورة الرعد ، آية : ١٠ .
(٥) سورة طه ، آية : ٧ .
(٦) سورة هود ، آية : ٥ .

ثم أخبر تعالى بأنه عالم غيب السموات والأرض ، وأنه عالم الغيب والشهادة — وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه — فقال : (وما من غائبة فى السماء والأرض) ، قال ابن عباس : يعنى وما من شىء (فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين) وهذا كقوله تعالى : (ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض ؛ إن ذلك فى كتاب ، إن ذلك على الله يسير (١)) .

إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز ، وما اشتمل عليه من الهدى والبينات والفرقان : أنه يقص على بنى إسرائيل — وهم حملة التوراة والإنجيل — (أكثر الذى هم فيه يختلفون) ، كاختلافهم فى عيسى وتباينهم فيه ، فاليهود افتروا ، والنصارى غلوا فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل : أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسله الكرام — عليه الصلاة والسلام — كما قال تعالى : (ذلك عيسى ابن مريم قولَ الحق الذى فيه يمترون (٢)) .

وقوله : (وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين) ، أى : هدى لقلوب المؤمنين ، ورحمة لهم فى العمليات .

ثم قال : (إن ربك يقضى بينهم) ، أى : يوم القيامة (بحكمه ، وهو العزيز) فى انتقامه ، (العليم) بأفعال عباده وأقوالهم .

(فتوكل على الله) ، أى : فى أمورك ، وبلّغ رسالة ربك ، (إنك على الحق المبين) ، أى : أنت على الحق المبين وإن خالفك من خالفك ممن كتبت عليه الشقاوة وحقّت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية ؛ ولهذا قال : (إنك لا تسمع الموتى) ، أى : لا تسمعهم شيئاً ينفعهم ، فكذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة ، وفى آذانهم وقْر الكفر ؛ ولهذا قال : (ولا تسمع الصمّ الدعاء إذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ؛ إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) ، إنما يستجيب لك مَن هو سميع بصير ، السمعُ والبصر النافعُ فى القلب والبصيرة الخاضعُ لله ، ولما جاء عنه على ألسنة الرسل عليهم السلام .

---

(١) سورة الحج ، آية : ٧٠ .
(٢) سورة مريم ، آية : ٣٤ .

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

هذه الدابة تخرج فى آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق ، يخرج الله لهم دابة من الأرض – قيل : من مكة ، وقيل : من غيرها ، كما سيأتى تفصيله – فتُكلّم الناس على ذلك .

قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة – ورُوى عن على رضى الله عنه – : تكلمهم كلاما ، أى : تخاطبهم مخاطبة ،

وقال عطاء الخراسانى : تكلمهم فتقول لهم : إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ، ويروى هذا عن على ، واختاره ابن جرير (١) ، وفى هذا نظر لا يخفى ، والله أعلم .

وقال ابن عباس – فى رواية – : تجرحهم . وعنه رواية ، قال : كُلاًّ تفعل (٢) يعنى هذا وهذا ، وهو قول حسن ، ولا منافاة ، والله أعلم .

وقد ورد فى ذكر الدابة أحاديث وآثار كثيرة ، فلنذكر ما تيسر منها ، والله المستعان :

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن فُرَات ، عن أبى الطفيل ، عن حُذَيفة بن أسيد الغفارى قال : أشرف علينا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال : لا تقوم الساعة حتى تَرَوا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمغرب ، وخسف بالمشرق ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قَعر عدن تسوق – أو : تحشر – الناس ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتَقيل معهم حيث قالوا (٣) .

وهكذا رواه مسلم وأهل السنن ، من طرق ، عن فُرَات القزاز ، عن أبى الطفيل عامر بن واثلة ، عن حُذَيفة موقوفا (٤) . وقال الترمذى : حسن صحيح ، ورواه مسلم أيضاً من حديث عبد العزيز بن رفيع ، عن أبى الطفيل ، عنه مرفوعاً (٥) ، والله أعلم .

طريق أخرى ، قال أبو داود الطيالسى ، عن طلحة بن عمرو ، وجرير بن حازم ، فأما طلحة فقال : أخبرنى عبد الله ابن عبيد الله بن عُمَير الليثى : أن أبا الطفيل حدثه ، عن حذَيفة بن أسيد الغفارى أبى سَرِيحَة ، وأما جرير فقال : عن عبد الله بن عُبيد ، عن رجل من آل عبد الله بن مسعود – وحديث طلحة أتم وأحسن – قال : ذَكَرَ رسولُ الله

---

(١) انظر تفسير الطبرى : ٢٠ / ١١ ، ١٢ .

(٢) أخرج السيوطى فى الدر المنثور من عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، عن أبى داود نفيع الأعمى قال : سألت ابن عباس عن قوله (أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ، أو تكلِمهم » بسكون الكاف » ؟ قال : كل ذلك والله يفعل ، تكلم المؤمن وتكلم الكافر تجرحه » . انظر : ٥/ ١١٥ .

(٣) هذا متن حديث رواه الإمام أحمد عن محمد بن جعفر عن شعبة ، عن فرات : ٤/ ٧ . أما روايته من سفيان ، عن فرات فهى فى المسند : ٤/ ٦ .

(٤) مسلم ، كتاب الفتن ، باب « فى الآيات التى تكون قبل الساعة » : ٨/ ١٧٨ ، وسنن أبى داود ، كتاب الملاحم ، باب « أمارات الساعة » ، الحديث ٤٣١١ : ٤/ ١١٤ ، ١١٥ وتحفة الأحوذى ، أبواب الفتن ، باب « ما جاء فى الخسف » ، الحديث ٢٢٧٤–٢٢٧٨ : ٦/ ٤١٣ – ٤١٦ . وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب « الآيات » ، الحديث ٤٠٥٥ : ٢/ ١٣٤٧ ومسند الإمام أحمد : ٤/ ٧ .

(٥) مسلم ، فى الكتاب والباب المتقدمين : ٨/ ١٨٠ .

صلى الله عليه وسلم الدابة فقال : لها ثلاث خرجات من الدهر ، فتخرج خَرْجة(١) من أقصى البادية ، ولا يدخل ذكرها القرية — يعنى مكة — ثم تكن زماناً طويلا ، ثم تخرج خَرْجة أخرى دون تلك ، فيعلو ذكرها فى أهل(٢) البادية ، ويدخل ذكرها القرية — يعنى مكة — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثم بينما الناس فى أعظم المساجد على الله حرمة(٣) وأكرمها : المسجد الحرام ، لم يَرُعْهم إلا وهى تَرْغُو(٤) بين الركن والمقام ، تنفض عن رأسها التراب ، فارفضّ الناس عنها شتّى ومعاً ، وبقيت(٥) عصابة من المؤمنين ، وعرفوا أنهم لم يعجزوا الله ، فبدأت بهم فجلَت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدرّى ، وولت فى الأرض لا يدركها طالب ، ولا ينجو منها هارب ، حتى إن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة ، فتأتيه من خلفه فتقول : يافلان ، الآن تصلى ؟ . فيقبل عليها فتَسِمُه فى وجهه ، ثم تنطلق ويشترك الناس فى الأموال ، ويصطحبون فى الأمصار ، يعرف المؤمن مَن الكافر ، حتى إن المؤمن ليقول : ياكافر ، اقضنى حقى ، وحتى إن الكافر ليقول : يامؤمن ، اقضنى حقى(٦) .

ورواه ابن جرير من طريقين ، عن حذيفة بن أسيد موقوفاً(٧) . فالله أعلم . ورواه من رواية حذيفة بن اليمان مرفوعاً ، وأن ذلك فى زمان عيسى ابن مريم ، وهو يطوف بالبيت ، ولكن إسناده لا يصح(٨) .

حديث آخر : قال مسلم بن الحجاج : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا محمد بن بشر ، عن أبى حَيَّان ، عن أبى زُرْعة ، عن عبد الله بن عمر قال : حَفِظْتُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً لم أنسه بعد : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن أول الآيات خروجاً طلوعُ الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضُحى ، وأيتهما ما كانت قبل صاحبتها ، فالأخرى على أثرها قريباً(٩) .

حديث آخر : روى مسلم فى صحيحه من حديث العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب — مولى الحُرَقة — عن أبيه ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بادروا بالأعمال ستا : طلوع الشمس من مغربها ، أو الدخان ، أو الدجال ، أو الدابة ، أو خاصة(١٠) أحدكم ، أو أمر العامة(١١) . وله من حديث قتادة ، عن الحسن ،

---

(١) فى منحة المعبود : « فتخرج فى أقصى البادية » .

(٢) فى منحة المعبود : « فيعلو ذكرها أهل » .

(٣) فى منحة المعبود : « حرمة ، خيرها وأكرمها » .

(٤) أى تصوت .

(٥) فى منحة المعبود : « وثبت عصابة » .

(٦) منحة المعبود ، كتاب الفتن وعلامات الساعة ، باب « خروج الدابة والخسف » : ٢/٢٢٠ — ٢٢١ .

(٧) تفسير الطبرى : ٢٠/ ١٠ .

(٨) تفسير الطبرى : ٢٠/١١ .

(٩) مسلم ، كتاب الفتن ، باب « فى خروج الدجال ومكثه فى الأرض » . ٨/٢٠٢ .

(١٠) يريد بأمر العامة : القيامة ؛ لأنها تعم الناس بالموت ، وبخاصة أحدكم : حادثة الموت التى تخص كل إنسان ، ومعنى مبادرتها : الاهتمام بالأعمال الصالحة قبل وقوعها .

(١١) مسلم ، كتاب الفتن ، باب فى بقية من حديث الدجال » : ٨/٢٠٧ .

عن زياد بن رياح ، عن أبي هُرَيرة ــ رضي الله عنه ــ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : بادروا بالأعمال ستا : الدجال ، والدخان ، ودابة الأرض ، وطلوع الشمس من مغربها ، وأمر العامة وخُوَيصَّة(١) أحدكم (٢) .

حديث آخر ، قال ابن ماجه : حدثنا حرملة بن يحيى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني عَمْرُو بن الحارث وابن لَهيعة ، عن يزيد بن أبي حبيب ، عن سنان بن سعد ، عن أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : بادروا بالأعمال ستاً : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، ودابة الأرض ، والدجال ، وخُوَيصَّة أحدكم ، وأمر العامة : تفرد به(٣) .

حديث آخر : قال أبو داود الطيالسي أيضاً : حدثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن أوس(٤) بن خالد عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تخرج دابة الأرض ، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام ، فتخطم(٥) أنف الكافر بالعصا ، وتُجلِي وجه المؤمن بالخاتم ، حتى يجتمع الناس على الخِوَان(٦) يعرف المؤمن من الكافر(٧) .

ورواه الإمام أحمد ، عن بهز وعفان ويزيد بن هارون ، ثلاثتهم عن حماد بن سلمة ، به : وقال : « فتخطم أنف الكافر بالخاتم ، وتجلو وجه المؤمن بالعصا ، حتى إن أهل الخوان الواحد ليجتمعون فيقول هذا : يامؤمن ويقول هذا : يا كافر(٨) .

ورواه ابن ماجه ، عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن يونس بن محمد المؤدب ، عن حماد بن سلمة ، به(٩)

حديث آخر : قال ابن ماجه : حدثنا أبو غسان محمد بن عمرو ، حدثنا أبو تُمَيلة ، حدثنا خالد بن عُبَيد ، حدثنا عبدالله بن بُرَيدة ، عن أبيه قال : ذهب بي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى موضع بالبادية ، قريب من مكة ، فإذا أرض يابسة حولها رمل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تخرج الدابة من هذا الموضع : فإذا فِتْر (١٠) في شبر .

قال ابن بُرَيدة : فحججت بعد ذلك بسنين ، فأرانا عصاً له ، فإذا هو بعصاي هذه ، كذا وكذا (١١) .

وقال عبد الرزاق عن معمر ، عن قتادة أن ابن عباس قال : هي دابة ذات زَغَب ، لها أربع قوائم ، تخرج من بعض أودية تِهامة .

---

(١) خويصة : تصغير خاصة .
(٢) مسلم ، في الكتاب والباب المتقدمين : ٨/٢٠٧ ، ٢٠٨ .
(٣) سنن ابن ماجه ، كتاب « الفتن » « الآيات » ، الحديث ٤٠٥٦ : ٢/١٣٤٨ .
(٤) في المخطوطة : « أويس » . والمثبت عن منحة المعبود ومسند الإمام أحمد ، وميزان الاعتدال : ١/٢٧٧ .
(٥) خطمه يخطمه ــ بكسر الطاء في المضارع ــ : ضرب أنفه .
(٦) الخوان ــ بكسر الخاء وضمها ــ : ما يؤكل عليه الطعام .
(٧) منحة المعبود ، باب « خروج الدابة . . . » ٢/٢٢١ .
(٨) حديث عفان ويزيد في المسند : ٢/٢٩٥ . وحديث بهز في ٢/٤٩١ .
(٩) سنن ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب « دابة الأرض » ، الحديث ٤٠٦٦ : ٢/١٣٥١ ، ١٣٥٢ .
(١٠) الفتر ــ بكسر فسكون ــ : ما بين الإبهام والسبابة .
(١١) سنن ابن ماجه ، في الكتاب والباب المتقدمين ، الحديث ٤٠٦٧ : ٢/١٣٥٢ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن رجاء ، حدثنا فضيل بن مرزوق ، عن عطية قال : قال عبد الله : تخرج الدابة من صدْع من الصفا كجَرْي الفرس ثلاثة أيام ، لم يخرج ثلثها .

وقال محمد بن إسحاق ، عن أبان بن صالح قال : سئل عبد الله بن عمرو عن الدابة ، فقال : الدابة تخرج من تحت صخرة بجياد(١) ، والله لو كنت معهم — أو لو شئت بعصاى الصخرة التي تخرج الدابة من تحتها . قيل : فتصنع ماذا يا عبد الله بن عمرو ؟ قال : تستقبل المشرق فتصرخ صرخة تنفُذُه ، ثم تستقبل الشام فتصرخ صرخة تنفذه ، [ثم تستقبل المغرب فتصرخ صرخة تنفذه ، ثم تستقبل اليمن فتصرخ صرخة تنفذه] ، ثم تروح من مكة فتصبح بعسفان . قيل : ثم ماذا ؟ قال : لا أعلم(٢) .

وعن عبد الله بن عمر ، أنه قال : تخرج الدابة ليلة جَمْع (٣) . ورواه ابن أبي حاتم : وفي إسناده ابن البيلمانى .

وعن وهب بن منبه : أنه حكى من كلام عُزَيْر عليه السلام أنه قال : وتخرج من تحت سدوم دابة تكلم الناس كل يسمعها ، وتضع الحبالى قبل التمام ، ويعود الماء العذب أجاجاً ويتعادى الأخلاء ، وتُحرَقُ الحكمة ، ويُرفَعُ العلم ، وتكلم الأرض التي تليها : وفي ذلك الزمان يرجو الناس مالا يبلغون ، ويتعبون فيما لا ينالون ، ويعملون فيما لا يأكلون . رواه ابن أبي حاتم ، عنه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو صالح — كاتب الليث — حدثني معاوية بن صالح ، عن أبي مريم : أنه سمع أبا هريرة — رضي الله عنه — يقول : إن الدابة فيها من كل لون ، مابين قرنيها فرسخ للراكب .

وقال ابن عباس : هي مثل الحربة الضخمة .

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب — رضي الله عنه — أنه قال : إنها دابة لها ريش وزغب وحافر ، وما لها ذنب ، ولها لحية ، وإنها لتخرج حُضْرَ الفرس (٤) الجواد ثلاثاً ، وما خرج ثلثها . ورواه ابن أبي حاتم .

وقال ابن جريج ، عن ابن الزبير أنه وصف الدابة فقال : رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن أيَّل (٥) ، وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نَمِر ، وخاصرتها خاصرة هرّ ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير ، بين كل مفصلين اثنا ذراعاً ، تخرج معها عصا موسى وخاتم سليمان ، فلا يبقى مؤمن إلا نكتت في وجهه بعصا موسى نكتة بيضاء ، فتفشو تلك النكتة حتى يبيضّ لها وجهه ، ولا يبقى كافر إلا نكتت في وجهه نكتة سوداء بخاتم سليمان ، فتفشوا تلك النكتة حتى يسود لها وجهه ، حتى إن الناس يتبايعون في الأسواق : بكم

(١) جياد — بكسر الجيم وفتحها ، ويقال : أجياد — : موضع بمكة يلي الصفا .
(٢) أخرج السيوطي بعضه في الدر المنثور من عبد بن حميد . انظر : ٥/١١٥ .
(٣) جمع — بفتح فسكون — : المزدلفة . والأثر أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٥/١١٧ ، عن ابن أبي شيبة ، وابن أبي حاتم . ولفظه : « تخرج الدابة ليلة جمع ، والناس يسيرون إلى منى ، فتحملهم بين نحرها وذنبها ، فلا يبقى منافق إلا خطمته ، وتمسح المؤمن فيصبحون وهم بشر من الدجال » .
(٤) الحضر — بضم فسكون — : العدو .
(٥) الأيل — بضم الهمزة ، وكسرها ، والياء مشددة مفتوحة — : الذكر من الأوعال .

ذيا مؤمن ، بكم ذا ياكافر ؟ وحتى إنّ أهل البيت يجلسون على مائدتهم ، فيعرفون مؤمنهم من كافرهم ، ثم تقول لهم الدابة : يافلان ، أبشر ، أنت من أهل الجنة ؟ ويافلان ، أنت من أهل النار . فذلك قول الله تعالى : (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لايوقنون) .

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾

يقول تعالى مخبرا عن يوم القيامة ، وحشر الظالمين المكذبين بآيات الله ورسله إلى بين يدى الله عز وجل ، ليسألهم عما فعلوه فى الدار الدنيا ، تقريعاً وتوبيخاً ، وتصغيرا وتحقيرا فقال : (ويوم نحشر من كل أمة فوجاً) ، أى : من كل قوم وقرن فوجاً أى : جماعة ، (ممن يكذب بآياتنا) ، كما قال تعالى : (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم)(١) ، وقال تعالى : (وإذا النفوس زوجت)(٢) .

وقوله : (فهم يوزعون) ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : يدفعون .(٣) وقال قتادة : وَزَعَةٌ ترد أولهم على آخرهم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يساقون .

(حتى إذا جاءوا) ، أى : أوقفوا بين يدى الله عز وجل فى مقام المساءلة ، (قال : أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما ، أم ماذا كنتم تعملون) ؟ أى : ويسألون عن اعتقادهم ، وأعمالهم فلما لم يكونوا من أهل السعادة وكانوا كما قال الله تعالى عنهم : (فلا صدق ولا صلى ، ولكن كذب وتولى) ، فحينئذ قامت عليهم الحجة ، ولم يكن لهم عذر يعتذرون به ، كما قال تعالى: (هذا يوم لاينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون . ويل يومئذ للمكذبين)(٤) ، وهكذا قال هاهنا : (ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لاينطقون) ، أى : بهتوا فلم يكن لهم جواب ، لأنهم كانوا فى الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم ، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذى لاتخفى عليه خافية .

ثم قال تعالى منبها على قدرته التامة ، وسلطانه العظيم ، وشأنه الرفيع الذى تجب طاعته والانقياد لأوامره ، وتصديق أنبيائه فيما جاءوا به من الحق الذى لامَحيد عنه ، فقال : (ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه) ، أى : فيه ظلام تسكن بسببه حركاتهم ، وتهدأ أنفاسهم ، ويستريحون من نَصَب التعب فى نهارهم . (والنهار مبصرا) ، أى : منيرا مشرقا ، فبسبب ذلك يتصرفون فى المعايش والمكاسب ، والأسفار والتجارات ، وغير ذلك من شئونهم التى يحتاجون إليها ، (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) .

---

(١) سورة الصافات ، آية : ٢٢ .
(٢) سورة التكوير ، آية : ٧ .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٠/١٢ .
(٤) سورة المرسلات ، الآيات : ٣٥ - ٣٧ .

وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ
(٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا
تَفْعَلُونَ (٨٨) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ
وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠)

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزَع فى الصور ، وهو كما جاء فى الحديث : « قرن ينفخ(١) فيه » ، وفى حديث (الصور)(٢) أن إسرافيل هو الذى ينفخ فيه بأمر الله تعالى ، فينفخ فيه أولا نفخة الفزع ويطولها ، وذلك فى آخر عمر الدنيا ، حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء ، فيفزع من فى السموات ومن فى الأرض (إلا من شاء الله) ، وهم الشهداء ، فإنهم [أحياء] عند ربهم يرزقون .

قال الإمام مسلم بن الحجاج : حدثنا عُبَيد الله بن مُعاذ العنبرى ، حدثنا أبى ، حدثنا شعبة ، عن النعمان بن سالم : سمعت يعقوب بن عاصم بن عُروة بن مسعود الثقفى ، سمعت عبد الله بن عمرو — رضى الله عنه — وجاءه رجل فقال : ماهذا الحديث الذى تحدِّث أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا ؟ فقال : سبحان الله ، أو : لا إله إلا الله — أو كلمة نحوها — لقد هممت أن لاأحدث أحدا شيئا أبدا ، إنما قلت : إنكم سترون بعد قليل أمرا عظيما يخرب(٣) البيت ، ويكون ويكون ، ثم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يخرج الدجال فى أمتى فيمكث أربعين — [لاأدرى أربعين] يوماً ، أو أربعين شهرا ، أو أربعين عاما — فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عُروة بن مسعود ، فيطلبه فيهلكه ، ثم يمكث الناس سبع سنين ، ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام ، فلا يبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدهم(٤) دخل فى كَبَد(٥) جبل لدخلَتْه عليه حتى تقبضه ، قال : سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فيبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع(٦) ، لايعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا ، فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون ؟ فيقولون : فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان ، وهم فى ذلك دارٌ(٧) رزقهم ، حسنٌ عيشهم ، ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً(٨) ، قال : وأول من يسمعه رجل يلُوط(٩) حوض

---

(١) تقدم الحديث فى تفسير الآية ٧٣ من سورة الأنعام : ٣/٢٧٦ ، وخرجناه هنالك .
(٢) انظر حديث الصور بتمامه فى الموضع المتقدم : ٣/٢٧٦ — ٢٨٢ .
(٣) كذا ، وفى مسلم : « يحرق البيت » .
(٤) كذا فى المخطوطة ، ومثله فى مسند الإمام أحمد : ٢/١٦٦ ، وفى مسلم : « أحدكم » .
(٥) كبد الجبل — بفتحتين — بجوفه ، من كهف أو شعب .
(٦) أى : يكونون فى سرعتهم إلى الشر وقضاء الشهوات والفساد كطيران الطير ، وفى العدوان وظلم بعضهم بعضاً فى أخلاق السباع العادية .
(٧) أى : كثير رزقهم ، من در اللبن يدر ، أى : كثر .
(٨) سيأتى شرح ابن كثير لهذه الكلمة .
(٩) أى : يطليه ويصلحه .

إبله . قال : فيَصْعَقُ ويَصعقُ الناس ، ثم يرسل الله ـ أوقال : ينزل الله مطرا كأنه الطَّل(١) ـ أو قال : الظل ـ نعمان الشاك ـ فتنبت منه أجساد الناس ، ثم ينفَخُ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال : ياأيها الناس ، هلموا إلى ربكم ، وقفوهم إنهم مسؤلون . ثم يقال : أخرجوا بعث النار . فيقال : مِن كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، قال : فذلك يوم يجعل الولدانَ شيبا ، وذلك يومَ يكشف عن ساق(٢) .

وقوله : « ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا » ، الليت : هو صفحة العنق ، أى : أمال عنقه ليستمعه من السماء جيداً .

فهذه نفخة الفزع : ثم بعد ذلك نفخة الصعق ، وهو الموت ، ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين ، وهو النشور من القبور لجميع الخلائق ، ولهذا قال : (وكل آتَوه داخرين) ـ قُرِئَ(٣) بالمد ، وبغيره على الفعل ، وكل بمعنى واحد ـ و(داخرين) ، أى : صاغرين مطيعين ، لا يتخلف أحد عن أمره ، كما قال تعالى : (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده)(٤) ، وقال : (ثم إذا دعاكم دعوةمن الأرض إذا أنتم تخرجون)(٥) . وفى حديث الصور : أنه فى النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح ، فتوضع فى ثقب فى الصور ، ثم ينفخ إسرافيل فيه بعد ما تنبت الأجساد فى قبورها وأماكنها ، فإذا نفخ فى الصور طارت الأرواح ، تتوهج أرواح المؤمنين نوراً ، وأرواح الكافرين ظُلمة ، فيقول الله عز وجل : وعزتى وجلالى لترجعَنّ كلّ روح إلى جسدها . فتجىء الأرواح إلى أجسادها ، فتدبّ فيها كما يَدبّ السّم فى اللديغ ، ثم يقومون فينفضون التراب من قبورهم ، قال الله تعالى : (يوم يخرجون من الأجداث سراعا ، كأنهم إلى نصب يوفضون)(٦) .

وقوله : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) ، أى : تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه ، وهى تمرمَرّ السحاب ، أى : تزول عن أماكنها ، كما قال تعالى : (يوم تمور السماء مورا . وتسير الجبال سيرا)(٧) ، وقال : (ويسألونك عن الجبال فقل : ينسفها ربى نسفا . فيذرها قاعا صفصفا . لا ترى فيها عوجا ولا أمتا)(٨) ، وقال تعالى : (ويوم نُسير الجبال وترى الأرض بارزة)(٩) .

---

(١) الطل : الذى ينزل من السماء فى الصحو . والطل أيضاً : أضعف المطر .
(٢) مسلم ، كتاب الفتن ، باب « فى خروج الدجال ... » : ٨/٢٠١ ـ ٢٠٢ .
(٣) قال الطبرى ٢٠/١٤ : « واختلف القراء فى قراءة قوله : (وكل أتوه داخرين) ، فقرأته عامة قراء الأمصار : (وكل آتوه) ، بمد الألف من (آتوه) ، على مثال « فاعلوه » ، سوى ابن مسعود فإنه قرأه : (وكل أتوه) ، على مثال فعلوه . واتبعه على القراءة ؛ به المتأخرون : الأعمش وحمزة » . هذا وانظر تفسير القرطبى : ١٣/٢٤١ .
(٤) سورة الإسراء ، آية : ٥٢ .
(٥) سورة الروم ، آية : ٢٥ .
(٦) سورة المعارج ، آية : ٤٣ .
(٧) سورة الطور ، آية : ٩ ، ١٠ .
(٨) سورة طه ، الآيات : ١٠٥ ـ ١٠٧ .
(٩) سورة الكهف ، آية : ٤٧ .

وقوله : (صنع الله الذى أتقن كل شىء) ، أى : يفعل ذلك بقدرته العظيمة الذى قد أتقن كُلّ ما خلق ، وأودع فيه من الحكمة ما أودع ، (إنه خبير بما يفعلون(١)) ، أى : هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر فيجازيهم عليه .

ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ فقال : (من جاء بالحسنة فله خير منها) — قال قتادة : بالإخلاص . وقال زين العابدين : هى لا إله إلا الله — وقد بين فى المكان الآخر(٢) أن له عَشْر أمثالها . (وهم من فزع يومئذ آمنون) ، كما قال فى الآية الأخرى : (لا يحزنهم الفزع الأكبر(٣)) ، وقال :(أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة(٤)) . وقال : (وهم فى الغرفات آمنون(٥)) .

وقوله : (ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار) ، أى : من لقى الله مسيئاً لا حسنة له ، أو : قد رجحت سيئاته على حسناته ، كل بحسبه . ولهذا قال : (هل تجزون إلا ما كنتم تعملون) .

وقال ابن مسعود وأبو هريرة وابن عباس — رضى الله عنهم — وأنس بن مالك ، وعطاء ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد ، وإبراهيم النخعى ، وأبو وائل ، وأبو صالح ، ومحمد بن كعب ، وزيد بن أسلم ، والزهرى ، والسدى ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، وابن زيد ، فى قوله : (ومن جاء بالسيئة) ، يعنى : بالشرك .

إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

يقول تعالى مخبراً رسوله وآمراً له أن يقول : (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء) ، كما قال : (قال : يا أيها الناس ، إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ، ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم(٦)) .

وأضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها ، كما قال : (فليعبدوا رب هذا البيت . الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف(٧)) .

---

(١) كذا فى تفسير ابن كثير (يفعلون) ، بالياء ، وهى قراءة ثابتة فى السبعة . انظر البحر المحيط لأبى حيان : ٧/١٠١ .
(٢) سورة الأنعام ، آية : ١٦٠ .
(٣) سورة الأنبياء ، آية : ١٠٣ .
(٤) سورة فصلت ، آية : ٤٠ .
(٥) سورة سبأ ، آية : ٣٧ .
(٦) سورة يونس ، آية : ١٠٤ .
(٧) سورة قريش ، آية : ٣ ، ٤ .

وقوله : (الذى حرمها) ، أى : الذى إنما صارت حراما قدرا وشرعا ، بتحريمه لها ، كما ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يوم فتح مكة : « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يُعضَد شوكه(١) ، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لُقَطَتُه إلا لمن عرفها ، ولا يختلى(٢) خلاها ... الحديث بتمامه . وقد ثبت فى الصحاح والحسان والمسانيد من طرق(٣) جماعة تفيد القطع ، كما هو مبين فى موضعه من كتاب الأحكام ، ولله الحمد .

وقوله : (وله كل شىء) ، من باب عطف العام على الخاص ، أى : هو رب هذه البلدة ، ورب كل كل شىء ومليكه ، (وأمرت أن أكون من المسلمين) ، أى : الموحدين المخلصين المنقادين لأمره المطيعين له .

وقوله : (وأن أتلو القرآن) ، أى : على الناس أبلغهم إياه ، كقوله : (ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم(٤)) ، وكقوله : (نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون(٥)) ، أى : أنا مبلغ ومنذر ، (فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فقل : إنما أنا من المنذرين) ، أى : لى سوية(٦) الرسل الذين أنذروا قومهم ، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم ، وخلَصُوا من عهدتهم ، وحساب أممهم على الله ، كقوله تعالى : (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب(٧)) ، وقال : (إنما أنت نذير ، والله على كل شىء وكيل(٨)) .

وقل : الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها) ، أى : لله الحمد الذى لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، والإعذار إليه ، ولهذا قال : (سيريكم آياته فتعرفونها) ، كما قال تعالى : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق)(٩) .

وقوله : (وما ربك بغافل عما تعملون) ، أى : بل هو شهيد على كل شىء .

---

(١) أى : لا يقطع .
(٢) أى : لا يجز . والخلى : الرطب من النبات ...
(٣) البخارى ، كتاب الجنائز ، باب « الإذخر والحشيش فى القبر » : ٢/١١٥ – ١١٦ . ومسلم ، كتاب الحج ، باب « تحريم مكة وصيدها ... » : ٤/١٠٩ . وسنن أبى داود ، كتاب المناسك ، باب « تحريم مكة » ، الحديث ٢٠١٨ : ٢/٢١٢ . والنسائى ، كتاب الحج ، باب « حرمة مكة » : ٥/٢٠٣ – ٢٠٤ . ومسند الإمام أحمد : ٢٥٣ ، ٢٥٩ ، ٣١٥ – ٣١٦ .
(٤) سورة آل عمران ، آية : ٥٨ .
(٥) سورة القصص ، آية : ٣ .
(٦) يقال : هما على سوية من هذا الأمر ، أى : على سواء .
(٧) سورة الرعد ، آية : ٤٠ .
(٨) سورة هود ، آية : ١٢ .
(٩) سورة فصلت ، آية : ٥٣ .

قال ابن أبي حاتم : ذكر عن أبي عمر الحوضيّ حفص بن عمر : حدثناأبو أمية بن يعلى الثقفي ، حدثنا سعيد ابن أبي سعيد ، سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس ، لايَغْتَرَّنَّ أحدكم بالله ؛ فإن الله لو كان غافلا شيئاً لأغفل البعوضة والخردلة والذرة ».

[وقال أيضاً] حدثنا محمد بن يحيى ، حدثنا نصر بن على ، قال أبي : أخبرني(١) خالد بن قيس عن مطر ، عن عمر بن عبد العزيز قال : فلو كان الله مغفلا شيئاً لأغفل ما تَعفِي(٢) الرياح من أثر قدمي ابن آدم .

وقد ذكر عن الإمام أحمد – رحمه الله – أنه كان ينشد هذين البيتين ، إما له أو لغيره :

إِذَا مَا خَلَوتَ الدَّهرَ يَوماً فَلا تَقُل خَلَوتُ وَلكن قُل عَلَيَّ رَقِيبُ
وَلا تَحْسَبَنَ الله يَغْفَل سَاعَةً وَلا أن مَا يَخْفَى عَلَيْه يَغيبُ

(١) فى المخطوطة : « قال أبي : أخبرني عن خالد » . وخالد بن قيس الحداني يروى عنه على بن نصر ، والد نصر بن على الجهضمي . انظر الجرح لابن أبي حاتم : ١/٢/٣٤٨ .
(٢) أي : تمحو .

تفسير سورة القصص

قال الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا وكيع ، عن أبيه ، عن أبي إسحاق ، عن معد يكرب قال : أتينا عبد الله فسألناه أن يقرأ علينا (طسم) المائتين ، فقال : ما هي معي ، ولكن عليكم مَن أخذها من رسول الله صلى الله عليه وسلم : خَبَّاب بن الأرَت . قال : فأتينا خَبَّاب بن الأرت ، فقرأها علينا ، رضي الله عنه (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ (١) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢) نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ (٦)

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة .

وقوله : (تلك) ، أي : هذه (آيات الكتاب المبين) ، أي : الواضح الجلي الكاشف عن حقائق الأمور ، وعلم ما قد كان وما هو كائن .

وقوله : (نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون) ، كما قال تعالى : (نحن نقص عليك أحسن القصص(٢)) ، أي : نذكر لك الأمر على ما كان عليه ، كأنك شاهد وكأنك حاضر .

ثم قال : (إن فرعون علا في الأرض) ، أي : تكبر وتجبر وطغى ، (وجعل أهلها شيعاً) ، أي : أصنافاً ، قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته .

وقوله : (يستضعف طائفة منهم) ، يعني : بني إسرائيل . وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم . هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم في أخس الأعمال ، ويكدهم ليلا ونهاراً في أشغاله وأشغال رعيته ، ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيي نساءهم ، إهانة لهم واحتقارا ، وخوفا من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام ، يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه . وكانت القبط قد تلقوا هذا من

(١) مسند الإمام أحمد : ٤١٩/١ .
(٢) سورة يوسف ، آية : ٣ .

بني إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل . حين ورد الديار المصرية ، وجرى له مع جبارها ما جرى ، حين أخذ سارة ليتخذها جارية ، فصانها الله منه ، ومنعه منها بقدرته وسلطانه . فبشر إبراهيم — عليه السلام — ولده أنه سيولد من صلبه وذريته مَن يكون هلاك مَلِك مصر على يديه ، فكانت القبط تتحدث بهذا عند فرعون ، فاحترز فرعون من ذلك ، وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل . ولن ينفع حذر من قدر ، لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ، ولكل أجل كتاب . ولهذا قال : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) . وقد فعل تعالى ذلك بهم ، كما قال : (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه ، وما كانوا يعرشون(١)) . وقال : (كذلك وأورثناها بني إسرائيل(٢)) ، أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى ، فما نفعه ذلك مع قَدَر الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القدري ، بل نفذ حكمه وجرى قلمه في القدم بأن يكون إهلاك فرعون على يديه ، بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده ، وقتلت بسببه ألوفاً من الولدان إنما منشؤه ومرباه على فراشك ، وفي دارك ، وغذاؤه من طعامك ، وأنت تربيه وتدلله وتتفداه(٣) ، وحتفك ، وهلاكك وهلاك جنودك على يديه ، لتعلم أن رب السموات العلا هو القاهر الغالب العظيم ، العزيز القوي الشديد المحال ، الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ،

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بني إسرائيل ، خافت القبط أن يفني بني إسرائيل ، فيَلُون هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة ، فقالوا لفرعون : إنه يوشك — إن استمر هذا الحال — أن يموت شيوخهم وغلمانهم « لا يعيشون » ، ونساؤهم لا يمكن أن يقُمْن بما يقوم به رجالهم من الأعمال ، فيخلص إلينا ذلك . فأمر بقتل الولدان عاما وتركهم عاما ، فولد هارون عليه السلام في السنة التي يتركون فيها الولدان ، وولد موسى — عليه السلام — في السنة التي يقتلون فيها الولدان ، وكان لفرعون أناس موكلون بذلك ، وقوابل يَدُرْن على النساء ، فمن رأينها قد حملت أحصوا اسمها ،

---

(١) سورة الأعراف ، آية : ١٣٧ .

(٢) سورة الشعراء ، آية : ٥٩ .

(٣) في المخطوطة : « وتتفداه » . والمثبت عن الطبعات السابقة .

فاذا كان [وقت] ولادتها لا يقبلها(١) إلا نساء القبط ، فإن ولدت المرأة جارية تركنها وذهبن ، وإن ولدت غلاماً دخل أولئك الذباحون، بأيديهم الشفار المرهفة، فقتلوه ومضوا قبحهم الله . فلما حملت أم موسى به ــ عليه السلام ــ لم يظاهر عليها مخايل الحمل كغيرها ، ولم تفطن لها الدايات ، ولكن لما وضعته ذكراً ضاقت به ذرعاً ، وخافت عليه خوفا شديدا وأحبته حبا زائدا ، وكان موسى عليه السلام ــ لا يراه أحد إلا أحبه ، فالسعيد من أحبه طبعا وشرعا قال الله تعالى : (وألقيت عليك محبة منى)(٢) . فلما ضاقت ذرعاً به ألهمت فى سرها ، وألقى فى خلدها ، ونفث فى روعها ، كما قال الله تعالى : (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى ، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) . وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل ، فاتخذت تابوتاً ، ومهدت فيه مهداً ، وجعلت ترضع ولدها ، فإذا دخل عليها أحد ممن تخافه جعلته فى ذلك التابوت ، وسيرته فى البحر ، وربطته بحبل عندها . فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه ، فذهبت فوضعته فى ذلك التابوت ، وأرسلته فى البحر وذهلت عن أن تربطه ، فذهب مع الماء احتمله ، حتى مر به على دار فرعون ، فالتقطه الجوارى فاحتملنه ، فذهبن به إلى امرأة فرعون ، ولا يدرين ما فيه ، وخشين أن يفتتن عليها فى فتحه دونها . فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه ، فأوقع الله محبته فى قلبها حين نظرت إليه ، وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها(٣) ، ولهذا قال : (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً) .

قال محمد بن إسحاق وغيره : «اللام» هنا لام العاقبة لا لام التعليل ، لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك . ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضى ما قالوه ، ولكن إذا نظر إلى معنى السياق فإنه تبقى اللام للتعليل ، لأن معناه أن الله ــ تعالى ــ قيضهم لالتقاطه ليجعله لهم عدواً وحزناً فيكون أبلغ [فى إبطال] حذرهم منه ، ولهذا قال : (إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) .

وقد روى عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كتب كتاباً إلى قوم من القدرية ، فى تكذيبهم بكتاب الله وبأقداره النافذة فى علمه السابق : وموسى فى علم الله السابق لفرعون عدو وحزن ، قال الله تعالى : (ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) ، وقلتم أنتم : لو شاء فرعون أن يكون لموسى ولياً وناصراً ، والله يقول : (ليكون لهم عدواً وحزناً) .

وقوله تعالى : (وقالت امرأة فرعون : قرة عين لى ولك لا تقتلوه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ، وهم لا يشعرون) ، يعنى أن فرعون لما رآه هم بقتله خوفاً من أن يكون من بنى إسرائيل فجعلت امرأته آسية بنت مزاحم تحاج عنه وتذب دونه ، وتحببه إلى فرعون ، فقالت : (قرة عين لى ولك) ، فقال : «أما لك فنعم ، وأما لى فلا» . فكان كذلك ، وهداها الله به ، وأهلكه الله على يديه . وقد تقدم فى حديث الفتون فى «سورة طه (٤)» هذه القصة بطولها ، من رواية ابن عباس مرفوعاً عن النسائى وغيره .

---

(١) قبلت القابلة المرأة : إذا تلقت ولدها .
(٢) سورة طه ، آية : ٣٩ .
(٣) أى : زوجها .
(٤) انظر حديث الفتون فى : ٥/٢٧٩ – ٢٨٦ .

وقوله : (عسى أن ينفعنا) ، وقد حصل لها ذلك ، وهداها الله به ، وأسكنها الجنة بسببه ، وقولها : (أو نتخذه ولداً) ، أى : أرادت أن تتخذه ولداً وتتبناه ، (١) ، وذلك أنه لم يكن لها ولد منه .

وقوله تعالى : (وهم لا يشعرون) ، أى : لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه ، من الحكمة العظيمة البالغة ، والحجة القاطعة .

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾
وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ
فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا
وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن فؤاد أم موسى ، حين ذهب ولدها فى البحر ، أنه أصبح فارغاً ، أى : من كل شىء من أمور الدنيا إلا من موسى . قاله ابن عباس(٢) ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وأبو عبيدة ، والضحاك ، والحسن البصرى ، وقتادة ، وغيرهم .

(إن كادت لتبدى به) ، أى : إن كادت من شدة وجدها وحزنها وأسفها لتُظهر أنَّه ذهب لها ولد ، وتخبر بحالها ، لولا أن الله ثبَّتها وصبَّرها ، قال الله تعالى : (لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته : قصيه) ، أى : أمرت ابنتها– وكانت كبيرة تعى ما يقال لها – فقالت لها : (قصيه) ، أى : اتبعى أثره ، وخذى خبره ، وتَطَلَّبى شأنه من نواحى البلد : فخرجت لذلك ، (فبَصُرَت به عن جُنُب) – قال ابن عباس : عن جانب .

وقال مجاهد : (فبصرت به عن جنب) ، عن بعيد .

وقال قتادة : جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده .

وذلك أنه لما استقر موسى عليه السلام بدار فرعون ، وأحبته امرأة الملك ، واستطلقته منه ، عرضوا عليه المراضع التى فى دارهم ، فلم يقبل منها ثديا ، وأبى أن يقبل شيئاً من ذلك : فخرجوا به إلى سوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته ، فلما رأته بأيديهم عرفته ، ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها ، قال الله تعالى : (وحرمنا عليه المراضع من قبل) ، أى : تحريماً قَدَريا ، وذلك لكرامة الله له صانه عن أن يرتضع غير ثدى أمه ، ولأن الله – سبحانه – جعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى أمه ، لترضعه وهى آمنة ، بعد ما كانت خائفة ، فلما رأتهم حائرين فيمن يرضعه (قالت : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهمُ له ناصحون) .

---

(١) فى المخطوطة « ولدا » وتثبت له » . والمثبت من الطبعات السابقة .

(٢) انظر تفسير الطبرى : ٢٠/٢٣ – ٢٤ .

قال ابن عباس : لما قالت ذلك أخذوها ، وشكوا فى أمرها ، وقالوا لها : وما يدريك نصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم فى ظُئُورة(١) الملك ورجاء منفعته . فأرسلوها ، فلما قالت لهم ذلك وخلَصت من أذاهم ، ذهبوا معها إلى منزلهم ، فدخلوا به على أمه ، فأعطته ثديها فالتقمه ، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً ، وذهب البشير إلى امرأة الملك ، فاستدعت أم موسى ، وأحسنت إليها ، وأعطتها عطاء جزيلا ، وهى لا تعرف أنها أمه فى الحقيقة ، ولكن لكونه وافق ثديها ؛ ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه ، فأبت عليها وقالت : إن لى بعلا وأولاداً ، ولا أقدر على المقام عندك ، ولكن إن أحببت أن أرضعه فى بيتى فعلت . فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك ، وأجْرَتْ عليها النفقة والصلات والكساوى والإحسان الجزيل ؛ فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية ، قد أبدلها الله من بعد خوفها أمنا ، فى عز وجاه ورزق دَارّ(٢) ؛ ولهذا جاء فى الحديث : « مثل الذى يعمل ويحتسب فى صنعته الخير ، كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها(٣) » ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل : يوم وليلة ، أو نحوه ، والله أعلم ، فسبحان من بيده الأمر ! ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، الذى يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجاً ، وبعد كل ضيق مخرجاً ؛ ولهذا قال تعالى : (فرددناه إلى أمه كى تقر عينها) ، أى : به ، (ولا تحزن) ، أى : عليه ، (ولتعلم أن وعد الله حق) ، أى : فيما وعدها من رده إليها ، وجعله من المرسلين ؛ فحينئذ تحققت برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين ، فعاملته فى تربيته ما ينبغى له طبعاً وشرعاً .

وقوله : (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ، أى : حُكْمَ الله فى أفعاله وعواقبها المحمودة ، التى هو المحمود عليها فى الدنيا والآخرة ، فربما يقع الأمر كريها إلى النفوس ، وعاقبته محمودة فى نفس الأمر ، كما قال تعالى : (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم(٤)) ؛ وقال تعالى : (فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً(٥)) :

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

لما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى — عليه السلام — ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى ، آتاه الله حكماً وعلماً — قال مجاهد : يعنى النبوة ، (وكذلك نجزى المحسنين) .

(١) فى المخطوطة : « صهر الملك » . والمثبت مما سبق فى حديث الفتون : ٥/٢٨٠ . والظئورة مصدر كالفعولة والبعولة . والظئر : بكسر فسكون — : العاطفة على غير ولدها ، المرضعة له .

(٢) أى : كثير .

(٣) تقدم الحديث فى : ٥/٢٧٨ ، وخرجناه هنالك .

(٤) سورة البقرة ، آية : ٢١٦ .

(٥) سورة النساء ، آية : ١٩ .

ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ما كان تعالى قدّر له من النبوة والتكليم : قضية قتله ذلك القبطى ، الذى كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين ، فقال تعالى : (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها) — قال ابن جُرَيج ، عن عطاء الخراسانى ، عن ابن عباس : وذلك بين المغرب والعشاء .

وقال ابن المنكدر ، عن عطاء بن يسار ، عن ابن عباس : كان ذلك نصف النهار(١) ، وكذلك قال سعيد بن جبير ، وعكرمة ، والسدى ، وقتادة .

(فوجد فيها رجلين يقتتلان) ، أى : يتضاربان ويتنازعان ، (هذا من شيعته) ، أى من [بنى] إسرائيل ، (وهذا من عدوه) ، أى : قبطى ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والسدى ، ومحمد بن إسحاق . فاستغاث الإسرائيلى بموسى عليه السلام ، ووجد موسى فرصة ، وهى غفلة الناس ، فعمد إلى القبطى (فوكزه موسى فقضى عليه) ، قال مجاهد : وكزه ، أى : طعنه بجُمْع(٢) كفه ،

وقال قتادة : وكزه بعصا كانت معه ،

(فقضى عليه) ، أى : كان فيها حتفه فمات ، (قال) موسى : (هذا من عمل الشيطان ، إنه عدو مضل مبين . قال : رب ، إنى ظلمت نفسى ، فاغفر لى ، فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم . قال : رب ، بما أنعمت على) ، أى : بما جعلت لى من الجاه والعزة والمنعة (فلن أكون ظهيرا) ، أى : معينا (للمجرمين) ، أى الكافرين بك ، المخالفين لأمرك ،

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى — عليه السلام — لما قتل ذلك القبطى أنه أصبح (فى المدينة خائفاً) ، أى : من معَرَّة ما فعل ، (يترقب) ، أى : يتلفت ويتوقع(٣) ما يكون من هذا الأمر ، فمر فى بعض الطرق ، فإذا ذاك الذى استنصر بالأمس على ذلك القبطى يقاتل آخر ، فلما مر موسى ، استصرخه على الآخر ، فقال له موسى : (إنك لغوى مبين) ، أى : ظاهر الغواية كثير الشر ، ثم عزم على البطش بذلك القبطى ، فاعتقد الإسرائيلى لخوَره وضعفه وذلته أن موسى إنما

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٠/٢٩ .
(٢) جمع الكف — بضم فسكون — : حين تقبضها .
(٣) فى المخطوطة : « أى : يتقلب » أى يتوقع » . والمثبت عن الطبعات السابقة .

يريد قصده لما سمعه يقول ذلك ، فقال يدفع عن نفسه : (يا موسى ، أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس) ؟ وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى عليه السلام ، فلما سمعها ذلك القبطي لقفها من فمه ، ثم ذهب بها إلى باب فرعون فالقاها عنده ، فعلم بذلك ، فاشتد حنقه ، وعزم على قتل موسى ، فطلبوه وبعثوا وراءه ليحضروه لذلك .

وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾

قال تعالى : (وجاء رجل) ، وصفه بالرُّجولية لأنه خالف الطريق ، فسلك طريقاً أقرب من طريق الذين بُعثوا وراءه ، فسبق إلى موسى ، فقال له : ياموسى ، (إن الملأ يأتمرون بك) ، أى : يتشاورون فيك (ليقتلوك فاخرج) ، أى : من البلد ، (إنى لك من الناصحين) .

فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾

لما أخبره ذلك الرجل بما تمالأ عليه فرعون ودولته فى أمره ، خرج من مصر وحده ، ولم يألف ذلك قبله ، بل كان فى رفاهية ونعمة ورياسة ، (فخرج منها خائفاً يترقب) ، أى : يتلفت ، (قال : رب ، نجنى من القوم الظالمين) ، أى : من فرعون وملئه . فذكروا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعث له ملكاً على فرس ، فأرشده إلى الطريق ، فالله أعلم .

(ولما توجه تلقاء مدين) ، أى : أخذ طريقاً سالكاً مَهْيَعاً(١) فرح بذلك ، (قال : عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) ، أى : إلى الطريق الأقوم . ففعل الله به ذلك ، وهداه إلى الطريق المستقيم فى الدنيا والآخرة ، فجعله هادياً مهدياً .

(ولما ورد ماء مدين) ، أى : ولما وصل إلى مدين وورد ماءها ، وكان لها بئر ترده رعاء الشاء(٢) (وجد عليه أمة من الناس) ، أى : جماعة (يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان) ، أى : تكفكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يُؤذَيا . فلما رآهما موسى ـ عليه السلام ـ رق لهما ورحمهما ، (قال : ما خطبكما ؟) ، أى : ما خبركما لا تردان مع هؤلاء ؟ (قالتا : لا نسقى حتى يصدر الرعاء) ، أى : لا يحصل لنا سقى إلا بعد فراغ هؤلاء ، (وأبونا شيخ كبير) ، أى : فهذا الحال الملجىء لنا إلى ما ترى . قال الله تعالى : (فسقى لهما) .

---

(١) أى بينا .

(٢) رعاء ـ بكسر الراء وضمها ـ جمع راع .

قال أبو بكر بن أبي شيبة : حدثنا عبد الله ، أنبأنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عَمْرو(١) بن ميمون الأودى ، عن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — أن موسى — عليه السلام — لما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسقون ، قال : فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال ، فإذا هو بامرأتين تذودان ، قال : ما خطبكما ؟ فحدثتاه ، فأتى الحجر فرفعه ، ثم لم يستق إلا ذنوبا واحدا حتى رويت الغنم : إسناد صحيح .

وقوله : (ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير) — قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ، ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافياً فما وصل مَدْيَن حتى سقطت نعل قدمه(٢) . وجلس(٣) فى الظل وهو صفوة الله من خلقه ، وإن بطنه لاصق بظهره من الجوع ، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه وإنه لمحتاج إلى شق تمرة .

وقوله : (إلى الظل) ، قال ابن عباس ، وابن مسعود ، والسدى : جلس تحت شجرة .

وقال ابن جرير : حدثنى الحسين بن عمرو العنقزى ،حدثنا أبى ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله — هو ابن مسعود — قال حَثَثْتُ على جمل ليلتين، حتى صبَّحت مدين، فسألت عن الشجرة التى أوى إليها موسى ، فإذا شجرة خضراء ترف ، فأهوى إليها جملى — وكان جائعا — فأخذها جملى فعالجها ساعة ، ثم لفظها فدعوت الله لموسى — عليه السلام — ثم انصرفتُ (٤) .

وفى رواية عن ابن مسعود : أنه ذهب إلى الشجرة التى كلم الله منها موسى ، كما سيأتى والله أعلم .

وقال السدى : كانت من شجر السَّمُر (٥) .

وقال عطاء بن السائب : لما قال موسى : (رب ، إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير) ، أسمعَ المرأةَ (٦) .

فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

لما رجعت المرأتان سِرَاعاً بالغنم إلى أبيهما ، أنكر حالهما ومجيئهما سريعا ، فسألهما عن خبرهما ، فقصتا عليه مافعل موسى

(١) فى المخطوطة : « عروة بن ميمون » . وهو خطأ . انظر ترجمة « عمرو بن ميمون » فى الجرح لابن أبى حاتم : ٣/١/٢٥٨ .
(٢) الأثر فى الدر المنثور عن ابن المنذر ، وابن أبى حاتم : ٥/١٢٥ .
(٣) فى المخطوطة : « ولما جلس » . فحذفنا « لما » ليستقيم السياق .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٠/٣٧ .
(٥) السمر : واحده سمرة ، وهو شجر عظام له شوك .
(٦) تفسير الطبرى : ٢٠/٣٨ .

عليه السلام ، فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها قال الله تعالى : (فجاءته إحداهما تمشي على استحياء) ، أي : مَشْيَ الحرائر ، كما روي عن أمير المؤمنين عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه قال : كانت مستترة بكم درعها (١) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا [أبي ، حدثنا] (٢) أبو نعيم ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عمرو بن ميمون قال : قال عمر ـ رضي الله عنه ـ جاءت تمشي على استحياء ، قائلة (٣) بثوبها على وجهها ، ليست بسلفع خرّاجة ولاجة . هذا إسناد صحيح .

قال الجوهري : السلفع من الرجال : الجسور ، ومن النساء : الجريئة السليطة ، ومن النوق : الشديدة (٤) .

(قالت : إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) ،وهذا تأدب في العبارة ، لم تطلبه طلبا مطلقا لئلا يوهم ريبة ، بل قالت : (إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) ، يعني : ليثيبك ويكافئك على سقيك لغنمنا . (فلما جاءه وقص عليه القصص) ، أي : ذكر له ما كان من أمره ، وما جرى له من السبب الذي خرج من أجله من بلده ، (قال : لاتخف نجوت من القوم الظالمين) ، يقول : طب نفسا وقرّ عينا ، فقد خرجتَ من مملكتهم فلا حُكْم لهم في بلادنا . ولهذا قال : (نجوت من القوم الظالمين) .

وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل : من هو ؟ على أقوال : أحدها أنه شعيب النبي ـ عليه السلام ـ الذي أرسل إلى أهل مدين ، وهذا هو المشهور عند كثيرين ، وقد قاله الحسن البصري وغير واحد ، ورواه ابن أبي حاتم .

حدثنا أبي ، حدثنا عبد العزيز الأويسي (٥) ، حدثنا مالك بن أنس : أنه بلغه أن شعيبا هو الذي قص عليه موسى القصص ، قال : (لاتخف نجوت من القوم الظالمين) .

وقد روى الطبراني عن سلمة بن سعد العَنَزيّ أنه وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : مرحبا بقوم شعيب وأَخْتان موسى (٦) ، هُدِيت .

وقال آخرون : بل كان ابن أخي شعيب . وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب . وقال آخرون : كان شعيب قبل زمان موسى ـ عليه السلام ـ بمدة طويلة ، لأنه قال لقومه : (وما قوم لوط منكم ببعيد) . وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل ـ عليه السلام ـ بنص القرآن ، وقد علم أنه كان بين موسى والخليل ـ عليهما السلام ـ مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة ، كما ذكره غير واحد . وما قيل : إن شعيبا عاش مدة طويلة ، إنما هو ـ والله أعلم ـ احتراز من هذا الإشكال . ثم من المقوي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن هاهنا . وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى ، لم يصح إسناده ، كما سنذكره قريبا إن شاء الله . ثم من الموجود في كتب بني إسرائيل أن هذا الرجل اسمه : « ثيرون (٧) » ، والله أعلم .

---

(١) درع المرأة قميصها .

(٢) ما بين القوسين زيادة لابد من إثباتها ، فابن أبي حاتم ، يروي عن أبيه ، عن أبي نعيم الفضل بن دكين . انظر الجرح : ٣/٢/ ٩١ .

(٣) أي واضعة ثوبها . والعرب ـ كما تقدم مرارا تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال .

(٤) الصحاح للجوهري : ١٢٣١ .

(٥) في المخطوطة « الأودي » . والمثبت من ترجمته في الجرح لابن أبي حاتم : ٢/٢/ ٣٨٧ .

(٦) الأختان : كل ما كان من قبل المرأة ، كأبيها وأخيها .

(٧) كذا في مخطوطة الأزهر بالثاء والهاء وفي تفسير الطبري : ٢٠/ ٤٠ من ابن إسحاق : « يثرون » ، بالياء والثاء .

وقال أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود : وأثرون (١) هو ابن أخي شعيب عليه السلام .

وعن أبي حمزة (٢) ، عن ابن عباس : الذي استأجر موسى يثرى [صاحب مدين] . رواه ابن جرير ، ثم قال الصواب أن هذا لايدرك إلا بخبر ، ولا [خبر] تجب به الحجة في ذلك (٣) .

وقوله : (قالت إحداهما : ياأبت ، استأجره ؛ إن خير من استأجرت القوىّ الأمين) ، أي : قالت إحدى ابنتي هذا الرجل . قيل : هي التي ذهبت وراء موسى — عليه السلام — قالت لأبيها : (ياأبت استأجره) ، أي : لرعيَّة هذه الغنم ،

قال عمر ، وابن عباس ، وشريح القاضي ، وأبو مالك ، وقتادة ، ومحمد بن إسحاق ، وغير واحد : لما قالت : (إن خير من استأجرت القوى الأمين) ، قال لها أبوها : وما علمك بذلك ؟ قالت : إنه رفع الصخرة التي لايطيق حملها إلا عشرة رجال ، وإنه لما جئت معه تقدمتُ أمامه ، فقال لي : كوني من ورائي ، فإذا اجتنبتُ الطريق فاحذفي (٤) بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه .

قال سفيان الثوري ، عن أبي إسحاق ، عن أبي عبيدة ، عن عبد الله — هو ابن مسعود — قال : أفرس الناس ثلاثة : أبو بكر حين تفرس في عُمَر ، وصاحب يوسف حين قال : (أكرمي مثواه) ، وصاحبة موسى حين قالت : (ياأبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوى الأمين) (٥) .

قال : (إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين) ، أي : طلب إليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرعى عنه ، ويزوجه إحدى ابنتيه هاتين .

قال شعيب الجبائي : وهما صفورا ، وليا ،

وقال محمد بن إسحاق : صفورا وشرقا ، ويقال : ليا (٦) : وقد استدل أصحاب أبي حنيفة بهذه الآية على صحة البيع فيما إذا قال : « بعتك أحد هذين العبدين بمائة . فقال : اشتريت » أنه يصح ، والله أعلم .

وقوله : (على أن تأجرني ثماني حجج ، فإن أتممت عشراً فمن عندك) ، أي : على أن ترعى علىّ ثماني سنين ، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك ، وإلا ففي ثمان كفاية ، (وما أريد أن أشق عليك ، ستجدني إن شاء الله من الصالحين) ، أي : لاأشاقك ، ولا أؤاذيك ، ولا أماريك .

---

(١) كذا في مخطوطة الأزهر ، وفي تفسير الطبري : ٢٠/ ٤٠ عن أبي عبيدة : « يثرون » . والله أعلم .

(٢) في المخطوطة : « عن أبي سمرة » . والمثبت عن تفسير الطبري ، والطبعات السابقة . وفي التهذيب ٨/ ١٣٥ أن أبا حمزة هذا هو عمران بن أبي عطاء .

(٣) تفسير الطبري : ٢٠/ ٤٠ .

(٤) أي : ارمي .

(٥) تقدم هذا الأثر في تفسير سورة يوسف : ٤/ ٣٠٦ ، وفيه : « و أبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما » .

(٦) انظر الأثرين في تفسير الطبري : ٢٠/ ٤٠ . و« شرقا » كذا بالقاف في مخطوطة الأزهر . وفي تفسير الطبري : « شرفا » بالفاء الموحدة .

وقد استدلوا بهذه الآية الكريمة لمذهب الأوزاعي ، فيما إذا قال: « بعتك هذا بعشرة نقداً ، أو بعشرين لنسيئة » ، أنه يصح ، ويختار المشترى بأيهما أخذه صح . وحمل الحديث المروى في سنن أبي داود: « من باع بيعتين في بيعة ، فله أوكسهما[١] أو الربا [٢] » على هذا المذهب . وفي الاستدلال بهذه الآية وهذا الحديث على هذا المذهب نظر ، ليس هذا موضع بسطه لطوله . والله أعلم .

ثم قد استدل أصحاب الإمام أحمد ومن تبعهم ، في صحة استئجار الأجير بالطعمة والكسوة بهذه الآية، واستأنسوا في ذلك بما رواه أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه في كتابه السنن ، حيث قال : « باب استئجار الأجير [٣] على طعام بطنه » : حدثنا محمد بن المصفّى الحمصي ،حدثنا بقية بن الوليد ، عن مسلمة بن علي ، عن سعيد بن أبي أيوب ، عن الحارث بن يزيد ، عن علي بن رَبَاح قال : سمعت عُتْبَةَ بن النُّدَّر [٤] يقول : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ (طسّمّ) ، حتى إذا بلغ قصة موسى قال : إن موسى أجَرَ نفسه ثماني سنين ـ أو: عشر سنين ـ على عفة فرجه وطعام بطنه [٥] »

وهذا الحديث من هذا الوجه ضعيف؛ لأن مسلمة بن علي وهو الخُشَنى الدمشقى البلاطيّ ضعيف الرواية عند الأئمة ؛ ولكن قد رُوى من وجه آخر ، وفيه نظر أيضا .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الله بن لهيعة ، عن الحارث بن يزيد الحضرمي ، عن علي بن رَبَاح اللخمي قال : سمعت عتبة بن النُّدَّر السلمي ـ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يحدّث أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إن موسى آجر نفسه بعفة فرجه ، وطعمة بطنه » .

وقوله تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام : (قال : ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي ، والله على مانقول وكيل) ، يقول : إن موسى قال لصهره : الأمرُ على ماقلتَ من أنك استأجرتني على ثمان سنين ، فإن أتممت عشراً فمن عندى ، فأنا متى فعلت أقلها برئت من العهد ، وخرجت من الشرط ، ولهذا قال : (أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي) ، أي : فلا حرج علي مع أن الكامل ـ وإن كان مباحاً لكنه فاضل من جهة أخرى ، بدليل من خارج ، كما قال تعالى : (فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحمزة بن عمرو الأسلمي ـ رضى الله عنه ، وكان كثير الصيام ، وسأله عن الصوم في السفر ـ فقال : إن شئت فصم ، وإن شئت فأفطر [٦] » ، مع أن فعل الصيام راجح من دليل آخر .

---

(١) الوكس : النقص ، أي أنقصهما .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب البيوع ، باب « فيمن باع بيعتين في بيعة » ، الحديث ٣٤٦١ : ٢٧٤/٣ .

(٣) في سنن ابن ماجه : « باب إجارة الأجير . . . » .

(٤) في المخطوطة ، في هذا الحديث والأحاديث التالية : « عتبة بن المنذر » . وهو خطأ ، والصواب من ترجمته في أسد الغابة : ٥٧٠/٣ بتحقيقنا .

(٥) سنن ابن ماجه ، كتاب الرهون ، باب « إجارة الأجير على طعام بطنه » ، الحديث ٢٤٤٤ : ٨١٧/٢ .

(٦) سنن النسائي ، كتاب الصيام ، باب « ذكر الاختلاف على سليمان بن يسار في حديث حمزة بن عمرو فيه » : ١٨٥/٤ . ومسند الإمام أحمد : ٤٩٤/٣ .

هذا وقد دل الدليل على أن موسى — عليه السلام — إنما فعل أكمل الأجلين وأتمها ؛ قال البخارى :

حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا مَرْوان بن شُجاع ، عن سالم الأفطس ، عن سعيد بن جبير قال : سألنى يهودى من أهل الحيرة : أىّ الأجلين قضى موسى ؟ فقلت : لا أدرى حتى أقدَمَ على حَبْر العرب فأسألَه ، فقدمت فسألت ابن عباس — رضى الله عنه — فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ، إن رسول الله إذا قال فعل(١) . هكذا رواه البخارى . وهكذا رواه حكيم بن جبير وغيره، عن سعيد بن جبير . ووقع فى « حديث الفُتُون »(٢)، من رواية القاسم بن أبى أيوب . عن سعيد بن جبير : أن الذى سأله رجل من أهل النصرانية . والأول أشبه ، والله أعلم ، وقد رُوى من حديث ابن عباس مرفوعا ، قال ابن جرير :

حدثنا أحمد بن محمد الطوسى ، حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنى إبراهيم بن يحيى بن أبى يعقوب ، عن الحكم ابن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «سألت جبريل : أىّ الأجلين قضى موسى؟ قال : أكملهما وأتمهما »(٣) .

ورواه ابن أبى حاتم ، عن أبيه ، عن الحميدى ، عن سفيان — وهو ابن عيينة — حدثنى إبراهيم بن يحيى بن أبى يعقوب — وكان من أسنانى أو أصغر منى — فذكره .

قلت : وإبراهيم هذا ليس بمعروف .

ورواه البزار عن أحمد بن أبان القرشى ، عن سفيان بن عيينة ، عن إبراهيم بن أعين ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فذكره . ثم قال : لانعرفه مرفوعا عن ابن عباس إلا من هذا الوجه

وقال ابن أبى حاتم : قُرِئ على يونس بن عبد الأعلى ، أنبأنا ابن وهب ، أنبأنا عمرو بن الحارث ، عن يحيى بن ميمون الحضرمى ، عن يوسف بن تيرح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : أىّ الأجلين قضى موسى ؟ قال : لاعلم لى [فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل ، فقال جبريل : لاعلم لى] ، فسأل جبريل ملكا فوقه فقال : لاعلم لى ، فسأل ذلك الملك ربه — عز وجل — عما سأله عنه جبريل عما سأله عنه محمد — صلى الله عليه وسلم — فقال الرب سبحانه وتعالى : قضى أبرهما وأبقاهما — أو قال : أزكاهما .

وهذا مرسل . وقد جاء مرسلا من وجه آخر ، وقال سُنَيد : حدثنا حجاج ، عن ابن جريج قال : قال مجاهد : إن النبى صلى الله عليه وسلم سأل جبريل : أىّ الأجلين قضى موسى ؟ فقال : سوف أسأل إسرافيل . فسأله فقال : سوف أسأل الرب عز وجل . فسأله فقال : أبرهما وأوفاهما (٣) .

طريق أخرى مرسلة أيضا ، قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبى ، حدثنا أبو معشر ، عن محمد بن كعب القرظى قال : سُئِل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أىّ الأجلين قضى موسى ؟ قال : أوفاهما وأتمهما (٣) .

(١) البخارى ، كتاب الشهادات ، باب « من أمر بإنجاز الوعد ، وفعله الحسن » : ٣/ ٢٣٦ .

(٢) تقدم حديث الفتون فى سورة طه . وانظر المراد منه هنا فى : ٥/ ٢٨٢ .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٠/ ٤٤ .

فهذه طرق متعاضدة ، ثم قد روى مرفوعاً من رواية أبي ذر – رضي الله عنه – : قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أبو عبيد الله يحيي بن محمد بن السكن ، حدثنا إسحاق بن إدريس ، حدثنا عَوبَد بن أبي عمران الجونى ، عن أبيه ، عن عبد الله بن الصامت ، عن أبي ذر : أن النبي – صلى الله عليه وسلم – سُئِل : أىّ الأجلين قَضَى موسى ؟ – قال : أوفاهما وأبرهما – قال : وإن سئلتَ أىّ المرأتين تزوج ؟ فقل : الصغرى منهما .

ثم قال البزار : لانعلم يروى عن أبي ذر إلا بهذا الإسناد .

وقد رواه ابن أبي حاتم من حديث عَوبَد بن أبي عمران – وهو ضعيف – ثم قد روى أيضا نحوه من حديث عتبة بن النُّدّر بزيادة غريبة جدا ، فقال أبو بكر البزار : حدثنا عمر بن الخطاب السجستانى ، حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا الحارث بن يزيد عن على بن رباح اللخمى قال : سمعت عتبة بن النّدر يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئِل : أىّ الأجلين قَضَى موسى ؟ قال : أبرهما وأوفاهما . ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن موسى عليه السلام لما أراد فراق شعيب عليه السلام – أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه مايعيشون به . فأعطاها ماولدت غنمه فى ذلك العام من قالِبِ لَوْن (١) ، قال : فما مرت شاة إلا ضرب موسى جنبها بعصاه ، فولدت قوَالب ألوان كلها ، وولدت ثنتين وثلاثا كل شاة ليس فيها فَشُوش (٢) ولا ضبُوب ، ولا كميشة تُفُوّت الكف ، ولا ثَعُول . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا افتتحتم الشام فإنكم ستجدون بقايا منها ، وهى السامرية .

هكذا أورده البزار . وقد رواه ابن أبي حاتم بأبسط من هذا ، فقال :

حدثنا أبو زرعة ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير ، حدثنى عبد الله بن لهيعة (ح) وحدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الله بن لهيعة ، عن الحارث بن يزيد الحضرمى ، عن على بن رباح اللخمى قال : سمعت عتبة ابن النُّدّر السلمى – صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم – يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن موسى – عليه السلام – آجر نفسه بعفة فرجه وطُعمة (٣) بطنه . فلما وفى الأجل قيل : يارسول الله ، أىّ الأجلين ؟ قال : أبرهما وأوفاهما . فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه مايعيشون به ، فأعطاها ماولدت من غنمه من قالِب لون من ولد ذلك العام ، وكانت غنمه سوداء حسناء ، فانطلق موسى – عليه السلام – إلى عصاه فَسَمّاها (٤) من طرفها ، ثم وضعها فى أدنى الحوض ، ثم أوردها فسقاها ، ووقف موسى بإزاء الحوض فلم تصدر منها شاة إلا ضرب جنبها

(١) أى : ما جاء من الغنم على غير ألوان أمهاتها ، كأن لونها قد انقلب .

(٢) الفشوش – بفتح الفاء ، بزنة أكول – : التى ينفش لبنها من غير حلب ، أى : يجرى ؛ وذلك لسعة الإحليل ، ومثله الفتوح والثرور .

والضبوب – بزنة الفشوش – : الضيقة ثقب الإحليل ، على عكس الفشوش .

وأما الكميشة فهى الصغيرة الضرع ، سميت بذلك لانكماش ضرعها ، وهو تقلصه . وفى النهاية : « ولا كموش » ، على زنة فعول أيضاً .

والثعول – بزنة ما سبق ، وبالعين المهملة – : الشاة التى لها زيادة حلمة وهو عيب .

(٣) روى ابن ماجه هذا القدر فى كتاب الرهون ، باب « إجارة الأجير على طعام بطنه » ، الحديث ٢٤٤٤ ، ٢/٨١٧ ، من طريق الحارث بن يزيد .

(٤) فى المخطوطة : « فسملها » ، والمثبت عن الطبعات السابقة .

شاة شاة قال : فأتأمت وأثلثت (١) ، ووضعت كلها قوالب ألوان ، إلا شاة أو شاتين ليس فيها فشوش — قال يحيى : ولا ضبون . وقال صفوان : ولا ضبوب . قال أبو زرعة : الصواب ضَبُوب — ولا عَزُوز (٢) ولا ثَعُول ولا كميشة تُفَوِّت الكف . قال النبي صلى الله عليه وسلم : فلو افتتحتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهى السامرية (٣) .

وحدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان قال : سمعت الوليد قال : فسألت ابن لَهِيعة : ما الفشوش ؟ قال : التى تَفُشّ بلبنها (٤) واسعة الشُّخب (٥) . قلت : فما [الضبوب ؟ قال الطويلة الضرع تجره . قلت : فما العَزُوز ؟ قال : ضيقة الشخب قال فما] الثعول ؟ قال : التى ليس لها ضرع [إلا] كهيئة حلمتين . قلت : فما الكميشة ؟ قال : التى تُفَوِّت الكف ، كميشة الضرع ، صغير لا يدركه الكف .

مدار هذا الحديث على عبد الله بن لهيعة المصرى — وفى حفظه سوء — وأخشى أن يكون رفعه خطأ ، والله أعلم ؛ وينبغى أن يُرْوَى ليس فيها فشوش ولا عزوز ، ولا ضبوب ولا ثَعول ولا كميشة ، لتذكر كل صفة ناقصة مع ما يقابلها من الصفات الناقصة . وقد روى ابن جرير من كلام أنس بن مالك — موقوفاً عليه — ما يقارب بعضه بإسناد جيد ، فقال :

حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنا أبى ، عن قتادة ، حدثنا أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : لما دعا نبى الله موسى عليه السلام — صاحبه إلى الأجل الذى كان بينهما ، قال له صاحبه : كل شاة ولدت على غير لونها فذلك ولدها لك . فعمد فرفع حبالا على الماء ، فلما رأت الخيال فزعت فجالت جولة ، فولدن كلهن بلقا إلا شاة واحدة ، فذهب بأولادهن ذلك العام (٦) .

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾

قد تقدم فى تفسير الآية قبلها أن موسى — عليه السلام — قضى أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما وأكملهما وأنقاهما ، وقد يستفاد هذا أيضاً من الآية الكريمة من قوله : (فلما قضى موسى الأجل) ، أى : الأكمل منهما ، والله أعلم .

---

(١) فى المخطوطة : « فأتمت وانثنيت » . وفى الدر المنثور : « فأتمت وأثلثت » . وفى الطبعات السابقة : « فأتأمت وألبنت » ولعل الصواب ما أثبتناه . وأتأمت الأنثى : وضعت اثنين فى بطن . وأما « أثلثت » فالذى فى اللسان أنه يقال : « أثلثت الناقة إذا جاءت بولدها الثالث » ، ولم نجده — فيما أتيح لنا من المعاجم — بمعنى ولدت ثلاثا فى بطن .

(٢) العزوز — بالعين المهملة ، وزاءين بينهما واو — الشاة البكيئة القليلة اللبن ، الضيقة الإحليل .

(٣) الدر المنثور : ٥/١٢٦ .

(٤) فى النهاية : « هى التى ينفش لبنها من غير حلب ، أى يجرى ؛ وذلك لسعة الإحليل » .

(٥) الشخب — كما فى اللسان — : ما خرج من اللبن إذا احتلب .

(٦) تفسير الطبرى : ٢٠/٤٤ .

قال ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : قضى عشر سنين ، وبعدها عشرا أخر . وهذا القول لم أره لغيره ، وقد حكاه عنه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والله أعلم :

وقوله : (وسار بأهله) ، قالوا : كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله ، فعزم على زيارتهم فى خفية من فرعون وقومه ، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التى وهبها له صهره ، فسلك بهم فى ليلة مطيرة مظلمة باردة ، فنزل منزلا فجعل كلما أورى(١) زنده لا يضىء شيئاً ، فتعجب من ذلك ، فبينما هو كذلك : (آنس من جانب الطور ناراً) ، أى : رأى ناراً تضىء له على بعد ، (فقال لأهله : امكثوا إنى آنست ناراً) ، أى : حتى أذهب إليها ، (لعلى آتيكم منها بخبر) ، وذلك لأنه كان قد أضل الطريق ، (أو جذوة من النار) ، أى : قطعة منها ، (لعلكم تصطلون) ، أى : تتدفئون بها من البرد ، قال الله تعالى : (فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن) ، أى : من جانب الوادى مما يلى الجبل عن يمينه من ناحية الغرب ، كما قال تعالى : (وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر) ، فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة ، والجبل الغربى عن يمينه ، والنار وجدها تضطرم فى شجرة خضراء فى لحف(٢) الجبل مما يلى الوادى ، فوقف باهتاً فى أمرها ، فناداه ربه : (من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة) .

قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن أبى عبيدة ، عن عبد الله قال : رأيت الشجرة التى نودى منها موسى – عليه السلام – سمرة خضراء ترف(٣) . إسناده مقارب(٤) .

وقال محمد بن إسحاق ، عن بعض من لا يتهم ، عن وهب بن منبه قال : شجرة من العليق(٥) ، وبعض أهل الكتاب يقول : من العوسج(٦) .

وقال قتادة : هى من العوسج ، وعصاه من العوسج .

وقوله تعالى : (أن يا موسى ، إنى أنا الله رب العالمين) ، أى : الذى يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين ، الفعال لما يشاء ، لا إله غيره ، ولا رب سواه ، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات فى ذاته وصفاته ، [وأقواله] وأفعاله ، سبحانه !

وقوله : (وأن ألق عصاك) ، أى : التى فى يدك . كما قرره على ذلك فى قوله : (وما تلك بيمينك ياموسى ؟ قال : هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ، ولى فيها مآرب أخرى (٧)) . والمعنى : أما هذه عصاك التى تعرفها ؟

---

(١) أى : أخرج ناره . والزند : العود الذى تقدح به النار .

(٢) لحف – بكسر اللام ، وسكون الحاء المهملة – : أصل الجبل .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٠/٤٦ ، ولفظه : « شجرة سمر خضراء ترف » .

(٤) قال النووى فى التقريب ٢٢٤ : « ومن ألفاظهم – يعنى المحدثين فى التعديل – : فلان روى عنه الناس ، وسط ، مقارب الحديث » ويقول السيوطى : وهذه الألفاظ الثلاثة من المرتبة التى يذكر فيها شيخ ، وهى الثالثة من مراتب التعديل » .

(٥) العليق – بضم العين ، وفتح اللام مشددة ، وياء ساكنة – : نبت يتعلق بالشجر . وقال أبو حنيفة : يسمى بالفارسية دركة ، وهو من شجر الشوك لا يعظم .

(٦) العوسج : شجر كثير الشوك .

(٧) سورة طه ، آية : ١٧ ، ١٨ .

(ألقها ، فألقاها فإذا هي حية تسعى) ، فعرف وتحقق أن الذي يخاطبه ويكلمه هو الذي يقول للشيء : كن ، فيكون ، كما تقدم بيان ذلك في « سورة طه(١) » .

وقال هاهنا : (فلما رآها تهتز) ، أي : تضطرب (كأنها جان) ، أي : في حركتها السريعة مع عظم خلْق قوائمها واتساع فمها ، واصطكاك أنيابها وأضراسها ، بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعتها ، فتنحدر في فيها تتقعقع ، كأنها حادرة في واد . فعند ذلك (ولى مدبراً ولم يعقب) ، أي : ولم يكن يلتفت ، لأن طبع البشرية ينفر من ذلك : فلما قال الله له : (ياموسى ، أقبل ولا تخف إنك من الآمنين) ، رجع فوقف في مقامه الأول ، ثم قال الله له : (اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء) ، أي : إذا أدخلت يدك في جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج تتلألأ، كأنها قطعة قمر في لمعان البرق . ولهذا قال : (من غير سوء) ، أي : من غير برص .

وقوله : (واضمم إليك جناحك من الرهب) ، قال مجاهد : من الفزع . وقال قتادة من الرعب . وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم وابن جرير : مما حصل لك من خوفك من الحية(٢) .

والظاهر أن المراد أعم من هذا ، وهو أنه أمر — عليه السلام — إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب ، وهي يده ، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف. وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يده على فؤاده ، فإنه يزول عنه ما يجد أو يخف ، إن شاء الله ، وبه الثقة .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا الربيع بن ثعلب الشيخ الصالح ، أخبرنا أبو إسماعيل المؤدب ، عن عبد الله بن مسلم ، عن مجاهد ، قال : كان موسى عليه السلام قد مُلِيء قلبه رعباً من فرعون ، فكان إذا رآه قال : اللهم ، إني أدرأ بك في نحره ، وأعوذ بك من شره ، ففرّغ الله ما كان في قلب موسى — عليه السلام — وجعله في قلب فرعون ، فكان إذا رآه بال كما يبول الحمار .

وقوله : (فذانك برهانان من ربك) ، يعني إلقاءه العصا وجعلها حية تسعى ، وإدخاله يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء — دليلان قاطعان واضحان على قدرة الفاعل المختار ، وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه ، ولهذا قال : (إلى فرعون وملئه) ، أي : وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع ، (إنهم كانوا قوماً فاسقين) ، أي : خارجين عن طاعة الله ، مخالفين لدين الله .

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾

لما أمره الله — تعالى — بالذهاب إلى فرعون ، الذي إنما خرج من ديار مصر فراراً منه وخوفاً من سطوته ، (قال : رب ، إني قتلت منهم نفساً) ، يعني ذلك القبطي، (فأخاف أن يقتلون) ، أي : إذا رأوني ، (وأخي هارون هو أفصح

(١) انظر فيما تقدم : ٥/٢٧٣ .

(٢) تفسير الطبري : ٢٠/٤٦ .

منّى لساناً) ، وذلك أن موسى ــ عليه السلام ــ كان فى لسانه لثغة ، بسبب ما كان تناول تلك الجمرة ، حين خُيِّر بينها وبين التمرة أو الدرة ، [فأخذ الجمرة] فوضعها على لسانه (١) ، فحصل فيه شدة فى التعبير ، ولهذا قال : (واحلل عقدة من لسانى . يفقهوا قولى . واجعل لى وزيراً من أهلى . هارون أخى . اشدد به أزرى . وأشركه فى أمرى(٢)) ، أى : يؤنسنى فيما أمرتنى به من هذا المقام العظيم ، وهو القيام بأعباء النبوة والرسالة إلى هذا الملك المتكبر الجبار العنيد . ولهذا قال : (وأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردءا) ، أى : وزيراً ومعيناً ومقوياً لأمرى ، يصدقنى فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل ، لأن خبر اثنين أنجع فى النفوس من خبر واحد ، ولهذا قال : (إنى أخاف أن يكذبون) .

وقال محمد بن إسحاق : (ردءا يصدقنى) ، أى : يبين لهم عنى ما أكلمهم به ، فإنه يفهم مالا يفهمون(٣) .

فلما سأل ذلك قال الله تعالى : (سنشد عضدك بأخيك) ، أى : سنقوى أمرك ، ونعز جانبك بأخيك ، الذى سألت له أن يكون نبياً معك . كما قال فى الآية الأخرى : (قد أوتيت سؤلك ياموسى (٤)) ، وقال تعالى : (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً(٥)) . ولهذا قال بعض السلف : ليس أحد أعظم مِنَّةً على أخيه ، من موسى على هارون عليهما السلام فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبياً ورسولا معه إلى فرعون وملئه ، ولهذا قال فى حق موسى : (وكان عند الله وجيهاً(٦)) .

وقوله تعالى : (ونجعل لكما سلطاناً) ، أى : حجة قاهرة ، (فلا يصلون إليكما بآياتنا) ، أى : لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب إبلاغكما آيات الله ، كما قال الله تعالى : (يا أيها الرسول ، بلغ ما أنزل إليك من ربك) إلى قوله : (والله يعصمك من الناس (٧)) . وقال تعالى : (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ، ولا يخشون أحداً إلا الله ، وكفى بالله حسيباً (٨)) ، أى : وكفى بالله ناصراً ومعيناً ومؤيداً . ولهذا أخبرهما أن العاقبة لهما ولمن اتبعهما فى الدنيا والآخرة ، فقال : (أنتما ومن اتبعكما الغالبون) ، كما قال تعالى : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ، إن الله قوى عزيز (٩)) ، وقال تعالى : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار)(١٠) .

ووجه ابن جرير على أن المعنى (ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما) ، ثم يبتدىء فيقول : (بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون) ، تقديره أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا(١١) .

(١) انظر ذلك فى حديث الفتون ، وقد تقدم ذلك فى : ٥/ ٢٨٠ .
(٢) سورة طه ، الآيات : ٢٧ – ٣٢ .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٠/ ٤٧ .
(٤) سورة طه ، آية : ٣٦ .
(٥) سورة مريم ، آية : ٥١ .
(٦) سورة الأحزاب ، آية : ٦٩ .
(٧) سورة المائدة ، آية : ٦٧ .
(٨) سورة الأحزاب ، آية : ٣٩ .
(٩) سورة المجادلة ، آية : ٢١ .
(١٠) سورة غافر ، آية : ٥١ ، ٥٢ .
(١١) قال الطبرى ٢٠/ ٤٨ : « فالباء فى قوله (بآياتنا) من صلة « غالبون » ، ومعنى الكلام : أنتما ومن اتبعكما الغالبون فرعون وملأه بآياتنا ، أى بحجتنا وسلطاننا الذى نجعله لكما » .

ولا شك أن هذا المعنى صحيح ، وهو حاصل من التوجيه الأول ، فلا حاجة إلى هذا ، والله أعلم .

فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾
وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾

يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه، وعرضه ما آتاهما الله من المعجزات الباهرة والدلالات القاهرة ، على صدقهما فيا أخبرا عن الله عز وجل — من توحيده واتباع أوامره : فلما عاين فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه وتحققوه ، وأيقنوا أنه من الله ، عدلوا بكفرهم [وبغيهم] إلى العناد والمباهتة، وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق ، فقالوا : (ما هذا إلا سحر مفترى) ، أى : مفتعل مصنوع : وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه، فما صعد(١) معهم ذلك .

وقوله : (وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين)، يعنون عبادة الله وحده لاشريك له، [يقولون] : ما رأينا أحداً من آبائنا على هذا الدين ، ولم نر الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى . فقال موسى — عليه السلام — مجيباً لهم : (ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده) ، يعنى منى ومنكم، وسيفصل بينى وبينكم، ولهذا قال : (ومن تكون له عاقبة الدار) ، أى : النصرة والظفر والتأييد ، (إنه لا يفلح الظالمون) ، أى : المشركون بالله .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي
أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا
أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾
وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ
هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافترائه فى دعوى الالهية لنفسه القبيحة — لعنه الله — كما قال تعالى : (فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين) (٢) ، وذلك لأنه دعاهم إلى الاعتراف له بالالهية، فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم وسخافة أذهانهم ، ولهذا قال : (يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى) ، قال تعالى إخباراً عنه : (فحشر فنادى . فقال : أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى) (٣) ، يعنى : أنه جمع قومه ونادى فيهم بصوته العالى مُصَرِّحا لهم بذلك ، فأجابوه سامعين مطيعين. ولهذا انتقم الله تعالى منه، فجعله عبرة لغيره فى الدنيا والآخرة ، وحتى إنه واجه موسى الكليم بذلك فقال : (لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين) .

(١) لعله يعنى : فما نفعت معهم البينات .
(٢) سورة الزخرف ، آية : ٥٤ .
(٣) سورة النازعات ، الآيات : ٢٣ - ٢٦ .

وقوله : (فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحاً لعلى أطلع إلى إله موسى) ، أى: أمر وزيره هامان ومدير رعيته ومشير دولته أن يوقد له على الطين ، ليتخذ له آجرًا لبناء الصرح،وهو القصر المنيف الرفيع– كما قال فى الآية الأخرى : (وقال فرعون : ياهامان، ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى ، وإنى لأظنه كاذبا ، وكذلك زين لفرعون سوء عمله ، وصُدّعن السبيل،وما كيد فرعون إلا فى تباب) (١) ، وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح الذى لم يُرَ فى الدنيا بناء أعلى منه،إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير فرعون ، ولهذا قال : (وإنى لأظنه من الكاذبين)،أى: فى قوله إن ثَمّ رباً غيرى ،لا أنه كذبه فى أن الله أرسله ، لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع، فإنه قال : (وما رب العالمين)(٢) ؟ ،وقال : (لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين) (٣) .،وقال:(يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى) وهذا قول ابن جرير(٤) .

وقوله : (واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق ، وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون)، أى:طغوا وتجبروا ،وأكثروا فى الأرض الفساد،واعتقدوا أنه لا معاد ولا قيامة، (فصب عليهم ربك سوط عذاب ، إن ربك لبالمرصاد) (٥) ، ولهذا قال هاهنا : (فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم) ، أى: أغرقناهم فى البحر فى صبيحة واحدة، فلم يبق منهم أحد ، (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار)، أى: لمن سلك وراءهم وأخذ بطريقتهم ، فى تكذيب الرسل وتعطيل الصانع،(ويوم القيامة لاينصرون) ، أى : فاجتمع عليهم خزى الدنيا موصولا بذل الآخرة ، كما قال تعالى : (أهلكناهم فلا ناصر لهم) (٦) .

وقوله : (وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة)، أى: وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين رسله،وكما أنهم فى الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء وأتباعهم، كذلك (ويوم القيامة هم من المقبوحين) – قال قتادة : وهذه الآية كقوله تعالى : (وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة ، بئس الرفد المرفود) (٧) .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم –عليه من ربه الصلاة والتسليم– من إنزال التوراة عليه بعد ما أهلك فرعون وملأه .

---

(١) سورة غافر ، آية : ٣٦ – ٣٧ .
(٢) سورة الشعراء ، آية : ٢٣ .
(٣) سورة الشعراء ، آية : ٢٩ .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٠/٤٩ .
(٥) سورة الفجر ، آية : ١٣ ، ١٤ .
(٦) سورة محمد ، آية : ١٣ .
(٧) تفسير الطبرى : ٢٠/٥٠ . والآية من سورة هود : ٩٩ .

وقوله : (من بعد ما أهلكنا القرون الأولى) ، يعني :أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامة، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين ، كما قال : (وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة . فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية)(١) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا محمد وعبد الوهاب قالا: حدثنا عوف،عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخُدْري قال : ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولا من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض، غير القرية التي مسخوا قردة ، ألم تر أن الله يقول : (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى(٢)) .

ورواه ابن أبي حاتم، من حديث عوف بن أبي جَميلة الأعرابي،بنحوه. وهكذا رواه أبو بكر البزار في مسنده، عن عمرو بن علي الفلاس ، عن يحيى القطان ، عن عوف،عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد موقوفا . ثم رواه عن نصر ابن علي ، عن عبد الأعلى ، عن عوف ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد ــ رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ــ قال : ما أهلك الله قوما بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا قبل موسى، ثم قرأ : (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى) .

وقوله : (بصائر للناس) ، أي : من العمى والغي ، (وهدى) إلى الحق،(ورحمة) ، أي : إرشادا إلى الأعمال الصالحة ، (لعلهم يتذكرون) ، أي : لعل الناس يتذكرون به ، ويهتدون بسببه .

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى منبها على برهان نبوة محمد ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ حيث أخبر بالغيوب الماضية ، خبرا كأن سامعه شاهد وراء لما تقدم ، وهو رجل أمي لا يقرأ شيئاً من الكتب،نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك ، كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها ، قال تعالى : (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم: أيهم يكفل مريم ؟ وما كنت لديهم إذ يختصمون) (٣)، أي: ما كنت حاضراً لذلك ،ولكن الله أوحاه إليك . وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه ، وما كان من إنجاء الله له وإغراق قومه .

ثم قال تعالى : (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين(٤)) . وقال في آخر السورة : (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك(٥)) ، وقال بعد ذكر قصة يوسف :

(١) سورة الحاقة ، آية : ٩ ، ١٠ .
(٢) تفسير الطبري : ٢٠/١٥٠ .
(٣) سورة آل عمران ، آية : ٤٤ .
(٤) سورة هود ، آية : ٤٩ .
(٥) سورة هود ، آية : ١٠٠ .

(ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون(١)) .وقال فى سورة طه : (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا(٢))، وقال هاهنا بعد ما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها ، وكيف كان ابتداء إيحاء الله إليه وتكليمه له : (وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر) ، يعنى : يا محمد ما كنت بجانب الجبل الغربى الذى كلم الله موسى من الشجرة التى هى شرقية على شاطىء الوادى ، (وما كنت من الشاهدين) لذلك ، ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليك ذلك، ليجعله حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدها ، ونسوا حُجَج الله عليهم ، وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين .

وقوله : (وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا)، أى : وما كنت مقيما فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، حين أخبرتَ عن نبيها شعيب ، وما قال لقومه ، وما ردوا عليه ، (ولكنا كنا مرسلين)، أى: ولكن نحن اوحينا إليك ذلك ، وأرسلناك للناس رسولا .

(وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) ـ قال أبو عبد الرحمن النسائى ،فى التفسير من سننه: أخبرنا على بن حُجْر ، أخبرنا عيسى ـ وهو ابن يونس ـ عن حمزة الزيات ، عن الأعمش ،عن على بن مدرك ، عن أبى زرعة، عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ : (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) ، قال : نودوا: يا أمة محمد، أعطيتكم قبل أن تسألونى ، وأجبتكم قبل أن تدعونى .

وهكذا رواه ابن جرير وابن أبى حاتم ، من حديث جماعة، عن حمزة ـ وهو ابن حبيب الزيات ـ عن الأعمش . ورواه ابن جرير من حديث وكيع(٣) ويحيى بن عيسى ، عن الأعمش، عن على بن مدرك، عن أبى زُرْعَة ـ وهو ابن عمرو بن جرير ـ أنه قال ذلك من كلامه ، والله أعلم .

وقال مقاتل بن حيان : (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا): أمتك فى أصلاب آبائهم أن يؤمنوا بك إذا بعثت .

وقال قتادة : (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) موسى . وهذا ـ والله أعلم ـ أشبه بقوله تعالى: (وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر) .

ثم أخبر ها هنا بصيغة أخرى أخص من ذلك ، وهو النداء، كما قال تعالى :(وإذ نادى ربك موسى (٤))، وقال: (إذ ناداه ربه بالوادى المقدس طوى(٥)) ، وقال : (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا(٦)) .

وقوله : (ولكن رحمة من ربك) ، أى : ما كنت مشاهداً لشىء من ذلك، ولكن الله أوحاه إليك وأخبرك به ، رحمة منه لك وبالعباد بإرسالك إليهم ، (لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون) ،أى : لعلهم يهتدون بما جئتهم به من الله عز وجل .

---

(١) سورة يوسف ، آية : ١٠٢ .
(٢) سورة طه ، آية : ٩٩ .
(٣) الذى وقع لنا فى تفسير الطبرى : ٢٠/ ٥١ ، من حديث سفيان ويحيى بن عيسى .
(٤) سورة الشعراء ، آية : ١٠ .
(٥) سورة النازعات ، آية : ١٦ .
(٦) سورة مريم ، آية : ٥٢ .

(ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا: ربنا، لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين)، أى : وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة ولتقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم ، فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير ، كما قال تعالى بعد ذكره إنزال كتابه المبارك وهو القرآن: (أن تقولوا : إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين • أو تقولوا : لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة[١]) ، وقال : (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل[٢]) ، وقال تعالى : (يا أهل الكتاب ، قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل، أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شىء قدير[٣]) ، والآيات فى هذا كثيرة .

فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾

يقول تعالى مخبراً عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم، لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول: أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد – صلوات الله وسلامه عليه – قالوا على وجه التعنت والعناد والكفر والجهل والإلحاد: (لولا أوتى مثل ما أوتى موسى ، أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل)، يعنون – والله أعلم – من الآيات الكثيرة، مثل العصا واليد ، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، وتنقص الزروع والثمار ، مما يضيق على أعداء الله، وكفلق البحر وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى ، إلى غير ذلك من الآيات الباهرة ، والحجج القاهرة ، التى أجراها الله على يدى موسى عليه السلام حجة وبراهين له على فرعون وملئه وبنى إسرائيل، ومع هذا كله لم ينجع فى فرعون وملئه، بل كفروا بموسى وأخيه هارون ، كما قالوا لهما: (أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ، وتكون لكما الكبرياء فى الأرض، وما نحن لكما بمؤمنين[٤]) ، وقال تعالى : (فكذبوهما فكانوا من المهلكين[٥]) . ولهذا قال هاهنا: (أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل)، أى : أو لم يكفر[٦] البشر بما أوتى موسى من تلك الآيات العظيمة (قالوا : ساحران[٧] تظاهرا)،

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٢) سورة النساء ، آية : ١٦٥ .

(٣) سورة المائدة ، آية : ١٩ .

(٤) سورة يونس ، آية : ٧٨ .

(٥) سورة « المؤمنون » ، آية : ٤٨ .

(٦) فى تفسير الطبرى ٢٠/٥٢ : « أولم يكفر الذين علموا هذه الحجة من اليهود ، بما أوتى موسى من قبلك ؟ » . هذا وفى المخطوطة : « أو لم يكفروا ببشر بما أوتى » والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٧) (قالوا : ساحران) هذه قراءة الجمهور . وأما (سحران) فقراءة عبد الله ، وزيد بن على ، والكوفيين . انظر البحر المحيط : ٧/١٢٤ ، وتفسير الطبرى ٢٠/٥٣ .

أي تعاونا ، (وقالوا : إنا بكل كافرون)، أي: بكل منهما كافرون ، ولشدة التلازم والتصاحب والمقاربة بين موسى وهارون ، دل ذكر أحدهما على الآخر ، كما قال الشاعر

فَمَا أدْرِي إذَا يَمَّمْتُ أرْضاً * أرِيدُ الخَيْرَ أيهُمَا يَلِينِي (١)

أي : فما أدرى أيليني الخير أو الشر . قال مجاهد بن جبر: أمرت اليهود قريشا أن يقولوا لمحمد صلى الله عليه وسلم ذلك ، فقال الله: (أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ، قالوا : ساحران تظاهرا) ، قال : يعني موسى وهارون صلى الله عليهما وسلم (تظاهرا)، أي: تعاونا وتناصرا وصدق كل منهما الآخر ؟ وبهذا قال سعيد بن جبير وأبو رزين في قوله : (ساحران) ، يعنون موسى وهارون . وهذا قول جيد قوىّ ، والله أعلم .

وقال مسلم بن يسار، عن ابن عباس (قالوا : ساحران تظاهرا) ، يعني موسى ومحمداً ــ صلوات الله وسلامه عليهما ــ . وهذا رواية عن الحسن البصري .

وقال الحسن وقتادة : يعني عيسى ومحمداً ــ صلى الله عليهما وسلم ــ وهذا فيه بعد ، لأن عيسى لم يجر له ذكر ها هنا ، والله أعلم .

وأما من قرأ (سحران تظاهرا)، فقال علي بن أبي طلحة والعوفي، عن ابن عباس : يعنون التوراة والقرآن . وكذا قال عاصم الجندي ، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، قال السدى : يعني صدّق كل واحد منهما الآخر .

وقال عكرمة : يعنون التوراة والإنجيل . وهو رواية عن أبي زرعة ، واختاره ابن جرير (٢) .

وقال الضحاك وقتادة : الإنجيل والقرآن . والله ــ سبحانه ــ أعلم بالصواب . والظاهر على قراءة : (سحران) أنهم يعنون التوراة والقرآن، لأنه قال بعده : (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه) ، وكثيراً ما يقرن الله بين التوراة والقرآن ، كما في قوله تعالى : (قل: من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس) إلى أن قال : (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) (٣)، وقال في آخر السورة : (ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذى أحسن)، إلى أن قال : (وهذا كتاب أنزلناه مبارك ، فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون (٤)) ، وقالت الجن: (إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى (٥)) وقال ورقة بن نوفل هذا الناموس الذى أنزل على موسى: وقد علم بالضرورة لذوى الألباب أن الله لم ينزل كتابا من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذى أنزل على محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو القرآن ، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذى أنزله على موسى بن عمران ــ عليه السلام ــ وهو التوراة التي قال الله تعالى فيها (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا

(١) تقدم البيت في تفسير سورة براءة ، انظر ٣/٦١ .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٠/٥٣ .
(٣) سورة الأنعام ، آية : ٩١ ، ٩٢ .
(٤) سورة الأنعام ، آية : ١٥٥ .
(٥) سورة الأحقاف ، آية : ٣٠ .

للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله، وكانوا عليه شهداء(١)) ، والإنجيل إنما نزل متمماً للتوراة ومُحلا لبعض ما حُرِّم على بني إسرائيل . ولهذا قال تعالى (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين) ، أي : فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل :

قال الله تعالى : (فإن لم يستجيبوا لك) ، أي : فإن لم يجيبوك عما قلت لهم ولم يتبعوا الحق ، (فاعلم أنما يتبعون أهواءهم)، أي : بلا دليل ولا حجة ، (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) ، أي : بغير حجة مأخوذة من كتاب الله، (إن الله لا يهدى القوم الظالمين) .

وقوله : (ولقد وصلنا لهم القول) ، قال مجاهد : فصلنا لهم القول .

وقال السدى : بينا لهم القول .

وقال قتادة : يقول تعالى : أخبَرَهم كيف صُنع بمن مضى وكيف هو صانع ، (لعلهم يتذكرون(٢)) :

قال مجاهد وغيره : (وصلنا لهم) ، يعني قريشا . وهذا هو الظاهر ، لكن قال حماد بن سلمة ، عن عمرو بن دينار، عن يحيى بن جعدة، عن رفاعة ــ رفاعة هذا هو ابن قَرَظَة القُرَظيّ ، وجعله ابن منده : رفاعة بن سموْأل ، خال صفية بنت حيي ، وهو الذي طلق تميمة بنت وهب التي تزوجها بعده عبد الرحمن بن الزبير بن باطا ، كذا ذكره ابن الأثير(٣) ــ [قال : نزلت :(ولقد وصلنا لهم القول) في عشرة أنا أحدهم. رواه ابن جرير(٤) وابن أبي حاتم من حديثه] .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن ، كما قال تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به(٥)) ، وقال : (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ، خاشعين لله (٦)) ، وقال : (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون : سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا(٧)) ، وقال : (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى ، ذلك بأن منهم

---

(١) سورة المائدة ، آية : ٤٤ .

(٢) تفسير الطبري : ٢٠/٥٥ .

(٣) انظر أسد الغابة ، الترجمة ١٦٩٠ ، ١٦٩٦ : ٢/٢٢٨ ، ٢٣٢ ، كما تنظر ترجمة عبد الرحمن بن الزبير ، وهي برقم ٣٣٠٣ : ٣/٤٤٦ ــ ٤٤٧ .

(٤) تفسير الطبري : ٢٠/٥٦ .

(٥) سورة البقرة ، آية : ١٢١ .

(٦) سورة آل عمران ، آية : ١٩٩ .

(٧) سورة الإسراء ، آية : ١٠٧ ، ١٠٨ .

قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون : وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون : ربنا ، آمنا فاكتبنا مع الشاهدين[(١)]) .

قال سعيد بن جبير : نزلت فى سبعين من القسيسين بعثهم النجاشى ، فلما قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم قرأ عليهم : (يس والقرآن الحكيم) ، حتى ختمها ، فجعلوا يبكون وأسلموا ، ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى : (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين) ، يعنى : من قبل هذا القرآن كنا مسلمين ، أى : موحدين مخلصين لله مستجيبين له .

قال الله : (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) ، أى : هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثانى ، ولهذا قال : (بما صبروا) ، أى : على اتباع الحق ، فان تجشم مثل هذا شديد على النفوس . وقد ورد فى الصحيحين من حديث عامر الشعبى ، عن أبى بُرْدَةَ ، عن أبى موسى الأشعرى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ثلاثة يُؤتَوْنَ أجْرَهم مَرَّتَين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بى ، وَعَبْد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورَجُل كانت له أمَة فأدَّبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها » (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق السَّيْلَحِينى ، حدثنا ابن لَهِيعة ، عن سليمان بن عبد الرحمن ، عن القاسم ، عن أبى أمامة قال : إنى لتحتَ رَاحلة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم الفتح ، فقال قولا حسناً جميلا ، وقال [فيما قال :] من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين ، وله ما لنا وعليه ما علينا [ومن أسلم من المشركين ، فله أجره ، وله ما لنا وعليه ما علينا (٣)] .

وقوله (ويدرءون بالحسنة السيئة) ، أى لا يقابلون السيء بمثله ، ولكن يعفون ويصفحون : (ومما رزقناهم ينفقون) ، أى : ومن الذى رزقهم من الحلال ينفقون على خَلْق الله فى النفقات الواجبة لأهلهم وأقاربهم ، والزكاة المفروضة والمستحبة من التطوعات ، وصدقات النفل والقربات .

وقوله : (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه) ، أى : لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم ، بل كما قال تعالى : (وإذا مروا باللغو مروا كراما (٤)) .

(وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين) ، أى : إذا سَفِه عليهم سَفيه ، وكَلَّمهم بما لا يَليقُ بهم الجوابُ عنه ، أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح ، ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب : ولهذا قال عنهم : إنهم قالوا : (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين) ، أى : لا نُرِيدُ طَرِيقَ الجاهلين ولا نُحبها .

---

(١) سورة المائدة ، آية : ٨٢ ، ٨٣ .

(٢) البخارى ، كتاب العلم ، باب ، تعليم الرجل أمته وأهله ، : ٣٠/١ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب ، وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى جميع الناس ، ونسخ الملل بملته ، : ٩٣/١ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٢٥٩/٥ ، وما بين القوسين منه ، ونحسبه سقط نظر .

(٤) سورة الفرقان ، آية ، ٧٢ .

قال محمد بن إسحاق فى السيرة ، ثم قدم على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو بمكة عشرون رجلا ، أو قريب من ذلك ، من النصارى ، حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجدوه فى المسجد ، فجلسوا إليه وكلموه وساءلوه – ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة – فلما فرغوا من مساءلة رسول الله عما أرادوا ، دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره . فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش ، فقالوا لهم : خيّبكم الله مِنْ ركب ، بعثكم مَنْ وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال ، ما نعلم ركباً أحمق منكم . أو كما قالوا لهم . فقالوا : سلام عليكم ، لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، لم نألُ(١) أنفسنا خيراً .

قال : ويقال : إن النفر النصارى من أهل نجران فالله أعلم أىّ ذلك كان .

قال : ويقال – والله أعلم – إن فيهم نزلت هذه الآيات : (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون) إلى قوله : (لا نبتغى الجاهلين) .

قال : وقد سألت الزهرى عن هذه الآيات فيمن أنزلن ، قال : مازلتُ أسمع من علمائنا أنهن أنزلن فى النجاشى وأصحابه ، رضى الله عنهم ، والآيات التى فى سورة المائدة : (ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً) إلى قوله : (فاكتبنا مع الشاهدين (٢)) .

إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

يقول تعالى لرسوله – صلوات الله وسلامه عليه – : إنك يامحمد (لا تهدى من أحببت) ، أى : ليس إليك ذلك ، إنما عليك البلاغ ، والله يهدى من يشاء ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ، كما قال تعالى : (ليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدى من يشاء (٣)) . وقال : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين(٤)) .

وهذه الآية أخص من هذا كله ، فانه قال : (إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين) ، أى : هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغَوَاية ، وقد ثبت فى الصحيحين(٥) أنها نزلت فى أبى طالب

(١) أى : لم نزل نطلب لأنفسنا الخير .

(٢) سيرة ابن هشام ، خبر « وفد النصارى الذين أسلموا » : ١/٣٩٢ .

(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٧٢ .

(٤) سورة يوسف ، آية : ١٠٣ .

(٥) انظر البخارى ، تفسير سورة القصص : ٦/١٤١ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « أول الإيمان ، قول : لا إله إلا الله » : ١/٤٠ .

عمَّ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقد كان يَحوطُه وينصره ، ويقوم فى صفه ويحبه حباً طبعياً لا شرعياً ، فلما حضرته الوفاة وحان أجله ، دعاه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى الإيمان والدخول فى الإسلام ، فسبق القدر فيه ، واختطف من يده ، فاستمر على ما كان عليه من الكفر ، ولله الحكمة التامة .

قال الزهرى : حدثنى سعيد بن المسيب ، عن أبيه — وهو المسيب بن حَزْن المخزومى ، رضى الله عنه — قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجد عنده أبا جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبى أمية ابن المغيرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعم ، قل : « لا إله إلا الله » كلمة أشهد لك بها عند الله . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ، ويعودان له بتلك المقالة ، حتى قال آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول : لا إله إلا الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما لأستغفرن لك ما لم أنه عنك . فأنزل الله عز وجل : (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى) ، وأنزل فى أبى طالب : (إنك لا تَهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء (١)) .

أخرجاه من حديث الزهرى(٢) . وهكذا رواه مسلم فى صحيحه ، والترمذى ، من حديث يزيد بن كيسان ، عن أبى حازم ، عن أبى هُرَيْرَةَ قال : لما حَضَرَتْ وفاةُ أبى طالب أتاه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال : ياعمَّاه ، قل : « لا إله إلا الله » أشهد لك بها يوم القيامة . فقال : لولا أن تُعَيِّرنى بها قريش ، يقولون : ما حمله عليه إلا جَزَعُ الموت، لأقْرَرْتُ بها عينك ، لا أقولها إلا لأُقِرَّ بها عينك . فأنزل الله : (إنك لا تَهدى من أحببت، ولكن الله يهدى من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين) . وقال الترمذى : حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن كيسان(٣) .

ورواه الإمام أحمد ، عن يحيى بن سعيد القطان ، عن يزيد بن كيسان ، حدثنى أبو حازم ، عن أبى هريرة ، فذكره بنحوه (٤) .

وهكذا قال ابن عباس ، وابن عمر ، ومجاهد ، والشعبى ، وقتادة : إنها نزلت فى أبى طالب حين عَرَضَ عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : « لا إله إلا الله » ، فأبى عليه ذلك ، وقال : أىْ ابن أخى ، ملةَ الأشياخ . وكان آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم ، عن سعيد بن أبى راشد قال : كان رسول قيصر جاء إلىَّ قال : كتب معى قيصر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً ، فأتيته فدفعت الكتاب ، فوضعه فى حجره ، ثم قال : ممن الرجل ؟ قلت : من تنوخ(٥) . قال : هل لك فى دين أبيك

(١) تفسير الطبرى : ٢٠/٥٩ .

(٢) البخارى ، باب قصة أبى طالب : ٥/٦٥ — ٦٦ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « أول الإيمان قول : « لا إله إلا الله » : ١/٤٠ .

(٣) مسلم ، فى الكتاب والباب المتقدمين : ١/٤١ . وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة القصص ، الحديث ٣٢٤١ : ٩/٤٦ — ٤٧ . وقوله : « لا أقولها إلا لأقر بها عينك » ، لم نجده فى مسلم ، ولا الترمذى .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٢/٤٣٤ .

(٥) المخطوطة : « من تيوح » . والمثبت من الطبعات السابقة .

إبراهيم الحنيفية ؟ قلت : إنى رسول قوم ، وعلى دينهم حتى أرجع إليهم : فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ونظر إلى أصحابه وقال : «إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء» .

وقوله : (وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) ، [يقول تعالى مخبراً عن اعتذار بعض الكفار فى عدم اتباع الهدى حيث قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا] ، أى : نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى ، وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين ، أن يقصدونا بالأذى والمحاربة ، ويتخطفونا أينما كنا ، فقال الله تعالى مجيبا لهم : (أو لم نمكن لهم حرماً آمناً) ، يعنى هذا الذى اعتذروا به كذب وباطل ، لأن الله جعلهم فى بلد أمين ، وحَرَم معظم آمن منذ وُضع ، فكيف يكون هذا الحرم آمناً فى حال كفرهم وشركهم ، ولا يكون آمناً لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق ؟ .

وقوله : (يُجبَى إليه ثمرات كل شىء) ، [أى : من سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره ، وكذلك المتاجر والأمتعة] (رزقاً من لدنا) ، أى : من عندنا ، (ولكن أكثرهم لا يعلمون) فلهذا قالوا ما قالوا .

وقد قال النسائى : أنبأنا الحسن بن محمد ، حدثنا الحجاج ، عن ابن جُرَيج ، أخبرنى ابن أبى مُلَيكة قال : قال عمرو بن شعيب ، عن ابن عباس — ولم يسمعه منه — : أن الحارث بن عامر بن نوفل الذى قال : (إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا(١)) .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى مُعَرِّضاً بأهل مكة فى قوله : (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها) ، أى : طغت وأشرت وكفرت نعمة الله ، فيما أنعم به عليهم من الأرزاق ، كما قال فى الآية الأخرى : (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون (٢)) . ولهذا قال : (فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا) ، أى : دثَرت(٣) ديارهم فلا ترى إلا مساكنهم .

وقوله : (وكنا نحن الوارثين) ، أى : رجعت خراباً ليس فيها أحد .

---

(١) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور عن النسائى وابن المنذر . انظر : ٥/١٣٤ .

(٢) النحل ، آية : ١١٢ ، ١١٣ .

(٣) دثر — من باب قعد — : دثور ، والدروس : أن تهب الرياح على المنزل فتغشى رسومه بالرمل وتغطيها بالتراب .

وقد ذكر ابن أبي حاتم عن ابن مسعود أنه سمع كعباً يقول لعمر : إن سليمان ــ عليه السلام ــ قال للهامة ــ يعني البومة ــ : مالك لا تأكلين الزرع ؟ قالت : لأنه أخرج آدم بسببه من الجنة . قال : فمالك لا تشربين الماء ؟ قالت : لأن الله أغرق قوم نوح به . قال : فمالك لا تأوين إلا إلى الخراب ؟ قالت : لأنه ميراث الله ــ عز وجل ــ ثم تلا : (وكنا نحن الوارثين) .

ثم قال الله مخبراً عن عدله ، وأنه لا يهلك أحداً ظالماً له ، وإنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم ، ولهذا قال : (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها) ــ وهي مكة ــ (رسولا يتلو عليهم آياتنا) ، فيه دلالة على أن النبي الأمي ، وهو محمد ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ المبعوث من أم القرى ، رسول إلى جميع القرى من عرب وأعجام ، كما قال تعالى : (لتنذر أم القرى ومن حولها (١)) ، وقال تعالى : (قل : يا أيها الناس ، إني رسول الله إليكم جميعاً(٢)) ، وقال : (لأنذركم به ومن بلغ(٣)) ، وقال : (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده(٤)) . وتمام الدليل : (وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطوراً (٥)) . فأخبر أنه سيهلك كل قرية قبل يوم القيامة ، وقد قال : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) . فجعل تعالى بعثة النبي الأمي شاملة لجميع القرى، لأنه مبعوث إلى أمها وأصلها التي ترجع إليها . وثبت في الصحيحين عنه ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ أنه قال : بعثت إلى الأحمر والأسود(٦) ؛ ولهذا ختم به الرسالة والنبوة ، فلا نبي بعده ولا رسول ، بل شرعه باق بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة

وقيل : المراد بقوله : (حتى يبعث في أمها) ، أي : أصلها وعظيمتها ، كأمهات الرساتيق(٧) والأقاليم . حكاه الزمخشري(٨) وابن الجوزي ، وغيرهما ، وليس ببعيد .

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا ، وما فيها من الزينة الدنيئة والزهرة الفانية بالنسبة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم، كما قال : (ما عندكم ينفد وما عند الله باق(٩)) ،وقال : (وما عند الله خير للأبرار)(١٠)

---

(١) سورة الشورى ، آية : ٧ .
(٢) سورة الأعراف ، آية : ١٥٨ .
(٣) سورة الأنعام ، آية : ١٩ .
(٤) سورة هود ، آية : ١٠ .
(٥) سورة الإسراء ، آية : ٥٨ .
(٦) تقدم الحديث عند تفسير الآية الثانية من سورة الفرقان ، وهو بمعناه هناك . انظر : ٦/٣٦ ــ ٣٧ .
(٧) انظر تفسير هذه الكلمة في : ٥/١٨٦ ، ٣٠٠ .
(٨) انظر الكشاف : ٣/٣٣٤ ، وزاد المسير لابن الجوزي : ٦/٢٤٢ .
(٩) سورة النحل ، آية : ٩٦ .
(١٠) سورة آل عمران ، آية : ١٩٨ .

وقال : (وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع)(١) ، وقال : (بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى (٢)) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والله ما الدنيا فى الآخرة ، إلا كما يَغْمِس أحدكم إصبعه فى اليم ، فلْينظُر ماذا يرجع إليه »(٣) ؟ .

(أفلا يعقلون ؟) ، أى : أفلا يعقل مَنْ يقدم الدنيا على الآخرة ؟

وقوله : (أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه ، كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ، ثم هو يوم القيامة من المحضرين) .

يقول : أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح أعماله من الثواب الذى هو صائر إليه لا محالة ، كمن هو كافر مكذب بلقاء الله ووعده ووعيده ، فهو ممتع فى الحياة الدنيا أياماً قلائل ، (ثم هو يوم القيامة من المحضرين) — قال مجاهد ، وقتادة : من المعذبين .

ثم قد قيل : إنها نزلت فى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وفى أبى جهل : وقيل : فى حمزة وعلى وأبى جهل ، وكلاهما عن مجاهد(٤) . والظاهر أنها عامة ، وهذا كقوله تعالى إخباراً عن ذلك المؤمن حين أشرف على صاحبه ، وهو فى الدرجات وذاك فى الدركات : (ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين (٥)) ، وقال تعالى : (ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون (٦)) .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى [مخبراً] عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة ، حيث يناديهم فيقول : (أين شركائى الذين كنتم تزعمون ؟) يعنى : أين الآلهة التى كنتم تعبدونها فى الدار الدنيا ، من الأصنام والأنداد ، هل ينصرونكم أو ينتصرون ؟ وهذا على

---

(١) سورة الرعد ، آية : ٢٦ .
(٢) سورة الأعلى ، آية : ١٦ ، ١٧ .
(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية السادسة والعشرين من سورة الرعد ، وهو جناه هنالك . انظر : ٤/٣٧٥ .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٠/٦٢ .
(٥) سورة الصافات ، آية : ٥٧ .
(٦) سورة الصافات ، آية : ١٥٨ .

سبيل التقريع والتهديد ، كما قال : (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون(١)) .

وقوله : (قال الذين حق عليهم القول) ، يعنى من الشياطين والمَرَدة والدعاة إلى الكفر ، (ربنا ، هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا ، تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون) ، فشهدوا عليهم أنهم أغووهم فاتبعوهم ، ثم تبرءوا من عبادتهم ، كما قال تعالى : (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً(٢)) ، وقال : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء ، وكانوا بعبادتهم كافرين) (٣) ، وقال الخليل لقومه : (إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مَودة بينكم فى الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار ، وما لكم من ناصرين (٤)) ، وقال الله : (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا . ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا : لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار(٥)) . ولهذا قال : (وقيل : ادعوا شركاءكم) ليخلصوكم مما أنتم فيه ، كما كنتم ترجون منهم فى الدار الدنيا ، (فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ، ورأوا العذاب) ، أى : وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة .

وقوله : (لو أنهم كانوا يهتدون) ، أى : فودوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين فى الدار الدنيا . وهذا كقوله تعالى : (ويوم يقول : نادوا شركائى الذين زعمتم ، فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ، وجعلنا بينهم موبقاً . ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ، ولم يجدوا عنها مصرفا(٦)) :

وقوله : (ويوم يناديهم فيقول : ماذا أجبتم المرسلين) ، النداء الأول عن سؤال التوحيد ، وهذا فيه إثبات النبوات : ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم ؟ وكيف كان حالكم معهم ؟ وهذا كما يُسأل العبد فى قبره : من ربك ؟ ومن نبيك ؟ وما دينك ؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبد الله ورسوله . وأما الكافر فيقول : هاه .. هاه(٧) ، لا أدرى . ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت ، لأن من كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، ولهذا قال تعالى : (فعَميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون) .

وقال مجاهد : فعميت عليهم الحجج ، فهم لا يتساءلون بالأنساب(٨) :

(١) سورة الأنعام ، آية : ٩٤ .
(٢) سورة مريم ، آية : ٨١ ، ٨٢ .
(٣) سورة الأحقاف ، آية : ٥ ، ٦ .
(٤) سورة العنكبوت ، آية : ٢٥ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ١٦٦ ، ١٦٧ .
(٦) سورة الكهف ، آية : ٥٢ ، ٥٣ .
(٧) قال ابن الأثير فى النهاية : وفى حديث عذاب القبر (هاه هاه) ، هذه كلمة تقال فى الإبعاد ، وفى حكاية الضحك ، وقد تقال للتوجع ، فتكون الهاء الأولى مبدلة من همزة « آه » ، وهو الأليق بمقام هذا الحديث ، يقال : تأوه وتهوه ، آهة وهاهة .
(٨) تفسير الطبرى ، ٢٠/٦٣ .

وقوله : (فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً) ، أى : فى الدنيا ، (فعسى أن يكون من المفلحين) ، أى : يوم القيامة ؛ و « عسى » من الله موجبة ، فان هذا واقع بفضل الله ومنّه(١) لا محالة :

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)

يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار ، وأنه ليس له فى ذلك منازع ولا معقب فقال : (وربك يخلق ما يشاء ويختار) ، أى : ما يشاء ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده ، ومرجعها إليه .

وقوله : (ما كان لهم الخيرة) ، نفى على أصح القولين ، كقوله تعالى : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم(٢)) .

وقد اختار ابن جرير أن (ما) هاهنا بمعنى « الذى » ، تقديره : ويختار الذى لهم فيه خيرة(٣) . وقد احتج بهذا المسلك طائفة المعتزلة على وجوب مراعاة الأصلح . والصحيح أنها نافيه ، كما نقله ابن أبى حاتم ، عن ابن عباس وغيره أيضاً ، فان المقام فى بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار ، وأنه لا نظير له فى ذلك ، ولهذا قال : (سبحان الله وتعالى عما يشركون) ، أى : من الأصنام والأنداد ، التى لا تخلق ولا تختار شيئاً .

ثم قال : (وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون) ، أى : يعلم [ما تكن](٤) الضمائر ، وما تنطوى عليه السرائر ، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق ، (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار(٥)) .

وقوله : (وهو الله لا إله إلا هو) ، أى : هو المنفرد بالإلهية ، فلا معبود سواه ، كما لا رب يخلق ويختار سواه ، (له الحمد فى الأولى والآخرة) ، أى : فى جميع ما يفعله هو المحمود عليه ، لعدله وحكمته (وله الحكم) ، أى : الذى لا معقب له ، لقهره وغلبته وحكمته ورحمته ، (وإليه ترجعون) ، أى : جميعكم يوم القيامة فيجازى كل عامل بعمله ، من خير وشر ، ولا يخفى عليه منهم خافية فى سائر الأعمال .

---

(١) المن هنا بمعنى العطاء .
(٢) سورة الأحزاب ، آية : ٣٦ .
(٣) انظر تفسير الطبرى : ٢٠/٦٣ – ٦٥ .
(٤) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة ، ومكانه فى المخطوطة : « مكتمة » .
(٥) سورة الرعد ، آية : ١٠ .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

يقول تعالى ممتنا على عباده بما سخرهم من الليل والنهار ، اللذين لاقوامَ لهم بدونهما : وبين أنه لو جعلَ الليلَ دائماً عليهم سرمداً إلى يوم القيامة ، لأضرّ ذلك بهم ، ولسئمته النفوس وانحصرت منه ، ولهذا قال تعالى : (من إله غير الله يأتيكم بضياء) ، أى : تبصرون به وتستأنسون بسببه ، (أفلا تسمعون ؟) :

ثم أخبر أنه لوجعل النهار سرمداً دائماً مستمراً إلى يوم القيامة ، لأضر ذلك بهم، ولتعبت الأبدان وكلت من كثرة الحركات والأشغال : ولهذا قال : (من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه) ، أى : تستريحون من حركاتكم وأشغالكم ، (أفلا تبصرون ؟ ــ ومن رحمته) ، أى : بكم (جعل لكم الليل والنهار) ، أى : خلق هذا وهذا ، (لتسكنوا فيه) ، أى : فى الليل ، (ولتبتغوا من فضله) ، أى : فى النهار بالأسفار والترحال ، والحركات والأشغال ، وهذا من باب اللف والنشر(١) .

وقوله : (ولعلكم تشكرون) ، أى تشكرون الله بأنواع العبادات فى الليل والنهار ، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار ، أو بالنهار استدركه بالليل ، كما قال تعالى : (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أوأراد شكوراً (٢)) ، والآيات فى هذا كثيرة :

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

وهذا أيضاً نداء على سبيل التقريع والتوبيخ لمن عبد مع الله إلهاً آخر ، يناديهم الرب ــ تبارك وتعالى ــ على رءوس الأشهاد فيقول : (أين شركائى الذين كنتم تزعمون) ، أى : فى الدار الدنيا :

(ونزعنا من كل أمة شهيداً) ، قال مجاهد : يعنى رسولا : (فقلنا : هاتوا برهانكم) ، أى : على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء ، (فعلموا أن الحق لله) ، أى : لا إله غيره ، أى : فلم ينطقوا ولم(٣) يحيروا جوابا ، (وضل عنهم ماكانوا يفترون) ، أى : ذهبوا فلم ينفعوهم :

(١) اللف والنشر : هو ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال ، ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين ، ثقة بأن السامع يرده .

(٢) سورة الفرقان ، آية : ٦٢ .

(٣) فى المخطوطة : « ولا يحيروا » فاستبدلنا « لا » « لم » ، ليستقيم السياق ، « ولم يحيروا » : لم يرجعوا ولم يردوا .

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

قال الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس قال : (إن قارون كان من قوم موسى)، قال : كان ابن عمه . وهكذا قال إبراهيم النخَعي ، وعبد الله بن الحارث بن نوفل ، وسماك بن حرب ، وقتادة ، ومالك ابن دينار ، وابن جريج ، وغيرهم : أنه كان ابن عم موسى عليه السلام .

قال ابن جريج : هو قارون بن يصهر(١) بن قاهث(٢) ، وموسى بن عمران بن قاهث .

وزعم محمد بن إسحاق بن يسار : أن قارون كان عم موسى عليه السلام .

قال ابن جرير : وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عمه (٣) ، والله أعلم .

وقال قتادة بن دعامة : كنا نُحدّث أنه كان ابن عم موسى ، وكان يسمى المنوّر لحسن صوته بالتوراة ، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري ، فأهلكه البغي لكثرة ماله .

وقال شهر بن حوشب . زاد في ثيابه شبراً طولا ، ترفعاً على قومه .

وقوله : (وآتيناه من الكنوز) ، أي : الأموال (ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة) ، أي : ليُثقِلُ حملُها الفئامَ(٤) من الناس لكثرتها .

قال الأعمش ، عن خيثمة : كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود ، كل مفتاح مثل الإصبع ، كل مفتاح على خزانة على حدته ، فاذا ركب حُملت على ستين بغلا أغر(٥) محجلا . وقيل : غير ذلك ، والله أعلم .

وقوله : (إذ قال له قومه : لاتفرح إن الله لايحب الفرحين) ، أي : وعظه فيما هو فيه صالحو قومه ، فقالوا على سبيل النصح والإرشاد : لا تفرح بما أنت فيه ، يعنون لاتبطر بما أنت فيه من الأموال ، (إن الله لايحب الفرحين) .

قال ابن عباس : يعني المرحين . وقال مجاهد : يعني الأشرين البطرين ، الذين لايشكرون الله على ما أعطاهم .

---

(١) كذا في مخطوطة الأزهر ، ومثله في تفسير الطبري : ٢٠/ ٦٧ . وفي جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٥٠٤ : « بن يصاهر » ، وقال السيد المحقق : « في سفر الخروج : يصهار ، بكسر الياء ، وعند ابن خلدون : « يصهر » » .

(٢) في الجمهرة : « قاهات » .

(٣) تفسير الطبري : ٢٠/ ٦٧ .

(٤) الفئام : الجماعات .

(٥) تفسير الطبري : ٢٠/ ٦٨ . هذا وقد ذكرت الآية أن مفاتيح خزائن قارون تنوء بالعصبة أولي القوة ، أما ما ذكره الأعمش فمبالغة من مبالغات أهل الكتاب .

وقوله : (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولاتنس نصيبك من الدنيا) ، أى : استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة ، فى طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات ، التى يحصل لك بها الثواب فى الدار الآخرة ، (ولاتنس نصيبك من الدنيا) ، أى : مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح ، فان لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً ، ولزَوْرك(١) عليك حقاً ، فآت كل ذى حق حقه .

(وأحسن كما أحسن الله إليك) ، أى : أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك ، (ولاتبغ الفساد فى الأرض) ، أى : لاتكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به الأرض ، وتسيء إلى خلق الله ، (إن الله لايحب المفسدين) .

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن جواب قارون لقومه ، حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير ، (قال : إنما أوتيته على علم عندى) ، أى : أنا لاأفتقر إلى ما تقولون ، فان الله تعالى إنما أعطانى هذا المال لعلمه بأنى أستحقه ، ولمحبته لى فتقديره : إنما أعطيته لعلم الله فىّ أنى أهل له ، وهذا كقوله تعالى : (فإذا مس الإنسان ضر دعانا ، ثم إذا خولناه نعمة منا قال : إنما أوتيته على علم) (٢) ؛ [أى : على علم من الله [بى ، وكقوله تعالى : (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن : هذا لى)(٣) ، أى : هذا أستحقه .

وقد رُوى عن بعضهم أنه أراد : (إنما أوتيته على علم عندى) ، أى : إنه كان يعانى علم الكيمياء ؛ وهذا القول ضعيف ، لأن علم الكيمياء فى نفسه علم باطل ، لأن قلب الأعيان لايقدر أحد عليها إلا الله عز وجل ، قال الله : (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له(٤)) ، وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : يقول الله تعالى : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى ، فليخلقوا ذرة ، فليخلقوا شعيرة(٥) ؛ وهذا ورد فى المصورين الذين يشبهون بخلق الله فى مجرد الصورة الظاهرة أو الشكل، فكيف بمن يدعى أنه يحيل ماهية هذه الذات إلى ماهية ذات أخرى ، هذا زور ومحال ، وجهل وضلال . وإنما يقدرون على الصبغ فى الصورة الظاهرة ، وهو كذب وزغل(٦) وتمويه ، وترويج أنه صحيح فى نفس الأمر، وليس كذلك قطعاً لامحالة، ولم يثبت بطريق شرعى أنه صح مع أحد من الناس من هذه الطريقة التى يتعاناها هؤلاء الجهلة الفسقة الأفاكون فأما ما يجريه الله ـ تعالى ـ من خرق العوائد على يدى بعض الأولياء من قلب بعض الأعيان ذهباً أو فضة أو نحو ذلك ، فهذا أمر لاينكره مسلم ، ولايرده مؤمن ، ولكن هذا ليس من قبيل الصناعات

---

(١) الزور ــ بفتح فسكون ــ : الزائرون .
(٢) سورة الزمر ، آية : ٤٩ .
(٣) سورة فصلت ، آية : ٥٠ .
(٤) سورة الحج ، آية : ٧٣ .
(٥) تقدم الحديث عند تفسير الآية الثالثة والسبعين من سورة الحج ، وخرجناه هنالك . انظر : ص٤٠٠ .
(٦) كذا ، ولعلها من عامية أهل الشام .

وإنما هذا عن مشيئة رب الأرض والسموات، واختياره وفعله ، كما روى عن حَيْوَة بن شُرَيح المصري -رحمه الله أنه سأله سائل ، فلم يكن عنده ما يعطيه ، ورأى ضرورته ، فأخذ حصاة من الأرض فأجالها(١) في كفه ، ثم ألقاها إلى ذلك السائل فإذا هي ذهب أحمر . والأحاديث والآثار كثيرة جداً يطول ذكرها .

وقال بعضهم : إن قارون كان يعلم الاسم الأعظم ، فدعا الله به ، فتموّل (٢) بسببه . والصحيح المعنى الأول ، ولهذا قال الله — تعالى — راداً عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال : (أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً) ، أي: قد كان من هو أكثر منه مالا وماكان ذلك عن محبة منا له ، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم ، ولهذا قال : (ولايسئل عن ذنوبهم المجرمون) ، أي : لكثرة ذنوبهم .

قال قتادة : (على علم عندي) ، على خير عندي .

وقال السدى : على علم أني أهل لذلك .

وقد أجاد في تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، فإنه قال في قوله : (قال إنما أوتيته على علم عندي) قال : لولا رضا الله عني ، ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال ، وقرأ : (أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ، ولايسأل عن ذنوبهم المجرمون) (٣) .

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن قارون : أنه خرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة ، وتجمل باهر ، من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه ، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زُخرفها وزينتها ، تمنوا أن لوكان لهم مثل الذي أعطى ، (قالوا : يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذوحظ عظيم) ، أي : ذوحظ وافر من الدنيا . فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوالهم : (ويلكم . ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً) ، أي : جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون .

[كما في الحديث الصحيح : يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ، ولاأذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، واقرءوا إن شئتم : (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون)] (٤) .

وقوله : (ولا يلقاها إلا الصابرون) ، قال السدى : وما يلقى الجنة إلا الصابرون . كأنه جعل ذلك من تمام كلام

---

(١) أي : أدارها .

(٢) أي : كثر ماله .

(٣) تفسير الطبري : ٢٠/٧٢ .

(٤) البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : (يريدون أن يبدلوا كلام الله) : ٩/١٧٦ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب ، أدنى أهل الجنة منزلة ، : ١/١٢١ . وما بين القوسين عن الطبعات السابقة .

الذين أوتوا العلم . قال ابن جرير : وما يلقى هذه الكلمة (١) إلا الصابرون عن محبة الدنيا ، الراغبون فى الدار الآخرة ، وكأنه جعل ذلك مقطوعاً من كلام أولئك ، وجعله من كلام الله – عز وجل – وإخباره بذلك .

فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾

لما ذكر – تعالى – اختيال قارون فى زينته ، وفخره على قومه وبغيه عليهم ، عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض ، كما ثبت فى الصحيح – عند البخارى من حديث الزهرى ، عن سالم – : أن أباه حدثه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينا رجل يجر إزاره إذ خُسِفَ به ، فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة(٢) .

ثم رواه من حديث جرير بن زيد ، عن سالم عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، نحوه(٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا النضر بن إسماعيل أبو المغيرة القاص ، حدثنا الأعمش ، عن عطية ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بينا رجل فيمن كان قبلكم ، خرج فى بردين أخضرين يختال فيهما ، أمر الله الأرض فأخذته ، فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة(٣) . تفرد به أحمد ، وإسناده حسن .

وقال الحافظ أبويعلى الموصلى : حدثنا أبوخيثمة ، حدثنا أبو يعلى بن منصور ، أخبرنى محمد بن مسلم ، سمعت زيادا النميرى يحدث عن أنس بن مالك – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بينا رجل فيمن كان قبلكم خرج فى بردين فاختال فيهما ، فأمر الله الأرض فأخذته ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

وقد ذكر محمد بن المنذر – شكَّر –(٤) فى كتاب العجائب الغريبة بسنده عن نوفل بن مساحق قال : رأيت شاباً فى مسجد نجران ، فجعلت أنظر إليه وأتعجب من طوله وتمامه وجماله ، فقال : مالك تنظر إلى ؟ فقلت : أعجب من جمالك وكمالك . فقال : إن الله ليعجب منى . قال : فما زال ينقص وينقص حتى صار بطول الشبر ، فأخذه بعض قرابته فى كمه وذهب(٥) .

---

(١) قال الطبرى ٢٠/٧٣ – ٧٤ : «يقول : ولا يلقاها ، أى : ولا يوفق لقيل هذه الكلمة ، وهى : (ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً) ، والهاء والألف كناية عن الكلمة ... » .

(٢) البخارى ، كتاب اللباس ، باب «من جر ثوبه من الخيلاء» : ٧/١٨٣ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣/٤٠ .

(٤) شكر – بفتح الشين المعجمة ، وبالكاف مشددة – : لقب محمد بن المنذر الهروى . انظر المشتبه للذهبى : ٣٦٣ والعبر له أيضاً : ٢/١٢٦ .

(٥) ما كان أغنى المفسر عن إيراد هذه القصة ، فان فيها من المبالغة والإغراق فى الخيال ما لا يخفى ؟ .

وقد ذُكر أن هلاك قارون كان عن دعوة نبي الله موسى عليه السلام : واختلف في سببه ، فعن ابن عباس والسدى أن قارون أعطى امرأة بَغِيّاً مالا على أن تبهت موسى بحضرة الملأ من بنى إسرائيل ، وهو قائم فيهم يتلو عليهم كتاب الله ، فتقول ، ياموسى ، إنك فعلت بى كذا وكذا . فلما قالت فى الملأ ذلك لموسى — عليه السلام — أرْعِدَ من الفَرَق ، وأقبل عليها وصلى ركعتين ثم قال : أنشدك بالله الذى فَرَق البحر ، وأنجاكم من فرعون ، وفعل كذا وكذا ، لما أخبرتنى بالذى حملك على ماقلت ؟ فقالت : أما إذ نَشَدْتَنى فإن قارون أعطانى كذا وكذا ، على أن أقول لك ، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه ، فعند ذلك خَرّ موسى لله — عز وجل — ساجداً ، وسأل الله فى قارون : فأوحى الله إليه أنى قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه ، فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره فكان ذلك(١) ؛

وقيل : إن قارون لما خرج على قومه فى زينته تلك ، وهو راكب على البغال الشُّهب ، وعليه وعلى خدمه الثياب الأرجوان الصَّبغة ، فمر فى جَحْفَله ذلك على مجلس نبى الله موسى —عليه السلام — وهو يذكرهم بأيام الله . فلما رأى الناس قارون انصرفت وجوه الناس حوله ، ينظرون إلى ما هو فيه : فدعاه موسى — عليه السلام — وقال : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : ياموسى ، أما لئن كنت فُضِّلتَ عَلَىَّ بالنبوة ، فلقد فضلت عليك بالدنيا ، ولئن شئت لتخرجن ، فلتدعون علىّ وأدعو عليك . فخرج وخرج قارون فى قومه ، فقال موسى : تدعو أوأدعو أنا ؟ قال : بل أنا أدعو . فدعا قارون فلم يجب له ، ثم قال موسى : أدعو ؟ قال : نعم . فقال موسى : اللهم ، مُر الأرض أن تطيعنى اليوم : فأوحى الله إليه أنى قد فعلت ، فقال موسى : يا أرض ، خذيهم . فأخذتهم إلى أقدامهم : ثم قال : خذيهم : فأخذتهم إلى ركبهم ، ثم إلى مناكبهم ، ثم قال : أقبلى بكنوزهم وأموالهم . قال : فأقبلت بها حتى نظروا إليها . ثم أشار موسى بيده فقال : اذهبوا بنى لاوى(٢) فاستوت بهم الأرض ؛

وعن ابن عباس أنه قال : خُسِف بهم إلى الأرض السابعة ؛

وقال قتادة : ذكر لنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة ، [فهم] يتجلجلون فيها إلى يوم القيامة (٣) ؛

وقد ذكر هاهنا إسرائيليات أضربنا عنها صفحاً ؛

وقوله : (فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وماكان من المنتصرين) ، أى : ما أغنى عنه مالُه وما جَمَعَه ، ولاخدمه وحشمه . ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله [ولا كان هو فى نفسه منتصراً لنفسه ، فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره] ؛

وقوله تعالى : (وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس) ، أى : الذين لما رأوه فى زينته (قالوا : ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم) ، فلما خسف به] أصبحوا يقولون : (ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، أى : ليس المال بدالّ على رضا الله عن صاحبه ؛ فإن الله يعطى ويمنع ، ويضيق ويوسع ، [ويخفض ويرفع] ، وله الحكمة التامة

---

(١) انظر تفسير الطبرى : ٢٠/٧٥ — ٧٦ .

(٢) لاوى من ولد إسرائيل عليه السلام . انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ٥٠٣ — ٥٠٤ .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٠/٧٦ .

والحجة البالغة : وهذا كما فى الحديث المرفوع عن ابن مسعود : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم ، كما قسم أرزاقكم ، وإن الله يعطى المال من يحب ، ومن لايحب ، ولا يعطى الإيمان إلا من يحب»[1] :

﴿لولا أن من الله علينا لخسف بنا﴾ ، أى : لولا لطفُ الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا ، كما خسف به ، لأنا ودَدْنا أن نكون مثله .

﴿ويكأنه لايفلح الكافرون﴾ ، يعنون أنه كان كافراً ، ولايفلح الكافرون عند الله ، لا فى الدنيا ولافى الآخرة .

وقد اختلف النحاة فى معنى قوله تعالى: ﴿ويكأن﴾ ، فقال بعضهم : معناها : « ويلك اعلم أن » ، ولكن خُفّفت فقيل : «ويك» ودل فتح «أن» على حذف «اعلم» . وهذا القول ضعّفه ابن جرير[2] ، والظاهر أنه قوى ، ولايشكل على ذلك إلا كتابتها فى المصاحف متصلة «ويكأن» . والكتابة أمر وضعى اصطلاحى ، والمرجع إلى اللفظ العربى ، والله أعلم :

وقيل : معناها ويكأن ، أى : ألم تر أن . قاله قتادة . وقيل : معناها «وى كأن» ، ففصلها وجعل حرف «وى» للتعجب أوللتنبيه ، وكأن بمعنى أظن وأحسب . قال ابن جرير : وأقوى الأقوال فى هذا قول قتادة: إنها بمعنى : ألم ترأن ، واستشهد بقول الشاعر[3] :

سَألَتَانِى الطَّلَاقَ أنْ رَأتَانِى ... قَلّ مَا لِى ، قَدْ جِئْتُمَانِى بِنُكْرِ
وَيْكَأنْ مَنْ يَكُن له نَشَب يُحْـ ... ـبَبْ ، ومن يَفْتقِرْ يَعش عَيْش ضُرّ[4]

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذى لايحول ولايزول ، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين، الذين لايريدون علواً فى الأرض ، أى : ترفعاً على خلق الله وتعاظماً عليهم وتجبراً بهم ، ولافساداً فيهم . كما قال عكرمة : العلو : التجبر ، وقال سعيد بن جبير : العلو : البغى :

وقال سفيان بن سعيد الثورى ، عن منصور ، عن مسلم البطين : العلو فى الأرض : التكبر بغير حق . والفساد : أخذ المال بغير حق[5] .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣٨٧/١ .
(٢) تفسير الطبرى : ٧٧/٢٠ .
(٣) هو زيد بن عمرو بن نفيل ، وقيل غيره . والبيتان من شواهد الكتاب : ٢٩٠/١ ، ١٧٠/٢ . ومعانى القرآن للفراء : ٣١٢/٢ . والبحر المحيط لأبى حيان : ١٣٥/٧ ، والخصائص لابن جنى : ٤١/٣ ، ١٦٩ ، وشرح المفصل لابن يعيش : ٧٦/٤ ، وشرح شواهد الشافية ٣٣٩/٤ ، والخزانة : ٩٥/٣ ، ٩٦ ، ومغنى اللبيب لابن هشام ، الشاهد ٦٨٩ : ٤٠٩/١ ط . بيروت .
(٤) تفسير الطبرى : ٧٧/٢٠ .
(٥) تفسير الطبرى : ٧٨/٢٠ .

وقال ابن جُرَيج : (لايريدون علواً فى الأرض) ، تعظماً وتجبراً ، (ولافساداً) : عملا بالمعاصى .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبى ، عن أشعث السمان، عن أبى سلام(١) الأعرج، عن على قال : إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك صاحبه ، فيدخل فى قوله : (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علواً فى الأرض ولافساداً ، والعاقبة للمتقين) .

وهذا محمول على ما إذا أراد الفخر على غيره؛ [فان ذلك مذموم ، كما ثبت فى الصحيح ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه أوحى إلى أن تَوَاضَعُوا ، حتى لايفخرَ أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد](٢) ، وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمّل فهذا لابأس به ، فقد ثبت أن رجلا قال: يارسول الله ، إنى أحب أن يكون ردائى حسناً ونعلى حسنة، أفمن الكبر ذلك ؟ فقال : لا ، إن الله جميل يحب الجمال(٣) .

وقال : (من جاء بالحسنة) ، أى : يوم القيامة (فله خير منها) ، أى : ثواب الله خير من حَسَنَة العبد ، فكيف والله يضاعفه أضعافاً كثيرة فهذا مقام الفضل .

ثم قال : (ومن جاء بالسيئة فلايجزى الذين عملوا السيئات إلا ماكانوا يعملون) ، كما قال فى الآية الأخرى : (ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار ، هل تجزون إلا ماكنتم تعملون)(٤) وهذا مقام الفصل العدل .

إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾
وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ
عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

يقول تعالى آمراً رسولَه — صلوات الله وسلامه عليه — ببلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس ، ومخبراً له بأنه سيرده إلى معاد ، وهو يوم القيامة ، فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة ، ولهذا قال : (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) ، أى : افترض عليك أداءه إلى الناس ، (لرادك إلى معاد) ، أى : إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك ، كما

(١) فى تفسير الطبرى : ٢٠/٧٩ : « عن أبى سلمان » .

(٢) مسلم ، كتاب الجنة ، باب « الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار » : ٨/١٦١ . وسنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب « فى التواضع » ، الحديث ٤٨٩٥ : ٤/٢٧٤ ، وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « البراءة من الكبر والتواضع الحديث ٤١٧٩ : ٢/١٣٩٩ .

هذا وما بين القوسين عن الطبعات السابقة .

(٣) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « تحريم الكبر وبيانه » : ١/٦٥ ، ومسند الإمام أحمد عن أبى ريحانة : ٤/١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٥١ .

(٤) سورة النمل ، آية : ٩٠ .

قال تعالى : (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين) (١) ، وقال : (يوم يجمع الله الرسل فيقول : ماذا أجبتم) (٢) (وجيء بالنبيين والشهداء) (٣) .

وقال السدي عن أبي صالح ، عن ابن عباس : (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) ، يقول : لرادك إلى الجنة ، ثم سائلك عن القرآن . قال السدي : وقال أبوسعيد مثلها(٤) .

وقال الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس — رضى الله عنهما — : (لرادك إلى معاد) ، قال : إلى يوم القيامة . ورواه مالك ، عن الزهري .

وقال الثوري ، عن الأعمش ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس : (لرادك إلى معاد) ، إلى الموت(٥) .

ولهذا طُرُق عن ابن عباس — رضى الله عنهما — وفي بعضها : لرادك إلى معدنك من الجنة .

وقال مجاهد : يحييك يوم القيامة . وكذا روى عن عكرمة ، وعطاء ، وسعيد بن جبير ، وأبي قَزَعَةَ(٦) ، وأبي مالك ، وأبي صالح .

وقال الحسن البصري : أي والله ، إن له لمعاداً ، يبعثه الله يوم القيامة ثم يدخله الجنة .

وقد رُوي عن ابن عباس غير ذلك ، كما قال البخاري في التفسير من صحيحه :

حدثنا محمد بن مقاتل ، أنبأنا يعلى ، حدثنا سفيان العُصفُريّ ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : (لرادك إلى معاد) ، قال : إلى مكة (٧) .

وهكذا رواه النسائي في تفسير سننه ، وابن جرير من حديث يعلى — وهو ابن عبيد الطنافسي — (٨) به . وهكذا روى العَوفيّ ، عن ابن عباس : (لرادك إلى معاد) ، أي : لرادك إلى مكة كما أخرجك منها .

وقال محمد بن إسحاق ، عن مجاهد في قوله : (لرادك إلى معاد) ، إلى مولدك بمكة .

قال ابن أبي حاتم : وقد روى عن ابن عباس ، ويحيى بن الجزار ، وسعيد بن جبير ، وعطية ، والضحاك ، نحو ذلك .

---

(١) سورة الأعراف ، آية : ٦ .
(٢) سورة المائدة ، آية : ١٠٩ .
(٣) سورة الزمر ، آية : ٦٩ .
(٤) تفسير الطبري : ٢٠/٧٩ .
(٥) تفسير الطبري : ٢٠/٨٠ .
(٦) أبو قزعة هو سويد بن حجير بن بيان الباهلي . روى عن أنس بن مالك ، وعنه ابن جريج وشعبة . ثقة . انظر التهذيب : ٤/٢٧١ .
(٧) البخاري ، تفسير سورة القصص : ٦/١٤٢ .
(٨) تفسير الطبري : ٢٠/٨٠ .

[وحدثنا أبي ، حدثنا ابن أبي عمر قال : قال سفيان : فسمعناه من مقاتل منذ سبعين سنة ، عن الضحاك (١)] قال : لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة ، فبلغ الجُحفة ، اشتاق إلى مكة ، فأنزل الله عليه : (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) إلى مكة .

وهذا من كلام الضحاك يقتضى أن هذه الآية مدنية ، وإن كان مجموع السورة مكيا ، والله أعلم .

وقد قال عبد الرزاق : حدثنا معمر، عن قتادة فى قوله : (لرادك إلى معاد) ، قال : هذه مما كان [ابن عباس] يكتمها ، وقد رَوَى ابنُ أبي حاتم بسنده عن نعيم القارئ أنه قال فى قوله : (لرادك إلى معاد) ، قال : إلى بيت المقدس .

وهذا — والله أعلم — يرجع إلى قول من فسر ذلك بيوم القيامة ؛ لأن بيت المقدس هو أرض المحشر والمنشر ، والله الموفق للصواب

ووجه الجمع بين هذه الأقوال أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة ، وهو الفتح الذى هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجله — صلوات الله وسلامه عليه — كما فسره ابن عباس بسورة (إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره . إنه كان توابا) . أنه أَجَلُ رسول الله — صلى الله عليه وسلم نُعى إليه ، وكان ذلك بحضرة عمر بن الخطاب ، ووافقه عمر على ذلك ، وقال : لا أعلم منها غير الذى تعلم : ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله : (لرادك إلى معاد) بالموت ، وتارة بيوم القيامة الذى هو بعد الموت ، وتارة بالجنة التى هى جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين : الجن والإنس ، ولأنه أكمل خلق الله ، وأفصح خلق الله وأشرف خلق الله على الإطلاق .

وقوله : (قل : ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين) ، أى : قل — لمن خالفك وكذبك يا محمد من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم — قل : ربى أعلم بالمهتدى منكم ومنى ، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار ، ولمن تكون العاقبة والنصرة فى الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى مذكراً لنبيه نعمته العظيمة عليه وعلى العباد إذ أرسله إليهم : (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب) ، أى : ما كنت تظن قبل إنزال الوحى إليك أن الوحى ينزل عليك ، (ولكن رحمة من ربك) ، أى : إنما نزل الوحى عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك، فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة (فلا تكونن ظهيراً)، أى : معيناً (للكافرين)، ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم .

(ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك) ، أى : لا تتأثر لمخالفتهم لك وصدهم الناس عن طريقك ، لا تلوى على ذلك ولا تباله ؛ فان الله مُعلٍ كلمتك ، ومؤيدٌ دينك ، ومظهر ما أرسلت به على سائر الأديان ، ولهذا قال : (وادع إلى ربك) ، أى : إلى عبادة ربك وحده لا شريك له ، (ولا تكونن من المشركين) .

وقوله : (ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو) ، أى : لا تليق العبادة إلا له ولا تنبغى الإلهية إلا لعظمته .

---

(١) ما بين القوسين من الطبعات السابقة .

وقوله : (كل شئٌ هالك إلا وجهه) إخبار بأنه الدائم الباقى الحى القيوم ، الذى تموت الخلائق ولا يموت ، كما قال تعالى : (كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والأكرام (١)) ، فعبر بالوجه عن الذات ، وهكذا قوله هاهنا : (كل شئٌ هالك إلا وجهه) ، أى : إلا إياه .

وقد ثبت فى الصحيح ، من طريق أبى سلمة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أصدق كلمة قالها الشاعر [كلمة] لبيد (٢) :

« ألا كلُّ شىْءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلُ » (٣)

وقال مجاهد والثورى فى قوله : (كل شئٌ هالك إلا وجهه) أى : إلا ما أريد به وجهه، وحكاه البخارى فى صحيحه كالمقرر له :

قال ابن جرير : ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر (٤) :

أسْتَغْفِرُ اللهَ ذَنْبًا لَسْتُ مُحْصِيَهُ رَبَّ العِبَادِ ، إلَيْهِ الوَجْهُ والعَمَلُ (٥)

وهذا القول لا ينافى القول الأول ، فان هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد بها وجه الله — عز وجل — ، من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة . والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وهالكة وزائلة إلا ذاته — تعالى — فانه الأول الآخر الذى هو قبل كل شئٌ وبعد كل شئٌ .

قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا فى كتاب « التفكر والاعتبار » : حدثنا أحمد بن محمد بن أبى بكر ، حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا عمر بن سليم الباهلى ، حدثنا أبو الوليد قال : كان ابن عمر إذا أراد أن يتعاهد قلبه ، يأتى الخربة فيقف على بابها ، فينادى بصوت حزين فيقول : أين أهلك ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول : (كل شئٌ هالك إلا وجهه) .

وقوله : (له الحكم) ، أى : الملك والتصرف ، ولا معقب لحكمه ، (وإليه ترجعون) ، أى : يوم معادكم ، فيجزيكم بأعمالكم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

---

(١) سورة الرحمن ، آية : ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) فى المخطوطة : « قالها شاعر لبيد » . والمثبت عن البخارى . وابن ماجه .

(٣) البخارى ، كتاب مناقب الأنصار ، باب « أيام الجاهلية » : ٥ / ٥٣ . ومسلم ، كتاب الشعر : ٧ / ٤٩ . وابن ماجة كتاب الأدب ، باب « الشعر » ، الحديث ٣٧٥٧ : ٢ / ١٢٣٦ . ومسند الإمام أحمد : ٢ / ٢٤٨ ، ٣٩٣ ، ٤٥٨ ، ٤٧٠ . وانظر شرح ديوان لبيد ، ط بيروت : ٢٥٦ .

(٤) هو من أبيات سيبويه التى لا يعرف قائلها ، انظر الكتاب : ١ / ١٧ . وخزانة الأدب : ١ / ٤٨٦ .

(٥) تفسير الطبرى : ٢٠ / ٨٢ . وموطن الاستشهاد أنه أراد « واستغفر الله من ذنب » وأن فى الآية حذفا كما فى البيت .

تفسير سورة العنكبوت

مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَٰذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤)

أما الكلام على الحروف [المقطعة] فقد تقدم فى أول « سورة البقرة (١) » :

وقوله : (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) استفهام إنكار ، ومعناه أن الله — سبحانه وتعالى — لا بد أن يبتلى عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان ، كما جاء فى الحديث الصحيح : «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فان كان فى دينه صلابة زيد فى البلاء» (٢) وهذه الآية كقوله : (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين (٣)) ، ومثلها فى « سورة براءة (٤) » ، وقال فى البقرة : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا ، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب (٥)) ، ولهذا قال هاهنا : (ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) ، أى : الذين صدقوا فى دعواهم الإيمان ممن هو كاذب فى قوله ودعواه . والله — سبحانه وتعالى — يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون . وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة ، ولهذا يقول ابن عباس وغيره فى مثل : (إلا لنعلم (٦)) ، إلا لنرى ، وذلك أن الرؤية إنما تتعلق بالموجود ، والعلم أعم من الرؤية ، فانه [يتعلق] بالمعدوم والموجود .

وقوله : (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون) ، أى : لا يحسبن الذين لم يدخلوا فى الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان ، فان من ورائهم من العقوبة والنكال ما هو أغلظ من هذا و أطم ، ولهذا قال : (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا) ، أى : يفوتونا ، (ساء ما يحكمون) ، أى : بئس ما يظنون ،

---

(١) انظر : ١/٥٦ — ٦٠ .

(٢) تحفة الأحوذى ، أبواب الزهد ، باب « الصبر على البلاء » ، الحديث ٢٥٠٩ : ٧/٧٨ — ٧٩ ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » ، وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب « الصبر على البلاء » ، الحديث ٤٠٢٣ : ٢/١٣٣٤ . ومسند الإمام أحمد : ١/١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨٠ ، ١٨٥ .

(٣) سورة براءة ، آية : ١٦ .

(٤) كذا ، والآية المتقدمة هى التى فى سورة براءة .

(٥) سورة البقرة ، آية : ٢١٤ .

(٦) سورة البقرة ، آية : ١٤٣ .

مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٰتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

يقول تعالى : (من كان يرجو لقاء الله) أى : فى الدار الآخرة ، وعمل الصالحات رجاء ما عند الله من الثواب الجزيل ، فان الله سيحقق له رجاءه ، ويوفيه عمله كاملا موفوراً ، فان ذلك كائن لا محالة ، لأنه سميع الدعاء ، بصير بكل الكائنات، ولهذا قال : (من كان يرجو لقاء الله ، فان أجل الله لآت وهو السميع العليم) .

وقوله : (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه) ، كقوله : (من عمل صالحا فلنفسه (١)) ، أى : من عمل صالحا فانما يعود نفع عمله على نفسه ، فان الله غنى عن أفعال العباد، ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل منهم، ما زاد ذلك فى ملكه شيئاً ، ولهذا قال : (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، إن الله لغنى عن العالمين) .

قال الحسن البصرى : إن الرجل ليجاهد ، وما ضرب يوما من الدهر بسيف .

ثم أخبر أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم من إحسانه وبره بهم يجازى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء ، وهو أنه يكفر عنهم أسوأ الذى عملوا ، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ، فيقبل القليل من الحسنات ، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ويجزى على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح ، كما قال تعالى : (إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما (٢)) ، وقال هاهنا : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات ، لنكفرن عنهم سيئاتهم ، ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون) .

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾

يقول تعالى آمراً عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده ، فان الوالدين هما سببُ وجود الإنسان ، ولهما عليه غاية الإحسان ، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق ، ولهذا قال تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً (٣)) .

---

(١) سورة الجاثية ، آية : ١٥ .
(٢) سورة النساء ، آية : ٤٠ .
(٣) سورة الإسراء ، آية : ٢٣ ، ٢٤ .

ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليها ، فى مقابلة إحسانها المتقدم ، قال : (وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعها) ، أى : وإن حرَصا عليك أن تتابعها فى دينها إذا كانا مشركين ، فإياك وإياهما ، لا تطعها فى ذلك ، فان مرجعكم إلى يوم القيامة ، فأجزيك بإحسانك إليها وصبرك على دينك ، وأحشرك مع الصالحين لا فى زمرة والديك ، وإن كنت أقرب الناس إليها فى الدنيا ، فان المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب ، أى : حبا دينيا ، ولهذا قال : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين) .

وقال الترمذى عند تفسير هذه الآية : حدثنا محمد بن بشار ومحمد بن المثنى ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن سماك بن حرب قال : سمعت مُصعَب بن سعد ، يحدث عن أبيه سعد ، قال : نزلت فىّ أربع آيات : فذكر قصة(١) ، وقالت أم سعد : أليس قد أمرك الله بالبر ؟ والله لا أطعَمُ طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تكفر ، قال : فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شَجَرُوا (٢) فاها ، فأنزل الله : (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ، وإن جاهداك) ، الآية (٣) .

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد ، ومسلم(٤) ، وأبو داود ، والنسائى أيضا ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾

يقول تعالى مخبراً عن صفات قوم من المكذبين الذين يدعون الإيمان بألسنتهم ، ولم يثبت الإيمان فى قلوبهم ، بأنهم إذا جاءتهم فتنة ومحنة فى الدنيا ، اعتقدوا أن هذا من نقمة الله – تعالى – بهم ، فارتدوا عن الإسلام : ولهذا قال : (ومن الناس من يقول : آمنا بالله ، فاذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله) .

قال ابن عباس : يعنى فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذى فى الله (٥) . وكذا قال غيره من علماء السلف . وهذه الآية كقوله تعالى : (ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين (٦)) .

(١) انظر هذه القصة فى مسلم ، كتاب « فضائل الصحابة » ، باب « فى فضائل سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه » ، ٧/١٢٥ – ١٢٦ .
(٢) أى : فتحوا فاها .
(٣) تحفة الأحوذى تفسير سورة العنكبوت ، الحديث : ٤٢٣٢ : ٩/٤٨ – ٤٩ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ١/١٨١ ، ١٨٥ – ١٨٦ . وقد تقدم تخريج الحديث فى صحيح مسلم . وانظر فيما تقدم ، تفسير الآية الثالثة والأربعين من سورة النساء : ٢/٢٧١ .
(٥) تفسير الطبرى : ٢٠ / ٨٥ .
(٦) سورة الحج ، آية : ١١ .

ثم قال : (ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم) ، أى : ولئن جاء نصر قريب من ربك — يا محمد — وفتح ومغانم ، ليقولن هؤلاء لكم : إنا كنا معكم ، أى إخوانكم فى الدين كما قال تعالى : (الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم ؟ وإن كان للكافرين نصيب قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين)(١) ، وقال تعالى : (فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده ، فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين (٢)) .

وقال تعالى مخبرا عنهم هاهنا : (ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم) ، ثم قال تعالى : (أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين) ، أى : أو ليس الله بأعلم بما فى قلوبهم ، وما تكنه ضمائرهم ، وإن أظهروا لكم الموافقة ؟

وقوله : (وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) ، أى : وليختبرن الله الناس بالضراء والسراء ، ليتميز هؤلاء من هؤلاء ، ومن يطيع الله فى الضراء والسراء ، ومن إنما يطيعه فى حظ نفسه ، كما قال تعالى : (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم(٣)) ، وقال تعالى بعد وقعة أحد ، التى كان فيها ما كان من الاختبار والامتحان : (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب (٤)) الآية .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

يقول تعالى مخبرا عن كفار قريش : أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى : ارجعوا عن دينكم إلى ديننا ، واتبعوا سبيلنا ، (ولنحمل خطاياكم) ، أى : وآثامكم — إن كانت لكم آثام فى ذلك — علينا وفى رقابنا ، كما يقول القائل : « افعل هذا وخطيئتك فى رقبتى » . قال الله تكذيبا لهم : (وما هم بحاملين من خطاياهم من شئ ، إنهم لكاذبون) ، أى : فيما قالوه : إنهم يحملون عن أولئك خطاياهم ، فانه لا يحمل أحد وزر أحد ، (وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شئ ولو كان ذا قربى (٥)) ، وقال تعالى : (ولا يسأل حميم حميما : يبصرونهم (٦)) .

وقوله : (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) ، إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة ، أنهم يوم القيامة يحملون أوزار أنفسهم ، وأوزاراً أخر بسبب من أضلوا من الناس ، من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئا ، كما قال تعالى : (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون (٧)) .

---

(١) سورة النساء ، آية : ١٤١ .
(٢) سورة المائدة ، آية : ٥٢ .
(٣) سورة محمد ، آية : ٣١ .
(٤) سورة آل عمران ، آية : ١٧٩ .
(٥) سورة فاطر ، آية : ١٨ .
(٦) سورة المعارج ، آية : ١٠ ، ١١ .
(٧) سورة النحل ، آية : ٢٥ .

وفي الصحيح : « من دعا إلى هدى ، كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من آثامهم شيئا»(١) : وفي الصحيح : « ما قتلت نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه أول من سنّ القتل(٢) » .

وقوله : (وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون) ، أي : يكذبون ويختلقون ، من البهتان .

وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا حديثا فقال : حدثنا أبي ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة ، حدثنا عثمان بن حفص ابن أبي العالية ، حدثني سليمان بن حبيب المحاربي ، عن أبي أمامة — رضي الله عنه — قال : [إن] رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بلغ ما أرسل به ، ثم قال : إياكم والظلم ، فإن الله يعزم يوم القيامة فيقول: وعزتي لا يجوزني اليوم ظلم ! ثم ينادي مناد فيقول : أين فلان بن فلان ؟ فيأتي يتبعه من الحسنات أمثال الجبال ، فيشخص الناس إليها أبصارهم حتى يقوم بين يدي الله الرحمن — عز وجل — ثم يأمر المنادي فينادي : من كانت له تباعة (٣) — أو : ظُلامة —عند فلان بن فلان ، فهلمّ . فيقبلون حتى يجتمعوا قياما بين يدي الرحمن ، فيقول الرحمن : اقضوا عن عبدي : فيقولون : كيف نقضي عنه ؟ فيقول لهم : خذوا لهم من حسناته . فلا يزالون يأخذون منها حتى لا يبقى له حسنة ، وقد بقي من أصحاب الظلامات ، فيقول : اقضوا عن عبدي : فيقولون : لم يبق له حسنة . فيقول : [خذوا] من سيئاتهم فاحملوها عليه : ثم نزَع (٤) النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الآية الكريمة : (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ، وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون (٥)) .

وهذا الحديث له شاهد في الصحيح من غير هذا الوجه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن أبي الحواري ، حدثنا أبو بشر الحذاء ، عن أبي حمزة الثمالي ، عن معاذ بن جبل — رضي الله عنه — قال : قال لي رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : يا معاذ ، إن المؤمن يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه ، حتى عن كحل عينيه ، وعن فتات الطينة بإصبعيه ، فلا ألفينّك تأتي يوم القيامة وأحد أسعد بما آتاك الله منك .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾

هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد — صلوات الله وسلامه عليه — يخبره عن نوح — عليه السلام — : أنه مكث في قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله ليلا ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فراراً عن الحق،

(١) تقدم الحديث ، عند تفسير الآية الخامسة والعشرين من سورة النحل ، وخرجناه هنالك . انظر : ٤/٤٨٤ .
(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية الثلاثين من سورة المائدة ، وخرجناه هنالك . انظر : ٣/٨٣ .
(٣) التباعة — بكسر التاء — : ما فيه إثم يتبع به : يقال : ما عليه من الله في هذا تبعة ولا تباعة .
(٤) أي : استشهد .
(٥) انظر تفسير الآية الأربعين من سورة النساء : ٢/٢٦٧ ، فقد أخرج ابن أبي حاتم هنالك أثراً آخر عن عبد الله بن مسعود مثل ما هنا .

وإعراضا عنه ، وتكذيبا له ، وما آمن معه منهم إلا قليل ، ولهذا قال : (فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون) ، أى : بعد هذه المدة الطويلة ما نجع فيهم البلاغ والإنذار ، فأنت ـ يا محمد ـ لا تأسف على من كفر بك من قومك ، ولا تحزن عليهم ؛ فإن الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، وبيده الأمر وإليه ترجع الأمور ، (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون : ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم (١)) ، واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك ، ويذل عدوك ويكبتهم ويجعلهم أسفل السافلين .

قال حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن يوسف بن ماهك ، عن ابن عباس قال : بعث نوح وهو لأربعين سنة ، ولبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، وعاش بعد الطوفان ستين عاما ، حتى كثر الناس وفشوا .

وقال قتادة : يقال : إن عمره كله ألف سنة إلا خمسين عاما ، لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلثمائة سنة ، ودعاهم ثلثمائة ولبث بعد الطوفان ثلثمائة وخمسين سنة .

وهذا قول غريب ، وظاهر السياق من الآية أنه مكث فى قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاما .

وقال عون بن أبى شداد : إن الله أرسل نوحا إلى قومه وهو ابن خمسين وثلثمائة سنة ، فدعاهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، ثم عاش بعد ذلك ثلثمائة وخمسين سنة .

وهذا أيضا غريب ، رواه ابن أبى حاتم وابن جرير (٢) : وقول ابن عباس أقرب ، والله أعلم .

وقال الثورى ، عن سلمة بن كهيل ، عن مجاهد قال : قال لى ابن عمر : كم لبث نوح فى قومه ؟ قال قلت : ألف سنة إلا خمسين عاما : قال : فإن الناس لم يزالوا فى نقصان من أعمارهم وأحلامهم وأخلاقهم إلى يومك هذا .

وقوله : (فأنجيناه وأصحاب السفينة) ، أى : الذين آمنوا بنوح عليه السلام : وقد تقدم ذكر ذلك مفصلا فى « سورة هود (٣) » ، وتقدم تفسيره بما أغنى عن إعادته .

وقوله : (وجعلناها آية للعالمين) ، أى : وجعلنا تلك السفينة باقية ، إما عينها كما قال قتادة : إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودى ، أو نوعها جعله للناس تذكرة لنعمه على الخلق ، كيف نجاهم من الطوفان ، كما قال تعالى : (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون . وخلقنا لهم من مثله ما يركبون . وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون : إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين (٤)) ، وقال تعالى : (إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية . لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية (٥)) ، وقال هاهنا : (فأنجيناه وأصحاب السفينة ، وجعلناها آية للعالمين) ، وهذا من باب التدريج من الشخص إلى الجنس ، كقوله تعالى : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين (٦)) ، أى : وجعلنا

---

(١) سورة يونس ، آية : ٩٦ ، ٩٧ .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٠/٨٧ .
(٣) انظر : ٤/٢٥٥ – ٢٦٠ .
(٤) سورة « يس » الآيات : ٤١ – ٤٤ .
(٥) سورة الحاقة ، آية : ١١ ، ١٢ .
(٦) سورة الملك ، آية : ٥ .

لوعها ، فإن التي يرمى بها ليست هي التي زينة للسماء. وقال تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين (١)) ، ولهذا نظائر كثيرة .

وقال ابن جرير : لو قيل : إن الضمير في قوله (وجعلناها) ، عائد إلى العقوبة ، لكان وجها (٢) ، والله أعلم .

وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء : أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، والإخلاص له في التقوى ، وطلب الرزق منه وحده لاشريك له ، وتوحيده في الشكر ، فانه المشكور على النعم ، لامُسْدىَ لها غيره ، فقال لقومه : (اعبدوا الله واتقوه) ، أي : أخلصوا له العبادة والخوف ، (ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) ، أي : إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة ، واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة .

ثم أخبرهم أن الأصنام التي يعبدونها والأوثان،لا تضر ولا تنفع ، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء ،سميتموها آلهة ،وإنما هي مخلوقة مثلكم . هكذا روى العوفي عن ابن عباس . وبه قال مجاهد ، والسدي .

وروى الوالبي ، عن ابن عباس : وتصنعون إفكا ، أي : تنحتونها أصناماً ، وبه قال مجاهد — في رواية — وعكرمة ، والحسن ، وقتادة وغيرهم ، واختاره ابن جرير رحمه الله .

وهي لاتملك لكم رزقاً ، (فابتغوا عند الله الرزق) ، وهذا أبلغ في الحصر ، كقوله : (إياك نعبد وإياك نستعين)(٣) ، (رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة)(٤) ، ولهذا قال : (فابتغوا) ، أي : فاطلبوا (عند الله الرزق) ، أي : لاعند غيره ، فإن غيره لايملك شيئاً ، (واعبدوه واشكروا له) ، أي : كلوا من رزقه واعبدوه وحده،واشكروا له على ما أنعم به عليكم ، (إليه ترجعون) ، أي : يوم القيامة ، فيجازي كل عامل بعمله .

وقوله : (وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم) ، أي : فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل ،(وما على الرسول إلا البلاغ المبين)، يعني إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله — تعالى — به من الرسالة ، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، فاحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء .

وقال قتادة في قوله : (وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم) ، قال : يُعزي نبيه صلى الله عليه وسلم . وهذا من قتادة يقتضي أنه قد انقطع الكلام الأول ، واعتُرض بهذا إلى قوله : (فما كان جواب قومه) . وهكذا نص على ذلك ابن جرير(٥) أيضاً .

---

(١) سورة « المؤمنون » ، آية : ١٢ ، ١٣ .
(٢) تفسير الطبري : ٢٠/٨٨ .
(٣) سورة الفاتحة ، آية : ٥ .
(٤) سورة مريم ، آية : ١١ .
(٥) تفسير الطبري : ٢٠/٨٩ .

والظاهر من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل ــ عليه السلام ــ يحتج عليهم لإثبات المعاد ، لقوله بعد هذا كله : (فما كان جواب قومه) ، والله أعلم .

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن الخليل ــ عليه السلام ــ أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذى ينكرونه ، بما يشاهدونه فى أنفسهم من خلق الله إياهم ، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكورا ، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين ، فالذى بدأ هذا قادر على إعادته ، فإنه سهل عليه ، يسير لديه .

ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما فى الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء : السموات وما فيها من الكواكب النيرة : الثوابت والسيارات ، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال ،وأودية وبرارىّ وقفار ،وأشجار وأنهار ، وثمار وبحار ، كل ذلك دال على حدوثها فى أنفسها ، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار ، الذى يقول للشىء : كن ، فيكون ، ولهذا قال : (أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ، إن ذلك على الله يسير) ، كقوله : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه)(١) .

ثم قال تعالى : (قل : سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشىء النشأة الآخرة) ، أى : يوم القيامة ، (إن الله على كل شىء قدير) . وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق)(٢) ، وكقوله تعالى : (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ـ أم خلقوا السموات والأرض ـ بل لايوقنون)(٣) :

وقوله : (يعذب من يشاء ويرحم من يشاء) ، أى : هو الحاكم المتصرف ، الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، لامعقب لحكمه ، ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ، فله الخلق والأمر ، مهما فعل فعَدْلٌ ؛ لأنه المالك الذى لايظلم مثقال ذرة ، كما جاء فى الحديث الذى رواه أهل السنن : إن الله لوعذب أهل سماواته وأهل أرضه، لعذبهم وهو غير ظالم لهم(٤) . ولهذا قال تعالى : (يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون) ، أى : ترجعون يوم القيامة .

---

(١) سورة الروم ، آية : ٢٧ .
(٢) سورة فصلت ، آية : ٥٣ .
(٣) سورة الطور ، آية : ٣٥ ، ٣٦ .
(٤) سنن أبى داود ، كتاب السنة ، باب « فى القدر » ، الحديث ٤٦٩٩ : ٤/٢٢٥ ، وابن ماجه ، المقدمة ، باب « فى القدر » ، الحديث ٧٦ : ١/٢٩ ، ومسند الإمام أحمد : ٥/١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٩ .

وقوله : (وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء)، أى : لايعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه ، بل هو القاهر فوق عباده ، وكل شيء خائف منه ، فقير إليه ، وهو الغنى عما سواه .

(وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير — والذين كفروا بآيات الله ولقائه) ، أى : جحدوها وكفروا بالمعاد ، (أولئك يئسوا من رحمتى) ، أى : لانصيب لهم فيها ، (وأولئك لهم عذاب أليم) ، أى : موجع فى الدنيا والآخرة .

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم فى كفرهم وعنادهم ومكابرتهم ، ودفعهم الحق بالباطل : أنه ماكان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان (إلا أن قالوا : اقتلوه أوحرقوه) ، وذلك لأنهم قام عليهم البرهان ، وتوجهت عليهم الحجة ، فعدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم ، (فقالوا : ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين)(١) ، وذلك أنهم حشدوا فى جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة ، وحوّطوا حولها ، ثم أضرموا فيها النار فارتفع لها لهب إلى عنان السماء . ولم توقد نار قط أعظم منها ، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه وألقوه فى كفّة المنجنيق ، ثم قذفوا به فيها ، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً ، وخرج منها سالماً بعد ما مكث فيها أياماً ؛ ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً . فإنه بذل نفسه للرحمن ، وجسده للنيران ، وسخا بولده للقربان ، وجعل ماله للضيفان ، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان .

وقوله : (فأنجاه الله من النار) ، أى : سلّمه منها ، بأن جعلها عليه برداً وسلاماً ، (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون وقال : إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودّة بينكم فى الحياة الدنيا) ، يقول لقومه مقرّعاً لهم وموبخاً على سوء صنيعهم ، فى عبادتهم الأوثان : إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها فى الدنيا ، صداقة وألفة منكم ، بعضكم لبعض فى الحياة الدنيا . وهذا على قراءة من نصب (مودة بينكم) ، على أنه مفعول له ، وأما على قراءة الرفع فمعناه : إنما اتخاذكم هذا يحصّل لكم المودة فى الدنيا فقط ، (ثم يوم القيامة) ينعكس هذا الحال ، فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضة وشنآنا ، ف (يكفر بعضكم ببعض) ، أى : تتجاحدون ما كان بينكم ، (ويلعن بعضكم بعضاً)، أى : يلعن الأتباع المتبوعين ، والمتبوعون الأتباع ، (كلما دخلت أمة لعنت أختها (٢)) ، وقال تعالى : (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين(٣)) ، وقال هاهنا : (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضاً ، ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) ، أى : ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار ، وما لكم من ناصر ينصركم ، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله . وهذا حال الكافرين ، فأما المؤمنون فبخلاف ذلك :

---

(١) سورة الصافات ، آية : ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) سورة الأعراف ، آية : ٣٨ .

(٣) سورة الزخرف ، آية : ٦٧ .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي ، حدثنا أبو عاصم الثقفي الربيع بن إسماعيل(١) بن عمرو بن سعيد بن جعدة بن هبيرة المخزومي، عن أبيه ، عن جده، عن أم هانىء – أخت علي بن أبي طالب – قالت : قال لي النبي صلى الله عليه وسلم : أخبرك أن الله – تعالى – يجمع الأولين والآخرين يوم القيامة في صعيد واحد ، فمن يدري أين الطرفان ؟ فقالت : الله ورسوله أعلم . ثم ينادي مناد من تحت العرش : يا أهل التوحيد ، فيشرئبون – قال أبو عاصم : يرفعون رءوسهم – ثم ينادي : يا أهل التوحيد . ثم ينادي الثالثة : يا أهل التوحيد ، إن الله قد عفا عنكم . قال : فيقوم الناس قد تعلق بعضهم ببعض في ظُلامات الدنيا – يعني : المظالم – ثم ينادي : يا أهل التوحيد ، ليعف بعضكم عن بعض ، وعلى الله الثواب .

﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم : أنه آمن له لوط ، يقال : إنه ابن أخي إبراهيم ، يقولون هو : لوط بن هاران بن آزر(٢) . يعني : ولم يؤمن به من قومه سواه ، وسارة امرأة الخليل . لكن يقال : كيف الجمع بين هذه الآية ، وبين الحديث الوارد في الصحيح « أن إبراهيم حين مرّ على ذلك الجبار ، فسأل إبراهيم – عن سارة : ما هي منه ؟ فقال : أختي . ثم جاء إليها فقال لها : إني قد قلت له : « إنك أختي » ، فلا تكذبيني ، فإنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيرك وغيري ، فأنت أختي في الدين . وكأن المراد من هذا – والله أعلم – أنه ليس على وجه الأرض زوجان على الإسلام غيري وغيرك ، فإن لوطاً – عليه السلام – آمن به من قومه ، وهاجر معه إلى بلاد الشام ، ثم أرسل في حياة الخليل إلى أهل « سَدُوم » وإقليمها ، وكان من أمرهم ما تقدم وما سيأتي .

وقوله : (وقال : إني مهاجر إلى ربي) ، يحتمل عود الضمير في قوله (وقال) على لوط ، لأنه أقرب المذكورين ، ويحتمل عوده إلى إبراهيم – قال ابن عباس ، والضحاك : هو المكني(٣) عنه بقوله : (فآمن له لوط) ، أي : من قومه . ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم ، ابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك ، ولهذا قال : (إنه هو العزيز) أي : له العزة ولرسوله وللمؤمنين به ، (الحكيم) في أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية .

وقال قتادة : هاجرا جميعاً من « كوثى » ، وهي من سواد الكوفة إلى الشام . قال : وذُكِر لنا أن نبيّ الله – صلى الله عليه وسلم – قال : إنها ستكون هجرة بعد هجرة ، ينحاز أهل الأرض إلى مُهَاجَر إبراهيم ، ويبقى في الأرض شرار أهلها ، حتى تلفظهم أرضهم وتَقْذَرُهم(٤) روح الله ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير ، تبيت معهم إذا باتوا ، وتَقِيل معهم إذا قالوا ، وتأكل ما سقط منهم .

(١) في المخطوطة : « الربيع بن سليمان » . وهو خطأ . انظر ترجمته في الجرح لابن أبي حاتم : ١/٢/٤٥٥ .
(٢) انظر ترجمة أنساب العرب لابن حزم : ٩، ٥٠٤ ، ٥١٠ . وانظر أيضا فيما تقدم : ٦/١٦٧ .
(٣) انظر تفسير الطبري : ٢٠/٩٢ .
(٤) أي : يكره خروجهم إلى الشام ومقامهم بها ، فلا يوفقهم لذلك ، كقوله تعالى : (كره الله انبعاثهم فثبطهم) . يقال : قذرت الشيء – بكسر الذال – أقذره – بفتحها – : إذا كرهته واجتنبته .

وقد أسند الإمام أحمد هذا الحديث ، فرواه مطولا من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال :

حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن قتادة ، عن شَهْر بن حَوْشَب قال : لما جاءتنا بيعة يزيد بن معاوية ، قدمت الشام فأخبرت بمقام يقومه نوف البكالى ، فجئته إذ جاء رجل ، فانتبذ الناس(١) وعليه خميصة(٢) ، وإذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص . فلما رآه نوف أمسك عن الحديث ، فقال عبد الله : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنها ستكون هجرة بعد هجرة ، فينحاز الناس إلى مُهَاجَر إبراهيم ، لا يبقى فى الأرض إلا شرار أهلها ، فتلفظهم أرضوهم ، تقذّرهم نفسُ الرحمن ، تحشرهم النار مع القردة والخنازير ، فتبيت معهم إذا باتوا ، وتقيل معهم إذا قالوا ، وتأكل منهم من تخلف . قال : وسمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : سيخرج أناس من أمتى من قبل المشرق ، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم (٣) ، كلما خرج منهم قرن قُطع(٤) ، كلما خرج منهم قرن قطع : حتى عدّها زيادة على عشرين(٥) مرة — كلما خرج منهم قرن قطع ، حتى يخرج الدجال فى بقيتهم(٦) .

ورواه أحمد عن أبى داود ، وعبد الصمد ، كلاهما عن هشام الدستوائى ، عن قتادة ، به(٧) .

وقد رواه أبو داود فى سننه ، فقال فى كتاب الجهاد ، باب ما جاء فى سكنى الشام .

حدثنا عبيد الله بن عمر ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنى [أبى] (٨) ، عن قتادة ، عن شهر بن حوشب ، عن عبد الله ابن عمرو قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ستكون هجرة بعد هجرة ، فخيار أهل الأرض ألزمهم مُهاجَر إبراهيم ، ويبقى فى الأرض شرار أهلها تلفظهم أرضهم وتقذّرهم نفس الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير(٩) .

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا يزيد ، أخبرنا أبو جنَاب يحيى بن أبى حيَّة ، عن شهر بن حوشب قال : سمعتُ عبد الله بن عُمَر يقول : لقد رأيتُنا وما صاحب الدينار والدرهم بأحق من أخيه المسلم ، ثم لقد رأيتُنا بآخرة الآن والدينار والدرهم أحب إلى أحدنا من أخيه المسلم ، ولقد سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : لئن أنتم اتبعتم أذناب البقر ، وتبايعتم بالعينة(١٠) ، وتركتم الجهاد فى سبيل الله ، ليلزمنكم الله مذلّة فى أعناقكم ثم لا تنزع (١١) منكم حتى ترجعوا

(١) فى المسند : « فاشتد الناس » . ويبدو أن الصواب ما فى تفسير ابن كثير . يريد أن عبد الله بن عمرو قد تنحى جانبا ؛ فى اللسان : « انتبذ فلان » : ذهب ناحية ، « وانتبذ عن قومه » : تنحى .

(٢) الخميصة : كساء أسود مربع .

(٣) التراقى : جمع ترقوة ، وهى العظم الذى بين ثغرة النحر والعاتق ، وهما ترقوتان . والمعنى أن قراءتهم لا يرفعها الله ولا يقبلها ، فكأنها لم تتجاوز حلوقهم .

(٤) أى : لا يأتى قرن آخر على شاكلته .

(٥) فى المسند : « زيادة على عشرة مرات » .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٢/١٩٨ — ١٩٩ .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٢/٢٠٩ .

(٨) ما بين القوسين من سنن أبى داود .

(٩) سنن أبى داود ، كتاب الجهاد ، باب « فى سكنى الشام » ، الحديث ٢٤٨٢ : ٣/٤ .

(١٠) العينة — بكسر العين — أن يبيع من الرجل سلعة — بثمن معلوم إلى أجل مسمى، ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذى باعها به .

(١١) فى المخطوطة : « فى أعناقكم ترجع منكم » . والمثبت من المسند .

إلى ما كنتم عليه ، وتتوبوا إلى الله عز وجل . وسمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : لتكونن هجرة بعد هجرة إلى مُهاجَر أبيكم إبراهيم ، حتى لا يبقى فى الأرضين إلا شرار أهلها وتلفظهم أرضوهم ، وتقذرُهم روح الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير ، تقيل حيث يقيلون (١) ، وتبيت حيث يبيتون ، وما سقط منهم فلها . ولقد سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : يخرج من أمتى قوم يسيئون الأعمال ، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم — قال يزيد : لا أعلمه إلا قال — : يحقر أحدكم علمه مع علمهم، يقتلون أهل الإسلام ، فإذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ، فطوبى لمن قتلهم وطوبى لمن قتلوه . كلما طلع منهم قرن قطَعه الله . فردّد ذلك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عشرين مرة ، أو أكثر ، وأنا أسمع (٢) .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقى: أخبرنا أبو الحُسَيْن بن الفضل ، أخبرنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا يعقوب بن سفيان ، حدثنا أبو النضر إسحاق بن يزيد وهشام بن عمار الدمشقيان قالا : حدثنا يحيى بن حمزة ، حدثنا الأوزاعى ، عن نافع — وقال أبو النضر ، عمن حدثه ، عن نافع — عن عبد الله بن عمر : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : سيهاجر أهل الأرض هجرة بعد هجرة ، إلى مهاجَر إبراهيم ، حتى لا يبقى إلا شرار أهلها ، تلفظهم الأرضون وتقذرهم روح الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا ، لها ما سقط منهم .

غريب من حديث نافع . والظاهر أن الأوزاعى قد رواه عن شيخ له من الضعفاء ، والله أعلم . وروايته من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أقرب إلى الحفظ .

وقوله : (ووهبنا له إسحاق ويعقوب) ، كقوله تعالى : (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله ، وهبنا له إسحاق ويعقوب، وكلا جعلنا نبيا(٣)) ، أى : إنه لما فارق قومه أقرّ الله عينه بوجود ولد صالح نبى [وولُد له ولَد صالح نبى] فى حياة جده . وكذلك قال الله : (ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة(٤)) ، أى : زيادة ، كما قال : (فبشرناها بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب) ، أى : ويولد لهذا الولد ولد فى حياتكما ، تقر به أعينكما . وكون يعقوب وُلد لإسحاق نص عليه القرآن ، وثبتت به السنة النبوية ، قال الله : (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحداً ونحن له مسلمون (٥)) ، وفى الصحيحين(٦) « إن الكريم ابنَ الكريم ابنِ الكريم ابنِ الكريم يوسفُ بنُ يعقوبَ بن إسحاقَ بن إبراهيم » .

فأما ما رواه العوفى عن ابن عباس فى قوله : (ووهبنا له إسحاق ويعقوب) ، قال : « هما ولدا إبراهيم(٧) » . فمعناه أن ولد الولد بمنزلة الولد ، فان هذا أمر لا يكاد يخفى على من هو دون ابن عباس .

(١) فى المخطوطة : « حيث قالوا » . والمثبت من المسند .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٢/٨٤ .
(٣) سورة مريم ، آية : ٤٩ .
(٤) سورة الأنبياء ، آية : ٧٢ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ١٣٣ .
(٦) كذا ، وقد تقدم الحديث فى تفسير الآية الرابعة من سورة يوسف ، وقد أخرجه ابن كثير عن الإمام أحمد ، وقال : « انفرد بإخراجه البخارى » . انظر : ٤/٢٩٧ — ٢٩٨ .
(٧) تفسير الطبرى : ج٢/٩٢ .

وقوله : (وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب) ، هذه خلعة سنية عظيمة ، مع اتخاذ الله إياه خليلا ، وجعله للناس إماماً ، أن جعل في ذريته النبوة والكتاب ، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم – عليه السلام – إلا وهو من سلالته ، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سُلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم ، فقام في ملئهم مبشراً بالنبي العربي القرشي الهاشمي ، خاتم الرسل على الإطلاق ، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة ، الذي اصطفاه الله من صميم العرب العَرْباء ، من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهم السلام ، ولم يوجد [نبي] من سلالة إسماعيل سواه ، عليه أفضل الصلاة والسلام .

وقوله : (وآتيناه أجره في الدنيا ، وإنه في الآخرة لمن الصالحين) ، أي : جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة ، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهنى والمنزل الرحب ، والمورد العذب ، والزوجة الحسنة الصالحة ، والثناء الجميل ، والذكر الحسن ، فكل أحد يحبه ويتولاه ، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم ، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه ، كما قال تعالى : (وإبراهيم الذي وفى (١)) ، أي : قام بجميع ما أمر به وكمل طاعة ربه ، ولهذا قال تعالى : (وآتيناه أجره في الدنيا ، وإنه في الآخرة لمن الصالحين) ، كما قال تعالى : (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين . شاكراً لأنعمه ، اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم . وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين)(٢) .

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط – عليه السلام – أنه أنكر على قومه سُوء صنيعهم ، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال ، في إتيانهم الذكران من العالمين ، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم ، وكانوا مع هذا يكفرون بالله ، ويكذبون رسوله ويخالفون ويقطعون السبيل ، أي : يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم ، (وتأتون في ناديكم المنكر) أي : يفعلون مالا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها ، لاينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك ، فمن قائل : كانوا يأتون بعضهم بعضاً في الملأ ، قاله مجاهد(٣) . ومن قائل : كانوا يتضارطون ويتضاحكون ؛ قالته عائشة – رضي الله عنها – والقاسم . ومن قائل : كانوا يناطحون بين الكباش ، ويناقرون بين الديوك ، وكل ذلك كان يصدر عنهم ، وكانوا شراً من ذلك .

---

(١) سورة النجم ، آية : ٣٧ .
(٢) سورة النحل ، آية : ١٢٠ – ١٢٢ .
(٣) تفسير الطبري : ٢٠/٩٤ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حماد بن أسامة ، أخبرني حاتم بن أبي صغيرة ، حدثنا سماك بن حرب ، عن أبي صالح ــ مولى أم هانىء ــ عن أم هانىء قالت : سألت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن قوله عز وجل :(وتأتون في ناديكم المنكر) ، قال : يحذفون أهل الطريق ، ويسخرون منهم ، وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه(١) .

ورواه الترمذي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم من حديث أبي أسامة حماد بن أسامة عن أبي يونس القُشَيْرِي : حاتم ابن أبي صَغيرة ، به . ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن لانعرفه إلا من حديث حاتم بن أبي صغيرة ، عن سماك(٢) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا محمد بن كثير ، عن عمرو بن قيس ، عن الحكم، عن مجاهد : (وتأتون في ناديكم المنكر) ، قال : الصفير ، ولعب الحمام والجُلاهق(٣)، والسؤال في المجلس ، وحل أزرار القباء .

وقوله : (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) ، وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم . ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال : (رب ، انصرني على القوم المفسدين) .

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَٰهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوٓا إِنَّا مُهْلِكُوٓا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا امْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ الْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

لما استنصر لوط ــ عليه السلام ــ الله عليهم ، بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على إبراهيم ــ عليه السلام ــ في هيئة أضياف ، فجاءهم بما ينبغي للضيف ، فلما رأى أنه لاهِمَّة لهم إلى الطعام نكرَهم وأوجس منهم خيفة ، فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة ــ وكانت حاضرة ــ فتعجبت من ذلك ، كما تقدم بيانه في سورة «هود» و«الحجر»(٤) . فلما جاءت إبراهيم بالبشرى ، وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط ، أخذ يدافع لعلهم يُنظَرون، لعل الله أن يهديهم ، ولما قالوا : إنا مهلكو أهل هذه القرية ، (قال : إن فيها لوطاً ، قالوا : نحن أعلم بمن فيها ، لننجيه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين)،أي:من الهالكين ، لأنها كانت تُمالئهم على كفرهم وبغيهم ودبرهم(٥) . ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شباب حسان ، فلما رآهم كذلك (سيء بهم وضاق بهم ذرعاً) ، أي : اهتم بأمرهم ، إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه ، وإن لم يضفهم خشي عليهم منهم ، ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة . (قالوا :

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٦/٣٤١ .

(٢) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة العنكبوت ، الحديث ٣٢٤٣ : ٩/٤٩ ــ ٥٠ .

(٣) في المعرب للجواليقي ١٤٤ : « الجلاهق ــ بضم الجيم ، وتخفيف اللام ــ : الذي يرمى به الصبيان ، وهو الطين المدور » .

(٤) انظر : ٤/٢٦٤ ــ ٢٦٦ ، ٤٥٨ ــ ٤٥٩ .

(٥) كذا ، ولعله يعني أنها كانت راضية عما يأتون من الفاحشة فيما بينهم .

لاتخف ولاتحزن ، إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين . إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون) ، وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها إلى عنان السماء ، ثم قلبها عليهم . وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ، وجعل مكانها بحيرة خبيثة منتنة ، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد ، ولهذا قال تعالى : (ولقد تركنا منها آية بينة) ، أي : واضحة ، (لقوم يعقلون) ، كما قال : (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون) (١) .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب — عليه السلام — : أنه أنذر قومه أهلَ مدين ، فأمرهم بعبادة الله وحده لاشريك له ، وأن يخافوا بأس الله ونقمته وسطوته يوم القيامة ، فقال : (ياقوم ، اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر) .

قال ابن جرير : قال بعضهم : «معناه واخشوا اليوم الآخر(٢) وهذا كقوله تعالى: (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر)(٣)

ثم نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد ، وهو السعي فيها والبغي على أهلها ، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان ، ويقطعون الطريق على الناس ، هذا مع كفرهم بالله ورسوله ، فأهلكهم الله برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم ، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها ، وعذاب يوم الظلة الذى أزهق الأرواح من مستقرها ، إنه كان عذاب يوم عظيم . وقد تقدمت قصتهم مبسوطة في « سورة الأعراف ، وهود(٤) ، والشعراء » .

وقوله : (فأصبحوا في دارهم جاثمين) ، قال قتادة : ميتين(٥) . وقال غيره : قد ألقي بعضهم على بعض .

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل كيف أبادهم وتنوع في عذابهم ، فأخذهم بالانتقام منهم ، فعاد قوم هود ، وكانوا يسكنون الأحقاف وهي قريبة من حضرموت بلاد اليمن ، وثمود قوم صالح وكانوا يسكنون الحجر قريباً من وادى

---

(١) سورة الصافات ، آية : ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٢) تفسير الطبري : ٩٦/٢٠ .

(٣) سورة الممتحنة ، آية : ٦ .

(٤) انظر : ٤٤٣/٣ — ٤٤٩ ، ٤/ ٢٧٢ — ٢٧٧ ، ٦/ ١٦٨ — ١٧١ .

(٥) تفسير الطبري : ٩٦/٢٠ .

القرى ؛ وكانت العرب تعرف مساكنهما جيداً ، وتمر عليها كثيراً ؛ وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة ؛ وفرعون ملك مصر فى زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله ورسوله ، (فكلا أخذنا بذنبه) ، أى ؛ كانت عقوبته بما يناسبه ، (فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) ، وهم عاد ، وذلك أنهم قالوا ؛ من أشد منا قوة ؟ فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد ، عاتية شديدة الهبوب جداً ، تحمل عليهم حصباء الأرض فتقلبها عليهم ، وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل منهم إلى عنان السماء ، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه ، فيبقى بدناً بلا رأس كأنهم أعجاز نخل منقعر . (ومنهم من أخذته الصيحة) ، وهم ثمود ، قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة ، من تلك الناقة التى انفلقت عنها الصخرة ، مثل ما سألوا سواء بسواء ، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم ، وتهددوا نبى الله صالحاً ومن آمن معه ، وتوعدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم ، فجاءتهم صيحة أخمدت الأصوات منهم والحركات ؛ (ومنهم من خسفنا به الأرض) ، وهو قارون الذى طغى وبغى وعتا ، وعصى الرب الأعلى ، ومشى فى الأرض مرحاً ، وفرح ومرح وتاه بنفسه ، واعتقد أنه أفضل من غيره ، واختال فى مشيته ، فخسف الله به وبداره الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة . (ومنهم من أغرقنا) ، وهم فرعون ووزيره هامان ، وجنوده عن آخرهم ، أغرقوا فى صبيحة واحدة ، فلم ينج منهم مخبر(١) ، (وما كان الله ليظلمهم)، أى ؛ فيما فعل بهم ، (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) ، أى ؛ إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقا بما كسبت أيديهم .

وهذا الذى ذكرناه ظاهر سياق الآية، وهو من باب اللف والنشر(٢) ، وهو أنه ذكر الأمم المكذبة ، ثم قال ؛ (فكلا أخذنا بذنبه) ، أى ؛ من هؤلاء المذكورين ، وإنما نبهت على هذا لأنه قد روى أن ابن جريج قال ؛ قال ابن عباس فى قوله ؛ (فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً) ، قال ؛ قوم لوط ؛ (ومنهم من أغرقنا) ، قال ؛ قوم نوح(٣) ؛

وهذا منقطع عن ابن عباس ؛ فإن ابن جريج لم يدركه ؛ ثم قد ذكر الله فى هذه السورة إهلاك قوم نوح بالطوفان ، وقوم لوط بإنزال الرجز من السماء ، وطال السياقُ والفصلُ بين ذلك وبين هذا السياق ؛ ؛

وقال قتادة ؛ (فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) ، قال ؛ قوم لوط ، (ومنهم من أخذته الصيحة) ، قوم شعيب ؛ وهذا بعيد أيضاً لما تقدم ، والله أعلم ؛

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين فى اتخاذهم آلهة من دون الله ، يرجون نصرهم ورزقهم ، ويتمسكون بهم فى الشدائد ، فهم فى ذلك كبيت العنكبوت فى ضعفه ووهنه فليس فى أيدى هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت

---

(١) أى ؛ فلم ينج منهم إنسان .

(٢) تقدم تفسير هذا المصطلح البديعى عند الآية الثالثة والسبعين من سورة القصص .

(٣) تفسير الطبرى ؛ ج ٢٠/ ٩٦ ، ٩٧ .

فإنه لايجدى عنه شيئاً ، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء ؛ وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله ، وهو مع ذلك يحسن العمل فى اتباع الشرع فانه مستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، لقوتها وثباتها .

ثم قال تعالى متوعداً لمن عبد غيره وأشرك به : إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ، ويعلم ما يشركون به من الأنداد ، وسيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم .

ثم قال تعالى : (وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلى العالمون) ، أى : وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون فى العلم المتضلعون منه .

قال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنى ابن لهيعة ، عن أبى قَبِيل ، عن عمرو بن العاص — رضى الله عنه — قال : عَقَلْتُ عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ألف (١) مثل .

وهذه منقبة عظيمة لعمرو بن العاص — رضى الله عنه — حيث يقول تعالى : (وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، حدثنا أبى ، حدثنا ابن سنان ، عن عمرو ابن مُرّة قال : مامررت بآية من كتاب الله لاأعرفها إلا أحزننى ، لأنى سمعت الله تعالى يقول : (وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون) .

خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة : أنه خلق السموات والأرض بالحق ، يعنى : لا على وجه العبث واللعب ، (لتجزى كل نفس بما تسعى(٢)) ، (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى(٣)) .

وقوله : (إن فى ذلك لآية للمؤمنين) ، أى : لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية .

ثم قال تعالى آمرا رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن ، وهو قراءته وإبلاغه للناس ، (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر) ، يعنى : أن الصلاة تشتمل على شيئين : على ترك الفواحش والمنكرات (٤)، أى : إن مواظبتها تحمل على ترك ذلك . وقد جاء فى الحديث من رواية عِمْران ، وابن عباس مرفوعاً : «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، لم تزده من الله إلا بعدا» .

---

(١) مسند الأمام أحمد : ٤/٢٠٣ .
(٢) سورة طه ، آية : ١٥ .
(٣) سورة النجم ، آية : ٣١ .
(٤) هذا أحد الأمرين ، وسيأتى الأمر الثانى بعد ذكر الآثار الواردة فى الأمر الأول .

[ذكر الآثار الواردة فى ذلك]

قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن هارون المخرمى الفلاس ، حدثنا عبد الرحمن بن نافع أبوزياد ، حدثنا عمر بن أبي عثمان ، حدثنا الحسن ، عن عمران بن حُصين قال : سُئِل النبي صلى الله عليه وسلم عن قول الله : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) ، قال : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، فلا صلاة له » .

وحدثنا على بن الحسين ، حدثنا يحيى بن أبي طلحة اليربوعى ، حدثنا أبو معاوية ، عن ليث ، عن طاوس ، عن ابن عباس، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، لم يزدد بها من الله إلا بعدا .

ورواه الطبرانى من حديث أبي معاوية .

وقال ابن جرير : [حدثنا القاسم] حدثنا الحسين ، حدثنا خالد بن عبد الله ، عن العلاء بن المسيب ، عمن ذكره ، عن ابن عباس فى قوله : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) ، قال : فمن لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر، لم يزدد بصلاته من الله إلا بعدا . فهذا موقوف(١) .

قال ابن جرير : وحدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا على بن هاشم بن البريد ، عن جويبر ، عن الضحاك ، عن ابن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لاصلاة لمن لم يطع الصلاة . وطاعة الصلاة أن تنهى عن الفحشاء والمنكر» قال : وقال سفيان : (قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك) ؟ قال : فقال سفيان : أى والله، تأمره وتنهاه(١) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبوسعيد الأشج ، حدثنا أبوخالد ، عن جويبر ، عن الضحاك عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — وقال أبو خالد مرّة : عن عبد الله — : لاصلاة لمن لم يطع الصلاة ، وطاعة الصلاة تنهاه عن الفحشاء والمنكر .

والموقوف أصح ، كما رواه الأعمش ، عن مالك بن الحارث ، عن عبد الرحمن بن يزيد قال : قيل لعبد الله : إن فلانا ليطيل الصلاة ؟ قال : إن الصلاة لاتنفع إلا من أطاعها .

وقال ابن جرير : [قال (٢)] على حدثنا إسماعيل بن مسلم، عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى صلاة لم تنهه عن الفحشاء والمنكر ، لم يزدد بها من الله إلا بعداً (٣) .

والأصح فى هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والأعمش ، وغيرهم ، والله أعلم .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا جَرير — يعنى ابن عبد الحميد — عن الأعمش ، عن أبي صالح قال : أراه عن جابر — شك الأعمش — قال : قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : إن فلانا يصلى فإذا أصبح سرق ، قال : سينهاه ما يقول .

---

(١) تفسير الطبرى : ٩٩/٢٠ .

(٢) فى المخطوطة : « وقال ابن جرير: حدثنا على بن إسماعيل بن مسلم » وهو خطأ . والمثبت من تفسير الطبرى ٩٩/٢٠ . وعلى هذا هو ابن هاشم بن البريد . الذى ورد فى مسند ابن جرير المتقدم .

(٣) تفسير الطبرى : ٩٩/٢٠ .

وحدثنا محمد بن موسى الحَرَشيّ ، حدثنا زياد بن عبد الله ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن جابر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه — ولم يشك — ثم قال : وهذا الحديث قد رواه غير واحد عن الأعمش ، واختلفوا في إسناده ، فرواه غير واحد عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هُرَيرة أو غيره ، وقال قيس ، عن الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر ، وقال جرير وزياد : عن عبد الله ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن جابر .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا الأعمش قال : أبو صالح أخبرنا(١) ، عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن فلانا يصلي بالليل فإذا أصبح سرق ؟ فقال : إنه سينهاه ما يقول (٢) .

وتشتمل الصلاة أيضاً على ذكر الله تعالى ، وهو المطلوب الأكبر ، ولهذا قال تعالى : (ولذكر الله أكبر) ، أي : أعظم من الأول ، (والله يعلم ما تصنعون) ، أي : يعلم جميع أقوالكم وأعمالكم .

وقال أبو العالية في قوله : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) ، قال : إن الصلاة فيها ثلاث خصال ، فكلّ صلاة لا يكون فيها شئٌ من هذه الخلال فليست بصلاة الإخلاص ، والخشية ، وذكر الله ، فالإخلاص يأمره بالمعروف ، والخشية تنهاه عن المنكر ، وذكر القرآن يأمره وينهاه .

وقال ابن عون الأنصاري : إذا كنت في صلاة فأنت في معروف ، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر ، والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر .

وقال حماد بن أبي سليمان : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) ، يعني : ما دمت فيها .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : (ولذكر الله أكبر) ، يقول : ولذكر الله لعباده أكبر إذا ذكروه من ذكرهم إياه (٣) .

وكذا روَى غير واحد عن ابن عباس .

وبه قال مجاهد ، وغيره .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد الأحمر ، عن داود بن أبي هند ، عن رجل ، عن ابن عباس : (ولذكر الله أكبر) ، قال : ذكر الله عند طعامك وعند منامك . قلت : فإن صاحبا لي في المنزل يقول غير الذي تقول ؟ قال : وأيّ شئٍ يقول ؟ قلت : قال : يقول الله : (فاذكروني أذكركم) ، فلذكر الله إيانا أكبر من ذكرنا إياه . قال : صدق .

قال : وحدثنا أبي ، حدثنا النفيلي ، حدثنا إسماعيل ، عن خالد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس في قوله : (ولذكر الله أكبر) ، قال : لها وجهان ، قال : ذكر الله عند ما حرمه ، قال : وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه .

---

(١) في المخطوطة : « قال : أرى أبا صالح » . وفي المسند : « قال : أنا أبو صالح » . وكان في المخطوطة « أبو صالح » ، ولكن الناسخ أحال « أبو » إلى « أبا » .
(٢) مسند الامام أحمد : ٢ / ٤٤٧ .
(٣) تفسير الطبري : ٢٠/١٠٠ .

وقال ابن جرير : حدثني يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا هشيم ، أخبرنا عطاء بن السائب ، عن عبد الله بن ربيعة قال : قال لى ابن عباس : هل تدرى ما قوله تعالى : (ولذكر الله أكبر) ؟ قال : قلت : نعم . قال : فما هو ؟ قلت : التسبيح والتحميد والتكبير فى الصلاة ، وقراءة القرآن ، ونحو ذلك . قال : لقد قلت قولا عجباً ، وما هو كذلك ، ولكنه إنما يقول : ذكر الله إياكم عند ما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه ، أكبر من ذكركم إياه (١) .

وقد رُوى هذا من غير وجه عن ابن عباس . وروى أيضا عن ابن مسعود ، وأبى الدرداء ، وسلمان الفارسى ، وغيرهم . واختاره ابن جرير .

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (٤٦)

قال قتادة وغير واحد : هذه الآية منسوخة بآية السيف ، ولم يبق معهم مجادلة ، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف .

وقال آخرون : بل هى باقية أو محكمة لمن أراد الاستبصار منهم فى الدين ، فيجادل بالتى هى أحسن ، ليكون أنجع فيه كما قال تعالى : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين (٢)) ، وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون : (فقولا له قولا لينا ، لعله يتذكر أو يخشى (٣)) . وهذا القول اختاره ابن جرير (٤) ، وحكاه عن ابن زيد .

وقوله : (إلا الذين ظلموا منهم) ، أى : حادوا عن وجه الحق ، وعَمُوا عن واضح المحجة ، وعاندوا وكابروا ، فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد ، ويقاتلون بما يردعهم ويمنعهم ، قال الله تعالى : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز (٥)) .

قال جابر : أمرنا من خالف كتاب الله أن نضربه بالسيف .

قال مجاهد : (إلا الذين ظلموا منهم) ، يعنى : أهل الحرب ، ومن امتنع منهم عن أداء الجزية .

وقوله : (وقولوا : آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم) ، يعنى : إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه ، فهذا لا نُقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقاً، ولا على تصديقه ، فلعله أن يكون باطلا ، ولكن نؤمن به إيمانا مجملا معلقا على شرط ، وهو أن يكون منزلا ، لا مبدلا ولا مؤولا .

---

(١) تفسير الطبرى : ٩٩/٢٠ .
(٢) سورة النحل ، آية : ١٢٥ .
(٣) سورة طه ، آية : ٤٤ .
(٤) انظر تفسير الطبرى : ٢/٢١ ، ٣ .
(٥) سورة الحديد ، آية : ٢٥ .

قال البخارى رحمه الله : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا عثمان بن عُمَر ، أخبرنا على بن المبارك ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : كان أهل الكتاب (١) يقرءون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا : وما أنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون (٢) : وهذا الحديث تفرد به البخارى .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عثمان بن عُمَر ، أخبرنا يونس ، عن الزهرى ، أخبرنى ابن أبى نملة : أن أبا نَمْلَةَ الأنصارى أخبره ، أنه بينما هو جالس عند رسول الله — صلى الله عليه وسلم — جاءه رجل من اليهود ، فقال : يا محمد ، هل تتكلم هذه الجنازة (٣) ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أعلم : قال اليهودى : أنا أشهد أنها تتكلم . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله ورسله وكتبه ، فإن كان حقاً لم تكذبوهم ، وإن كان باطلا لم تصدقوهم (٤) :

قلت : وأبو نَمْلَةَ هذا هو : عُمَارة ، وقيل : عَمَّار ؛ وقيل : عمرو بن معاذ بن زُرَارة الأنصارى ، رضى الله عنه .

ثم ليعلم أن أكثر ما يُحدِّثون به غالبُه كذبٌ وبهتان ، لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل ، وما أقل الصدق فيه ، ثم ما أقل فائدة كثير منه لو كان صحيحا .

قال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا أبو عاصم ، حدثنا سفيان ، عن سليمان بن عامر ، عن عمارة بن عمير ، عن حريث بن ظهير ، عن عبد الله — هو ابن مسعود — قال : لا تسألوا أهل الكتاب عن شئٌ ، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل ، فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفى قلبه تالية(٥) تدعوه إلى دينه كتالية المال (٦).

وقال البخارى : حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، أخبرنا ابن شهاب ، عن عُبَيْد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس قال : كيف تسألون أهل الكتاب عن شئٌ وكتابكم الذى أنزل إليكم على رسوله — صلى الله عليه وسلم — أحدثُ، تقرءونه محضا لم يُشَب ، وقد حدّثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله، وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا : هو من عند الله ؛ ليشتروا به ثمناً قليلا ؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذى أنزل عليكم (٧) .

---

(١) فى المخطوطة : وكان أهل التوراة . والمثبت من البخارى .

(٢) البخارى ، تفسير سورة البقرة : ٦/ ٢٥ . وكتاب الاعتصام . باب « قول النبى صلى الله عليه وسلم — « لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء » . ٩/ ١٣٦ . وكتاب التوحيد ، باب « ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب الله بالعربية ، وغيرها » ٩/ ١٩٣ ، وقد ساق الحديث ابن كثير فى تفسير الآية ١٣٦ من سورة البقرة . انظر : ١/ ٢٧١ .

(٣) فى أسد الغابة ٥/ ٣١٤ ط الوهبية : « هل تتكلم هذه الجنازة ؟ لجنازة مرت بهم » . وقد رواه ابن الأثير بإسناده من ابن أبى عاصم .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٤/ ١٣٦ .

(٥) فى المخطوطة : « مالية » . كمالية المال » . والمثبت من تفسير الطبرى ، والمطبوعات السابقة من تفسير ابن كثير ، والذى فى لسان العرب : « وتليت له تلية — بزنة فعيلة — أى بقيت له بقية » .

(٦) تفسير الطبرى : ٢١/ ٤ .

(٧) البخارى ، كتاب الاعتصام ، باب « قول النبى — صلى الله عليه وسلم — : لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء » ٩/ ١٣٦ .

وقال البخارى : وقال أبو اليمان : أخبرنا شعيب ، عن الزهرى ، أخبرنى حُمَيد بن عبد الرحمن : أنه سمع معاوية يحدث رهطا من قريش بالمدينة ــ وذكر كعبَ الأحبار ــ فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدّثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب (١) .

قلت : معناه أنه يقع منه الكذب لغة من غير قصد ، لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن ، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة ، لأنهم لم يكن فى ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة ، ومع ذلك وقرب العهد وضعت أحاديث كثيرة فى هذه الأمة ، لا يعلمها إلا الله ومن منحه الله علما بذلك ، كل بحسبه ، ولله الحمد والمنة .

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾

قال ابن جرير : يقول الله تعالى : كما أنزلنا الكتُب على من قبلك ــ يا محمد ــ من الرسل ، كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب (٢) .

وهذا الذى قاله حسن ، ومناسبة وارتباط جيد .

وقوله : (فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) ، أى : الذين أخذوه فتلوْه حق تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء ، كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسى ، وأشباههما .

وقوله : (ومن هؤلاء من يؤمن به) ، يعنى : العرب من قريش وغيرهم ، (وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون) ، أى : ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحقّ بالباطل ، ويغطى ضوء الشمس بالوصائل ، وهيهات .

ثم قال تعالى : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) ، أى : قد لبثت فى قومك ــ يا محمد ــ ومن قبل أن تأتى بهذا القرآن عُمراً لا تقرأ كتابا ولا تحسن الكتابة ، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمى لا تقرأ ولا تكتب . وهكذا صفته فى الكتب المتقدمة ، كما قال تعالى : (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر (٣)) .. الآية . وهكذا كان ــ صلوات الله وسلامه عليه ، إلى يوم القيامة ــ لا يحسن الكتابة ولا يخط سطراً ولا حرفاً بيده ، بل كان له كتاب يكتبون بين يديه الوحى والرسائل إلى الأقاليم . ومن زعم من متأخرى الفقهاء ، كالقاضى أبى الوليد الباجى (٤) ومن تابعه ، أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية : « هذا ما قاضى

---

(١) البخارى ، فى الكتاب والباب المتقدمين : ٩/ ١٣٩ .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٠/ ٤ .

(٣) سورة الأعراف ، آية : ١٥٧ .

(٤) هو ابو الوليد سليمان بن خلف التجيبى القرطبى . روى عن يونس بن عبد الله بن مغيث ، ومكى بن أبى طالب . برع فى الحديث والفقه والأصول والنظر ، وله تصانيف كثيرة . وكانت له رحلة إلى المشرق سمع فيها عن الأعلام وتفقه ، وعاد منها بعد ثلاث عشرة سنة ، بعلم جم . وقد توفى رحمه الله بالمرية سنة ٤٧٤ . انظر العبر للذهبى : ٣/ ٢٨٠ ، ٢٨١ .

عليه محمد بن عبد الله » : فإنما حمله على ذلك رواية في صحيح البخاري : « ثم أخذ فكتب » : وهذه محمولة على الرواية الأخرى : « ثم امر فكتب » . ولهذا اشتد النكير من فقهاء المغرب والمشرق على من قال بقول الباجي ، وتبرءوا منه ، وأنشدوا في ذلك أقوالا ، وخطبوا به في محافلهم : وإنما أراد الرجل — أعني الباجي ، فيما يظهر عنه — أنه كتب ذلك على وجه المعجزة(١) ، لا أنه كان يحسن الكتابة ، كما قال — عليه الصلاة والسلام — إخباراً عن الدجال : « مكتوب بين عينيه كافر » وفي رواية : « ك ف ر ، يقرؤها كل مؤمن (٢) » : وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت — عليه السلام — حتى تعلم الكتابة ، فضعيف لا أصل له ؛ قال الله تعالى : (وما كنت تتلو) ، أي : تقرأ (من قبله من كتاب) لتأكيد النفي (ولا تخطه بيمينك) ، تأكيد أيضا ، وخرج مخرج الغالب ، كقوله تعالى : (ولا طائر يطير بجناحيه (٣)) .

وقوله : (إذا لارتاب المبطلون) ، أي : لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول : إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء ، مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة : (وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها ، فهي تملى عليه بكرة وأصيلا (٤) ، قال الله تعالى : (قل : أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض ؛ إنه كان غفوراً رحيما) (٥) ، وقال هاهنا : (بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم) ، أي : القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق ، أمرا ونهيا وخبرا ، يحفظه العلماء ، يسَّرَه الله عليهم حفظاً وتلاوةً وتفسيراً ، كما قال تعالى : (ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر) (٦) ، وقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « ما من نبي إلا وقد أعطي ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً (٧) » . وفي حديث عياض بن حمار ، في صحيح مسلم ، يقول الله تعالى : « إني مبتليك ومبتل بك ، ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء ، تقرؤه نائما ويقظانَ » (٨) : أي : لو غسل الماء المحلَّ المكتوبَ فيه لما احتيج إلى ذلك المحل ، كما جاء في الحديث الآخر (٩) : « لو كان القرآن في إهاب ، ما أحرقته النار » : لأنه محفوظ في الصدور ، ميسر على الألسنة ، مهيمن على القلوب ، معجز لفظا ومعنى : ولهذا جاء في الكتب المتقدمة ، في صفة هذه الأمة : « أناجيلهم في صدورهم » .

(١) قال السهيلي في الروض الأنف ٢/ ٢٣٠ : « وظن بعض الناس أنه كتب بيده ، وفي البخاري أنه كتب وهو لا يحسن الكتابة ، فتوهم أن الله أطلق يده بالكتابة في تلك الساعة خاصة ، وقال : هي آية . فيقال له : كانت تكون آية لولا أنها مناقضة لآية أخرى ، وهو كونه أمياً لا يكتب ، وبكونه أمياً في أمة أمية قامت الحجة ، وأفحم الجاحد ، وانحسمت الشبهة ، فكيف يطلق الله يده لتكون آية ؟ وإنما الآية أن لا يكتب والمعجزات يستحيل أن يدفع بعضها بعضا . وإنما معنى « كتب » ، أي : أمر أن يكتب ، وكان الكاتب في ذلك اليوم علي بن أبي طالب » .

(٢) البخاري ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال : ٩/ ٧٥ — ٧٦ ، وكتاب التوحيد : ٩/ ١٤٨ ومسلم ، كتاب الفتن ، باب « ذكر الدجال وصفته ، وما معه » : ٨/ ١٩٥ .

(٣) سورة الأنعام ، آية : ٣٨ .

(٤) سورة الفرقان ، آية : ٥ .

(٥) سورة الفرقان ، آية : ٦ .

(٦) سورة القمر ، آية : ٤٠ .

(٧) البخاري ، كتاب الاعتصام ، باب قول النبي — صلى الله عليه وسلم — : « بعثت بجوامع الكلم » : ٩/ ١١٣ . ومسلم كتاب الإيمان ، باب « وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد — صلى الله عليه وسلم — إلى جميع الناس ، ونسخ الملل بملته » : ١/ ٩٢ — ٩٣ .

(٨) مسلم ، كتاب الجنة ، باب « الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار » : ٨/ ١٥٨ — ١٥٩ .

(٩) مسند الإمام أحمد عن عقبة بن عامر : ٤/ ١٥١ ، ١٥٥ .

واختار ابن جرير أن المعنى فى قوله تعالى : (بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم) ، بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتاباً ولا تخطه بيمينك ، آياتٌ بينات فى صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب (١) . ونقله عن قتادة ، وابن جُريج . وحكى الأول عن الحسن فقط .

قلت : وهو الذى رواه العوفى عن عبد الله بن عباس ، وقاله الضحاك ، وهو الأظهر ، والله أعلم .

وقوله : (وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون) ، أى : ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون ، أى : المعتدون المكابرون ، الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه ، كما قال تعالى : (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) (٢) :

وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فى تعنتهم وطلبهم آيات ـ يعنون ـ ترشدهم إلى أن محمداً رسول الله ، كما جاء صالح بناقته ؛

قال الله تعالى : (قل) يا محمد : (إنما الآيات عند الله) ، أى : إنما أمر ذلك إلى الله ، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم ، لأن ذلك سهل عليه ، يسير لديه ، ولكنه يعلم منكم أنما قصدكم التعنت والامتحان ، فلا يجيبكم إلى ذلك ، كما قال تعالى : (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها (٣)) .

وقوله : (وإنما أنا نذير مبين) ، أى : إنما بعثت نذيراً لكم بيِّنَ النِّذارة فعَلَيَّ أن أبلغكم رسالة الله ، و (من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً (٤)) ، وقال تعالى : (ليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدى من يشاء (٥)) :

ثم قال تعالى مبينا كثرة جهلهم ، وسخافة عقلهم ، حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد فيما جاءهم ـ وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، الذى هو أعظم من كل معجزة ، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته ، بل عن معارضة عشر سور من مثله ، بل عن معارضة سورة منه ـ فقال تعالى : (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) ، أى : أو لم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم ، الذى فيه

---

(١) تفسير الطبرى : ٢١/٥ .
(٢) سورة يونس ، آية : ٩٦ ، ٩٧ .
(٣) سورة الإسراء ، آية : ٥٩ .
(٤) سورة الكهف ، آية : ١٧ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ٢٧٢ .

خبر ما قبلهم ، ونبأ ما بعدهم ، وحكم ما بينهم ، وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب ، ولم تخالط أحدا من أهل الكتاب، فجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى ، ببيان الصواب مما اختلفوا فيه ، وبالحق الواضح البين الجلي ، كما قال تعالى : (أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل (١)) ، وقال تعالى : (وقالوا : لولا أنزل عليه آية من ربه ، أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى (٢)) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، حدثنا ليث ، حدثني سعيد بن أبي سعيد ، عن أبيه عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي [من الآيات] ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة »(٣) . أخرجاه من حديث الليث (٤) .

وقال الله تعالى : (إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) ، أي : إن في هذا القرآن (لرحمة) ، أي : بياناً للحق ، وإزاحة للباطل ، و (ذكرى) بما فيه حلول النقمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين ، (لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) .

ثم قال تعالى : قل :(كفى بالله بيني وبينكم شهيداً) ، أي : هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب ، ويعلم ما أقول لكم من إخباري عنه ، بأنه أرسلني ، فلو كنت كاذبا عليه لانتقم مني ، كما قال تعالى : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين (٥)) ، وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به ، ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات ، والدلائل القاطعات .

(يعلم ما في السموات والأرض) ، لا تخفى عليه خافية .

(والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون) ، أي : يوم معادهم سيجزيهم على ما فعلوا ، ويقابلهم على ما صنعوا ، من تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل ، كذبوا برسل الله مع قيام الأدلة على صدقهم ، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل ، سيجازيهم على ذلك ، إنه حكيم عليم :

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم ، وبأس الله أن يحل عليهم ، كما قال تعالى : (وإذ قالوا : اللهم ، إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم)(٦) ، وقال هاهنا

---

(١) سورة الشعراء ، آية : ١٩٧ .
(٢) سورة « طه » ، آية : ١٣٣ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٣٤١/٢ ، ٤٥١ .
(٤) تقدم تخريج الحديث في الصحيحين ، عند الآية ٤٩ من هذه السورة .
(٥) سورة الحاقة ، الآيات : ٤٤ — ٤٧ .
(٦) سورة الأنفال ، آية : ٣٢ .

(ويستعجلونك بالعذاب ، ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب) ، أى : لولا ما حتّم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب قريبا سريعا كما استعجلوه .

ثم قال : (وليأتينهم بغتة) ، أى : فجأة ، (وهم لا يشعرون ، يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) ، أى يستعجلون بالعذاب ، وهو واقع بهم لا محالة .

قال شعبة ، عن سماك ، عن عكرمة قال فى قوله : (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) ، قال : البحر (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا عمر بن إسماعيل بن مجالد ، حدثنا أبى عن مجالد ، عن الشعبى : أنه سمع ابن عباس يقول : (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) ، وجهنم هو هذا البحر الأخضر ، تنتثر الكواكب فيه ، وتُكَوّر فيه الشمس والقمر ، ثم يُستوقد فيكون هو جهنم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو عاصم ، حدثنا عبد الله بن أمية ، حدثنى محمد بن (٢) حُيَيّ ، حدثنا صفوان بن يعلى ، عن أبيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : البحر هو جهنم ، قالوا ليعلى ، فقال : ألا ترون أن الله يقول : (ناراً أحاط بهم سرادقها) ، قال : لا ، والذى نفس يعلى بيده لا أدخلها أبدا حتى أعرض على الله ، ولا يصيبنى منها قطرة حتى أعرض على الله عز وجل (٣) .

هذا تفسير غريب ، وحديث غريب جداً ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم) ، كقوله تعالى : (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) (٤) ، وقال : (لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل) (٥) ، وقال : (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم) (٦) ، فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم ، وهذا أبلغ فى العذاب الحسى .

وقوله : (ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون) ، تهديد وتقريع وتوبيخ ، وهذا عذاب معنوى على النفوس ، كقوله : (يوم يسحبون فى النار على وجوههم : ذوقوا مس سقر ، إنا كل شئ خلقناه بقدر) (٧) ، وقال : (يوم يُدَعّون إلى نار جهنم دعاً ، هذه النار التى كنتم بها تكذبون ، أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ، اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم،إنما تجزون ما كنتم تعملون) (٨) .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢١/٧ .
(٢) هو محمد بن حيى بن يعلى . مترجم فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٣/٢/٢٣٩ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٤/٢٢٣ .
(٤) سورة الأعراف ، آية : ٤١ .
(٥) سورة الزمر ، آية : ١٦ .
(٦) سورة الأنبياء ، آية : ٣٩ .
(٧) سورة القمر ، آية : ٤٨ ، ٤٩ .
(٨) سورة الطور ، الآيات : ١٣ ـ ١٦ .

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٥٩ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠﴾

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذى لا يقدرون فيه على إقامة الدين ، إلى أرض الله الواسعة ، حيث يمكن إقامة الدين ، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم ، ولهذا قال : (يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون) :

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن عبد ربه ، حدثنا بقية بن الوليد ، حدثنى جُبَيْر بن عمرو القرشى ، حدثنى أبو سعد الأنصارى ، عن أبى يحيى مولى الزبير بن العوام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله ، فحيثما أصبتَ خيراً فأقم » (١) .

ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها ، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ، ليأمنوا على دينهم هناك ، فوجدوا هناك خير المنزلين ، أصحمة النجاشى ملك الحبشة — رحمه الله — آواهم وأيدهم بنصره ، وجعلهم سُيُوماً (٢) ببلاده : ثم بعد ذلك هاجر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة .

ثم قال : (كل نفس ذائقة الموت ، ثم إلينا ترجعون) ، أى : أينما كنتم يدرككم الموت ، فكونوا فى طاعة الله وحيث أمركم الله ، فهو خير لكم ، فإن الموت لا بد منه ، ولا محيد عنه ، ثم إلى الله المرجع ، فمن كان مطيعا له جازاه أفضل الجزاء ، ووافاه أتم الثواب . ولهذا قال : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الأنهار) ، أى : لنسكننهم منازلَ عاليةً فى الجنة تجرى من تحتها الأنهار ، على اختلاف أصنافها ، من ماء وخمر ، وعسل ولبن ، يصرفونها ويجرونها حيث شاءوا . (خالدين فيها) ، أى : ماكثين فيها أبدا لا يبغون عنها حولا ، (نعم أجر العاملين) ، نعمت هذه الغرفُ أجراً على أعمال المؤمنين (الذين صبروا) ، أى : على دينهم ، وهاجروا إلى الله ، ونابذوا الأعداء ، وفارقوا الأهل والأقرباء ، ابتغاء وجه الله ، ورجاء ما عنده وتصديق موعوده :

قال ابن أبى حاتم ، رحمه الله : حدثنى أبى ، حدثنا صفوان المؤذن ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا معاوية بن سلام ، عن أخيه زيد بن سلام ، عن جده أبى سلام الأسود ، حدثنى أبو معاوية (٣) الأشعرى : أن أبا مالك الأشعرى حدثه أن رسول

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١٦٦/١ .

(٢) أى : آمنين : قال ابن الأثير فى النهاية : « وهى كلمة حبشية . وتروى بفتح السين . وقيل : سيوم جمع سائم ، أى تسومون فى بلدى كالغنم السائمة ، لا يعارضكم أحد » .

(٣) فى المخطوطة : « أبو معانق الأشعرى » . والمثبت من الطبعات السابقة ، ولم تقع لنا ترجمته .

الله صلى الله عليه وسلم حدثه أن فى الجنة غُرَفا يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله لمن أطعم الطعام ، وأطاب الكلام ، وأباح الصيام وأقام الصلاة (١) والناس نيام

(وعلى ربهم يتوكلون) فى أحوالهم كلها فى دينهم ودنياهم .

ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة ، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين كانوا ، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب ؛ فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد فى سائر الأقطار والأمصار ، ولهذا قال : (وكأين من دابة لا تحمل رزقها)، أى: لا تطيق جمعه وتحصيله ولاتؤخر شيئاً لغد ، (الله يرزقها وإياكم) ، أى : الله يقيض لها رزقها على ضعفها ، وييسره عليها ، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر فى قرار الأرض ، والطير فى الهواء والحيتان فى الماء . قال الله تعالى : (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل فى كتاب مبين) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عبد الرحمن الهروى ، حدثنا يزيد — يعنى ابن هارون — حدثنا الجراح بن منهال الجزرى — هو أبو العطوف — عن الزهرى ، عن رجل ، عن ابن عمر قال : خرجت مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى دخل بعض حيطان المدينة ، فجعل يلتقط من التمر ويأكل ، فقال لى : يا ابن عمر ، مالك لا تأكل ؟ قال قلت : لا أشتهيه يا رسول الله . قال : لكنى أشتهيه ، وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاما ولم أجده ، ولو شئت لدعوت ربى فأعطانى مثل ملك قيصر وكسرى فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيتَ فى قوم يَخْبَئُون رزق سنتهم بضعف اليقين ؟ قال : فوالله ما برحنا ولا رِمْنا (٢) حتى نزلت : (وكأين من دابة لا تحمل رزقها ، الله يرزقها وإياكم ، وهو السميع العليم) . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله لم يأمرنى بكنز الدنيا ، ولا باتباع الشهوات ، فمن كنز دنياه يريد بها حياة باقية فإن الحياة بيد الله ، ألا وإنى لا أكنز ديناراً ولا درهما ، ولا أخبأ رزقا لغد (٣) » .

هذا حديث غريب ، وأبو العطوف الجزرى ضعيف .

وقد ذكروا أن الغراب إذا فقَس عن فراخه البَيض ، خرجوا وهم بيض فإذا رآهم أبواهم كذلك ، نفرا عنهم أياما حتى يسود الريش ، فيظل الفرخ فاتحاً فاه ا يتفقد ا (٤) أبويه ، فيقيض الله له طيراً صغاراً كالبَرْغَش (٥) فيغشاه فيتقوت منه تلك الأيام حتى يسود ريشه ، والأبوان يتفقدانه كل وقت ، فكلما رأوه أبيض الريش نفرا عنه ، فإذا راوه قد اسود ريشه عطفا عليه بالحضانة والرزق ، ولهذا قال الشاعر :

يا رازق النعّاب(٦) فى عشه • وجابر العَظْم الكَسير المهيص

(١) « أباح الشىء : أطلقه » . وفى الطبعات السابقة : « وتابع الصلاة والصيام، وقام بالليل والناس نيام » .

(٢) : أى : ولا برحنا ، يقال : رام يريم : إذا برح وزال من مكانه ، وأكثر ما يستعمل فى النفى .

(٣) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور عن عبد بن حميد ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقى ، وابن عساكر ، وقال « بسند ضعيف » ، انظر : ٥/١٤٩ .

(٤) فى المخطوطة : « وقال أبويه » . والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٥) البرغش — بورن جعفر — : البعوض .

(٦) النعاب : فرخ الغراب سمى بذلك لكثرة نعبه .

وقد قال الشافعي في جملة كلام له في الأوامر ، كقول النبي صلى الله عليه وسلم : « سافروا تصحوا وترزقوا » .

قال البيهقي اخبرنا إملاء ابو الحسن علي بن عبدان ، أخبرنا أحمد بن عبيد ، أخبرنا محمد بن غالب ، حدثني محمد بن سنان ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن ردّاد – شيخ من اهل المدينة – حدثنا عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سافروا تصحوا وتغنموا . قال : ورويناه عن ابن عباس .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا ابن لهيعة ، عن درّاج ، عن عبد الرحمن بن حُجيرة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سافروا تربحوا ، وصوموا تصحوا ، واغزوا تغنموا » (١) .

وقد ورد مثل حديث ابن عمر عن ابن عباس مرفوعا ، وعن معاذ بن جبل موقوفا . وفي لفظ : « سافروا مع دوى الجدود والميسرة » .

وقوله تعالى : (وهو السميع العليم) ، أي السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم .

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣)

يقول تعالى مقرراً أنه لا إله إلا هو ، لأن المشركين – الذين يعبدون معه غيره – معترفون أنه المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر ، وتسخير الليل والنهار ، وأنه الخالق الرازق لعباده ومقدر آجالهم ، واختلافها واختلاف أرزاقهم ففاوت بينهم ، فنهم الغني والفقير ، وهو العليم بما يصلح كلا منهم ، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر ، فذكر أنه المستبد بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها ، فإذا كان الأمر كذلك فلم يعبد غيره ؟ ولم يتوكل على غيره ؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته ، وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية . وقد كان المشركون يعترفون بذلك ، كما كانوا يقولون في تلبيتهم : « لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك » .

وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦)

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها ، وأنها لا دوام لها ، وغاية ما فيها لهو ولعب : (وإن الدار الآخرة لهي الحيوان) ، أي : الحياة الدائمة الحق الذي لا زوال لها ولا انقضاء ، بل هي مستمرة أبد الآباد .

---

(١) لفظ الحديث في المسند ٢/٣٨٠ : « سافروا تصحوا واغزوا تستغنوا » .

وقوله : (لو كانوا يعلمون) ، أى : لآثروا ما يبقى على ما يفنى .

ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطرار يدعونه وحده لا شريك له ، فهلا يكون هذا منهم دائما ، (فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين)، كقوله :(وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم) (١) وقال هاهنا : (فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) .

وقد ذكر محمد بن إسحاق ، عن عكرمة بن أبى جهل : أنه لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، ذهب فاراً منها ، فلما ركب فى البحر ليذهب إلى الحبشة ، اضطربت بهم السفينة ، فقال أهلها : يا قوم ، أخلصوا لربكم الدعاء ، فإنه لا يُنجى هاهنا إلا هو . فقال عكرمة : والله إن كان لا ينجى فى البحر غيره ، فإنه لا ينجى غيره فى البر أيضا ، اللهم لك على عهد لئن خرجتُ لأذهبن فلأضعَنّ يدى فى يد محمد فلأجدنه رءوفا رحيما ، وكان كذلك .

وقوله : (ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا) ، هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة، لأنهم لا يقصدون ذلك ، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم ، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقييضه إياهم لذلك فهى لام التعليل . وقد قدمنا تقرير ذلك فى قوله : (ليكون لهم عدواً وحزنا) (٢) .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

يقول تعالى ممتنا على قريش فيما أحلهم من حرمه ، الذى جعله للناس سواء العاكف فيه والبادى ، ومن دخله كان آمنا ، فهم فى أمن عظيم ، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضا ويقتل بعضهم بعضا كما قال تعالى: (لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت . الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) (٣) .

وقوله : (أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون) ، أى : أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به ، وعبدوا معه الأصنام والأنداد ، و (بدلوا نعمة الله كفروا وأحلوا قومهم دار البوار) (٤)، وكفروا بنبى الله وعبده ورسوله ، فكان اللائق بهم إخلاص العبادة لله ، وأن لا يشركوا به ، وتصديقَ الرسول وتعظيمَه وتوقيره ، فكذبوه وقاتلوه وأخرجوه من بين ظهرهم ، ولهذا سلبهم الله ما كان أنعم به عليهم، وقتل من قتل منهم ببدر، وصارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين، ففتح الله على رسوله مكة ، وأرغم آنافهم وأذل رقابهم .

(١) سورة الإسراء : ٦٧ .
(٢) سورة القصص ، آية : ٨ .
(٣) سورة قريش ، آية : ١ - ٤ .
(٤) سورة إبراهيم ، آية : ٢٨ .

ثم قال تعالى : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه) ، أى : لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله فقال : إن الله أوحى إليه ولم يوح إليه شىء ، ومن قال : سأنزل مثل ماأنزل الله ، وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه ، فالأول مفتر ، والثانى مكذب ، ولهذا قال : (أليس فى جهنم مثوى للكافرين) .

ثم قال : (والذين جاهدوا فينا) ، يعنى الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ، (لنهدينهم سبلنا) ، أى : لنُبَصِّرَنَّهم سبلنا ، أى : طرقنا فى الدنيا والآخرة .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أحمد بن أبى الحوارى ، حدثنا عباس الهمدانى أبو أحمد - من أهل عكا - فى قول الله : (والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) ، قال : الذين يعملون بما يعلمون ، يهديهم لما لا يعلمون . قال أحمد بن أبى الحوارى : فحدثت به أبا سليمان الدارانى فأعجبه ، وقال : [ليس] ينبغى لمن ألهم شيئا من الخير أن يعمل [به] حتى يسمعه فى الأثر ، فإذا سمعه فى الأثر عمل به ، وحمد الله حين وافق ما فى نفسه .

وقوله : (وإن الله لمع المحسنين) ، قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبى ، حدثنا عيسى بن جعفر قاضى الرى ، حدثنا أبو جعفر الرازى ، عن المغيرة ، عن الشعبى قال : قال عيسى ابن مريم عليه السلام : إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك . والله أعلم .

تفسير سورة الروم

مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ (١) غُلِبَتِ ٱلرُّومُ (٢) فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ (٧)﴾

نزلت هذه الآيات حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الروم، واضطر هرقلَ ملكَ الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية، وحاصره فيها مدة طويلة، ثم عادت الدولة لهرقل كما سيأتي.

قال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا أبو إسحاق، عن سفيان، عن حبيب بن أبي عمرة، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس — رضي الله عنهما — في قوله تعالى: (الٓمٓ . غلبت الروم في أدنى الأرض)، قال: غُلِبَت وغَلَبَت. قال: كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم، لأنهم أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الرومُ على فارس، لأنهم أهل كتاب، فذُكِرَ ذلك لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم —: أما إنهم سيغلبون: فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلا، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا. فجعل أجلاً خمس سنين، فلم يظهروا، فذكر ذلك أبو بكر — للنبي — صلى الله عليه وسلم فقال: ألا جعلتها إلى دُون — أراه قال: العشر. قال سعيد بن جبير: البضع مادونَ العشر. ثم ظهرت الروم بعد، قال: فذلك قوله: (الم . غلبت الروم . في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز (١) الرحيم).

هكذا رواه الترمذي والنسائي جميعا، عن الحسين بن حريث، عن معاوية بن عمرو، عن أبي إسحاق الفزاري، عن سفيان بن سعيد الثوري، به. وقال الترمذي: حسن غريب (٢)، إنما نعرفه من حديث سفيان، عن حبيب (٣).

ورواه ابن أبي حاتم، عن محمد بن إسحاق الصاغاني، عن معاوية بن عمرو، به. ورواه ابن جرير:

---

(١) مسند الإمام أحمد: ١/٢٧٦، ٣٠٤.

(٢) في الترمذي: «حسن صحيح غريب».

(٣) تحفة الأحوذي، تفسير سورة الروم، الحديث ٣٢٤٥، ٩/١٥ – ٥٢.

حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا محمد بن سعيد — أو سعيد (١) الثعلبي الذي يقال له أبو سعد من أهل طرسوس — حدثنا أبو إسحاق الفزاري ، فذكره . وعندهم : قال سفيان : فبلغني أنهم غلبوا . يوم بدر (٢) .

حديث آخر : قال سليمان بن مهران الأعمش ، عن مسلم ، عن مسروق قال : قال عبد الله : خمس (٣) قد مضين : الدخان ، واللزام ، والبطشة ، والقمر ، والروم . أخرجاه (٤) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا المحاربي ، عن داود بن أبي هند ، عن عامر — هو الشعبي — عن عبد الله — هو ابن مسعود رضي الله عنه — قال : كان فارس ظاهراً على الروم ، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ، لأنهم أهل كتاب وهم أقرب إلى دينهم ، فلما نزلت : (الم . غلبت الروم . في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) ، قالوا : يا أبا بكر ، إن صاحبك يقول : إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين ؟ ! قال : صدق . قالوا : هل لك إلى أن نقامرك : فبايعوه على أربع قلائص (٥) إلى سبع سنين ، فمضت السبع ولم يكن شيء ، ففرح المشركون بذلك وشق على المسلمين ، فذُكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما بضع سنين عندكم ؟ قالوا : دون العشر . قال : اذهب فزايدهم وازدد سنتين في الأجل . قال : فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس ، ففرح المؤمنون بذلك ، وأنزل الله : (ألم . غلبت الروم) ، إلى قوله : (لا يخلف الله (٦) وعده) .

حديث آخر : قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عمر الوكيعي ، حدثنا مؤمل ، عن إسرائيل عن أبي إسحاق ، عن البراء قال : لما نزلت : (ألم . غلبت الروم . في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون) ، قال المشركون لأبي بكر : ألا ترى إلى ما يقول صاحبك ؟ يزعم أن الروم تغلب فارس . قال : صدق صاحبي . قالوا : هل لك

---

(١) في المخطوطة : « أبو سعيد » . وأثبتنا ما في الطبعات السابقة ، وهو موافق للفظ الطبري .

(٢) تفسير الطبري : ١٢/٢١ .

(٣) أي خمس علامات قد وقعن ، الأولى : الدخان ، قال الله تعالى : (يوم تأتي السماء بدخان مبين) ، وكان رسول الله قد دعا على قريش — لما استعصت عليه — فقال « اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف » ، فأصابهم قحط شديد ، حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء ، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان ، من الجهد ، وقيل : كان يخرج من الأرض بخار كهيئة الدخان ، من شدة حرارتها ووهجها بسبب عدم الغيث .

والثانية : اللزام ، وقد اختلف فيه ، فذكره ابن أبي حاتم في تفسيره بأنه القتل الذي أصابهم ببدر ، وروى ذلك عن ابن مسعود ، وأبي بن كعب ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك .

وقيل : هو التصاق القتلى بعضهم ببعض في بدر .

وقيل : هو الأسر فيه ، وقد أسر سبعون قرشياً . وقيل : هو القحط ، وعلى هذا يكون هو والدخان واحداً .

والثالثة البطشة ، وهي التي قال الله تعالى : (يوم نبطش البطشة الكبرى) ، وذكر أن المقصود بها القتل الذي وقع يوم بدر ، فتكون هي واللزام — في بعض ما روى في تفسيرها — واحداً .

والرابعة : القمر ، وهي التي قال الله تعالى : (اقتربت الساعة وانشق القمر) .

والخامسة : الروم ، وهي العلامة التي نحن بصددها .

(٤) البخاري ، تفسير سورة الدخان : ١٦٤/٦ ، ومسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب « الدخان » : ١٣١/٨ — ١٣٢

(٥) القلائص : جمع قلوص ، وهي من الإبل : الشابة .

(٦) تفسير الطبري : ١٤/٢١ — ١٥ .

أن نخاطرك (١) ؟ فجعل بينه وبينهم أجلا ، فحل الأجل قبل أن تغلب الرومُ فارسَ ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فساءه ذلك وكرهه، وقال لأبي بكر: مادعاك إلى هذا ؟ قال: تصديقاً لله ولرسوله . فقال: تَعَرَّض لهم وأعظمْ الخَطَر(١)، واجعله إلى بضع سنين . فأتاهم أبو بكر فقال لهم : هل لكم في العود ، فإن العود أحمد؟ قالوا : نعم . فلم تمض تلك السنين حتى غلبت الروم فارسَ ، وربطوا خيولهم بالمدائن ، وبنوا الرومية، فجاء به أبو بكر إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال : هذا السحت ، قال : تصدق به (٢) .

حديث آخر : قال أبو عيسى الترمذي : حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا إسماعيل بن أبي أُوَيس ، أخبرني ابن أبي الزناد، عن عروة بن الزبير، عن نِيَار بن مُكرَم الأسلمي قال : لما نزلت (الم * غلبت الروم . في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * في بضع سنين) ، فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم ، وكان المسلمون يحبون [ظهور] الروم عليهم، لأنهم وإياهم أهل كتاب، وفي ذلك قول الله: (ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم)، وكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث ، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة: (الم* غلبت الروم . في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون* في بضع سنين)، قال ناس من قريش لأبي بكر : فذلك بيننا وبينك زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين ، أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال : بلى – وذلك [قبل تحريم الرهان – [فارتهن أبو بكر والمشركون ، وتواضَعُوا الرهان]، وقالوا لأبي بكر: كم تَجعل البضع : ثلاث سنين إلى تسع سنين، فَسَمِّ بيننا وبينك وَسَطاً ننتهي إليه : قال : فسموا بينهم ست سنين . قال : فمضت ست السنين قبل أن يظهروا ، فأخذ المشركون رهن أبي بكر ، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس ، فعاب المسلمون على أبي بكر تسمية ست سنين ، قال : لأن الله قال : في بضع سنين . قال : فأسلم عند ذلك ناس كثير .

هكذا ساقه الترمذي ، ثم قال : هذا حديث حسن صحيح (٣) ، لانعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبي الزناد (٤) ، وقد روى نحو هذا مرسلا عن جماعة من التابعين ، مثل عكرمة ، والشعبي ، ومجاهد، وقتادة ، والسدي ، والزهري ، وغيرهم .

ومن أغرب هذه السياقات ماوراه الإمام سُنَيد بن داود في تفسيره حيث قال : حدثني حجاج ، عن أبي بكر بن عبد الله ، عن عكرمة قال : كانت في فارس امرأة لاتلد إلا الملوك الأبطال ، فدعاها كسرى فقال : إني أريد أن أبعث إلى الروم جيشاً وأستعمل عليهم رجلا من بنيك ، فأشيري عَلَيّ ، أيَّهم أستعمل ؟ فقالت: هذا فلان ، وهو أروغ من ثعلب ، وأحذر من صقر . وهذا فرخان ، وهو أنفذ من سنان (٥) . وهذا شهريراز ، وهو أحلم من كذا – تعني أولادها الثلاثة – فاستعمل أيهم شئت . قال : فإني قد استعملت الحليم . فاستعمل شهريراز ، فسار إلى الروم بأهل فارس ، فظهر عليهم فقتلهم ، وخرّب مدائنهم ، وقطع زيتونهم .

---

(١) أي : نراهنك . والخطر – بفتحتين – : ما يراهن عليه .

(٢) أخرجه السيوطي في الدر المنثور عن ابي يعلى ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وابن عساكر . انظر : ٥/١٥٠–١٥١ .

(٣) في تحفة الأحوذي : « حسن صحيح غريب . . . » .

(٤) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة الروم ، الحديث ٣٢٤٦ : ٩/٥٢ – ٥٤ .

(٥) السنان : الرمح .

قال أبو بكر بن عبد الله: فحدثت بهذا الحديث عطاء الخرساني فقال: أما رأيت بلاد الشام؟ قلت: لا، قال: أما إنك لو رأيتها لرأيت المدائن التي خربت، والزيتون الذي قطع. فأتيت الشام بعد ذلك فرأيته.

قال عطاء الخراساني: حدثني يحيى بن يعمر: أن قيصر بعث رجلا يدعى قطمة (١) بجيش من الروم، وبعث كسرى شهريراز، فالتقيا بأذرعات وبُصرى، وهي أدنى الشام إليكم، فلقيت فارس الروم، فغلبتهم فارس. ففرحت بذلك كفار قريش وكرهه المسلمون:

قال عكرمة: ولقي المشركون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا: إنكم أهل كتاب، والنصارى أهل كتاب، [ونحن أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخواننا من أهل الكتاب]، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم، فأنزل الله: (الم * غلبت الروم. في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون. في بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء)، فخرج أبو بكر الصديق إلى الكفار فقال: أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا، فلا تفرحوا. ولا يُقرّن الله أعينكم، فوالله ليظهرن الله الروم على فارس، أخبرنا بذلك نبينا صلى الله عليه وسلم. فقام إليه أبي بن خلف فقال: كذبت ياأبا فضيل. فقال له أبو بكر: أنت أكذب ياعدو الله. فقال: أناحبُكَ (٢) عشر قلائص مني وعشر قلائص منك، فإن ظهرت الروم على فارس غَرِمتُ، وإن ظهرت فارس غرمتَ إلى ثلاث سنين، ثم جاء أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره، فقال: ماهكذا ذكرت، إنما البضع مابين الثلاث إلى التسع. فزايدْه في الخَطَر وماده في الأجل. فخرج أبو بكر فلقي أبيًا فقال: لعلك ندمت؟ فقال: لا، تعال أزايدك في الخَطَر وأمادُّك في الأجل، فاجعلها مائة قلوص لمائة قلوص إلى تسع سنين. قال: قد فعلت. فظهرت الروم على فارس قبل ذلك، فغلبهم المسلمون.

قال عكرمة: لما أن ظهرت فارس على الروم، جلس فرخان يشرب وهو أخو شهريراز، فقال لأصحابه: لقد رأيت كأني جالس على سرير كسرى. فبلغت كسرى فكتب إلى شهريراز: إذا أتاك كتابي فابعث إلى برأس فرخان. فكتب إليه أيها الملك، إنك لن تجد مثل فرخان، له نكاية (٣) وصوت في العدو، فلا تفعل. فكتب إليه: إن في رجال فارس خلفاً منه، فعجّل إلى برأسه. فراجعه، فغضب كسرى فلم يجبه، وبعث بريدا إلى أهل فارس: إني قد نزعت عنكم شهريراز، واستعملت عليكم فرخان. ثم دفع إلى البريد صحيفة لطيفة صغيرة فقال: إذا ولى فرخان الملك، وانقاد له أخوه، فأعطه هذه. فلما قرأ شهريراز الكتاب قال: سمعا وطاعة، ونزل عن سريره، وجلس فرخان، ودفع إليه الصحيفة قال: ائتوني بشهريراز، وقدّمه ليضرب عنقه، قال لاتعجل حتى أكتب وصيتي، قال: نعم. فدعا بالسَّفَط (٤) فأعطاه الصحائف وقال: كلّ هذا راجعتُ فيك كسرى، وأنت أردت أن تقتلني بكتاب واحد. فرد الملك إلى أخيه شهريراز، وكتب شهريراز إلى قيصر ملك الروم: إن لي إليك حاجة لاتحملها البُرُد ولا تحملها الصُّحف، فالقني ولا تلقني إلا في خمسين روميا، فإني

(١) في المخطوطة: «يدعى بطنه». والمثبت من تفسير الطبري والطبعات السابقة.
(٢) أي: أراهنك.
(٣) في تفسير الطبري: «وإن له نكاية وضرباً في العدو».
(٤) السفط — بفتح السين والفاء — الجوالق.

ألقاك فى خمسين فارسيا ، فأقبل قيصر فى خمسمائة [ألف] رومى ، وجعل [يضع] العيون بين يديه فى الطريق ، وخاف أن يكون قد مكر به ، حتى أتاه عيونه أنه ليس معه إلا خمسون رجلا . ثم بسط لهما والتقيا فى قبة ديباج ضربت لهما ، مع كل واحد منهما سكين ، فدعيا(١) ترجمانا بينهما ، فقال شهر براز : إن الذين خربوا مدائنك أنا وأخى بكيدنا وشجاعتنا ، وإن كسرى حسدنا وأراد أن أقتل أخى فأبيت ، ثم أمر أخى أن يقتلنى ، وقد خلعناه جميعا ، فنحن نقاتله معك ، قال : قد أصبتما ، ثم أشار أحدهما إلى صاحبه أن السر بين اثنين فإذا جاوز اثنين فشا ، قال : أجل ، فقتلا الترجمان جميعا بسكينيهما ، فأهلك الله كسرى ، وجاء الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ، ففرح والمسلمون معه (٢) .

فهذا سياق غريب ، وبناء عجيب ، ولنتكلم على كلمات هذه الآيات الكريمة ، فقوله تعالى : (ألم . غلبت الروم) ، قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور ، فى أول سورة البقرة (٣) ، وأما الروم فهم من سلالة العيص (٤) بن إسحاق بن إبراهيم ، وهم أبناء عم بنى إسرائيل ، ويقال لهم : بنو الأصفر ، وكانوا على دين اليونان ، واليونان من سلالة يافث ابن نوح ، أبناء عم الترك ، وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة ، ويقال لها : المتحيرة ، ويصلون إلى القطب الشمالى ، وهم الذين أسسوا دمشق ، وبنوا معبدها ، وفيه محاريبه إلى جهة الشمال ، فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة ، وكان من ملك الشام مع الجزيرة منهم يقال له : قيصر ، فكان أول من دخل فى دين النصارى من الملوك قسطنطين بن قسطس ، وأمه مريم الهيلانية الشدقانية(٥) من أرض حران ، كانت قد تنصرت قبله ، فدعته إلى دينها ، وكان قبل ذلك فيلسوفا ، فتابعها ــ يقال : تقيّةً(٦) ــ واجتمعت به النصارى ، وتناظروا فى زمانه مع عبد الله بن أريوس ، واختلفوا اختلافا منتشرا متشتتا لاينضبط ، إلا أنه اتفق من جماعتهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً ، فوضعوا لقسطنطين العقيدة ، وهى التى يسمونها الأمانة الكبيرة ، وإنما هى الخيانة الحقيرة ، ووضعوا له القوانين ــ يعنون كتب الأحكام من تحليل وتحريم وغير ذلك مما يحتاجون إليه ، وغيّروا دين المسيح عليه السلام ، وزادوا فيه ونقصوا منه ، وصلوا إلى المشرق واعتاضوا عن السبت بالأحد ، وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير ، واتخذوا أعيادا أحدثوها كعيد الصليب والقداس والغطاس ، وغير ذلك من البواعيث والشعانين(٧) ، وجعلوا له الباب وهو كبيرهم ، ثم البتاركة ، ثم المطارنة ، ثم الأساقفة والقساقسة ، ثم الشمامسة ، وابتدعوا الرهبانية ، وبنى لهم الملك الكنائس والمعابد ، وأسس المدينة المنسوبة إليه وهى القسطنطينية ، يقال : إنه بنى فى أيامه اثنى عشر ألف كنيسة ، وبنى بيت لحم بثلاثة محاريب ، وبنت أمه القمامة ، وهؤلاء هم الملكية ، يعنون الذين هم على دين الملك ،

---

(١) يقال : دعياً ، ودعوا . انظر القاموس المحيط .
(٢) انظر تفسير الطبرى : ٢١/ ١٣ - ١٤ .
(٣) انظر : ١/٥٦ - ٦٠ .
(٤) انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ٥١١ .
(٥) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وفى الطبعات السابقة : الفندقانية .
(٦) أى : اتقاء وحذراً .
(٧) انظر تفسير هذه الكلمة فى : ٤/ ٧٦ .

ثم حدثت بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الإسكاف ، ثم النسطورية أصحاب نسطورا ، وهم فرق وطوائف كثيرة ، كما قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : إنهم افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة (١) . والغرض أنهم استمروا على النصرانية ، كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده ، حتى كان آخرهم هرقل ، وكان من عقلاء الرجال ، ومن أحزم الملوك وأدهاهم ، وأبعدهم غورا وأقصاهم رأيا ، فتملَّكَ عليهم في رياسة عظيمة وأبهة كبيرة ، فناوأه كسرى ملك الفرس ، وملَكَ البلادَ كالعراق وخراسان والرّي ، وجميع بلاد العجم ، وهو سابور ذو الأكتاف . وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر ، وله رياسة العجم وحماقة الفرس ، وكانوا مجوسا يعبدون النار . فتقدم عن عكرمة أنه بعث إليه نوابه وجيشه فقاتلوه ، والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه في بلاده فقهره وكسَّره وقصره ، حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية . فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه ، وكانت النصارى تعظمه تعظيما زائدا ، ولم يقدر كسرى على فتح البلد ، ولا أمكنه ذلك لحصانتها ، لأن نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من ناحية البحر ، فكانت تأتيهم الميرة والمَدَد من هنالك . فلما طال الأمر دبر قيصر مكيدة ، ورأى في نفسه خديعة ، فطلب من كسرى أن يقلع عن بلاده على مال يصالحه عليه ، ويشترط عليه ماشاء . فأجابه إلى ذلك ، وطلب منه أموالا عظيمة لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا ، من ذهب وجواهر وأقمشة وجوار وخدام وأصناف كثيرة . فطاوعه قيصر ، وأوهمه أن عنده جميع ماطلب ، واستقل عقله لما طلب منه ماطلب ، ولو اجتمع هو وإياه لعجزت قدرتهما عن جمع عُشْره ، وسأل كسرى أن يُمكّنه من الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مملكته ، ليسعى في تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفائنه ، فأطلق سراحه ، فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية ، جمع أهل ملته وقال : إني خارج في أمر قد أبرمته ، في جند قد عينته من جيشي ، فإن رجعت إليكم قبل الحول فأنا ملككم ، وإن لم أرجع إليكم قبلها فأنتم بالخيار ، إن شئتم استمررتم على بيعتي ، وإن شئتم وليتم عليكم غيري . فأجابوه بأنك ملكنا مادمت حيا ، ولو غبت عشرة أعوام : فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة في جيش متوسط ، هذا وكسرى مُخَيِّم على القسطنطينية ينتظره ليرجع ، فركب قيصر من فوره وسار مسرعا حتى انتهى إلى بلاد فارس ، فعاث في بلادهم قتلا لرجالها ومن بها من المقاتلة ، أولا فأولا ، ولم يزل [يقتل (٢)] حتى انتهى إلى المدائن ، وهي كرسي مملكة كسرى ، فقتل من بها وأخذ جميع حواصله وأمواله ، وأسر نساءه [وحريمه ،] وحلق رأس ولده ، ورَكّبه على حمار وبعث معه من الأساورة (٣) من قومه في غاية الهوان والذلة ، وكتب إلى كسرى [يقول : هذا ماطلبتَ فخُذه . فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم مالا يحصيه إلا الله عز وجل ، واشتد حنقه على البلد ، فاشتد في حصارها بكل ممكن فلم يقدر على ذلك . فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة (٤) جيحون ، التي لا سبيل لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها ، فلما علم قيصر بذلك احتال بحيلة عظيمة لم يسبق إليها ، وهو أنه أرصد جنده وحواصله التي معه عند فم المخاضة ، وركب في بعض الجيش ، وأمر بأحمال من التبن والبعر والروث فحملت معه ، وسار إلى قريب من يوم في الماء مصعدا ، ثم أمر بالقاء تلك الأحمال في النهر ، فلما مرت بكسرى ظن هو وجنده أنهم قد خاضوا من هنالك ، فركبوا

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب السنة ، باب ، شرح السنة ، ، الحديث ٤٥٩٦ : ٤/٢٩٧ — ٢٩٨ وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب ، افتراق الأمم ، ، الحديث ٣٩٩٢ : ٢/١٣٢٢ .

(٢) في المخطوطة : ، ولم يزل يقصل ، . والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٣) أي : الفرسان منهم . جمع إسوار ، وهو الفارس .

(٤) المخاضة والمخاض من النهر الكبير : الموضع الذي يتخضخض ماؤه ويتحرك عند العبور عليه .

فى طلبهم فشغرت (١) المخاصة عن الفرس ، وقدم قيصر فأمرهم بالنهوض فى الخوض، فخاضوا وأسرعوا السير ففاتوا كسرى وجنوده ، ودخلوا القسطنطينية . وكان ذلك يوما مشهوداً عند النصارى ، وبقى كسرى وجيوشه حائرين لايدرون ماذا يصنعون لم يحصلوا على بلاد قيصر ، وبلادُهم قد خرّبتها الروم وأخذوا حواصلهم ، وسبوا ذراريهم [ونساءهم] . فكان هذا من غَلَب الروم فارسَ ، وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب الفرس للروم .

وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم بين أذرعات وبصرى ، على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما ، وهى طرف بلاد الشام مما يلى بلاد الحجاز .

وقال مجاهد : كان ذلك فى الجزيرة ، وهى أقرب بلاد الروم من فارس ، فالله أعلم .

ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين ، وهى تسع ؛ فان البِضْعَ فى كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع . وكذلك جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن جرير وغيرهما ، من حديث عبد الله بن عبد الرحمن الجُمَحِى ، عن الزهرى ، عن عُبَيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبى بكر فى مُنَاحَبَة(٢) (الم . غلبت الروم) : « ألا احتطت يا أبا بكر ، فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع ؟ » ثم قال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه(٣) .

وروى ابن جرير ، عن عبد الله بن عمرو : أنه قال ذلك(٤) .

وقوله : (لله الأمر من قبل ومن بعد) ، أى: من قبل ذلك ومن بعده، فبنى على الضم لما قُطع المضاف، وهو قوله « قبل » عن الإضافة ، ونُوِيت .

(ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) ، أى : للروم أصحاب قيصر ملك الشام ، على فارس أصحاب كسرى ، وهم المجوس . وقد كانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر فى قول طائفة كبيرة من العلماء ، كابن عباس ، والثورى ، والسدى ، وغيرهم . وقد ورد فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم والبزار ، من حديث الأعمش ، عن عطية ، عن أبى سعيد قال : لما كان يوم بدر ، ظهرت الروم على فارس ، فأعجب ذلك المؤمنين وفرحوا به ، وأنزل الله : (ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم(٥)) .

وقال آخرون : بل كان نصرة الروم على فارس عام الحديبية ؛ قاله عكرمة ، والزهرى ، وقتادة ، وغيرهم .

ووجه بعضهم هذا القول بأن قيصر كان قد نذر لئن أظفره الله بكسرى ليمشين من حمص إلى إيليا — وهو بيت المقدس — شكراً لله — عز وجل — ففعل ، فلما بلغ بيت المقدس لم يخرج منه حتى وافاه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى بعثه مع دحية بن خليفة ، فأعطاه دحية لعظيم بصرى ، فدفعه عظيم بصرى إلى قيصر . فلما وصل إليه سأل

---

(١) أى : خلت منهم .
(٢) أى : مراهنة .
(٣) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الروم : ٥٢/٩ . وتفسير الطبرى : ١٢/٢١ .
(٤) تفسير الطبرى : ١٦/٢١ .
(٥) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الروم ، الحديث ٣٢٤٤ : ٩/ ٥٠ — ٥١ .

من بالشام من عرَّب الحجاز ، فأحضر له أبو سفيان صخر بن حرب الأموى فى جماعة من كفار قريش كانوا فى غزة ، فجيء بهم إليه ، فجلسوا بين يديه ، فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ فقال أبو سفيان : أنا ، فقال لأصحابه — وأجلسهم خلفه — : إنى سائل هذا عن هذا الرجل ، فان كذب فكذّبوه . فقال أبو سفيان : فوالله لولا أن يأثُرُوا علىّ الكذب لكذبت . فسأله هرقل عن نسبه وصفته ، فكان فيما سأله أن قال : فهل يغدر ؟ قال : قلت : لا ، ونحن منه فى مُدّة لا ندرى ما هو صانع فيها — يعنى بذلك الهدنة التى كانت قد وقعت بين رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وكفار قريش يوم الحديبية على وضع الحرب بينهم عشر سنين ، فاستدلوا بهذا على أن نصر الروم على فارس كان عام الحديبية ، لأن قيصر إنما وفى بنذره بعد الحديبية ، والله أعلم .

ولأصحاب القول الأول أن يجيبوا عن هذا بأن بلاده كانت قد خربت وتشعثت ، فما تمكن من وفاء نذره حتى أصلح ما ينبغى إصلاحه وتفقد بلاده ، ثم بعد أربع سنين من نصرته وفى بنذره ، والله أعلم .

والأمر فى هذا سهل قريب ، إلا أنه لما انتصرت فارس على الروم ساء ذلك المؤمنين ، فلما انتصرت الروم على فارس فرح المؤمنون بذلك ، لأن الروم أهل كتاب فى الجملة ، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس ، كما قال تعالى : (لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون : ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين(١)) . وقال تعالى ها هنا : (ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنى أُسيد الكلابى ، قال : سمعت العلاء بن الزبير الكلابى يحدث عن أبيه ، قال : رأيت غلبة فارس الروم ، ثم رأيت غلبة الروم فارس ، ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم ، كل ذلك فى خمس عشرة سنة .

وقوله : (وهو العزيز) ، أى : فى انتصاره وانتقامه من أعدائه ، (الرحيم) بعباده المؤمنين .

وقوله : (وعد الله لا يخلف الله وعده) ، أى : هذا الذى أخبرناك به — يا محمد — من أنا سننصر الروم على فارس ، وعد من الله حق ، وخَبَر صدق لا يخلف ، ولابد من كونه ووقوعه ، لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتتلتين إلى الحق ، ويجعل لها العاقبة ، (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ، أى : بحكم الله فى كونه وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل .

وقوله : (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون) ، أى : أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها ، فهم حذاق أذكياء فى تحصيلها ووجوه مكاسبها ، وهم غافلون عما ينفعهم فى الدار الآخرة ، كأن أحدهم مُغَفَّل لا ذهن له ولا فكرة .

---

(١) سورة المائدة ، آية : ٨٢ ، ٨٣ .

قال الحسن البصري : والله لَيَبْلُغَ من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره ، فيخبرك بوزنه ، وما يحسن أن يصلي .

وقال ابن عباس في قوله : يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) ، يعني : الكفار ، يعرفون عمران الدنيا ، وهم في أمر الدين جهال(١) .

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى منبهاً على التفكر في مخلوقاته ، الدالة على وجوده وانفراده بخلقها ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، فقال : (أو لم يتفكروا في أنفسهم) ، يعني به النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي ، وما بينهما من المخلوقات المتنوعة ، والأجناس المختلفة ، فيعلموا أنها ما خلقت سُدًى ولا باطلا ، بل بالحق ، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى ، وهو يوم القيامة ، ولهذا قال : (وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون) .

ثم نبههم على صدق رسله فيما جاءوا به عنه ، بما أيدهم به من المعجزات ، والدلائل الواضحات ، من إهلاك من كفر بهم ، ونجاه من صدقهم ، فقال : (أو لم يسيروا في الأرض) ، أي : بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين ، ولهذا قال : (فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة) ، أي : كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم — أيها المبعوث إليهم محمد — صلوات الله وسلامه عليه — وأكثر أموالا وأولادا ، وما أوتيتم معشار ما أوتوا ، ومُكنوا في الدنيا تمكينا لم تبلغوا إليه ، وعمروا فيها أعماراً طوالا ، فعمروها أكثر منكم . واستغلوها أكثر من استغلالكم ، ومع هذا لما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا ، أخذهم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله من واق ، ولا حالت أموالهم ولا أولادهم بينهم وبين بأس الله ، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة ، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال ، (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) ، أي : وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله ، واستهزأوا بها ، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم ، ولهذا قال : (ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون) ، كما قال تعالى : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم في طغيانهم يعمهون(٢)) ، وقوله : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم(٣)) ، وقال : (فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم(٤)) .

---

(١) تفسير الطبري : ٢١/١٦ .
(٢) سورة الأنعام ، آية : ١١٠ .
(٣) سورة الصف ، آية : ٥ .
(٤) سورة المائدة ، آية : ٤٩ .

وعلى هذا تكون السوأى [منصوبة مفعولا لأساءوا ، وقيل : بل المعنى فى ذلك : (ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى)] أى : كانت السوأى عاقبتهم ، لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون . فعلى هذا تكون السوأى منصوبة خبر كان ، هذا توجيه ابن جرير(١) ، ونقله عن ابن عباس وقتادة . ورواه ابن أبى حاتم عنهما وعن الضحاك بن مزاحم ، وهو الظاهر ، والله أعلم ، (وكانوا بها يستهزئون) :

﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول تعالى : (الله يبدأ الخلق ثم يعيده) ، أى : كما هو قادر على بداءته فهو قادر على إعادته ، (ثم إليه ترجعون) ، أى : يوم القيامة ، فيجازى كل عامل بعمله :

ثم قال : (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون) ، قال ابن عباس : ييأس المجرمون .

[وقال مجاهد : يفتضح المجرمون : وفى رواية : يكتئب المجرمون] :

(ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء) ، أى : ما شفعت فيهم الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله ، وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم .

ثم قال : (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) ، قال قتادة : هى — والله — الفرقة التى لا اجتماع بعدها(٢) : يعنى : إذا رفع هذا إلى عليين ، وخفض هذا إلى أسفل السافلين ، فذاك آخر العهد بينهما ، ولهذا قال : (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون) ، قال مجاهد وقتادة : ينعمون :

وقال يحيى بن أبى كثير : يعنى سماع الغناء . والحبرةُ أعم من هذا كله ، قال العجّاج(٣) :

الحمد لله الذى أعْطَى الحَبَرْ مَوَالِيَ الحَقِّ ، إن المَوْلَى شَكَرْ

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة ، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده ، فى هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه : عند المساء ، وهو إقبال الليل بظلامه ، وعند الصباح وهو إسفار النهار عن ضيائه .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢١/١٨ .

(٢) تفسير الطبرى : ٢١/١٩ .

(٣) لسان العرب (حبر) وتفسير الطبرى : ٢١/١٩ .

ثم اعترض بحمده ، مناسبة للتسبيح وهو التحميد ، فقال : (وله الحمد فى السموات والأرض) ، أى : هو المحمود على ما خلق فى السموات والأرض .

ثم قال : (وعشيا وحين تظهرون) ، فالعشاء هو : شدة الظلام ، والإظهار : قوة الضياء . فسبحان خالق هذا وهذا ، فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا ، كما قال : (والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها (١)) ، وقال : (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى(٢))، وقال : (والضحى . والليل إذا سجى(٣)) ، والآيات فى هذا كثيرة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا زَبّان بن فائد ، عن سهل بن معاذ بن أنس الجُهَنى ، عن أبيه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذى وفى ؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى : سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون، وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون(٤) .

وقال الطبرانى : حدثنا مطلب بن شُعَيب(٥) الأزدى، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثنى الليث بن سعد ، عن سعيد بن بشير ، عن محمد بن عبد الرحمن بن البيلمانى ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عباس ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من قال حين يصبح : (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون) الآية بكمالها ، أدرك ما فاته فى يومه ، ومن قالها حين يمسى أدرك ما فاته فى ليلته . إسناد جيد(٦) ، ورواه أبو داود فى سننه(٧) .

وقوله : (يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) ، هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة ، وهذه الآيات المتتابعة الكريمة كلها من هذا النمط ، فانه يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها ، ليدل خلقه على كمال قدرته ، فمن ذلك إخراج النبات من الحب ، والحب من النبات . والبيض من الدجاج ، والدجاج من البيض . والإنسان من النطفة ، والنطفة من الإنسان ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن .

وقوله : (ويحيى الأرض بعد موتها) ، كقوله : (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون(٨)) ، وقال : (وترى الأرض هامدة، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت

---

(١) سورة الشمس ، آية : ٣ ، ٤ .
(٢) سورة الليل ، آية : ١ ، ٢ .
(٣) سورة الضحى ، آية : ١ ، ٢ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٤٣٩/٣ .
(٥) فى المعجم الصغير للطبرانى ١١٩/٢ : « مطلب بن سعيد » . وما فى ميزان الاعتدال ١٢٨/٤ يوافق ما هنا .
(٦) علق على أحدى المطبوعات أن فى النسخة المكية : « إسناد ضعيف » . هذا ومحمد بن عبد الرحمن بن البيلمانى ـ كما فى ميزان الاعتدال ٦١٧/٣ ـ قال عنه البخارى وأبو حاتم : منكر الحديث .
(٧) سنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب « ما يقول إذا أصبح » ، الحديث ٥٠٧٦ : ٣١٩/٤ .
(٨) سورة « يس » ، الآية : ٣٣ ، ٣٤ .

وربت وأنبتت من كل زوج بهيج : ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير : وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور (١)) ، وقال : (وهو الذى يرسل الرياح بُشرابين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت ، فأنزلنا به الماء ، فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) (٢) ولهذا قال هاهنا : (وكذلك تخرجون) :

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾

يقول تعالى : (ومن آياته) الدالة على عظمته وكمال قدرته أنّه خلق أباكم آدم من تراب ، (ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) ، فأصلكم من تراب ، ثم من ماء مهين ، ثم تَصَوَّر فكان علقة ، ثم مضغة ، ثم صار عظاما ، شكله على شكل الإنسان ، ثم كسا الله تلك العظام لحما ، ثم نفخ فيه الروح ، فاذا هو سميع بصير : ثم خرج من بطن أمه صغيرا ضعيف القوى والحركة، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار يبنى المدائن والحصون ، ويسافر فى أقطار الأقاليم ، ويركب متن البحور ، ويدور أقطارَ الأرض ويتكسب ويجمع الأموال ، وله فكرة وغور ، ودهاء ومكر ، ورأى وعلم ، واتساع فى أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه : فسبحان من أقدرهم وسَيَّرهم وسخرهم وصرفهم فى فنون المعايش والمكاسب ، وفاوت بينهم فى العلوم والفكرة ، والحسن والقبح ، والغنى والفقر ، والسعادة والشقاوة ، ولهذا قال تعالى : (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) :

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد وغُندَر قالا : حدثنا عوف ، عن قسامة بن زهير ، عن أبى موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والخبيث والطيب ، والسهل والحزن ، وبين ذلك (٣) :

ورواه أبو داود والترمذى من طرق ، عن عوف الأعرابى ، به : وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح (٤) .

وقوله : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا) ، أى : خلق لكم من جنسكم إناثا يكُنَّ لكم أزواجا ، (لتسكنوا إليها) ، كما قال تعالى : (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها (٥)) ، يعنى بذلك حواء ، خلقها الله من آدم من ضِلَعه الأقصر الأيسر : ولو أنه جعل بنى آدم كلهم ذكورا وجعل إناثهم من جنس آخر إما من جان أو حيوان ، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج ، بل كانت تحصل نَفْرَة لو كانت الأزواج من غير الجنس : ثم من تمام رحمته ببنى آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم ، وجعل بينهم وبينهن مودة : وهى المحبة ، ورحمة : وهى الرأفة ، فان

(١) سورة الحج ، آية : ٥ — ٧ .
(٢) سورة الأعراف ، آية : ٥٧ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٤/٤٠٠ ، وانظر : ٤/٤٠٦ .
(٤) سنن أبى داود ، كتاب السنة ، باب « فى القدر » ، الحديث ٤٦٩٣ : ٤/٢٢٢ . وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة البقرة ، الحديث ٤٠٣١ : ٨/٢٩٠ — ٢٩١ .
(٥) سورة الأعراف ، آية : ١٨٩ .

الرجل يمسك المرأة إما لمحبته لها أو لرحمة بها ، بأن يكون لها منه ولد ، أو محتاجة إليه فى الإنفاق ، أو للألفة بينهما ، وغير ذلك ، (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى : ومن آيات قدرته العظيمة (خلق السموات والأرض) ، أى : خلق السموات فى ارتفاعها واتساعها ، وشفوف أجرامها وزهارة(١) كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات ، والأرض فى انخفاضها وكثافتها وما فيها من جبال وأودية ، وبحار وقفار ، وحيوان وأشجار .

وقوله : (واختلاف ألسنتكم) ، يعنى : اللغات ، فهؤلاء بلغة العرب ، وهؤلاء تتر لهم لغة أخرى ، وهؤلاء كرج ، وهؤلاء روم ، وهؤلاء افرنج ، وهؤلاء بربر ، وهؤلاء تكرور ، وهؤلاء حبشة ، وهؤلاء هنود ، وهؤلاء عجم ، وهؤلاء صقالبة ، وهؤلاء خزر ، وهؤلاء أرمن ، وهؤلاء أكراد ، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله من اختلاف لغات بنى آدم ، واختلاف ألوانهم وهى حُلاهم ، فجميع أهل الأرض بل أهل الدنيا منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة : كل له عينان وحاجبان ، وأنف وجبين ، وفم وخدان . وليس يشبه واحد منهم الآخر ، بل لا بد أن يفارقه بشئ من السمت أو الهيئة أو الكلام ، ظاهرا كان أو خفيا ، يظهر عند التأمل ، كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئة لا تشبه الأخرى . ولو توافق جماعة فى صفة من جمال أو قبح ، لا بد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر ، (إن فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله) ، أى : ومن الآيات ما جعل لكم من صفة النوم فى الليل والنهار ، فيه تحصل الراحة وسكون الحركة ، وذهاب الكلال والتعب ، وجعل لكم الانتشار والسعى فى الأسباب والأسفار فى النهار ، وهذا ضد النوم ، (إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) ، أى : يعون .

قال الطبرانى حدثنا حجاج بن عمران السدوسى ، حدثنا عمرو بن الحصين العقيلى ، حدثنا محمد بن عبد الله بن عُلاثة ، حدثنى ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان ، سمعت عبد الملك بن مروان يحدث عن أبيه ، عن زيد بن ثابت — رضى الله عنه — قال : أصابنى أرق من الليل ، فشكوت ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «قل : اللهم ، غارت النجوم ، وهدأت العيون ، وأنت حى قيوم . يا حى يا قيوم ، أنم عينى وأهدئ ليلى » فقلتها ، فذهب عنى .

---

(١) كذا ، والمعروف لغة : «وزهرة» ، بضم فسكون ، وهى البياض .

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى : (ومن آياته) الدالة على عظمته أنه (يريكم البرق خوفا وطمعا) ، أى : تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة ، أو صواعق متلفة ، وتارة ترجون ومَيضَه وما يأتى بعده من المطر المحتاج إليه ، ولهذا قال : (وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها) ، أى : بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شىء ، فلما جاءها الماء (اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) . وفى ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة ، ولهذا قال : (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) .

ثم قال : (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) كقوله : (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه (١)) ، وقوله : (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا (٢)) . وكان عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – إذا اجتهد فى اليمين يقول : « لا ، والذى تقوم السماء والأرض بأمره » . أى : هى قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيره إياها ، ثم إذا كان يوم القيامة بُدّلت الأرض غير الأرض والسموات ، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعائه إياهم ، ولهذا قال : (ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) ، كما قال تعالى : (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا (٣)) ، وقال تعالى : (فإنما هى زجرة واحدة ، فإذا هم بالساهرة (٤)) ، وقال : (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون (٥)) .

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى : (وله من فى السموات والأرض) ، أى : ملكه وعبيده ، (كل له قانتون) ، أى : خاضعون خاشعون طوعا وكرها .

وفى حديث دَرّاج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد ، مرفوعا : « كل حرف فى القرآن يُذكَر فيه القنوت فهو الطاعة (٦) » .

(١) سورة الحج ، آية : ٦٥ .
(٢) سورة فاطر ، آية : ٤١ .
(٣) سورة الإسراء ، آية : ٥٢ .
(٤) سورة النازعات ، آية : ١٣ ، ١٤ .
(٥) سورة « يس » ، آية : ٥٣ .
(٦) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده : ٣/٧٥ . وقد تقدم فى سورة البقرة عند تفسير الآية ١١٦ : ١/٢٣١ ، وقال ابن كثير هناك : « ولكن هذا الإسناد ضعيف لا يعتمد عليه ، ورفع هذا الحديث منكر ، وقد يكون من كلام الصحابى أو من دونه ، والله أعلم ... » .

وقوله : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) ، قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس : يعني أيسر عليه ؛

وقال مجاهد : الإعادة أهون عليه من البَدَاءة ، والبداءة عليه هَيِّنٌ (١) . وكذا قال عكرمة وغيره .

وقال البخارى : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، أخبرنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة — رضى الله عنه — عن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : قال الله : كَذَّبَنِى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهونَ علىّ من إعادته . وأما شتمه إياى فقوله : اتخذ الله ولدا ، وأنا الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد (٢) ؛

انفرد بإخراجه البخارى كما انفرد بروايته أيضا من حديث عبد الرزاق عن معمر ، عن همام عن أبي هريرة ، به (٢) ؛ وقد رواه الإمام أحمد منفردا به عن حسن بن موسى ، عن ابن لهيعة ، حدثنا ابو يونس سليم بن جُبَير ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه ، أو مثله (٣) .

وقال آخرون : كلاهما بالنسبة إلى القدرة على السواء ؛

قال العوفى ، عن ابن عباس : كل عليه هين . وكذا قال الربيع بن خُثَيم : ومال إليه ابن جرير ، وذكر عليه شواهد كثيرة ، قال : ويحتمل أن يعود الضمير فى قوله : (وهو أهون عليه) إلى الخلق ، أى : وهو أهون على الخلق (٤) .

وقوله : (وله المثل الأعلى فى السموات والأرض)، قال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس كقوله : (ليس كمثله شئ (٥)) ؛

وقال قتادة : [مثله] أنه لا إله إلا هو ، ولا رب غيره ، وقال مثل هذا ابن جرير (٥) ؛

وقد أنشد بعض المُفَسِّرين عند ذكر هذه الآية لبعض أهل المعارف :

إذا سَكَنَ الغَدِيرُ عَلَى صَفَاء وَجُنِّبَ أنْ يُحَرِّكَهُ النَّسِيمُ
تَرَى فيه السَّمَاء بلا امْتِرَاء كَذَاكَ الشَّمْسُ تَبْدُو وَالنُّجُومُ
كَذَاكَ قُلُوبُ أرْبَاب التَّجَلِّى يُرَى فى صَفْوِها اللهُ العَظِيمُ

(وهو العزيز) : الذى لا يغالب ولا يمانع ، بل قد غلب كل شئ ، وقهر كل شئ بقدرته وسلطانه (الحكيم) فى أفعاله وأقواله ، شَرْعاً وقَدَرا .

وعن مالك فى تفسيره المروى عنه ، عن محمد بن المنكدر ، فى قوله تعالى : (وله المثل الأعلى) ، قال : لا إله إلا الله ؛

---

(١) تفسير الطبرى : ٢١/٢٤ .
(٢) البخارى ، تفسير سورة الإخلاص : ٦/٢٢٢ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٢/٣٥٠ .
(٤) لفظ ابن جرير ٢١/٢٤ : وأى : إعادة الشيء أهون على الخلق من ابتدائه » .
(٥) تفسير الطبرى : ٢١/ ٢٥ .

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

هذا مثل ضربه الله – تعالى – للمشركين به ، العابدين معه غيره ، الجاعلين له شركاء وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له ملك له ، كما كانوا فى تلبيتهم يقولون : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك . فقال تعالى : (ضرب لكم مثلا من أنفسكم) ، أى : تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم : (هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء) ، أى : لا (١) يرتضى أحد منكم أن يكون عبده شريكا له فى ماله ، فهو وهو فيه على السواء ، (تخافونهم كخيفتكم أنفسكم) ، أى : تخافون أن يقاسموكم الأموال .

قال أبو مجلز : إن مملوكك لاتخاف أن يقاسمك مالك ، وليس له ذاك ، كذلك الله لا شريك له .

والمعنى أن أحدكم يأنف من ذلك ، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه . وهذا كقوله تعالى : (ويجعلون لله ما يكرهون(٢)) أى : من البنات ، حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، وجعلوها بنات الله ، وقد كان أحدهم إذا بُشّر بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، فهم يأنفون من البنات وجعلوا الملائكة بنات الله ، فنسبوا إليه مالا يرتضونه لأنفسهم ، فهذا أغلظ الكفر . وهكذا فى هذا المقام جعلوا له شركاء من عبيده وخلقه ، وأحدهم يأبى غاية الإباء ويأنف غاية الأنفة من ذلك ، أن يكون عبدهُ شريكَه فى ماله ، يساويه فيه ، ولو شاء لقاسمه عليه ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

قال الطبرانى : حدثنا محمود بن الفرج الأصبهانى ، حدثنا إسماعيل بن عمرو البجلى ، حدثنا حماد بن شعيب (٣) ، عن حبيب بن أبى ثابت ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كان يلبى أهل الشرك : لبيك اللهم ، لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك . فأنزل الله : (هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم ، فأنتم فيه سواء تخافونهم ، كخيفتكم أنفسكم (٤)) .

ولما كان التنبيه بهذا المثل على براءته تعالى ونزاهته بطريق الأولى والأحرى ، قال : (كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) .

ثم قال تعالى مبينا أن المشركين إنما عبدوا غيره سَفَهاً من أنفسهم وجهلا ، (بل اتبع الذين ظلموا) ، أى : المشركون (أهواءهم) ، أى : فى عبادتهم الأنداد بغير علم ، (فمن يهدى من أضل الله) ، أى : فلا أحد يهديهم إذا كتب الله

---

(١) فى المخطوطة : « أى : ليرتضى » . والصواب ما أثبتناه .
(٢) سورة النحل ، آية : ٦٢ .
(٣) هو حماد بن شعيب الحمانى الحمصى . مترجم فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ١/٢/١٤٢ .
(٤) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور عن الطبرانى وابن مردويه . انظر : ٥/١٥٥ .

ضلالهم] ، (وما لهم من ناصرين) ، أى : ليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مجير ، ولا محيد لهم عنه ، لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن :

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)

يقول تعالى : فسدد وجهك واستمر على الدين الذى شرعه الله لك ، من الحنيفية ملة إبراهيم، الذى هداك الله لها ، وكملها لك غاية الكمال ، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة، التى فطر الله الخلق عليها، فانه تعالى فطر خلقه على [معرفته وتوحيده ، وأنه لا إله غيره، كما تقدم عند قوله تعالى : (وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا بلى (١)) ؛ وفى الحديث : « إنى خلقت عبادى حُنَفاء ،فاجتالتهم الشياطين عن دينهم (٢) » . وسنذكر فى الأحاديث أن الله ــ تعالى ــ فطر خلقه على] الإسلام، ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية أو النصرانية أو المجوسية .

وقوله : (لاتبديل لخلق الله) ، قال بعضهم : معناه لا تبدلوا خلق الله ، فتغيروا الناس عن فطرتهم التى فَطَرهم الله عليها . فيكون خبرا بمعنى الطلب ، كقوله تعالى : (ومن دخله كان آمنا (٣)) ، وهذا معنى حسن صحيح .

وقال آخرون : هو خبر على بابه ، ومعناه : أنه ــ تعالى ــ ساوى بين خلقه كلهم فى الفطرة على الجبلّة المستقيمة ، لا يولد أحد إلا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس فى ذلك . ولهذا قال ابن عباس ، وإبراهيم النخعى ، وسعيد بن جُبَير ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة، والضحاك ، وابن زيد فى قوله : (لا تبديل لخلق الله) ، أى : لدين الله (٤) .

وقال البخارى قوله : (لا تبديل لخلق الله) : لدين الله، خَلْقُ الأولين : [دينُ الأولين] ، والدين والفطرة : الإسلام .

حدثنا عبدان ، أخبرنا عبد الله ، أخبرنا يونس ، عن الزهرى ، أخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن : أن أبا هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مامن مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تُنْتَج البهيمة بهيمة جَمْعاء ، هل تحسون فيهامن جدعاء ؟ ثم يقول : (فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم (٥)) .

ورواه مسلم من حديث عبد الله بن وهب ، عن يونس بن يزيد الأيلى ، عن الزهرى ، به (٦) . وأخرجاه أيضا من حديث عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همام ، عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى صلى الله عليه وسلم(٧) ؛

(١) سورة الأعراف ، آية : ١٧٢ .
(٢) انظر الحديث عند تفسير آية الأعراف : ٣/٥٠٠ .
(٣) سورة آل عمران ، آية : ٩٧ .
(٤) انظر تفسير الطبرى : ٢١/٢٧ .
(٥) البخارى ، تفسير سورة الروم : ٦/١٤٣ .
(٦) مسلم ، كتاب القدر ، باب « معنى كل مولود يولد على الفطرة » : ٨/٥٣ .
(٧) انظر تفسير الآية ١١٩ من سورة النساء ، ٢/٣٦٨ ، فقد خرجنا هنالك الحديث وشرحنا غريبه . كما ينظر أيضاً : [٤/٢٤٠ .

وفى معنى هذا الحديث قد وردت أحاديث عن جماعة من الصحابة ، فنهم الأسودُ بن سَرِيع التميمى ، قال الإمام أحمد :

حدثنا إسماعيل، حدثنا يونس، عن الحسن، عن الأسود بن سريع قال : أتيت رسولَ الله — صلى الله عليه وسلم — وغزوت معه ، فأصبت ظهرا (١) ، فقَتَل الناس يومئذ ، حتى قتلوا الولدان . فبلغ ذلك رسولَ الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية ؟ . فقال رجل : يا رسول الله ، أماهم أبناء المشركين ؟ فقال : ألا إنما خياركم أبناء المشركين (٢) . ثم قال : لا تقتلوا ذرية ، لا تقتلوا ذرية . وقال : كل نسمة تولد على الفطرة ، حتى يُعرب (٣) عنها لسانها ، فأبواها يهودانها أو ينصرانها (٤) .

ورواه النسائى فى كتاب السير ، عن زياد بن أيوب ، عن هشيم ، عن يونس — وهو ابن عبيد — عن الحسن البصرى ، به :

ومنهم جابر بن عبد الله الأنصارى ، قال الإمام أحمد :

حدثنا هاشم ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع بن أنس ، عن الحسن ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة ، حتى يُعرب عنه لسانه ، فإذا عبر (٥) عنه لسانه إما شاكراً وإما وإما كفورا (٦) » .

ومنهم عبد الله بن عباس الهاشمى ، قال الإمام أحمد :

حدثنا عفان ، حدثنا أبو عوانة ، حدثنا أبو بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل عن أولاد المشركين ، فقال : الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم (٧) . أخرجاه فى الصحيحين ، من حديث أبى بشر جعفر بن إياس اليشكرى ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس مرفوعا (٨) بذلك .

وقد قال أحمد أيضا : حدثنا عفان ، حدثنا حماد — يعنى ابن سلمة — أنبأنا عمار بن أبى عمار ، عن ابن عباس قال : أتى على زمان وأنا أقول : « أولاد المسلمين مع أولاد المسلمين . وأولاد المشركين مع المشركين » ، حتى حدثنى فلان

---

(١) فى المخطوطة : « ظفرا » . والمثبت عن المسند : والظهر — بفتح فسكون — : الإبل التى يحمل عليها ويركب .
(٢) يعنى — عليه السلام — أن خيار الصحابة ولدوا فى الجاهلية ، وأسلموا بعد أن صاروا رجالا .
(٣) أى : يبين .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٤٣٥/٣ . وانظره أيضاً فى تفسير سورة هود : ٢٤٥/٤ .
(٥) فى المسند : « فإذا أعرب » .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٣٥٣/٣ .
(٧) مسند الإمام أحمد : ٣٢٨/١ .
(٨) البخارى ، كتاب الجنائز ، باب « ما قيل فى أولاد المشركين » : ١٢٥/٢ . ومسلم ، كتاب القدر ، باب « معنى كل مولود يولد على الفطرة » : ٥٤/٨ .

عن فلان : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنهم فقال : الله أعلم بما كانوا عاملين . قال : فلقيت الرجل فأخبرني ، فأمسكت عن قولي (١) .

ومنهم عياض بن حمَار المجاشعي ، قال الإمام أحمد :

حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا هشام ، حدثنا قتادة ، عن مُطَرِّف ، عن عياض بن حمار أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطب ذات يوم فقال في خطبته : إن ربي عز وجل أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا : كل مال نحلته عبادي حلال . وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا ، ثم إن الله ـ عز وجل ـ نظر إلى أهل الأرض فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب ، وقال : إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك ، وأنزلت عليك كتابا لا يغسله (٢) الماء تقرؤه نائما ويقظان . ثم إن الله أمرني أن أحرق قريشا ، فقلت : يا رب ، إذا يَثْلَغُوا رأسي فيدعوه خُبْزَةً . قال : استخرجهم كما استخرجوك ، واغزهم نُغْزِك ، وأنفق [عليهم] فسننفق عليك . وابعث جيشا نبعث خمسة مثله ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك . قال : وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مُقسط متصدق موفق . ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم . ورجل عفيف فقير متصدق . وأهل النار خمسة : الضعيف الذي لا زَبْرَ له ،الذين هم فيكم تَبَعاً ، لا يبتغون أهلا ولا مالا . والخائن الذي لا يخفى (٣) له طمع وإن دق إلا خانه . ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك . وذكر البخيل ، أو الكذاب ، والشِّنظير : الفحاش .

انفرد بإخراجه مسلم ، فرواه من طرق عن قتادة ، به (٤) .

وقوله تعالى : (ذلك الدين القيم) ، أي : التمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين القويم المستقيم ، (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ، أي : فلهذا لا يعرفه أكثر الناس ، فهم عنه ناكبون ، كما قال تعالى : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين (٥)) ، (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله (٦)) ... الآية .

وقوله : (منيبين إليه) ـ قال ابن زيد ، وابن جريج : أي راجعين إليه ، (واتقوه) ، أي : خافوه وراقبوه ، (وأقيموا الصلاة) ، وهي الطاعة العظيمة ، (ولا تكونوا من المشركين) ، أي: بل من الموحدين المخلصين له العبادة ، لا يريدون بها سواه .

قال ابن جرير : [حدثنا ابن حُمَيد (٧)] ، حدثنا يحيى بن واضح ، حدثنا يونس بن أبي إسحاق (٨) ، عن يزيد بن أبي مريم قال : مر عمر ـ رضي الله عنه ـ بمعاذ بن جبل فقال : ما قوام هذه الأمة ؟ قال معاذ : ثلاث ، وهن المنجيات :

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/٧٣ .
(٢) هذا كناية عن كونه محفوظاً في الصدور ، لا يتطرق إليه الذهاب .
(٣) أي : لا يظهر . والخفاء من الأضداد .
(٤) تقدم الحديث في سورة المائدة عند تفسير الآية ١٩ منها . انظر : ٣/٦٦ ، وخرجناه هنالك ، وشرحنا غريبه .
(٥) سورة يوسف ، آية : ١٠٣ .
(٦) سورة الأنعام ، آية : ١١٦ .
(٧) ما بين القوسين عن تفسير الطبري .
(٨) في تفسير الطبري : « يونس بن صالح » . ويبدو أن الصواب ما في تفسير ابن كثير ، انظر ترجمة يونس بن أبي إسحاق في التهذيب : ١١/٤٣٣ .

الإخلاص ، وهى الفطرة [فطرة الله] التى فَطَر الناس عليها ، والصلاة وهى الملة ، والطاعة وهى العصمة : فقال عمر : صدقت (١) .

حدثنى يعقوب ، حدثنا ابن علية ، حدثنا أيوب ، عن أبى قلابة : أن عمر — رضى الله عنه — قال لمعاذ : ما قوام هذا الأمر ؟ فذكره نحوه (٢) .

وقوله : (من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، كل حزب بما لديهم فرحون) ، أى : لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم ، أى : بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض .

وقرأ بعضهم : (فارقوا دينهم) ، أى : تركوه وراء ظهورهم ، وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبَدة الأوثان ، وسائر أهل الأديان الباطلة ، مما عدا أهل الإسلام ، كما قال تعالى : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، لست منهم فى شئ ، إنما أمرهم إلى الله ، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون (٣)) ، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومِلَل باطلة ؛ وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شئ ، وهذه الأمة أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة ، وهم أهل السنة والجماعة ، المتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين ، وأئمة المسلمين فى قديم الدهر وحديثه ، كما رواه الحاكم فى مستدركه أنه سئل عليه السلام عن الفرقة الناجية منهم ، فقال : ما أنا عليه وأصحابى .

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن الناس أنهم فى حال الاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له ، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم فى حالة الاختيار يشركون بالله ، ويعبدون معه غيره .

وقوله : (ليكفروا بما آتيناهم) ، هى لام العاقبة عند بعضهم ، ولام التعليل عند آخرين ، ولكنها تعليل لتقييض الله لهم ذلك :

ثم توعدهم بقوله : (فسوف تعلمون) ، قال بعضهم : والله لو توعدنى حارس دَرْب لخفت منه ، فكيف والمتوعد هاهنا الذى يقول للشئ : كن ، فيكون .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢١/٢٦ .
(٢) المرجع السابق : ٢١/٢٦ — ٢٧ .
(٣) سورة الأنعام ، آية : ١٥٩ .

ثم قال منكراً على المشركين فيما اختلقوه من عبادة الأوثان بلا دليل ولا حجة ولا برهان : (أم أنزلنا عليهم سلطانا) ، أى : حجة ، (فهو يتكلم) ، أى : ينطق (بما كانوا به يشركون) ؟ وهذا استفهام إنكار ، أى : لم يكن شئ من ذلك .

ثم قال : (وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون) ، هذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا مَنْ عَصَمَه الله ووفقه ؛ فان الإنسان إذا أصابته نعمة بَطِر وقال : (ذهب السيئات عنى ؛ إنه لفرح فخور (١)) ، أى : يفرح فى نفسه ويفخر على غيره ، وإذا أصابته شدة قَنِط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية ؛ قال الله : (إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات) ، أى : صبروا فى الضراء ، وعملوا الصالحات فى الرخاء ، كما ثبت فى الصحيح : « عجبا للمؤمن : لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له » (٢) .

وقوله تعالى : (أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) ، أى : هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله ، فيوسع على قوم ويضيّق على آخرين ، (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) .

فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى آمراً بإعطاء (ذى القربى حقه) ، أى : من البر والصلة ، (والمسكين) ، وهو : الذى لا شئ له ينفق عليه أوله شئ لا يقوم بكفايته ، (وابن السبيل) ، وهو المسافر المحتاج إلى نفقة وما يحتاج إليه فى سفره ، (ذلك خير للذين يريدون وجه الله) ، أى : النظر إليه يوم القيامة ، وهو الغاية القصوى ، (وأولئك هم المفلحون) ، أى : فى الدنيا وفى الآخرة .

ثم قال : (وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله) ، أى : من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم ، فهذا لا ثواب له عند الله ـ بهذا فسره ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب ، والشعبى ـ وهذا الصنيع مباح ، وإن كان لا ثواب فيه ، إلا أنه قد نهى عنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة ، قاله الضحاك ، واستدل بقوله : (ولا تمنن تستكثر) ، أى : لا تعط العطاء تريد أكثر منه .

وقال ابن عباس : الربا رباءان (٣) ، فربا لا يصح ، يعنى ربا البيع ؟ وربا لا بأس به ، وهو هدية الرجل يريد فضلها وأضعافها . ثم تلا هذه الآية : (وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله) .

---

(١) سورة هود ، آية : ١٠ .

(٢) تقدم الحديث فى سورة هود ، عند تفسير الآية الحادية عشرة منها ، انظر : ٤/٢٤٣ ، وقد خرجناه هنالك . وانظره أيضاً فى مسند الإمام أحمد : ٤/٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٦/١٥ ، ١٦ .

(٣) كذا فى المخطوطة ، والدر المنثور : ٥/١٥٦ ، والمعروف لغة : « ربوان » . انظر لسان العرب مادة « ربو » .

وإنما الثواب عند الله فى الزكاة ، ولهذا قال : (وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) ، أى : الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء ، كما فى الصحيح : «وما تصدق أحد بعدل تمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه ، فيربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فَلُوّه أو فصيله ، حتى تصير التمرة أعظم من أُحُد»(١) .

وقوله : (الله الذى خلقكم ثم رزقكم) ، أى : هو الخالق الرازق ، يخرج الإنسان من بطن أمه عريانا لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قُوَى ، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك ، والرياش واللباس والمال والأملاك والمكاسب ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن سلام أبى شرحبيل ، عن حَبَّة وسواء ابنى خالد قالا : دخلنا على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يصلح شيئا فأعنّاه ، فقال : «لا تيأسا من الرزق ما تهززتْ (٢) رءوسكما ؛ فان الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة (٣) ، ثم يرزقه الله عز وجل»(٤) .

وقوله : (ثم يميتكم) ، أى : بعد هذه الحياة ، (ثم يحييكم) ، أى : يوم القيامة .

وقوله : (هل من شركائكم) ، أى : الذين تعبدونهم من دون الله ، (من يفعل من ذلكم من شىء ؟) ، أى : لا يقدر أحد منهم على فعل شىء من ذلك ، بل الله — سبحانه وتعالى — هو المستقل بالخلق والرزق ، والإحياء والإماتة ، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة . ولهذا قال بعد هذا كله : (سبحانه وتعالى عما يشركون) ، أى : تعالى وتقدس وتنزه وتعاظم وجل وعزّ عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساو ، أو ولد أو والد ، بل هو الأحد الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾

قال ابن عباس ، وعكرمة ، والضحاك ، والسدى ، وغيرهم : المراد بالبر هاهنا : الفيافى ، وبالبحر : الأمصار والقرى . وفى رواية عن ابن عباس وعكرمة : البحر : الأمصار والقرى ، ما كان منها على جانب نهر .

وقال آخرون : بل المراد بالبر هو البر المعروف ، وبالبحر : البحر المعروف (٥) .

وقال زيد بن رُفَيع : (ظهر الفساد) ، يعنى : انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط ، وعن البحر تعمى دوابه . رواه ابن أبى حاتم(٦) .

---

(١) تقدم الحديث فى سورة البقرة ، عند تفسير الآية ٢٧٦ ، وخرجناه هنالك ، وشرحنا غريبه ، انظر ١/٤٨٧ .
(٢) أى : تحركت .
(٣) أى : لباس .
(٤) مسند الإمام أحمد ٣/٤٦٩ .
(٥) انظر تفسير الطبرى : ٢١/٣١ – ٣٢ .
(٦) الأثر كما فى الدر المنثور ٥/١٥٦ ، وقال : انقطاع المطر . قيل : فالبحر ؟ قال : إذا لم يمطر عميت دواب البحر .

وقال : حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى ، عن سفيان ، عن حُمَيد بن قيس الأعرج ، عن مجاهد : (ظهر الفساد فى البر والبحر) ، قال : فساد البر : قتل ابن آدم ، وفساد البحر : أخذ السفينة غصبا .

وقال عطاء الخراسانى : المراد بالبر ما فيه من المدائن والقرى ، وبالبحر : جزائره .

والقول الأول أظهر ، وعليه الأكثر ، ويؤيده ما ذكره محمد بن إسحاق فى السيرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح ملك أيلة ، وكتب له ببحره يعنى ببلده (١) .

ومعنى قوله تعالى : (ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس) ، أى : بان النقص فى الثمار والزروع بسبب المعاصى .

وقال أبو العالية : من عصى الله فى الأرض فقد أفسد فى الأرض ، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة ، ولهذا جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود : «لَحَدٌّ يقام فى الأرض أحبّ إلى أهلها من أن يمطروا أربعين صباحا»(٢) . والسبب فى هذا أن الحدود إذا أقيمت ، انكفّ الناس ــ أو أكثرهم ، أو كثير منهم ــ عن تعاطى المحرمات ، وإذا ارتكبت المعاصى كان سببا فى محاق البركات من السماء والأرض . ولهذا إذا نزل عيسى ــ عليه السلام ــ فى آخر الزمان فحكم بهذه الشريعة المطهرة فى ذلك الوقت ، من قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية ، وهو تركها ــ فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف ، فإذا أهلك الله فى زمانه الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج ، قيل للأرض : أخرجى بركاتك . فيأكل من الرمانة الفئام (٣) من الناس ، ويستظلون بقحفها(٤) ، ويكفى لبن اللقحة الجماعةَ من الناس (٥) . وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير .ثبت فى الصحيح : « أن الفاجر إذا مات تستريح العباد والبلاد، والشجر والدواب » (٦) .

ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا محمد والحسين قالا : حدثنا عوف ، عن أبى قحذم قال : وجد رجل فى زمان زياد ــ أو : ابن زياد ــ صرة (٧) فيها حَبّ يعنى من بر أمثال النوى(٨) عليه مكتوب : هذا نبت فى زمان كان يعمل فيه بالعدل (٩) .

وروى مالك ، عن زيد بن أسلم : أن المراد بالفساد هاهنا الشرك . وفيه نظر .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام : ٢/٥٢٥ – ٥٢٦ .

(٢) لم يقع لنا الحديث فى سنن أبى داود . وقد تقدم تخريجنا لهذا الحديث عند تفسير الآية الثانية من سورة النور ، انظر : ٦/٦

(٣) أى : الجماعة .

(٤) أى : بقشرها .

(٥) انظر تفسير الآية ١٥٩ من سورة النساء : ٢/٤١٥ .

(٦) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب « سكرات الموت » : ٨/١٣٣ . ومسلم ، كتاب الجنائز ، باب « ما جاء فى مستريح ومستراح منه » : ٣/٥٤ .

(٧) فى المسند : « حفرة » .

(٨) فى المسند : « أمثال الثوم » .

(٩) مسند الإمام أحمد : ٢/٢٩٦ .

وقوله : (ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون) ، أى : يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات ، اختبارا منه ، ومجازاة على صنيعهم ، (لعلهم يرجعون) ، أى : عن المعاصى ، كما قال تعالى : (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) (١) :

ثم قال تعالى : (قل : سيروا فى الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) ، أى : من قبلكم ، (كان أكثرهم مشركين) ، أى : فانظروا ماذا حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى آمراً [عباده] بالمبادرة إلى الاستقامة فى طاعته ، والمبادرة إلى الخيرات : (فأقم وجهك للدين القيم ، من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله) ، أى : يوم القيامة ، إذا أراد كونه فلا راد له ، (يومئذ يصدعون) ، أى : يتفرقون ، ففريق فى الجنة وفريق فى السعير ، ولهذا قال : (من كفر فعليه كفره ، ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون (٢). ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله) ، أى : يجازيهم مجازاة الفضل : الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى ما يشاء الله ، (إنه لا يحب الكافرين). ومع هذا هو العادل فيهم ، الذى لا يجور :

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

يذكر تعالى نعمه على خلقه ، فى إرساله الرياح مبشرات بين يدى رحمته ، بمجىء الغيث عقيبها ، ولهذا قال :(وليذيقكم من رحمته) ، أى : المطر الذى ينزله فيحيى به العباد والبلاد ، (ولتجرى الفلك بأمره) ، أى : فى البحر ، وإنما سيرها بالريح ، (ولتبتغوا من فضله) ، أى : فى التجارات والمعايش ، والسير من إقليم إلى إقليم ، وقطر إلى قطر ، (ولعلكم تشكرون) ، أى : تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة ، التى لا تعد ولا تحصى .

ثم قال : (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم ، فجاءوهم بالبينات ، فانتقمنا من الذين أجرموا) ، هذه تسلية من الله لعبده ورسوله محمد — صلوات الله وسلامه عليه — بأنه وإن كذبه كثير من قومه ومن الناس، فقد كُذّبت الرسل المتقدمون مع ماجاءوا أممهم به من الدلائل الواضحات ، ولكن الله انتقم ممن كذبهم وخالفهم ، وأنجى المؤمنين بهم ، (وكان

---

(١) سورة الاعراف ، آية ، ١٦٨

(٢) قال الطبرى ٢١/٣٣ : « يقول : فلأنفسهم يستعدون ويسوون المضجع ، ليسلموا وينجوا من عذابه ، كما قال الشاعر :
امهد لنفسك ، حان السقم والتلف * ولا تضيعن نفساً ما لها خلف

حقاً علينا نصر المؤمنين) ، هو حق أوجبه على نفسه الكريمة ، تكرما وتفضلا ، كقوله تعالى : (كتب ربكم على نفسه الرحمة)(١) .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا ابن نفيل ، حدثنا موسى بن أعين ، عن ليث عن شهر بن حوشب ، عن أم الدرداء ، عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : ما من امرىء مسلم يَرُدّ عن عرض أخيه ، إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة . ثم تلا هذه الآية : (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) .

ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾

يبين تعالى كيف يخلق السحاب (٢) التي ينزل منها الماء فقال : (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا) ، إما من البحر على ما ذكره غير واحد ، أو مما يشاء الله عز وجل ، (فيبسطه في السماء كيف يشاء) ، أي : يَمُدُّه فيكثّرُه وينَمّيه ، ويجعل من القليل كثيرا ، ينشىء سحابة فترى في رأي العين مثل التُّرس ، ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق ، وتارة يأتي السحاب من نحو البحر ثقالا مملوءة ماء ، كما قال تعالى : (وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء ، فأخرجنا به من كل الثمرات — كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون (٣)) ، وكذلك قال هاهنا : (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا ، فيبسطه في السماء كيف يشاء ، ويجعله كسفا) .

قال مجاهد ، وأبو عمرو بن العلاء ، ومطر الورّاق ، وقتادة : يعني قطعا (٤) .

وقال غيره : متراكما ؛ قاله الضحاك .

وقال غيره : أسود من كثرة الماء ، تراه مدلهما ثقيلا قريبا من الأرض .

وقوله : (فترى الودق يخرج من خلاله) ، أي : فترى المطر — وهو القطر — يخرج من بين ذلك السحاب ، (فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون) ، أي : لحاجتهم إليه يفرحون بنزوله عليهم ووصوله إليهم .

وقوله : (وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين) ، معنى الكلام أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قنطين أزلين (٥) من نزول المطر إليهم قبل ذلك ، فلما جاءهم جاءهم على فاقة ، فوقع منهم موقعا عظيما .

وقد اختلف النحاة في قوله : (من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين) ، فقال ابن جرير : هو تأكيد . وحكاه عن بعض أهل العربية (٦) .

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ١٢

(٢) السحاب : جمع سحابة ، وقد أنثه المؤلف باعتبار المعنى . هذا وانظر تفسير الطبري عند هذه الآية : ٢١/ ٣٥ .

(٣) سورة الأعراف ، آية : ٥٧ .

(٤) انظر تفسير الطبري : ٢١/ ٣٥ .

(٥) الأزل — بفتح فسكون — : الشدة .

(٦) انظر آراء النحاة في البحر المحيط لأبي حيان : ٧/ ١٧٨ — ١٧٩ ، وتفسير الطبري : ٢١/ ٣٤ .

وقال آخرون : من قبل أن ينزل عليهم المطر ، (من قبله) ، أى : الإنزال (لمبلسين) .

ويحتمل أن يكون ذلك من دلالة التأسيس ، ويكون معنى الكلام : أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله ، ومن قبله أيضا قد فات عندهم نزوله وقتا بعد وقت ، فترقبوه فى إبانه فتأخر ، فمضت مدة فترقبوه فتأخر ، ثم جاءهم بغتة بعد الإياس منه والقنوط ، فبعد ما كانت أرضهم مقشعرة هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج : ولهذا قال : (فانظر إلى آثار رحمة الله) ، يعنى المطر ، (كيف يحيي الأرض بعد موتها) .

ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها ، فقال : (إن ذلك لمحيي الموتى) ، أى : إن الذى فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات ، (إنه على كل شىء قدير) .

ثم قال تعالى : (ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون) ، يقول : (ولئن أرسلنا ريحاً) يابسة على الزرع الذى زرعوه ، ونبت وشب واستوى على سوقه ، فرأوه مصفرا ، أى : قد اصفر وشرع فى الفساد ، لظلوا من بعده ، أى : بعد هذا الحال يكفرون ، أى : يجحدون ماتقدم من النعم ، كما قال : (أفرأيتم ماتحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون ، إنا لمغرمون ، بل نحن محرومون (١)) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع ، حدثنا هشيم ، عن يعلى بن عطاء ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عمرو قال : الرياح ثمانية ، أربعة منها رحمة ، وأربعة عذاب ، فأما الرحمة فالناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات ، وأما العذاب فالعقيم والصرصر ، وهما فى البر ، والعاصف والقاصف ، وهما فى البحر .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو عُبَيد الله ابن أخى ابن وهب ، حدثنا عمى ، حدثنا عبد الله بن عَيَّاش ، حدثنى عبد الله بن سليمان ، عن دراج ، عن عيسى بن هلال الصَّدَفى ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الريح مسخرة من الثانية — يعنى الأرض الثانية — فلما أراد الله أن يهلك عادا ، أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحا تهلك عاداً ، فقال : يارب ، أرسل عليهم من الريح قدر منخر الثور ، قال له الجبار تبارك وتعالى : لا ، إذاً تكفأ الأرض وما عليها ، ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم ، فهى التى قال الله فى كتابه : (ماتذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم) : هذا حديث (٢) غريب ، ورفعه منكر ، والأظهر أنه من كلام عبد الله بن عمرو ، رضى الله عنه .

فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

يقول تعالى : كما أنك ليس فى قدرتك أن تسمع الأموات فى أجداثها ، ولا تبلغ كلامك الصمّ الذين لا يسمعون ، وهم مع ذلك مُدْبِرُون عنك ، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق ، وردهم عن ضلالتهم ، بل ذلك إلى الله تعالى ، فإنه بقدرته يسمع الأمواتَ أصوات الأحياء إذا شاء ، ويهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وليس ذلك لأحد سواه ، ولهذا قال : (إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) ، أى : خاضعون مستجيبون مطيعون ، فأولئك هم الذين يستمعون

(١) سورة الواقعة ، الآيات : ٦٣ — ٦٧ .

(٢) سيأتى هذا الحديث عند تفسير الآية ٤٢ من سورة الذاريات .

الحق ويتبعونه ، وهذا حال المؤمنين ، والأول مَثَلُ الكافرين ، كما قال تعالى : (إنما يستجيب الذين يسمعون ، والموتى يبعثهم الله ، ثم إليه يرجعون (١)) .

وقد استدلت أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ بهذه الآية : (إنك لا تسمع الموتى) ، على توهيم عبد الله بن عمر فى روايته مخاطبة النبى صلى الله عليه وسلم القتلى الذين ألقوا فى قليب بدر ، بعد ثلاثة أيام ، ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم ، حتى قال له عمر : يا رسول الله ، ما تخاطب من قوم قد جيَّفوا ؟ فقال : والذى نفسى بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يجيبون (٢) . وتأولته عائشة على أنه قال : إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق (٣) .

وقال قتادة : أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته تقريعاً وتوبيخاً ونقمة .

والصحيح عند العلماء رواية ابن عمر ، لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة ، من أشهر ذلك مارواه ابن عبدالبر مصححاً ، عن ابن عباس مرفوعاً (٤) : مامن أحد يمر بقبر أخيه المسلم ، كان يعرفه فى الدنيا ، فيسلم عليه ، إلا رد الله عليه روحه ، حتى يرد عليه السلام (٥) .

* ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾

ينبه تعالى على تنقل الإنسان فى أطوار الخلق حالا بعد حال ، فأصله من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، ثم يصير عظاما ثم يُكسَى لحما ، ويُنفَخ فيه الروح ، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفا نحيفاً واهن القوى . ثم يشب قليلا قليلا حتى يكون صغيراً ، ثم حدَثا ، ثم مراهقاً ، ثم شابا . وهو القوة بعد الضعف ، ثم يشرع فى النقص فيكتهل ، ثم يشيخ ثم يهرم ، وهو الضعف بعد القوة . فتضعف الهمة والحركة والبطش ، وتشيب اللِّمّة ، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة ، ولهذا قال : (ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ، يخلق ما يشاء) ، أى : يفعل ما يشاء ويتصرف فى عبيده بما يريد ، (وهو العليم القدير) .

قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، عن فضيل (٦) ويزيد ، حدثنا فضيل بن مرزوق ، عن عطية العوفى قال : قرأت على ابن

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ٣٦ .

(٢) الحديث رواه مسلم ، والإمام أحمد ، والنسائى من رواية أنس بن مالك . انظر صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب « عرض مقعد الميت من الجنة أو النار » : ٨/١٦٣ ـ ١٦٤ ، ومسند الإمام أحمد : ١/٢٦ ـ ٢٧ ، ٣/١٠٤ ، ١٧٢ ، ٢٢٠ ، ٢٦٣ . والنسائى ، كتاب الجنائز ، باب « أرواح المؤمنين » : ٤/١٠٨ ـ ١٠٩ .

(٣) انظر رواية عائشة فى المسند : ٦/١٧٠ .

(٤) لم يقع لنا حديث ابن عباس ، ولكن فى سنن أبى داود ، كتاب المناسك ، باب « زيارة القبور » ، الحديث ٢٠٤١ ، من أبى هريرة مرفوعا : « ما من أحد يسلم على ، إلا رد الله على روحى حتى أرد عليه السلام » .

(٥) وقع بعد هذا الحديث فى الطبعات السابقة زيادات عن النسخة المكية ، وهى أحاديث من رواية ابن أبى الدنيا فى كتابه القبور .

(٦) فى المخطوطة : « عن فضل » . والمثبت عن المسند ، والطبعات السابقة من تفسير ابن كثير . ولعله فضيل بن غزوان . انظر ترجمة وكيع بن الجراح فى التهذيب : ١١/١٢٣ .

عمر : (الله الذى خلقكم من ضَعْف (١) ، ثم جعل من بعد ضَعْف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضَعْفا) ، فقال : (الله الذى خلقكم من ضُعْف (٢) ، ثم جعل من بعد ضُعْف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضُعفا) ، ثم قال : قرأتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قرأت على ، فأخذ عليّ كما أخذتُ عليك (٣) :

ورواه أبو داود (٤) والترمذى — وحسّنه — من حديث فضيل ، به : ورواه أبو داود من حديث عبد الله بن جابر ، عن عطية ، عن أبى سعيد ، بنحوه (٥) :

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾

يخبر تعالى عن جهل الكفار فى الدنيا والآخرة ، ففى الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان ، وفى الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضا ، فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا فى الدنيا إلا ساعة واحدة ، ومقصودهم هم بذلك عدم قيام الحجة عليهم ، وأنهم لم يُنْظَروا حتى يُعذَر إليهم . قال الله تعالى : (كذلك كانوا يؤفكون • وقال الذين أوتوا العلم والإيمان : لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث) ، أى : فيردّ عليهم المؤمنون العلماء فى الآخرة ، كما أقاموا عليهم حجة الله فى الدنيا ، فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعة : (لقد لبثتم فى كتاب الله) ، أى : فى كتاب الأعمال (إلى يوم البعث) ، أى : من يوم خلقتم إلى أن بعثتم ، (ولكنكم كنتم لا تعلمون) :

قال الله تعالى : (فيومئذ) ، أى : يوم القيامة (لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم) ، أى : اعتذارهم عما فعلوا ، (ولا هم يستعتبون) ، أى : ولا هم يرجعون إلى الدنيا ، كما قال تعالى : (وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين) :

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى : (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) ، أى : قد بينا لهم الحق ، ووضحناه لهم ، وضربنا لهم فيه الأمثال ليتبينوا الحق ويتبعوه . (ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا : إن أنتم إلا مبطلون) ، أى : لو رأوا أى آية

---

(١) أى : بفتح الضاد .

(٢) أى : بضمها .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٢/٥٨ – ٥٩ .

(٤) سنن أبى داود ، كتاب الحروف ، الحديث ٣٩٧٨ : ٤/٣٢ . وتحفة الأحوذى ، أبواب القراءات ، الحديث ٥٠٩٥ ، ٤٠٩٦ : ٨/٢٥٧ – ٢٥٨ .

(٥) سنن أبى داود ، كتاب الحروف ، الحديث ٣٩٧٩ : ٤/٣٢ .

كانت ، سواء كانت باقتراحهم أو غيره ، لا يؤمنون بها ، ويعتقدون أنها سحر وباطل ، كما قالوا فى انشقاق القمر ونحوه ، كما قال تعالى : (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون • ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم (١)) ، ولهذا قال هاهنا : (كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون • فاصبر إن وعد الله حق) ، أى : اصبر على مخالفتهم وعنادهم ، فان الله منجز لك ما وعدك من نصره إياك ، وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك فى الدنيا والآخرة : (ولا يستخفنك الذين لايوقنون) ، أى : بل اثبت على ما بعثك الله به ، فانه الحق الذى لا مرية فيه، ولا تعدل عنه وليس فيما سواه هُدًى يتبع ، بل الحق كله منحصر فيه .

قال سعيد عن قتادة : نادى رجل من الخوارج عليا — رضى الله عنه — وهو فى الصلاة — صلاة الغداة — فقال : (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك : لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين)(٢)، فأنصت له على حتى فهم ما قال ، فأجابه وهو فى الصلاة : (فاصبر إن وعد الله حق ، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، وقد رواه ابن جرير من وجه آخر فقال :

حدثنا ابن وكيع ، حدثنا يحيى بن آدم ، عن شريك ، عن عثمان (٣) بن أبى زوعة ، عن على بن ربيعة قال : نادى رجل من الخوارج عليا وهو فى صلاة الفجر ، فقال : (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك : لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) ، فأجابه على وهو فى الصلاة: (فاصبر إن وعد الله حق، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون (٤)) .

طريق أخرى ، قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا على بن الجعد ، أخبرنا شريك ، عن عمران بن ظَبْيان ، عن أبى تحيا (٥) قال : صلى على — رضى الله عنه — صلاة الفجر ، فناداه رجل من الخوارج : (لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) ، فأجابه على ، وهو فى الصلاة : (فاصبر إن وعد الله حق، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) .

[ما روى فى فضل هذه السورة الشريفة ، واستحباب قراءتها فى الفجر]

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن عبد الملك بن عمير سمعت شبيبا أبا روح ، يحدث عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم — صلى بهم الصبح فقرأ فيها الرّوم فأوهم ، فقال : إنه يلبس علينا القرآن ، فان أقواما منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء ، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء (٦) .

وهذا إسناد حسن ومتن حسن ، وفيه سر عجيب : ونبأ غريب ، وهو أنه — عليه السلام — تأثر بنقصان وضوء من ائتمّ به ، فدل ذلك أن صلاة المأموم معلوقة (٧) بصلاة الإمام .

---

(١) سورة يونس ، آية : ٩٦ — ٩٧ .

(٢) سورة الزمر ، آية : ٦٥ .

(٣) هو أبو المغيرة عثمان بن المغيرة . مترجم فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٣/١/١٦٧ .

(٤) تفسير الطبرى : ٢١/٣٨ .

(٥) كذا « تحيا » وكذلك فى الجرح والتعديل فى ترجمة عمران بن ظبيان : ٣/١/٣٠٠ . وقال ابن أبى حاتم : « عمران بن ظبيان ، روى عن أبى تحيا حكيم بن سعد » .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٣/٤٧١ ، ٥/٣٦٨ .

(٧) كذا فى المخطوطة . وفى الطبعات السابقة : « متعلقة » .

تفسير سورة لقمان

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ (١) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ (٣) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٥)﴾

تقدم فى أول « سورة البقرة » عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة ، وهو أنه — تعالى — جعل هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين ، وهم الذين أحسنوا العمل فى اتباع الشريعة ، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها ، وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها ، ووصلوا قراباتهم وأرحامهم ، وأيقنوا بالجزاء فى الدار الآخرة ، فرغبوا إلى الله فى ثواب ذلك ، لم يراءوا به ولا أرادوا جزاء من الناس ولا شكورا ، فمن فعل ذلك كذلك فهو من الذين ، قال الله تعالى : (أولئك على هدى من ربهم) ، أى : على بصيرة وبينة ومنهج واضح جلى ، (وأولئك هم المفلحون) ، أى : فى الدنيا والآخرة :

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧)﴾

لما ذكر تعالى حال السعداء ، وهم الذين يهتدون بكتاب الله وينتفعون بسماعه ، كما قال تعالى : (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ،ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد (١)) عطف بذكر حال الأشقياء ، الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله ، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب ، كما قال ابن مسعود فى قوله تعالى : (ومن الناس من يشترى لهو الحديث) ، قال : هو — والله — الغناء :

قال ابن جرير : حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى يزيد بن يونس ، عن أبى صخر ، عن أبى معاوية البجلى ، عن سعيد بن جبير ، عن أبى الصهباء البكرى ، أنه سمع عبد الله بن مسعود — وهو يسأل عن هذه الآية : (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله) — فقال عبد الله : الغناء ، والله الذى لا إله إلا هو ، يرددها ثلاث مرات (٢) :

---

(١) سورة الزمر ، آية ٢٣ .

(٢) تفسير الطبرى ٢١/٣٩ .

حدثنا عمرو بن على ، حدثنا صفوان بن عيسى ، أخبرنا حميد الخراط ، عن عمار ، عن سعيد بن جبير ، عن أبى صهباء : أنه سأل ابن مسعود عن قول الله : (ومن الناس من يشترى لهو الحديث) ، قال : الغناء (١) .

وكذا قال ابن عباس ، وجابر ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، ومكحول، وعمرو بن شعيب ، وعلى بن بذيمة .

وقال الحسن البصرى : أنزلت هذه الآية : (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم) فى الغناء والمزامير .

وقال قتادة : قوله : (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم) ، والله لعله لا ينفق فيه مالا، ولكن شراؤه استحبابه ، بحسْب المرء من الضلالة أن يختارَ حديثَ الباطل على حديث الحق ، وما يضر على ما ينفع .

وقيل : عنى بقوله : (يشترى لهو الحديث) اشتراء المغنيات من الجوارى .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسى : حدثنا وكيع ، عن خلاد الصفار ، عن عُبَيد الله بن زَحْر ، عن على بن يزيد ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبى أمامة ، عن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن ، وأكل أثمانهن حرام ، وفيهن أنزل الله عز وجل علىّ : (ومن الناس من يشترى لهو الحديث) .

وهكذا رواه الترمذى وابن جرير ، من حديث عُبَيد الله بن زحر بنحوه ، ثم قال الترمذى : هذا حديث غريب ، وضُعِّف على بن يزيد المذكور(٢) .

قلت : على ، وشيخه ، والراوى عنه ، كلهم ضعفاء : والله أعلم .

وقال الضحاك فى قوله تعالى : (ومن الناس من يشترى لهو الحديث) : يعنى الشرك : وبه قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، واختار ابن جرير أنه كل كلام يصد عن آيات الله واتباع سبيله (٣) .

وقوله : (ليضل عن سبيل الله) ، أى : إنما يصنع هذا للتخالف للإسلام وأهله .

وعلى قراءة فتح الياء ، تكون اللام لام العاقبة ، أو تعليلا للأمر القدرى ، أى : قُيِّضوا لذلك ليكونوا كذلك .

وقوله : (ويتخذها هزوا) ، قال مجاهد : ويتخذ سبيل الله هزوا ، يستهزئ بها .

وقال قتادة : يعنى ويتخذ آيات الله هزوا : وقول مجاهد أولى .

وقوله تعالى : (أولئك لهم عذاب مهين) ، أى : كما استهانوا بآيات الله وسبيله ، أهينوا يوم القيامة فى العذاب الدائم المستمر .

ثم قال تعالى : (وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا) ، أى : هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب ، إذا تليت عليه الآيات القرآنية ، ولى عنها وأعرض وأدبر وتصامّ وما به من صمم ، كأنه ما يسمعها ، لأنه يتأذى

---

(١) تفسير الطبرى : ٢١/٣٩ — ٤٠ .

(٢) تحفة الأحوذى ، أبواب البيوع ، باب ما جاء فى كراهية بيع المغنيات ، الحديث ١٣٠٠ : ٤/٥٠٢ — ٥٠٣ ، وتفسير الطبرى : ٢١/٣٩ .

(٣) تفسير الطبرى : ٢١/٤٠ .

بسماعها ، إذ لا انتفاع له بها ، ولا أرَبَ له فيها ؛ (فبشره بعذاب أليم)، أي : يوم القيامة يؤلمه ، كما تألم بسماع كتاب الله وآياته .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

هذا ذكر مآل الأبرار من السعداء في الدار الآخرة ، الذين آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين ، وعملوا الأعمال الصالحة المتابعة لشريعة الله ، (لهم جنات النعيم) ، أي : يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسارّ ، من المآكل والمشارب ، والملابس والمساكن ، والمراكب والنساء ، والنضرة والسماع الذي لم يخطر ببال أحد ، وهم في ذلك مقيمون دائمًا فيها ، لا يظعنون ولا يبغون عنها حولا .

وقوله : (وعد الله حقا) ، أي : هذا كائن لا محالة ؛ لأنه من وعد الله ، والله لا يخلف الميعاد ، لأنه الكريم المنان ، الفعال لما يشاء ، القادر على كل شئ ، (وهو العزيز) ، الذي قد قهر كل شئ ، ودان له كل شئ : (الحكيم) في أقواله وأفعاله ، الذي جعل القرآن هدى للمؤمنين ، (قل : هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى (١)) ، (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا (٢)) .

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾

يبين سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض ، وما فيها وما بينهما ، فقال : (خلق السموات بغير عمد)، قال الحسن وقتادة : ليس لها عَمَد مرئية ولا غير مرئية .

وقال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد : لها عمد لا ترونها وقد تقدم تقرير هذه المسألة في أول « سورة الرعد (٣) » بما أغنى عن إعادته .

(وألقى في الأرض رواسي) ، يعني : الجبال أرست الأرض وثقلتها لئلا تضطرب بأهلها على وجه الماء ، ولهذا قال : (أن تميد بكم) ، أي : لئلا تميد بكم .

وقوله : (وبث فيها من كل دابة) ، أي : وذرأ فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها .

ولما قرر أنه الخالق نبه على أنه الرازق بقوله تعالى : (وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم) ، أي : من كل زوج من النبات كريم ، أي : حسن المنظر .

---

(١) سورة فصلت ، آية : ٤٤ .

(٢) سورة الإسراء ، آية : ٨٢ .

(٣) انظر : ٤/٣٥١ .

وقال الشعبي : والناس أيضاً من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لئيم .

وقوله : (هذا خلق الله) ، أي: هذا الذي ذكره تعالى من خلق السموات ، والأرض وما بينهما ، صادر عن فعل الله وخلقه وتقديره ، وحده لا شريك له في ذلك، ولهذا قال : (فأروني ماذا خلق الذين من دونه) ، أي : مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد ، (بل الظالمون) ، يعني المشركين بالله العابدين معه غيره ، (في ضلال) ، أي : جهل وعمى، (مبين) ، أي : واضح ظاهر لا خفاء به .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾

اختلف السلف في لقمان ــ عليه السلام ــ هل كان نبياً ، أو عبداً صالحاً من غير نبوة ؟ على قولين ، الأكثرون على الثاني .

وقال سفيان الثوري ، عن الأشعث ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً .

وقال قتادة ، عن عبد الله بن الزبير قلت، لجابر بن عبد الله : ما انتهى إليكم من شأن لقمان ؟ قال : كان قصيراً أفطس من النوبة .

وقال يحيى بن سعيد الأنصاري ، عن سعيد بن المسيب قال : كان لقمان من سودان مصر ، ذا مشافر ، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة .

وقال الأوزاعي ، رحمه الله : حدثني عبد الرحمن بن حرملة قال: جاء أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله ، فقال له سعيد ابن المسيب : لا تحزن من أجل أنك أسود، فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان : بلال ، ومهْجَع مولى عمر بن الخطاب ، ولقمان الحكيم ، كان أسود نوبياً ذا مشافر (١) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبي، عن أبي الأشهب ، عن خالد الربعي قال : كان لقمان عبداً حبشيا نجارا ، فقال له مولاه : اذبح لنا هذه الشاة . [فذبحها] ، فقال : أخرج أطيب مُضغتين فيها . فأخرج اللسان والقلب ، فمكث ما شاء الله ، ثم قال : اذبح لنا هذه الشاة . فذبحها ، فقال : أخرج أخبث مضغتين فيها . فأخرج اللسان والقلب ، فقال له مولاه : أمرتك أن تخرج أطيب مضغتين فيها فأخرجتهما، وأمرتك أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتهما . فقال لقمان : إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبُثا (٢) .

وقال شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد : كان لقمان عبدا صالحا ، ولم يكن نبيا .

وقال الأعمش : قال مجاهد : كان لقمان عبدا أسود عظيم الشفتين ، مشقق القدمين .

وقال حَكّام بن سَلْم ، عن سعيد الزبيدي ، عن مجاهد : كان لقمان الحكيم عبدا حبشيا غليظ الشفتين ، مُصَفَّح (٣) القدمين ، قاضيا على بني إسرائيل .

---

(١) تفسير الطبري : ٤٣/٢١ .
(٢) تفسير الطبري : ٤٣/٢١ — ٤٤ .
(٣) أي : عريضهما .

وذكر غيره : أنه كان قاضيا على بني إسرائيل في زمن داود عليه السلام .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حُميد، حدثنا الحكم ، حدثنا عمرو بن قيس قال : كان كان لقمان — عليه السلام — عبدا أسود غليظ الشفتين ، مُصفّح القدمين ، فأتاه رجل وهو في مجلس أناس يحدثهم ، فقال له : ألست الذى كنت ترعى معي الغنم في مكان كذا وكذا ، قال : نعم . فقال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : صدق الحديث ، والصمت عما لا يعنيني (١) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد عن جابر قال: إن الله رفع لقمان الحكيم بحكمته ، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك ، فقال له : ألست عبد بني فلان الذى كنت ترعى بالأمس ؟ قال : بلى . قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : قَدَرُ الله ، وأداء الأمانة ، وصدق الحديث ، وتركي مالا يعنيني .

فهذه الآثار منها ما هو مُصرّح فيه بنفي كونه نبيا ، ومنها ما هو مشعر بذلك ، لأن كونه عبدا قد مَسّه الرق ينافي كونه نبياً ؛ لأن الرسل كانت تبعث في أحساب قومها . ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبيا ، وإنما ينقل كونه نبيا عن عكرمة — إن صح السند إليه ، فإنه رواه ابن جرير ، وابن أبي حاتم من حديث وكيع ، عن إسرائيل ، عن جابر ، عن عكرمة قال : كان لقمان نبياً . وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفي ، وهو ضعيف ، والله أعلم .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرني عبد الله بن عياش القِتْبَاني ، عن عُمَر مولى غُفْرَة قال : وقف رجل على لقمان الحكيم فقال : أنت لقمان، أنت عبد بني الحسحاس؟ قال : نعم . قال : أنت راعي الغنم ؟ قال : نعم . قال : أنت الأسود ؟ قال : أما سوادي فظاهر ، فما الذى يعجبك من أمري . قال : وَطْء الناس بساطك ، وغَشْيُهم بابك ، ورضاهم بقولك ؟ قال : يا ابن أخي ، إن صَغَيْتَ إلى ما أقول لك كنتَ كذلك . قال لقمان: غضي بصري، وكفي لساني، وعفة طعمتي ، وحفظي فرجي ، وقولي بصدق، ووفائي بعهدي، وتكرمتي ضيفي، وحفظي جاري، وتركي مالا يعنيني ، فذاك الذى صيرني إلى ما ترى .

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي ، حدثنا ابن نُفَيل، حدثنا عمرو بن واقد، عن عَبْدَة بن رَبَاح ، عن ربيعة، عن أبي الدرداء — رضي الله عنه ، أنه قال يوماً — وذُكر لقمان الحكيم — فقال : ما أوتي ما أوتي عن أهل ولا مال ، ولا حسب ولا خصال ، ولكنه كان رجلا [صَمْصَامة] (٢) سكِّيتا ، طويل التفكر ، عميق النظر ، لم ينم نهاراً قط ، ولم يره أحد قط يبزق ولا يتنخّع (٣)، ولا يبول ولا يتغوط ، ولا يغتسل ، ولا يعبث ولا يضحك ، وكان لا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياه أحد ، وكان قد تزوج وولد له أولاد ، فماتوا فلم يبك عليهم . وكان يغشى السلطان ، ويأتي الحكام ، لينظر ويتفكر ويعتبر ، فبذلك أوتي ما أوتي (٤) .

وقد ورد أثر غريب عن قتادة ، رواه ابن أبي حاتم . فقال :

حدثنا أبي ، حدثنا العباس بن الوليد ، حدثنا زيد بن يحيى بن عبيد الخزاعي ، حدثنا سعيد بن بشير ، عن قتادة قال : خَيَّر الله لقمان الحكيم بين النبوة والحكمة ، فاختار الحكمة على النبوة . قال : فأتاه جبريل وهو نائم فذَرّ عليه الحكمة أو رش عليه الحكمة — قال : فأصبح ينطق بها .

(١) تفسير الطبري : ٢١/٤٤ .

(٢) أي : مصمم . وقيل : هو الشديد الصلب .

(٣) في الدر المنثور : « ولا يتنحنح » . وتنخع الرجل : رمى بنخاعته ، وهي البزقة التي تخرج من أصل الفم مما يلي أصل النخاع .

(٤) الدر المنثور عن ابن أبي حاتم: ٥/١٦٢ .

قال سعيد : فسمعت عن قتادة يقول : قيل للقمان : كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيّرك ربك ؟ فقال : إنه لو أرسل إلى بالنبوة عَزْمَةً(١) لرجوت فيه الفوز منه ، ولكنت أرجو أن أقوم بها ، ولكنه خيّرني فخفت أن أضعف عن النبوة ، فكانت الحكمة أحب إلى .

فهذا من رواية سعيد بن بشير ، وفيه ضعف قد تكلموا فيه بسببه ، فالله أعلم .

والذى رواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة ، فى قوله تعالى : (ولقد آتينا لقمان الحكمة) ، أى : الفقه فى الإسلام ، ولم يكن نبياً ، ولم يوح إليه .

وقوله : (ولقد آتينا لقمان الحكمة) ، أى : الفهم والعلم والتعبير ، (أن اشكر لله) ، أى : أمرناه أن يشكر الله — عز وجل — على ما آتاه الله ومنحه ووهبه من الفضل الذى خَصّه به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه .

ثم قال تعالى : (ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه) ، أى : إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين ، لقوله تعالى : (ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون (٢)) .

وقوله : (ومن كفر فإن الله غنى حميد) ، أى : غنى عن العباد ، لا يتضرر بذلك ، ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً فإنه الغنى عما سواه ، فلا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه .

وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده — وهو : لقمان بن عنقاء بن سدون (٣) : واسم ابنه : ثاران فى قول حكاه السهيلى (٤) .

وقد ذكره تعالى بأحسن الذكر ، فانه آتاه الحكمة ، وهو يوصى ولده الذى هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه ، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف ، ولهذا أوصاه أولا بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً ، ثم قال محذراً له : (إن الشرك لظلم عظيم) ، أى : هو أعظم الظلم .

قال البخارى : حدثنا قتيبة ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله — رضى الله عنه — قال : لما نزلت : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) ، شق ذلك على أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقالوا :

(١) يقال : عزمت عليك ، أى : أمرتك أمراً جداً ، وهى العزمة .
(٢) سورة الروم ، آية : ٤٤ .
(٣) كذا فى المخطوطة . وفى التعريف والإعلام للسهيلى : « ابن يثرون » .
(٤) انظر التعريف والإعلام للسهيلى : ١٠٠ — ١٠١ ، والمعارف لابن قتيبة : ٥٥ .

أينا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه ليس بذاك ، ألا تسمع إلى قول لقمان : (يا بنى لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم (١)) .

ورواه مسلم من حديث الأعمش ، به .

ثم قَرَنَ بوصيته إياه بعبادة الله وحده البرّ بالوالدين ، كما قال تعالى : (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا (٢)) . وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك فى القرآن وقال هاهنا (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن) — قال مجاهد : مشقة وَهْن الولد (٣) .

وقال قتادة : جهداً على جهد .

وقال عطاء الخراسانى : ضعفا على ضعف .

وقوله : (وفصاله فى عامين) ، أى : تربيته وإرضاعه بعد وضعه فى عامين ، كما قال تعالى : (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة(٤)) .

ومن هاهنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، لأنه قال تعالى فى الآية الأخرى : (وحمله وفصاله ثلاثون شهراً) (٥) .

وإنما يذكر تعالى تربيةَ الوالدة وتعبها ومشقتها فى سهرها ليلا ونهار ، ليُذَكّر الولد بإحسانها المتقدم إليه ، كما قال تعالى: (وقل : رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً(٦)) . ولهذا قال : (أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير) ، أى: فإنى سأجزيك على ذلك أوفر الجزاء .

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عبد الله بن أبى شيبة ، ومحمود بن غيلان قالا : حدثنا عبيد الله ، أخبرنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن سعيد بن وهب قال : قدم علينا معاذ بن جبل ، وكان بعثه النبى ﷺ فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إنى رسول الله ﷺ إليكم : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تطيعونى لا آلوكم(٧) خيراً ، وإن المصير إلى الله ، وإلى الجنة أو إلى النار ، إقامة فلا ظعن ، وخلود فلا موت .

وقوله : (وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما) ، أى : إن حرَصا عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما ، فلا تقبل منهما ذلك ولا يمنعنَّك ذلك من أن تصاحبهما فى الدنيا معروفا ، أى : محسناً إليهما ، (واتبع سبيل من أناب إلىّ) ، يعنى المؤمنين ، (ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) .

قال الطبرانى فى كتاب العشرة : حدثنا أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثنا أحمد بن أيوب بن راشد ،

---

(١) البخارى ، تفسير سورة لقمان : ١٤٣/٦ — ١٤٤ .
(٢) سورة الإسراء ، آية : ٢٣ .
(٣) أثر مجاهد كما فى تفسير الطبرى ٤٤/٢١ : « وهن الولد على وهن الوالدة وضعفها » .
(٤) سورة البقرة ، آية : ٢٣٣ .
(٥) سورة الأحقاف ، آية : ١٥ .
(٦) سورة الإسراء ، آية : ٢٤ .
(٧) أى : لا أقصر فى بلوغ الخير إليكم .

حدثنا مسلمة بن علقمة ، عن داود بن أبي هند(١) : أن سعد بن مالك قال : أنزلت فيّ هذه الآية : (وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما) . . الآية ، وقال : كنت رجلا براً بأمي ، فلما أسلمت قالت : ياسعد ، ما هذا الذى أراك قد أحدثت ؟ لتدعن دينك هذا أولا آكل ولا أشرب حتى أموت ، فتُعيَّر بي ، فيقال : «يا قاتل أمه» ، فقلت : لاتفعلي يا أمه ، فانى لاأدع ديني هذا لشيء . فمكثت يوماً وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوماً وليلة أخرى لا تأكل ، فأصبحت قد اشتد جهدها ، فلما رأيت ذلك قلت : يا أمه ، تعلمين والله لوكانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ، ما تركت ديني هذا لشيء ، فان شئت فكلي ، وإن شئت لاتأكلي . فأكلت .

يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله تعالى عن لقمان الحكيم ، ليمتثلها الناس ويقتدوا بها ، فقال : (يا بني ، إنها إن تك مثقال حبة من خردل) ، أي : إن المظلمة أوالخطيئة لوكانت مثقال حبة خردل . وجوز بعضهم أن يكون الضمير في قوله : (إنها) ضمير الشأن والقصة : وجوز على هذا رفع (مثقال) والأول أولى :

وقوله : (يأت بها الله) ، أي : أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط ، وجازى عليها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، كما قال تعالى : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين) (٢) . وقال تعالى : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره(٣)) ، ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة في داخل صخرة صماء ، أو غائبة ذاهبة في أرجاء السموات أو الأرض ، فان الله يأتي بها ، لأنه لاتخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، ولهذا قال : (إن الله لطيف خبير) ، أي : لطيف العلم ، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت ، (خبير) بدبيب النمل في الليل البهيم .

وقد زعم بعضهم أن المراد بقوله : (فتكن في صخرة) ، أنها صخرة تحت الأرضين السبع ، ذكره السدي بإسناده ذلك المطروق عن ابن عباس وابن مسعود وجماعة من الصحابة إن صح ذلك ، ويروى هذا عن عطية العوفي ، وأبي مالك ، والثوري ، والمنهال بن عمرو ، وغيرهم : وهذا والله أعلم كأنه متلقى من الإسرائيليات التي لاتصدق ولاتكذب والظاهر ــ والله أعلم ــ أن المراد أن هذه الحبة في حقارتها لوكانت داخل صخرة فان الله سيبديها ويظهرها بلطيف علمه ، كما قال الإمام أحمد :

(١) في أسد الغابة ٣٦٨/٢ : أن داود بن أبي هند رواه عن أبي عثمان النهدي ، عن سعد .
(٢) سورة الأنبياء ، آية : ٤٧ .
(٣) سورة الزلزلة ، آية : ٧ ، ٨ .

حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دَرّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء، ليس لها باب ولا كوة، لخرج عمله للناس كائناً ما كان(١).

ثم قال: (يابني، أقم الصلاة)، أي: بحدودها وفروضها وأوقاتها، (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر)، أي: بحسب طاقتك وجهدك، (واصبر على ما أصابك) — علم أن الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر، لا بد أن يناله من الناس أذى، فأمره بالصبر.

وقوله (إن ذلك من عزم الأمور)، أي: إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور.

وقوله: (ولاتصعر خدك للناس)، يقول: لاتُعرِضْ بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك، احتقاراً منك لهم، واستكباراً عليهم: ولكن ألن جانبك، وابسط وجهك إليهم، كما جاء في الحديث: «ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط، وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة، والمخيلة لايحبها الله» (٢).

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: (ولاتصعر خدك للناس)، يقول: لاتتكبر فتحقِرَ عبادَ الله وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك(٣): وكذا روى العوفي وعكرمة، عنه.

وقال مالك، عن زيد بن أسلم: (ولاتصعر خدك للناس)، لا تَكَلَّمْ وأنت معرض. وكذا رُوِي عن مجاهد وعكرمة، ويزيد بن الأصم، وأبي الجوزاء، وسعيد بن جبير، والضحاك، وابن زيد، وغيرهم.

وقال إبراهيم النخعي: يعني بذلك التشديق في الكلام(٤).

والصواب القول الأول.

قال ابن جرير: وأصل الصَّعَر داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رءوسها حتى تُلفَتَ أعناقُها عن رءوسها، فشبه به الرجل المتكبر، ومنه قول عمرو بن حُنَيّ(٥) التَّغْلَبي(٦):

وَكُنَّا إذَا الجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ أَقَمْنَا لَهُ مِنْ مَيْلِهِ فَتَقَوَّمَا

وقال أبو طالب في شعره(٧):

---

(١) مسند الإمام أحمد: ٢٨/٣.

(٢) سنن أبي داود، كتاب اللباس، باب «ماجاء في إسبال الإزار»، الحديث ٤٠٨٤: ٥٦/٤. ومسند الإمام أحمد: ٦٥/٤، ٦٤/٥، ٣٧٨.

(٣) تفسير الطبري: ٤٧/٢١.

(٤) تفسير الطبري: ٤٨/٢١. والمتشدق: الذي يلوي شدقه — بكسر فسكون، وهو جانب الفم — عند ما يتكلم للتفصح، أو استهزاء بالناس.

(٥) في المخطوطة وتفسير الطبري: «حيى» بياء بعد الحاء. والصواب من المشتبه للذهبي: ٢٦١، ومعجم الشعراء للمرزباني: ١٣.

(٦) كذا نسب البيت لعمرو بن حني. وهو في اللسان (صعر) منسوباً إلى المتلمس، وانظره في ديوان المتلمس: ٢٤، وقد ذكر السيد محقق الديوان أن أبا عبيدة قد نسب هذا البيت في كتابه مجاز القرآن ١٢٧/٢ لعمرو بن حني. فلعل الطبري قد أخذ ذلك عن أبي عبيدة.

(٧) البيت في سيرة ابن هشام: ٢٦٩/١.

وَكُنَّا قَدِيماً لا نقر ظُلَامَةَ إذ مائَلوا صُعْر الرُّءوس نُقِيمُها (١)

وقوله : (ولاتمش فى الأرض مرحاً) ، أى : جذلا متكبراً جباراً عنيداً ، لاتفعل ذلك يبغضك الله ، ولهذا قال : (إن الله لايحب كل مختال فخور) ، أى : مختال معجب فى نفسه ، فخور أى : على غيره ، وقال تعالى : (ولاتمش فى الأرض مرحاً ، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا) (٢) ، وقد تقدم الكلام على ذلك فى موضعه .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى ، حدثنا محمد بن عمران بن أبى ليلى ، حدثنا أبى ، عن ابن أبى ليلى ، عن عيسى ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن ثابت بن قيس بن شَمَّاس قال : ذكر الكبر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فشدد فيه ، فقال : إن الله لايحب كل مختال فخور . فقال رجل من القوم : والله يارسول الله إنى لأغسل ثيابى فيعجبنى بياضها ، ويعجبنى شراك نعلى ، وعلاقة سوطى ، فقال : ليس ذلك الكبر ، إنما الكبر أن تَسْفَه الحق وتَغْمط الناس(٣) .

ورواه من طريق أخرى بمثله ، وفيه قصة طويلة ، ومقتل ثابت ووصيته بعد موته .

وقوله : (واقصد فى مشيك) ، أى : امش مشياً مقتصدا ليس بالبطىء(٤) المتثبط ، ولا بالسريع المفرط ، بل عدلا وسطاً بين بين .

وقوله : (واغضض من صوتك) ، أى : لاتبالغ فى الكلام ، ولا ترفع صوتك فيما لافائدة فيه ، ولهذا قال تعالى : (إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) ، قال مجاهد وغير واحد : إن أقبح الأصوات لصوت الحمير . أى : غاية مَنْ رفع صوته أنه يُشَبَّه بالحمير فى علوه ورفعه ، ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى . وهذا التشبيه فى هذا بالحمير يقتضى تحريمه وذمه غاية الذم ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ليس لنا مثل السوء ، العائد فى هبته كالكلب يقىء ثم يعود فى قيئه.(٥)

وقال النسائى عند تفسير هذه الآية : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا الليث ، عن جعفر بن ربيعة ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله ، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان ، فإنها رأت شيطاناً .

وقد أخرجه بقية الجماعة سوى ابن ماجه ، من طرق ، عن جعفر بن ربيعة به(٦) ، وفى بعض الألفاظ : « بالليل » ، فالله أعلم .

---

(١) فى السيرة : « صعر الخدود » . وكأن « صعر » ــ بضم فسكون ــ : جمع أصعر إذا كان المراد الخد ، أو صعراء إذا كان المراد الرأس .

(٢) سورة الإسراء ، آية : ٣٧ .

(٣) السفه : الخفة والطيش ، وسفه الحق ــ من باب علم ــ : جهله . وقيل إن فى الكلام محذوفا وأن التقدير : إنما البغى فعل من سفه الحق .

(٤) فى المخطوطة : « ليس بالبسيط » . والمثبت من الطبعات السابقة .

(٥) البخارى ، كتاب الهبة ، باب « لا يحل لأحد أن يرجع فى هبته وصدقته » : ٢١٥/٣ . ومسلم ، كتاب الهبات ، باب « تحريم الرجوع فى الصدقة والهبة ... » : ٦٤/٥ ــ ٦٥ .

(٦) البخارى ، كتاب بدء الخلق : ١٥٥/٢ . ومسلم ، كتاب الذكر ، باب « استحباب الدعاء عند صياح الديك » : ٨٥/٨ . وتحفة الأحوذى ، أبواب الدعوات ، باب « ما يقول إذا سمع نهيق الحمار » ، الحديث ٣٥٢٤ : ٤٢٦/٩ . ومسند الإمام أحمد ٣٠٦/٢ ــ ٣٠٧ ، ٣٢١ ، ٣٤٦ .

فهذه وصايا نافعة جداً ، وهي من قَصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم ؛ وقد روى عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة ، فلنذكر منها أنموذجاً ودستوراً إلى ذلك ، قال الإمام أحمد :

حدثنا على بن إسحاق ، أخبرنا ابن المبارك ، أخبرنا سفيان ، أخبرني نهشل بن مجمع الضبي [عن قزعة]،عن ابن عمر — رضى الله عنه — قال : أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن لقمان الحكيم كان يقول : إن الله إذا استودع شيئاً حفظه(١)».

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبوسعيد الأشج ، حدثنا عيسى بن يونس ، عن الأوزاعي ، عن موسى بن سليمان ، عن القاسم [يحدث عن أبي موسى الأشعري (٢)] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال لقمان لابنه وهو يعظه : يابني ، إياك والتقنع فانه مخوفة بالليل ، مذلة بالنهار .

وقال : حدثنا أبي ، حدثنا عمرو بن عثمان ، عن ضمرة ، حدثنا السَّريّ بن يحيي قال : قال لقمان لابنه : يابنّي ، إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك . .

وقال : حدثنا أبي ، حدثنا عبدة بن سليمان ، أخبرنا ابن المبارك ، حدثنا عبد الرحمن المسعودي ، عن عون بن عبد الله قال : قال لقمان لابنه : يا بني ، إذا أتيت نادى قوم فارمهم بسهم الإسلام — يعني السلام — ثم اجلس فى ناحيتهم ، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا ، فان أفاضوا فى ذكر الله فأَجِلْ(٣) سهمك معهم ، وإن أفاضوا فى غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم

وحدثنا أبي ، حدثنا عمرو بن عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار ، حدثنا ضمرة ، عن حفص بن عمر — رضي الله عنه — قال : وضع لقمان جرابا من خردل إلى جانبه ، وجعل يعظ ابنه وعظة ويخرج خردلة ، حتى نفد الخردل ، فقال : يابني ، لقد وعظتك موعظة لو وُعِظَها جبل لتفطر : قال : فتفطر(٤) ابنه(٥) .

وقال أبو القاسم الطبراني : حدثنا يحيي بن عبد الباقي المصيصي ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الحراني ، حدثنا عثمان ابن عبد الرحمن الطرائفي ، حدثنا أنس بن سفيان المقدسي ، عن خليفة بن سلام ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة : لقمان الحكيم ، والنجاشي ، وبلال المؤذن » .

قال أبو القاسم الطبراني : أراد الحبش .

(فصل فى الخمول والتواضع)

وذلك متعلق بوصية لقمان — عليه السلام — لابنه ، وقد جمع فى ذلك الحافظ أبوبكر بن أبي الدنيا كتاباً مفرداً نحن نذكر منه مقاصده ، قال : حدثنا إبراهيم بن المنذر ، حدثنا عبد الله بن موسى المدني ، عن أسامة بن زيد ، عن حفص بن عبيد الله بن أنس ، عن جده أنس بن مالك : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « رُبَّ أشعثَ ذى طِمْرَين يُصْفَح (٦) عن أبواب الناس ، إذا أقسم على الله لأبره(٧) » .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٨٧/٢ .

(٢) ما بين القوسين من المستدرك للحاكم ، كتاب التفسير : ٢١١/٢ ، فقد أخرج السيوطي الحديث فى الدر المنثور من ابن أبي حاتم والحاكم : ١٦٢/٥ ، وقال : عن أبي موسى الأشعري .

(٣) أجال السهام بين القوم : حركها وافضى بها فى القسمة ، يريد : شاركهم وادل بدلوك معهم .

(٤) التفطر : التشقق . والمراد أن ابنه قد بلغت منه الموعظة مبلغها

(٥) الأثر فى الدر المنثور عن ابن أبي الدنيا : ١٦٢/٥ .

(٦) الطمر — بكسر فسكون — : الثوب البالي . ويصفح : يمال ويجنب أن يقرب هذه الأبواب .

(٧) أخرجه الإمام أحمد بنحوه من وجه آخر ، انظر المسند : ١٤٥/٣ .

ثم رواه من حديث جعفر بن سليمان ، عن ثابت وعلى بن زيد ، عن أنس ، عن النبي ﷺ ، فذكره ، وزاد : منهم البراء بن مالك .

وقال أبوبكر بن سهل التميمي : حدثنا ابن أبي مريم ، حدثنا نافع بن يزيد ، عن عياش بن عباس ، عن عيسى بن عبد الرحمن ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن عمر رضي الله عنه — أنه دخل المسجد فاذا هو بمعاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله ﷺ ، فقال له : ما يبكيك يامعاذ ؟ قال : حديث سمعته من رسول الله ﷺ ، سمعته يقول : إن اليسير من الرياء شرك ، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الأثرياء(١)، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، ينجون من كل غبراء مظلمة .

حدثنا الوليد بن شجاع ، حدثنا عثّام بن على ، عن حميد بن عطاء الأعرج ، عن عبد الله بن الحارث ، عن عبد الله ابن مسعود — رضي الله عنه — عن النبي ﷺ قال : رُبَّ ذى طمرين لايُؤْبَه له ، لو أقسم على الله لأبره ، لو قال : اللهم إنى أسألك الجنة لأعطاه الجنة ، ولم يعطه من الدنيا شيئاً .

وقال أيضا : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن سالم بن أبي الجعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن من أمتى من لو أتى باب أحدكم يسأله ديناراً أو درهما أو فلساً لم يعطه ، ولو سأل الله الجنة لأعطاه إياها ، ولو سأله الدنيا لم يعطه إياها ، ولم يمنعها إياه لهوانه عليه ، ذو طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله لأبره .
وهذا مرسل من هذا الوجه .

وقال أيضا : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، أخبرنا جعفر بن سليمان ، حدثنا عوف قال : قال أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن من ملوك الجنة كُلَّ أشعثَ أغبرَ ذىطمرين لايُؤْبَه له،الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا ، وإذا قالوا لم يُنْصَت لهم ، حوائج أحدهم تتجلجل فى صدره ، لو قسم نوره يوم القيامة بين الناس لوسعهم .

قال : وأنشدنى عمر بن شبّة ، عن ابن عائشة قال : قال عبد الله بن المبارك :

ألا رُبَّ ذىطِمْرَين فى مَنْزِل غدَا زَرَابيهُ مَبْثُوثَةٌ وَنَمَارِقُه
قَد اطَّرَدَتْ أنهاره حَوْلَ قَصْره وَأشْرَقَ ، والتفت عليه حدائقُه

وروى أيضا من حديث عُبَيد الله بن زَحْر ، عن على بن زيد ، عن القاسم ، عن أبي أمامة مرفوعا : قال الله : مِنْ أغبط أوليائى عندى مؤمن خفيف الحاذ(٢)، ذو حظ من صلاة،أحسن عبادة ربه وأطاعه فى السر ، وكان غامضا فى الناس ، لايشار إليه بالأصابع إن صبر على ذلك . قال : ثم نَقَد (٣) رسول الله بيده وقال : عُجِّلَت منيته ، وقل تراثه ، وقلت بواكيه (٤) .

(١) الأثرياء : جمع ثرى ، وهو : الغنى من الناس .

(٢) أى : خفيف الحال ، الذى يكون قليل المال ، وخفيف الظهر من العيال .

(٣) أى : نقر . ويروى « نقر » أيضاً ، ولفظ الترمذى « ثم نقر باصبعيه » . وأما مسند الإمام أحمد ٥/٢٥٥ : « وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقر بإصبعيه» . والمراد : أنه جعل يضرب الأنملة على الأنملة ، أو على الأرض ، كالمتقلل من الشيء ، وقيل : للتنبيه على أن ما بعده مما يهتم به .

(٤) أخرجه الترمذى فى أبواب الزهد ، باب « ما جاء فى الكفاف والصبر عليه » ، من طريق عبيد الله بن زحر . وقال : « هذا حديث حسن » . انظر تحفة الأحوذى : ٧/١٢ — ١٥ . وأخرجه الإمام أحمد من هذه الطريق فى موضعين من مسنده ، انظر : ٥/٢٥٢ ، ٢٥٥ . وأما ابن ماجه فقد أخرجه من وجه آخر . انظر كتاب الزهد ، باب « من لا يؤبه له » ، الحديث ٤١١٧ : ٢/١٣٧٨ — ١٣٧٩ .

وعن عبد الله بن عمرو قال : أحب عباد الله إلى الله الغرباء ، قيل : ومن الغرباء ؟ قال : الفرارون بدينهم ، يجمعون يوم القيامة إلى عيسى بن مريم .

وقال الفضيل بن عياض : بلغنى أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ألم أنعم عليك ؟ ألم أعطك ؟ ألم أسترك ؟ ألم . . ؟ ألم . . ؟ ألم أخمل ذكرك ؟ ثم قال الفضيل : إن استطعت أن لاتُعرَف فافعل ، وما عليك أن لايُثنَى عليك ، وما عليك أن تكون مذموما عند الناس محموداً عند الله .

وكان ابن محيريز يقول : اللهم ، إنى أسألك ذكرا خاملا .

وكان الخليل بن أحمد يقول : اللهم اجعلنى عندك من أرفع خلقك ، واجعلنى فى نفسى من أوضع خلقك ، وعند الناس من أوسط خلقك .

ثم قال(١) :

باب ما جاء فى الشهرة

حدثنا أحمد بن عيسى المصرى ، حدثنا ابن وهب ، عن عمر بن الحارث وابن لهيعة ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن سنان بن سعد ، عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : حسب امرىء من الشر — إلا من عصم الله — أن يشير الناس إليه بالأصابع فى دينه ودنياه (٢) ، وإن الله لاينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم وأعمالكم .

وروى مثله عن إسحاق بن البهلول ، عن ابن أبى فُديك ، عن محمد بن عبد الواحد الأخنسى ، عن عبد الواحد بن أبى كثير ، عن جابر بن عبد الله مرفوعا ، مثله .

وروى عن الحسن مرسلا نحوه ، فقيل للحسن : فانه يشار إليك بالأصابع ؟ فقال : إنما المراد من يشار إليه فى دينه بالبدعة وفى دنياه بالفسق .

وعن على — رضى الله عنه — قال : لاتبدأ لأن تشتهر ، ولا ترفع شخصك لتذكر ، وتعلم واكتم ، واصمت تسلم ، تَسُرّ الأبرار ، وتَغيظ الفجار .

وقال إبراهيم بن أدهم — رحمه الله — : ماصدق الله من أحب الشهرة .

وقال أيوب : ماصدق الله عبد إلا سره أن لايشعر بمكانه .

وقال محمد بن العلاء : من أحب الله أحب أن لايعرفه الناس .

وقال سماك بن سلمة : إياك وكثرة الأخلاء .

وقال أبان بن عثمان : إن أحببت أن يسلم لك دينك فأقل من المعارف ؛ كان أبو العالية إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة نهض وتركهم .

---

(١) أى ابن أبى الدنيا .

(٢) هذا القدر أخرجه الترمذى فى أبواب القيامة ، قال : « وقد روى عن أنس بن مالك ، عن النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه قال . . . وذكره ، وقال الحافظ أبو العلى — صاحب تحفة الأحوذى — : « وحديث أنس هذا أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان ، قال المناوى : بإسناد فيه متهم » . انظر تحفة الأحوذى : ٧/١٠٥ .

وقال : حدثنا على بن الجعد ، أخبرنا شعبة ، عن عوف ، عن أبي رجاء قال : رأى طلحة قوما يمشون معه ، فقال : ذباب طمع ، وفراش النار .

وقال ابن إدريس ، عن هارون بن عنترة (١) ، عن سليم بن حنظلة قال : بينا نحن حول أبي إذعلاه عمر بن الخطاب بالدِّرَّة وقال : إنها مذلة للتابع ، وفتنة للمتبوع .

وقال ابن عون ، عن الحسن : خرج ابن مسعود فاتبعه أناس ، فقال : والله لو تعلمون ماأُغلِقُ عليه بابى ، مااتبعنى منكم رجلان .

وقال حماد بن زيد : كنا إذا مررنا على المجلس ، ومعنا أيوب(٢) ، فسلم ، ردوا ردا شديدا ، فكان ذلك يَغُمه .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر : كان أيوب يطيل قميصه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إن الشهرة فيما مضى كانت فى طول القميص ، واليوم فى تشميره . واصطنع مرة نعلين على حذو نعلى النبى — صلى الله عليه وسلم — فلبسهما أياما ثم خلعهما ، وقال : لم أر الناس يلبسونها .

وقال إبراهيم النخعى : لاتلبس من الثياب مايُشهر فى الفقهاء ، ولا مايزدريك السفهاء .

وقال الثورى : كانوا يكرهون من الثياب الجياد ، التى يُشتَهر بها ، ويرفع الناس إليه فيها أبصارهم : والثياب الرديئة التى يحتقر فيها ، ويستذل دينه .

وحدثنا خالد بن خِداش : حدثنا حماد ، عن أبى حسنة — صاحب الزيادى — قال : كنا عند أبى قلابة إذ دخل عليه رجل عليه أكسية ، فقال : إياكم وهذا الحمار النهاق .

وقال الحسن رحمه الله : إن قوما جعلوا الكبر فى قلوبهم ، والتواضع فى ثيابهم ، فصاحب الكساء بكسائه أعظم من صاحب المطرف (٣) بمطرفه ، مالهم تفاقدوا .

وفى بعض الأخبار أن موسى — عليه السلام — قال لبنى إسرائيل : مالكم تأتونى عليكم ثياب الرهبان ، وقلوبكم قلوب الذئاب البسوا ثياب الملوك ، وألينوا قلوبكم بالخشية .

فصل فى حسن الخلق

قال أبو التياح ، عن أنس — رضى الله عنه — : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقا (٤) .

وعن عطاء ، عن ابن عمر : قيل : يارسول الله ، أىّ المؤمنين أفضل ؟ قال : أحسنهم خلقا .

وعن نوح بن عباد [عن ثابت] عن أنس مرفوعا : «إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجات الآخرة وشرف المنازل ، وإنه لضعيف العبادة . وإنه ليبلغ بسوء خلقه دَرَك جهنم وهو عابد » .

---

(١) فى المخطوطة : « هارون بن أبى حسرة » . وقد هدينا إلى الصواب من ترجمة « سليم بن حنظلة » فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٢١٢/١/٢ ، قال : « روى عنه هارون بن عنترة » . ومن روى عن هارون بن عنترة : ابن إدريس ، انظر التهذيب : ٩/١١ .

(٢) يبدو أنه « أيوب بن أبى تميمة » ، انظر التهذيب : ٣٩٧/١ .

(٣) المطرف — بكسر فسكون — : ثوب من خز مربع .

(٤) أخرجه الإمام أحمد : ٢٧٠/٣ ، ومسلم فى كتاب الفضائل ، باب « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا » : ٧٤/٧ .

وعن سنان بن هارون ، عن حميد ، عن أنس مرفوعا : « ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة » ؛

والمطلب ، عن عائشة مرفوعا : « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل صائم النهار » (١) .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثني أبو مسلم عبد الرحمن بن يونس ، حدثنا عبد الله بن إدريس ، أخبرني أبي وعمي ، عن جدي ، عن أبي هريرة — رضي الله عنه — سُئِل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر مايُدخِلُ النَّاسَ الجنة ، فقال : تقوى الله وحسن الخلق . وسئل عن أكثر مايدخل الناس النار ، فقال : الأجوفان الفم والفرج (٢) .

وقال أسامة بن شريك : كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءته الأعراب من كل مكان ، فقالوا : يارسول الله ، ماخير ماأعطي الإنسان ؟ قال : « حسن الخلق » (٣) .

وقال يعلى بن سماك ، عن أم الدرداء ، عن أبي الدرداء — يبلغ به — قال : « ماشيء أثقل في الميزان من حسن الخلق » وكذا رواه عطاء ، عن أم الدرداء ، به (٤) .

وعن مسروق ، عن عبد الله بن عمرو مرفوعا : « إن من خياركم أحاسنكم أخلاقا » (٥) ؛

حدثنا عبد الله بن أبي بدر ، حدثنا محمد بن عثين ، عن محمد بن أبي سارة ، عن الحسن بن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق ، كما يعطي المجاهد في سبيل الله ، يغدو عليه الأجر ويروح » ؛

وعن مكحول ، عن أبي ثعلبة مرفوعا : « إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً ، أحاسنكم أخلاقا ، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني منزلا في الجنة مساويكم أخلاقا ، الثرثارون المتشدقون المتفيهقون (٦) » ؛

وعن أبي أويس ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر مرفوعا : « ألا أخبركم بأكملكم إيمانا ، أحاسنكم أخلاقا ، الموطئون أكنافا ، الذين يؤلفون ويألفون » ؛

وقال الليث ، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة ، عن بكر بن أبي الفرات قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ماحَسَّنَ الله خَلْقَ رجل وخُلُقَه فتَطْعَمَه النار » .

وعن عبد الله بن غالب الحداني ، عن أبي سعيد مرفوعا : « خصلتان لايجتمعان في مؤمن : البخل وسوء الخلق » ؛

وقال ميمون بن مهران ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مامن ذنب أعظم عند الله من سوء الخلق . وذلك أن صاحبه لايخرج من ذنب إلا وقع في آخر » .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد : ٦/٦٤ ، ٩٠ ، ١٣٣ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن أبي هريرة من غير هذه الطريق ، انظر المسند : ٢/٢٩١ ، ٣٩٢ ، ٤٤٢ . وأما ابن ماجه فقد أخرجه من طريق عبد الله بن إدريس ، مثله . انظر كتاب الزهد ، باب « ذكر الذنوب » : ٢/١٤١٨ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد : ٤/٢٧٨ . وانظر أسد الغابة ١/٨١ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد من هذه الطريق . انظر المسند ٦/٤٤٢ .

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الأدب ، باب « حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل » : ٨/١٦ . ومسلم في كتاب الفضائل ، باب « كثرة حيائه صلى الله عليه وسلم » ٧/٧٨ . والإمام أحمد في مسنده : ٢/١٦١ .

(٦) أخرجه الإمام أحمد من طريق مكحول ، عن أبي ثعلبة الخشني ، انظر المسند : ٤/١٩٣ .

هذا والمتشدقون هم : المتوسعون في الكلام من غير احتراز واحتياط . وقيل المستهزئون بالناس ، يلوون أشداقهم — يعني جانب الفم — عليهم وبهم .

وأما المتفيهقون فهم أيضاً : الذين يتوسعون في الكلام ، ويفتحون به أفواههم .

حدثنا على بن الجعد ، حدثنا أبو المغيرة الأحمسى ، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق ، عن رجل من قريش قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مامن ذنب أعظم عند الله من سوء الخلق ، إن الخلق الحسن ليذيب الذنوب كما تذيب الشمس الجليد ، وإن الخلق السيىء ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل » .

وقال عبد الله بن إدريس ، عن أبيه ، عن جده ، عن أبى هريرة مرفوعا : « إنكم لاتسعون الناس بأموالكم ، ولكن يسعهم منكم بسط وجوه وحسن خلق » .

وقال محمد بن سيرين : حسن الخلق عون على الدين .

فصل فى ذم الكبر

قال علقمة ، عن ابن مسعود — رفعه — : « لايدخل الجنة مَنْ فى قلبه مثقال حبة من كبر ، ولا يدخل النار من فى قلبه مثقال حبة من إيمان » (١) .

وقال إبراهيم بن أبى عبلة ، عن أبى سلمة ، عن عبد الله بن عمرو مرفوعا : من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر أكبه الله على وجهه فى النار .

حدثنا إسحاق بن إسماعيل ، حدثنا أبو معاوية ، عن عمر بن راشد ، عن إياس بن سلمة ، عن أبيه مرفوعا : « لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب عند الله من الجبارين ، فيصيبه ما أصابهم من العذاب » (٢) .

وقال مالك بن دينار : ركب سليمان بن داود — عليهما السلام — ذات يوم البساط فى مائتى ألف من الإنس ، ومائتى ألف من الجن ، فرُفع حتى سمع تسبيح الملائكة فى السماء ، ثم خفضوه حتى مست قدمه ماء البحر ، فسمعوا صوتا لوكان فى قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسف به أبعد مما رفع .

حدثنا أبو خيثمة ، حدثنا يزيد بن هارون ، عن حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس قال : كان أبو بكر يخطبنا فيذكر بدء خلق الإنسان ، حتى إن أحدنا ليُقذر نفسه ، يقول : خرج من مجرى البول ، مرتين .

وقال الشعبى : من قتل اثنين فهو جبار ، ثم تلا : (أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس ، إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض) وقال الحسن : عجبا لابن آدم يغسل الخرء (٣) بيده فى اليوم مرتين ثم يتكبر ! يعارض جبار السماوات !

قال : حدثنا خالد بن خداش ، حدثنا حماد بن زيد ، عن على بن الحسن ، عن الضحاك بن سفيان ، فذكر الحديث ضرب مثل الدنيا بما يخرج من ابن آدم .

وقال الحسن ، عن يحيى ، عن أبىّ قال : إن مطعم ابن آدم ضرب مثلا للدنيا وإن قزّحه (٤) وملّحه .

---

(١) مسند الإمام أحمد ، ١/٤١٢ ، ٤٥١ . وتحفة الأحوذى ، أبواب البر ، باب « ما جاء فى الكبر » ، الحديث ٢٠٦٦ ، ٦/١٣٥ ، والحديث الذى يليه .

(٢) تحفة الأحوذى ، أبواب البر ، « باب « ما جاء فى الكبر » ، الحديث ٢٠٦٨ ، ٦/١٣٨–١٣٩ ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » .

(٣) الخرء — بضم فسكون — العذرة وهى فضلات الإنسان .

(٤) قزحه وملحه ، أى : توبله ، من القزح — بكسر فسكون — وهو التابل الذى يطرح فى القدح كالكمون والكزبرة ونحو ذلك . والمعنى : أن المطعم وإن تكلف الإنسان فى صنعته وتطييبه فإنه عائد إلى حال تكره وتستقذر ، فكذلك الدنيا المحروص على عمارتها ونظم أسبابها ، راجعة إلى خراب وإدبار .

وقال محمد بن الحسن بن علي – من ولد علي رضي الله عنه – : ما دخل قلبَ رجلٍ شيءٌ من كبر إلا نقص من عقله بقدر ذلك .

وقال يونس بن عبيد : ليس مع السجود كبر ، ولا مع التوحيد نفاق .

ونظر طاوس إلى عمر بن عبد العزيز وهو يختال في مشيته ، وذلك قبل أن يستخلف ، فطعن طاوس في جنبه بأصبعه ، وقال : ليس هذا شأن من في بطنه خرء ؟ . فقال له كالمعتذر إليه : يا عم ، لقد ضرب كل عضو مني على هذه المشية حتى تعلمتها :

قال أبو بكر بن أبي الدنيا : كانت بنو أمية يضربون أولادهم حتى يتعلموا هذه المشية .

فصل في الاختيال

عن ابن أبي ليلى ، عن ابن بريدة ، عن أبيه مرفوعا : « مَنْ جرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه » .

ورواه عن إسحاق بن إسماعيل ، عن سفيان ، عن زيد بن أسلم ، عن ابن عمر مرفوعا مثله (١) .

وحدثنا محمد بن بكار ، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد ، عن أبيه ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة مرفوعاً : « لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره (٢) » . و « بينما رجل يتبختر في برديه ، أعجبته نفسه ، خسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة (٣) » .

وروى الزهري عن سالم ، عن أبيه : بينما رجل ... إلى آخره (٤) .

أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾

يقول تعالى منبها خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة بأنه سخر لهم ما في السموات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم ، وما يخلق فيها من سحاب وأمطار وثلج وبرد ، وجعله إياها لهم سقفا محفوظا ، وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار . وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب، وإزاحة الشبه والعلل، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم ، بل منهم من يجادل في الله ، أي : في توحيده وإرسال الرسل . ومجادلته في ذلك بغير علم :

---

(١) أخرجه الإمام أحمد من طريق سفيان ، المسند : ٥/٩ – ١٠ ، وانظر البخاري ، كتاب اللباس : ٧/١٨٢ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب اللباس ، باب « من جر ثوبه خيلاء » من طريق أبي الزناد : ٧/١٨٣ .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب اللباس ، باب « تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه » من طريق أبي الزناد : ٦/١٤٨ – ١٤٩ . وأخرجه الإمام أحمد في مسنده : ٢/٥٣١ .

(٤) البخاري ، كتاب اللباس ، باب « من جر ثوبه خيلاء » : ٧/١٨٣ .

ولا مستند من حجة صحيحة ، ولا كتاب مأثور صحيح ، ولهذا قال تعالى : (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) ، أى : مبين يضيء ، (وإذا قيل لهم) ، أى : لهؤلاء المجادلين فى توحيد الله : (اتبعوا ما أنزل الله) ، أى : على رسوله من الشرائع المطهرة ، (قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) ، أى : لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين ، قال الله : (أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون (١)) ، أى : فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم ، أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه ، ولهذا قال : (أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير) :

* وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى مخبراً عمن أسلم وجهه لله ، أى : أخلص له العمل وانقاد لأمره واتبع شرعه ، ولهذا قال : (وهو محسن) ، أى : فى عمله ، باتباع ما به أمر ، وترك ما عنه زجر ، (فقد استمسك بالعروة الوثقى) ، أى : فقد أخذ موثقا من الله متيناً أنه لا يعذبه ، (وإلى الله عاقبة الأمور • ومن كفر فلا يحزنك كفره) ، أى : لا تحزن يا محمد عليهم فى كفرهم بالله وبما جئت به ؛ فإن قدر الله نافذ فيهم ، إلى الله مرجعهم فينبئهم بما عملوا ، أى : فيجزيهم عليه ، (إن الله عليم بذات الصدور) فلا تخفى عليه خافية :

ثم قال : (نمتعهم قليلا) ، أى : فى الدنيا ، (ثم نضطرهم) ، أى : نلجئهم (إلى عذاب غليظ) ، أى : فظيع صعب مشق على النفوس ، كما قال تعالى : (إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون • متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون (٢)) :

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء المشركين به : أنهم يعرفون أن الله خالقُ السموات والأرض ، وحده لا شريك له ، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلق له وملك له ، ولهذا قال : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ، قل : الحمد لله) ، [أى : إذْ قامت عليكم الحجة باعترافكم] ، (بل أكثرهم لا يعلمون) .

ثم قال : (لله ما فى السموات والأرض) ، أى : هو خلقه وملكه ، (إن الله هو الغنى الحميد) ، أى : الغنى عما سواه ، وكل شئ فقير إليه ، الحميد فى جميع ما خلق ، له الحمد فى السموات والأرض على ما خلق وشرع ، وهو المحمود فى الأمور كلها :

(١) سورة البقرة آية ١٧٠ .
(٢) سورة يونس ٦٩ ، ٧٠ .

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وجلاله ، وأسمائه الحسنى وصفاته العلا وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد ، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها ، كما قال سيد البشر وخاتم الرسل : « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك(١) » فقال تعالى: (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام،والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) ، [أى : ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاما ، وجعل البحر مداداً ومدّه سبعة أبحر] معه ، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام ، ونفد ماء البحر ، ولو جاء أمثالها مدداً .

وإنما ذكرت « السبعة » على وجه المبالغة ، ولم يرد الحصر ولا [أن] ثم سبعة أبحر موجودة تحيط بالعالم ، كما يقوله من تلقاه من كلام الإسرائيليين التي لا تصدق ولا تكذب ، بل كما قال تعالى فى الآية الأخرى : (قل : لو كان البحر مدادا لكلمات ربى ، لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا (٢)) ، فليس المراد بقوله : (بمثله) آخر فقط ، بل بمثله ثم بمثله ثم بمثله ، ثم هلم جرا ، لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته .

وقال الحسن البصرى : لو جعل شجر الأرض أقلاما ، وجعل البحر مدادا ، وقال الله : « إن من أمرى كذا ، ومن أمرى كذا لنفد ما فى البحور ، وتكسرت الأقلام (٣) .

وقال قتادة : قال المشركون : إنما هذا كلام يوشك أن ينفد ، فقال الله تعالى : (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام) ، أى : لو كان شجر الأرض أقلاما ، ومع البحر سبعة أبحر ، ما كان لتنفد عجائب ربى وحكمته وخلقه وعلمه .

وقال الربيع بن أنس : إن مثل علم العباد كلهم فى علم الله كقطرة من ماء البحور كلها ، وقد أنزل الله ذلك : (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام (٤)) ... الآية .

يقول : لو كان ذلك البحر مدادا لكلمات الله ، والأشجار كلها أقلاما ، لانكسرت الأقلام، وفنى ماء البحر ، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شئ ، لأن أحدا لا يستطيع أن يقدر قدره ، ولا يثنى عليه كما ينبغى ، حتى يكون هو الذى يثنى على نفسه إن ربنا كما يقول ، وفوق ما نقول .

---

(١) مسلم ، كتاب الصلاة ، باب « ما يقال فى الركوع والسجود » : ٢/ ٥١ . وسنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « فى الدعاء فى الركوع والسجود » ، الحديث ٨٧٩ : ١ / ٢٣٢ وتحفة الأحوذى ، أبواب الدعوات ، الحديث ٣٥٦٢ : ٩ / ٤٦٩ . والنسائى ، كتاب قيام الليل ، باب « الدعاء فى الوتر » : ٣/ ٢٤٨ - ٢٤٩ . ومسند الإمام أحمد عن على - رضى الله عنه - ١/ ٩٦ ، ١١٨ ، ١٥٠ . وعن عائشة - رضى الله عنها - ٦/ ٥٨ .

(٢) سورة الكهف ، آية : ١٠٩ .

(٣) تفسير الطبرى : ٢١/ ٥١ .

(٤) انظر تفسير سورة الكهف : ٥/ ٢٠٠ .

وقد روى أن هذه الآية نزلت جوابا لليهود ، قال ابن إسحاق : حدثني ابن أبي محمد، عن سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس : أن أحبار يهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة : يا محمد ، أرأيت قولك : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ؟ إيانا تريد أم قومك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلا ؛ فقالوا : ألست تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شيء ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنها في علم الله قليل ، وعندكم من ذلك ما يكفيكم . وأنزل الله فيما سألوه عنه من ذلك : (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام (١)) ... الآية .

وهكذا روى عن عكرمة ، وعطاء بن يسار . وهذا يقتضي أن هذه الآية مدنية لا مكية ، والمشهور أنها مكية ، والله أعلم .

وقوله : (إن الله عزيز حكيم) ، أي : عزيز قد عز كل شيء وقهره وغلبه ، فلا مانع لما أراد ولا مخالف ولا معقب لحكمه ، (حكيم) في خلقه وأمره ، وأقواله وأفعاله، وشرعه وجميع شئونه .

وقوله : (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) ، أي : ما خَلْقُ جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة خلق نفس واحدة ، الجميع هين عليه و (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : كن ، فيكون (٢)) ، (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر (٣)) ، أي : لا يأمر بالشيء إلا مرة واحدة، فيكون ذلك الشيء لا يحتاج إلى تكرره وتوكيده . (فإنما هي زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة (٤)) .

وقوله : (إن الله سميع بصير) ، أي : كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة ، كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة . ولهذا قال : (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) ... الآية .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾

يخبر تعالى أنه (يولج الليل في النهار) ، بمعنى يأخذ منه في النهار ، فيطول ذاك ويقصر هذا ، وهذا يكون زمن الصيف يطول النهار إلى الغاية ، ثم يشرع في النقص فيطول الليل ويقصر النهار، وهذا يكون في الشتاء ، (وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى) ، قيل : إلى غاية محدودة ، وقيل : إلى يوم القيامة . وكلا المعنيين صحيح ، ويستشهد للقول الأول بحديث أبي ذر رضى الله عنه الذى في الصحيحين : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : يا أبا ذر ، أتدرى أين تذهب هذه الشمس ؟ ، قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ، ثم تستأذن ربها فيوشك أن يقال لها : ارجعي من حيث جئت (٥) .

(١) انظر تفسير الطبرى : ٢١/٥١-٥٢ .
(٢) سورة « يس » ، آية : ٨٢ .
(٣) سورة القمر ، آية : ٥٠ .
(٤) سورة النازعات ، آية : ١٣ ، ١٤ .
(٥) البخارى ، كتاب التوحيد : ٩/١٥٣ ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « بيان الزمن الذى لا يقبل فيه الإيمان » : ١/٩٦ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو صالح ، حدثنا يحي بن أيوب ، عن ابن جريج ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عباس أنه قال : الشمس بمنزلة الساقية ، تجرى بالنهار في السماء في فلكها ، فإذا غربت جرت بالليل في فلكها تحت الأرض حتى تطلع من مشرقها ، قال : وكذلك القمر إسناده صحيح :

وقوله : (وإن الله بما تعلمون خبير) ، كقوله : (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض) (١) ومعنى هذا أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء ، كقوله : (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن ، لتعلموا أن الله على كل شيءٌ قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيءٌ علما (٢)) :

وقوله : (ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه الباطل) ، أي : إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق ، أي: الموجود الحق الإله الحق، وأن كل ما سواه باطل ؟ فانه الغنى عما سواه، وكل شيء فقير إليه ، لأن كل ما في السموات والأرض الجميع خلقه وعبيده، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرّة إلا بإذنه ، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذبابا لعجزوا عن ذلك : ولهذا قال : (ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه الباطل ، وأن الله هو العلى الكبير) ، أي : العلى : الذى لا أعلى منه ، الكبير : الذى هو أكبر من كل شيء ، فكل شيء خاضع حقير بالنسبة إليه :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾
وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا
كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

يخبر تعالى أنه هو الذى سخّر البحر لتجرى فيه الفلك بأمره، أى : بلطفه وتسخيره ؛ فانه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت ، ولهذا قال : (ليريكم من آياته) ، أى : من قدرته ، (إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) ، أى : صبار في الضراء ، شكور في الرخاء :

ثم قال : (وإذا غشيهم موج كالظلل) ، أى : كالجبال والغمام (دعوا الله مخلصين له الدين) ، كما قال تعالى: (وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه (٣)) ، وقال : (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين (٤)) :

ثم قال : (فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد)، قال مجاهد : أى كافر (٥) ، كأنه فسر المقتصد هاهنا بالجاحد ، كما قال تعالى : (فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون (٦)) :

وقال ابن زيد : هو المتوسط في العمل :

---

(١) سورة الحج ، آية : ٧٠ .
(٢) سورة الطلاق ، آية : ١٢ .
(٣) سورة الإسراء ، آية : ٦٧ .
(٤) سورة العنكبوت ، آية : ٦٥ .
(٥) تفسير الطبرى : ٢١ ٪ ٥٤ .
(٦) سورة العنكبوت ، آية : ٦٥ .

وهذا الذى قاله ابن زيد هو المراد فى قوله : (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات [١]) فالمقتصد هاهنا هو : المتوسط فى العمل : ويحتمل أن يكون مرادا هنا أيضا ، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال والأمور العظام والآيات الباهرات فى البحر ، ثم بعد ما أنعم الله عليه من الخلاص ، كان ينبغى أن يقابل ذلك بالعمل التام ، والدؤوب فى العبادة ، والمبادرة إلى الخيرات : فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً والحالة هذه ، والله أعلم .

وقوله : (وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور) ، فالختّار : هو الغدّار : قاله مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، ومالك عن زيد بن أسلم ، وهو الذى كلما عاهد نقض عهده ، والختْر : أتمّ الغدر وأبلغه ، قال عمرو بن معد يكرب [٢] :

وإنّكَ لو رأيتَ أبا عُمَيْر ملأْتَ يدَيْكَ من غَدْرٍ وخَتْرِ [٣]

وقوله : (كفور) ، أى : جحود للنعم لا يشكرها ، بل يتناساها ولا يذكرها .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى منذراً للناس يوم المعاد ، وآمرا لهم بتقواه والخوف منه ، والخشية من يوم القيامة حيث (لا يجزى والد عن ولده) ، أى : لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه : وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يتقبل منه :

ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله : (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) ، [أى : لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة] ، (ولا يغرنكم بالله الغرور) ، يعنى : الشيطان : قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة : فانه يغر ابنَ آدم ويَعِدُه ويمنيه ، وليس من ذلك شيء بل كما قال تعالى : (يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا [٤]) .

قال وهب بن منبه : قال عزير عليه السلام : لما رأيت بلاء قومى اشتد حزنى وكثر همى ، وأرق نومى ، فضرعت إلى ربى وصليت وصمت فأنا فى ذلك اتضرع أبكى إذ أتانى الملك فقلت له : أخبرنى هل تشفع أرواح المصدقين للظلمة ، أو الآباء لأبنائهم ؟ قال : إن القيامة فيها فصل القضاء وملك ظاهر ، ليس فيه رخصة ، لا يتكلم فيه أحد إلا باذن الرحمن ، ولا يؤخذ فيه والد عن ولده ، ولا ولد عن والده ، ولا أخ عن أخيه ، ولا عبد عن سيده ، ولا يهتم أحد بغيره ، ولا يحزن لحزنه ولا أحد يرحمه ، كل مشفق على نفسه ، ولا يؤخذ إنسان عن إنسان ، كل يهمه همه ويبكى عوله [٥] ، ويحمل وزره ، ولا يحمل وزره معه غيره رواه ابن أبى حاتم .

إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

هذه مفاتيح الغيب التى استأثر الله تعالى بعلمها ، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها ؛ فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبى مرسل ولا ملك مقرب ، (لا يجليها لوقتها إلا هو) ، وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله ، ولكن إذا أمر به علمته

(١) سورة فاطر ، آية : ٣٢ .

(٢) انظر ترجمته فى الشعر والشعراء لابن قتيبة : ١/ ٣٧٢ . وأسد الغابة : ٤/ ٢٧٣ .

(٣) البيت فى تفسير الطبرى : ٢١ / ٥٤ .

(٤) سورة النساء ، آية : ١٢٠ .

(٥) أعول الرجل والمرأة : رفعا صوتهما بالبكاء والصياح .

الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه . وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه ، ولكن إذا أمر بكونه ذكرا أو أنثى ، أو شقيا أو سعيدا ، علم الملائكة الموكلون بذلك ، ومن شاء الله من خلقه . وكذلك لا تدرى نفس ماذا تكسب غدا في دنياها وأخراها ، (وما تدرى نفس بأى أرض تموت) في بلدها أو غيره من أى بلاد الله كان ، لا علم لأحد بذلك . وهذه شبيهة بقوله تعالى : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو (١)) الآية . وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس : مفاتيح الغيب .

قال الإمام أحمد : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنى حسين بن واقد ، حدثنى عبد الله بن بُرَيدة ، سمعت أبى بُرَيدة يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «خمس لا يعلمهن إلا الله عز وجل: (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير (٢)) » .

هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجوه .

حديث ابن عمر ، قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن عبدالله بن دينار ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله : (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير) .

انفرد بإخراجه البخارى فرواه في «كتاب الاستسقاء (٣)» من صحيحه ، عن محمد بن يوسف الفريابي ، عن سفيان ابن سعيد الثورى ، به . ورواه في التفسير من وجه آخر فقال :

حدثنا يحيى بن سليمان ، حدثنا ابن وهب ، حدثنى عمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر : أن أباه حدثه أن عبد الله ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مفاتيح الغيب خمس» . ثم قرأ : (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام) . انفرد به أيضا (٤) .

ورواه الإمام أحمد عن غُنْدَر ، عن شعبة ، عن عمر بن محمد : أنه سمع أباه يحدث ، عن ابن عمر ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «أوتيت مفاتيح كل شئ إلا الخمس : (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير (٥)) » .

[حديثُ ابن مسعود رضى الله عنه ، قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى ، عن شعبة ، حدثنى عمرو بن مرة ، عن عبد الله ابن سلمة قال : قال عبد الله : أوتى نبيكم صلى الله عليه وسلم مفاتيح كل شئ غير خمس : (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير (٦))] .

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ٥٩ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٥/٣٥٣ .
(٣) البخارى كتاب الاستسقاء ، باب «لا يدرى متى يجيء المطر إلا الله» : ٢/٤١ – ٤٢ .
(٤) البخارى ، تفسير سورة لقمان : ٦/١٤٤ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٢/٨٥ – ٨٦ .
(٦) مسند الإمام أحمد : ١/٣٨٦ وما بين القوسين من الطبعات السابقة .

وكذا رواه عن محمد بن جعفر ، عن شعبة ، عن عمرو بن مرة ، به . وزاد فى آخره : « قال : قلت له : أنت سمعته من عبد الله ؟ قال : نعم . أكثر من خمسين مرة (١) » .

ورواه أيضا عن وكيع ، عن مسعر عن عمرو بن مرة به (٢) .

وهذا إسناد حسن على شرط [أصحاب] السنن ولم يخرجوه .

حديث أبى هريرة ، قال البخارى عند تفسير هذه الآية : حدثنا إسحاق ، عن جرير ، عن أبى حيان ، عن أبى زُرعَة ، عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوما بارزا للناس ، إذ أتاه رجل يمشى ، فقال : « يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ، وتؤمن بالبعث الآخر . قال : يا رسول الله ، ما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان . فقال : يا رسول الله ، ما الإحسان ؟ قال : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فإنه يراك . قال : يا رسول الله ، متى الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، ولكن سأحدثك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربتها (٣) ، فذاك من أشراطها . وإذا كان الحفاة العراة رؤوس الناس ، فذاك من أشراطها ، فى خمس لا يعلمهن إلا الله : إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ثم انصرف الرجل فقال : ردوه على : فأخذوا ليردوه ، فلم يروا شيئاً ، فقال : هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم (٤) » .

ورواه البخارى أيضا فى « كتاب الإيمان (٥) » . ومسلم من طرق ، عن أبى حيان ، به . وقد تكلمنا عليه فى أول « شرح البخارى » . وذكرنا ثمّ حديثَ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى ذلك بطوله ، وهو من أفراد مسلم (٦) .

حديث ابن عباس ، قال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر ، حدثنا عبد الحميد ، حدثنا شهر ، حدثنا عبد الله ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا له ، فأتاه جبريل فجلس بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم واضعاً كفيه على ركبتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، [حدّثنى] ما الإسلام ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن تسلم وجهك لله عز وجل ، وتشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله . قال : فإذا فعلت ذلك فقد أسلمت ؟ قال : إذا فعلت ذلك فقد أسلمت . قال : يا رسول الله ، فحدثنى ما الإيمان ؟ قال : الإيمان أن تؤمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب ، والنبيين وتؤمن بالموت ، وبالحياة بعد الموت ، وتؤمن بالجنة والنار ، والحساب والميزان ، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره . قال : فاذا فعلت ذلك فقد آمنت ؟ قال : إذا فعلت ذلك فقد آمنت . قال : يا رسول الله ، حدثنى ما الإحسان ؟

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١/٤٣٨ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١/٤٤٥ .

(٣) ربتها : سيدتها ومولاتها . والمعنى : أن الناس يبيعون أمهات أولادهم فى الأسواق ، فيتنقلن من يد إلى يد ، حتى يقعن فى ملك هؤلاء الأولاد ، فتكون الأم جارية لابنتها . وفى هذا من الامتهان لكرامة الأمهات ما فيه !

(٤) البخارى ، تفسير سورة لقمان : ٦/١٤٤ .

(٥) البخارى ، كتاب الإيمان ، باب « سؤال جبريل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الإيمان والإسلام . . . » : ١/١٩-٢٠. ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « الإيمان ، ما هو ؟ وبيان خصاله » : ١/٣٠ .

(٦) مسلم ، كتاب الإيمان : ١/٢٨ - ٢٩ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإحسان أن تعمل لله كأنك تراه ، فان كنت لاتراه فانه يراك ، قال : يا رسول الله فحدثني متى الساعة ؟ قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : سبحان الله : في خمس لا يعلمهن إلا هو : (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم مافي الأرحام ، وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير) ولكن إن شئت حدثتك بمعالم لها دون ذلك ؟ قال : أجل ، يا رسول الله ، فحدثني : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا رأيت الأمة ولدت ربتها — أو : ربها — ورأيت أصحاب الشاء يتطاولون في البنيان ، ورأيت الحفاة الجياع العالة [كانوا رءوس الناس ، فذلك من معالم الساعة وأشراطها . قال : يا رسول الله ، ومن أصحاب الشاء والحفاة الجياع العالة ؟ قال : العرب (١)] .

حديث غريب ، ولم يخرجوه .

حديث رجل من بني عامر ، روى الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن منصور ، عن ربعي ابن حراش ، عن رجل من بني عامر : أنه استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أألج ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لخادمه : اخرُجي إليه فانه لا يحسن الاستئذان فقولى له : فليقل : « السلام عليكم ، أأدخل ؟ » قال : فسمعتُه يقول ذلك ، فقلت : السلام عليكم ، أأدخل ؟ فأذن فدخلت (٢) ، فقلت : بم أتيتنا به ؟ قال : لم آتكم إلا بخير ، أتيتكم أن تعبدوا الله وحده لا شريك له ، وأن تدَعوا اللات والعزى ، وأن تصلوا بالليل والنهار خمس صلوات ، وأن تصوموا من السنة شهراً ، وأن تحجوا البيت ، وأن تأخذوا الزكاة من مال أغنيائكم فتردوها على فقرائكم : قال فقال : فهل بقى من العلم شيء لا تعلمه ؟ قال : قد علّمني الله — عز وجل — خيراً ، وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله عز وجل : الخمس (٣) (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام وماتدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وماتدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير (٤)) : وهذا إسناد صحيح .

وقال ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : جاء رجل من أهل البادية فقال : إن امرأتي حبلى ، [فأخبرني] ماتلد ؟ وبلادنا جدْبة ، فأخبرني متى ينزل الغيث ؟ وقد علمتُ متى وُلدتُ فأخبرني متى أموت ؟ فأنزل الله عز وجل : (إن الله عنده علم الساعة (إلى قوله : (إن الله عليم خبير) — قال مجاهد : وهي مفاتيح الغيب التي قال الله تعالى : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) : رواه ابن أبي حاتم ، وابن جرير (٥) .

وقال الشعبي ، عن مسروق ، عن عائشة — رضى الله عنها — أنها قالت : من حدثك أنه يعلم مافي غد فقد كذب ، ثم قرأت : (وماتدرى نفس ماذا تكسب غداً (٦)) .

وقوله : (وما تدرى نفس بأى أرض تموت) — قال قتادة : أشياء استأثر الله بهن ، فلم يُطلع عليهن ملَكا مقرباً ، ولا نبياً مرسلا : (إن الله عنده علم الساعة) ، فلا يدرى أحد من الناس متى تقوم الساعة ، في أى سنة أو في أى شهر ،

(١) مسند الإمام أحمد : ٣١٨/١ — ٣١٩ ، وما بين القوسين المعقوفين عنه .
(٢) لفظ المسند : « فأذن ، أو قال : فدخلت » .
(٣) كلمة « الخمس » غير ثابتة في المسند .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٣٦٨/٥ — ٣٦٩ .
(٥) تفسير الطبري : ٥٥/٢١ .
(٦) تفسير الطبري : ٥٦/٢١ .

أو ليل أو نهار ، (وينزل الغيث) فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ، ليلا أو نهاراً ، (ويعلم مافى الأرحام) ، فلا يعلم أحد مافى الأرحام ، أذكر أم أنثى ، أحمر أو أسود ، وماهو ، (وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً) ، أخير أم شر ، ولا تدرى يا ابن آدم متى تموت ؟ لعلك الميت غدا ، لعلك المصاب غدا ، (وما تدرى نفس بأى أرض تموت) ليس أحد من الناس يدرى أين مضجعه من الأرض ، أفى بحر أم بر ، أو سهل أو جبل (١) .

وقد جاء فى الحديث : « إذا أراد الله قبض عبد بأرض ، جعل له إليها حاجة » ، فقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى فى معجمه الكبير ، فى مسند أسامة بن زيد :

حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، أخبرنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن أيوب ، عن أبى المليح ، عن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما جعل الله ميتةَ عبد بأرض إلا جعل له فيها حاجة » .

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا أبو داود الحَفَرىّ ، عن سفيان ، عن أبى إسحاق ، عن مطر بن عُكَامِس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا قضى الله ميتة عبد بأرض ، جعل له إليها حاجة (٢) » .

وهكذا رواه الترمذى فى « القدر » ، من حديث سفيان الثورى ، به . ثم قال : « حسن غريب ، ولا يعرف لمطر عن النبى صلى الله عليه وسلم غير هذا الحديث » (٣) وقد رواه أبو داود فى « المراسيل » ، فالله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا أيوب ، عن أبى المليح بن أسامة ، عن أبى عزة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله قبض روح عبد بأرض جعل له فيها — أو قال : بها — حاجة (٤) » .

وأبو عزة هذا هو : يَسَار بن عبد الله ، ويقال : ابن عبد الهُذَلى .

وأخرجه الترمذى من حديث إسماعيل : بن إبراهيم — وهو ابن عُلَيَّة — وقال : صحيح (٥) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن عصام الأصفهانى ، حدثنا المؤمل بن إسماعيل : حدثنا عبيد الله بن أبى حميد ، عن أبى المليح ، عن أبى عزة الهذلى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله قبض عبد بأرض ، جعل له إليها حاجة ، فلم ينته حتى يقدمها » . ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وماتدرى نفس ماذا تكسب غداً وماتدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير) .

حديث آخر ، قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أحمد بن ثابت الجَحْدَرىّ ومحمد بن يحيى القُطَعى قالا : حدثنا عُمَر بن على ، حدثنا إسماعيل ، عن قيس ، عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة » . ثم قال البزار : وهذا الحديث لا نعلم أحداً يرفعه إلا عُمَر بن على المُقَدَّمى .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢١ / ٥٥ – ٥٦ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٥/ ٢٢٧ .

(٣) تحفة الأحوذى ، أبواب القدر ، باب « ما جاء أن النفس تموت حيث كتب لها » ، الحديث ٢٢٣٥ : ٦ / ٣٥٩ ، وانظر ترجمة « مطر بن عكامس » فى أسد الغابة : ٥/ ١٨٥ – ١٨٦ ، بتحقيقنا .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٣/ ٤٢٩ .

(٥) تحفة الأحوذى فى الباب المتقدم ، الحديث ٢٢٣٧ : ٦/ ٣٥٩ – ٣٦٠ .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثني سليمان بن أبي مسيح قال : أنشدني محمد بن الحكم لأعشى هَمْدان :

فَمَا تَزَوَّدَ مِمَّا كَانَ يَجْمَعُهُ سوى حَنُوط غَدَاةَ البَيْنِ مَعْ خرق
وَغَيْرَ نَفْحَةِ أعْوَاد تُشَبّ لَهُ وَقَلّ ذَلِكَ مِنْ زَاد لِمُنْطَلق !
لاَ تَأسَيَنّ عَلَى شَيْء ، فَكُلّ فَتَى إلَى مَنيته سَيَّارٌ فى عَنَق (١)
وَكُلّ مَنْ ظَنّ أنّ الموتَ يُخْطِئُه مُعَلّلٌ بِأعَاليل مِنَ الحَمَق
بِأيّمَا بَلْدَة تَقْدَرْ مَنيّتُهُ إنْ لا يُسَيّرْ إلَيها طَائعاً يُسَق

أورده الحافظ ابن عساكر — رحمه الله — فى ترجمة عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث ، وهو أعشى هَمْدَان ، وكان الشعبي زوجَ أخته ، وهو مُزوّج بأخت الشعبي أيضا ، وقد كان ممن طلب العلم وتفقّه ، ثم عدل إلى صناعة [الشعر] فعُرف به .

وقد رواه ابن ماجه عن أحمد بن ثابت وعُمَر بن شَبَّة ، كلاهما عن عمر بن على مرفوعا : « إذا كان أجل أحدكم بأرض أوثَبَتْه إليها حاجة ، فإذا بلغ أقصى أثره(٢) ، قبضه الله عز وجل ، فتقول الأرض يوم القيامة : [رب] ، هذا ما أودعتنى (٣) » .

قال الطبرانى : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن أيوب ، عن أبي المليح ، عن أسامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ماجعل الله منية عبد بأرض ، إلا جعل له إليها حاجة (٤) » .

[آخر تفسير « سورة لقمان » والحمد لله رب العالمين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل]

---

(١) العنق — بفتحتين — : السير السريع .
(٢) الأثر : الأجل .
(٣) سنن ابن ماجة ، كتاب الزهد ، باب ذكر الموت والاستعداد له ، الحديث ٤٢٦٣ ، ٢/١٤٢٤ — ١٤٢٥ .
(٤) كذا ، وقد تقدم الحديث عند هذه الآية بهذا السند .

تفسير سورة السجدة

وهى مكية

قال البخارى فى « كتاب الجمعة » : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا سفيان ، عن سعد بن إبراهيم ، عن عبد الرحمن بن هُرمُز الأعرج ، عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : كان النبى — صلى الله عليه وسلم — يقرأ فى الفجر يوم الجمعة : (الم : تنزيل) السجدة ، و (هل أتى على الإنسان (١)) .

ورواه مسلم أيضا من حديث سفيان الثورى ، به (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، أخبرنا الحسن بن صالح ، عن ليث ، عن أبى الزبير ، عن جابر قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ (الم : تنزيل) السجدة ، و (تبارك الذى بيده الملك) : تفرد به أحمد (٣) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۚ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣)

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أول « سورة البقرة » (٤) بما أغنى عن إعادته .

وقوله : (تنزيل الكتاب لا ريب فيه) ، أى : لا شك فيه ولا مرية أنه نزل (من رب العالمين) .

ثم قال مخبراً عن المشركين : (أم يقولون افتراه) ، بل يقولون : (افتراه) ، أى : اختلقه من تلقاء نفسه ، (بل هو الحق من ربك ، لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون) ، أى : يتبعون الحق .

---

(١) البخارى « كتاب الجمعة » باب « ما يقرأ فى صلاة الفجر يوم الجمعة » : ٢/٥ .
(٢) مسلم « كتاب الجمعة » باب « ما يقرأ فى يوم الجمعة » : ٣/١٦ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٣/٣٤٠ .
(٤) انظر : ١/٥٦ — ٦٠ .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه الخالق للأشياء ، فخلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، وقد تقدم الكلام على ذلك(١) .

(ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع) ، أى : بل هو المالك لأزمة الأمور ، الخالق لكل شىء ، المدبر لكل شىء ، القادر على كل شىء ، فلا ولى لخلقه سواه ، ولا شفيع إلا من بعد إذنه .

(أفلا تتذكرون) ، يعنى : أيها العابدون غيره ، المتوكلون على من عداه ـــ تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك أو نديد ، أو وزير أو عديل ، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

وقد أورد النسائى هاهنا حديثا فقال : حدثنا إبراهيم بن يعقوب ، حدثنى محمد بن الصباح ، حدثنا أبو عبيدة الحداد ، حدثنا الأخضر بن عجلان عن ابن جريج المكى ، عن عطاء ، عن أبى هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيدى فقال : « إن الله خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش فى اليوم السابع ، فخلق التربة يوم السبت ، والجبال يوم الأحد ، والشجر يوم الاثنين ، والمكروه يوم الثلاثاء ، والنور يوم الأربعاء ، والدواب يوم الخميس ، وآدم يوم الجمعة فى آخر ساعة من النهار بعد العصر ، وخلقه من أديم الأرض ، بأحمرها وأسودها ، وطيبها وخبيثها ، من أجل ذلك جعل الله من بنى آدم الطيب والخبيث » .

هكذا أورد هذا الحديث إسناداً ومتنا ، وقد أخرج مسلم والنسائى ، أيضا من حديث الحجاج بن محمد الأعور ، عن ابن جُرَيج ، عن إسماعيل بن أمية ، عن أيوب بن خالد ، عن عبد الله بن رافع ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم بنحو من هذا السياق(٢) .

وقد علله البخارى فى كتاب « التاريخ الكبير » فقال : « وقال بعضهم : أبو هريرة عن كعب الأحبار وهو أصح » . وكذا علله غير واحد من الحفاظ ، والله أعلم .

وقوله : (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه) ، أى : يتنزل أمره من أعلى السماوات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة ، كما قال الله تعالى : (الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ، يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما(٣)) .

وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا ، ومسافة ما بينها وبين الأرض [مسيرة] خمسمائة سنة ، وسمك السماء خمسمائة سنة .

---

(١) انظر تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف ، ٣/٤٢٢ ، والآية الثالثة من سورة يونس : ٤/١٨٣ ، والآية السابعة من سورة هود : ٤/٢٣٩ ــ ٢٤١ ، والآية ٥٩ من سورة الفرقان : ٥/١٢٨ .

(٢) تقدم حديث مسلم عند تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف ، وخرجناه هنالك . انظر : ٣/٤٢٢ .

(٣) سورة الطلاق ، آية : ١٢ .

وقال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك : النزول من الملك فى مسيرة خمسمائة عام وصعوده فى مسيرة خمسمائة عام ، ولكنه يقطعها فى طرفة عين ، ولهذا قال تعالى : (فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) (١) .

(ذلك عالم الغيب والشهادة) ، أى : المدبر لهذه الأمور الذى هو شهيد على أعمال عباده ، يرفع إليه جليلها وحقيرها ، وصغيرها وكبيرها — هو (العزيز) الذى قد عزّ كلّ شىء فقهره وغلبه ، ودانت له العباد والرقاب ، (الرحيم) بعباده المؤمنين فهو عزيز فى رحمته ، رحيم فى عزته .

ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٩﴾

يقول تعالى : إنه الذى أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : (الذى أحسن كل شىء خلقه) ، قال : « أحسن خلق كل شىء » ، كأنه جعله من المقدم والمؤخر .

ثم لما ذكر خلق السموات [والأرض] ، شرع فى ذكر خلق الإنسان فقال : (وبدأ خلق الإنسان من طين) ، يعنى خلق أبا البشر آدم من طين (ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) ، أى : يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة . (ثم سواه) ، يعنى : آدم ، لما خلقه من تراب خلقه سويا مستقيما ، (ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) ، يعنى : العقول ، (قليلا ما تشكرون) ، أى : بهذه القوى التى رزقكموها الله — عز وجل — فالسعيد من استعملها فى طاعة ربه عز وجل .

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِى ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِى خَلۡقٍ جَدِيدٍۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فى استبعادهم المعاد حيث قالوا : (أئذا ضللنا فى الأرض) ، أى : تمزقت أجسامنا وتفرقت فى أجزاء الأرض وذهبت ، (أئنا لفى خلق جديد) ؟ أى : أئنا لنَعُودُ بعد تلك الحال ؟ يستبعدون ذلك ، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قُدَرهم العاجزة ، لا بالنسبة إلى قُدْرة الذى بدأهم وخلقهم من العدم ، الذى إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، ولهذا قال : (بل هم بلقاء ربهم كافرون) .

ثم قال : (قل : يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم) ، الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص معين من الملائكة ، كما هو المتبادر من حديث البراء المتقدم ذكره فى « سورة إبراهيم »(٢)، وقد سمى فى بعض الآثار بعزرائيل، وهو المشهور ، قاله قتادة وغير واحد ، وله أعوان . وهكذا ورد فى الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد ، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت .

(١) انظر تفسير الطبرى : ٢١/٥٨ .

(٢) انظر تفسير الآية السابعة والعشرين من سورة إبراهيم : ٤/٤١٣ ، وما بعدها .

قال مجاهد : حُويت(١) له الأرض فجعلت له مثل الطست ، يتناول منها حيث يشاء .

ورواه زهير بن محمد عن النبي صلى الله عليه وسلم ، بنحوه مرسلا ، وقاله ابن عباس رضى الله عنهما .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا يحيى بن أبي يحيى المقرى ، حدثنا عمر بن سمرة [عن جعفر بن محمد] قال : سمعت أبي يقول : نظر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « ياملك الموت ، ارفق بصاحبي فإنه مؤمن » . فقال مَلَكُ الموت : يامحمد ، طبْ نفساً وقَرّ عيناً فإني بكل مؤمن رفيق ، واعلم أن ما فى الأرض بيت مَدَر ولا شَعَر ، فى بر ولا بحر ، إلا وأنا أتصفحه فى كل يوم خمس مرات ، حتى إنى أعرَفُ بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم ، والله يامحمد لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ما قَدَرتُ على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها(٢) .

[قال] جعفر : بلغنى أنه إنما يتصفحهم عند مواقيت الصلاة ، فإذا حضرهم عند الموت فإن كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه المَلَك ، ودفع عنه الشيطان ، ولقنه المَلَك « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » فى تلك الحال العظيمة .

وقال عبد الرزاق : حدثنا محمد بن مسلم ، عن إبراهيم بن ميسرة قال : سمعت مجاهداً يقول : ما على ظهر الأرض من بيت شعر أو مدر إلا وملك الموت يُطيف به كل يوم مرتين .

وقال كعب الأحبار : والله ما من بيت فيه أحد من أهل الدنيا إلا وملك الموت يقوم على بابه كل يوم سبع مرات ، ينظر هل فيه أحد أمر أن يتوفاه . رواه ابن أبي حاتم .

وقوله : (ثم إلى ربكم ترجعون) ، أى : يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم .

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة ، وقالهم(٣) حين عاينوا البعث ، وقاموا بين يدى الله حقيرين ذليلين ، ناكسى رءوسهم ، أى : من الحياء والخجل ، يقولون : (ربنا أبصرنا وسمعنا) ، أى : نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك ، كما قال تعالى : (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) (٤) . وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم : (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) (٥). وهكذا هؤلاء يقولون : (ربنا ، أبصرنا وسمعنا فارجعنا) ، أى : إلى الدار الدنيا ، (نعمل صالحاً إنا موقنون) ، أى : قد أيقنا وتحققنا أن وعدك حق ولقاءك حق ، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى الدار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفاراً يكذبون آيات الله ويخالفون رسله ، كما قال : (ولو ترى

(١) حويت : جمعت .
(٢) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور من ابن أبي حاتم وأبي الشيخ : ٥/١٧٤ .
(٣) أى : قولهم .
(٤) سورة مريم ، آية : ٣٨ .
(٥) سورة الملك ، آية ، ١٠ .

إذ وقفوا على النار فقالوا : ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ، بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون ، وقالوا : إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين(١) ، وقال ها هنا : (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) كما قال تعالى : (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا)(٢)

(ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) ، أى : من الصنفين ، فدارهم(٣) النار لا محيد لهم عنها ولا محيص لهم منها ، نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك .

(فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا) ، أى : يقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ : ذوقوا العذاب بسبب تكذيبكم به ، واستبعادكم وقوعه ، وتناسيكم له ، إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له ، (إنا نسيناكم) ، أى : سنعاملكم معاملة الناسى ، لأنه تعالى [لا ينسى شيئاً] ولا يضل عنه شىء ، بل من باب المقابلة ، كما قال تعالى : (اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم(٤) هذا) .

وقوله : (وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) ، أى : بسبب كفركم وتكذيبكم ، كما قال فى الآية الأخرى : (لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ، إلا حميماً وغساقاً ، جزاء وفاقاً ، إنهم كانوا لا يرجون حساباً ، وكذبوا بآياتنا كذابا ، وكل شىء أحصيناه كتاباً ، فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا(٥)) :

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٧)

يقول تعالى : (إنما يؤمن بآياتنا) ، أى : إنما يصدق بها (الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا) ، أى : استمعوا لها وأطاعوها قولا وفعلا ، (وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون) عن اتباعها والانقياد لها ، كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة ، قال الله تعالى : (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين(٦)) .

ثم قال [تعالى] : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) ، يعنى بذلك قيام الليل ، وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة ، قال مجاهد والحسن فى قوله تعالى [(٧) : (تتجافى جنوبهم) ، يعنى بذلك قيام الليل(٨) .

وعن أنس ، وعكرمة ، ومحمد بن المنكدر ، وأبى حازم ، وقتادة : هو الصلاة بين العشاءين ، وعن أنس أيضاً : هو انتظار صلاة العتمة ، رواه ابن جرير بإسناد جيد(٩) .

(١) سورة الأنعام ، الآيات : ٢٧ – ٢٩ .
(٢) سورة يونس ، آية : ٩٩ .
(٣) فى مخطوطة الأزهر : قد ذرأتهم للنار .
(٤) سورة الجاثية ، آية : ٣٤ .
(٥) سورة النبأ ، الآيات : ٢٤ – ٣٠ .
(٦) سورة غافر ، آية : ٦٠ .
(٧) ما بين القوسين سقط من مخطوطة الأزهر .
(٨) تفسير الطبرى : ٢١/٦٤ .
(٩) انظر تفسير الطبرى : ٢١/٦٣ .

وقال الضحاك : هو صلاة العشاء فى جماعة ، وصلاة الغداة فى جماعة .

(يدعون ربهم خوفاً وطمعاً) ، أى : خوفاً من وبال عقابه وطمعاً فى جزيل ثوابه . (ومما رزقناهم ينفقون) ، فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية ، ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم فى الدنيا والآخرة رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، كما قال عبد الله بن رَوَاحة رضى الله عنه :

وَفينَا رَسُولُ الله يَتْلُو كتَابَهَ ... إذَا انشَقّ مَعْرُوفٌ منْ الصُّبْح سَاطعُ
[أرَانا الهُدَى بَعْدَ العَمَى ، فقُلُوبُنَا ... به مُوقنَاتٌ أنّ مَا قَالَ وَاقعِ]
يَبَيتُ يُجَافى جَنْبَهُ عَنْ فرَاشه ... إذَا اسْتَثْقَلَتْ بالمُشْركين المَضَاجعُ

وقال الإمام أحمد : حدثنا روح وعفان قالا : حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا عطاء بن السائب ، عن مُرّة الهمدانى ، عن ابن مسعود ، عن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : « عجب ربنا من رجلين : رجل ثار من وطائه ولحافه ، من بين أهله وحيه إلى صلاته ، [فيقول ربنا : أيا ملائكتى ، انظروا إلى عبدى ، ثار من فراشه ووطائه ، ومن بين حيه وأهله إلى صلاته](١) رغبة فيما عندى ، وشفقة مما عندى . ورجل غزا فى سبيل الله — عز وجل — فانهزموا ، فعلم ما عليه من الفرار ، وما له فى الرجوع ، فرجع حتى أُهرِيق دمه ، رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى . فيقول الله عز وجل للملائكة : انظروا إلى عبدى رجع رغبة فيما عندى ، ورهبة مما عندى ، حتى أهريق دمه(٢) .

وهكذا رواه أبو داود فى « الجهاد » ، عن موسى بن إسماعيل ، عن حماد بن سلمة ، به بنحوه (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن عاصم بن أبى النجود ، عن أبى وائل ، عن معاذ بن جبل قال : كنت مع النبى — صلى الله عليه وسلم — فى سفر ، فأصبحت يوما قريبا منه ، ونحن نسير ، فقلت : يا نبى الله ، أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار . قال : لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة ، وصلاة الرجل فى جوف الليل . ثم قرأ : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع)، حتى بلغ (يعملون) . ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ فقلت : بلى ، يا رسول الله . فقال : رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة ، وذروة سَنَامه الجهادُ فى سبيل الله . ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك (٤) كله ؟ فقلت : بلى ، يا نبى الله . فأخذ بلسانه ثم قال : كُفّ عليك هذا . فقلت : يا رسول الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به . فقال : ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يَكُبّ الناس فى النار على وجوههم — أو قال : على مناخرهم — إلا حصائد ألسنتهم (٥) .

(١) مابين القوسين سقط من تفسير ابن كثير ، وقد أثبتناه من المسند .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٤١٦/١ .
(٣) سنن أبى داود ، كتاب الجهاد ، باب « فى الرجل الذى يشرى نفسه » ، الحديث ٢٥٣٦ : ٣/١٩ — ٢٠ .
(٤) الملاك — بكسر الميم — : ما به إحكام الشىء وتقويته .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٢٣١/٥ .

رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه فى سننهم ، من طرق عن معمر ، به : وقال الترمذى : « حسن صحيح (١) » ؛ ورواه ابن جرير من حديث شعبة ، عن الحكم قال : سمعت عروة بن النزال (٢) يحدث عن معاذ بن جبل : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جنة ، والصدقة تكفر الخطيئة ، وقيام العبد فى جوف الليل ، وتلا هذه الآية : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون (٣)) ؛

ورواه أيضا من حديث الثورى ، عن منصور بن المعتمر ، عن الحكم ، عن ميمون بن أبى شبيب ، عن معاذ عن النبى صلى الله عليه وسلم بنحوه ، ومن حديث الأعمش ، عن حبيب بن أبى ثابت ، والحكم عن ميمون بن أبى شبيب عن معاذ مرفوعا بنحوه . ومن حديث حماد بن سلمة ، عن عاصم بن أبى النَّجُود ، عن شهر ، عن معاذ بن جبل، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فى قوله تعالى : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) ، قال : قيام العبد من الليل (٤) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطى ، حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا فِطْر بن خليفة ، عن حبيب ابن أبى ثابت ، والحكم ، وحكيم بن جبير ، عن ميمون بن أبى شبيب ، عن معاذ بن جبل قال : كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك فقال : إن شئت أنبأتك بأبواب الخير : الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة ، وقيام الرجل فى جوف الليل ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ، ومما رزقناهم ينفقون) ؛

ثم قال : حدثنا أبى ، حدثنا سويد بن سعيد ، حدثنا على بن مسهر ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن شهر بن حوشب ، عن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، جاء مناد فنادى بصوت يُسمِعُ الخلائق : سيعلم أهل الجمع اليوم مَن أولى بالكرم . ثم يرجع فينادى : ليقم الذين كانت (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) ... الآية ، فيقومون وهم قليل » .

وقال البزار : حدثنا عبد الله بن شبيب ، حدثنا الوليد بن عطاء بن الأغر ، حدثنا عبد الحميد بن سليمان ، حدثنى مصعب ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه قال : قال بلال لما نزلت هذه الآية : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) ، كنا نجلس فى المجلس ، وناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون بعد المغرب إلى العشاء ، فنزلت هذه الآية : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) .

ثم قال : لا نعلم روى أسلم عن بلال سواه ، وليس له طريق عن بلال غير هذه الطريق ؛

وقوله : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) ، أى : فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم فى الجنات من النعيم المقيم ، واللذات التى لم يطلع على مثلها أحد ، لـمّا أخفوا أعمالهم أخفى الله لهم من الثواب ، جزاء وفاقا ، فإن الجزاء من جنس العمل .

---

(١) تحفة الأحوذى ، أبواب الإيمان ، باب « ما جاء فى حرمة الصلاة » ، الحديث ٢٧٤٩ : ٧ / ٣٦٢ - ٣٦٥ . وسنن ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب « كف اللسان فى الفتنة » ، الحديث ٣٩٧٣ : ٢/١٣١٤ - ١٣١٥ .

(٢) فى تفسير الطبرى : « عروة بن الزبير » . وعروة بن النزال - كما فى الخلاصة - يروى عن معاذ بن جبل ،

(٣) تفسير الطبرى : ٢١/٦٤ .

(٤) انظر تفسير الطبرى : ٢١/٦٤ - ٦٥ ,

قال الحسن : أخفى قوم أعمالهم ، فأخفى الله لهم مالم تر عين ، ولم يخطر على قلب بشر . رواه ابن أبي حاتم .

قال البخارى : قوله : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) ... الآية : حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة — رضى الله عنه — عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . قال أبو هريرة : فاقرءوا إن شئتم : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين (١)) .

قال : وحدثنا سفيان ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال : قال الله مثله . قيل لسفيان : رواية ؟ قال : فأىّ شيء ؟ .

ورواه مسلم والترمذى من حديث سفيان بن عيينة ، به . وقال الترمذى : « حسن صحيح (٢) » .

ثم قال البخارى : حدثنا إسحاق بن نصر حدثنا أبو أسامة ، عن الأعمش حدثنا أبو صالح ، عن أبي هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ذُخْراً مِنْ بَلْه (٣) ما أُطْلِعتم عليه » ، ثم قرأ : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) .

قال أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبي صالح قرأ أبو هريرة : (قُرّات أعين) . انفرد به البخارى من هذا الوجه (٤)

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « إن الله تعالى قال : أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر (٥) » .

أخرجاه فى الصحيحين من رواية عبد الرزاق (٦) . ورواه الترمذى فى التفسير ، وابن جرير ، من حديث عبد الرحيم ابن سليمان ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة — رضى الله عنه — عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بمثله . ثم قال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح (٧) » .

---

(١) البخارى ، تفسير سورة السجدة : ٦/١٤٥ .

(٢) مسلم ، كتاب الجنة : ٨/١٤٣ . وتحفة الأحوذى تفسير سورة السجدة ، الحديث ٣٢٤٩ : ٩/٥٦ .

(٣) ذكر الحافظ فى فتح البارى ٨/٣٦٥ : « قال الخطابى : كأنه يقول : دع ما اطلعتم عليه فإنه سهل فى جنب ما ادخر لهم ويعقب ابن حجر بقوله : « وهذا لائق بشرح (بله) بغير تقدم (من) عليها ، وأما إذا تقدمت (من) عليها ، فقد قيل : هى بمعنى « كيف » ، ويقال بمعنى « أجل » ، ويقال بمعنى « غير » أو « سوى » . وقيل : بمعنى « فضل » . لكن قال الصغانى : اتفقت نسخ الصحيح على (من بله) ، والصواب إسقاط كلمة (من) . وتعقب بأنه لا يتعين إسقاطها إلا إذا فسرت بمعنى « دع » ، وأما إذا فسرت بمعنى : من أجل ، أو : من غير أو سوى ، فلا . وقد ثبت فى عدة مصنفات خارج الصحيح بإثبات (من) . . . » .

(٤) البخارى ، تفسير سورة السجدة : ٦/١٤٥ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٢ / ٣١٣ من حديث طويل .

(٦) وقع لنا الحديث فى صحيح البخارى من رواية معمر ، وذلك فى كتاب بدء الخلق ، باب « ما جاء فى صفة الجنة » ، ٤/١٤٣ .

(٧) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الواقعة ، الحديث ٣٣٤٦ : ٩/١٧٩ — ١٨٠ وتفسير الطبرى : ٢١/٦٦ .

وقال حماد بن سلمة ، عن ثابت بن أبي رافع ، عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال حماد : أحسبه عن النبي صلى الله عليه وسلم — قال : « من يدخل الجنة ينعم لا ييأس ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه ، في الجنة مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلبه بشر (١) » :

رواه [مسلم] من حديث حماد بن سلمة ، به (٢) .

وروى الإمام أحمد : حدثنا هارون ، حدثنا ابن وهب ، حدثني أبو صخر ، أن أبا حازم حدثه قال : سمعت سهل ابن سعد الساعدي — رضي الله عنه — يقول : شهدت من رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا وصف فيه الجنة ، حتى انتهى ، ثم قال في آخر حديثه : « فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » ، ثم قرأ هذه الآية : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) ، إلى قوله : (يعملون (٣)) .

وأخرجه مسلم في صحيحه عن هارون بن معروف ، وهارون بن سعيد ، كلاهما عن ابن وهب ، به(٤) .

وقال ابن جرير : حدثني العباس بن أبي طالب ، حدثنا معلى بن أسد ، حدثنا سلام بن أبي مطيع ، عن قتادة ، عن عقبة بن عبد الغافر ، عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يروى عن ربه عز وجل ، قال : أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر (٥) . لم يخرجوه .

وقال مسلم أيضا في صحيحه : حدثنا ابن أبي عمر وغيره ، حدثنا سفيان ، حدثنا مُطَرِّف بن طَرِيف وعبد الملك ابن سعيد ، سمعا الشعبي يخبر عن المغيرة بن شعبة قال: سمعته على المنبر — يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم — قال : « سأل موسى عليه السلام ربه عز وجل : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : هو : رجل يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة . فيقول : أي رب ، كيف وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخَذَاتهم (٦) ؟ فيقال له : أترضى أن يكون له مثل مُلْك مَلِكٍ من ملوك الدنيا ؟ فيقول: رضيت رب . فيقول : لك ذلك ، ومثله ، ومثله ، ومثله ، ومثله ، فقال في الخامسة : رضيت رَبِّ . فيقول : هذا لك وعشرةُ أمثاله ، ولك ما اشتهت نفسك ولَذّت عينك . فيقول : رضيت رب : قال : رب ، فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردتُ غَرَسْتُ كرامتهم بيدي ، وختمت عليها ، فلم ترعين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر ، قال : ومصداقه من كتاب الله : (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة عين جزاء بما كانوا يعملون (٧)) .

ورواه الترمذي عن ابن أبي عمر ، وقال : حسن صحيح ، قال : ورواه بعضهم عن الشعبي ، عن المغيرة ولم يرفعه ، والمرفوع أصح .

---

(١) تفسير الطبري : ٢١ : ٦٧ .
(٢) مسلم ، كتاب الجنة ، باب « في دوام نعيم أهل الجنة » ٨/ ١٤٨ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٥/ ٣٣٤ .
(٤) صحيح مسلم ، كتاب الجنة : ٨٩/ ١٤٣ .
(٥) تفسير الطبري : ٢١/ ٦٧ .
(٦) أي : أخذوا ما أخذوا من كرامة ربهم .
(٧) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « أدنى أهل الجنة منزلة » ١/ ١٢٠ — ١٢١ .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا [جعفر] بن منير المدائني ، حدثنا أبو بدر شجاعُ بن الوليد ، حدثنا زياد بن خيثمة ، عن محمد بن جُحَادة ، عن عامر بن عبد الواحد قال : بلغني أن الرجل من أهل الجنة يمكث في مكانه سبعين سنة ، ثم يلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه ، فتقول له : قد آنَى (١) لك أن يكون لنا منك نصيب ؟ فيقول : من أنت ؟ فتقول : أنا من المَزيد . فيمكث معها سبعين سنة ، ثم يلتفت فاذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه ، فتقول له : قد آنى لك أن يكون لنا منك نصيب ، فيقول : من أنت ؟ فتقول : أنا التي قال الله : (فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرة أعين) .

وقال ابن لهيعة : حدثني عطاء بن دينار ، عن سعيد بن جُبَير قال : تدخل عليهم الملائكة في مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات ، معهم التحف من الله من جنات عدن ما ليس في جناتهم ، وذلك قوله : (فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرة أعين) ، ويُخبِرُون أن الله عنهم راض .

وقال ابن جرير : حدثنا سهل بن موسى الرازي ، حدثنا الوليد بن مسلمٍ ، عن صفوان بن عمرو ، عن أبي اليمان الهوزني — أو غيره — قال : الجنة مائة درجة ، أوّلها درجة فضة وأرضها فضة ، ومساكنها فضة ، [وآنيتها فضة] وترابها المسك . والثانية ذهب ، وأرضها ذهب ، ومساكنها ذهب ، وآنيتها ذهب ، وترابها المسك . والثالثة لؤلؤ ، وأرضها لؤلؤ ، ومساكنها اللؤلؤ ، وآنيتها اللؤلؤ ، وترابها المسك . وسبع وتسعون بعد ذلك ، مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ثم تلا هذه الآية : (فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرة أعين، جزاء بما كانوا يعملون(٢)) .

وقال ابن جرير : حدثني يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا معتمر بن سليمان ، عن الحكم بن أبان ، عن الغطريف ، عن جابر بن زيد ، عن ابن عباس ، عن النبي — صلى الله عليه وسلم — عن الروح الأمين قال : « يؤتى بحسنات العبد وسيئاته ، ينقص بعضها من بعض، فإن بقيت حسنة [واحدة] وسع الله له في الجنة، قال: فدخلت على « يزداد » فَحَدّثَ بمثل هذا الحديث ، قال : فقلت : فأين ذهبت الحسنة ؟ قال : (أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة ، وعد الصدق الذي كانوا يوعدون) : قلت : قوله تعالى : (فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرة أعين) ، قال : العبد يعمل سراً أسرّه إلى الله ، لم يُعلم به الناس ، فأسرّ الله له يوم القيامة قُرّة أعين (٣) .

أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

يخبر تعالى عن عدله أنه لا يُساوي في حُكمه يوم القيامة من كان مُؤمناً بآياته متبعاً لرسله ، بمن كان فاسقا ، أي : خارجا عن طاعة ربه مكذبا لرُسُله إليه ، كما قال تعالى : (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا

(١) أي : حان .
(٢) تفسير الطبري : ٢١/٦٦ .
(٣) تفسير الطبري : ٢١/٦٧ .

وعملوا الصالحات ، سواء محياهم ومماتهم ، ساء ما يحكمون (١)) ، وقال تعالى : (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار (٢)) ، وقال تعالى : (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون (٣)) ، ولهذا قال تعالى ، هاهنا : (أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون) ، أى : عند الله يوم القيامة .

وقد ذكر عطاء بن يسار والسدى وغيرهما : أنها نزلت فى على بن أبى طالب ، وعقبة بن أبى مُعَيط (٤). ولهذا فصَّل حكمهم فقال : (أمَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) ، أى : صدقت قلوبهم بآيات الله وعملوا بمقتضاها ، وهى الصالحات ، (فلهم جنات المأوى) ، أى : التى فيها المساكن والدور والغرف العالية ، (نزلا) ، أى : ضيافة وكرامة (بما كانوا يعملون . وأما الذين فسقوا) ، أى : خرجوا عن الطاعة ، (فمأواهم النار ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) ، [كقوله : (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها (٥)) .. الآية] .

قال الفُضَيل بن عياض : والله إن الأيدى لموثقة ، وإن الأرجل لمقيدة ، وإن اللهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم .

(وقيل لهم : ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون) ، أى : يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا .

وقوله : (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر) ، قال ابن عباس : يعنى بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها ، وما يحل بأهلها مما يبتلى الله به عباده ليتوبوا إليه (٦) : وروُى مثله عن أبى بن كعب ، [وأبى العالية] ، والحسن ، وإبراهيم النخعى ، والضحاك ، وعلقمة ، وعطية ، ومجاهد ، وقتادة ، وعبد الكريم الجزَرى ، وخصيف .

وقال ابن عباس ـ فى رواية عنه ـ يعنى به إقامة الحدود عليهم (٧) .

وقال : البراء بن عازب ، ومجاهد ، وأبو عبيدة : يعنى به عذاب القبر .

وقال النسائى : أخبرنا عمرو بن على ، أخبرنا عبد الرحمن بن مهدى ، عن إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص وأبى عبيدة ، عن عبد الله : (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر) ، قال : سنون أصابتهم .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : حدثنى عبيد الله بن عُمَر القواريرى ، حدثنا يحيى بن سعيد ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن عَزْرَة ، عن الحسن العُرَنى ، عن يحيى بن الجزار ، عن ابن أبى ليلى ، عن أبى بن كعب فى هذه الآية : (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر) ، قال : المصيبات والدخان قد مضيا ، والبطشة واللزام (٨) .

---

(١) سورة الجاثية ، آية ٢١ .

(٢) سورة « ص » ، آية : ٢٨ .

(٣) سورة الحشر ، آية : ٢٠ .

(٤) ذكر الطبرى : ٢١/٦٨ بإسناده عن عطاء قال : « نزلت بالمدينة فى على بن أبى طالب والوليد بن عقبة بن أبى معيط . كان بين الوليد وبين على كلام ، فقال الوليد بن عقبة : أنا أبسط منك لساناً ، وأحد منك سنانا ، وارد منك للكتيبة ! فقال على : اسكت فإنك فاسق . فأنزل الله فيهما : (أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقا لا يستوون) ، إلى قوله : (به تكذبون) » .

(٥) سورة الحج ، آية : ٢٢ .

(٦) تفسير الطبرى : ٢١/٦٨ .

(٧) تفسير الطبرى : ٢١/٦٩ .

(٨) مسند الإمام أحمد : ٥/١٢٨ ، وانظر تفسير هذه المفردات فى : ٦/٣٠٥ .

ورواه مسلم من حديث شعبة ، به موقوفا نحوه (١) . وعند البخارى عن ابن مسعود ، [نحوه (٢) .

وقال عبد الله بن مسعود] أيضا ، فى رواية عنه: العذاب الأدنى: ما أصابهم من القتل والسبى يوم بدر . وكذا قال مالك ، عن زيد بن أسلم .

قال السدى ، وغيره : لم يبق بيت بمكة إلا دخله الحزن على قتيل لهم أو أسير ، فأصيبوا أو غرموا ، ومنهم من جمع له الأمران .

وقوله : (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها) ، أى : لا أظلم ممن ذكّره الله بآياته وبينها له ووضحها ، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها ، كأنه لا يعرفها .

قال قتادة — رحمه الله — إياكم والإعراضَ عن ذكر الله ، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرة ، وأعوز أشد العَوَز ، وعظم من أعظم الذنوب .

ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك : (إنا من المجرمين منتقمون) ، أى : سأنتقم ممن فعل [ذلك] أشد الانتقام .

وقال ابن جرير : حدثنى عمران بن بكار الكلاعى ، حدثنا محمد بن المبارك ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، حدثنا عبد العزيز بن عبيد الله ، عن عبادة بن نُسَىّ ، عن جنادة بن أبى أمية ، عن معاذ بن جبل قال : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « ثلاث من فعلهن فقد أجرم ، من عقد لواء فى غير حق ، أو عق والديه ، أو مشى مع ظالم ينصره ، فقد أجرم ، يقول الله تعالى : (إنا من المجرمين منتقمون (٣)) » .

ورواه ابن أبى حاتم ، من حديث إسماعيل بن عياش ، به . وهذا حديث غريب جداً .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى — عليه السلام — أنه آتاه الكتاب وهو التوراة .

وقوله : (فلا تكن فى مرية من لقائه) ، قال قتادة : يعنى به ليلة الإسراء . ثم روى عن أبى العالية الرِّياحى قال : حدثنى ابن عم نبيكم — يعنى ابن عباس — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « أُريتُ ليلة أسرى بى موسى ابن عمران ، رجلا آدمَ طُوَالا جَعْداً ، كأنه من رجال شَنُوءة . ورأيت عيسى رجلا مربوع الخلق ، إلى الحمرة

(١) مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب « الدخان » ، ٨/١٣٢ .
(٢) البخارى ، تفسير سورة الدخان ، ٦/١٦٤ .
(٣) تفسير الطبرى ، ٢١/٦٩ .
(٤) تفسير الطبرى ، ٢١/٧٥ .

والبياض ، سبط الرأس » ورأيت مالكا خازن النار والدجال ، فى آيات أراهن الله إياه ، (فلا تكن فى مرية من لقائه) ، أنه قد رأى موسى ، ولقى موسى ليلة أسرى به (١) .

وقال الطبرانى : حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة، حدثنا الحسن بن على الحُلْوانى، حدثنا روح بن عبادة ، حدثنا سعيد بن أبى عَرُوبة ، عن قتادة ، عن أبى العالية، عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : (وجعلناه هدى لبنى إسرائيل) ، قال : جعل موسى هدى لبنى إسرائيل، وفى قوله : (فلا تكن فى مرية من لقائه) ، قال : من لقاء موسى ربه عز وجل .

وقوله : (وجعلناه) ، أى : الكتاب الذى آتيناه (هُدى لبنى إسرائيل) ، [كما قال تعالى فى سورة الإسراء : (وآتينا موسى الكتاب ، وجعلناه هدى لبنى إسرائيل] أن لا تتخذوا من دونى وكيلا (٢)) .

وقوله : (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) ، أى : لما كانوا صابرين على أوامر الله وترك زواجره وتصديق رسله واتباعهم فيما جاءوهم به ، كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله ، ويدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر . ثم لما بدلوا وحرّفوا وأوّلوا ، سلبوا ذلك المقام ، وصارت قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه، فلا عمل صالحاً ، ولا اعتقاد صحيحاً . ولهذا قال : (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا(٣)) — قال قتادة وسفيان : لما صبروا عن الدنيا : وكذلك قال الحسن بن صالح :

قال سفيان : هكذا كان هؤلاء، ولا ينبغى للرجل أن يكون إماماً يُقتدى به حتى يتحامى عن الدنيا .

قال وكيع : قال سفيان : لا بد للدين من العلم ، كما لا بد للجسد من الخبز .

وقال ابن بنت الشافعى : قرأ أبى على عمى — أو : عمى على أبى — سئل سفيان عن قول على — رضى الله عنه — : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ألم تسمع قوله : (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا) ، قال : لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوساً [قال بعض العلماء : بالصبر واليقين تنال الإمامة فى الدين .

ولهذا قال تعالى] (٤) : (ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة [ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين ، وآتيناهم بينات من الأمر(٤)] (فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم (٥)) كما قال هنا : (إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) ، أى : من الاعتقادات والأعمال .

---

(١) تقدم الحديث فى تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء ، وشرحناه هنالك : ٥/٢٦ — ٣٢ .

(٢) سورة الإسراء ، آية : ٢ .

(٣) ورد فى المخطوطة والطبعات السابقة مكان هذه الآية قوله تعالى : (ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب) ، وسياق المفسر يقتضى إثبات ما أثبتناه .

(٤) ما بين القوسين من الطبعات السابقة .

(٥) سورة الجاثية ، آية : ١٦ ، ١٧ .

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ
(٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧)

يقول تعالى: أولم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسل ما أهلك الله قبلهم من الامم الماضية، بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاءوهم به من قويم السبل ، فلم يبقَ منهم باقية ولا عين ولا أثر ؟ (هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً (١)) ، ولهذا قال : (يمشون فى مساكنهم) ، أى : وهؤلاء المكذبون يمشون فى مساكن أولئك المكذبين ، فلا يرون فيها أحدا ممن كان يسكنها ويعمُرها ، ذهبوا منها (كأن لم يغنوا فيها (٢)) ، كما قال : (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا (٣)) ، وقال : (فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة ، فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد . أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور (٤)) ولهذا قال هاهنا : (إن فى ذلك لآيات) ، أى : إن فى ذهاب أولئك القوم ودَمَارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل ، ونجاة من آمن بهم ، لآيات وعبراً ومواعظ ودلائل متظاهرة .

(أفلا يسمعون) ، أى : أخبار من تقدم ، كيف كان أمرهم ؟

وقوله : (أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز) ، يبين تعالى لطفه بخلقه ، وإحسانه إليهم فى إرساله الماء إما من السماء أو من السيح ، وهو : ما تحمله الأنهار وينحدر من الجبال ، إلى الأراضى المحتاجه إليه فى أوقاته ، ولهذا قال : (إلى الأرض الجرز) ، وهى : التى لا نبات فيها ، كما قال تعالى : (وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جُرُزاً) ، أى : يَبَساً لا تنبت شيئاً . وليس المراد من قوله : (إلى الأرض الجرز) ، أرض مصر فقط ، بل هى بعضُ المقصود ، وإن مثل بها كثير من المفسرين فليست المقصودة وحدها ، ولكنها مرادة قطعاً من هذه الآية ، فإنها فى نفسها أرض رخوة غليظة تحتاج من الماء ما لو نزل عليها مطراً لتهدمت أبنيتها ، فيسوق الله إليها النيل بما يتحمله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة ، وفيه طين أحمر ، فيغشى أرض مصر ، وهى أرض سبخة مرملة محتاجة إلى ذلك الماء ، وذلك الطين أيضاً لينبُتَ الزرعُ فيه ، فيستغلون كلّ سنة على ماء جديد ممطور فى غير بلادهم ، وطين جديد من غير أرضهم ، فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود ابتداء .

قال ابن لهيعة ، عن قيس بن حجاج ، عمن حدثه قال : لما فُتحت مصر ، أتى أهلُها عمرو بن العاص حين دخل بؤونة من أشهر العجم ، فقالوا : أيها الأمير ، إن لنيلنا سُنَّة لا يجرى إلا بها . قال : وما ذاك ؟ قالوا : إذا كانت ثنتا عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عَمَدنا إلى جارية بِكْر بين أبويها ، فأرضينا أبويها ، وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها فى هذا النيل . فقال لهم عمرو : إن هذا ما لا يكون فى الإسلام ، إن الإسلام يهدم ما كان

(١) سورة مريم ، آية : ٩٨ .
(٢) سورة الأعراف ، آية : ٩٢ .
(٣) سورة النمل ، آية : ٥٢ .
(٤) سورة الحج ، آية : ٤٥ ، ٤٦ .

قبله . فأقاموا بؤونة والنيل لا يجرى ، حتى هموا بالجلاء ، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك ، فكتب إليه : إنك قد أصبت بالذى فعلت ، وقد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابى هذا ، فألقها فى النيل . فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر ، أما بعد ... فإنك إن كنت إنما تجرى من قبلك فلا تجر ، وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله أن يجريك . قال : فألقى البطاقة فى النيل ، وأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً فى ليلة واحدة، وقطع الله تلك السُّنَّة عن أهل مصر إلى اليوم . رواه الحافظ أبو القاسم اللالكائى(١) الطبرى فى كتاب « السنة » له .

ولهذا قال تعالى : (أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون) كما قال تعالى : (فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صباً . ثم شققنا الأرض شقاً . فأنبتنا فيها حباً . وعنبا وقضباً . وزيتوناً ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا)(٢) ، ولهذا قال هاهنا (أفلا يبصرون) .

وقال ابن أبى نجيح، عن رجل، عن ابن عباس فى قوله: (إلى الأرض الجرز)، قال: هى التى لا تُمطَر إلا مطرا لا يغنى عنها شيئاً ، إلا ما يأتيها من السيول .

وعن ابن عباس ، ومجاهد : هى أرض باليمن .

وقال الحسن رحمه الله : هى قرى فيما بين اليمن والشام .

وقال عكرمة ، والضحاك ، وقتادة ، والسدى ، وابن زيد : الأرض الجرز التى لا نبات فيها وهى مغبرة .

قلت : وهذا كقوله : (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون(٣)) .

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكفار وقوعَ بأس الله بهم وحلولَ غضبه ونقمته عليهم استبعادا وتكذيباً وعناداً (ويقولون متى هذا الفتح ؟) ، أى : متى تنصر علينا يا محمد ؟ كما تزعم أن لك وقتاً تُدَال علينا ، ويُنتقم لك منا فمتى يكون هذا ؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين ! قال الله تعالى : (قل : يوم الفتح) ، أى : إذا حلّ بكم بأس الله وسَخَطه وغضبه فى الدنيا وفى الأخرى ، (لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون) ، كما قال تعالى :

(١) هو الإمام أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبرى الرازى الحافظ ، محدث بغداد ، قال عنه الخطيب : كان يفهم ويحفظ ، وصنف كتاباً فى السنة . توفى فى رمضان سنة ٤١٨ . انظر تذكرة الحفاظ للذهبى : ١٠٨٣ .

(٢) سورة عبس ، الآيات : ٢٤ ــ ٣١ .

(٣) سورة « يس » ، الآيات : ٣٣ ــ ٣٥ .

(فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون : فلما رأوا بأسنا قالوا : آمنا بالله وحده ، وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التي قد خلت في عباده ، وخسر هنالك الكافرون(١)) . ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة فقد أبعد النّجعة ، وأخطأ فأفحش ، فان يوم الفتح قد قَبِل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إسلامَ الطلقاء ، وقد كانوا قريباً من ألفين ، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم ، لقوله : (قل : يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون) ، وإنما المراد الفتح الذى هو القضاء والفصل ، كقوله تعالى : (فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني ومن معي من المؤمنين(٢)) ، وكقوله : (قل : يجمع بيننا ربنا ، ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم(٣)) وقال تعالى : (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد(٤)) ، وقال : (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا (٥)) ، وقال : (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح (٦)) .

ثم قال : (فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون) ، أى : أعرض عن هؤلاء المشركين وبلغ ما أنزل إليك من ربك ، كقوله : (اتبع ما أوحى إليك من ربك ، لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين (٧)) ، وانتظر فإن الله سينجز لك ما وعدك ، وسينصرك على من خالفك ، إنه لا يخلف الميعاد .

وقوله : (إنهم منتظرون) ، أى : أنت منتظر وهم منتظرون ، ويتربصون بكم الدوائر ، (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون(٨)) ، وسترى أنتَ عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة الله ، فى نصرتك وتأييدك ، وسيجدون غِبَّ ما ينتظرونه فيك وفى أصحابك ، من وبيل عقاب الله لهم ، وحلول عذابه بهم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

---

(١) سورة غافر ، الآيات : ٨٣ – ٨٥ .
(٢) سورة الشعراء ، آية : ١١٨ .
(٣) سورة سبأ ، آية : ٢٦ .
(٤) سورة إبراهيم ، آية : ١٥ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ٨٩ .
(٦) سورة الأنفال ، آية : ١٩ .
(٧) سورة الأنعام ، الآية : ١٠٦ .
(٨) سورة الطور ، آية : ٣٠ .

تفسير سورة الأحزاب

مدنية

قال [عبد الله بن(١)] الإمام أحمد : حدثنا خلف بن هشام ، حدثنا حماد بن زيد ، عن عاصم بن بهدلة ، عن زرّ قال : قال لي أبي بن كعب : كـأيّن تقرأ(٢) سورة الأحزاب؟ أو كـأيّن تعدها ؟ قال : قلت : ثلاثاً وسبعين آية . فقال : قَط ! لقد رأيتها وإنها لتعادل « سورة البقرة » ، ولقد قرأنا فيها : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ، نكالا من الله ، والله عليم حكيم» (٣) .

ورواه النسائي من وجه آخر ، عن عاصم — وهو ابن أبي النجود ، وهو ابن بهدلة — به . وهذا إسناد حسن ، وهو يقتضي أنه كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضاً ، والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾

هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى ، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى . وقد قال طلق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله ، على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله ، على نور من الله ، مخافة عذاب الله .

وقوله : (ولا تطع الكافرين والمنافقين) ، أي : لا تسمع منهم ولا تستشرهم ، (إن الله كان عليما حكيما) ، أي : فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه ، فإنه عليم بعواقب الأمور ، حكيم في أقواله وأفعاله . ولهذا قال : (واتبع ما يوحى إليك من ربك) ، أي : من قرآن وسنة(٤) ، (إن الله كان بما تعملون خبيرا) ، أي : فلا تخفى عليه خافية . (وتوكل على الله) ، أي : في جميع أمورك وأحوالك ، (وكفى بالله وكيلا) ، أي : وكفى به وكيلا لمن توكل عليه وأناب إليه .

---

(١) في المخطوطة : « قال الإمام أحمد ، إنما قاله عبد الله بن أحمد » . والحديث رواه عبد الله بن الإمام أحمد عن خلف . فأثبتنا ما بين القوسين ليستقيم السياق .

(٢) أي : كم آية تقرأ ؟ وكم آية تعد هذه السورة ؟ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٥/١٣٢ .

(٤) قوله « وسنة » ، بناء على أن أحاديث النبي — صلى الله عليه وسلم — معانيها من الله وألفاظها منه عليه السلام .

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔى تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝﴾

يقول تعالى موطئاً قبل المقصود المعنوى أمرا حسيا معروفا ، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان فى جوفه ، ولا تصير زوجته التى يظاهر منها بقوله : أنت علىّ كظهر أمى أما له ، كذلك لا يصير الدّعىّ ولدا للرجل إذا تبنّاه فدعاه ابناله ، فقال : (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم) ، كقوله : (ما هن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا (١)) .

وقوله: (وما جعل أدعياءكم أبناءكم) ، هذا هو المقصود بالنفى ، فإنها نزلت فى شأن زيد بن حارثة مولى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد تبناه قبل النبوة ، وكان يقال له : « زيد بن محمد » ، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله : (وما جعل أدعياءكم أبناءكم) ، كما قال فى أثناء السورة : (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شئ عليما (٢)) : وقال هاهنا : (ذلكم قولكم بأفواهكم) ، يعنى تبنيكم لهم قول لا يقتضى أن يكون ابنا حقيقيا ؛ فإنه مخلوق من صلب رجل آخر ، فما يمكن أن يكون له أبوان ، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان .

(والله يقول الحق وهو يهدى السبيل) ، قال سعيد بن جبير : (يقول الحق) ، أى : العدل ؛ وقال قتادة : (وهو يهدى السبيل) ، أى : الصراط المستقيم .

وقد ذكر غير واحد : أن هذه الآية نزلت فى رجل من قريش ، كان يقال له « ذو القلبين » ، وأنه كان يزعم أن له قلبين ، كل منهما بعقل وافر . فأنزل الله هذه الآية ردا عليه . هكذا روى العوفى عن ابن عباس . قاله مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، واختاره ابن جرير (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا زهير ، عن قابوس ــ يعنى ابن أبى ظبيان ــ أن أباه حدثه قال : قلت لابن عباس : أرأيت قول الله تعالى : (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) ، ما عنى بذلك ؟ قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما يصلى ، فخطَر خَطْرَة(٤) ، فقال المنافقون الذين يصلون معه : ألا ترون له قلبين ، قلبا معكم وقلبا معهم ؟ فأنزل الله عز وجل : (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه (٥)) :

---

(١) سورة المجادلة ، آية : ٢ .

(٢) سورة الأحزاب ، آية : ٤٠ .

(٣) تفسير الطبرى : ٢١/٧٤ – ٧٥ .

(٤) يريد الوسوسة التى تحصل للإنسان فى صلاته ، قال ابن الأثير فى النهاية فى حديث سجود السهو : « حتى يخطر الشيطان بين المرء وقلبه » ، يريد الوسوسة ، ومنه حديث ابن عباس : قام نبى الله صلى الله عليه وسلم يوماً يصلى ، فخطر خطرة ، فقال المنافقون : « إن له قلبين » .

(٥) مسند الإمام أحمد : ١/٢٦٧ – ٢٦٨ .

وهكذا رواه الترمذى عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى ، عن صاعد الحرانى ــ وعن عبد بن حميد ، عن أحمد ابن يونس ــ كلاهما عن زهير ، وهو ابن معاوية ، به ثم قال : « وهذا حديث حسن (١) » : وكذا رواه ابن جرير (٢) ، وابن أبى حاتم ، من حديث زهير ، به :

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن الزهرى ، فى قوله : (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) ، قال : بلغنا أن ذلك كان فى زيد بن حارثة ، ضُرب له مثل ، يقول : ليس ابن رجل آخرَ ابنك (٣) .

وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : أنها نزلت فى زيد بن حارثة . وهذا يوافق ما قدمناه من التفسير : والله أعلم :

وقوله : (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) ، هذا أمر ناسخ لما كان فى ابتداء الإسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب ، وهم الأدعياء ، فأمر تعالى برد نسبهم إلى آبائهم فى الحقيقة ، وأن هذا هو العدل والقسط :

قال البخارى رحمه الله : حدثنا مُعَلّى بن أسد ، حدثنا عبد العزيز بن المختار ، حدثنا موسى بن عقبة قال : حدثنى سالم عن عبد الله بن عمر : أن زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كُنّا ندعوه إلا زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن : (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله (٤)) :

وأخرجه مسلم والترمذى والنسائى ، من طرق ، عن موسى بن عقبة ، به (٥) :

وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه ، فى الخلوة بالمحارم وغير ذلك ، ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبى حذيفة : يا رسول الله ، كنا ندعو سالما ابنا ، وإن الله قد أنزل ما أنزل ، وإنه كان يدخل علَىّ ، وإنى أجد فى نفس أبى حذيفة من ذلك شيئاً ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أرضعيه تحرمى عليه (٦) » : : : الحديث :

ولهذا لما نسخ هذا الحكم ، أباح تعالى زوجة الدعى ، وتزوج رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بزينب بنت جحش زوجة زيد بن حارثة ، وقال : (لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً (٧)) ، وقال فى آية التحريم : (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم(٨)) ، احترازا عن زوجة الدَّعىّ ، فإنه ليس من الصلب ، فأما الابن من الرضاعة فمنزل منزلة ابن الصلب شرعا ، بقوله عليه السلام فى الصحيحين : «حرموا من الرضاعة ما يحرم من النسب (٩) » : فأما دعوة الغير ابنا على سبيل التكريم والتحبيب ، فليس مما نهى عنه فى هذه الآية ، بدليل ما رواه الإمام

(١) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الأحزاب ، الحديث ٣٢٥١ ، ٣٢٥٢ : ٩/٥٨ ــ ٦٠ .

(٢) تفسير الطبرى : ٢١/٧٤ .

(٣) تفسير الطبرى : ٢١ / ٧٥ .

(٤) البخارى ، تفسير سورة الأحزاب : ٦/١٤٥ ــ ١٤٦ .

(٥) مسلم ، كتاب الفضائل ، باب « فضائل زيد بن حارثة » : ٨/١٣٠ ــ ١٣١ . وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة الأحزاب ، الحديث ٣٢٦٢ : ٩/٧٢ .

(٦) مسلم ، كتاب الرضاع ، باب « رضاعة الكبير » : ٤/١٦٨ ، ١٦٩ . وسنن أبى داود ، كتاب النكاح ، باب « فيمن حرم به » ، الحديث ٢٠٦١ : ٢/٢٢٣ . والنسائى ، كتاب النكاح ، باب « رضاع الكبير » : ٦/١٠٤ ــ ١٠٦ ، ومسند الإمام أحمد : ٦/١٧٤ ، ٢٢٨ ، ٢٤٩ ، ٢٦٩ .

(٧) سورة الأحزاب ، آية ٣٧ .

(٨) سورة النساء ، آية ٢٣ .

(٩) البخارى ، تفسير سورة الأحزاب ، ٦/١٥١ ، ومسلم ، كتاب الرضاع ، باب « يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة » : ٤/١٦٢ .

أحمد وأهل السنن إلا الترمذى ، من حديث سفيان الثورى ، عن سلمة بن كهيل ، عن الحسن العُرَنى ، عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أغيلمة بنى عبد المطلب على حُمُرَات لنا من جَمْع (١) ، فجعل يَلْطَخ أفخاذنا ويقول « أُبَيْنِى لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس(٢) » . قال أبو عُبَيد وغيره : « أُبَيْنِىَ : تصغير بَنِىَّ(٣) » : وهذا ظاهر الدلالة ، فإن هذا كان فى حجة الوداع سنة عشر ، وقوله : (ادعوهم لآبائهم) فى شأن زيد ابن حارثة ، وقد قتل فى يوم مؤتة سنة ثمان ، وأيضاً ففى صحيح مسلم ، من حديث أبى عوانة الوضاح بن عبد الله اليشكرى ، عن الجعد أبى عثمان البصرى ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا بنى » ، ورواه أبو داود والترمذى :

وقوله : (فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم) ، أمر تعالى برد أنساب الأدعياء إلى آبائهم ، إن عرفوا ، فإن لم يعرفوا آباءهم فهم إخوانهم فى الدين ومواليهم ، أى : عوضا عما فاتهم من النسب ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خرج من مكة عام عُمرة القضاء ، وتبعتهم ابنة حمزة تنادى : يا عم ، يا عم . فأخذها على وقال لفاطمة : دونك ابنةَ عَمِّك فاحتمليها . فاختصم فيها على ، وزيد ، وجعفر فى أيّهم يكفلها ، فكل أدلى بحجة ؛ فقال على : أنا أحق بها وهى ابنة عمى . وقال زيد : ابنة أخى . وقال جعفر بن أبى طالب : ابنة عمى ، وخالتها تحتى — يعنى أسماء بنت عميس . فقضى النبى صلى الله عليه وسلم لخالتها ، وقال : « الخالة بمنزلة الأم » . وقال لعلى : « أنت منى ، وأنا منك » ، وقال لجعفر : « أشبهت خَلْقى وخُلُقى » . وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا (٤) » :

ففى هذا الحديث أحكام كثيرة من أحسنها أنه عليه الصلاة والسلام حكم بالحق ، وأرضى كلا من المتنازعين ، وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا » ، كما قال تعالى : (فإخوانكم فى الدين ومواليكم) .

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن علية ، عن عيينة بن عبد الرحمن ، عن أبيه قال : قال أبو بكرة : قال الله عز وجل : (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم) ، فأنا ممن لا يُعرَف أبوه ، وأنا من إخوانكم فى الدين . قال أبى : والله إنى لأظنه لو علم أن أباه كان حماراً لانتمى إليه(٥) :

وقد جاء فى الحديث : « من ادعى لغير أبيه ، وهو يعلمه ، كفر » (٦) : وهذا تشديد وتهديد ، ووعيد أكيد ، فى التبرى من النسب المعلوم ، ولهذا قال : (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم) :

---

(١) جمع : هى المزدلفة . واللطخ : الضرب بالكف ، وليس بالشديد.

(٢) سنن أبى داود ، كتاب المناسك ، باب « التعجيل من جمع » ، الحديث ١٩٤٠ : ٢/١٤٩ . والنسائى ، كتاب المناسك ، باب النهى عن رمى جمرة العقبة قبل طلوع الشمس » : ٥/ ٢٧٠ — ٢٧٢ . وابن ماجه ، كتاب المناسك أيضاً ، باب « من تقدم من جمع إلى منى لرمى الجمار » ، الحديث ٣٠٢٥ : ٢/١٠٠٧ . ومسند الإمام أحمد : ١/٣١١ ، ٣٢٦ ، ٣٤٣ .

(٣) انظر فى النهاية لابن الأثير ، مادة : أبن . وقد كان فى المخطوطة : « أبنى تصغير ابنى » . والمثبت من المراجع المتقدمة .

(٤) البخارى ، كتاب الصلح ، باب « كيف يكتب : هذا ما صالح فلان بن فلان ... » : ٣/ ٢٤١ — ٢٤٢ .

(٥) تفسير الطبرى : ٢١/٧٦ .

(٦) البخارى ، كتاب المناقب : ٤/٢١٩ .

ثم قال : (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به) ، أى : إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه فى الحقيقة خطأ ، بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع ، فإن الله قد وضع الحرج فى الخطأ ورفع إثمه ، كما أرشد إليه فى قوله آمراً عباده أن يقولوا : (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا)(١) » وثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «قال الله : قد فعلت»(٢) وفى صحيح البخارى ، عن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر(٣) » وفى الحديث الآخر : « إن الله رفع عن أمتى الخطأ والنسيان، وما يُكرَهُون عليه(٤) » .

وقال هاهنا : (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمدت قلوبكم ، وكان الله غفوراً رحيماً) ، أى : وإنما الإثم على من تعمد الباطل كما قال تعالى : (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) . وفى الحديث المتقدم : « من ادعى إلى غير أبيه ، وهو يعلمه ، إلا كفر » وفى القرآن المنسوخ : « فإن كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم »

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن الزهرى ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، عن ابن عباس ، عن عمر أنه قال : بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق ، وأنزل معه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم ، فرجم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده ، ثم قال : قد كنا نقرأ : (ولا ترغبوا عن آبائكم [فانه كفر بكم — أو : إن كفراً بكم — أن ترغبوا عن آبائكم(٥)] ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تطرونى [كما أطرى (٦)] عيسى ابن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا : عبده ورسوله » وربما قال معمر : « كما أطرت النصارى ابن مريم (٧) »

ورواه فى الحديث الاخر : « ثلاث فى الناس كفر : الطعن فى النسب ، والنياحة على الميت ، والاستسقاء بالنجوم»(٨)

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا (٦) ﴾

قد علم الله تعالى شفقة رسوله صلى الله عليه وسلم على أمته ، ونصحه لهم ، فجعله أولى بهم من أنفسهم ، وحُكمه فيهم مُقَدّماً على اختيارهم لأنفسهم ، كما قال تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٨٦ .

(٢) تقدم الحديث فى سورة البقرة عند الآية ٢٨٣ ، انظر : ١/٥٠٢ . وانظر صحيح مسلم ، كتاب الإيمان : ١/٨١ .

(٣) البخارى ، كتاب الاعتصام ، باب « أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ » : ٩/١٣٢ — ١٣٣ .

(٤) تقدم الحديث فى سورة البقرة ، عند تفسير الآية ٢٨٦ : ١/٥٠٩ ، وخرجناه هنالك .

(٥) ما بين القوسين عند مسند الإمام أحمد .

(٦) ما بين القوسين عن المسند ، ومكانه فى المخطوطة : « كإطرائه » .

(٧) مسند الإمام أحمد : ١/٤٧ .

(٨) رواه مسلم والإمام أحمد عن أبى مالك الأشعرى ، ولفظ مسلم : « أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر فى الأحساب ... » وذكر الثلاثة التى هنا ، ومثله فى مسند الإمام أحمد . انظر مسلم ، كتاب الجنائز ، باب التشديد فى النياحة : ٣/٤٤ . ومسند الإمام أحمد : ٥/٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ .

لايجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ، ويسلموا تسليما(١)) ، وفى الصحيح : «والذى نفسى بيده ، لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين(٢)» ؛ وفى الصحيح أيضاً أن عمر — رضى الله عنه — قال : يارسول الله ، والله لأنت أحب إلى من كل شىء إلا من نفسى . فقال : «لاياعمر ، حتى أكون أحب إليك من نفسك» ، فقال : يارسول الله ، : لأنت أحب إلى من كل شىء حتى من نفسى ، فقال : «الآن ياعمر» .

ولهذا قال تعالى فى هذه الآية : (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) .

وقال البخارى عندها : حدثنا إبراهيم بن المنذر ، حدثنا [محمد بن] فُلَيح ، حدثنا أبى ، عن هلال بن على ، عن عبد الرحمن بن أبى عَمْرَة ، عن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة ، اقرءوا إن شئتم : (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) ، فأيما مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا ، فإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتنى فأنا مولاه» . تفرد به البخارى(٣) .

ورواه أيضاً فى «الاستقراض(٤)» وابن جرير(٥)، وابن أبى حاتم، من طرق ، عن فليح ، به مثله . ورواه الإمام أحمد ، من حديث أبى حصين ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله بنحوه(٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهرى فى قوله تعالى : (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) عن أبى سلمة ، عن جابر بن عبد الله، عن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول : «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، فأيما رجل مات وترك ديناً فإلىَّ ، ومن ترك مالا فلورثته» . ورواه أبو داود ، عن أحمد بن حنبل ، به نحوه .

وقوله : (وأزواجه أمهاتهم) ، أى : فى الحرمة والاحترام ، والإكرام والتوقير والإعظام، ولكن لاتجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع ، وإن سمى بعض العلماء بناتهن أخوات المؤمنين ، كما هو منصوص الشافعى فى المختصر ، وهو من باب إطلاق العبارة لاإثبات الحكم . وهل يقال لمعاوية وأمثاله: خال المؤمنين ؟ فيه قولان للعلماء ، ونص الشافعى على أنه يقال(٧) ذلك . وهل يقال لهن : أمهات المؤمنات ، فيدخل النساء فى جمع المذكر السالم تغليباً ؟ فيه قولان ، صح عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : لايقال ذلك . وهذا أصح الوجهين فى مذهب الشافعى رحمه الله .

---

(١) سورة النساء ، آية : ٦٥ .
(٢) البخارى ، كتاب الإيمان ، باب «حب الرسول — صلى الله عليه وسلم —» ١/١٠ . ومسلم ، كتاب الإيمان أيضاً ، باب «وجوب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم» : ١/٤٩ .
(٣) البخارى ، تفسير سورة الأحزاب : ٦/١٤٥ .
(٤) البخارى ، كتاب الاستقراض ، باب «الصلاة على من ترك ديناً» : ٣/١٥٥ .
(٥) تفسير الطبرى : ٢١/٧٧ .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٢/٣٣٤ — ٣٣٥ .
(٧) كذا فى المخطوطة ، وفى الطبعات السابقة : «لا يقال ذلك» .

وقد روى عن أبي بن كعب ، وابن عباس أنهما قرآ : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم ، وهو أب لهم (١)) . وروى نحو هذا عن معاوية ، ومجاهد ، وعكرمة والحسن : وهو أحد الوجهين في مذهب الشافعي . حكاه البغوي وغيره . واستأنسوا عليه بالحديث الذي رواه أبوداود :

حدثنا عبد الله بن محمد النفيلي ، حدثنا ابن المبارك ، عن محمد بن عجلان ، عن القعقاع بن حكيم ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلّمكم ، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولايستدبرها ، ولا يستطب(٢) بيمينه . وكان يأمر بثلاثة أحجار ، وينهى عن الروث والرِّمّة(٣) » .

وأخرجه النسائي وابن ماجه ، من حديث ابن عجلان(٤) .

والوجه الثاني : أنه لايقال ذلك ، واحتجوا بقوله : (ماكان محمد أبا أحد من رجالكم) . وقوله : (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) ، أي : في حكم الله (من المؤمنين والمهاجرين) ، أي : القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار . وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التي كانت بينهم ، كما قال ابن عباس وغيره : كان المهاجريّ يرث الأنصاري دون قراباته وذوي رحمه ، للأخوة التي آخى بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكذا قال سعيد بن جبير ، وغير واحد من السلف والخلف .

وقد أورد فيه ابن أبي حاتم حديثاً عن الزبير بن العوام رضي الله عنه فقال : حدثنا أبي ، حدثنا أحمد بن أبي بكر المصعبي — من ساكني بغداد — عن عبد الرحمن بن أبي الزناد ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن الزبير بن العوام قال : أنزل الله عز وجل فينا خاصة معشر قريش والأنصار : (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض) ، وذلك أنا معشرَ قريشٍ لما قَدِمنا المدينة قَدِمنا ولا أموال لنا ، فوجدنا الأنصار نِعْمَ الإخوانُ ، فواخيناهم ووارثناهم ، فواخى أبوبكر خارجة بن زيد ، وآخى عمر فلانا ، وآخى عثمان بن عفان رجلا من بني زُرَيق سعد(٥) الزرق ، ويقول بعض الناس غيره . قال الزبير : وواخيت أناكعب بن مالك ، فجئته فابتعلته فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى ، فوالله يابني ، لومات يومئذ عن الدنيا ماورثه غيري ، حتى أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة ، فرجعنا إلى مواريثنا .

وقوله : (إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً) ، أي : ذهب الميراث ، وبقي النصر والبر والصلة والإحسان والوصية .

وقوله : (كان ذلك في الكتاب مسطوراً) ، أي ، هذا الحكم ، وهو أن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض ، حكم من الله مقدر مكتوب في الكتاب الأول ، الذي لايبدل ، ولا يغير . قاله مجاهد وغير واحد . وإن كان قد يقال : قد شرع

---

(١) انظر تفسير القرطبي : ١٤/١٢٣ ، والطبري : ٢١/٧٧ .

(٢) الاستطابة : كناية عن الاستنجاء .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب الطهارة ، باب « كراهة استقبال القبلة عند قضاء الحاجة » ، الحديث ٨ : ١/٣ .

(٤) أخرجاه في كتاب الطهارة ، انظر ابن ماجه ، باب « الاستنجاء بالحجارة » ، الحديث ٣١٣ : ١/١١٤ . والنسائي ، باب النهي عن الاستطابة بالروث » : ١/٣٨ .

(٥) هو سعد بن عثمان الزرقي ، انظر ترجمته في أسد الغابة .

خلافه في وقت لما له في ذلك من الحكمة البالغة ، وهو يعلم أنه سينسخه إلى ماهو جار في قدره الأزلي، وقضائه القدري الشرعي .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ۝ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن أولى العزم الخمسة ، وبقية الأنبياء : أنه أخذ عليهم العهد والميثاق في إقامة دين الله ، وإبلاغ رسالته ، والتعاون والتناصر والاتفاق ، كما قال تعالى : (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا : أقررنا ، قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين(١)) . فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم ، وكذلك هذا . ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة ، وهم أولو العزم، وهو من باب عطف الخاص على العام ، وقد صرح بذكرهم أيضاً في هذه الآية ، وفي قوله : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه(٢)) ، فذكر الطرفين والوسط ، الفاتح والخاتم ، ومن بينهما على الترتيب . فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها ، كما قال : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم) ، فبدأ في هذه الآية بالخاتم ، لشرفه — صلوات الله عليه — ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم :

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة الدمشقي ، حدثنا محمد بن بكار ، حدثنا سعيد بن بشير ، حدثني قتادة ، عن الحسن ، عن أبي هريرة — رضي الله عنه — عن النبي صلى الله عليه وسلم . في قول الله تعالى : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح) ، الآية : قال النبي صلى الله عليه وسلم : «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث، [فبُدِىء بي] قبلهم(٣)» : سعيد بن بشير فيه ضعف .

وقد رواه سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة مرسلا ، وهو أشبه : ورواه بعضهم عن قتادة موقوفاً ، فالله أعلم :

وقال أبو بكر البزار :حدثنا عمرو بن على، حدثنا أبو أحمد، حدثنا حمزة الزيات، حدثنا عدى بن ثابت، عن أبي حازم عن أبي هريرة قال : خيار ولد آدم خمسة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، وخيرهم محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين : موقوف ، وحمزة فيه ضعف .

وقد قيل : إن المراد بهذا الميثاق الذى أخذ منهم حين أخرجوا في صورة الذّر من صلب آدم، كما قال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب قال : ورفع أباهم آدم ، فنظر إليهم — يعني ذريته — وأن فيهم الغنى والفقير ، وحسن الصورة ، ودون ذلك ، فقال : رب ، لوسويتَ بين عبادك ؟ فقال : إنى أحببت أن أشكر وأرى فيهم الأنبياء مثل السرج ، عليهم كالنور ، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة فهو الذى يقول الله تعالى : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح) الآية وهذا قول مجاهد أيضاً .

وقال ابن عباس : الميثاق الغليظ : العهد .

(١) سورة آل عمران ، آية : ٨١ .

(٢) سورة الشورى ، آية : ١٣ .

(٣) أخرجه السيوطى في الدر المنثور ، من الحسن بن سفيان ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبي نعيم في الدلائل ، والديلمى ، وابن عساكر : ٥/١٨٤ .

وقوله : (ليسأل الصادقين عن صدقهم) ، قال مجاهد : المبلغين المؤدين عن الرسل .

وقوله : (وأعد للكافرين) ، أى : من أممهم (عذاباً أليماً) ، أى : موجعاً ، فنحن نشهد أن الرسل قد بلّغوا رسالات ربهم ، ونصحوا الأمم وأفصحوا لهم عن الحق المبين، الواضح الجلى ، الذى لالبس فيه ولاشك ولاامتراء ، وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين والقاسطين ، فما جاءت به الرسل هو الحق، ومن خالفهم فهو على الضلال .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾

يقول تعالى مخبرا عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين ، فى صرفه أعداءهم وهزمه إياهم عام تألبوا عليهم وتحزبوا وذلك عام الخندق ، وذلك فى شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور .

وقال موسى بن عقبة وغيره كانت فى سنة أربع .

وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفراً من أشراف يهود بنى النضير ، الذين كانوا قد أجلاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى خيبر ، منهم: سلام بن أبى الحقيق، وسلام بن مشكم ، وكنانة بن الربيع ، خرجوا إلى مكة واجتمعوا بأشراف قريش ، وألبوهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة : فأجابوهم إلى ذلك،ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم أيضاً . وخرجت قريش فى أحابيشها ومن تابعها ، وقائدهم أبوسفيان صخر بن حرب ، وعلى غطفان عُيَيْنة بن حصن بن بدر ، والجميع قريب من عشرة آلاف ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلى الشرق ، وذلك بإشارة سلمان الفارسى فعمل المسلمون فيه واجتهدوا ، ونقل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم التراب وحفَر ، وكان فى حفره ذلك آيات بينات ودلائل واضحات. وجاء المشركون فنزلوا شرق المدينة قريباًمن أحد ، ونزلت طائفةمنهم فى أعالى أرض المدينة ، كما قال الله تعالى : (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم) ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين ، وهم نحو ثلاثة آلاف ، وقيل : سبعمائة وأسندوا ظهورهم إلى سَلْع ووجوههم إلى نحو العدو ، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الرجالة والخيالة أن تصل إليهم ، وجعل النساء والذرارى فى آطام المدينة ، وكانت بنو قريظة ــ وهم طائفة من اليهود ــ لهم حصن شرقى المدينة ، ولهم عهد من النبى صلى الله عليه وسلم وذمة ، وهم قريب من ثمانمائة مقاتل فذهب إليهم حُيَىّ بن أخطب النَّضَرى ، فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد ، ومالئوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعظم الخطب واشتد الأمر ، وضاق الحال ، كما قال الله تعالى : (هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً).

---

(١) سلع : جبل بسوق المدينة .

ومكثوا محاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قريباً من شهر ، إلا أنهم لايصلون إليهم ، ولم يقع بينهم قتال ، إلا أن عمرو بن عبد ودّ العامرى ، وكان من الفرسان الشجعان المشهورين فى الجاهلية ، ركب ومعه فوارس فاقتحموا الخندق ، وخلصوا إلى ناحية المسلمين . فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم خيل المسلمين إليه ، فلم يبرز إليه أحد، فأمر عليا فخرج إليه ، فتجاولا ساعة ، ثم قتله على رضى الله عنه ، فكان علامة على النصر .

ثم أرسل الله — عز وجل — على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية ، حتى لم تبق لهم خيمة ولا شىء ولا تُوقَد لهم نار ، ولم يقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين ، كما قال الله تعالى:(يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً) :

قال مجاهد : وهى الصبا ، ويؤيده الحديث الآخر : « نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور(١) » .

وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن المثنى ، حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا داود ، عن عكرمة قال : قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب : انطلقى ننصرْ رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقالت الشمال : إن الحرة لاتسرى بالليل : قال : فكانت الريح التى أرسلت عليهم(٢) الصبا .

ورواه ابن أبى حاتم ، عن أبى سعيد الأشج ، عن حفص بن غياث ، عن داود ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فذكره .

وقال ابن جرير أيضاً : حدثنا يونس ، حدثنا ابن وهب ، حدثنى عبيد الله بن عمر ، عن نافع ، عن عبد الله بن عمر قال : أرسلنى خالى عثمان بن مظعون ليلة الخندق فى برد شديد وريح إلى المدينة ، فقال : ائتنا بطعام ولحاف . قال : فاستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأذن لى ، وقال : « من أتيت من أصحابى فمرهم يرجعوا » : قال : فذهبت والريح تسفى كل شىء ، فجعلت لا ألقى أحداً إلا أمرته بالرجوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : فما يلوى أحد منهم عنقه . قال : وكان معى ترس لى ، فكانت الريح تضربه علىّ ، وكان فيه حديد ، قال : فضربته الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفى ، فأنفذها إلى الأرض(٢) .

وقوله : (وجنوداً لم تروها) ، وهم الملائكة ، زلزلتهم وألقت فى قلوبهم الرعب والخوف ، فكان رئيس كل قبيلة يقول : يابنى فلان إلى . فيجتمعون إليه فيقول : النجاء ، النجاء . لما ألقى الله تعالى فى قلوبهم من الرعب .

وقال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القرظى قال : قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة ابن اليمان : يا أبا عبد الله، رأيتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبتموه ؟ قال : نعم ، يا ابن أخى . قال : وكيف كنتم تصنعون ؟ قال : والله لقد كنا نجهد . قال الفتى : والله لو أدركناه ما تركناه يمشى على الأرض ولحملناه على أعناقنا .

---

(١) البخارى ، كتاب الاستسقاء ، باب « قول النبى — صلى الله عليه وسلم — : نصرت بالصبا » : ٢/٤٠ — ٤١ . ومسلم ، باب فى ريح الصبا والدبور » : ٢٧/٣ .

(٢) تفسير الطبرى : ٨٠/٢١ .

قال : قال حذيفة : يا ابن أخي ، والله لو رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخندق وصلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هُوِيّاً (١) من الليل ، ثم التفت فقال : مَنْ رجل يقوم فينظر لنا مافعل القوم ؟ ـ يشرط له النبي صلى الله عليه وسلم أنه يرجع ـ أدخله الله الجنة » . قال : فما قام رجل . ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هُوِيّاً من الليل ، ثم التفت إلينا ، فقال مثله ، فما قام منا رجل . ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هُوِيّاً من الليل ثم التفت إلينا فقال : « من رجل يقوم فينظر لنا مافعل القوم ثم يرجع . ـ يشترط له رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجعة ـ أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة » . فما قام رجل من القوم ، من شدة الخوف ، وشدة الجوع ، وشدة البرد ، فلما لم يقم أحد ، دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني فقال : « ياحذيفة ، اذهب فادخل في القوم فانظر مايفعلون ، ولا تُحْدِثَنَّ شيئا حتى تأتينا » . قال : فذهبت فدخلت [في القوم] ، والريح وجنود الله عز وجل تفعل بهم ماتفعل ، لاتُقِرُّ لهم قِدراً (٢) ولا ناراً ولا بناء ، فقام أبو سفيان فقال : يامعشر قريش ، لينظر امرؤٌ مَنْ جليسه . قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذي إلى جنبي ، فقلت : من أنت ؟ فقال : أنا فلان بن فلان ، ثم قال أبو سفيان : يامعشر قريش ، إنكم والله ماأصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكُرَاع (٣) والخُفّ ، وأخلفتنا بنو قُرَيظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من هذه الريح الذي ترون . والله ماتطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإني مُرْتَحِل ، ثم قام إلى جَمَله وهو معقول ، فجلس عليه ، ثم ضربه ، فوثب به على ثلاث ، فما أطلق عِقَالَه إلا وهو قائم . ولولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي : « أن لاتحدث شيئاً حتى تأتيني » ثم شئتُ لقتلته بسهم :

قال حذيفة : فرجعت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو قائم يصلي في مِرْط (٤) لبعض نسائه مُرَحَّل ، فلما رآني أدخلني بين رجليه ، وطرح علي طرف المِرْط ، ثم ركع ، وسجد وإني لفيه ، فلما سلم أخبرته الخبر ، وسمعت غَطَفَان بما فعلت قريش ، فانشمروا (٥) راجعين إلى بلادهم . (٦)

وقد رواه مسلم في صحيحه من حديث الأعمش ، عن إبراهيم التيمي ، عن أبيه قال : كنا عند حذيفة ابن اليمان ـ رضي الله عنه ـ فقال له رجل : لو أدركتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلتُ معه وأبليتُ . فقال له حذيفة : أنت كنتَ تفعل ذلك ؟ لقد رأيتُنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقُرّ (٧) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا رجل يأتي بخبر القوم ، يكونُ معي يوم القيامة » . فلم

---

(١) أي : جزءاً من الليل .

(٢) في المخطوطة : « لا تقرلهم قراراً » . والمثبت من سيرة ابن هشام ، ومسند الإمام أحمد . ومايأتي بعد في أثناء هذا الحديث

(٣) الكراع : اسم لجميع الخيل . ويعني بالخف : الإبل .

(٤) المرط ـ بكسر فسكون ـ : كساء من صوف ، وربما كان من خز أو غيره . وجمعه مروط . ومرط مرحل : نقش فيه تصاوير الرحال .

(٥) أي : أسرعوا .

(٦) انظر سيرة ابن هشام : ٢٣١/٢ ـ ٢٣٢ . ومسند الإمام أحمد : ٣٩٢/٥ ـ ٣٩٣ .

(٧) في المخطوطة : « في ليلة ذات برد شديد » . والمثبت من الطبعات السابقة ، وفي مسلم : « ليلة الأحزاب ، وأخذتنا ريح شديدة وقر » .

يجبه منا أحد ، ثم الثانية ، ثم الثالثة مثله ، ثم قال : « يا حذيفة ، قم فأتنا بخبر من القوم » . فلم أجد بُدّاً إذ دعانى باسمى أن أقوم ، فقال : « ائتنى بخبر القوم ، ولا تَذْعَرْهم علىّ(١) » . قال : فمضيت كأنما أمشى فى حَمّام(٢) حتى أتيتهم ، فإذا أبو سفيان يَصْلِى ظهره(٣) بالنار ، فوضعت سهما فى كَبِد قوسى(٤) وأردت أن أرميه ، ثم ذكرتُ قولَ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « لا تَذْعَرْهم علىّ » ، ولو رَمَيْته لأصبته . قال : فرجعت كأنما أمشى فى حَمّام ، فأتيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثم أصابنى البرد حين فرَغتُ وقُرِرْتُ ، فأخبرتُ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وألبسنى من فضل عَبَاءَة كانت عليه يصلى فيها ، فلم أزل نائما حتى الصبح ، فلما أن أصبحت قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « قم يا نومان(٥) » .

ورواه يونس بن بكير ، عن هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم : أن رجلا قال لحذيفة رضى الله عنه : نشكو إلى الله صحبتكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ إنكم أدركتموه ولم ندركه ، ورأيتموه ولم نره . فقال حذيفة : ونحن نشكو إلى الله إيمانكم به ولم تروه ، والله لا تَدْرى يا ابن أخى لو أدركته كيف كنتَ تكون ؛ لقد رأيتنا مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ليلة الخندق فى ليلة باردة مَطِيرة ... ثم ذكر نحو ما تقدم مطولا(٦) .

وروى بلال بن يحيى العَبْسى ، عن حذيفة نحو ذلك أيضا(٧) .

وقد أخرج الحاكم والبيهقى فى « الدلائل » ، من حديث عكرمة بن عمار ، عن محمد بن عبد الله الدؤلى ، عن عبد العزيز ابن أخى حذيفة قال : ذكَر حذيفة مشاهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال جلساؤه : أما والله لو شهدنا ذلك لكنا فعلنا وفعلنا . فقال حذيفة : لا تمنوا ذلك . لقد رأيتُنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعودٌ ، أبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا ، وقريظة اليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا ، وما أتت علينا قطّ أشدّ ظلمةً ولا أشدّ ريحاً ، فى أصوات ريحها أمثالُ الصواعق ، وهى ظلمة ما يرى أحدنا أصبعه . فجعل المنافقون يستأذنون النبى — صلى الله عليه وسلم — ويقولون : « إن بيوتنا عورة وما هى بعورة » . فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له ، ويأذن لهم فيتسللون ، ونحن ثلاثمائة ونحو ذلك ، إذ استقبلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم رَجُلاً رجلا حتى أتى علىّ وما علىّ جُنّةٌ(٨) من العدو ولا من البرد إلا مِرْط لامرأتى ، ما يجاوز ركبتى : قال : فأتانى صلى الله عليه وسلم وأنا جاثٍ على رُكبتىّ فقال : « من هذا ؟ » فقلت : حذيفة . قال : « حذيفة » . فتقاصرتُ(٩) بالأرض فقلت : بلى ، يا رسول الله ، كراهية أن أقوم ، [قال : قم](١٠)

(١) أى : لا تفزعهم . ويقول النووى : « والمراد : لا تحركهم عليك ، فإنهم إن أخذوك كان ذلك ضرراً علىّ ، لأنك رسولى وصاحبى » .

(٢) أى : فى حر لم يصبنى برد ، ولا شىء من تلك الريح الشديدة .

(٣) أى : يدفئه ويدنيه منها .

(٤) أى : مقبضه .

(٥) مسلم ، كتاب الجهاد ، باب « غزوة الأحزاب » : ١٧٧/٥ .

(٦) أخرجه الحاكم فى مستدركه ، كتاب المغازى : ٣١/٣ .

(٧) أخرجه البيهقى فى : « دلائل النبوة » ، انظر المخطوط ٢١٧ حديث ، بدار الكتب ، الجزء الرابع ، ورقة ٢٠ — ٢٢ .

(٨) الجنة — بضم الجيم — : كل ما يقى .

(٩) فى المخطوطة : « فتقاصرت الأرض » . والمثبت من : « دلائل النبوة » ، والمعنى أنه تكلف القصر ، حتى يكون ذلك سبباً فى عدول النبى صلى الله عليه وسلم عن تكليفه بأمر ما .

(١٠) ما بين القوسين من « الدلائل » .

فقمت فقال : « إنه كائن فى القوم خبر فأتنى بخبر القوم » ــ قال : وأنا من أشد [الناس] فزعا ، وأشدهم قُرّاً ــ قال : فخرجت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم ، احفظه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، ومن فوقه ومن تحته » : قال : فوالله ما خلق الله فزعا ولا قرّا فى جوفى إلا خرج من جوفى ، فما أجد فيه شيئا . قال : فلما وليت قال : « يا حذيفة ، لا تُحْدِثَنّ فى القوم شيئا حتى تأتينى » : قال : فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت فى ضوء نار لهم تَوَقَّدُ ، وإذا رجل أدهم ضخم يقول(١) بيده على النار ، ويمسح خاصرته ، ويقول : الرحيلَ الرحيلَ ؛ ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك ، فانتزعت سهما من كنانتى أبيض الريش ، فأضعه فى كَبَدِ قوسى لأرميه به فى ضوء النار ، فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تحدثن فيهم شيئا حتى تأتينى » [فامسكت (٢)] ورددت سهمى إلى كنانتى ، ثم إنى شَجَّعت نفسى حتى دخلت العسكر ، فإذا أدنى الناس منى بنو عامر يقولون : يا آل عامر ، الرحيلَ الرحيلَ ، لا مُقام لكم : وإذا الريح فى عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبرا ، فوالله إنى لأسمع صوت الحجارة فى رحالهم وَفَرَسَتْهُمُ (٣) الريح تضربهم بها ، ثم خرجت نحو النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فلما انتصفت (٤) فى الطريق أو نحوا من ذلك ، إذا أنا بنحو من عشرين فارساً أو نحو ذلك مُعْتَمّين ، فقالوا : أَخْبِرْ صاحبك أن الله تعالى كفاه القومَ ؛ فرجعت إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو مشتمل فى شملة يصلى ، فوالله ما عدا أن رجعت رَاجَعَنى القُرُّ وجعلت أُقَرْقِفُ(٥) ، فأومأ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم [بيده] وهو يصلى ، فدنوت منه ، فأسبل على شملته (٦) ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزَبه أمر صلى ، فأخبرته خبر القوم ، وأخبرته أنى تركتهم يترحلون ، وأنزل الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ، اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا(٧)) .

وأخرج أبو داود فى سننه منه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا حزبه أمر ؛ من حديث عكرمة بن عمار ، به (٨)

وقوله : (إذ جاءوكم من فوقكم) ، أى : الأحزاب (ومن أسفل منكم) ، تقدم عن حذيفة أنهم بنو قريظة ، (وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر) ، أى : من شدة الخوف والفزع ، (وتظنون بالله الظنونا) .

قال ابن جرير : ظن بعض من كان مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن الدائرة على المؤمنين ، وأن الله سيفعل ذلك (٩) .

---

(١) أى : يضعها على النار .
(٢) ما بين القوسين عن « الدلائل » .
(٣) فى المخطوطة : « ورشهم » . وفى الطبعات السابقة : « وفرشهم » والمثبت عن : « الدلائل » . يشبه الريح بالحيوان المفترس
(٤) لفظ « الدلائل » : فلما انتصف بى الطريق أو نحو ذلك .
(٥) أى : أرعد .
(٦) فى المخطوطة : « شملة » . والمثبت عن الدلائل .
(٧) « دلائل النبوة » للبيهقى ، مخطوط بدار الكتب برقم ٢١٧ ، الجزء الرابع ، ورقة : ١٨ ــ ٢٠ .
(٨) لم يقع لنا حديث أبى داود ، وعسى أن نستدركه فيما بعد . والحديث أخرجه الإمام أحمد من هذه الطريق ، انظر المسند : ٥/٣٨٨ .
(٩) تفسير الطبرى : ٢١/٨٣ ــ ٨٤ .

وقال محمد بن إسحاق في قوله : (وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا) : ظن المؤمنون كلّ ظن ، ونجم النفاق حتى قال مُعتّب بن قشير — أخو بني عمرو بن عوف — : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط .

وقال الحسن في قوله : (وتظنون بالله الظنونا) : ظنون مختلفة ، ظن المنافقون أن محمدا وأصحابه يستأصلون ، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق ، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن عاصم الأنصاري ، حدثنا أبو عامر (ح) وحدثنا أبي ، حدثنا أبو عامر العقدي ، حدثنا الزبير — يعني ابن عبد الله ، مولى عثمان بن عفان — ، عن رُبَيح بن عبد الرحمن بن أبي سعيد ، عن أبيه ، عن أبي سعيد قال : قلنا يوم الخندق : يا رسول الله ، هل من شيء نقول ، فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال صلى الله عليه وسلم : نعم ، قولوا : اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا . قال : فضرب وجوهَ أعدائه بالريح ، فهزمهم بالريح .

وكذا رواه الإمام أحمد بن حنبل ، عن أبي عامر العقدي(١) .

هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا
ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ
مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾

يقول تعالى مخبرا عن ذلك الحال ، حين نزلت الأحزاب حول المدينة ، والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضيق ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم : أنهم ابتُلوا واختُبِروا وزُلزلوا زلزالا شديداً : فحينئذ ظهر النفاق ، وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في نفوسهم : (وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض : ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) ، أما المنافق فنجم نفاقه ، والذي في قلبه شبهة أو حَسِيكة(٢) ، ضَعُف حاله فتنفس بما يجده من الوسواس في نفسه ، لضعف إيمانه ، وشدة ما هو فيه من ضيق الحال . وقوم آخرون قالوا كما قال الله : (وإذ قالت طائفة منهم : يا أهل يثرب) ، يعني المدينة كما جاء في الصحيح : « أريت [في المنام] دارَ هجرتكُم أرض بين حرّتين فذهب وَهْلي(٣) أنها هَجَر ، فإذا هي يثرب(٤) » . وفي لفظ : « المدينة » .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣/٣ .

(٢) الحسيكة : العداوة والحقد .

(٣) أي : وهمي . وهجر : قاعدة البحرين .

(٤) البخاري ، كتاب المناقب : ٢٤٧/٤ . وكتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبي — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه إلى المدينة » : ٧١/٥ . وكتاب التعبير ، باب « إذا رأى بقرا تنحر » : ٥٢/٩ — ٥٣ . ومسلم ، كتاب الرؤيا ، باب « رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم : ٥٧/٧ .

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن مهدى ، حدثنا صالح بن عمر ، عن يزيد بن أبى زياد عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن البراء ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله ، هى طابة ، هى طابة(١) » .

تفرد به الإمام أحمد ، وفى إسناده ضعف ، والله أعلم .

ويقال : إنما كان أصل تسميتها « يثرب » برجل نزلها من العماليق،يقال له: يثرب بن عبيل بن مهلاييل بن عوص ابن عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح(٢) . قاله السهيلى ، قال : وروى عن بعضهم أنه قال إن لها أحد عشر اسما : المدينة ، وطابة ، وطَيِّبة ، والمسكينة ، والجابرة ، والمحبة ، والمحبوبة ، والقاصمة ، والمجبورة ، والعذراء ، والمرحومة .

وعن كعب الأحبار قال : إنا نجد فى التوراة يقول الله للمدينة : يا طيبة ، ويا طابة ، ويا مسكينة ، [لا تقلى الكنوز ، أرفع أحاجرك على أحاجر القرى](٣) .

وقوله : (لا مقام لكم) ، أى : هاهنا ، يعنون عند النبى صلى الله عليه وسلم فى مقام المرابطة ، (فارجعوا) ، أى : إلى بيوتكم ومنازلكم . (ويستأذن فريق منهم النبى) ــ قال العوفى ، عن ابن عباس : هم بنو حارثة قالوا : بيوتنا نخاف عليها السَّرَق . وكذا قال غير واحد .

وذكر ابن إسحاق أن القائل لذلك هو أوس بن قَيْظِىّ ، يعنى : اعتذروا فى الرجوع إلى منازلهم بأنها عَوْرة ، أى : ليس دونها ما يحجبها عن العدو ، فهم يخشون عليها منهم . قال الله تعالى : (وما هى بعورة) ، أى : ليست كما يزعمون ، (إن يريدون إلا فرارا) ، أى : هَرَباً من الزحف .

وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين (يقولون : إن بيوتنا عورة ، وما هى بعورة ، إن يريدون إلا فرارا) : أنهم لو دُخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة ، وقُطر من أقطارها ، ثم سئلوا الفتنة ، وهى الدخول فى الكفر ، لكفروا سريعا ، وهم لا يحافظون على الإيمان ، ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع .

هكذا فسرها قتادة ، وعبد الرحمن بن زيد ، وابن جرير(٤) . وهذا ذم لهم فى غاية الذم .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٤/ ٢٨٥ .

(٢) التعريف والإعلام للسهيلى : ١٠٢ .

(٣) ما بين القوسين من الطبعات السابقة ، ومكانه فى مخطوطة الأزهر بياض بقدر سطر .

(٤) تفسير الطبرى : ٢١/ ٨٧ .

ثم قال تعالى : يذكرهم بما كانوا عاهدوا الله من قبل هذا الخوف ، أن لا يولوا الأدبار ولا يفروا من الزحف : (وكان عهد الله مسئولا) ، أى : وإن الله سيسألهم عن ذلك العهد ، لابد من ذلك .

ثم أخبرهم أن فرارهم ذلك لا يؤخر آجالهم ، ولا يطول أعمارهم ، بل ربما كان ذلك سببا فى تعجيل أخذهم غرة ، ولهذا قال : (وإذاً لا تمتعون إلا قليلا) أى : بعد هربكم وفراركم : (قل : متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى (١)) .

ثم قال : (قل من ذا الذى يعصمكم من الله) ، أى : يمنعكم ، (إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ، ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيراً) ، أى : ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير ولا مغيث .

* قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا (١٩)

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب ، والقائلين لإخوانهم، أى أصحابهم وعشرائهم وخلطائهم (هلم إلينا) ، أى : إلى ما نحن فيه من الإقامة فى الظلال والثمار ، وهم مع ذلك (لا يأتون البأس إلا قليلا : أشحة عليكم) ، أى : بخلاء بالمودة ، والشفقة عليكم .

وقال السدى : (أشحة عليكم) ، أى : فى الغنائم

(فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت) ، أى : من شدة خوفه وجزعه ؛ وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من القتال (فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد) ، أى : فإذا كان الأمن تكلموا كلاما بليغاً فصيحاً عاليا ، وادعوا لأنفسهم المقامات العالية فى الشجاعة والنجدة ، وهم يكذبون فى ذلك ؛

وقال ابن عباس : (سلقوكم) ، أى : استقبلوكم .

وقال قتادة : أما عند الغنيمة فأشح قوم ، وأسوأه مقاسمة : أعطونا ، أعطونا ، قد شهدنا معكم . وأما عند البأس فأجبن قوم ، وأخذله (٢) للحق(٣) .

وهم مع ذلك أشحة على الخير ، أى : ليس فيهم خير ، قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير ، فهم كما قال فى أمثالهم الشاعر :

أفى السلم أعياراً جفاء وغلظة وفى الحرب أمثال النساء العوارك (٤)

---

(١) سورة النساء ، آية : ٧٧ .

(٢) أى : وأخذلهم . واستعمال ضمير المفرد مع أفعل التفضيل استعمال جيد ، يقول النحاة : إن المعنى : «وأخذل شىء» ؛ فلذلك وحد الضمير باعتبار المعنى .

(٣) تفسير الطبرى : ٢١/٩٠ .

(٤) تقدم البيت عند تفسير الآية السابعة والثمانين من سورة براءة ، وخرجناه هنالك ، وشرحنا غريبه ، انظر ٤/١٣٦ .

أى : فى حال المسالمة كأنهم الحمير ، والأعيار : جمع عير ، وهو الحمار ؛ وفى الحرب كأنهم النساء الحُيَّض ؛ ولهذا قال تعالى : (أولئك لم يؤمنوا ، فأحبط الله أعمالهم ، وكان ذلك على الله يسيرا) ، أى : سهلا هينا عنده .

يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾

وهذا أيضا من صفاتهم القبيحة فى الجبن والخوف والخور ، (يحسبون الأحزاب لم يذهبوا) ، بل هم قريب منهم ، وإن لهم عودة إليهم (وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب ، يسألون عن أنبائكم) ، أى : ويَوَدّون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون حاضرين معكم فى المدينة بل فى البادية ، يسألون عن أخباركم ، وما كان من أمركم مع عدوكم ، (ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا) ، أى : ولو كانوا بين أظهركم لما قاتلوا معكم إلا قليلا ، لكثرة جبنهم وذلتهم وضعف يقينهم .

لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

هذه الآية الكريمة أصل كبير فى التأسى برسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى أقواله وأفعاله وأحواله ، ولهذا أمر الناس بالتأسى بالنبى — صلى الله عليه وسلم — يوم الأحزاب ، فى صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه — عز وجل — صلواتُ الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين ، ولهذا قال تعالى للذين تقلقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا فى أمرهم يوم الأحزاب : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) ، أى : هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ؟. ولهذا قال : (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) .

ثم قال تعالى مخبرا عن عباده المؤمنين المصدقين بموعود الله لهم ، وجَعْله العاقبةَ حاصلةً لهم فى الدنيا والآخرة ، فقال : (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله) .

قال ابن عباس وقتادة : يعنون قوله تعالى فى « سورة البقرة » : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا ، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب[1]) .

أى هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذى يعقبه النصر القريب ، ولهذا قال : (وصدق الله ورسوله) .

وقوله : (وما زادهم إلا إيماناً وتسليما) ، دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم ، كما قاله جمهور الأئمة : إنه يزيد وينقص ؛ وقد قررنا ذلك فى أول « شرح البخارى » ، ولله الحمد والمنة .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢١/٩١ — ٩٢ .

ومعنى قوله : (وما زادهم) ، أى : ذلك الحال والضيق والشدة (إلا إيماناً) بالله ، (وتسليما) ، أى : انقيادا لأوامره ، وطاعة لرسوله .

مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾

لما ذكر عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذى كانوا عاهدوا الله عليه لا يولون الأدبار ، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق و (صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فنهم من قضى نحبه) ، قال بعضهم : أجله :

وقال البخارى : عهده (١) ، وهو يرجع إلى الأول :

(ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا) ، أى : وما غيروا عهد الله ، ولا نقضوه ولا بدلوه :

قال البخارى : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهرى قال : أخبرنى خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه قال: لما نسخنا الصُحُفَ فَقَدْتُ آيةً من « سورة الأحزاب » كنت أسمع رسول الله — صلى الله عليه وسلم —يقرؤها ، لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصارى — الذى جعل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، شهادته بشهادة رجلين — : (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) (١) :

انفرد به البخارى دون مسلم . وأخرجه أحمد فى مسنده ، والترمذى والنسائى — فى التفسير من سننيهما — من حديث الزهرى ، به : وقال الترمذى : « حسن صحيح(٢) » .

وقال البخارى أيضا : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارىّ ، حدثنى أبى ، عن ثُمامةَ ، عن أنس ابن مالك قال : نُرى هذه الآية نزلت فى أنس بن النضر : (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه (١)) .

انفرد به البخارى من هذا الوجه ، ولكن له شواهد من طرق أخر . قال الإمام أحمد :

حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت قال : قال أنس : عمى أنس بن النضر سُمّيت به ، لم يشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، فشق عليه وقال : أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غُيِّبْتُ (٣) عنه ، لئن أرانى الله مشهدا فيما بعد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لَيَرَيَنّ الله ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها ، فشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم [يوم] أحد ، فاستقبل سعدَ بن معاذ فقال له أنس : يا أبا عمرو أين ، واهاً (٤) لريح الجنة أجده دون أحد ، قال : فقاتلهم حتى قُتل قال : فوُجد فى جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية ، فقالت أخته — عمتى الرُبَيّع ابنة النضر — : فما عرفتُ أخى إلا ببنانه . قال : فنزلت هذه الآية : (رجال

(١) البخارى ، تفسير سورة الأحزاب : ٦/١٤٦ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٥/١٨٨ ، ١٨٩ . ولم يقع لنا هذا الحديث فى « تحفة الأحوذى » ، عند تفسير هذه الآية .
(٣) كذا فى مخطوطة الأزهر ، ومثله فى مسلم ، وفى مسند الإمام أحمد : « غبت » .
(٤) واهاً : كلمة تحنن وتلهف ، قالها أنس لسعد .

صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا) : قال : فكانوا يُرَوْن أنها نزلت فيه ، وفى أصحابه(١) .

ورواه مسلم والترمذى والنسائى ، من حديث سليمان بن المغيرة ، به(٢) . ورواه النسائى أيضا وابن جرير(٣) ، من حديث حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس ، به نحوه .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا حميد ، عن أنس أن عمه ــ يعنى أنس ابن النضر ــ غاب عن قتال بدر فقال : غُيِّبْتُ عن أول قتال قاتله رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ المشركين ، لئن الله أشهدنى قتالا للمشركين لَيَرَيَنّ الله ما أصنع . قال : فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون ، فقال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ــ يعنى أصحابه ــ وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ــ يعنى المشركين ــ ثم تقدم فلقيه سعد ــ يعنى ابن معاذ ــ دون أحد ، فقال : أنا معك . قال سعد : فلم أستطع أن أصنع ما صنع . قال : فوجد فيه بضع وثمانون ضربة سيف ، وطعنةَ رمح ، ورمية سهم . وكانوا يقولون : فيه وفى أصحابه (فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر) .

وأخرجه الترمذى فى التفسير عن عبد بن حميد ، والنسائى فيه أيضا عن إسحاق بن إبراهيم ، كلاهما ، عن يزيد بن هارون به . وقال الترمذى : حسن(٤) . وقد رواه البخارى فى المغازى عن حسان بن حسان ، عن محمد بن طلحة بن مُصَرِّف ، عن حميد ، عن أنس به(٥) . ولم يذكر نزول الآية . ورواه ابن جرير ، من حديث المعتمر بن سليمان ، عن حميد ، عن أنس ، به(٦) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن الفضل العسقلانى ، حدثنا سليمان بن أيوب بن سليمان بن عيسى بن موسى بن طلحة ابن عبيد الله ، حدثنى أبى ، عن جدى ، عن موسى بن طلحة ، عن أبيه طلحة قال : لما أن رجع النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ من أحد صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وعزّى المسلمين بما أصابهم ، وأخبرهم بما لهم فيه من الأجر والذخر ، ثم قرأ هذه الآية : (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) الآية كلها . فقام إليه [رجل] من المسلمين فقال : يا رسول الله ، من هؤلاء ؟ فأقبلتُ وعلىّ ثوبان أخضران حَضْرَميَّان فقال : « أيها السائل ، هذا منهم » .

وكذا رواه ابن جرير من حديث سليمان بن أيوب الطلحى ، به(٧) . وأخرجه الترمذى فى التفسير والمناقب أيضا ،

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢٩٣/٤ .

(٢) مسلم ، كتاب الإمارة ، باب « ثبوت الجنة للشهيد » : ٤٥/٦ - ٤٦ . و« تحفة الأحوذى » ، تفسير سورة الأحزاب ، الحديث ٣٢٥٣ : ٦٠/٩ - ٦٢ .

(٣) تفسير الطبرى : ٩٣/٢١ .

(٤) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الأحزاب ، الحديث ٣٢٥٤ : ٦٢/٩ - ٦٣ .

(٥) البخارى ، كتاب المغازى : ١٢٢/٥ .

(٦) تفسير الطبرى : ٩٣/٢١ .

(٧) تفسير الطبرى : ٩٤/٢١ .

وابن جرير ، من حديث يونس بن بكير ، عن طلحة بن يحيى ، عن موسى وعيسى ابنى طلحة ، عن أبيهما ، به : وقال : حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث يونس(١) .

وقال أيضا : حدثنا أحمد بن عصام الأنصارى ، حدثنا أبو عامر — يعنى العقدى — حدثنا إسحاق — يعنى ابن طلحة ابن عبيد الله — عن موسى بن طلحة قال : [دخلت على معاوية — رضى الله عنه — فلما خرجت دعانى فقال : ألا أضع عندك يا ابن أخى حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أشهد لسَمِعتُ رسولَ الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « طلحة ممن قضى نحبه » .

ورواه ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا عبد الحميد الحمّانى ، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة الطلحى ، عن موسى ابن طلحة قال (٢)] : قام معاوية بن أبى سفيان فقال : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « طلحة ممن قضى نحبه (٣) » .

ولهذا قال مجاهد فى قوله : (فمنهم من قضى نحبه) ، قال : عهده ، (ومنهم من ينتظر) ، قال : يوما فيه قتال فيصدق فى اللقاء(٤) .

وقال الحسن : (فمنهم من قضى نحبه) ، يعنى موته على الصدق والوفاء ، (ومنهم من ينتظر) الموت على مثل ذلك ، ومنهم من لم يبدل تبديلا : وكذا قال قتادة ، وابن زيد .

وقال بعضهم : (نحبه) : نذره .

وقوله : (وما بدلوا تبديلا) ، أى : وما غيروا عهدهم ، وبدلوا الوفاء بالغدر ، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه وما نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا : (إن بيوتنا عورة ، وما هى بعورة ، إن يريدون إلا فراراً . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار) .

وقوله : (ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم) ، أى : إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال ليميز الخبيث من الطيب ، فيظهر أمر هذا بالفعل ، وأمر هذا بالفعل ، مع أنه تعالى يعلم الشىء قبل كونه ، ولكن لايعذب الخلق بعلمه فيهم ، حتى يعملوا بما يعلمه فيهم ، كما قال تعالى : (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم (٥)) ، فهذا علمٌ بالشىء بعد كونه ، وإن كان العلم السابق حاصلا به قبل وجوده . وكذا قال تعالى (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه ، حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب (٦)) ،

(١) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الأحزاب ، الحديث ٣٢٥٦ : ٦٤/٩ . أبواب المناقب ، باب «مناقب أبى محمد طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه » ، الحديث ٣٨٢٥ : ٢٤٤/١٠ .
(٢) مابين القوسين سقط من مخطوطة الأزهر ، وقد أثبتناه من الطبعات السابقة .
(٣) تفسير الطبرى : ٩٣/٢١ — ٩٤ .
(٤) تفسير الطبرى : ٩٢/٢١ .
(٥) سورة محمد ، آية : ٣١ .
(٦) سورة آل عمران ، آية : ١٧٩ .

ولهذا قال هاهنا : (ليجزى الله الصادقين بصدقهم) ، أى : بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه ، وقيامهم به ، ومحافظتهم عليه : (ويعذب المنافقين) ، وهم الناقضون لعهد الله ، المخالفون لأوامره ، فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه، ولكن هم تحت مشيئته فى الدنيا ، إن شاء استمر بهم على ما فعلوه حتى يلقوه به فيعذبهم عليه ، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان ، وعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان . ولما كانت رحمته ورأفته بخلقه هى الغالبة لغضبه قال : (إن الله كان غفوراً رحيما) :

وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾

يقول تعالى مخبرا عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة ، بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلهية ، ولولا أن جعل الله رسوله رحمة للعالمين لكانت هذه الريحُ عليهم أشدّ من الريح العقيم على عاد ، ولكن قال الله تعالى : (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم(١)) ، فسلط عليهم هواء فرق شملهم ، كما كان سبب اجتماعهم من الهوَى ، وهم أخلاط من قبائل شتى ، أحزاب وآراء ، فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذى فرق جماعتهم ، وردهم خائبين خاسرين بغيظهم وحنَقهم ، لم ينالوا خيرا لا فى الدنيا، مما كان فى أنفسهم من الظفر والمغنم ، ولا فى الآخرة بما تحملوه من الآثام فى مبارزة الرسول ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ بالعداوة ، وهمهم بقتله ، واستئصال جيشه . ومن همّ بشىء وصَدّق همَّه بفعله فهو فى الحقيقة كفاعله .

وقوله : (وكفى الله المؤمنين القتال) ، أى : لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم ، بل كفى الله وحده ، ونصر عبده ، وأعز جنده . ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شىء بعده » . أخرجاه من حديث أبى هريرة(٢) .

وفى الصحيحين من حديث إسماعيل بن أبى خالد ، عن عبد الله بن أبى أوفى قال : دعا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على الأحزاب فقال : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب . اللهم ، اهزمهم وزلزلهم(٣) » .

وفى قوله ، وكفى الله المؤمنين القتال) ، إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش . وهكذا وقع بعدها ، لم يغزهم المشركون بل غزاهم المسلمون فى بلادهم .

قال محمد بن إسحاق : لما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا : « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم » ، فلم تغز قريش بعد ذلك ، وكان هو يغزوهم بعد ذلك ، حتى فتح الله عليه مكة .

---

(١) سورة الأنفال ، آية : ٣٣ .

(٢) الذى وقع لنا فى الصحيحين هو من رواية ابن عمر ، انظر البخارى ، كتاب العمرة ، باب « ما يقول إذا رجع من الحج أو العمرة أو الغزو » : ٨/٣ - ٩ . وكتاب الدعوات ، باب « الدعاء إذا أراد سفرا أو رجع » : ١٠٣/٨ . ومسلم ، كتاب الحج ، باب « ما يقول إذا قفل من سفر الحج وغيره » : ١٠٥/٤ .

(٣) أخرجاه فى كتاب الجهاد ، انظر البخارى ، باب « الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة » ٥٣/٤٠ ، ومسلم ، باب « استحباب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو » : ١٤٣/٥ .

وهذا الحديث الذى ذكره محمد بن إسحاق حديثٌ صحيح ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا يحيى ، عن سفيان حدثنى أبو إسحاق قال : سمعت سليمان بن صرَد يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب : « الآن نغزوهم ولا يغزونا(١) » .

وهكذا رواه البخارى فى صحيحه ، من حديث الثورى وإسرائيل ، عن أبى إسحاق ، به(٢) .

وقوله تعالى : (وكان الله قويا عزيزا) ، أى : بحوله وقوته ، ردهم خائبين ، لم ينالوا خيرا ، وأعز الله الإسلام وأهله ، وصدق وعده ، ونصر رسوله وعبده ، فله الحمد والمنة :

وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾

قد تقدم أن بنى قريظة لما قدمت جنود الأحزاب ونزلوا على المدينة ، نقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من العهد ، وكان ذلك بسفارة حُيَيّ بن أخطب النَّضَرىّ — لعنه الله — دخل حصنهم ، ولم يزل بسيدهم كعب ابن أسد حتى نقض العهد ، وقال له فيما قال : ويحك . قد جئتك بعز الدهر ، أتيتك بقريش وأحابيشها ، وغطفان وأتباعها ، ولا يزالون هاهنا حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه . فقال له كعب : بل ، والله أتيتنى بذل الدهر : ويحك يا حيى : إنك مشئوم ، فدعنا منك . فلم يزل يفتل فى الذُّروة والغارب(٣) حتى أجابه ، واشترط له حيى إن ذهب الأحزاب ، ولم يكن من أمرهم شىء ، أن يدخل معهم فى الحصن ، فيكون له أسوتهم . فلما نقَضت قريظةُ ، وبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ساءه ، وشق عليه وعلى المسلمين جدا ، فلما أيد الله ونَصر ، وكبت الأعداء وردهم خائبين بأخسرِ صفقة ، ورجع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى المدينة مؤيدا منصورا ، ووضع الناس السلاح : فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يغتسل من وعثاء تلك المرابطة فى بيت أم سلمة إذ تبدى له جبريل معتجرا(٤) بعمامة من إستبرق ، على بغلة عليها قطيفة ديباج ، فقال : أوَضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : « نعم » . . قال : لكن الملائكة لم تضع أسلحتها ، وهذا الآن رجوعى من طلب القوم . ثم قال : إن الله يأمرك أن تنهض إلى بنى قريظة — وفى رواية فقال له : عذيرَك من مقاتل(٥) ! أو ضعتم السلاح ؟ قال : « نعم » . قال : لكنا لم نضع أسلحتنا بعد ، انهض إلى هؤلاء . قال : « أين ؟ » : قال : بنى قريظة ، فإن الله أمرنى أن أزلزل عليهم . فنهض رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من فوره ، وأمر الناس بالمسير إلى بنى قريظة ، وكانت على أميال من المدينة ، وذلك بعد صلاة الظهر ، وقال : « لا يصلين أحد منكم العصر إلا فى بنى قريظة » . فسار

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٤/٢٦٢ .

(٢) البخارى ، كتاب المغازى : ٥/١٤١ .

(٣) هذا مثل فى المخادعة . والذروة : أعلى سنام البعير ، والغارب : مقدم السنام . والجمل النفور إذا أريد تأنيسه فإن الرجل يمد يده عليه ، ويمسح غاربه ، ويفتل وبره ، حتى يستأنس ، وحينئذ يتمكن من وضع الزمام له . فمثلت بحال من يريد إقناع غيره بأمر ويتأبى عليه ، ثم ينقاد له فى نهاية الأمر ، بحال ذلك الرجل مع بعيره النافر .

(٤) الاعتجار بالعمامة : أن يلفها على رأسه ، ويرد طرفها على وجهه ، ولا يعمل منها شيئاً تحت ذقنه .

(٥) أى : هات من يعذرك فيه . وفعيل هنا بمعنى فاعل .

الناس ، فأدركتهم الصلاة فى الطريق ، فصلى بعضهم فى الطريق وقالوا : لم يرد منا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا تعجيل السير ، وقال آخرون : لا نصليها إلا فى بنى قريظة . فلم يُعَنِّف واحداً من الفريقين . وتبعهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وأعطى الراية لعلى بن أبى طالب . ثم نازلهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة ، فلما طال عليهم الحال نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس ، لأنهم كانوا حلفاءهم فى الجاهلية ؟ واعتقدوا أنه يحسن إليهم فى ذلك ، كما فعل عبد الله بن أبى بن سلول فى مواليه بنى قينقاع ، حين استطلقهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فظن هؤلاء أن سعدا سيفعل فيهم ، كما فعل ابن أبى فى أولئك ، ولم يعلموا أن سعدا — رضى الله عنه — كان قد أصابه سهم فى أكحله (١) أيام الخندق ، فكواه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى أكحله ، وأنزله فى قبة فى المسجد ليعوده من قريب . وقال سعد فيما دعا به : اللهم ، إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقنى لها ؛ وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فافجرها ولا تمتنى حتى تُقِرَّ عينى من بنى قريظة : فاستجاب الله دعاءه ، وقدّر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم طلبا من تلقاء أنفسهم ، فعند ذلك استدعاه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من المدينة ليحكم فيهم ، فلما أقبل وهو راكب [على حمار] قد وطّئوا (٢) له عليه ، جعل الأوس يلوذون به ويقولون : يا سعد ، إنهم مواليك ، فأحسن فيهم . ويرققونه عليهم ويعطفونه ، وهو ساكت لا يرد عليهم ، فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم . فعرفوا أنه غير مستبقيهم ، فلما دنا من الخيمة التى فيها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « قوموا إلى سيدكم » . فقام إليه المسلمون ، فأنزلوه إعظاما وإكراما واحتراما له فى محل ولايته ، ليكون أنفذ لحكمه فيهم . فلما جلس قال له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « إن هؤلاء — وأشار إليهم — قد نزلوا على حكمك ، فاحكم فيهم بما شئت » . قال : وحكمى نافذ عليهم ؟ قال : « نعم » : قال : وعلى من فى هذه الخيمة ؟ قال : « نعم » : قال : وعلى من هاهنا . وأشار إلى الجانب الذى فيه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو معرض بوجهه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالا وإكراما وإعظاما ، فقال له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « نعم » ، فقال : إنى أحكم أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذريتهم وأموالهم . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة(٣) » ، وفى رواية : « لقد حكمت بحكم الملك » ، ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأخاديد فَخُدَّت (٤) فى الأرض ، وجىء بهم مكتفين ، فضرب أعناقهم ، وكانوا ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة ، وسبى من لم يُنْبِت (٥) منهم مع النساء و أموالهم ، وهذا كله مقرر مفصل بأدلته وأحاديثه وبسطه فى كتاب السيرة ، الذى أفردناه موجزا ومقتصاً ، ولله الحمد والمنة .

ولهذا قال تعالى : (وأنزل الذين ظاهروهم) ، أى : عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أهل الكتاب) يعنى بنى قريظة من اليهود ، من بعض أسباط بنى إسرائيل ، كان قد نزل آباؤهم الحجاز

---

(١) الأكحل : عرق فى وسط الذراع ، يكثر فصده .

(٢) أى : جعلوه وطيئاً حتى لا يتأذى بالركوب ، وفى سيرة ابن هشام ٢/٢٣٩ : « قد وطئوا له بوسادة من أدم » .

(٣) الأرقعة : السموات ، الواحدة : رقيع .

(٤) أى : حفرت وشقت .

(٥) أى : من لم ينبت شعر عانته ، وكان ذلك علامة البلوغ .

قديما ، طَمَعاً فى اتباع النبي الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به (١)) ، فعليهم لعنة الله .

وقوله : (من صياصيهم) ، يعنى : حصونهم . كذا قال مجاهد (٢) ، وعكرمة ، وعطاء وقتادة ، والسدى، وغيرهم ومنه سميت صياصى البقر ، وهى قرونها ، لأنها أعلى شىء فيها .

(وقذف فى قلوبهم الرعب) ، وهو الخوف ، لأنهم كانوا ما لئوا المشركين على حرب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وليس من يعلم كمن لا يعلم ، فأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليَعَزّوا فى الدنيا ، فانعكس عليهم الحال ، وانقلب الفال، انشمر (٣) المشركون ففازوا بصفقة المغبون ، فكما راموا العز ذلوا ، وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا ، وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة ، فصارت الجملة أن هذه هى الصفقة الخاسرة ، ولهذا قال تعالى : (فريقا تقتلون وتأسرون فريقا) ، فالذين قتلوا هم المقاتلة ، والأسراء هم الأصاغر والنساء.

قال الإمام أحمد : حدثنا هُشَيم بن بشير ، أخبرنا عبد الملك بن عمير ، عن عطية القرظى قال : عُرِضت على النبى صلى الله عليه وسلم يوم قريظة فشكوا فى ، فأمر بى النبى صلى الله عليه وسلم أن ينظروا : هل أنبتّ بعد ؟ فنظروا فلم يجدونى أنبتّ ، فخلى عنى وألحقنى بالسبى (٤) .

وكذا رواه أهل السنن كلهم من طرق ، عن عبد الملك بن عمير ، به ، وقال الترمذى : « حسن صحيح (٥) » ورواه النسائى أيضا ، من حديث ابن جريج ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، عن عطية ، بنحوه .

وقوله : (وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم)، أى : جعلها لكم من قتلكم لهم (وأرضا لم تطأوها)، قيل : خيبر .وقيل: مكة . رواه مالك ، عن زيد بن أسلم ، وقيل : فارس والروم . وقال ابن جرير : يجوز أن يكون الجميع مراداً (٦) .

(وكان الله على كل شىء قديرا) — قال الإمام أحمد :

حدثنا يزيد ، أخبرنا محمد بن عمرو ، عن أبيه ، عن جده علقمة بن وقاص قال : أخبرتنى عائشة قالت : خرجت يوم الخندق أقفو (٧) الناس ، فسمعت وئيد الأرض ورائى ، فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مِجَنَّه ، قالت : فجلست إلى الأرض فمر سعد وعليه درع من حديد قد خرجت منه أطرافه ، فأنا أتخوف على أطراف سعد ، قالت : وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم ، فمر وهو يرتجز ويقول (٨) :

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٨٩ .

(٢) تفسير الطبرى : ٢١/٩٥ .

(٣) أى : أسرعوا راجعين إلى مواطنهم .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٥/٣١١ — ٣١٢ .

(٥) سنن أبى داود ، كتاب الحدود ، باب « فى الغلام يصيب الحد » . وتحفة الأحوذى ، أبواب السير ، باب « ماجاء فى النزول على الحكم » ، الحديث ١٦٣٣ : ٥/٢٠٧ — ٢٠٨ . وسنن ابن ماجه ، كتاب الحدود ، باب « من لا يجب عليه الحد » ، الحديث ٢٥٤١ : ٢/٨٤٩ .

(٦) تفسير الطبرى : ٢١/٩٩ .

(٧) أقفو : أتبع . والوئيد : شدة الوطء على الأرض ، يسمع كالدوى من بعد .

(٨) قال السهيلى فى الروض ٢/١٩٢ : « هو بيت تمثل به ، عنى به حمل بن سعدانة بن حارثة بن معقل بن كعب بن عليم ابن جناب الكلبى » .

لَبِّثْ قليلا يَشْهَد الهَيْجَا حَمَل • ما أحْسَنَ الموتَ إذا حَانَ الأجَلْ

قالت : فقمت فاقتحمت حديقة فإذا فيها نفر من المسلمين ، وإذا فيها عمر بن الخطاب ، وفيهم رجل عليه تَسْبِغَة(١) له ــ تعني المغفر ــ فقال عمر : ماجاء بك ؟ لعمري والله إنك لجريئة ، وما يُؤْمِنُكِ أن يكون بلاء أويكون تَحَوّز(٢) قالت : فما زال يلومني حتى تمنيت أن الأرض انشقت بي ساعتئذ ، فدخلت فيها . فرفع الرجل التسبغة عن وجهه ، فإذا هو طلحة بن عبيد الله فقال : ياعمر ، ويحك ، إنك قد أكثرت منذ اليوم ، وأين التَحَوّز أوالفرار إلا إلى الله تعالى ؟ قالت : ويرمي سعداً رجل من قريش ، يقال له ابن العَرِقة(٣) بسهم ، وقال له : خذها وأنا ابن العَرِقة فأصابَ أكْحَلَه فقطعه ، فدعا اللهَ سعد فقال : اللهم ، لاتمتني حتى تُقِرّ عيني من قريظة . قالت : وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية ، قالت : فرقأ كَلْمُه(٤) ، وبعث الله الريح على المشركين ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً . فلحق أبوسفيان ومن معه بتهامة ، ولحق عيينة بن بدر ومن معه بنجد ، ورجعت بنو قريظة فتحصنوا في صياصيهم ، ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وأمر بقبة من أدَم(٥) فضربت على سعد في المسجد ، قالت : فجاءه جبريل عليه السلام وإن على ثناياه لنقع الغبار ، فقال : أوقد وضعت السلاح ؟ لا ، والله ما وضعت الملائكة بعدُ السلاح ، اخرج إلى بني قريظة فقاتلهم . قالت : فلبس رسول الله صلى الله عليه وسلم لامته(٦) ، وأذّن في الناس بالرحيل أن يخرجوا ، [فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم] (٧) فمر على بني غَنْم وهم جيران المسجد حوله فقال : ومن مر بكم ؟ قالوا : مر بنا دحية الكلبي ــ وكان دحية الكلبي تشبه لحيته وسنه ووجهه جبريل ــ عليه الصلاة والسلام ــ فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة ، فلما اشتد حصارهم واشتد البلاء قيل لهم : انزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر ، فأشار إليهم أنه الذبح . قالوا : ننزل على حكم سعد بن معاذ [فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انزلوا على حكم سعد ابن معاذ » . فنزلوا وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد بن معاذ] (٧) فأتى به على حمار عليه إكاف (٨) من ليف قد حُمِل عليه ، وحَفّ به قومه ، فقالوا : يا أبا عمرو ، حلفاؤك ومواليك وأهل النِّكاية (٩) ومن قد علمت . قالت : ولايَرْجِعُ إليهم شيئاً ، ولايلتفت إليهم ، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال : قد آن لي أن لا أبالي في الله لومة لائم . قال : قال أبوسعيد : فلما طلع قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قوموا إلى سيدكم فأنزلوه » . فقال عمر : سيدنا الله . قال : « أنزلوه » . فأنزلوه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « احكم فيهم » . قال سعد : فإني أحكم فيهم

---

(١) في المسند : « سبغة » والتسبغة ــ كما في النهاية ــ : « شيء من حلق الدروع والزرد ، يعلق بالخوذة دائراً معها ليستر الرقبة وجيب الدرع » . وهي المغفر أيضاً .

(٢) التحوز : هو من قوله تعالى : (أومتحيزاً إلى فئة) ، أي منضماً إليها ، والتحوز والتحيز والانحياز بمعنى .

(٣) هو حبان بن العرقة . انظر سيرة ابن هشام : ٢/٢٢٧ ، وأسد الغابة : ٢/٣٧٤ .

(٤) الكلم ــ بفتح فسكون ــ الجرح . ورقأ الدم يرقأ رقوءاً : انقطع

(٥) الأدم ــ بفتحتين ــ : الجلد .

(٦) اللأمة ــ بفتح فسكون ــ : الدرع ، والسلاح .

(٧) ما بين القوسين عن المسند .

(٨) الإكاف : البرذعة .

(٩) يقال : نكيت في العدو نكاية : إذا أكثرت فيهم الجراح والقتل . يصفهم بالبأس والشدة .

أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم ، وتقسم أموالهم . فقال رسول الله : « لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله » . ثم دعا سعد فقال : اللهم ، إن كنت أبقيتَ على نبيك من حرب قريش شيئاً فأبقني لها ، وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني إليك . قال : فانفجر كَلْمُه ، وكان قد برىء منه إلا مثل الخُرْص(١) ، ورجع إلى قبته التي ضرب عليه رسول الله .

قالت عائشة : فحَضَره رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – وأبو بكر ، وعمر ، قالت : فو الذى نفس محمد بيده إنى لأعرف بكاء أبى بكر من بكاء عمر ، وأنا فى حجرتى . وكانوا كما قال الله تعالى : (رحماء بينهم) .

قال علقمة : فقلت : أىْ أمّه ، فكيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع ؟ قالت : كانت عينه لا تدمع على أحد ، ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذ بلحيته (٢) .

وقد أخرج البخارى ومسلم من حديث عبد الله بن نمير ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه عن عائشة نحوا من هذا ، ولكنه أخصر منه ، وفيه دُعاء سعد رضى الله عنه(٣) .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

هذا أمر من الله لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأن يُخَيِّر نساءه بين أن يفارقهن، فيذهبن إلى غيره ممن يَحصلُ لهن عنده الحياةُ الدنيا وزينتها ، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله فى ذلك الثواب الجزيل: فاخترن – رضى الله عنهن وأرضاهن – الله ورسوله والدار الآخرة ، فجمع الله لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة .

قال البخارى : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهرى ، قال : أخبرنى أبوسلمة بن عبد الرحمن ، أن عائشة رضى الله عنها زوج النبى – صلى الله عليه وسلم – أخبرته : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جاءها حين أمره الله أن يخير أزواجه ، فبدأ بى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إنى ذاكر لك أمراً ، فلا عليك أن تستعجلى حتى تستأمرى أبويك» وقد علِمَ أن أبوىّ لم يكونا يأمرانى بفراقه قالت ثم قال : وإن الله قال : (يا أيها النبى ، قل لأزواجك) إلى تمام الآيتين، فقلت له : ففى أىّ هذا استأمر أبوى ، فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة ؟

وكذا رواه معلقاً عن الليث : حدثنى يونس ، عن الزهرى ، عن أبى سلمة ، عن عائشة ، فذكره وزاد : « قالت : ثم فعل أزواج النبى صلى الله عليه وسلم مثل ما فعلت .

---

(١) الخرص – بضم الخاء وكسرها – : الحلقة الصغيرة من الحلى ، وهو من حلى الأذن .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٦/١٤١ – ١٤٢ .

(٣) البخارى ، كتاب المغازى ، باب « غزوة الخندق » : ٥/١٤٣ – ١٤٤ . ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب « جواز قتال من نقض العهد . . » : ٥/١٦٠ – ١٦١ .

وقد حكى البخارى أن معمرا اضطرب ، فتارة رواه عن الزهرى ، عن أبى سلمة . وتارة رواه عن الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة (١) .

وقال ابن جرير : حدثنا أحمد بن عبدة الضبى ، حدثنا أبو عوانة ، عن عمر بن أبى سلمة ، عن أبيه قال : قالت عائشة : لما نزل الخيار قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنى أريد أن أذكر لك أمرا ، فلا تقضى فيه شيئاً حتى تستأمرى أبويك » . قالت : قلت : وما هو يارسول الله ؟ قال : فردّه عليها فقالت : فما هو يارسول الله ؟ قالت : فقرأ عليها : (يا أيها النبى ، قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها) إلى آخر الآية ، قالت : فقلت : بل نختار الله ورسوله والدار الآخرة . قالت : ففرح بذلك النبى صلى الله عليه وسلم .

وحدثنا ابن وكيع ، حدثنا محمد بن بشر ، عن محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما نزلت آية التخيير ، بدأ بى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ياعائشة ، إنى عارض عليك أمراً ، فلا تفتاتى(٢) فيه [بشىء] حتى تعرضيه على أبويك أبى بكر وأم رومان . فقلت : يارسول الله ، وما هو ؟ قال : قال الله عزوجل : (يا أيها النبى ، قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً) . قالت : فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة ، ولا أؤامر فى ذلك أبوىّ أبا بكر وأم رومان فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم استقرأ الحُجَر فقال : « إن عائشة قالت كذا وكذا » . فقلن : ونحن نقول مثل ما قالت عائشة ، رضى الله عنهن كلهن(٣) .

ورواه ابن أبى حاتم ، عن أبى سعيد الأشج ، عن أبى أسامة ، عن محمد بن عمرو ، به .

قال ابن جرير : وحدثنا سعيد بن يحيى الأموى ، حدثنا أبى ، عن محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن أبى بكر ، عن عَمْرة ، عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل(٤) إلى نسائه أمر أن يخبرهن ، فدخل علىّ فقال : « سأذكر لك أمراً فلا تعجلى حتى تستشيرى أباك » : فقلت . وما هو يانبى الله ؟ قال : « إنى أمرت أن أخيركن » ، وتلاعليها آية التخيير ، إلى آخر الآيتين . قالت فقلت : وما الذى تقول لا تعجلى حتى تستشيرى أباك ؟ فإنى أختار الله ورسوله . فَسُرَّ بذلك ، وعَرَض على نسائه فتتابعن كُلُّهن ، فاخترنَ الله ورسوله (٥) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا يزيد بن سنان البصرى ، حدثنا أبو صالح عبد الله بن صالح ، حدثنى الليث ، حدثنى عُقَيل ، عن الزهرى أخبرنى عُبيد الله بن عبد الله بن أبى ثَوْر ، عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ : أنزلت آية التخيير فبدأ بى أوّلَ امرأة من نسائه ، فقال : « إنى ذاكر لك أمراً ، فلا عليك أن لاتعجلى حتى تستأمرى أبويك » ـ قالت : قد علِمَ أن أبوىّ لم يكونا يأمرانى بفراقه ـ قالت : ثم قال : « إن الله قال :

---

(١) البخارى ، تفسير سورة الأحزاب : ١٤٦/٦ – ١٤٧ .

(٢) أى : لا تسبقى أبويك بإبداء الرأى فيه .

(٣) تفسير الطبرى : ١٠٠/٢١ – ١٠١ .

(٤) وقع فى المخطوطة بعد كلمة « نزل » بياض . والنص هكذا فى تفسير الطبرى : « لمانزل إلى نسائه » . ويبدو أن فيه سقطا .

(٥) تفسير الطبرى : ١٠١/٢١ .

(يا أيها النبي قل لأزواجك) ... : الآيتين ، قالت عائشة : فقلت : أفي هذا أستأمر أبويّ ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة . ثم خير نساءه كلهن ، فقلن مثل ما قالت عائشة رضي الله عنهن .

وأخرجه البخاري ومسلم جميعاً ، عن قتيبة ، عن الليث ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة ، مثله (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن مسلم بن صَبيح ، عن مسروق ، عن عائشة قالت : خيرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخترناه ، فلم يعدها علينا شيئاً (٢) . أخرجاه من حديث الأعمش(٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو حدثنا زكريا بن إسحاق ، عن أبي الزبير ،عن جابر قال : أقبل أبوبكر رضي الله عنه يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس ببابه جلوس ، والنبي صلى الله عليه وسلم جالس ، فلم يؤذن له . ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له . ثم أذن لأبي بكر وعمر فدخلا والنبي صلى الله عليه وسلم جالس وحوله نساؤه ، وهو ساكت ، فقال عمر : لأكلمن النبي صلى الله عليه وسلم لعله يضحك ، فقال عمر : يارسول الله ، لو رأيت ابنة زيد — امرأة عمر — سألتني النفقة آنفاً ، فوجأت(٤) عنقها . فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدا ناجذه(٥) وقال : « هن حولي يسألنني النفقة » . فقام أبوبكر رضي الله عنه إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر — رضي الله عنه — إلى حفصة ، كلاهما يقولان : تسألان النبي صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده . فنهاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلن نساؤه : والله لانسأل رسول الله بعد هذا المجلس ماليس عنده . قال : وأنزل الله عز وجل الخيار ، فبدأ بعائشة فقال : « إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك » . قالت : وما هو ؟ قال : فتلا عليها : (يا أيها النبي ، قل لأزواجك) ... الآية ، قالت عائشة رضي الله عنها : أفيك أستأمر أبويّ ؟ بل أختار الله ورسوله ، وأسألك أن لاتذكر لامرأة من نسائك ما اخترت . فقال : « إن الله تعالى لم يبعثني معنفاً ، ولكن بعثني معلماً ميسراً ، لاتسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتُها (٦)

انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري ، فرواه هو والنسائي ، من حديث زكريا بن إسحاق المكي (٧) به .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا سريج بن يونس،حدثنا علي بن هاشم بن البريد،عن محمد بن عبيد [الله بن علي] ابن أبي رافع ، عن عثمان بن علي بن الحسين ، عن أبيه ، عن علي رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خَيَّر نساءه الدنيا والآخرة ، ولم يخيرهن الطلاق (٨) .

---

(١) لم يقع لنا الحديث في الصحيحين بهذا السند ، وانظر البخاري ، كتاب المظالم ، باب « الغرفة والعلية المشرفة » : ١٧٤/٣ — ١٧٧ . ومسلم كتاب الطلاق ، باب في « الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن » : ١٩٢/٤ — ١٩٦ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٤٥/٦ .
(٣) البخاري ، كتاب الطلاق ، باب « من خير نساءه » : ٥٥/٧ . ومسلم ، كتاب الطلاق أيضاً ، باب « بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية » : ١٨٧/٤ .
(٤) أي : دققته وكسرته .
(٥) الناجذ : واحد النواجذ ، وهي من الأسنان التي تبدو عند الضحك .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٣٢٨/٣ .
(٧) مسلم ، كتاب الطلاق ، باب « بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية » : ١٨٧/٤ — ١٨٨ .
(٨) مسند الإمام أحمد : ٧٨/١ .

وهذا منقطع ، وقد رُوى عن الحسن وقتادة وغيرهما نحو ذلك . وهو خلاف الظاهر من الآية ، فإنه قال : (فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا) ، أى : أعطيكن حقوقكن وأطلق سراحكن .

وقد اختلف العلماء فى جواز تزويج غيره لهن لوطلقهن ، على قولين ، وأصحهما نعم لو وقع ، ليحصل المقصود من السراح ، والله أعلم .

قال عكرمة : وكان تحته يومئذ تسع نسوة ، خمس من قريش : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة وكانت تحته صلى الله عليه وسلم صفية بنت حُيَيّ النَّضَرِيَّة ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية ، رضى الله عنهن وأرضاهن .

يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾
۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

يقول تعالى واعظاً نساء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللاتى اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، واستقر أمرهن تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخبرهن بحكمهن دون سائر النساء ، بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة ـ قال ابن عباس . وهى النشوز وسوء الخلق ـ وعلى كل تقدير فهو شرط ، والشرط لايقتضى الوقوع كقوله تعالى : (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك : لئن أشركت ليحبطن عملك (١)) ، وكقوله : (ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون (٢)) ، (قل : إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين (٣)) ، (لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء ، سبحانه هو الله الواحد القهار (٤)) . فلما كانت محلتهن رفيعة ، ناسب أن يجعل الذنب لووقع منهن مغلظاً ، صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع ، ولهذا قال : (من يأت منكن بفاحشة مبينة ، يضاعف لها العذاب ضعفين) .

قال مالك ، عن زيد بن أسلم : (يضاعف لها العذاب ضعفين) ، قال : فى الدنيا والآخرة .

وعن ابن أبى نجيح ، [عن مجاهد] مثله .

(وكان ذلك على الله يسيراً) ، أى : سهلا هيناً .

ثم ذكر عدله وفضله فى قوله : (ومن يقنت منكن لله ورسوله) ، أى : يطع الله ورسوله ويستجيب (نؤتها أجرها مرتين ، وأعتدنا لها رزقاً كريماً) ، أى : فى الجنة ، فإنهن فى منازل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى أعلى عليين ، فوق منازل جميع الخلائق ، فى الوسيلة التى هى أقرب منازل الجنة إلى العرش .

(١) سورة الزمر ، آية : ٦٥ .
(٢) سورة الأنعام ، آية : ٨٨ .
(٣) سورة الزخرف ، آية : ٨١ .
(٤) سورة الزمر ، آية : ٤ .

﴿يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

هذه آداب أمر الله بها نساء النبي صلى الله عليه وسلم ، ونساء الأمة تبع لهن فى ذلك ، فقال مخاطباً لنساءالنبي بأنهن إذا اتقين الله كما أمرهن ، فإنه لايشبههن أحد من النساء ، ولا يلحقهن فى الفضيلة والمنزلة ، ثم قال : (فلا تخضعن بالقول) ،

قال السدى وغيره : يعنى بذلك ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال . ولهذا قال (فيطمع الذى فى قلبه مرض) ، أى : دَغَل ، (وقلن قولا معروفاً) — قال ابن زيد : قولا حسناً جميلا معروفاً فى الخير .

ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم ، أى : لاتخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها ،

وقوله : (وقرن فى بيوتكن) ، أى : الزمن بيوتكن فلاتخرجن لغير حاجة . ومن الحوائج الشرعية الصلاة فى المسجد بشرطه ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاتمنعوا إماء الله مساجد الله ، وليخرجن وهن تَفِلات(١) » ، وفى رواية : « وبيوتهن خير لهن(٢) » .

وقال الحافظ أبوبكر البزار حدثنا حميد بن مسعدة ، حدثنا أبو رجاء الكلبى : روح بن المسيب ثقة ، حدثنا ثابت البنانى ، عن أنس — رضى الله عنه — قال : جئن النساء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلن : يارسول الله ، ذهب الرجال بالفضل والجهاد فى سبيل الله تعالى ، فالنا عمل ندرك به عمل المجاهدين فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قعد — أوكلمة نحوها — منكن فى بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين فى سبيل الله » .

ثم قال : لانعلم رواه عن ثابت إلا روح بن المسيب ، وهو رجل من أهل البصرة مشهور(٣) .

---

(١) أى : تاركات للطيب .

(٢) سنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « ماجاء فى خروج النساء إلى المسجد » الحديث ٥٦٥ : ١/١٥٥ ومسند الإمام أحمد عن أبى هريرة : ٢/٤٣٨ ، ٤٧٥ ، ٥٢٨ . ومن زيد بن خالد الجهنى : ٥/١٩٢ ، ١٩٣ ، ومن عائشة — رضى الله عنها — : ٦/٦٩ — ٧٠ .

(٣) فى ميزان الاعتدال ٢/٦١ : « قال ابن عدى : أحاديثه غير محفوظة . وقال ابن معين : صويلح . وقال ابن حبان : يروى الموضوعات عن الثقات ، لا تحل الرواية عنه » .

هذا والحديث أخرجه الذهبى فى ترجمته من طريق نصر بن على الجهضمى ، عن أبى رجاء ، بإسناده ، ولفظه : « مهنة إحداكن فى بيتها تدرك بها عمل المجاهدين فى سبيل الله » .

وقال البزار أيضاً : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا عمرو بن عاصم ، حدثنا همام ، عن قتادة، عن مُوَرِّق ، عن أبي الأحوص ، عن عبد الله ، عن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : « إن المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها(١) الشيطان ، وأقرب ما تكون بِرَوْحَة (٢) ربها وهي في قعر بيتها » :

ورواه الترمذي ، عن بندار ، عن عمرو بن عاصم ، به نحوه (٣) :

وروى البزار بإسناده المتقدم، وأبو داود(٤) أيضاً ، عن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : « صلاة المرأة في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها، وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها » . وهذا إسناد جيد .

وقوله تعالى : (ولاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى) ، قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشى بين يدى الرجال ، فذلك تبرج الجاهلية :

وقال قتادة : (ولاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى) ، يقول : إذا خرجتن من بيوتكن — وكانت لهن مشية وتكسر وتغنُّج(٥) — فنهى الله عن ذلك :

وقال مقاتل بن حيان : (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) ، والتبرج : أنها تلقى الخمار على رأسها ، ولا تشده فيوارى قلائدها وقرطها وعنقها ، ويبدو ذلك كله منها ، وذلك التبرج ، ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج .

وقال ابن جرير : حدثني ابن زهير ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا داود — يعني ابن أبي الفرات — حدثنا على ابن أحمر ، عن عكرمة عن ابن عباس قال : تلا هذه الآية : (ولاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى) . قال : كانت فيما بين نوح وإدريس ، وكانت ألف سنة ، وإن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل ، والآخر يسكن الجبل : وكان رجال الجبل صباحاً وفي النساء دَمَامة : وكان نساء السهل صباحاً وفي الرجال دمامة ، وإن إبليس أتى رجلا من أهل السهل في صورة غلام ، فآجر نفسه منه ، فكان يخدمه واتخذ إبليس شيئاً مثل الذى يُزَمِّر فيه الرِّعاء ، فجاء فيه بصوت لم يسمع الناس مثله ، فبلغ ذلك من حوله ، فانتابوهم يسمعون إليه ، واتخذوا عيداً يجتمعون إليه في السنة ، فيتبرَّجُ النساء للرجال — قال : ويتزيَّن(٦) الرجال لهن ، وإن رجلا من أهل الجبل هَجَم عليهم في عيدهم ذلك ، فرأى النساء وصَبَاحتهن ، فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك ، فتحولوا إليهن . فنزلوا معهن وظهرت الفاحشة فيهن ، فهو قوله تعالى : (ولاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى(٧)) :

---

(١) أي : زينها في نظر الرجال . وقيل : نظر إليها ليغويها ويغوى بها . وأصل الاستشراف : رفع البصر للنظر إلى الشيء وبسط الكف فوق الحاجب .

(٢) أي تكون على مقدار روحة من ربها ، وهي المرة من الرواح .

(٣) تحفة الأحوذي ، أبواب الرضاع ، الحديث ١١٨٣ : ٤/٣٣٧ .

(٤) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، الحديث ٥٧٠ : ١/١٥٦ .

(٥) التغنج : التدلل والتكسر .

(٦) في المخطوطة : « ويتنزل » . والمثبت من تفسير الطبرى والطبعات السابقة .

(٧) تفسير الطبرى : ٢٢/٤ .

وقوله : (وأقمن الصلاة ، وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله) ، نهاهن أولا عن الشر ثم أمرهن بالخير ، من إقامة الصلاة — وهي : عبادة الله وحده لاشريك له — وإيتاء الزكاة ، وهي : الإحسان إلى المخلوقين، (وأطعن الله ورسوله)، وهذا من باب عطف العام على الخاص .

وقوله : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) وهذا نص في دخول أزواج النبي — صلى الله عليه وسلم — في أهل البيت هاهنا ، لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولا واحداً، إما وحده على قول أو مع غيره على الصحيح .

وروى ابن جرير ، عن عكرمة أنه كان ينادى فى السوق : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) ، نزلت فى نساء النبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، وهكذا روى ابن أبي حاتم قال :

حدثنا علي بن حرب الموصلي ، حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنا حسين بن واقد ، عن يزيد النحوي ، عن عكرمة عن ابن عباس في قوله : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) ، قال : نزلت فى نساء النبي صلى الله عليه وسلم خاصة(١).

وقال عكرمة : من شاء باهلته أنها نزلت فى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم .

فإن كان المراد أنهن كن سبب النزول دون غيرهن فصحيح ، وإن أريد أنهن المراد فقط دون غيرهن ، ففي هذا نظر ؛ فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك :

الحديث الأول : قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد ، أخبرنا علي بن زيد ، عن أنس بن مالك — رضي الله عنه — قال : إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر، يقول : الصلاة يا أهل البيت ، (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) .

ورواه الترمذي عن عبد بن حميد ، عن عفان ، به ، وقال : حسن غريب(٢).

حديث آخر ، قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبونعيم ، حدثنا يونس بن أبي إسحاق أخبرني أبو داود ، عن أبي الحمراء قال : رابطت المدينة سبعة أشهر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم] إذا طلع الفجر ، جاء إلى باب علي وفاطمة فقال : « الصلاةَ الصلاةَ ، (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً (٣)) .

أبو داود الأعمى هو : نفيع بن الحارث ، كذاب .

حديث آخر : وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا محمد بن مصعب، حدثنا الأوزاعي ، حدثنا شداد أبو عمار قال : دخلت على واثلة بن الأسقع وعنده قوم ، فذكروا علياً رضي الله عنه فلما قاموا قال لي : ألا أخبرك بما رأيتُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت : بلى . قال : أتيت فاطمة أسألها عن علي فقالت : تَوَجَّهَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجلست

---

(١) تفسير الطبري : ٢٢/٧ — ٨ .
(٢) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة الأحزاب ، الحديث ٣٢٥٩ : ٦٧/٩ — ٦٨ .
(٣) تفسير الطبري : ٦/٢٢ .

أنتظره حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه علي وحسن وحسين ، آخذ كل واحد منهما بيده حتى دخل ، فأدنى علياً وفاطمة وأجلسهما بين يديه ، وأجلس حسنا وحسيناً كل واحد منهما على فخذه ، ثم لف عليهم ثوبه ــ أو قال : كساءه ــ ثم تلا هذه الآية : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ، ويطهركم تطهيرا) ، « اللهم هؤلاء أهل بيتي ، وأهل بيتي أحق »(١) » وقد رواه أبو جعفر بن جرير عن عبد الكريم بن أبي عمير ، عن الوليد بن مسلم ، عن أبي عمرو الأوزاعي بسنده نحوه ــ زاد في آخره : « قال واثله : فقلت : وأنا : يارسول الله ــ صلى الله عليك ــ من أهلك ؟ قال : « وأنت من أهلي » قال واثلة : إنها من أرجى ما أرتجي(٢).

ثم رواه أيضاً عن عبد الأعلى بن واصل ، عن الفضل بن دكين ، عن عبد السلام بن حرب ، عن كلثوم المحاربي ، عن شداد أبي عمار قال : إني لجالس عند واثلة بن الأسقع إذ ذكروا علياً فشتموه ، فلما قاموا قال : اجلس حتى أخبرك عن الذي شتموه ، إني عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء علي وفاطمة وحسن وحسين فألقى صلى الله عليه وسلم عليهم كساء له ، ثم قال : « اللهم هؤلاء أهل بيتي ، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » ، قلت : يارسول الله ، وأنا ؟ قال : « وأنت » : قال : فوالله إنها لأوثق عملي عندي .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن نمير ، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان ، عن عطاء بن أبي رباح ، حدثني من سمع أم سلمة تذكر أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان في بيتها ، فأتته فاطمة رضي الله عنها ببرمة فيها خزيرة(٣)، فدخلت بها عليه فقال لها : ادعي زوجك وابنيك » قالت : فجاء علي وحسن وحسين فدخلوا عليه ، فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة ، وهو على منامة له على دكان(٤) تحته كساء خيبري ، قالت : وأنا في الحجرة أصلي ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ، ويطهركم تطهيرا) : قالت : فأخذ فضل الكساء فغطاهم(٥) به ، ثم أخرج يده فألوى(٦) بها إلى السماء ، ثم قال « اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي ، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » قالت : فأدخلت رأسي البيت ، فقلت : وأنا معكم يارسول الله ؟ فقال : إنك إلى خير ، إنك إلى خير(٧) » ؟

في إسناده من لم يسم ، وهو شيخ عطاء ، وبقية رجاله ثقات .

طريق أخرى ، قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا عوف عن أبي المعدل ، عن عطية الطفاوي ، عن أبيه أن أم سلمة حدثته قالت : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي يوماً إذ قالت الخادم : إن فاطمة وعليا بالسدة(٨) . قالت : فقال لي : قومي فتنحي عن أهل بيتي » قالت : فقمت فتنحيت في البيت قريباً ، فدخل علي وفاطمة ، ومعهما الحسن والحسين ، وهما صبيان صغيران ، فأخذ الصبيين فوضعهما في حجره فقبلهما ، واعتنق عليا بإحدى يديه وفاطمة

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٤/١٠٧ .
(٢) تفسير الطبري : ٢٢/٦ .
(٣) الخزيرة ــ بفتح الخاء ــ : لحم يقطع قطعاً صغيرة ، ويصب عليه ماء كثير ، فإذا نضج ذر عليه الدقيق .
(٤) الدكان ــ بضم الدال ، وبفتح الكاف مشددة ــ : الدكة المبنية للجلوس عليها .
(٥) في المسند : « فغشاهم به » .
(٦) أي : توجه بها .
(٧) مسند الإمام أحمد : ٦/٢٩٢ .
(٨) السدة : كالظلة على الباب لتقي من المطر .

باليد الأخرى ، وقبل فاطمة وقبل عليا ، وأغدق عليهم خَمِيصَة(١) سوداء وقال : اللهم ، إليك لا إلى النار أنا وأهل بيتي » قالت فقلت : وأنا يارسول الله ؟ صلى الله عليك . قال : وأنت(٢) .

طريق أخرى ، قال ابن جرير : حدثنا أبوكريب حدثنا [الحسن بن عطية ، حدثنا] فضيل بن مرزوق ، عن عطية ، عن أبي سعيد ، عن أم سلمة أن هذه الآية نزلت في بيتها (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) ، قالت : وأنا جالسة على باب البيت فقلت : يارسول الله ، ألستُ من أهل البيت ؟ فقال : « إنك إلى خير ، أنت من أزواج النبي – صلى الله عليه وسلم – قالت : وفي البيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي ، و فاطمة ، والحسن، والحسين ، رضي الله عنهم(٣) .

طريق أخرى : رواه ابن جرير أيضاً ، عن أبي كريب ، عن وكيع ، عن عبد الحميد بن بهرام ، عن شهر بن حوشب عن أم سلمة بنحوه(٤) .

طريق أخرى : قال ابن جرير : حدثنا أبوكريب ، حدثنا خالد بن مخلد، حدثني موسى بن يعقوب، حدثني هاشم بن هاشم ابن عتبة بن أبي وقاص، عن عبد الله بن وهب بن زمعة قال: أخبرتني أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع فاطمة(٥) والحسن والحسين ، ثم أدخلهم تحت ثوبه ، ثم جأر إلى الله عز وجل ، ثم قال : « هؤلاء أهل بيتي » قالت أم سلمة : فقلت : يارسول الله ، أدخلني معهم فقال : أنت من أهلي » (٦) .

طريق أخرى : رواه ابن جرير أيضاً عن أحمد بن محمد الطوسي ، عن عبد الرحمن بن صالح ، عن محمد بن سليمان الأصبهاني ، عن يحيى بن عبيد المكي ، عن عطاء ، عن عمر بن أبي سلمة ، عن أمه بنحو ذلك(٦) .

طريق أخرى : قال ابن جرير : حدثنا أبوكريب ، حدثنا مصعب بن المقدام ، حدثنا سعيد بن زَرْبي ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة ، عن أم سلمة قالت : جاءت فاطمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بِبُرْمَة لها قد صنعت فيها عَصِيدَة(٧) تحملها على طبق ، فوضعتها بين يديه فقال : أين ابن عمك وابناك ؟ فقالت : في البيت ، فقال : « ادعيهم » فجاءت إلى علي فقالت : أجِبْ رسولَ الله أنت وابناك . قالت أم سلمة : فلما رآهم مقبلين مد يده إلى كساء كان على المنامة ، فمده وبسطه ، وأجلسهم عليه ، ثم أخذ بأطراف الكساء الأربعة بشماله ، فضمه فوق رءوسهم ، وأومأ بيده اليمنى إلى ربه عزوجل فقال : « اللهم ، هؤلاء أهل بيتي ، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً(٨) » .

---

(١) الخميصة : ثوب أسود من خز أو صوف .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٦/٢٩٦ .
(٣) تفسير الطبري : ٢٢/٧ .
(٤) تفسير الطبري : ٢٢/٦ .
(٥) كذا في مخطوطة الأزهر . وفي تفسير الطبري : « جمع عليا والحسنين » .
(٦) تفسير الطبري : ٢٢/٧ .
(٧) العصيدة : دقيق يلت بالسمن ويطبخ .
(٨) تفسير الطبري : ٢٢/٦ – ٧ .

طريق أخرى، قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا عبد الله بن عبد القدوس، عن الأعمش، عن حكيم بن سعد قال: ذكرنا علي بن أبي طالب عند أم سلمة، فقالت: في بيتي نزلت: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت، ويطهركم تطهيراً): قالت أم سلمة: جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتي فقال: «لاتأذني لأحد»: فجاءت فاطمة فلم أستطع أن أحجبها عن أبيها: ثم جاء الحسن فلم أستطع أن أحجبه عن أمه وجده، ثم جاء الحسين فلم أستطع أن أحجبه ثم جاء علي فلم أستطع أن أحجبه(١): فاجتمعوا فجللهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بكساء كان عليه، ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». فنزلت هذه الآية حين اجتمعوا على البساط ــ قالت فقلت: يارسول الله، وأنا؟ قالت: فوالله ما أنعم(٢)، وقال: «إنك إلى خير(٣)».

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا محمد بن بشر، عن زكريا، عن مصعب بن شيبة، عن صفية بنت شيبة قالت: قالت عائشة رضي الله عنها خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات غداة، وعليه مرط مرحل(٤) من شعر أسود، فجاء الحسن فأدخله معه، ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثم جاء علي فأدخله معه، ثم قال: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) (٥).

ورواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن محمد بن بشر، به(٦).

طريق أخرى: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سريج بن يونس أبو الحارث، حدثنا محمد بن يزيد، عن العوام ــ يعني ابن حوشب ــ عن عم له قال: دخلت مع أبي على عائشة، فسألتها عن علي رضي الله عنه، فقالت رضي الله عنها: تسألني عن رجل كان من أحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت تحته ابنته وأحب الناس إليه؟ لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فألقى عليهم ثوباً فقال: «اللهم، هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»: قالت: فدنوت منه فقلت: يارسول الله، وأنا من أهل بيتك؟ فقال: «تنحي، فإنك على خير».

حديث آخر، قال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا بكر بن يحيى بن زبان العنزي، حدثنا مندل، عن الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نزلت هذه الآية في خمسة: فيّ، وفي علي، وحسن، وحسين، وفاطمة: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً (٧)».

قد تقدم أن فضيل بن مرزوق رواه عن عطية، عن أبي سعيد، عن أم سلمة كما تقدم.

---

(١) قوله: «ثم جاء علي فلم أستطع أن أحجبه» ساقط من تفسير الطبري.
(٢) أي ما قال: نعم.
(٣) تفسير الطبري: ٢٢/٧.
(٤) المرط ــ بكسر فسكون ــ: كساء من صوف، وربما كان من خز أو غيره. ومرحل: عليه تصاوير الرحال.
(٥) تفسير الطبري: ٢٢/٥. وقد وقع فيه سقط.
(٦) مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب «فضائل أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم»: ٧/١٣٠.
(٧) تفسير الطبري: ٢٢/٥.

وروى ابن أبى حاتم من حديث هارون بن سعد العجلى ، عن عطية ، عن أبى سعيد موقوفاً فالله أعلم .

حديث آخر : قال ابن جرير : حدثنا ابن المثنى ، حدثنا أبوبكر الحنفى ، حدثنا بكير بن مسمار قال : سمعت عامر ابن سعد قال : قال سعد : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزل عليه الوحى ، فأخذ علياً وابنيه وفاطمة فأدخلهم تحت ثوبه ، ثم قال : « رب . هؤلاء أهلى وأهل بيتى(١) » .

حديث آخر : وقال مسلم فى صحيحه : حدثنى زُهَير بن حرب ، وشُجاع بن مَخْلَد جميعاً ، عن ابن عُلَيَّة — قال زهير : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنى أبو حَيَّان ، حدثنى يزيد بن حَيَّان قال : انطلقت أنا وحُصَين بن سَبْرَة وعمر بن مسلم(٢) إلى زيد بن أرقم ، فلما جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيتَ يازيدُ خيراً كثيراً [رأيتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعتَ حديثه ، وغزوتَ معه ، وصليتَ خلفه ، لقد لقيت يازيد خيراً كثيراً] ، حَدِّثنا يازيد ما سمعتَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : يا ابن أخى ، والله لقد كَبِرَتْ سِنِّى ، وقَدُم عهدى ، ونسيتُ بعضَ الذى كنتُ أعى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما حَدَّثتُكم فاقبلوا ، ومالا فلا تُكَلِّفونيه . ثم قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما خطيباً بماء يدعى خُمًّا — بين مكة والمدينة — فحمد الله وأثنى عليه ، ووعظ وذَكَّر ، ثم قال : « أما بعد ، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتى رسول ربى فأجيب ، وأنا تارك فيكم ثقلين ، وأولهما كتاب الله فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به . فحَثَّ على كتاب الله ورَغَّب فيه ، ثم قال : « وأهل بيتى ، أذكِّركم الله فى أهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى » ، ثلاثاً . فقال له حصين : ومن أهل بيته يازيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته قال : نساؤه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من حُرِمَ الصَّدَقة بعده . قال : ومن هم ؟ قال هم آل على ، وآل عَقيل ، وآل جعفر ، وآل عباس . قال : كل هؤلاء حُرِمَ الصدقة ؟ قال : نعم(٣) .

ثم رواه عن محمد بن بكار بن الريّان ، عن حسان بن إبراهيم ، عن سعيد بن مسروق ، عن يزيد بن حَيَّان ، عن زيد بن أرقم ، فذكر الحديث بنحو ما تقدم ، وفيه : فقلنا له : من أهل بيته ؟ نساؤه ؟ قال : لا وايم الله ، إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها ، أهل بيته أصله وعَصَبته الذين حُرِموا الصدقة(٣) بعده .

هكذا وقع فى هذه الرواية والأولى أولى ، والأخذ بها أحرى . وهذه الثانية تحتمل أنه أراد تفسير الأهل المذكورين فى الحديث الذى رواه ، إنما المراد بهم آله الذين حُرِموا الصدقة ، أو أنه ليس المراد بالأهل الأزواج فقط ، بل هم مع آله ، وهذا الاحتمال أرجح ، جمعا بينها وبين الرواية التى قبلها ، وجمعاً أيضاً بين القرآن والأحاديث المتقدمة إن صحت ، فإن فى بعض أسانيدها نظراً ، والله أعلم . ثم الذى لا يَشُكُّ فيه من تَدَبَّر القرآن أن نساء النبى صلى الله عليه وسلم داخلات فى قوله : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) ، فإن سياق الكلام معهن ، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله : (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة) ، أى : اعملن بما ينزل الله على رسوله فى بيوتكن من الكتاب والسنة ، قاله قتادة وغير واحد . واذكرن هذه النعمة التى خصصن بها من بين الناس ، إن الوحى ينزل فى بيوتكن دون سائر الناس ،

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٢/٧ .

(٢) فى المخطوطة : « سلم » . والمثبت عن صحيح مسلم ، ومسند الإمام أحمد : ٣٦٦/٤ .

(٣ — ٣) ، كتاب فضائل الصحابة ، باب « من فضائل على رضى الله عنه » : ١٢٢/٧ — ١٢٣ .

وعائشة بنت الصديق أولاهن بهذه النعمة ، وأحظاهن بهذه الغنيمة ، وأخصهن من هذه الرحمة العميمة ، فإنه لم ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحيُ في فراش امرأة سواها ، كما نص على ذلك صلوات الله وسلامه عليه . قال بعض العلماء رحمه الله : لأنه لم يتزوج بكراً سواها ، ولم ينم معها رجل في فراشها سواه ، فناسب أن تخصص بهذه المزية ، وأن تفرد بهذه الرتبة العلية ، ولكن إذا كان أزواجه من أهل بيته ، فقرابته أحق بهذه التسمية ، كما تقدم في الحديث : «وأهل بيتي أحق» : وهذا يشبه ما ثبت في صحيح مسلم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم ، فقال : «هو مسجدي هذا(١)» : فهذا من هذا القبيل ؛ فإن الآية إنما نزلت في مسجد قُباء ، كما ورد في الأحاديث الأخر . ولكن إذا كان ذاك أُسِّسَ على التقوى من أول يوم ، فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أولَى بتسميته بذلك ، والله أعلم .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو الوليد ، حدثنا أبو عوانة ، عن حُصَين بن عبد الرحمن ، عن أبي جميلة قال : إن الحسن بن علي استُخلِفَ حين قُتِل علي رضي الله عنهما قال : فبينما هو يصلي إذ وثب عليه رجل فطعنه بخنجر وزعم حصين أنه بلغه أن الذي طعنه رجل من بني أسد ، وحسن ساجد قال : فيزعمون أن الطعنة وقعت في وَرِكه ، فمرض منها أشهراً ، ثم برَأ فقعد على المنبر ، فقال : يا أهل العراق ، اتقوا الله فينا ، فإنا أمراؤكم وضيفانكم ، ونحن أهل البيت الذي قال الله : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) ، قال : فما زال يقولها حتى ما بقي أحد من أهل المسجد إلا وهو يَحِنّ بكاء :

وقال السدي ، عن أبي الديلم قال : قال علي بن الحسين لرجل من أهل الشام : أما قرأت في الأحزاب : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) ؟ قال : نعم ، ولأنتم هم ؟ قال : نعم .

وقوله : (إن الله كان لطيفاً خبيراً) ، أي : بلطفه بكن بلغتن هذه المنزلة ، وبخبرته بكن وأنكن أهل لذلك ، أعطاكن ذلك وخصكن بذلك :

قال ابن جرير ، رحمه الله : واذكرن نعمة الله عليكن بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة ، فاشكرن الله على ذلك واحمدنه(٢) :

(إن الله كان لطيفاً خبيراً) ، أي : ذا لطف بكن ، إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آياته والحكمة . وهي السنة ، خبيراً بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجاً :

وقال قتادة : (واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) ، قال : يمتن عليهن بذلك . رواه ابن جرير ٢ :

وقال عطية العوفي في قوله : (إن الله كان لطيفاً خبيراً) ، يعني : لطيف باستخراجها ، خبير بموضعها . رواه ابن أبي حاتم ، ثم قال : وكذا روي عن الربيع بن أنس ، عن قتادة :

---

(١) مسلم ، كتاب الحج ، باب « بيان أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي — صلى الله عليه وسلم — بالمدينة » : ٤/١٢٦ . وانظر فيما تقدم تفسير الآية ١٠٨ من سورة براءة : ٤/١٥٢ – ١٥٣ .

(٢) تفسير الطبري : ٢٢/٨ .

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا عثمان بن حكيم ، حدثنا عبد الرحمن بن شيبة ، سمعت أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم تقول : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : ما لنا لانُذكَرُ في القرآن كما يذكر الرجال ؟ قالت : فلم يَرعنى منه ذات يوم إلا ونداوه على المنبر ، قالت : وأنا أُسرّح شعرى ، فلففت شعرى ، ثم خرجت إلى حُجْرة من حُجَر بيتى(١) ، فجعلت سمعى عند الجريد ، فإذا هو يقول عند المنبر : « يا أيها الناس ، إن الله يقول : إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات » ... إلى آخر الآية(٢) .

وهكذا رواه النسائى وابن جرير ، من حديث عبد الواحد بن زياد ، به مثله(٣) .

طريق أخرى عنها ، قال النسائى أيضاً : حدثنا محمد بن حاتم ، حدثنا سويد ، أخبرنا عبد الله بن شريك ، عن محمد ابن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أم سلمة أنها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : يا نبى الله ، مالى أسمع الرجال يذكرون فى القرآن ، والنساء لايذكرن ؟ فأنزل الله : (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) .

وقد رواه ابن جرير ، عن أبى كريب ، عن أبى معاوية ، عن محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة : أن يحيى بن عبد الرحمن ابن حاطب ، حدثه عن أم سلمة — رضى الله عنها — قالت : قلت : يارسول الله ، أيذكر الرجال فى كل شىء ولانذكر؟ فأنزل الله (إن المسلمين والمسلمات) ... الآية(٤)

طريق أخرى ، قال سفيان الثورى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد قال : قالت أم سلمة : يارسول الله ، يذكر الرجال ولانذكر ؟ فأنزل الله : (إن المسلمين والمسلمات) ... الآية .

حديث آخر قال ابن جرير ، حدثنا [أبوكريب قال : حدثنا] سيَّار بن مظاهر العَنَزى ، حدثنا أبوكدينة يحيى بن المهلب ، عن قابوس بن أبى ظبيان ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : قال النساء للنبى صلى الله عليه وسلم : ما له يذكر المؤمنين ولايذكر المؤمنات؟ . فأنزل الله : (إن المسلمين والمسلمات) ...(٦) الآية .

(١) فى المخطوطة : « إلى حجرتى ، حجرة بيتى » . والمثبت من المسند .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٣٠٥/٦ .
(٣) تفسير الطبرى : ٩/٢٢ .
(٤) تفسير الطبرى : ٨/٢٢ .
(٥) فى المخطوطة : « سنان » . والمثبت من تفسير الطبرى والخلاصة .
(٦) تفسير الطبرى : ٨/٢٢ — ٩ .

وحدثنا بشر ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قال : دخل نساء على نساء النبى صلى الله عليه وسلم ، فقلن : قد ذَكَرَكُنَّ الله فى القرآن ، ولم نُذكَر بشىء ، أما فينا ما يذكر ؟ فأنزل الله عزوجل : (إن المسلمين والمسلمات)...الآية(١).

فقوله : (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) دليل على أن الإيمان غير الإسلام ، وهو أخص منه ، لقوله تعالى : (قالت الأعراب : آمنا ، قل : لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم(٢)) . وفى الصحيحين : « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن(٣) » فيسلبه الإيمان ، ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين ، فدل على أنه أخص منه كما قررناه فى أول شرح البخارى .

(والقانتين والقانتات) ، القنوت : هو الطاعة فى سكون ، (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه (٤)) ، وقال تعالى : (وله من فى السموات والأرض كل له قانتون(٥)) ، (يامريم ، اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين(٦)) ، (وقوموا لله قانتين (٧)) : فالإسلام بعده مرتبة يرتقى إليها ، ثم القنوت ناشىء عنهما .

(والصادقين والصادقات) هذا فى الأقوال ، فإن الصدق خَصلة محمودة ، ولهذا كان بعض الصحابة لم تُجرَّب عليه كِذْبة لافى الجاهلية ولافى الإسلام ، وهو علامة على الإيمان ، كما أن الكذب أمارة على النفاق ، ومن صدق نجا ، «عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإياكم والكذب ؛ فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، ولايزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »(٨) والأحاديث فيه كثيرة جداً .

(والصابرين والصابرات) ، هذه سَجِيّة الأثبات ، وهى الصبر على المصائب ، والعلم بأن المقدور كائن لا محالة ، وتَلَقّى ذلك بالصبر والثبات ، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى ، أى : أصعبه فى أول وهلة ، ثم ما بعده أسهل منه ، وهو صدق السجية وثباتها :

(والخاشعين والخاشعات) ، الخشوع : السكون والطمأنينة ، والتؤدة والوقار والتواضع . والحامل عليه الخوف من الله ومراقبته ، « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك (٩) » .

(والمتصدقين والمتصدقات) ، الصدقة : هى الإحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء ، الذين لا كَسْبَ لهم ولا كاسب ، يعطون من فضول الأموال طاعة لله ، وإحسانا إلى خلقه ، وقد ثبت فى الصحيحين : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل

---

(١) تفسير الطبرى : ٨/٢٢ .
(٢) سورة الحجرات ، آية : ١٤ .
(٣) تقدم الحديث فى سورة المائدة ، عند تفسير الآية ٩٣ منها وخرجناه هنالك ، انظر : ١٨٠/٣ .
(٤) سورة الزمر ، آية : ٩ .
(٥) سورة الروم ، آية : ٢٦ .
(٦) سورة آل عمران ، آية : ٤٣ .
(٧) سورة البقرة ، آية : ٢٣٨ .
(٨) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب ، باب قول الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) : ٣٠/٨ . ومسلم فى كتاب البر ، باب « قبح الكذب وحسن الصدق وفضله » : ٢٩/٨ .
(٩) البخارى فى كتاب الإيمان ، باب « سؤال جبريل النبى – صلى الله عليه وسلم – عن الإيمان ... » : ١٩/١ – ٢٠ . ومسلم ، كتاب الإيمان أيضاً ، باب الإسلام ، ما هو ؟ وبيان خصاله » : ٣٠/١ – ٣١ .

إلا ظله – فذكر منهم – : ورجل تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه (١) » ؛ وفي الحديث الآخر : « والصدقة تطفيء الخطيئة ، كما يطفيء الماء النار (٢) » والأحاديث في الحث عليها كثيرة جداً ، له موضع بذاته ؛

(والصائمين والصائمات) ، في الحديث الذي رواه ابن ماجه : « والصوم زكاة البدن » ، أي : تزكيه وتطهره وتنقيه من الأخلاط الرديئة طبعا وشرعا

قال سعيد بن جبير : من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر ، دخل في قوله : (والصائمين والصائمات) ؛

ولما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة – كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء (٣) » – ناسب أن يذكر بعده : (والحافظين فروجهم والحافظات) ، أي : عن المحارم والمآثم إلا عن المباح ، كما قال تعالى : (والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون (٤)) .

وقوله : (والذاكرين الله كثيراً والذاكرات) – قال ابن أبي حاتم :

حدثنا أبي ، حدثنا هشام بن عبيد الله ، حدثنا محمد بن جابر ، عن علي بن الأقمر ، عن الأغر أبي مسلم ، عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل ، فصليا ركعتين ، كتبا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » .

وقد رواه أبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، من حديث الأعمش [عن علي بن الأقمر (٥)] عن الأغر أبي مسلم ، عن أبي سعيد وأبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، بمثله (٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا درّاج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد الخُدْرِيّ رضي الله عنه أنه قال : قلت : يا رسول الله أيّ العباد أفضل درجةً عند الله يوم القيامة ؟ قال : « الذاكرون الله كثيرا والذاكرات(٧) »

---

(١) البخاري ، كتاب الأذان ، باب « من جلس في المسجد ينتظر الصلاة ، وفضل المساجد » : ١٦٨/١ . ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب « فضل إخفاء الصدقة » : ٩٣/٣ .

(٢) تحفة الأحوذي ، أبواب الإيمان ، باب « ما جاء في حرمة الصلاة » ، الحديث ٢٧٤٩ : ٣٦٢/٧ – ٣٦٥ . وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « الحسد » ، الحديث ٤١٢٠ : ١٤٠٨/٢ . ومسند الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله : ٣٩٩/٣ ، وعن معاذ بن جبل : ٢٣١/٥ .

(٣) تحفة الأحوذي ، أبواب النكاح ، باب « ما جاء في فضل التزويج والحث عليه » ، الحديث ١٠٨٧ : ١٩٩/٤ – ٢٠٠ ، والنسائي ، كتاب الصيام ، باب « فضل الصيام » : ٢٦٩/٤ – ٢٧٠ .

والباءة : مؤن النكاح . والوجاء في الأصل : رض الأنثيين ودقهما لتضعف الفحولة .

(٤) سورة المؤمنون ، الآيات : ٥ – ٧ .

(٥) ما بين القوسين عن سنن أبي داود وابن ماجه .

(٦) سنن أبي داود ، كتاب التطوع ، باب « قيام الليل » . وسنن ابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة ، باب « ما جاء فيمن أيقظ أهله من الليل » ، الحديث ١٣٣٥ : ٤٢٣/١ – ٤٢٤ .

(٧) « والذاكرات » غير ثابتة في المسند .

قال : قلت : يا رسول الله ، ومن الغازى فى سبيل الله ؟ قال : « لو ضرب بسيفه فى الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دما لكان الذاكرون الله أفضل منه(١) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم ، عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم يسير فى طريق مكة ، فأتى على جُمْدان(٢) فقال : هذا جُمْدان ، سيروا فقد سبق المُفَرِّدون(٣) » : قالوا : وما المُفَرِّدون ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً ثم قال : « اللهم اغفر للمحلقين » . قالوا : والمقصرين ؟ قال : « اللهم ، اغفر للمحلقين » . قالوا : والمقصرين ؟ قال : « والمقصرين (٤) » .

تفرد به من هذا الوجه ، ورواه مسلم دون آخره .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حُجَين بن المثنى ، حدثنا عبد العزيز بن أبى سلمة ، عن زياد بن أبى زياد ـ مولى عبد الله ابن عيَّاش بن أبى ربيعة أنه بلغه عن معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما عمل آدمى عملا قط أنجى له من عذاب الله من ذكر الله » . وقال معاذ : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أخبركم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من تعاطى الذهب والفضة ، ومن أن تلقوا عدوكم غداً فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا : بلى ، يا رسول الله . قال : « ذكر الله عز وجل(٥) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا زَبَّان بن فائد ، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهنى ، عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن رجلا سأله فقال : أىّ المجاهدين أعظم أجراً يا رسول الله ؟ فقال : « أكثرهم لله ذكراً » قال : فأى الصائمين أكثر أجراً ؟ قال : « أكثرهم لله ذكرا » . ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة ، كل ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكثرهم لله ذكراً » . فقال أبو بكر لعمر رضى الله عنهما : ذهب الذاكرون بكل خير . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أجل (٦) .

وسنذكر بقية الأحاديث الواردة فى كثرة الذكر عند قوله تعالى فى هذه السورة : (يا أيها الذين آمنوا ، اذكروا الله ذكراً كثيرا ، وسبحوه بكرة وأصيلا (٧)) ... الآية ، إن شاء الله تعالى .

وقوله : (أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) ، أى : هيأ لهم منه لذنوبهم مغفرة وأجرا عظيما وهو الجنة .

---

(١) فى المسند ٣/٧٥ : « أفضل منه درجة » .
(٢) جمدان ـ بضم الجيم ، وسكون الميم ـ : جبل على ليلة من المدينة .
(٣) فى النهاية (فرد) : « وفى رواية : طوبى للمفردين ؟ قيل : وما المفردون ؟ قال : الذين أهتروا فى ذكر الله » . وفى مادة « هتر » : يقال : أهتر فلان بكذا ، واستهتر ، فهو مهتر به ـ بالبناء للمفعول ـ ومستهتر : أى مولع به ، لا يتحدث بغيره ، ولا يفعل غيره » .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٢/٤١١ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٥/٢٣٩ .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٣/٤٣٨ .
(٧) سورة الأحزاب ، الآيات : ٤١ ـ ٤٢ .

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾

قال العوفي ، عن ابن عباس : قوله (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة) ... الآية ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة ، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية فخطبها ، فقالت : لستُ بناكحته . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل فانكحيه . قالت : يا رسول الله ، أؤامر في نفسي ؟ فبينا هما يتحادثان أنزل الله هذه الآية على رسوله صلى الله عليه وسلم : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا) ... الآية . قالت : قد رضيتَه لي منكحا يا رسول الله ؟ قال : نعم . قالت : إذاً لا أعصى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، قد أنكحته نفسي (١) .

وقال ابن لهيعة ، عن [ابن] أبي عمرة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش لزيد بن حارثة ، فاستنكفت منه ، وقالت : أنا خير منه حسبا — وكانت امرأة فيها حدّة — فأنزل الله عز وجل : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة) ... الآية كلها(٢) .

وهكذا قال مجاهد ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان : أنها نزلت في زينب بنت جحش حين خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم على مولاه زيد بن حارثة ، فامتنعت ثم أجابت .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيط ، وكانت أول من هاجر من النساء — يعني بعد صلح الحديبية — فوهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : قد قبلت . فزوجها زيد بن حارثة — يعني والله أعلم بعد فراقه زينب — فسخطت هي وأخوها وقالا : إنما أردنا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فزوّجنا عبده . قال : فنزل القرآن : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا) ... إلى آخر الآية . قال : وجاء أمر أجمع من هذا : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) ، قال : فذاك خاص وهذا جماع (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن ثابت البُنَاني ، عن أنس قال : خطب النبي صلى الله عليه وسلم على جُلَيْبِيب امرأةً من الأنصار إلى أبيها ، فقال : حتى أستأمر أمها . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فنعم إذاً . قال : فانطلق الرجل إلى امرأته [فذكر ذلك لها] ، فقالت : لاها الله ذا (٤) ، ما وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا جُلَيبيبا ، وقد منعناها من فلان وفلان . قال : والجارية في سترها تسمع ، قال : فانطلق الرجل يريد أن يخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك . فقالت الجارية : أتريدون أن تردّوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره ، إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه . قال : فكأنها جلّت عن أبويها ، وقالا : صدقت . فذهب أبوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) تفسير الطبرى : ٢٢/٩ .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٢/٩ – ١٠ .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٢/١٠ .
(٤) فى المخطوطة والمسند : « لا ها الله إذاً » . وقد أثبتنا « ذا » عن النهاية ، وذلك من حديث آخر . قال ابن الأثير : « ومعناه : لا ، والله لا يكون ذا » .

فقال : إن كنتَ رضيته فقد رضيناه ، قال : « فإني قد رضيته » ، قال : فزوجها ، ثم فزع أهل المدينة ، فركب جُلَيبيب فوجدوه قد قتل ، وحوله ناس من المشركين قد قتلهم ، قال أنس : فلقد رأيتها [وإنها] لمن أنفق بيت بالمدينة (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد - يعني ابن سلمة - عن ثابت ، عن كنانة بن نعيم العدوى ، عن أبي برزة الأسلمى أن جليبيبا كان امرأ يدخل على النساء يَمُرُّ بهن ويلاعبهن ، فقلت لامرأتى : لا يدخلن اليوم عليكم جُليبيبُ ، فإنه إن دخل عليكم لأفعلن ولأفعلن . قال : وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيّم لم يزوجها حتى يعلم : هل للنبي الله صلى الله عليه وسلم فيها حاجة أم لا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل من الأنصار : « زوجني ابنتك» قال : نعم ، وكرامة يا رسول الله ، ونُعْمَة عين(٢) . فقال : إني لست أريدها لنفسى . قال : فلمن يا رسول الله ؟ قال : لجليبيب . فقال : يا رسول الله ، أشاور أمها . فأتى أمها فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب ابنتك ؟ فقالت : نعم ونُعمة عين . فقال : إنه ليس يخطبها لنفسه ، إنما يخطبها لجليبيب . فقالت : أجُلَيبيب إنيه (٣) ؟ أجليبيب إنيه ؟. لا ، لعمر الله لا تَزَوّجه . فلما أراد أن يقوم ليأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيخبره بما قالت أمها ، قالت الجارية : من خطبنى إليكم ؟ فأخبرتها أمها . قالت : أتردون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره ؟! ادفعونى إليه ، فإنه لن يضيعنى . فانطلق أبوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : شأنك بها . فزَوّجها جليبيبا . قال : فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزاة له ، فلما أفاء الله عليه قال لأصحابه : هل تفقدون من أحد ؟ قالوا : نفقد فلانا ونفقد فلانا . قال : « انظروا هل تفقدون من أحد ؟ قالوا : لا . قال : لكني أفقد جليبيبا » . قال : فاطلبوه فى القتلى . فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه . [فقالوا : يا رسول الله ، ها هو ذا إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه] ، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام عليه ، فقال : قتل سبعة [وقتلوه] ، هذا منى وأنا منه . مرتين أو ثلاثا ، ثم وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على ساعديه [وحفر له ، ماله سرير إلا ساعد النبي صلى الله عليه وسلم] ، ثم وضعه فى قبره ، ولم يذكر أنه غسله رضى الله عنه . قال ثابت . فما كان فى الأنصار أيّم أنفق منها . وحدث إسحاق ابن عبد الله بن أبي طلحة ثابتا : هل تعلم ما دعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : « اللهم ، صب عليها [الخير] صبا ، ولا تجعل (٤) عيشها كدّا » كذا قال ، فما كان فى الأنصار أيم أنفق منها(٥) .

هكذا أورده الإمام أحمد بطوله ، وأخرج منه مسلم والنسائى فى الفضائل قصة قتله . وذكر الحافظ أبو عمر بن عبد البر فى « الاستيعاب » أن الجارية لما قالت فى خدرها : أتردون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره ؟ تلت هذه الآية : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم(٦) ﴾ .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣/١٣٦ ، ومعنى أنفق بيت : أكثر من نفقة .

(٢) أى : قرة عين وسرورا .

(٣) فى المخطوطة : « ابنه » . وهو خطأ ، والصواب من المسند ، ونتائج الفكر للسهيلى ، ورقة ٤١ . ولفظة « إنيه » يستعملها العرب فى الإنكار ، يقول القائل : جاء زيد . فتقول أنت : أزيد نيه ، وأزيد إنيه ؟ كأنك استبعدت مجيئه . هذا وانظر الكتاب لسيبويه : ١/٤٠٦ ، والخصائص لابن جنى : ٣/١٥٦ .

(٤) فى المخطوطة : « واجعل عيشها كذا وكذا قال ... » . وفى المسند : ولا تجعل عيشها كداً كداً ، قال : « » . هذا وانظر الاستيعاب : ٤/٢٧٢ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٤/٤٢٢ . وما بين الأقواس من المسند .

(٦) الاستيعاب : ٤/٢٧٢ .

وقال ابن جريج : أخبرني عامر بن مصعب ، عن طاوس قال : إنه سأل ابن عباس عن ركعتين بعد العصر ، فنهاه ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنه : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) .

فهذه الآية عامة في جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء ، فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد هاهنا ولا رأي ولا قول ، كما قال تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما(١)) . وفي الحديث : « والذي نفسي بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » . ولهذا شدد في خلاف ذلك ، فقال : (ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً) ، كقوله تعالى : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم(٢)) .

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه — صلوات الله وسلامه عليه — أنه قال لمولاه زيد بن حارثة وهو الذي أنعم الله عليه ، أي : بالإسلام ومتابعة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام : (وأنعمت عليه) ، أي : بالعتق من الرق ، وكان سيداً كبير الشأن جليل القدر ، حبيباً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، يقال له الحِبّ ، ويقال لابنه أسامة : الحِبّ ابن الحِبّ — قالت عائشة رضي الله عنها : ما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية إلا أمره عليهم ، ولو عاش بعده لاستخلفه . رواه أحمد عن سعيد بن محمد الوراق ومحمد بن عبيد ، عن وائل بن داود ، عن عبد الله البهي عنها(٣) .

وقال البزار : حدثنا خالد بن يوسف ، حدثنا أبو عوانة (ح) ، وحدثنا محمد بن معمر ، حدثنا أبو داود ، حدثنا أبو عوانة ، أخبرني عمر بن أبي سلمة ، عن أبيه : حدثني أسامة بن زيد قال : كنت في المسجد ، فأتاني العباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، فقالا : يا أسامة ، استأذن لنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فأتيتُ رسولَ الله فأخبرته ، فقلت : علي والعباس يستأذنان ؟ فقال : « أتدري ما حاجتهما ؟ » فقلت : لا يارسول الله . فقال : لكني أدري ، قال : فأذن لهما . قالا : يارسول الله ، جئناك لتخبرنا : أيُّ أهلك أحبُّ إليك ؟ فقال : أحب أهلي إلي فاطمة بنت محمد . قالا : يارسول الله ، ما نسألك عن فاطمة . قال : فأسامة بن زيد بن حارثة ، الذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد زوّجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية — وأمها أميمة بنت عبد المطلب — وأصدقها عشرة دنانير ، وستين درهماً ، وخماراً ، وملحفة ، ودرعاً ، وخمسين مُداً من طعام ، وعشرة أمداد من تمر . قاله مقاتل بن حيان ، فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها ، ثم وقع بينهما ، فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله صلى الله

(١) سورة النساء ، آية : ٦٥ .
(٢) سورة النور ، آية : ٦٣ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٦/٢٢٧ ، ٢٥٤ ، ٢٨١ .

عليه وسلم ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : « أمسك عليك زوجك ، واتق الله » : قال الله تعالى :
(وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) .

ذكر ابن جرير ، وابن أبى حاتم هاهنا آثاراً عن بعض السلف رضى الله عنهم ، أحببنا أن نضرب عنها صفحا [لعدم صحتها] فلا نوردها .

وقد روى الإمام أحمد هاهنا أيضاً حديثاً ، من رواية حماد بن زيد ، عن ثابت ، عن أنس فيه غرابة تركنا سياقه أيضاً .

وقد روى البخارى أيضاً بعضه مختصراً فقال : حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حدثنا معلى بن منصور ، عن حماد ابن زيد ، حدثنا ثابت ، عن أنس بن مالك قال : إن هذه الآية : (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه) نزلت فى شأن زينب بنت جحش ، وزيد بن حارثة رضى الله عنهما(١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا على بن هاشم بن مرزوق ، حدثنا ابن عيينة ، عن على بن زيد بن جُدْعان قال: سألنى على بن الحسين ما يقول الحسن فى قوله : (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه) ؟ فذكرت له فقال : لا ، ولكن الله أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد ليشكوها إليه قال : اتق الله ، وأمسك عليك زوجك ، فقال : قد أخبرتك أنى مزَوّجكها ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه .

وهكذا رُوى عن السدى أنه قال نحو ذلك .

وقال ابن جرير : حدثنى إسحاق بن شاهين ، حدثنى خالد(٢) ، عن داود ، عن عامر ، عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : لو كتم محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ شيئاً مما أوحى إليه من كتاب الله لكتم : (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه(٣)) .

وقوله : (فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها) ، الوطر : هو الحاجة والأرب ، أى : لما فرَغ منها وفارقها زوّجناكها، وكان الذى ولى تزويجها منه هو الله عز وجل ، بمعنى : أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولى ولا مهر ولا عقد ولا شهود من البشر .

قال الإمام أحمد : حدثنا هاشم ــ يعنى ابن القاسم أبو النضر ــ حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، عن أنس ــ رضى الله عنه ــ قال : لما انقضت عدة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة : اذهب فاذكرها على فانطلق حتى أتاها وهى تُخَمِّر عَجِينها ،قال: فلما رأيتها عظمت فى صدرى ــ حتى ما أستطيع أن أنظر إليها ــ أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها ، فوليتها ظهرى ونكصت على عقبى ، وقلت : يازينب ، أبشرى ، أرسلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك . قالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربى عز وجل . فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن ، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن . ولقد رأيتنا حين دَخَلَتْ علىّ(٤) رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) البخارى ، تفسير سورة الأحزاب : ٦/١٤٧ .

(٢) فى تفسير الطبرى : « حدثنى إسحاق بن شاهين قال : ثنا داود » ، باسقاط خالد . وإسحاق بن شاهين يروى عن خالد ابن عبد الله انظر التهذيب : ١/٢٣٦ .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٢/١١ .

(٤) لفظ المسند : « ولقد رأيتنا أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أطعمنا ... » .

أطعمنا عليها الخبز واللحم ، فخرج الناس وبقى رجال يتحدثون فى البيت بعد الطعام ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم [واتبعته] فجعل يتتبع حُجر نسائه يسلم عليهن ، ويقلن : يارسول الله ، كيف وجدت أهلك ؟ فما أدرى أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر — قال : فانطلق حتى دخل البيت ، فذهبت أدخل معه ، فألقى الستر بينى وبينه ، ونزل الحجاب ، ووعُظَ القوم بما وعظوا به : (لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم) ... الآية(١) .

ورواه مسلم والنسائى من طرق ، عن سليمان بن المغيرة(٢) ، به .

وقد روى البخارى — رحمه الله — عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — أنّ زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فتقول : زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات(٣) .

وقد قدمنا فى « سورة النور » عن محمد بن عبد الله بن جحش قال : تفاخرت زينب وعائشة ، فقالت زينب رضى الله عنها : أنا التى نزل تزويجى من السماء ، وقالت عائشة : أنا التى نزل عُذْرى من السماء ، فاعترفت لها زينب رضى الله عنها(٤) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا جرير ، عن المغيرة ، عن الشعبى قال : كانت زينب تقول للنبى صلى الله عليه وسلم : إنى لأدِلُ عليك بثلاث ، ما من نسائك امرأة تدل بهن : إن جدى وجدك واحد ، وإنى أنكحنيك الله من السماء ، وإن السفير جبريل عليه السلام(٥) .

وقوله : (لكيلا يكون على المؤمنين حَرَج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً) ، أى : إنما أبحنا لك تزويجها وفعلنا ذلك ، لئلا يبقى حرج على المؤمنين فى تزويج مطلقات الأدعياء ، وذلك أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان قبل النبوة قد تبنى زيد بن حارثة ، فكان يقال له : « زيد بن محمد » ، فلما قطع الله هذه النسبة بقوله تعالى : (وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) ، ثم زاد ذلك بياناً وتأكيداً بوقوع تزويج رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش لما طلقها زيد بن حارثة ، ولهذا قال فى آية التحريم : (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم (٦)) ليحترز من الابن الدعىّ ، فإنّ ذلك كان كثيرا فيهم .

وقوله : (وكان أمر الله مفعولا) ، أى : وكان هذا الأمر الذى وقع قد قدره الله تعالى وحتّمه ، وهو كائن لا محالة ، كانت زينب فى علم الله ستصير من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم .

مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨)

يقول تعالى : (ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له) ، أى : فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب التى طلقها دَعِيّه زيد بن حارثة .

(١) مسند الإمام أحمد : ٣/١٩٥ — ١٩٦ .
(٢) مسلم ، كتاب النكاح ، باب « زواج زينب بنت جحش ، ونزول الحجاب ، وإثبات وليمة العرس » : ٤/١٤٨ — ١٤٩ .
(٣) البخارى ، كتاب التوحيد : ٩/١٥٢ .
(٤) انظر تفسير الآية ١١ من سورة النور : ٦/٢٥ .
(٥) تفسير الطبرى : ٢٢/١١ .
(٦) سورة النساء ، آية : ٢٣ .

وقوله : (سنة الله فى الذين خلوا من قبل) ، أى : هذا حكم الله فى الأنبياء قبله ، لم يكن ليأمرهم بشىء وعليهم فى ذلك حَرَج ، وهذا رَدٌّ على من تَوَهَّم من المنافقين نقصاً فى تزويجه امرأة زيد مولاه ودَعِيه الذى كان قد تبناه

(وكان أمر الله قدراً مقدوراً) ، أى : وكان أمره الذى يقدره كائناً لا محالة ، وواقعاً لا محيد عنه ولا معدل ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن :

ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

يمدح تعالى : (الذين يبلغون رسالات الله) ، أى : إلى خلقه ويؤدونها بأماناتها ، (ويخشونه) أى : يخافونه ولا يخافون أحداً سواه فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله ، (وكفى بالله حسيبا) ، أى : وكفى بالله ناصراً ومعيناً : وسيد الناس فى هذا المقام ــ بل وفى كل مقام ــ محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب ، إلى جميع أنواع بنى آدم ، وأظهر الله كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع ، فإنه قد كان النبى يبعث إلى قومه خاصة ، وأما هو ــ صلوات الله عليه ــ فإنه بُعث إلى جميع الخلق عَرَبهم وعجمهم ، (قل : يا أيها الناس ، إنى رسول الله إليكم جميعاً(١)) ، ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده ، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه رضى الله عنهم ، بلغوا عنه كما أمرهم به فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله ، فى ليله ونهاره ، وحَضَره وسفره ، وسرّه وعلانيته ، فرضى الله عنهم وأرضاهم . ثم وَرِثه كُلُّ خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا ، فبنورهم يقتدى المهتدون ، وعلى منهجهم يسلك الموفقون . فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم .

قال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير ، أخبرنا الأعمش ، عن عمرو بن مُرَّة ، عن أبى البَخْتَرِىّ ، عن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « لا يَحْقِرَنَّ أحدكم نفسه أن يرى أمر الله فيه مقال ثم لا يقوله ، فيقول الله : ما يمنعك أن تقول فيه ؟ فيقول : رب ، خشيت الناس . فيقول : فأنا أحق أن يخشى(٢) » .

ورواه أيضاً عن عبد الرزاق ، عن الثورى ، عن زُبيد ، عن عمرو بن مرة(٣) .

ورواه ابن ماجه ، عن أبى كُرَيب ، عن عبد الله بن نمير وأبى معاوية ، كلاهما عن الأعمش ، به(٤) .

وقوله : (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) ، نهى أن يقال بعد هذا « زيد بن محمد » ، أى : لم يكن أباه وإن كان قد تبناه ، فإنه ــ صلوات الله عليه وسلامه ــ لم يعش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم ؛ فإنه ولد له القاسم ، والطيب ، والطاهر ، من خديجة فماتوا صغارا ، وولد له إبراهيم من مارية القبطية ، فمات أيضا رضيعا . وكان له من خديجة أربع بنات : زينب ،

(١) سورة الأعراف ، آية : ١٥٨ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٣/٣٠ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٣/٧٣ .
(٤) سنن ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » ، الحديث ٤٠٠٨ : ٢/١٣٢٨ .

ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة رضى الله عنهم أجمعين ، فمات فى حياته ثلاث وتأخرت فاطمة حتى أصيبت به — صلوات الله وسلامه عليه — ثم ماتت بعده لستة أشهر .

وقوله : (ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شيء عليما) ، كقوله : (الله أعلم حيث يجعل رسالاته)(١)، فهذه الآية نص فى أنه لانبى بعده ، وإذا كان لانبى بعده فلا رسول بطريق الأولى والأحرى ؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبى ، ولا ينعكس . وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث جماعة من الصحابة .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عامر الأزدى ، حدثنا زهير بن محمد ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن الطفيل بن أبىّ بن كعب ، عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «مثلى فى النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها ، وترك فيها موضع لَبِنة لم يَضَعها ، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ، ويقولون : لو تم موضع هذه اللبنة ! فأنا فى النبيين موضع تلك اللبنة » (٢) .

ورواه الترمذى ، عن بندار ، عن أبى عامر العقدى ، به ، وقال : حسن صحيح (٣) .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا المختار بن فُلْفُل ، حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الرسالة والنبوة قد انقطعت ، فلا رسول بعدى ولا نبى . قال : فشقّ ذلك على الناس قال : قال : ولكن المبشرات . قالوا : يارسول الله ، وما المبشرات ؟ قال : رؤيا الرجل المسلم ، وهى جزء من أجزاء النبوة (٤) .

وهكذا روى الترمذى عن الحسن بن محمد الزعفرانى ، عن عفان بن مسلم به ، وقال : صحيح غريب من حديث المختار بن فُلفل (٥) .

حديث آخر ، قال أبو داود الطيالسى : حدثنا سَليم بن حَيّان ، عن سعيد بن ميناء ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لَبِنة ، فكان من دخلها فنظر إليها قال : ماأحسنها إلا موضع هذه اللبنة ! فأنا موضع اللبنة ، خُتِم بى الأنبياء عليهم السلام (٦) .

ورواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، من طرق ، عن سليم بن حيان ، به . وقال الترمذى : صحيح غريب من هذا الوجه (٧) .

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ١٢٤ . و (رسالاته) هكذا بالجمع فى مخطوطة الأزهر ، وقد نبهنا على ذلك عند تفسير هذه الآية ، انظر : ٣/٣٢٤ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٥/١٣٦ — ١٣٧ .

(٣) تحفة الأحوذى ، أبواب الفضائل ، الحديث ٣٦٩٢ : ١٠/٨١ — ٨٢ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٣/٢٦٧ .

(٥) تحفة الأحوذى ، أبواب الرؤيا ، باب «ذهبت النبوة وبقيت المبشرات» ، الحديث ٢٣٧٤ : ٦/٥٥١ — ٥٥٣ .

(٦) منحة المعبود ، كتاب السيرة النبوية ، باب «ما جاء فى نسبه صلى الله عليه وسلم» : ٢/٨٥ — ٨٦ .

(٧) البخارى ، كتاب المناقب ، باب «خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم» : ٤/٢٢٦ . ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب «ذكر كونه — صلى الله عليه وسلم — خاتم النبيين» : ٧/٦٥ . وتحفة الأحوذى ، باب الأمثال ، أبواب «ما جاء مثل النبى والأنبياء صلى الله عليه وعليهم أجمعين وسلم» ، الحديث ٣٠٢٢ : ٨/١٥٨ — ١٦٠ .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مثلى ومثل النبيين [من قبلى (١)] كمثل رَجُل بنى داراً فأتمها إلا لَبِنَة واحدة ، فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة (٢) . انفرد بإخراجه مسلم من رواية الأعمش ، به (٣) .

حديث آخر ، قال أحمد : حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا عثمان بن عُبَيد الراسبي قال : سمعت أبا الطفيل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لانبوة بعدى إلا المبشرات. قال : قيل : وما المبشرات يارسول الله؟ قال : الرؤيا الحسنة ـ أو قال ـ : الرؤيا الصالحة (٤) .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن هَمّام بن مُنَبّه قال : هذا ماحدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل ابتنى بيوتا فأحسنها وأكملها وأجملها ، إلا موضع لَبِنة من زاوية من زواياها ، فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان ويقولون: ألا وَضَعت هاهنا لبنة فيتم بنيانك؟! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فكنت أنا اللبنة (٥) . .

أخرجاه من حديث عبد الرزاق (٦) .

حديث آخر ، عن أبي هريرة أيضا ، قال الإمام مسلم : حدثنا يحيى بن أيوب وقتيبة وعلى بن حجر قالوا : حدثنا إسماعيل ابن جعفر ، عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فُضّلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض طهورا ومسجدا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بى النبيون (٧) .

ورواه الترمذى وابن ماجه ، من حديث إسماعيل بن جعفر ، وقال الترمذى : حسن صحيح (٨) .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ، كمثل رجل بنى داراً فأتمها إلا موضع لبنة واحدة ، فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة (٩) .

ورواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة ، وأبي كريب ، كلاهما عن أبي معاوية ، به .

(١) ما بين القوسين عن المسند .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٣/٩ .
(٣) مسلم ، كتاب الفضائل ، باب « ذكر كونه ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاتم النبيين » : ٧/٦٥ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٥/٤٥٤ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٢/٣١٢ .
(٦) وقع لنا حديث عبد الرزاق فى مسلم ، كتاب الفضائل : ٧/٦٤ .
(٧) مسلم ، كتاب المساجد : ٢/٦٤ .
(٨) تحفة الأحوذى ، أبواب السير ، باب « ما جاء فى الغنيمة » ، الحديث ١٥٩٤ : ٥/١٦٠ ـ ١٦٢ .
(٩) تقدم هذا الحديث من قريب ، وخرجناه .

حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سُوَيد الكلبى، عن عبد الأعلى بن هلال السلمى، عن العرباض بن سارية قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم: «إنى عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل فى طينته» (١).

حديث آخر، قال الزهرى: أخبرنى محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «إن لى أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى، وأنا العاقب الذى ليس بعده نبى». أخرجاه فى الصحيحين (٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن عبد الله بن هُبيرة، عن عبد الرحمن بن جبير قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: خرج علينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوما كالمودّع، فقال: «أنا محمد النبى الأمى - ثلاثا - ولا نبى بعدى: أوتيت فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه، وعلمت كم خزنة النار وحملة العرش، وتجوّز (٣) بى، وعُوفيتُ وعُوفيتْ أمتى، فاسمعوا وأطيعوا مادمت فيكم، فإذا ذُهِب بى فعليكم بكتاب الله، أحلوا حلاله وحرموا حرامه». تفرد به الإمام أحمد (٤).

ورواه أحمد أيضا عن يحيى بن إسحاق، عن ابن لهيعة، عن عبد الله بن هُبيرة، عن عبد الله بن مريج (٥) الخولانى، عن أبى قيس - مولى عمرو بن العاص - عن عبد الله بن عمرو فذكر مثله سواء (٦).

والأحاديث فى هذا كثيرة، فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد - صلوات الله وسلامه عليه - إليهم، ثم من تشريفه له ختم الأنبياء والمرسلين به، وإكمال الدين الحنيف له. وقد أخبر تعالى فى كتابه، ورسوله فى السنة المتواترة عنه: أنه لا نبى بعده ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك، دجال ضال مضل، ولو تخرق وشعبذ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيْرَجيَّات (٧)، فكلها محال وضلال عند أولى الألباب، كما أجرى الله سبحانه وتعالى على يد الأسود العنْسى باليمن، ومسيلمة الكذاب باليمامة، من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة، ما علم كل ذى لب وفهم وحِجًى أنهما كاذبان ضالان، لعنهما الله. وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال، يخلق الله معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها. وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه، فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر إلا على سبيل الاتفاق، أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره، ويكون فى غاية الإفك والفجور فى أقوالهم وأفعالهم،

---

(١) مسند الإمام أحمد: ٤/١٢٧. وقد تقدم تفسير كلمة «منجدل» فى: ١/٢٥٢.

(٢) البخارى، كتاب المناقب، باب «ما جاء من أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم»: ٣/٢٢٥. ومسلم، كتاب الفضائل، باب «فى أسمائه صلى الله عليه وسلم»: ٧/٨٩.

(٣) معناه - والله أعلم - أنه تعالى خفف عن أمته بسببه.

(٤) مسند الإمام أحمد: ٢/٢١٢.

(٥) كذا فى المسند. وفى المخطوطة تحتمل أن تقرأ: «سريج» بالسين. ولم نجد «عبد الله» هذا.

(٦) مسند الإمام أحمد: ٢/١٧٢.

(٧) كذا فى مخطوطة الأزهر. وفى القاموس المحيط: «النيرنج» - بكسر النون، وسكون الياء، وفتح الراء، ونون ثانية ساكنة -: أخذ كالسحر، وليس به. ويقول الزبيدى فى تاج العروس: «والمنقول من نص كلام الليث: النيرج بإسقاط النون الثانية».

كما قال تعالى: (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم) (١) .. الآية . وهذا بخلاف الأنبياء ــ عليهم السلام ــ فإنهم فى غاية البر والصدق والرشد والاستقامة فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرون به وينهون عنه، مع مايؤيدون به من الخوارق للعادات ، والأدلة الواضحات ، والبراهين الباهرات . فصلوات الله وسلامه عليهم دائما مستمراً مادامت الأرض والسموات .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تعالى المنعم عليهم بأنواع النعم وأصناف المنن ، لما لهم فى ذلك من جزيل الثواب ، وجميل المآب .

قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، عن عبد الله بن سعيد ، حدثنى مولى ابن عياش عن أبى بحرية ، عن أبى الدرداء ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق (٢) ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا : وما هو يا رسول الله ؟ قال : ذكر الله عز وجل »(٣) .

وهكذا رواه الترمذى وابن ماجه ، من حديث عبد الله بن سعيد بن أبى هند ، عن زياد ــ مولى ابن عياش ــ عن أبى بحرية ــ واسمه عبد الله بن قيس التراغمى ــ عن أبى الدرداء ، به . قال الترمذى : ورواه بعضهم عنه فأرسله (٤) .

قلت : وقد تقدم هذا الحديث عند قوله تعالى : (والذاكرين الله كثيراً والذاكرات) فى مسند أحمد ، من حديث زياد بن أبى زياد مولى عبد الله بن عيّاش : أنه بلغه عن معاذ بن جبل ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بنحوه ، فالله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا فرج بن فضالة ، عن أبى سعد الحمصى قال : سمعت أبا هريرة يقول : دعاء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أدعه : اللهم اجعلنى أعظم شكرك ، وأتبع نصيحتك ، وأكثر ذكرك ، وأحفظ وصيتك (٥) .

ورواه الترمذى عن يحيى بن موسى ، عن وكيع ، عن أبى فضالة الفرج بن فضالة ، عن أبى سعيد (٦) الحمصى ، عن أبى هريرة ، فذكر مثله وقال : غريب .

---

(١) سورة الشعراء ، آية : ٢٢١ ــ ٢٢٢ .
(٢) فى المخطوطة : « إنفاق الذهب » . والورق : الفضة .
(٣) مسند الإمام أحمد : ١٩٥/٥ .
(٤) تحفة الأحوذى ، أبواب الدعوات ، الحديث ٧٤٣٧ : ٣١٧/٩ ــ ٣١٨ . وابن ماجه ، كتاب الأدب ، باب « فضل الذكر » ، الحديث ٣٧٩٠ : ١٢٤٥/٢ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٤٧٧/٢ .
(٦) الذى فى تحفة الأحوذى ، أبواب الدعوات ، الحديث ٣٦٦٧ : ٦٧/١٠ « عن أبى سعيد المقبرى » .

وهكذا رواه الإمام أحمد أيضا عن أبي النضر هاشم بن القاسم ، عن فرج بن فضالة ، عن أبي سعيد المدني عن أبي هريرة فذكره (١).

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، عن معاوية بن صالح ، عن عمرو بن قيس قال : سمعت عبد الله ابن بُسْر يقول : جاء أعرابيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أحدهما : يا رسول الله ، أيّ الناس خير ؟ قال : من طال عمره وحسن عمله . وقال الآخر : يا رسول الله ، إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا ، فمرني بأمر أتشبث (٢) به ، قال : « لا يزال لسانك رَطْباً بذكر الله » (٣) .

وروى الترمذى وابن ماجه الفصلَ الثانى ، من حديث معاوية بن صالح ، به . وقال الترمذى : « حسن غريب (٤) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سُرَيج ، حدثنا ابن وهب ، عن عمرو بن الحارث قال : إنّ دَرّاجا أبا السمح حدثه ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أكثروا ذكر الله حتى يقولوا : مجنون (٥) » .

وقال الطبرانى : حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنا عقبة بن مُكْرَم العَمّى ، حدثنا سعيد بن سفيان الجَحدرى ، حدثنا الحسن بن أبي جعفر ، عن عقبة بن أبي ثُبَيت الراسبى ، عن أبي الجوزاء ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذكروا الله ذكراً كثيراً [حتى] يقول المنافقون : تراءون .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم ، حدثنا شداد أبو طلحة الراسبى ، سمعت أبا الوازع جابر ابن عمرو (٦) يحدث عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من قوم جلسوا مجلسا لم يذكروا الله فيه ، إلا رأوه حسرة يوم القيامة » (٧) .

وقال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : (اذكروا الله ذكراً كثيرا) : إن الله لم يفرض [على عباده] فريضة إلا [جعل لها حدا معلوما ، ثم] عذر أهلها فى حال عذر ، غير الذكر ، فإن الله لم يجعل له حداً ينتهى [إليه] ، ولم يعذر أحداً فى تركه ، إلا مغلوبا على تركه (٨) ، فقال : (فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم) ، بالليل والنهار ، [فى البر والبحر] ، وفى السفر والحضر ، والغنى والفقر ، والصحة والسقم ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال . وقال : (وسبحوه بكرة وأصيلا) ، فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته (٩) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢/٣١١ .
(٢) فى المسند : « أتشبث به » . وما فى الترمذى وابن ماجه يوافق نص ابن كثير .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٤/١٩٠ .
(٤) تحفة الأحوذى ، أبواب الدعوات ، باب « ما جاء فى فضل الذكر » ، الحديث ٣٤٣٥ : ٩/٣١٤ - ٣١٥ ، وسنن ابن ماجه ، كتاب الأدب ، باب « فضل الذكر » ، الحديث ٣٧٩٣ : ٢/١٢٤٦ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٣/٦٨ .
(٦) فى المسند : « سمعت أبا الوازع جاء وعمرو يحدث » . وهو خطأ ، والصواب ما هنا ، وانظر الخلاصة .
(٧) مسند الإمام أحمد : ٢/٢٢٤ .
(٨) فى تفسير الطبرى : « إلا مغلوبا على عقله » .
(٩) تفسير الطبرى ، ٢٢/١٣ . وما بين الأقواس منه .

والأحاديث والآيات والآثار في الحث على ذكر الله كثيرة جدا ، وفى هذه الآية الكريمة الحث على الإكثار من ذلك ، وقد صنف الناس فى الأذكار المتعلقة بآناء الليل والنهار كالنسائي والمعمرى وغيرهما . ومن أحسن الكتب المؤلفة فى ذلك كتاب الأذكار للشيخ محيي الدين النووى رحمه الله تعالى .

وقوله : (وسبحوه بكرة وأصيلا) ، أى : عند الصباح والمساء ، كقوله : (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون) (١) .

وقوله : (هو الذى يصلى عليكم وملائكته) ، هذا تهييج إلى الذكر ، أى : إنه سبحانه يذكركم فاذكروه انتم ، كقوله تعالى : (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ، ويعلمكم الكتاب والحكمة ، ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون . فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون) (٢) . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : يقول الله : من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم (٣) .

والصلاة من الله ثناؤه على العبد عند الملائكة ، حكاه البخارى عن أبى العالية (٤) . ورواه أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عنه .

وقال غيره : الصلاة من الله الرحمة .

وقد يقال : لا منافاة بين القولين والله أعلم .

وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار ، كقوله : (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا ، وسعت كل شيء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات) (٥) ... الآية .

وقوله : (ليخرجكم من الظلمات إلى النور) ، أى : بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم ، ودعاء ملائكته لكم ، يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين ، (وكان بالمؤمنين رحيما) ، أى : فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فإنه هداهم إلى الحق الذى جهله غيرهم ، وبصرهم الطريق الذى ضل عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأشياعهم من الطغام . وأما رحمته بهم فى الآخرة فآمنهم من الفزع الأكبر ، وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار ، وما ذاك إلا لمحبته لهم ورأفته بهم .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن أبى عدى ، عن حميد ، عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : مر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى نفر من أصحابه وصبى فى الطريق ، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ ، فأقبلت تسعى

(١) سورة الروم ، آية : ١٧ ، ١٨ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ١٥١ ، ١٥٢ .
(٣) البخارى ، كتاب التوحيد : ٨/١٤٧ — ١٤٨ . ومسلم ، كتاب الذكر ، باب « الحث على ذكر الله تعالى » : ٨/٨٢ .
(٤) البخارى ، تفسير سورة الأحزاب : ٦/١٥١ .
(٥) سورة غافر ، الآيات : ٧ — ٩ .

وتقول : ابنى ! ابنى ! وَسَعَت فأخذته ، فقال القوم : يارسول الله، ما كانت هذه لتلقى ابنها فى النار. قال : فَخَفَّضهم(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ولا (٢) الله ، لا يلقى حبيبه فى النار (٣) » .

إسناده على شرط الصحيحين ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ، ولكن فى صحيح الإمام البخارى ، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى امرأة من السبى قد أخذت صبيا لها ، فألصقته إلى صدرها ، وأرضعته فقال : « أترون هذه تلقى ولدها فى النار وهى تقدر على ذلك ؟ قالوا : لا . قال : فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها (٤) » .

وقوله : (تحيتهم يوم يلقونه سلام) ، الظاهر أن المراد — والله أعلم — (تحيتهم) أى : من الله تعالى يوم يلقونه (سلام) ، أى : يوم يسلم عليهم كما قال تعالى : (سلام قولا من رب رحيم) (٥) .

وزعم قتادة أن المراد أنهم يحيى بعضهم بعضا بالسلام ، يوم يلقون الله فى الدار الآخرة . واختاره ابن جرير(٦) :

قلت : وقد يستدل بقوله تعالى : (دعواهم فيها سبحانك اللهم ، وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) (٧) .

وقوله : (وأعد لهم أجراً كريماً) ، يعنى : الجنة وما فيها من المآكل والمشارب ، والملابس والمساكن ، والمناكح والملاذ والمناظر وما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا فُلَيح بن سليمان ، عن هلال بن على ، عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عَمرو بن العاص فقلت : أخبرنى عن صفة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى التوراة . قال : أجل ، والله إنه لموصوف فى التوراة بصفته فى القرآن : (يا أيها النبى ، إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) ، وحرزا للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل لست بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق . ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضَه الله حتى يقيمَ به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتح بها أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا (٨) .

---

(١) أى : سكنهم حتى يتنبهوا لما يلقى عليهم .
(٢) فى المخطوطة : « لا والله » . والمثبت عن المسند . ولكن فى رواية أخرى فى المسند ٣/٢٣٥ : « لا والله » .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٣/١٠٤ .
(٤) البخارى ، كتاب الأدب ، باب « رحمة الولد » : ٨/٩ .
(٥) سورة يس ، آية : ٥٨ .
(٦) تفسير الطبرى : ٢٢/١٣ — ١٤ .
(٧) سورة يونس ، آية : ١٠
(٨) مسند الإمام أحمد : ٢/١٧٤ .

وقد رواه البخاري في « البيوع » عن محمد بن سنان ، عن فليح بن سليمان ، عن هلال بن علي به ؛ ورواه في التفسير عن عبد الله ــ قيل : ابن رجاء ، وقيل : ابن صالح ــ عن عبد العزيز بن أبي سلمة ، عن هلال ، عن عطاء بن يسار ، عن عبد الله بن عمرو (١) به ؛ ورواه ابن أبي حاتم ، عن أبيه ، عن عبد الله بن رجاء ، عن عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون ، به .

وقال البخاري في البيوع : وقال سعيد ، عن هلال ، عن عطاء ، عن عبد الله بن سلام (١) .

وقال وهب بن منبه : إن الله أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل ــ يقال له : شعياء ــ : أن قم في قومك بني إسرائيل ، فإني منطق لسانك بوحي وأبعث أميا من الأميين ، أبعثه ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه ، من سكينته ، ولو يمشي على القصب لم يسمع من تحت قدميه ، أبعثه مبشرا ونذيرا ، لا يقول الخنا ، أفتح به أعينا كُمْهاً(٢) ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا ، أسدّده لكل أمر جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة منطقه ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والحق شريعته ، والعدل سيرته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملته ، وأحمد اسمه ، أهدي به بعد الضلالة ، وأعلم به بعد الجهالة ، وأرفع به بعد الخَمَالة ، وأعرف به بعد النَّكْرَة ، وأكثر به بعد القلة ، وأغني به بعد العَيْلَة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف به بين أمم متفرقة ، وقلوب مختلفة ، وأهواء متشتتة ، وأستنقذ به فئاماً من الناس عظيمة من الهلكة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، موحدين مؤمنين مخلصين ، مصدقين لما جاءت به رسلي (٣) ، ألهمهم التسبيح والتحميد ، والثناء والتكبير والتوحيد ، في مساجدهم ومجالسهم ، ومضاجعهم ومنقلبهم ومثواهم ، يصلون لي قياما وقعودا ، ويقاتلون في سبيل الله صفوفا وزَحوفا ، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مرضاتي ألوفا ، يطهرون الوجوه والأطراف ، ويشدون الثياب في الأنصاف ، قربانهم دماؤهم ، وأناجيلهم في صدورهم ؛ رهبان بالليل ليوث بالنهار ، وأجعل في أهل بيته وذريته السابقين ، والصديقين والشهداء والصالحين ، أمته من بعده يهدون بالحق وبه يعدلون ، أعز من نصرهم ، وأؤيد من دعا لهم ، وأجعل دائرة السوء على من خالفهم أو بغى عليهم ، أو أراد أن ينتزع شيئا مما في أيديهم ؛ أجعلهم ورثة لنبيهم ، والداعية إلى ربهم ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويوفون بعهدهم ، أختم بهم الخير الذي بدأته بأولهم ، ذلك فضلي أوتيه من أشاء ، وأنا ذو الفضل العظيم .

هكذا رواه ابن أبي حاتم ، عن وهب بن منبه اليماني رحمه الله .

ثم قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبد الرحمن بن صالح ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله العَرْزَمِيّ ، عن شيبان النحوي ، أخبرني قتادة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) ــ وقد كان أمر عليا ومعاذا أن يسيرا إلى اليمن ــ فقال : « انطلقا فبشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا ، إنه قد أنزل علي : (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) » .

---

(١) البخاري ، كتاب البيوع ، باب « كراهية السخب في الأسواق » : ٣/٨٧ . وتفسير سورة الفتح : ٦/١٦٩ ــ ١٧٠ .

(٢) الكمه ــ بضم فسكون ــ : جمع أكمه ، وهو الأعمى .

(٣) إلى هنا تقدمت سياقة هذا الأثر في تفسير سورة النور ، عند الآية ٥٥ منها ، وخرجناه هنالك وشرحنا غريبه ، انظر : ٦/٨٣ .

ورواه الطبراني عن محمد بن نصر بن حميد البزاز البغدادى ، عن عبد الرحمن بن صالح الأزدى ، عن عبد الرحمن [بن محمد] بن عبيد الله العرزمى ، بإسناده مثله . وقال فى آخره : « فإنه قد أنزل على : يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا على أمتك ومبشرا بالجنة ، ونذيرا من النار ، وداعيا إلى شهادة أن لا إله إلا الله بإذنه ، وسراجا منيرا بالقرآن » .

وقوله : (شاهدا) ، أى : لله بالوحدانية ، وأنه لا إله غيره ، وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة، (وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) ؛ [كقوله : (لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا)] (١) .

وقوله : (ومبشرا ونذيرا) ، أى : بشيرا للمؤمنين بجزيل الثواب ، ونذيرا للكافرين من وبيل العقاب .

وقوله : (وداعيا إلى الله بإذنه) ، أى : داعيا للخلق إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك ، (وسراجا منيرا) ، أى : وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق ، كالشمس فى إشراقها وإضاءتها ، لا يجحدها إلا معاند .

وقوله : (ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم) ، أى : لا تطعهم وتسمعَ منهم فى الذى يقولونه ، (ودع أذاهم) ، أى : اصفح وتجاوز عنهم ، وكِلْ أمرهم إلى الله ، فإن فيه كفايةً لهم ، ولهذا قال : (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩)

هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة ، منها : إطلاق النكاح على العقد وحده ، وليس فى القرآن آية أصرح فى ذلك منها ، وقد اختلفوا فى النكاح : هل هو حقيقة فى العقد وحده ، أو فى الوطء ، أوفيهما ؟ على ثلاثة أقوال ، واستعمال القرآن إنما هو فى العقد والوطء بعده ، إلا فى هذه الآية فإنه استعمل فى العقد وحده ، لقوله : (إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) . وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها .

وقوله : (المؤمنات) خرج مخرج الغالب ؛ إذ لا فرق فى الحكم بين المؤمنة والكتابية فى ذلك بالاتفاق . وقد استدل ابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، والحسن البصرى ، وعلى بن الحسين زين العابدين ، وجماعة من السلف بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح ، لأن الله تعالى قال : (إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن) ، فعقب النكاح بالطلاق ، فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله . وهذا مذهب الشافعى ، وأحمد بن حنبل ، وطائفة كثيرة من السلف والخلف رحمهم الله تعالى .

وذهب مالك وأبو حنيفة رحمهما الله إلى صحة الطلاق قبل النكاح ؛ فيما إذا قال : « إن تزوجت فلانة فهى طالق » ، فعندهما متى تزوجها طلقت منه . واختلفا فيما إذا قال : « كل امرأة أتزوجها فهى طالق » ، فقال مالك : لا تطلق حتى يعين المرأة . وقال أبو حنيفة رحمه الله : كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه ، فأما الجمهور فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٤٣ .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن منصور المروزى ، حدثنا النضر بن شميل ، حدثنا يونس — يعنى ابن أبي إسحاق — سمعت آدم مولى خالد، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : [إذا قال] : «كل امرأة أتزوجها فهى طالق» ، قال : ليس بشىء من أجل أن الله تعالى يقول : (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن) ... الآية .

وحدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسى ، حدثنا وكيع ، عن مطر ، عن الحسن بن مسلم بن يَنّاق ، عن ابن عباس قال : إنما قال الله تعالى : (إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن) ، ألا ترى أن الطلاق بعد النكاح .

وهكذا روى محمد بن إسحاق ، عن داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال الله : (إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن) فلا طلاق [قبل النكاح] .

وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك (١) » رواه الإمام أحمد والترمذى ، وأبو داود ، وابن ماجه . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن » ، وهو أحسن شىء رُوى فى هذا الباب . وهكذا روى ابن ماجه عن على ، والمِسْوَر بن مخرمة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا طلاق قبل نكاح (٢) » .

وقال : (فما لكم عليهن من عدة تعتدونها)، هذا أمر مجمع عليه بين العلماء : أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها فتذهب فتتزوج فى فورها من شاءت ، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها ، فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشراً ، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضا .

وقوله : (فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا) ، المتعة هاهنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى ، أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمى لها ، قال الله تعالى : (وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة ، فنصف ما فرضتم)(٣) وقال : (لا جناح عليكم إن طلقتم النساء مالم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ، ومتعوهن على الموسع قدره ، وعلى المقتر قدره ، متاعا بالمعروف حقاً على المحسنين (٤)) .

وفى صحيح البخارى ، عن سهل بن سعد وأبي أسَيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج أميمة بنت شَرَاحيل ، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها ، فكأنها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسَيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقيَّين (٥) .

قال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس — رضى الله عنهما — : إن كان سمى لها صداقا فليس لها إلا النصف ، وإن لم يكن سمى لها صداقا فأمتعها على قدر عسره ويسره ، وهو السراح الجميل (٦) .

(١) مسند الإمام أحمد : ٢/١٨٩ ، ١٩٠ . وسنن أبي داود ، كتاب الطلاق ، باب « فى الطلاق قبل النكاح » . وتحفة الأحوذى ، أبواب الطلاق ، باب « ما جاء : لا طلاق قبل النكاح » ، الحديث ١١٩١ : ٤/٣٥٥ . وابن ماجه ، كتاب الطلاق ، باب « لا طلاق قبل النكاح » ، الحديث ٢٠٤٧ : ١/٦٦٠ .

(٢) سنن ابن ماجه ، فى الكتاب والباب المتقدمين ، الحديث ٢٠٤٨ ، ٢٠٤٩ : ١/٦٦٠ .

(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٣٧ .

(٤) سورة البقرة ، آية : ٢٣٦ .

(٥) البخارى ، كتاب الطلاق ، باب « من طلق ، وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق » : ٧/٥٣ وانظر تفسير سورة البقرة : ١/٤٢٤ ، فقد تقدم الحديث هنالك . وشرحنا غريبه .

(٦) تفسير الطبرى : ٢٢/١٥ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

يقول تعالى مخاطبا نبيه ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتى أعطاهن مُهُورَهُنّ ، وهى الأجور هاهنا . كما قاله مجاهد وغير واحد ، وقد كان مَهْرُه لنسائه اثنى عشرة أوقية ونَشًا (١) وهو نصف أوقية ، فالجميع خمسمائة درهم ، إلا أم حبيبة بنت أبى سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشى رحمه الله أربعمائة دينار ، وإلا صفية بنت حُيَىّ فإنه اصطفاها من سَبْى خيبر ، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها ، وكذلك جُوَيْرِية بنت الحارث المصطلقية ، أدّى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها(٢) ــ رضى الله عن جميعهن .

وقوله : (وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك) ، أى : وأباح لك التسرى مما أخذت من المغانم ، وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما ، وملك ريحانة بنت شمعون النضرية ، ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم عليه السلام ، وكانتا من السرارى رضى الله عنهما .

وقوله : (وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك) هذا عدل وَسَط بين الإفراط والتفريط ، فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعدا ، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته ، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى ، فأباح بنت العم والعمة ، وبنت الخال والخالة ، وتحريم ما فَرّطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت ، وهذا بشع فظيع .

وإنما قال : (وبنات عمك وبنات عماتك ، وبنات خالك وبنات خالاتك) فوَحَّدَ لفظ الذكر لشرفه ، وجمع الإناث لنقصهن كقوله : (عن اليمين والشمائل) (٣) ، (يخرجهم من الظلمات إلى النور) (٤) ، (وجعل الظلمات والنور) (٥) . وله نظائر كثيرة .

وقوله : (اللاتى هاجرن معك) ، قال ابن أبى حاتم رحمه الله :

---

(١) النش : نصف الأوقية ، وهو عشرون درهماً ، والأوقية أربعون .

(٢) أخرج ابن إسحاق بإسناده عن عائشة قالت : « لما قسم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ سبايا بنى المصطلق ، وقعت جويرية بنت الحارث فى السهم لثابت بن قيس بن الشماس ، أو لابن عم له ، فكاتبته عن نفسها » . وذكر أنها ذهبت إلى رسول الله تستعينه على كتابتها ، فقال لها الرسول : « أقضى عنك وأتزوجك . قالت : نعم ، يا رسول الله . قال : قد فعلت » . انظر سيرة ابن هشام : ٢/٢٩٤ ــ ٢٩٥ .

(٣) سورة النحل ، آية : ٤٨ .

(٤) سورة البقرة ، آية : ٢٥٧ .

(٥) سورة الأنعام ، آية : ١ .

حدثنا محمد بن عمار بن الحارث الرازى ، حدثنا عبيد الله بن موسى ، حدثنا إسرائيل ، عن السدى ، عن أبى صالح ، عن أم هانئ قالت : خطبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت إليه بعذرى ، ثم أنزل الله : (إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن، وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك) إلى قوله : (اللاتى هاجرن معك) ، قالت : فلم أكن أحل له ، ولم أكن ممن هاجر معه ، كنت من الطلقاء .

ورواه ابن جرير عن أبى كريب ، عن عبيد الله بن موسى ، به (١) .

ثم رواه ابن أبى حاتم من حديث إسماعيل بن أبى خالد ، عن أبى صالح ، عنها بنحوه .

ورواه الترمذى فى جامعه (٢) . وهكذا قال أبو رزين وقتادة : إن المراد : من هاجر معه إلى المدينة . وفى رواية عن قتادة : (اللاتى هاجرن معك) ، أى : أسلمن . وقال الضحاك : قرأ ابن مسعود : (واللاتى (٣) هاجرن معك) .

وقوله : (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى ، إن أراد النبى أن يستنكحها) ، أى : ويحل لك — يأيها النبى — المرأة المؤمنة إذا وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك . وهذه الآية توالى فيها شرطان ، كقوله تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه : (ولا ينفعكم نصحى ، إن أردت أن أنصح لكم ، إن كان الله يريد أن يغويكم (٤)) ، وكقول موسى : (يا قوم ، إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ، إن كنتم مسلمين (٥)) . وقال هاهنا : (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها) ، وقد قال الإمام أحمد :

حدثنا إسحاق ، أخبرنا مالك ، عن أبى حازم ، عن سهل بن سعد الساعدى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءته امرأة فقالت : يا رسول الله ، إنى قد وهبت نفسى لك . فقامت قياما طويلا ، فقام رجل فقال : يا رسول الله ، زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل عندك من شىء تصدقها إياه ؟ فقال : ما عندى إلا إزارى هذا ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك ، فالتمس شيئاً . فقال : لا أجد شيئاً . فقال : التمس ولو خاتما من حديد. فالتمس فلم يجد شيئا، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : هل معك من القرآن شىء؟ قال : نعم ، سورة كذا ، وسورة كذا — لسور يسميها — فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : زوجتكها بما معك من القرآن (٦) .

أخرجاه من حديث مالك (٧) .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٢/١٥ .

(٢) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الأحزاب ، الحديث ٣٢٦٦ : ٩/٧٤ — ٧٦ .

(٣) أخرج الطبرى هذه القراءة : ٢٢/١٦ . وذكر بإسناده إلى الضحاك : « فى حرف ابن مسعود (واللاتى هاجرن معك) يعنى بذلك كل شىء هاجر معه ، ليس من بنات العم والعمة ، ولا من بنات الخال والخالة » . وواضح أن قراءة ابن مسعود بزيادة واو .

(٤) سورة هود ، آية : ٣٤ .

(٥) سورة يونس ، آية : ٨٤ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٥/٣٣٦ .

(٧) البخارى ، كتاب النكاح ، باب « عرض المرأة نفسها » : ٧/١٧ . ومسلم ، كتاب النكاح ، باب « الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم حديد » : ٤/١٤٣ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا مرحوم ، سمعت ثابتا يقول : كنت مع أنس جالسا وعنده ابنة له ، فقال أنس : جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا نبي الله ، هل لك فيَّ حاجة ؟ فقالت ابنته : ما كان أقل حياءها ، فقال : هي خير منك ، رغبت في النبي ، فعرضت عليه نفسها (١) .

انفرد بإخراجه البخاري ، من حديث مرحوم بن عبد العزيز ، عن ثابت البناني ، عن أنس ، به (٢) .

وقال أحمد أيضا : حدثنا عبد الله بن بكر ، حدثنا سنان بن ربيعة ، عن الحضرمي ، عن أنس بن مالك : أن امرأة أتت النبي — صلى الله عليه وسلم — فقالت : يا رسول الله ؟ ابنة لي كذا وكذا . فذكرت من حسنها وجمالها ، فآثرتك بها . فقال : قد قبلتها . فلم تزل تمدحها حتى ذكرت أنها لم تصدع ولم تَشتَكِ شيئاً قط ، فقال : لا حاجة لي في ابنتك (٣) . لم يخرجوه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا منصور بن أبي مزاحم ، حدثنا ابن أبي الوضاح — يعني محمد بن مسلم — عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم خولة بنت حكيم .

وقال ابن وهب ، عن سعيد بن عبد الرحمن وابن أبي الزناد ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه : أن خولة بنت حكيم ابن الأوقص ، من بني سُلَيم ، كانت من اللاتي وَهَبْنَ أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي رواية له عن سعيد بن عبد الرحمن ، عن هشام ، عن أبيه : كنا نتحدث أن خولة بنت حكيم كانت وهبت نفسها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت امرأة صالحة .

فيحتمل أن أم سليم هي خولة بنت حكيم ، أو هي امرأة أخرى .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي ، حدثنا وكيع ، حدثنا موسى بن عبيدة ، عن محمد بن كعب ، وعمر بن الحكم ، وعبد الله بن عبيدة قالوا : تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة امرأة ، ست من قريش : خديجة ، وعائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة . وثلاث من بني عامر بن صعصعة ، وامرأتان من بني هلال ابن عامر : ميمونة بنت الحارث ، وهي التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم ، وزينب أم المساكين — امرأة من بني [أبي] بكر بن كلاب من القُرطاء(٤) ، وهي التي اختارت الدنيا . وامرأة من بني الجون ، وهي التي استعاذت منه ، وزينب بنت جحش الأسدية ، والسبيتان صفية بنت حيي بن أخطب ، وجويرية بنت الحارث بن عمرو بن المصطلق الخزاعية .

وقال سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن ابن عباس : (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي) ، قال : هي ميمونة بنت الحارث .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣/٢٦٨ .
(٢) البخاري ، في الكتاب والباب المتقدمين : ٧/١٧ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٣/١٥٥ .
(٤) انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ٢٨٢ .

فيه انقطاع . هذا مرسل ، والمشهور أن زينب التى كانت تدعى أم المساكين هى زينب بنت خزيمة الأنصارية ، وقد ماتت عند النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته ، فالله أعلم .

والغرض من هذا أن اللاتى وهبن أنفسهن من النبى صلى الله عليه وسلم كثير ، كما قال البخارى ، حدثنا زكريا بن يحيى ، حدثنا أبو أسامة قال : هشام بن عروة حدثنا عن أبيه ، عن عائشة قالت : كنت أغار من(١) اللاتى وهبن أنفسهن من النبى صلى الله عليه وسلم وأقول : أتهب امرأة نفسها ؟ فلما أنزل الله : (ترجى من تشاء منهن ، وتؤوى إليك من تشاء ، ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك) ، قلت : ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك (٢) .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا محمد بن منصور الجعفى ، حدثنا يونس بن بكير ، عن عنبسة بن الأزهر ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لم يكن عندرسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة وهبت نفسها له.

ورواه ابن جرير عن أبى كريب ، عن يونس بن بكير(٣). أى : إنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له ، وإن [كان] ذلك مباحاً له ومخصوصاً به ، لأنه مردود إلى مشيئته ، كما قال الله تعالى : (إن أراد النبى أن يستنكحها) ، أى : إن اختار ذلك .

وقوله : (خالصة لك من دون المؤمنين) ، قال عكرمة : أى لا تحل الموهوبة لغيرك ، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئاً . وكذا قال مجاهد والشعبى وغيرهما .

أى : إنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل فإنه متى دخل بها وجب لها عليه مهر مثلها ، كما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بروع بنت واشق لما فوضت ، فحكم لها رسول الله صلى الله عليه وسلم بصداق مثلها لما توفى عنها زوجها ، والموت والدخول سواء فى تقرير المهر وثبوت مهر المثل فى المفوضة لغير النبى صلى الله عليه وسلم ، فأما هو عليه السلام فإنه لا يجب عليه للمفوضة شىء ولو دخل بها ، لأن له أن يتزوج بغير صداق ولا ولى ولا شهود ، كما فى قصة زينب بنت جحش رضى الله عنها . ولهذا قال قتادة فى قوله : (خالصة لك من دون المؤمنين)، يقول : ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير ولى ولا مهر إلا للنبى صلى الله عليه وسلم .

[وقوله تعالى : (قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم)] ، قال أبى بن كعب ، ومجاهد ، والحسن، وقتادة وابن جرير(٤) فى قوله : (قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم) ، أى : من حصرهم فى أربع نسوة حرائر وما شاءوا من الإماء ، واشتراط الولى والمهر والشهود عليهم ، وهم الأمة ، وقد رخصنا لك فى ذلك ، فلم نوجب عليك شيئاً منه ، (لكيلا يكون عليك حرج ، وكان الله غفوراً رحيما) .

---

(١) فى الصحيح : «على اللاتى» .
(٢) البخارى ، تفسير سورة الأحزاب : ٦/١٤٧ .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٢/١٧ .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٢/١٧ - ١٨ .

* ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ۖ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١)﴾

قال الإمام احمد : حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضي الله عنها : أنها كانت تُعَيِّر النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : ألاتستحي المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق؟ فأنزل الله عز وجل : (ترجي من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك) ، قالت : إني أرى ربَّك يسارع لك في هواك(١) .

وقد تقدم أن البخارى رواه من حديث [أبي] أسامة ، عن هشام بن عروة ، فدل هذا على أن المراد بقوله : (ترجى)، أى : تؤخر(من تشاء منهن) ، أى : من الواهبات ، (وتؤوى إليك من تشاء) ، أى: من شئت قبلتها، ومن شئت رددتها ، ومن رددتها فأنت فيها أيضاً بالخيار بعد ذلك ، إن شئت عُدْتَ فيها فآويتها ، ولهذا قال : (ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك) ، قال عامر الشعبي في قوله : (ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء) كن نساء وهبن أنفسهن للنبي صلى الله عليه وسلم ، فدخل ببعضهن وأرجأ بعضهن لم يُنْكحن بعده ، منهن أم شريك .

وقال آخرون : بل المراد بقوله : (ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء) ، أى : من أزواجك، لاحرج عليك أن تترك القَسْم لهن ، فتقدم من شئت ، وتؤخر من شئت ، وتجامع من شئت ، وتترك من شئت .

هكذا يروى عن ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة، وأبي رَزين،وعبد الرحمن بن زيدبن أسلم ، وغيرهم ، ومع هذا كان صلوات الله وسلامه عليه يقسم لهن ، ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجباً عليه صلوات الله وسلامه عليه واحتجوا بهذه الآية الكريمة .

وقال البخارى : حدثنا حِبَّان بن موسى ، حدثنا عبد الله — هو ابن المبارك — أخبرنا عاصم الأحول ، عن مُعَاذة عن عائشة : أن رسول اللهصلى الله عليه وسلمكان يستأذن في يوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية : (ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ، ومن ابتغيت ممن عزلت فلاجناح عليك) ، فقلت لها : ماكنتِ تقولين ؟ فقالت : كنت أقول : إن كان ذاك إلى فاني لا أريد يارسول الله أن أوثر عليك أحداً(٢) .

فهذا الحديث عنها يدل على أن المراد من ذلك عدم وجوب القسم ، وحديثها الأول يقتضى أن الآية نزلت في الواهبات ، ومن هاهنا اختار ابن جرير أن الآية عامة فى الواهبات وفى النساء اللاتى عنده ، أنه مخير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم ، وهذا الذى اختاره حسن جيد قوى ، وفيه جمع بين الأحاديث ، ولهذا قال تعالى : (ذلك أدنى أن تقر أعينهن ، ولا يحزنّ ويرضين بما آتيتهن كلهن) ، أى : إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحَرَج في القسم ، فان شئت قسمت ، وإن شئت لم تقسم ، لاجناح عليك فى أى ذلك فعلتَ ، ثم مع هذا أنت تقسم لهن اختياراً منك لاأنه على سبيل الوجوب ، فرحن بذلك واستبشرن به وحملن جميلك فى ذلك ، واعترفن بمنتك عليهن فى قسمك لهن وتسويتك بينهن وإنصافك لهن وعدلك فيهن ،

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١٥٨/٦ .

(٢) البخارى ، تفسير سورة الأحزاب ، ١٤٧/٦ — ١٤٨ .

وقوله : ﴿والله يعلم ما في قلوبكم﴾ ، أي : من الميل إلى بعضهن دون بعض ، مما لايمكن دفعه ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا يزيد ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن أيوب ، عن أبي قلابة ، عن عبد الله بن يزيد ، عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول : اللهم هذا فعلى فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك(١)

ورواه أهل السنن الأربعة ، من حديث حماد بن سلمة ــ وزاد أبوداود بعد قوله : فلا تلمني فيما تملك ولا أملك ــ يعني القلب ، وإسناده صحيح ، ورجاله كلهم ثقات (٢) . ولهذا عقب ذلك بقوله : ﴿وكان الله عليماً﴾ ، أي : بضمائر السرائر ، ﴿حليماً﴾ ، أي : يحلم ويغفر .

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾

ذكر غير واحد من العلماء ــ كابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وابن زيد ، وابن جرير ، وغيرهم ــ : أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ورضاً عنهن ، على حسن صنيعهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة ، لما خيرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم في الآية . فلما اخترن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان جزاؤهن أن قصره عليهن ، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن ، أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن ، ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء والسراري فلا حجر عليه فيهن . ثم إنه تعالى رفع عنه الحجر في ذلك ونسخ حكم هذه الآية ، وأباح له التزوج ، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوّج لتكون المنة للرسول صلى الله عليه وسلم عليهن .

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن عطاء ، عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت : مامات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل الله له النساء .

ورواه أيضاً من حديث ابن جريج ، عن عطاء ، عن عبيد بن عمير ، عن عائشة . ورواه الترمذي(٣) والنسائي في سننيهما

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الملك بن شيبة ، حدثني عمر بن أبي بكر حدثني المغيرة بن عبد الرحمن الحزامي ، عن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله ، عن عبد الله بن وهب بن زمعة ، عن أم سلمة أنها قالت : لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ماشاء ، إلا ذات محرم ، وذلك قول الله عز وجل ﴿ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء﴾ .

فجعلت هذه ناسخة للتي بعدها في التلاوة ، كآيتي عدة الوفاة في البقرة ، الأولى ناسخة للتي بعدها ، والله أعلم .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١٤٤/٦ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب النكاح ، باب « في القسم بين النساء » ، وتحفة الأحوذي ، أبواب النكاح ، باب « ما جاء في التسوية بين الضرائر » ، الحديث ١١٤٩ : ٢٩٤/٤ . والنسائي ، كتاب عشرة النساء ، باب « ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض » : ٦٣/٧ ــ ٦٤ . وسنن ابن ماجه ، كتاب النكاح ، باب « القسمة بين النساء » ، الحديث ١٩٧١ : ٦٣٤/١ .

(٣) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة الأحزاب ، الحديث ٣٢٦٩ : ٧٨/٩ ــ ٧٩ .

وقال آخرون : بل معنى الآية : (لايحل لك النساء من بعد) ، أى : من بعد ما ذكرنا لك من صفة النساء اللاتى أحللنا لك من نسائك اللاتى آتيت أجورهن وماملكت يمينك، وبنات العم والعمات والخال والخالات والواهبة وماسوى ذلك من أصناف النساء فلا يحل لك ، هذا مرويّ عن أبى بن كعب ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك — فى رواية — وأبى رزين — فى رواية عنه — وأبى صالح ، والحسن ، وقتادة — فى رواية — والسدى ، وغيرهم .

قال ابن جرير : حدثنا يعقوب ، حدثنا ابن علية ، عن داود بن أبى هند ، حدثنى محمد بن أبى موسى ، عن زياد — رجل من الأنصار — قال : قلت لأبى بن كعب : أرأيت لو أن أزواج النبى — صلى الله عليه وسلم — تُوُفِّين ، أما كان له أن يتزوج ؟ فقال : وما يمنعه من ذلك ؟ قال : قلت : قوله : (لايحل لك النساء من بعد) . فقال : إنما أحل الله له ضربا من النساء ، فقال : (يا أيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك) إلى قوله : (إن وهبت نفسها للنبى) . ثم قيل له : (لايحل لك النساء من بعد(١)) .

ورواه عبد الله بن أحمد من طرق ، عن داود ، به . وروى الترمذى، عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصناف النساء ، إلا ماكان من المؤمنات المهاجرات بقوله : (لايحل لك النساء من بعد ، ولا أن تبدل بهن من أزواج ، ولو أعجبك حسنهن ، إلا ماملكت يمينك) ، فأحل الله فتياتكم المؤمنات (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى) ، وحرم كل ذات دين غير الإسلام ، ثم قال : (ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين) وقال: (يا أيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وماملكت يمينك) إلى قوله (خالصة لك من دون المؤمنين) ، وحرم ماسوى ذلك من أصناف النساء(٢) .

وقال مجاهد : (لايحل لك النساء من بعد) ، أى: من بعد ما سمى لك، لامسلمة ولايهودية ولانصرانية ولاكافرة(٣).

وقال أبو صالح : (لايحل لك النساء من بعد) ، أمر أن لايتزوج أعرابية ولاغريبة ، ويتزوج بعدُ من نساء تهامة ، وماشاء من بنات العم والعمة ، والخال والخالة ، إن شاء ثلاثمائة(٣) .

وقال عكرمة : (لايحل لك النساء من بعد) ، أى : التى سمى الله .

واختار ابن جرير رحمه الله أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف النساء ، وفى النساء اللواتى فى عصمته وكن تسعاً . وهذا الذى قاله جيد ، ولعله مراد كثير ممن حكينا عنه من السلف ؛ فان كثيراً منهم رُوى عنه هذا وهذا ، ولا منافاة ، والله أعلم .

ثم أورد ابن جرير على نفسه ماروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق حفصة ثم راجعها ، وعزم على فراق سَودة حتى وهبته يومها لعائشة ، ثم أجاب بأن هذا كان قبل نزول قوله : (لايحل لك النساء من بعد ، ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن) ، وهذا الذى قاله من أن هذا كان قبل نزول الآية صحيح، ولكن لايحتاج إلى ذلك؛ فان الآية إنما دلت على أنه لايتزوج بمن عدا اللواتى فى عصمته ، وأنه لايستبدل بهن غيرهن ، ولا يدل ذلك على أنه لايطلق واحدة منهن من غير استبدال ، والله أعلم .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٢/٢١ .

(٢) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الأحزاب ، الحديث ٣٢٦٨ : ٩/٧٧ — ٧٨ .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٢/٢٢ .

فأما قضية سودة ففي الصحيح عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ وهي سبب نزول قوله تعالى : (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضاً ، فلا جناح عليهما : أن يصلحا بينهما صلحا(١)) الآية .

وأما قضية حفصة فروى أبو داود والنسائي وابن ماجه(٢) وابن حبان في صحيحه ، من طرق عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة ، عن صالح بن صالح بن حيّ ، عن سلمة بن كهيل ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق حفصة ثم راجعها : وهذا إسناد قوى :

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو كريب ، حدثنا يونس بن بكير ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن ابن عمر قال : دخل عمر على حفصة وهي تبكي ، فقال : ما يبكيك ؟ لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم طلقك ؟ إنه قد كان طلقك مرة ثم راجعك من أجلي ، والله لئن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبداً : ورجاله على شرط الصحيحين .

وقوله : (ولا تبدلَ بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن) ، فنهاه عن الزيادة عليهن ، أو طلاق واحدة منهن واستبدال غيرها بها إلا ما ملكت يمينه :

وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً مناسباً ذكرُه هاهنا ، فقال :

حدثنا إبراهيم بن نصر ، حدثنا مالك بن إسماعيل ، حدثنا عبد السلام بن حرب ، عن إسحاق بن عبد الله القرشي ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : كان البَدَلُ في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل : بادلني امرأتك وأبادلك بامرأتي : أي : تنزل لي عن امرأتك ، وأنزل لك عن امرأتي : فأنزل الله : (ولا أن تبدل بهن من أزواج ، ولو أعجبك حسنهن) : قال : فدخل عيينة بن حصن على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعنده عائشة ، فدخل بغير إذن ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأين الاستئذان ؟ فقال : يارسول الله ، ما استأذنت على رجل من مُضَر منذ أدركت : ثم قال : من هذه الحُمَيراء إلى جنبك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه عائشة أم المؤمنين، قال : أفلا أنزل لك على أحسن الخلق ؟ قال : يا عيينة إن الله قد حرم ذلك : فلما أن خرج قالت عائشة : من هذا ؟ قال : هذا أحمقُ مطاع ، وإنه على ماترين لسيد قومه .

ثم قال البزار : إسحاق بن عبد الله : لين الحديث جداً ، وإنما ذكرناه لأنا لم نحفظه إلا من هذا الوجه ، وبيّنّا العلة فيه :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

هذه آية الحجاب ، وفيها أحكام وآداب شرعية ، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كما ثبت ذلك في الصحيحين عنه أنه قال : وافقت ربي في ثلاث فقلت : يارسول الله ، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ؟

---

(١) سورة النساء ، آية : ١٢٨ . وانظر فيما تقدم : ٢/٣٧٩ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الطلاق ، باب « في المراجعة » ، وابن ماجه ، كتاب الطلاق ، الحديث ٢٠١٦ : ١/٦٥٠ .

فأنزل الله : (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) : وقلت : يارسول الله ، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو حجبتهن؟ فأنزل الله آية الحجاب . وقلت لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم لما تمالأن عليه في الغيرة : (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن) ، فنزلت كذلك (١) .

وفي رواية لمسلم ذكر أسارى بدر ، وهي قضية رابعة (٢) .

وقد قال البخاري : حدثنا مسدد ، عن يحيي ، عن حُميد ، عن أنس بن مالك قال : قال عمر بن الخطاب : يارسول الله ، يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ؟ فأنزل الله آية الحجاب (٣) .

وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش، التي تولى الله تعالى تزويجها بنفسه ، وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة ، في قول قتادة والواقدي وغيرهما .

وزعم أبو عُبَيدة معمر بن المثنى وخليفة بن خياط : أن ذلك كان في سنة ثلاث ، فالله أعلم .

قال البخاري : حدثنا محمد بن عبد الله الرقاشي ، حدثنا معتمر بن سليمان ، سمعت أبي ، حدثنا أبو مجلز ، عن أنس ابن مالك — رضي الله عنه — قال : لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش ، دعا القوم فَطَعِمُوا ثم جلسوا يتحدثون، فاذا هو[كأنه](٤) يتهيأ للقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام، (فلما قام[قام](٤)من قام ، وقعد ثلاثة نفر . فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ليدخل ، فاذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا فانطلقتُ(٥) فجئت فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قد انطلقوا . فجاء حتى دخل ، فذهبت أدخل ، فألقى [الحجابَ](٤)بيني وبينه، فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبي) الآية (٦) .

وقد رواه أيضاً في موضع آخر،ومسلم(٧) والنسائي، من طرق ، عن معتمر بن سليمان ، به : ثم رواه البخاري منفرداً به من حديث أيوب ، عن أبي قلابة ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه — [بنحوه(٨)]. ثم قال : حدثنا أبومعمر، حدثنا عبد الوارث ، حدثنا عبد العزيز بن صهيب ، عن أنس بن مالك] قال : بُنِيَ [على] النبي — صلى الله عليه وسلم —[بزينب بنت جحش بخبز ولحم ، فأُرسِلْتُ على الطعام داعياً ، فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون ، ثم يجيء قوم فيأكلون] ويخرجون . فدعوتُ حتى ما أجدُ أحداً أدعوه ، فقلت : يانبي الله ، ما أجد أحداً أدعوه . قال : ارفعوا طعامكم ؛ وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فانطلق إلى حجرة عائشة ، فقال : السلام عليكم — أهلَ البيت — ورحمةُ الله وبركاته. قالت: وعليك السلام ورحمة الله ،كيف وجدت أهلك ، بارك الله لك ؟ فتَقَرَّى(٩)

(١) البخاري ، كتاب الصلاة : ١١١/١ . وتفسير سورة البقرة : ٢٤/٦ .
(٢) مسلم ،كتاب فضائل الصحابة ، باب « من فضائل عمر بن الخطاب : ١١٥/٧ — ١١٦ .
(٣) البخاري ، تفسير سورة الأحزاب : ١٤٨/٦ .
(٤) ما بين القوسين عن البخاري .
(٥) في المخطوطة : « فانطلقوا » . والمثبت عن البخاري .
(٦) البخاري ، تفسير سورة الأحزاب : ١٤٨/٦ — ١٤٩ .
(٧) مسلم ،كتاب النكاح ، باب « زواج زينب بنت جحش » : ١٤٩/٤ — ١٥٠ .
(٨) البخاري ، تفسير سورة الأحزاب : ١٤٩/٦ .
(٩) أي : تتبع .

حُجَر نسائه كُلّهن ، يقول لهن كما يقول لعائشة ، ويقلن له كما قالت عائشة ، ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا رهط ثلاثة [في البيت] يتحدثون : وكان النبي صلى الله عليه وسلم شديد الحياء ، فخرج منطلقاً نحو حُجْرة عائشة ، فما أدرى أخبرتُه أم أخبر أن القوم خرَجُوا ؟ فرجع حتى إذا وضع رجله في أُسْكُفَّة(١) الباب داخله ، وأخرى خارجة، أرْخَى السّتر بيني وبينه ، وأنزلت آية الحجاب(٢) .

انفرد به البخاري من بين أصحاب الكتب [الستة] ، سوى النسائي في اليوم والليلة ، من حديث عبد الوارث .

ثم رواه عن إسحاق — هو ابن منصور — عن عبد الله بن بكر السهمي ، عن حُمَيد ، عن أنس ، بنحو ذلك ، وقال : « رجلان » (٣) انفرد به من هذا الوجه . وقد تقدم في أفراد مسلم من حديث سليمان بن المغيرة، عن ثابت ، عن أنس ،

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو المظفر ، حدثنا جعفر بن سليمان ، عن الجعد — أبي عثمان اليشكري — عن أنس بن مالك قال : أعرس رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض نسائه ، فصنعت أم سليم حيسا ثم وضعته في تَوْر(٤)، فقالت : اذهب بهذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقرئه مني السلام ، وأخبره أن هذا منا له قليل — قال أنس : والناس يومئذ في جَهد ، فجئت به فقلت : يارسول الله ، بعثت بهذا أم سُلَيم إليك ، وهي تقرئك السلام ، وتقول : « أخبره أن هذا منا له قليل » فنظر إليه ثم قال : ضعه فوضعته في ناحية البيت ، ثم قال : اذهب فادع لي فلاناً وفلاناً ، وسمّى رجالا كثيراً ، وقال : ومن لقيتَ من [المسلمين . فدعوتُ مَن قال لي ، ومن لقيت من] المسلمين ، فجئت والبيت والصّفّة(٥) والحجرة ملأى من الناس — فقلت : يا أبا عثمان كم كانوا ؟ فقال: كانوا زهاء ثلاثمائة — قال أنس: فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : جيءْ به . فجئتُ به إليه ، فوضع يده عليه ، ودعا وقال : ماشاء الله . ثم قال : ليتحلّق عشَرة عشَرة ، وليسموا ، وليأكل كل إنسان مما يليه . فجعلوا يسمون ويأكلون ، حتى أكلوا كلهم . فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارفعه . قال : فجئتُ فأخذت التّور فما أدرى أهو حين وضعتُ أكثر أم حين أخذتُ؟ قال : وتخلف رجال يتحدثون في بيت رسول الله ، وزوجُ رسول الله صلى الله عليه وسلم التي دخل بها معهم مُولّية وجهها إلى الحائط ، فأطالوا الحديث ، فشقوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم [وكان أشد الناس حياء — ولو أعلموا كان ذلك عليهم عزيزاً — فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم] فخرج فسلم على حُجَره وعلى نسائه ، فلما رأوه قد جاء ظنوا أنهم قد ثقُلوا عليه ، ابتدروا الباب فخرجوا ، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أرخى السّتر ، ودخل البيت وأنا في الحجرة ، فمكث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في بيته يسيراً ، وأُنزل الله عليه القرآن ، فخرج وهو يقرأ هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا) إلى قوله : (بكل شيء عليما) . قال أنس : فقرأهن عليّ قبل الناس ، فأنا أحدثُ الناس بهن عهداً ،

---

(١) الأسكفة : خشبة الباب التي يوطأ عليها .
(٢) البخاري ، تفسير سورة الأحزاب : ٦/١٤٩ .
(٣) البخاري ، تفسير سورة الأحزاب : ٦/١٤٩ — ١٥٠ .
(٤) التور : إناء من نحاس أو حجارة .
(٥) الصفة : موضع مظلل في مسجد المدينة . وأهل الصفة : فقراء المهاجرين ، ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه ، فكانوا يأوون إليه .

وقد رواه مسلم والترمذى والنسائى جميعاً ، عن قتيبة ، عن جعفر بن سليمان ، به . وقال الترمذى : حسن صحيح(١) وعلّقه البخارى فى كتاب النكاح فقال .

وقال إبراهيم بن طهمان ، عن الجعد أبى عثمان ، عن أنس ، فذكر نحوه (٢) .

ورواه مسلم أيضاً عن محمد بن رافع ، عن عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الجعد ، به (٣) . وقد روى هذا الحديث عبد الله بن المبارك ، عن شريك ، عن بيان بن بشر ، عن أنس ، بنحوه

وروى البخارى والترمذى ، من طريقين آخرين ، عن بيَان بن بشر الأحمسى الكوفى ، عن أنس ، بنحوه (٤)

ورواه ابن أبى حاتم أيضاً ، من حديث أبى نضرة العبدى ، عن أنس بن مالك ، بنحوه . ورواه ابن جرير من حديث عمرو بن سعيد ، ومن حديث الزهرى ، عن أنس ، بنحو(٥) ذلك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا بهز وهاشم بن القاسم قالا : حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، عن أنس قال : لما انقضت عدّة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذهب فاذكرها على . قال : فانطلق زيد حتى أتاها ، قال : وهى تُخمّر عجينها ، فلما رأيتُها عَظُمت فى صدرى ... وذكر تمام الحديث كما قدمناه عند قوله : (فلما قضى زيد منها وطرا) ، وزاد فى آخره بعد قوله : وَوَعَظ القوم بما وعظوا به . قال هاشم فى حديثه (لا تدخلوا بيوت النبي إلاأن يؤذن لكم إلى طعام غيرّ ناظرين إناه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فاذا طعمتم فانتشروا ولامستأنسين لحديث ؛ إن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحيى منكم ، والله لايستحيى من الحق(٦)) .

وقد أخرجه مسلم والنسائى ، من حديث [سليمان بن المغيرة(٧)] به .

وقال ابن جرير : حدثنى أحمد بن عبد الرحمن — ابن أخى ابن وهب — حدثنى عمى(٨) عبد الله بن وهب حدثنى يونس عن الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة قالت : إن أزواج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كُنّ يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع — وهو صعيد أفيح (٩) — وكان عمر يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : احجب نساءك . فلم يكن رسول الله

---

(١) مسلم ، كتاب النكاح ، باب زواج زينب بنت جحش : ١٥٠/٤ — ١٥١ . وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة الأحزاب ، الحديث ٣٢٧٢ : ٨٢/٩ — ٨٤ . والنسائى ، كتاب النكاح ، باب «الهدية لمن عرس» : ١٣٦/٦ — ١٣٧ .

(٢) البخارى ، كتاب النكاح ، باب «الهدية للعروس» : ٢٨/٧ — ٢٩ .

(٣) مسلم ، كتاب النكاح ، باب «زواج زينب بنت جحش ...» : ١٥١/٤ — ١٥٢ .

(٤) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الأحزاب ، الحديث ٣٢٧٠ : ٧٩/٩ — ٨١ .

(٥) تفسير الطبرى : ٢٧/٢٢ — ٢٨ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١٩٥/٣ — ١٩٦ .

(٧) فى المخطوطة : «من حديث جعفر بن سليمان» . وهو سهو . والصواب ما أثبتناه . وانظر صحيح مسلم ، كتاب النكاح ، باب «زواج زينب بنت جحش» : ١٤٨/٤ — ١٤٩ .

(٨) فى تفسير الطبرى : «حدثنى أحمد بن عبد الرحمن قال : ثنى عمرو بن عبد الله بن وهب» . وهو خطأ ، صوابه ما فى تفسير ابن كثير . انظر الخلاصة ، وتفسير سورة النور : ٣٣/٦ .

(٩) أى : واسع .

صلى الله عليه وسلم ليفعل ، فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت امرأة طويلة ، فناداها عمر بصوته الأعلى : قد عرفناك يا سودة . حرصاً أن ينزل الحجاب ، قالت : فأنزل الله الحجاب (١) .

هكذا وقع فى هذه الرواية ، والمشهور أن هذا كان بعد نزول الحجاب ، كما رواه الإمام أحمد والبخارى ومسلم ، من حديث هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضى الله عنها — قالت : خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها ، وكانت امرأة جَسيمةً لا تَخفَى على من يعرفها ، فرآها عمر بن الخطاب فقال : يا سودة ، أما والله ما تَخفَين علينا ، فانظرى كيف تخرجين ؟ . قالت : فانكفأت راجعة ، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى ، وإنه ليتعشى ، وفى يده عَرْق (٢) ، فدخلت فقالت : يا رسول الله ، إنى خرجت لبعض حاجتى ، فقال لى عمر كذا وكذا . قالت : فأوحى الله إليه ، ثم رُفعَ عنه وإن العَرْق فى يده ، ما وضعه . فقال : إنه قد أذنَ لكن أن تخرجن لحاجتكن (٣) » . لفظ البخارى .

فقوله : (لا تدخلوا بيوت النبى) حَظَر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير إذن ، كما كانوا قبل ذلك يصنعون فى بيوتهم فى الجاهلية وابتداء الإسلام ، حتى غار الله لهذه الأمة ، فأمرهم بذلك ، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكم والدخول على النساء » (٤) .

ثم استثنى من ذلك فقال : (إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه) .

قال مجاهد وقتادة وغيرهما : أى غير متحينين نضجه واستواءه ، أى : لا ترقبوا الطعام حتى إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول ، فإن هذا يكرهه الله ويذمه . وهذا دليل على تحريم التطفيل ، وهو الذى تسميه العرب الضيفن(٥) ، وقد صنف الخطيب البغدادى فى ذلك كتابا فى ذم الطفيليين . وذكر من أخبارهم أشياء يطول إيرادها .

ثم قال تعالى : (ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا) . وفى صحيح مسلم عن ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا دعا أحدكم أخاه فَلْيجب ، عرساً كان أوغيره (٦) » . وأصله فى الصحيحين وفى الصحيح أيضا ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو دُعيت إلى ذراع لأجبت ، ولو أهدى إلى كُرَاع (٧) لقبلت (٨) . فإذا فرَغتم من الذى دُعيتم إليه فخففوا عن أهل المنزل ، وانتشروا فى الأرض » ولهذا قال : (ولا مستأنسين

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٢/٢٨ — ٢٩ .

(٢) العرق — بفتح فسكون — : العظم إذا أخذ عنه معظم اللحم ، وجمعه : عراق ، بضم العين . يقال : عرقت العظم ، واعترقته ، وتعرقته : إذا أخذت عنه اللحم بأسنانك .

(٣) البخارى ، تفسير سورة الأحزاب : ٦/١٥٠ . ومسلم ، كتاب السلام ، باب « إباحة الخروج للنساء لقضاء حاجة الإنسان » : ٧/٦ . ومسند الإمام أحمد : ٦/٥٦ .

(٤) تحفة الأحوذى ، أبواب الرضاع ، باب « ما جاء فى كراهية الدخول على المغيبات » ، الحديث ١١٨١ : ٤/٣٣٤ ؛ ومسند الإمام أحمد عن عقبة بن عامر : ٤/١٤٩ ، ١٥٣ .

(٥) الضيفن : الذى يجىء مع الضيف .

(٦) مسلم ، كتاب النكاح ، باب « الأمر بإجابة الداعى إلى دعوة » : ٤/١٥٢ .

(٧) الكراع : ما دون الركبة من الساق .

(٨) هذا القدر أخرجه البخارى فى كتاب النكاح ، باب « من اجاب إلى كراع » : ٧/٣٢ . والإمام أحمد عن أبى هريرة : ٢/٤٢٤ ، ٤٧٩ ، ٤٨١ ، ٥١٢ .

الحديث) ، أى : كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث ، ونسُوا أنفسهم ، حتى شقّ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى : (إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم) .

وقيل : المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشق عليه ويتأذى به ، لكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حيائه عليه السلام ، حتى أنزل الله عليه النهى عن ذلك ، ولهذا قال : (والله لا يستحيى من الحق) ، أى : ولهذا نهاكم عن ذلك وزَجَرَكم عنه .

ثم قال تعالى : (وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب) ، أى : وكما نهيتكم عن الدخول عليهن ، كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية ، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن ، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن مسعر ، ، عن موسى بن أبى كثير ، عن مجاهد ، عن عائشة قالت : كنت آكل مع النبى صلى الله عليه وسلم حَيْساً فى قَعْب(١) فمر عمر فدعاه ، فأصابت إصبعه إصبعى ، فقال : حَسّ (٢) — أو : أوّه — لو أطاع فيكن ما رأتك عين . فنزل الحجاب .

(ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) ، أى : هذا الذى أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب .

وقوله : (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ، إن ذلكم كان عند الله عظيما) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا محمد بن أبى حماد ، حدثنا مهران ، عن سفيان ، عن داود بن أبى هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله) ، قال : نزلت فى رَجُل هَمّ أن يتزوج بعض نساء النبى صلى الله عليه وسلم . قال رجل لسفيان : أهى عائشة ؟ قال : قد ذكروا ذلك .

وكذا قال مقاتل بن حيان ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وذكر بسنده عن السّدى أن الذى عزم على ذلك طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه ، حتى نزل التنبيه على تحريم ذلك ، ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم من أزواجه أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده ، لأنهن أزواجه فى الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين كما تقدم . واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها فى حياته هل يحل لغيره أن يتزوجها ؟ على قولين ، مأخذهما : هل دخلت هذه فى عموم قوله (من بعده) أم لا ؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها ، فما نعلم فى حلها لغيره — والحالة هذه — نزاعا . والله أعلم .

---

(١) الحيس — بفتح فسكون — : هو الطعام المتخذ من التمر واللبن المجفف والسمن ، وقد يجعل عوض اللبن الدقيق . والقعب : القدح الضخم .

(٢) فى المخطوطة : « خير » . وفى الطبعات السابقة : « حسن » . والمثبت عن النهاية لابن الأثير : وحس — بكسر السين مشددة — : كلمة يقولها الإنسان إذا أصابه ما مضه وأحرقه غفلة ، كالجمرة والضربة . وقد تقدمت هذه الكلمة فى حديث آخر انظر : ٢/١٢ .

وقال ابن جرير : حدثني [محمد] بن المثنى ، حدثنا عبد الوهاب ، حدثنا داود ، عن عامر : أن نبي الله صلى الله عليه وسلم مات وقد ملك قيلة بنت الأشعث ــ يعني ابن قيس ــ فتزوجها عكرمة بن أبي جهل بعد ذلك ، فشق ذلك على أبي بكر مشقة شديدة ، فقال له عمر : يا خليفة رسول الله ، إنها ليست من نسائه ، إنها لم يُخَيِّرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يحجبها ، وقد برأها الله منه بالردة التي ارتدت مع قومها . قال : فاطمأن أبو بكر ــ رضي الله عنهما ــ وسكن(١) .

وقد عظم تبارك وتعالى ذلك ، وشدد فيه وتوعد عليه بقوله : (إن ذلكم كان عند الله عظيما) ، ثم قال : (إن تبدوا شيئاً أو تخفوه ، فإن الله كان بكل شيء عليما) ، أي : مهما تكنه ضمائركم وتنطوى عليه سرائركم ، فان الله يعلمه ، فانه لا تخفى عليه خافية ، (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور(٢)) .

لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾

لما أمر تعالى النساء بالحجاب من الأجانب ، بين أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم ، كما استثناهم في سورة النور ، عند قوله : (ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ، أو آبائهن ، أو آباء بعولتهن ، أو أبنائهن ، أو أبناء بعولتهن ، أو إخوانهن ، أو بني إخوانهن ، أو بني أخواتهن ، أو نسائهن(٣)) إلى آخرها ، وفيها زيادات على هذه . وقد تقدم تفسيرها والكلام عليها بما أغنى عن إعادته . وقد سأل بعض السلف فقال : لم لم يذكر العم والخال في هاتين الآيتين؟ فأجاب عكرمة والشعبي بأنهما لم يذكرا ، لأنهما قد يصفان ذلك لبنيهما .

قال ابن جرير : حدثني محمد بن المثنى ، حدثنا حجاج بن منهال ، حدثنا حماد ، حدثنا داود ، عن الشعبي وعكرمة في قوله : (لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ، ولا إخوانهن ، ولا أبناء إخوانهن ، ولا أبناء أخواتهن ، ولا نسائهن ، ولا ما ملكت أيمانهن) ، قلت : ما شأن العم والخال لم يذكرا ؟ قالا : هما ينعتانها لأبنائهما . وكرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها(٤) .

وقوله : (ولا نسائهن) ، يعني بذلك عدم الاحتجاب من النساء المؤمنات .

وقوله : (وما ملكت أيمانهن) يعني به أرقاءهن من الذكور والإناث كما تقدم التنبيه عليه ، وإيراد الحديث فيه(٥) .

قال سعيد بن المسيب : إنما يعني به الإماء فقط . رواه ابن أبي حاتم .

(١) تفسير الطبري : ٢٢/٢٩ .
(٢) سورة غافر ، آية : ١٩ .
(٣) سورة النور ، آية : ٣١ .
(٤) تفسير الطبري : ٢٢/٣٠ .
(٥) تقدم الحديث في تفسير سورة النور ، انظر : ٦/٥٠ .

وقوله : (واتقين الله ، إن الله كان على كل شيء شهيدا) ، أي : واخشينه في الخلوة والعلانية ، فانه شهيد على كل شيء ، لا تخفى عليه خافية ، فراقبن الرقيب .

إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾

قال البخاري : قال أبو العالية : صلاة الله : ثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاة الملائكة : الدعاء . وقال ابن عباس : يصلون : يبركون . هكذا علقه البخاري عنهما(١) .

وقد رواه أبو جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية كذلك . وروى مثله عن الربيع أيضاً . وروى علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس كما قاله سواء ، رواهما ابن أبي حاتم .

وقال أبو عيسى الترمذي : وروى عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم قالوا : صلاة الرب : الرحمة ، وصلاة الملائكة : الاستغفار(٢) .

ثم قال ابن أبي حاتم : حدثنا عمرو الأودي ، حدثنا وكيع ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مرة قال الأعمش عن عطاء بن أبي رباح : (إن الله وملائكته يصلون على النبي) ، قال : صلاته تبارك وتعالى : سبوح قدوس ، سبقت رحمتي غضبي .

والمقصود من هذه الآية أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى ، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين ، وأن الملائكة تصلي عليه . ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه ، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، حدثني أبي ، عن أبيه ، عن أشعث ابن إسحاق ، عن جعفر — يعني ابن المغيرة — عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : أن بني إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام : هل يصلي ربك ؟ فناداه ربه : يا موسى ، سألوك : هل يصلي ربك ؟ فقل : نعم ، إنما أصلي أنا وملائكتي على أنبيائي ورسلي . فأنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم : (إن الله وملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) .

---

(١) البخاري ، تفسير سورة الأحزاب : ٦/١٥١ .

(٢) تحفة الأحوذي ، أبواب الوتر ، باب «ما جاء في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم» ، الحديث ٤٨٣ ، ٢/٦١٤ .

وقد أخبر أنه سبحانه وتعالى يصلى على عباده المؤمنين فى قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً . وسبحوه بكرة وأصيلا . هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وكان بالمؤمنين رحيما) (١) ، وقال تعالى : (وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون (٢)) . وفى الحديث : « إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف (٣) » . وفى الحديث الآخر : « اللهم ، صل على آل أبى أوفى (٤) » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لامرأة جابر ــ وقد سألته أن يصلى عليها وعلى زوجها ــ : « صلى الله عليك ، وعلى زوجك (٥) » .

وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر بالصلاة عليه ، وكيفية الصلاة عليه ، ونحن نذكر منها إن شاء الله تعالى ما تيسر ، والله المستعان .

قال البخارى عند تفسير هذه الآية : حدثنا سعيد بن يحيى بن سعيد ، حدثنا أبى ، عن مسعَر ، عن الحكم ، عن ابن أبى ليلى ، عن كعب بن عُجْرَة قال : قيل : يا رسول الله ، أما السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة ؟ فقال : قولوا : اللهم ، صلى على محمد ، وعلى آل محمد ، [كما صليت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد . اللهم ، بارك على محمد وعلى آل محمد] كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد (٦) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن الحكم قال : سمعت ابن أبى ليلى قال : لقينى كعب بن عُجْرَة فقال : ألا أهدى لك هدية ؟ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا : يا رسول الله ، قد علمنا ــ أو : عرفنا ــ كيف السلام عليك ، فكيف الصلاة ؟ قال : قولوا : اللهم ، صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على [آل] إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم، بارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد(٧) » ،

---

(١) سورة الأحزاب ، الآيات : ٤١ ــ ٤٣ .

(٢) سورة البقرة ، الآيات : ١٥٥ ــ ١٥٧ .

(٣) سنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « من يستحب أن يلى الإمام فى الصف وكراهية التأخر » . وابن ماجه ، كتاب الإقامة ، باب « فضل ميمنة الصف » ، الحديث ١٠٠٥ : ١ / ٣٢١ .

(٤) البخارى ، كتاب الدعوات ، باب « هل يصلى على غير النبى صلى الله عليه وسلم » : ٨ / ٩٥ ــ ٩٦ . وسنن أبى داود ، كتاب الزكاة ، باب « دعاء المصدق لأهل الصدقة » . والنسائى ، كتاب الزكاة ، باب « صلاة الإمام على صاحب الصدقة » : ٥ / ٣١ . وابن ماجه ، كتاب الزكاة ، باب « ما يقال عند إخراج الزكاة » ، الحديث ١٧٩٦ : ١ / ٥٧٢ . ومسند الإمام أحمد من عبد الله بن أبى أوفى : ٤ / ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ .

(٥) أخرجه الدارمى ، انظر المقدمة : باب « ما أكرم به النبى صلى الله عليه وسلم فى بركة الطعام » ، الحديث ٤٦ : ١ / ٢٨ ــ ٢٩ .

(٦) البخارى ، تفسير سورة الأحزاب : ٦ / ١٥١ ، وما بين الأقواس منه .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٤ / ٢٤١ .

وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة فى كتبهم ، من طرق متعددة ، عن الحكم ــ وهو ابن عتيبة ــ زاد البخارى : وعبد الله ابن عيسى ، كلاهما عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، فذكره (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا هشيم بن بُشَير ، عن يزيد بن أبى زياد ، حدثنا عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن كعب بن عُجْرَةَ قال : لما نزلت : (إن الله وملائكته يصلون على النبى ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) ، قال : قلنا : يا رسول الله : قد علمنا السلام، فكيف الصلاة عليك ، قال : « قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت [على إبراهيم و] على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد : وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم [وعلى] آل إبراهيم ؛ إنك حميد مجيد . وكان عبد الرحمن بن أبى ليلى يقول : « وعلينا معهم » ؟

ورواه الترمذى بهذه الزيادة (٢) ؟

ومعنى قولهم « أما السلام عليك فقد عرفناه » ، هو الذى فى التشهد الذى كان يعلمهم إياه ، كما كان يعلمهم السورة [من القرآن ، وفيه : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » .

حديث آخر ، قال البخارى : حدثنا عبد الله بن يوسف ، حدثنا الليث ، عن ابن الهاد ، عن عبد الله بن خَبَّاب ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قلنا : يا رسول الله ، هذا السلام (٣) ، فكيف نصلى عليك ؟ قال : قولوا : اللهم صل على محمد عبدك ورسولك ، كما صليت على آل إبراهيم . وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم . [قال أبو صالح ، عن الليث : « على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم (٤) »] .

حدثنا إبراهيم بن حمزة ، حدثنا ابن أبى حازم والدَّرَاوَرْدى ، عن يزيد ــ يعنى ابن الهاد ــ قال : « كما صليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وآل محمد ، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم » ؟

وأخرجه النسائى وابن ماجه ، من حديث ابن الهاد (٥) به ؟

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : قرأت على عبد الرحمن : مالك، عن عبد الله بن أبى بكر عن أبيه، عن عمرو بن سُلَيم أنه قال : أخبرنى أبو حميد الساعدى أنهم قالوا : يا رسول الله ، كيف نصلى عليك ؟ قال : قولوا : اللهم ، صل على محمد

---

(١) البخارى ، تفسير سورة الأحزاب : ٦/١٥١ ، وكتاب الدعوات ، باب « الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم » : ٨/٩٥ . وكتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى (واتخذ الله إبراهيم خليلا) : ٤/١٧٨ . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب « الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم » : ٢/١٦ . وسنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم بعد التشهد » . وتحفة الأحوذى ، أبواب الوتر ، باب « ما جاء فى صفة الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ٤٨٢ : ٢/٦٠٣ ــ ٦٠٦ . والنسائى ، كتاب السهو ، باب « كيف الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم » : ٣/٤٧ ــ ٤٨ . وابن ماجه ، كتاب الإقامة ، باب « الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ٩٠٤ : ١/٢٩٣ .

(٢) تحفة الأحوذى ، الباب المتقدم : ٢/٦٠٤ .

(٣) فى الصحيح : « هذا التسليم » .

(٤) البخارى ، تفسير سورة الأحزاب : ٦/١٥١ . وما بين القوسين عنه .

(٥) النسائى ، كتاب الصلاة : ٣/٤٩ . وابن ماجه ، كتاب الإقامة ، باب « الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ٩٠٣ : ١/٢٩٢ .

وأزواجه وذريته ، كما صليت على [آل] إبراهيم ، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد (١) » .

وقد أخرجه بقية الجماعة ، سوى الترمذى ، من حديث مالك ، به (٢) .

حديث آخر ، قال مسلم : حدثنا يحيى بن يحيى التميمى قال : قرأت على مالك ، عن نُعَيم بن عبد الله المُجْمِر ، أخبرنى محمد بن عبد الله بن زيد الأنصارى — قال : وعبد الله بن زيد هو الذى كان أُرِىَ النداء بالصلاة — أخبره عن أبى مسعود الأنصارى — قال : أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن فى مجلس سعد بن عُبَادة ، فقال له بَشِير بن سعد : أمرنا الله أن نصلى عليك [يا رسول الله] ، فكيف نصلى عليك ؟ قال : فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قولوا : اللهم صلى على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم فى العالمين ، إنك حميد مجيد ، والسلام كما قد عَلِمتم (٣) » .

وقد رواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، من حديث مالك ، به . وقال الترمذى : حسن صحيح .

وروى الإمام أحمد ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن خزيمة ، وابن حبّان ، والحاكم فى مستدركه ، من حديث محمد بن إسحاق ، عن محمد بن إبراهيم التيمى ، عن محمد بن عبد الله بن زيد بن عبد ربه ، عن أبى مسعود البدرى أنهم قالوا : يا رسول الله ، أما السلام فقد عرفناه ، فكيف نصلى عليك إذا نحن صلينا فى صلاتنا ؟ فقال : قولوا : اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ... وذكره (٤) .

ورواه الشافعى رحمه الله فى مسنده ، عن أبى هريرة ، بمثله . ومن هاهنا ذهب الشافعى رحمه الله إلى أنه يجب على المصلى أن يصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التشهد الأخير ، فإن تركه لم تصح صلاته . وقد شرَع بعض المتأخرين من المالكية وغيرهم يُشَنِّع على الإمام الشافعى فى اشتراطه ذلك فى الصلاة ، ويزعم أنه قد تفرد بذلك ، وحكى الإجماعَ على خلافه أبو جعفر الطبرى والطحاوى والخطابى وغيرهم ، فيما نقله القاضى عياض . وقد تعَسّف القائل فى رده على الشافعى ، وتكلف فى دعواه الإجماع فى ذلك ، فإنه قد روينا وجوب ذلك والأمر بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة كما هو ظاهر الآية ، ومفسر بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة ، منهم ابن مسعود ، وأبو مسعود البدرى ،

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٤٢٤/٥ .

(٢) البخارى ، كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : (واتخذ الله إبراهيم خليلا) : ١٧٨/٤ . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب « الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم » : ١٦/٢ — ١٧ . وانظره أيضاً فى المواطن التى خرجنا منها حديث « كعب بن عجرة » .

(٣) مسلم ، فى الكتاب والباب المتقدمين : ١٦/٢ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ١١٩/٤ . وانظر حديث « كعب بن عجرة » لتخرج منه هذا الحديث فى سنن أبى داود . والمستدرك كتاب الصلاة : ٢٦٨/١ .

وجابر بن عبد الله ، ومن التابعين : الشعبي وأبو جعفر الباقر ، ومقاتل بن حيان ؛ وإليه ذهب الشافعي ، لا خلاف عنه فى ذلك ولا بين أصحابه أيضا ، وإليه ذهب أحمد أخيرا فيا حكاه عنه أبو زرعة الدمشقي ، به . وبه قال إسحاق بن راهويه ، والفقيه الإمام محمد بن إبراهيم المعروف بابن المواز المالكي (١) ، رحمهم الله ، حتى إن بعض أئمة الحنابلة أوجب أن يقال فى الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم كما علمهم أن يقولوا لما سألوه ، وحتى إن بعض أصحابنا أوجب الصلاة على الآل ممن حكاه البندنيجي (٢) وسليم الرازي (٣) ، وصاحبه نصر بن إبراهيم المقدسي (٤) ، ونقله إمام الحرمين وصاحبه الغزالي قولا عن الشافعي . والصحيح أنه وجه ، على أن الجمهور على خلافه ، وحكوا الإجماع على خلافه ، وللقول بوجوبه ظواهر الحديث (٥) ، والله أعلم .

والغرض أن الشافعي — رحمه الله — لقوله بوجوب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فى الصلاة — سلف وخلف كما تقدم ، لله الحمد والمنة ، فلا إجماع على خلافه فى هذه المسألة لا قديما ولا حديثا ، والله أعلم .

ومما يؤيد ذلك الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي — وصححه — والنسائي وابن خزيمة ، وابن حبان فى صحيحيهما ، من رواية حيوة بن شريح المصري ، عن أبي هانىء حميد بن هانىء ، عن عمرو بن مالك أبي على الجنبي ، عن فضالة بن عبيد — رضى الله عنه — قال : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يدعو فى صلاته ، لم يمجد الله ولم يصل على النبي — صلى الله عليه وسلم — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عجل هذا ، ثم دعاه فقال له ولغيره : « إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد الله عز وجل والثناء عليه ، ثم ليصل على النبي ثم ليدع لى بعد بما شاء (٦) » .

وكذا الحديث الذى رواه ابن ماجه ، من رواية عبد المهيمن ابن عباس بن سهل بن سعد الساعدي ، عن أبيه ، عن جده ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا صلاة لمن لا وضوء له ، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه ، ولا صلاة لمن لم يصل على النبي ، ولا صلاة لمن لم يحب الأنصار (٧) » .

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن المواز الإسكندراني المالكي ، صاحب التصانيف ، أخذ عن أصبغ بن الفرج ، وعبد الله بن عبد الحكم ، وانتهت إليه رئاسة المذهب ، وإليه كان المنتهى فى تفريع المسائل . توفى فى سنة ٢٨١هـ . انظر العبر للذهبي : ٢/٦٦ .

(٢) هو أبو القاسم تميم بن أحمد بن أحمد البندنيجي الأزجي ، محدث بغداد . توفى سنة ٥٩٧ هـ . العبر للذهبي : ٤/٢٩٧ .

(٣) هو أبو الفتح سليم بن أيوب الرازي الشافعي المفسر ، صاحب التصانيف والتفسير . توفى فى صفر سنة ٤٤٧ ، العبر : ٣/٢١٣ .

(٤) هو شيخ الشافعية أبو الفتح نصر بن إبراهيم بن نصر المقدسي النابلسي ، كان محدثاً حافظاً زاهداً . توفى يوم عاشوراء سنة ٤٩٠ ، العبر للذهبي : ٣/٣٢٩ .

(٥) فى المخطوطة : «والقول بوجوبه ظهور» . والمثبت من الطبعات السابقة .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٦/١٨ ، وسنن أبي داود ، كتاب الوتر ، باب «الدعاء» . وتحفة الأحوذي ، أبواب الدعوات ، الحديث ٣٥٤٦ : ١٠/٤٥٠ — ٤٥١ .

(٧) سنن ابن ماجه ، كتاب الطهارة ، باب «ما جاء فى التسمية فى الوضوء» ، الحديث ٤٠٠ : ١/١٤٠ .

ولكن عبد المهيمن هذا متروك . وقد رواه الطبرانى من رواية أخيه « أبى بن عباس » ، ولكن فى ذلك نظر ، وإنما يعرف من رواية « عبد المهيمن » ، والله أعلم .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا إسماعيل ، عن أبى داود الأعمى (١) عن بُرَيدة قال : قلنا : يا رسول الله ، قد علمنا كيف نسلم عليك ، فكيف نصلى عليك ؟ قال : قولوا : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على محمد وعلى آل محمد ، كما جعلتها على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد (٢) » .

أبو داود الأعمى اسمه : نفيع بن الحارث ، متروك .

حديث آخر موقوف رويناه من طريق سعيد بن منصور وزيد بن الحباب ويزيد بن هارون ، ثلاثتهم عن نوح بن قيس : حدثنا سلامة الكندى : أن عليا — رضى الله عنه — كان يعلم الناس هذا الدعاء : اللهم داحى المدْحُوَّات(٣) ، وبارىء المسموكات (٤) ، وَجَبَّار (٥) القلوب على فِطْرَتها شقيها وسعيدها . اجعل شرائف صلواتك ، ونوامى بركاتك، ورأفة تحننك(٦) ، على محمد عبدك ورسولك، الخاتم لما سبق،والفاتح لما أغلق ، والمعلن الحقّ بالحق ، والدامغ جيشات الأباطيل (٧) ، كما حُمِّل فاضطلع(٨) بأمرك لطاعتك ، مستوفزا (٩) فى مرضاتك ، غير نَكِل فى قَدَم(١٠) ، ولا واهن (١١) فى عزم ، واعيا لوحيك ، حافظا لعهدك ، ماضيا على نفاذ أمرك ، حتى أورى (١٢) قبسا لقابس(١٣)،

(١) فى المسند : « عن أبى داود الراعى » .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٥/٣٥٣ .
(٣) الدحو : البسط ، والمدحوات : الأرضون .
(٤) المسموكات : السموات السبع ، وسمك الشىء يسمكه سمكا : رفعه . وفى نهج البلاغة : « ودامم المسموكات » .
(٥) تجبار : من جَبَر العظم المكسور ، كأنه أقام القلوب وأثبتها على ما فطرها عليه من معرفته والإقرار به ، شقيها وسعيدها . قال القتيبى : « لم أجعله من أجبر ، لأن أفعل لا يقال فيه فعال » . يقول ابن الأثير : يكون من اللغة الأخرى ، يقال : جبرت وأجبرت بمعنى قهرت .
هذا وفى نهج البلاغة : « وجابل القلوب » ، أى : خالقها. والفطرة : أول حالات المخلوق التى يكون عليها فى بدء وجوده . وهى للإنسان : حالته خاليا من الآراء والأهواء والديانات والعقائد .
(٦) قوله : « ورأفة تحننك » ، غير ثابت فى نهج البلاغة .
(٧) فى نهج البلاغة : « والدافع جيشات الأباطيل ، والدامغ صولات الأضاليل » . وفى النهاية : « دافع جيشات الأباطيل » : مهلكها . والجيشات : جمع جيشة ، وهى المرة من جاش إذا ارتفع .
(٨) فى نهج البلاغة : « كما حمل فاضطلع قائماً بأمرك » .
(٩) المستوفز : المسارع .
(١٠) أى : بغير جبن وإحجام فى الإقدام .
(١١) أى : ولا ضعيف فى رأى . وفى نهج البلاغة : « ولا واه » .
(١٢) أى : أظهر نوراً من الحق لطالب الهدى ، يقال : ورى الزند — كوعى — يرى : إذا خرجت ناره . والقابس : طالب النار . والقبس : الشعلة من النار .
(١٣) بعده فى نهج البلاغة : « وأضاء الطريق للخابط » . وليس فى النهج : « آلاء الله تصل بأهله أسبابه » ، ويبدو أنها ثابتة فى هذا النص ، انظر النهاية لابن الأثير ، مادة : « ألى » . والآلاء : النعم .

آلاء الله تصل بأهله أسبابه ، به هديت القلوب بعد خوضات (١) الفتن والإثم ، [وأقام (٢)] مُوضِحات الأعلام (٣) ، ومَنيرات الإسلام ونائرات الأحكام (٤) ، فهو أمينك المأمون ، وخازن علمك المخزون ، وشهيدك يوم الدين ، وبَعيثُك نعمة ، ورسولك بالحق رحمة . اللهم افسح له مُفسحَات (٥) فى عدلك ، واجزه مضاعفات الخير من فضلك : مهنّآت له غير مكدرات ، من فوز ثوابك المعلول (٦) وجزيل عطائك المجمول : اللهم ، أعل على بناء البانين بنيانه (٧) ، وأكرم مثواه لديك ونزله : وأتم له نوره، واجزه من ابتعاثك له مقبول الشهادة، مرضى المقالة ، ذا منطق عدل ، وخُطّة فصل (٨) ، وحجة وبرهان عظيم (٩) :

هذا مشهور من كلام على رضى الله عنه ، وقد تكلم عليه ابن قتيبة فى مشكل الحديث ، وكذا أبو الحسين أحمد ابن فارس اللغوى فى جزء جمعه فى فضل الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، إلا أن فى إسناده نظرا .

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزى : سلامة الكندى هذا ليس بمعروف ، ولم يدرك عليا : كذا قال : وقد روى الحافظ أبو القاسم الطبرانى هذا الأثر عن محمد بن على الصائغ ، عن سعيد بن منصور ، حدثنا نوح بن قيس ، عن سلامة الكندى قال : كان على رضى الله عنه يعلمنا الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فيقول : « اللهم ، داحى المَدْحُوّات » .. وذكره :

حديث آخر موقوف ، قال ابن ماجه [حدثنا الحُسَين بن بَيَان (١٠)] حدثنا زياد بن عبد الله ، حدثنا المسعودى ، عن عون بن عبد الله ، عن أبى فاختة ، عن الأسود بن يزيد ، عن عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — قال : إذا صليتم على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأحسنوا الصلاة عليه ؛ فإنكم لاتدرون لعل ذلك يُعْرَض عليه : قال : فقالوا له : فعَلّمنا : قال : قولوا : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وخاتم النبيين ، محمد عبدك ورسولك ، إمام الخير وقائد الخير ، ورسول الرحمة . اللهم ابعثه مقاماً محموداً يَغْبِطُه به الأولون والآخرون،

---

(١) الخوض : المشى فى الماء وتحريكه . والأسلوب تمثيل .
(٢) ما بين القوسين من نهج البلاغة .
(٣) الموضحات : جمع موضحة ، وهى ما يبين الشىء ، والأعلام جمع علم ، وهو ما يستدل به على الطريق ، والأعلام موضحات الطرق ، لأنها تبينها للناس وتكشفها .
(٤) النائرات : الواضحات البينات . وفى نهج البلاغة : « نيرات » . وفى النهاية مثل ما هنا .
(٥) فى النهاية : « مفتسحا » . وفى نهج البلاغة : « مفسحاً فى ظلك » . أى : أوسع له سعة فى دار عدلك يوم القيامة .
(٦) فى المخطوطة : « المعلون » . وفى الطبعات السابقة : « المحلول » . والمثبت عن النهاية ، ولفظها : « من جزيل عطائك » ، يريد : أن عطاء الله مضاعف ، يصل به عباده مرة بعد أخرى . ومنه العلل : الشرب بعد الشرب .
(٧) فى المخطوطة : « بناء المبنين » . والمثبت من نهج البلاغة .
(٨) أى : أمر فصل . ويروى : « وخطبة فصل » ، أى : مقال فاصل .
(٩) نهج البلاغة ، الخطبة السبعون : ٨١ — ٨٢ بتحقيقنا . وقد وقع هنا اختلاف مع ما فى النهج نبهنا على بعضه .
(١٠) ما بين القوسين من سنن ابن ماجه ، وفيها « الحسن » . والصواب : « الحسين » . وفى التهذيب ٢/٣٣١ أن ابن ماجه يروى عن الحسين بن بيان .

اللهم صل على محمد [وعلى آل محمد] ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد . اللهم ، بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد (١) .

وهذا موقوف ، وقد روى إسماعيل القاضي (٢) عن عبد الله بن عمرو — أو : عمر — على الشك من الراوى قريباً من هذا .

حديث آخر : قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا مالك بن إسماعيل ، حدثنا أبو إسرائيل، عن يونس بن خبّاب قال : خطبنا بفارس فقال : (إن الله وملائكته يصلون على النبى ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) ، فقال : أنبأنى من سمع ابن عباس يقول : هكذا أنزل . فقلنا — أو : قالوا — : يا رسول الله ، علمنا السلام عليك ، فكيف الصلاة عليك ؟ فقال : اللهم ، صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم ، إنك حميد مجيد ، [وارحم محمداً وآل محمد ، كما رحمت آل إبراهيم (٣)] ، إنك حميد مجيد ، [وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم ، إنك حميد مجيد (٤)] .

فيستدل بهذا الحديث من ذهب إلى جواز الترحم على النبى صلى الله عليه وسلم ، كما هو قول الجمهور . ويعضده حديث الأعرابى : الذى قال « اللهم ، ارحمنى ومحمداً ، ولاترحم معنا أحداً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد حجرت واسعاً (٥) » .

وحكى القاضى عياض عن جمهور المالكية منعه ، قال : واجازه ابو محمد بن ابى زيد (٦) .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، أخبرنا شعبة ، عن عاصم بن عبيد الله قال : سمعت عبد الله ابن عامر بن ربيعة يحدث عن أبيه قال: سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « من صلى على صلاة لم تزل الملائكة تصلى عليه ما صلى على ، فليقلّ عبد من ذلك أو ليكثر » (٧) .

ورواه ابن ماجه ، من حديث شعبة ، به (٨) .

---

(١) سنن ابن ماجه ، كتاب الإقامة ، باب « الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ٩٠٦ : ٢٩٣/١ — ٢٩٤ .

(٢) هو أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد الأزدى البصرى القاضى . كان فقيها مالكيا ، وله تصانيف فى القراءات والحديث والفقه وأحكام القرآن والأصول . تفقه على أحمد بن المعدل ، وأخذ علم الحديث عن ابن المدينى ، وكان إماماً فى العربية ، حتى قال المبرد : هو أعلم بالتصريف منى . توفى فى ذى الحجة سنة ٢٨٢ عن ٨٣ سنة . العبر للذهبى : ٦٧/٢ .

ولإسماعيل هذا كتاب فى الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، ذكره ابن خير فى فهرسته ، انظر : ٣٠٤ .

(٣) قوله : « وارحم محمدا وآل محمدا ، كما رحمت آل إبراهيم إنك حميد مجيد » . غير ثابت فى تفسير الطبرى ، ولعله قد سقط منه .

(٤) تفسير الطبرى : ٣١/٢٢ . وما بين القوسين منه .

(٥) البخارى ، كتاب الأدب ، باب « رحمة الناس والبهائم » : ١١/٨ .

(٦) هو عبد الله بن عبد الرحمن النفزى ، انظر كتبه فى فهرسة بن خير .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٤٤٥/٣ .

(٨) سنن ابن ماجه ، كتاب الإقامة ، باب « الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ٩٠٨ : ٢٩٤/١ .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو سلمة منصور بن سلمة الخزاعي ، ويونس – هو ابن محمد – قالا : حدثنا ليث ، عن يزيد بن الهاد ، عن عمرو بن أبي عمرو ، عن أبي الحويرث ، عن محمد بن جبير بن مطعم ، عن عبد الرحمن ابن عوف قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعته حتى دخل نخلا ، فسجد فأطال السجود ، حتى خفت – أو : خشيت – أن يكون الله قد توفاه أو قبضه . قال : فجئت أنظر ، فرفع رأسه فقال : مالك يا عبد الرحمن ؟ قال : فذكرت ذلك له فقال : إن جبريل – عليه السلام – قال لي : ألا أبشرك ؟ إن الله عز وجل يقول: من صلى عليك صليتُ عليه ، ومن سلم عليك سلمتُ عليه (١) .

طريق أخرى : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم ، حدثنا سليمان بن بلال ، حدثنا عمرو بن أبي عمرو ، عن عبدالواحد بن محمد بن عبدالرحمن بن عوف ، عن عبدالرحمن بن عوف قال : [خرج](٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم فتوجه نحو صدقته ، فدخل فاستقبل القبلة ، فخر ساجدا ، فأطال السجود ، حتى ظننت أن الله قد قبض نفسه فيها ، فدنوت منه ثم جلست ، فرفع رأسه فقال : من هذا ؟ فقلت : عبد الرحمن . قال : ما شأنك ؟ قلت : يا رسول الله ، سجدت سجدة خشيت أن [يكون] الله عز وجل قبض نفسك فيها فقال : إن جبريل أتاني فبشرني أن الله – عز وجل – يقول لك : من صلى عليك صليتُ عليه ، ومن سلم عليك سلمت عليه . فسجدتُ لله عز وجل شكراً (٣) .

حديث آخر : قال أبو القاسم الطبراني : حدثنا محمد بن عبد الرحيم بن بَحِير بن عبد الله بن معاوية بن بحير بن ريسان(٤) حدثنا يحيى بن أيوب ، حدثنا عبد الله بن عمر ، عن الحكم بن عتيبة ، عن إبراهيم النخعي ، عن الأسود بن يزيد ، عن عمر ابن الخطاب – رضي الله عنه – قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجة فلم يجد أحداً يتبعه ، ففزع عمر ، فأتاه بمطْهَرة (٥) من خلفه ، فوجد النبي صلى الله عليه وسلم ساجدا في مَشربة (٦) ، فتنحّى عنه من خلفه حتى رفع النبي صلى الله عليه وسلم رأسه ، فقال : « أحسنت يا عمر حين وجدتني ساجدا فتنحيت عني ، إن جبريل أتاني فقال : من صلى عليك من أمتك واحدة ، صلى الله عليه عشر صلوات ، ورفعه عشر درجات » .

وقد اختار هذا الحديث الحافظ الضياء المقدسي في كتابه « المستخرج على الصحيحين » . وقد رواه إسماعيل القاضي ، عن القعنبي ، عن سلمة بن وَرْدان ، عن أنس ، عن عمر بنحوه . ورواه أيضا عن يعقوب بن حميد ، عن أنس بن عياض ، عن سلمة بن وردان ، عن مالك بن أوس بن الحدثان ، عن عمر بن الخطاب ، بنحوه .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١٩١/١ .

(٢) في المخطوطة : « قال » . وفي الطبعات السابقة : « قام » ، والمثبت من المسند .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١٩١/١ .

(٤) في المخطوطة : « ريان » . وفي المعجم الصغير للطبراني ٨٩/٢ : « ريشان » ، بالشين المعجمة ، والمثبت من المشتبه للذهبي : ٤٧٨/١ .

(٥) المطهرة – بكسر الميم – : ما يتوضأ به ويتطهر .

(٦) المشربة : الغرفة .

حديث آخر : قال أبو عيسى الترمذي : حدثنا بندار ، حدثنا محمد بن خالد بن عَثْمَة ، حدثني موسى بن يعقوب الزَّمْعيّ ، حدثني عبد الله بن كيسان : أن عبد الله بن شداد أخبره ، عن عبد الله بن مسعود: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم على صلاة » .

تفرد بروايته الترمذي ـ رحمه الله ـ ثم قال : « هذا حديث حسن غريب (١) » .

حديث آخر : قال إسماعيل القاضي : حدثنا [علي بن عبد الله ، حدثنا سفيان (٢)] عن يعقوب بن زيد بن طلحة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتاني آت من ربي فقال لي : ما من عبد يصلي عليك صلاةً إلا صلى الله عليه بها عشراً ، فقام رجل فقال : يا رسول الله ، ألا أجعل نصف دعائي لك ، قال : إن شئت . قال : ألا أجعل ثلثي دعائي لك ؟ قال : إن شئت . قال : ألا أجعل دعائي لك كله ؟ قال : إذن يكفيك الله هم الدنيا وهم الآخرة . فقال شيخ ـ كان بمكة ، يقال له : منيع (٣) ـ لسفيان : عمن أسنده ؟ قال : لا أدري .

حديث آخر : قال إسماعيل القاضي : حدثنا سعيد بن سلاّم العطار ، حدثنا سفيان ـ يعني الثوري ـ عن عبد الله بن محمد ابن عَقيل ، عن الطفيل بن أبي بن كعب ، عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج في جَوف الليل فيقول : جاءت الراجفة ، تتبعها الرادفة (٤) ، جاء الموت بما فيه . قال أبي : يا رسول الله ، إني أصلي من الليل ، أفأجعل(٥) لك ثلث صلاتي ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الشطر . قال : أفأجعل (٥) لك شطر صلاتي ؟ قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : الثلثان . قال أفأجعل (٥) لك صلاتي كلها ؟ قال : إذن يغفر الله لك ذنبك كله .

وقد رواه الترمذي بنحوه فقال : حدثنا هَنّاد ، حدثنا قبيصة ، حدثنا سفيان ، عن عبد الله بن محمد بن عَقيل ، عن الطفيل بن أبي بن كعب ، عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال : « يا أيها الناس ، اذكروا الله ، اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه ، جاء الموت بما فيه . قال أبي : قلت : يا رسول الله ، إني أكثر الصلاة عليك ، فكم أجعل لك من صلاتي قال : « ما شئت » . قلت : الربع ؟ قال : « ما شئت ، فان زدت فهو خير لك » . قلت : فالنصف ؟ قال : « ما شئت ، فان زدت فهو خير لك » . قلت : فالثلثين ؟ قال : « ما شئت ، فان زدت فهو خير لك » . قلت : أجعل لك صلاتي كلها ؟ قال : « إذن تكفى هَمّك ، ويغفر لك ذنبك » .

ثم قال : « هذا حديث حسن (٦) » .

---

(١) تحفة الأحوذي ، أبواب الوتر ، باب « ما جاء في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ٤٨٢ : ٢/٦٠٧ ـ ٦٠٨ .
(٢) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة ، ومكانه في المخطوطة : « شقيق » .
(٣) في المخطوطة : « يقال له : نسيح » . والمثبت عن الطبعات السابقة .
(٤) الراجفة : النفخة الأولى . والرادفة : النفخة الثانية .
(٥) في المخطوطة : « إنما أجعل » . والمثبت عن الطبعات السابقة .
(٦) تحفة الأحوذي ، أبواب صفة القيامة ، الحديث ٢٥٧٤ : ٧/١٥٢ ـ ١٥٤ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن الطفيل بن أبى ، عن أبيه قال : قال رجل : يا رسول الله ، أرأيت إن جعلتُ صلاتى كلها عليك ؟ قال : « إذن يكفيك الله ما أهَمَّك من دنياك وآخرتك(١) » .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو كامل ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت عن سليمان مولى الحسن بن على ، عن عبد الله بن أبى طلحة ، عن أبيه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم، والسرور يرى فى وجهه، فقالوا: يا رسول الله ، إنا لنرى السرور فى وجهك . فقال : « إنه أتانى الملك فقال : يا محمد ، أما يرضيك أن ربك عز وجل يقول إنه لا يصلى عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلاسلمت عليه عشراً ؟ قال بلى (٢) » .

ورواه النسائى من حديث حماد بن سلمة به ، وقد رواه إسماعيل القاضى ، عن إسماعيل بن أبى أويس، عن أخيه ، عن سليمان بن بلال ، عن عُبَيد الله بن عمر ، عن ثابت ، عن أنس ، عن أبى طلحة ، بنحوه .

طريق أخرى : قال أحمد : حدثنا سُرَيج ، حدثنا أبو معشر ، عن إسحاق بن كعب بن عُجْرَة ، عن أبى طلحة الأنصارى قال : أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما طيب النفس ، يرى فى وجهه البشر ، قالوا : يا رسول الله ، أصبحت اليوم طيب النفس ، يرى فى وجهك البشر ؟ قال : أجل ، أتانى آت من ربى عز وجل فقال : من صلى عليك من أمتك صلاةً ، كَتَبَ الله له بها عشر حسنات ، ومحا عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات ، ورد عليه مثلها (٣) .

هذا أيضا إسناد جيد ، ولم يخرجوه .

حديث آخر : روى مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى ، من حديث إسماعيل بن جعفر ، عن العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلى عَلَىَّ واحدة صلى الله عليه بها عشراً » .

قال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح ، وفى الباب عن عبد الرحمن بن عوف ، وعامر بن ربيعة ، وعمار ، وأبى طلحة ، وأنس ، وأبى بن كعب (٤) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا شريك، عن ليث، عن كعب(٥)، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١٣٦/٥ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٣٠/٤ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٢٩/٤ .
(٤) تحفة الأحوذى ، أبواب الوتر ، باب «ما جاء فى فضل الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ٤٨٣ : ٦٠٨/٢ — ٦٠٩ . وسنن أبى داود ، كتاب الوتر ، باب « فى الاستغفار » . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب « الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم بعد التشهد » : ١٧/٢ . والنسائى ، كتاب السهو ، باب « الفضل فى الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم » : ٥٠/٣ .
(٥) فى المخطوطة مكان « كعب » : ثابت « » . والمثبت عن المسند ، والطبعات السابقة .

عليه وسلم قال : « صلوا على ؛ فإنها زكاة لكم ، وسلوا الله لى الوسيلة ؛ فإنها درجة فى أعلى الجنة ، لا ينالها إلا رجل ، وأرجو أن أكون أنا هو(١) » .

تفرد به أحمد ، وقد رواه البزار من طريق مجاهد ، عن أبى هريرة ، بنحوه فقال : حدثنا محمد بن إسحاق البكائى ، حدثنا عثمان بن سعيد ، حدثنا داود بن علية ، عن ليث ، عن مجاهد ، عن أبى هُرَيرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلوا على فإنها زكاة لكم ، وسلوا الله لى الدرجة الوسيلة من الجنة . فسألناه – أو : أخبرنا – فقال : هى درجة فى أعلى الجنة ، وهى لرجل ، وأنا أرجو أن أكون ذلك الرجل » .

فى إسناده بعض من تُكُلِّم فيه .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق ، حدثنا ابن لهيعة ، [عن عبد الله بن هبيرة](٢) ، عن عبد الرحمن بن مريج الخولانى ، سمعت أبا قيس – مولى عمرو بن العاص – سمعت عبد الله بن عمرو يقول : من صلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة ، صلى الله عليه وملائكته بها سبعين صلاة ، فَلْيُقِلَّ عبد من ذلك أو ليكثر . وسمعت عبد الله بن عمرو يقول : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما كالمودع فقال : « أنا محمد النبى الأمى – قاله ثلاث مرات – ولا نبى بعدى ، أوتيت فواتح الكلام وخواتمه وجوامعه ، وعَلِمْتُ كم خزنة النار وحملة العرش ، وتجوز بى ، عُوفيت وعوفيت أمتى ، فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم ، فإذا ذُهِب بى فعليكم بكتاب الله ، أحلوا حلاله ، وحرموا حرامه(٣) » .

حديث آخر : قال أبو داود الطيالسى : حدثنا أبو سَلَمة الخراسانى ، حدثنا أبو إسحاق ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ذُكِرت عنده فَلْيُصلِّ علىّ ، ومن صلَّى على مرة واحدة صلى الله عليه عشراً (٤) » .

ورواه النسائى فى « اليوم والليلة » ، من حديث أبى داود الطيالسى ، عن أبى سلمة – وهو المغيرة بن مسلم الخراسانى – عن أبى إسحاق عمرو بن عبد الله السبيعى ، عن أنس ، به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن فضيل ، حدثنا يونس بن عمرو ، [يعنى] (٥) يونس بن أبى إسحاق – عن بُرَيد بن أبى مريم ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلى على صلاة واحدة ، صلى الله عليه عشر صلوات ، وحط عنه عشر خطيئات (٦) » .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢/٣٦٥ .
(٢) ما بين القوسين عن المسند . وقد تقدم هذا الحديث من قريب .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٢/١٧٢ .
(٤) منحة المعبود ، كتاب الأذكار والدعوات ، باب « ما جاء فى فضل الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم » : ١/٢٥٩ .
(٥) فى المخطوطة : « عن يونس » . والصواب عن المسند .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٣/١٠٢ .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الملك بن عمرو وأبو سعيد [قالا (١)] حدثنا سليمان بن بلال ، عن عمارة ابن غزية ، عن عبد الله بن علي بن الحسين [عن أبيه علي بن الحسين (٢)] عن أبيه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « البخيل من ذُكرت عنده ، ثم لم يصل عليّ . وقال أبو سعيد : « فلم يصل عليّ (٣) » .

. ورواه الترمذي من حديث سليمان بن بلال ، ثم قال : « هذا حديث حسن غريب صحيح (٤) » .

ومن الرواة من جعله من مسند « الحسين بن علي » ، ومنهم من جعله من مسند « علي » نفسه .

حديث آخر : قال إسماعيل القاضي : حدثنا حجاج بن منهال ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن معبد بن هلال العَنَزِيّ ، حدثني رجل من أهل دمشق ، عن عوف بن مالك ، عن أبي ذر — رضي الله عنه — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أبخل الناس من ذُكرت عنده فلم يصل عليّ » .

حديث آخر مرسل : قال إسماعيل : وحدثنا سُليمان بن حَرب ، حدثنا جرير بن حازم ، سمعت الحسن يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بحسب امرئ من البخل أن أُذْكر عنده فلا يُصَلِّي عليّ » — صلوات الله عليه .

حديث آخر : قال الترمذي : حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي ، حدثنا ربعي بن إبراهيم ، عن عبد الرحمن بن إسحاق عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُري ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليّ . [ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ، ثم انسلخ قبل أن يغفر له] ،ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة » . ثم قال : « حسن غريب (٥) » .

قلت : وقد رواه البخاري في الأدب ، عن محمد بن عبيد الله ، حدثنا ابن أبي حازم ، عن كثير بن زيد ، عن الوليد ابن رباح ، عن أبي هريرة مرفوعا ، بنحوه ، [ورويناه من حديث محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، به] قال الترمذي : وفي الباب عن جابر وأنس (٥) .

قلت : وابن عباس ، وكعب بن عجرة ، وقد ذكرت طرق هذا الحديث في أول كتاب الصيام وعند قوله تعالى : (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما) .

وهذا الحديث والذي قبله دليل على وجوب الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم كلما ذُكر ، وهو مذهب طائفة من العلماء ويتقوى بالحديث الآخر الذي رواه ابن ماجه .

---

(١) ما بين القوسين عن المسند .
(٢) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة ، وقد سقط من المسند ، وانظر الترمذي .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٢٠١/١ . وقول أبي سعيد غير ثابت فيه .
(٤) تحفة الأحوذي ، أبواب الدعوات ، الحديث ٣٦١٤ : ٥٣١/٩ .
(٥) تقدم الحديث في سورة الإسراء ، عند تفسير الآية ٢٣ ، وخرجناه هنالك ، انظر : ٦٣/٥ .

حدثنا جُبَارة بن المغلس ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا عمرو بن دينار ، عن جابر بن زيد ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من نسى الصلاة علىّ خطئ طريق الجنة (١) » .

جُبَارة ضعيف . ولكن رواه إسماعيل القاضى من غير وجه ، عن أبى جعفر محمد بن على الباقر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من نسى الصلاة علىّ خطئ طريق الجنة » . وهذا مرسل يتقوى بالذى قبله .

وذهب آخرون إلى أنه تجب الصلاة فى المجلس مرة واحدة ، ثم لا تجب فى بقية ذلك المجلس ، بل تستحب . نقله الترمذى عن بعضهم ، ويتأيد بالحديث الذى رواه الترمذى :

حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن صالح ـ مولى التوأمة ـ عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه ، ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم تِرَة (٢) ، فان شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم (٣) » .

تفرد به الترمذى من هذا الوجه . ورواه الإمام أحمد عن حجاج ويزيد بن هارون ، كلاهما عن ابن أبى ذئب ، عن صالح ـ مولى التوأمة ـ عن أبى هريرة ، مرفوعا (٤) مثله . ثم قال الترمذى : « هذا حديث حسن (٣) » .

وقد رُوى عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، من غير وجه ، وقد رواه إسماعيل القاضى من حديث شعبة ، عن سليمان ، عن ذكوان ، عن أبى سعيد قال : « ما من قوم يقعدون ثم يقومون ولا يصلون على النبى صلى الله عليه وسلم ، إلا كان عليهم حسرة ، وإن دخلوا الجنة لما يرون [من] الثواب » .

وحكى عن بعضهم أنه إنما تجب الصلاة عليه ـ عليه السلام ـ فى العمر مرة واحدة ، امتثالا لأمر الآية ، ثم هى مستحبة فى كل حال . وهذا هو الذى نصره القاضى عياض بعدما حكى الإجماع على وجوب الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم فى الجملة . قال : وقد حكى الطبرانى أن محمل الآية على الندب ، وادعى فيه الإجماع . قال : ولعله فيما زاد على المرة ، والواجب منه مرة كالشهادة له بالنبوة ، وما زاد على ذلك فمندوب مُرَغَّب فيه من سنن الإسلام ، وشعار أهله .

قلت : وهذا قول غريب ، فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه فى أوقات كثيرة فمنها واجب ومنها مستحب على ما نبينه ، فمنه بعد النداء للصلاة للحديث الذى رواه الإمام أحمد :

حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حيوة ، حدثنا كعب بن علقمة ، أنه سمع عبد الرحمن بن جبير يقول : إنه سمع عبد الله ابن عمرو بن العاص يقول : إنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سمعتم مؤذنا فقولوا مثل ما يقول ثم ،

(١) سنن ابن ماجه ، كتاب الإقامة ، باب « الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ٩٠٨ : ١/٢٩٤ .
(٢) الترة ـ بكسر التاء ، وتخفيف الراء ـ : التبعة والمعاتبة ، أو النقصان والحسرة .
(٣) تحفة الأحوذى ، أبواب الدعوات ، باب « ما جاء فى القوم يجلسون ولا يذكرون الله » ، الحديث ٣٤٤٠ : ٩/٣٢٢ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٢/٤٥٣ .

صلوا على ؛ فإنه من صلى على صلى الله عليه بها عشرا، ثم سلوا لى الوسيلة ، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة (١) » .

وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى ، من حديث كعب بن علقمة (٢) .

طريق أخرى ، قال إسماعيل القاضى : حدثنا محمد بن أبى بكر ، حدثنا عمرو بن على ، عن أبى بكر الجُشَمى ، عن صفوان بن سليم ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سأل الله لى الوسيلة ، حقَّت عليه شفاعتى يوم القيامة » .

حديث آخر : قال إسماعيل القاضى : حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا سعيد بن [زيد عن] ليث عن كعب – هو كعب الأحبار ، عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صلوا على ، فان صلاتكم علىّ زكاة لكم ، وسلوا الله لى الوسيلة . قال : فإما حدّثنا وإما سألناه ، فقال : الوسيلة أعلى درجة فى الجنة ، لا ينالها إلا رجل ، وأرجو أن أكون ذلك الرجل .

ثم رواه عن محمد بن أبى بكر ، عن معتمر ، عن ليث – وهو ابن أبى سليم – به : وكذا الحديث الآخر .

قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا بكر بن سوادة ، عن زياد بن نعيم ، عن وَفاء(٣) الحضرمى ، عن رويفع بن ثابت الأنصارى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من صلى على محمد وقال : اللهم ، أنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة ، وجبت له شفاعتى(٤) » .

وهذا إسناد لا بأس به ، ولم يخرجوه .

أثر آخر : قال إسماعيل القاضى : حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا ، سفيان حدثنى معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، سمعت ابن عباس يقول : اللهم تقبل شفاعة محمد الكبرى ، وارفع درجته العليا ، وأعطه سُؤْله فى الآخرة والأولى ، كما آتيت إبراهيم وموسى عليهما السلام . إسناد جيّد قوى صحيح .

ومن ذلك عند دخول المسجد والخروج منه ، للحديث الذى رواه الإمام أحمد :

حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا ليث بن أبى سليم ، عن عبد الله بن الحسن ، عن أمه فاطمة بنت الحسين ، عن جدته [فاطمة] بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم وقال : « اللهم ، اغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب رحمتك » . وإذا خرج صلى على محمد وسلم ، ثم قال : « اللهم ، اغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب فضلك(٥) » .

وقال إسماعيل القاضى : حدثنا يحى بن عبد الحميد ، حدثنا سفيان بن عمر التميمى ، عن سليمان الضبى ، عن على ابن الحسين قال : قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : إذا مررتم بالمساجد فصلوا على النبى صلى الله عليه وسلم .

(١) مسند الإمام أحمد : ٢/١٦٨ .

(٢) مسلم ، كتاب الصلاة ، « باب القول مثل قول المؤذن ... » : ٢/٤ . والنسائى ، كتاب الأذان ، باب « الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم بعد الأذان » : ٢/٢٥ – ٢٦ .

(٣) فى المخطوطة : « ورقاء » . والصواب من المسند والخلاصة .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٤/١٠٨ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٦/٢٨٢ .

وأما الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم فى الصلاة ، فقد قدمنا الكلام عليها فى التشهد الأخير ، ومن ذهب إلى ذلك من العلماء مع الشافعي رحمه الله . وأما التشهد الأول فلا تجب فيه قولا واحدا ، وهل تستحب ؟ على قولين للشافعي .

ومن ذلك الصلاة عليه [صلى الله عليه وسلم] فى صلاة الجنازة ، فان السنة أن يقرأ فى التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب ، وفى الثانية يصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وفى الثالثة يدعو للميت ، وفى الرابعة يقول : اللهم ، لا تحرمنا أجره ، ولا تفتنا بعده .

قال الشافعي رحمه الله : حدثنا مُطَرِّف بن مازن ، عن معمر ، عن الزهرى : أخبرنى أبو أمامة بن سهل بن حُنَيف أنه أخبره رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : أن السنة فى الصلاة على الجنازة أن يكبر الإمام ، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرا فى نفسه ثم يصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ويخلص الدعاء للجنازة ، وفى التكبيرات لا يقرأ فى شيء منها ، ثم يسلم سرا فى نفسه(١) .

ورواه النسائى ، عن أبى أمامة نفسه أنه قال : من السنة ، فذكره .

وهذا من الصحابى فى حكم المرفوع على الصحيح .

ورواه إسماعيل القاضى ، عن محمد بن المثنى ، عن عبد الأعلى ، عن معمر ، عن الزهرى ، عن أبى أمامة بن سهل ، عن سعيد بن المسيب أنه قال : السنة فى الصلاة على الجنازة ... فذكره .

وهكذا رُوى عن أبى هريرة ، وابن عمر ، والشعبى .

ومن ذلك فى صلاة العيد ، قال إسماعيل القاضى : حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا هشام الدستوائى ، حدثنا حمّاد ابن أبى سليمان ، عن إبراهيم ، عن علقمة : أن ابن مسعود وأبا موسى وحذيفة خرج عليهم الوليد بن عقبة يوماً [قبل العيد](٢) ، فقال لهم : إن هذا العيد قد دنا ، فكيف التكبير فيه ؟ قال عبد الله : تبدأ فتكبر تكبيرة تفتتح بها الصلاة ، وتحمد ربك وتصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم تدعو ، وتكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تقرأ ثم تكبر وتركع ، ثم تقوم فتقرأ وتحمد ربك وتصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم تدعو وتكبر ، وتفعل مثل ذلك ، ثم تركع . فقال حذيفة وأبو موسى : صدق أبو عبد الرحمن . إسناد صحيح .

ومن ذلك أنه يُستَحَبّ ختم الدعاء بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ، قال الترمذى :

حدثنا أبو داود أخبرنا النضر بن شميل ، عن أبى قُرّة الأسدى ، عن سعيد بن المسيّب ، عن عمر بن الخطاب قال : الدعاء موقوف بين السماء والأرض ، لا يصعد منه شيء حتى تصلى على نبيك(٣) .

وهكذا رواه أيوب بن موسى عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب — قوله . ورواه معاذ بن الحارث ، عن أبى قرة ، عن سعيد بن المسيب ، عن عمر مرفوعاً . وكذا رواه رَزين بن معاوية(٤) فى كتابه مرفوعاً ، عن النبي

---

(١) الأم للإمام الشافعي ، كتاب الجنائز ، باب « الصلاة على الجنازة والتكبير فيها » : ١/٢٣٩ — ٢٤٠ .

(٢) فى المخطوطة : « عقبة صلى العيد يوما » . والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٣) تحفة الأحوذى ، أبواب الوتر ، باب « ما جاء فى فضل الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ٤٨٤ : ٢/٦١٠ .

(٤) هو أبو الحسن رزين بن معاوية العبدرى الأندلسى السرقسطى ، مصنف تجريد الصحاح ، وكتاب أخبار مكة والمدينة وفضلها . توفى فى المحرم سنة ٥٣٥ . انظر العبر للذهبى : ٤/٩٥ . وفهرسة ابن خير : ١٢٣ ، ٢٧٩ .

صلى الله عليه وسلم قال : « الدعاء موقوف بين السماء والأرض ، لايصعد حتى يصلى على ، فلا تجعلونى كغُمَر الراكب(١) صلوا على أول الدعاء وأوسطه وآخره » .

وهذه الزيادة إنما تروى من رواية جابر بن عبد الله فى مسند الإمام عبد بن حُميد الكشى قال : حدثنا جعفر بن عون ، أخبرنا موسى بن عبيدة ، عن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم ، عن أبيه قال : قال جابر : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تجعلونى كقدح الراكب ، إذا علق تعاليقه أخذ قدحه فملأه من الماء ، فان كان له حاجة فى الوضوء توضأ ، وإن كان له حاجة فى الشرب شرب وإلا أهراق ما فيه ، اجعلونى فى أول الدعاء ، وفى وسط الدعاء ، وفى آخر الدعاء » .

فهذا حديث غريب ، وموسى بن عُبَيدة ضعيف الحديث .

ومن ذلك دعاء القنوت ، لما رواه الإمام أحمد وأهل السنن ، وابن خزيمة ، وابن حبّان ، والحاكم ، من حديث أبى الحوراء ، عن الحسن بن على — رضى الله عنهما — قال : علّمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولهن فى الوتر : اللهم اهدنى فيمن هديت ، وعافنى فيمن عافيت ، وتولنى فيمن توليت ، وبارك لى فيما أعطيت ، وقنى شر ما قضيت ، فانك تقضى ولا يقضى عليك إنه لا يذل من واليت ، تباركت [ربنا] وتعاليت(٢) .

وزاد النسائى فى سننه بعد هذا : وصلى الله على النبى [محمد] .

ومن ذلك أنه يستحب الإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة وليلة الجمعة قال الإمام أحمد : حدثنا حسين بن على الجعفى ، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، عن أبى الأشعث الصنعانى ، عن أوس بن أوس الثقفى — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا على من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة علىّ : قالوا : يارسول الله ، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرَمْتَ(٣) ؟ — يعنى وقد بليت — قال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء(٤) » .

---

(١) الغمر — بضم الغين ، وفتح الميم — : القدح الصغير ، أراد أن الراكب يحمل رحله وأزواده على راحلته ، ويترك قعبه إلى آخر ترحاله ، ثم يعلقه على رحله كالعلاوة — أى : الزيادة — فليس عنده بمهم ، فنهاهم أن يجعلوا الصلاة عليه كالغمر الذى لا يقدم فى المهام ، ويجعل تبعا .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١٩٩/١ . وسنن أبى داود ، كتاب الوتر ، باب القنوت فى الوتر . وتحفة الأحوذى ، أبواب الوتر ، باب « ما جاء فى القنوت فى الوتر » ، الحديث ٤٦٣ : ٥٦٢/٢ — ٥٦٣ . وسنن النسائى ، كتاب قيام الليل وتطوع النهار ، باب الدعاء فى الوتر : ٢٤٨/٣ .

(٣) فى النهاية : « قال الحربى : هكذا يرويه المحدثون ، [يعنى بفتح التاء] ، ولا أعرف وجهه [والصواب : أرمت [يعنى : بسكون التاء] ، فتكون التاء لتأنيث العظام ، أو : رممت ، أى صرت رميما .

وقال غيره : إنما هو أرمت — بوزن ضربت — وأصله أرممت : أى بليت ، فحذفت إحدى الميمين ، كما قالوا : أحست فى أحسست » .

هذا ، وقد قدم ابن الأثير تفسيراً للرواية التى أنكرها الحربى ، انظر النهاية ، مادة : رمم .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٨/٤ .

ورواه أبو داود والنسائى وابن ماجه ، من حديث حسين بن على الجعفى(١) . وقد صحح هذا الحديثَ ابنُ خزيمة ، وابن حبان والدارقطنى ، والنووى فى الأذكار .

حديث آخر ، قال أبو عبد الله بن ماجه : حدثنا عمرو بن سوّاد المصرى ، حدثنا عبد الله بن وهب ، عن عمرو ابن الحارث عن سعيد بن أبى هلال ، عن زيد بن أيمن ، عن عُبادة بن نُسىّ ، عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكثروا الصلاة علىّ يوم الجمعة ؛ فانه مشهود تشهده الملائكة . وإن أحداً لن يصلى على إلا عُرضت علىّ صلاته حتى يفرغ منها » . قال قلت : وبعد الموت ؟ قال : [وبعد الموت(٢)] إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء ،[فنبى الله حى يرزق(٣)] » .

هذا حديث [غريب] من هذا الوجه ، وفيه انقطاع بين عُبادة بنُ نُسى وأبى الدرداء ،فانه لم يدركه ، والله أعلم .

وقد روى البيهقى من حديث أبى أمامة وأبى مسعود ، عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الأمر بالإكثار من الصلاة عليه ليلة الجمعة ويوم الجمعة ، ولكن فى إسنادهما ضعف والله أعلم . ورُوى مرسلا عن الحسن البصرى ، فقال إسماعيل القاضى :

حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا جرير بن حازم ، سمعت الحسنَ – هو البصرى – يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تأكل الأرض جسَدَ من كلّمه روحُ القدس » : مرسل حسن .

وقال الشافعى : أخبرنا إبراهيم بن محمد ، أخبرنا صفوان بن سليم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كان يوم الجمعة وليلة الجمعة ، فأكثروا الصلاة على(٤) » : هذا مرسل .

وهكذا يجب على الخطيب أن يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة على المنبر فى الخطبتين ، ولا تصح الخطبتان إلا بذلك ، لأنها عبادة ، وذكر الله فيها شرط ، فوجب ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم فيها كالأذان والصلاة : هذا مذهب الشافعى وأحمد رحمهما الله .

ومن ذلك أنه يستحب الصلاة والسلام عليه عند زيارة قبره – صلوات الله وسلامه عليه – قال أبو داود :

حدثنا ابن عوف – هو محمد – حدثنا المقرئ حدثنا حيوة ، عن أبى صخر حميد بن زياد ، عن يزيد بن عبد الله ابن قسيط ، عن أبى هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من أحد يسلم على إلا ردّ الله على روحى ، حتى أرد عليه السلام(٥) » .

تفرد به أبو داود ، وصححه النووى فى الأذكار : ثم قال أبو داود :

---

(١) سنن أبى داود ، كتاب الوتر ، باب « فى الاستغفار » . وسنن النسائى ، كتاب الجمعة ، باب « إكثار الصلاة على النبى – صلى الله عليه وسلم – يوم الجمعة » : ٣/٩١ – ٩٢ . وسنن ابن ماجه ، كتاب الجنائز ، باب « ذكر وفاته ودفنه صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ١٦٣٦ : ١/٥٢٤ .

(٢) ما بين القوسين عن سنن ابن ماجه .

(٣) سنن ابن ماجه ، فى الكتاب والباب المتقدمين ، الحديث ١٦٣٧ : ١/٥٢٤ .

(٤) الأم للإمام الشافعى ، كتاب الجمعة ، باب « ما يؤمر به فى ليلة الجمعة ويومها » : ١/١٨٤ .

(٥) سنن أبى داود ، كتاب المناسك ، باب « زيارة القبور » .

حدثنا أحمد بن صالح قال : قرأت على عبد الله بن نافع ، أخبرنى ابن أبى ذئب ، عن سعيد المقبُرى ، عن أبى هريرة قال : قال رسولُ الله صَلّى الله عليه وسلم : « لا تجعلوا بيوتكم قُبُوراً ، ولا تجعلوا قبرى عيداً ، وصلوا علىّ ، فان صلاتكم تبلغنى حيثما كنتم(١) » .

تفرد به أبو داود أيضا ، وقد رواه الإمام أحمد عن سُرَيج ، عن عبد الله بن نافع — وهو الصائغ — به(٢) ; وصححه النووى أيضاً . وقد روى من وجه آخر عن على — رضى الله عنه — قال القاضى إسماعيل بن إسحاق فى كتابه « فضل الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم » .

حدثنا إسماعيل بن أبى أويس ، حدثنا جعفر بن إبراهيم بْن محمد بن على بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب [عمن(٣) أخبره] من أهل بيته ، عن على بن الحسين بن على : أن رجلا كان يأتى [كل] غداة فيزور قبرَ النبى صلى الله عليه وسلم ويصلى عليه ، ويصنع من ذلك ما اشتهر (٤) عليه على بن الحسين ، فقال له على بن الحسين : ما يحملك على هذا ؟ قال : أحب السلام على النبى صلى الله عليه وسلم . فقال له على بن الحسين : هل لك أن أحدثك حديثا عن أبى ؟ قال : نعم ، فقال له على بن الحسين : أخبرنى أبى عن جدى أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تجعلوا قبرى عيداً ، ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، وصلوا علىّ وسلموا حيثما كنتم فتبلغنى صلاتكم وسلامكم » .

فى إسناده رجل مبهم لم يُسَمّ . وقد رُوى من وجه آخر مرسلا ، قال عبد الرزاق فى مصنفه ، عن الثورى ، عن ابن عجلان ، عن رجل — يقال له : سهيل — عن الحسن بن الحسن بن على أنه رأى قوماً عند القبر فنهاهم ، وقال : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تتخذوا قبرى عيداً ، ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً ، وصلوا على حيثما كنتم ، فإن صلاتكم تبلغنى » . فلعله رآهم يسيئون الأدب برفع أصواتهم ، فنهاهم .

وقد رُوى أنه رأى رجلا ينتاب القبر فقال : ياهذا ، ما أنت ورجل بالأندلس منه إلا سواء ; أى : الجميع يبلغه ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين .

وقال الطبرانى فى معجمه الكبير : حدثنا أحمد بن رشْدين المصرى ، حدثنا سعيد بن أبى مريم ، حدثنا محمد بن جعفر ، أخبرنى حميد بن أبى زينب ، عن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب — رضى الله عنهم — عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صلوا على حيثما كنتم ، فإن صلاتكم تبلغنى » .

ثم قال الطبرانى : حدثنا العباس بن حمدان الأصبهانى ، حدثنا شعيب بن عبد الحميد الطحان ، أخبرنا يزيد بن هارون بن أبى شيبان (٥) ، عن الحكم بن عبد الله بن خطاب ، عن أم أنيس بنت الحسن بن على ، عن أبيها قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أرأيت قول الله عز وجل : (إن الله وملائكته يصلون على النبى) ؟ فقال : « إن هذا

---

(١) سنن أبى داود فى الكتاب والباب المتقدمين .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٣٦٧/٢ .
(٣) ما بين القوسين من الطبعات السابقة ، ومكانه فى المخطوطة : « عن أخيه » .
(٤) كذا فى المخطوطة والطبعات السابقة .
(٥) كذا ، ويزيد هو ابن هارون بن وادى . انظر التهذيب : ٣٦٦/١١ .

من المكتوم ، ولولا أنكم سألتموني عنه لما أخبرتكم ، إن الله وكل بي ملكين لا أذكر عند عبد مسلم فيصلي علي إلا قال ذانك الملكان ، « غفر الله لك » . وقال الله وملائكته جواباً لذينك الملكين : « آمين » . ولا يصلي احد إلا قال ذانك الملكان : « لا غفر الله لك » ; ويقول الله وملائكته جوابا لذينك الملكين : « آمين » .

غريب جدا ، وإسناده فيه ضعف شديد :

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن عبد الله بن السائب ، عن زاذان ، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن لله ملائكة سياحين في الأرض ، يبلغوني من أمتي السلام (١)

وهكذا رواه النسائي من حديث سفيان الثوري وسليمان بن مهران الأعمش ، كلاهما عن عبد الله بن السائب ، به(٢) .

فأما الحديث الآخر : « من صلى علَيّ عند قبري سمعته ، ومن صلى علي من بعيد بُلغته » ـ ففي إسناده نظر ، تفرد به محمد بن مروان السدي الصغير ، وهو متروك ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة مرفوعاً .

قال أصحابنا : ويستحب للمحرم إذا لبى وفرغ من تلبيته أن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم لما روى عن الشافعي والدارقطني من رواية صالح بن محمد بن زائدة ، عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق قال : كان يُؤْمر الرجل إذا فرغ من تلبيته أن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم على كل حال(٣) .

وقال إسماعيل القاضي : حدثنا عارم بن الفضل ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، حدثنا زكريا ، عن الشعبي ، عن وهب ابن الأجدع قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : إذا قدمتم فطوفوا بالبيت سبعاً ، وصلوا عند المقام ركعتين ، ثم ائتوا الصفا فقوموا عليه من حيث ترون البيت ، فكبروا سبع تكبيرات ، تكبيرا بين حمد الله وثناء عليه ، وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومسألة لنفسك ، وعلى المروة مثل ذلك .

إسناد جيد حسن قوي :

وقالوا : ويستحب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مع ذكر الله عند الذبح ، واستأنسوا بقوله تعالى : (ورفعنا لك ذكرك(٤)) ، قال بعض المفسرين : يقول الله تعالى : « لا أذكر إلا ذكرتَ معي » . وخالفهم في ذلك الجمهور ، وقالوا : هذا موطن يفرد فيه ذكر الرب تعالى ، كما عند الأكل ، والدخول ، والوقاع وغير ذلك ، مما لم ترد فيه السنة بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم :

حديث آخر ، قال إسماعيل القاضي : حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي ، حدثنا عمر بن هارون ، عن موسى بن عبيدة ، عن محمد بن ثابت ، عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صلوا على أنبياء الله ورسله ، فان الله بعثهم كما بعثني » :

في إسناده ضعيفان ، وهما عمر بن هارون وشيخه ، والله أعلم . وقد رواه عبد الرزاق ، عن الثوري ، عن موسى ابن عبيدة الرَّبَذي ، به :

(١) مسند الإمام أحمد : ١/٤٤١ .
(٢) سنن النسائي ، كتاب السهو ، باب « السلام على النبي صلى الله عليه وسلم » : ٣/٤٣ .
(٣) الأم للإمام الشافعي ، كتاب الحج ، باب « ما يستحب من القول في أثر التلبية » : ٢/١٣٤ .
(٤) سورة الانشراح ، آية : ٤ .

ومن ذلك أنه يستحب الصلاة عليه عند طنين الأذن ، إن صح الخبر فى ذلك ، على أن الإمام أبا بكر محمد بن إسحاق ابن خزيمة قد رواه فى صحيحه فقال : حدثنا زياد بن يحيى ، حدثنا معمر بن محمد بن عبيد الله ، عن(١) على بن أبى رافع ، عن أبيه أبى رافع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا طنت أذن أحدكم فليذكرنى وليصل على ، وليقل : ذكر الله من ذكرنى بخير » . إسناده غريب ، وفى ثبوته نظر ، والله أعلم .

[مسألة]

وقد استحب أهل الكتابة أن يكرر الكاتب الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم كلما كتبه ، وقد ورد فى الحديث من طريق كادح بن رحمة ، عن نهشل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلى علىّ فى كتاب ، لم تزل الصلاة جارية له ما دام اسمى فى ذلك الكتاب »

وليس هذا الحديث بصحيح من وجوه كثيرة ، وقد رُوى من حديث أبى هريرة ، ولا يصح أيضاً ، قال الحافظ أبو عبد الله الذهبى شيخُنا : أحسبه موضوعاً . وقد رُوى نَحوُه عن أبى بكر ، وابن عباس . ولا يصح من ذلك شىء ، والله أعلم . وقد ذكر الخطيب البغدادى فى كتابه : « الجامع لآداب الراوى والسامع (٢) » ، قال : رأيت بخط الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله : كثيراً ما يكتب اسم النبى صلى الله عليه وسلم من غير ذكر الصلاة عليه كتابة ، قال : وبلغنى أنه كان يصلى عليه لفظاً .

[فصل]

وأما الصلاة على غير الأنبياء فان كانت على سبيل التبعية كما تقدم فى الحديث : « اللهم صل على محمد وآله وأزواجه وذريته » ، فهذا جائز بالإجماع ، وإنما وقع النزاع فيما اذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم فقال قائلون : « يجوز ذلك » واحتجوا بقوله : (هو الذى يصلى عليكم وملائكته) ، وبقوله : (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) وبقوله تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم) ، وبحديث عبد الله بن أبى أوفى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : « اللهم صَل عليهم » . وأتاه أبى بصدقته فقال : « اللهم صل على آل أبى أوفى » . أخرجاه فى الصحيحين . وبحديث جابر : أن امرأته قالت : يارسول الله ، صل على وعلى زوجى . فقال : « صلى الله عليك وعلى زوجك(٣) »

وقال الجمهور من العلماء : لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة ، لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا ، فلا يلحق بهم غيرهم ، فلا يقال : « قال أبو بكر صلى الله عليه » . أو « قال على صلى الله عليه » . وإن كان المعنى صحيحاً ، كما لا يقال : « قال محمد عز وجل » ، وإن كان عزيزاً جليلا ، لأن هذا من شعار ذكر الله عز وجل . وحملوا ما ورد فى ذلك من الكتاب والسنة على الدعاء لهم ، ولهذا لم يثبت شعارا لآل أبى أوفى ، ولا لجابر وامرته . وهذا مسلك حسن .

وقال آخرون : لا يجوز ذلك ، لأن الصلاة على غير الأنبياء قد صارت من شعار أهل الأهواء ، يصلون على من يعتقدون فيهم ، فلا يقتدى بهم فى ذلك ، والله أعلم .

---

(١) فى المخطوطة : « عن على » . . ولم يتهيأ لنا ضبط هذا السند . والمثبت من الطبعات السابقة .
(٢) انظر كشف الظنون : ١/٥٧٥ .
(٣) تقدم تخريج هذين الحديثين فى هذه السورة ، انظر : ٦/٤٤٨ .

ثم اختلف المانعون من ذلك : هل هو من باب التحريم ، أو الكراهة التنزيهية ، أو خلاف الأولى ؟ على ثلاثة أقوال ، حكاها الشيخ أبو زكريا النووى فى كتاب الأذكار . ثم قال : والصحيح الذى عليه الأكثرون أنه مكروه كراهة تنزيه ، لأنه شعار أهل البدع ، وقد نهينا عن شعارهم ، والمكروه هو ما ورد فيه نهى مقصود . قال أصحابنا : والمعتمد فى ذلك أن الصلاة صارت مخصوصة فى اللسان بالأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم – كما أن قولنا « عز وجل » ، مخصوص بالله سبحانه وتعالى، فكما لا يقال: « محمد عز وجل »، وإن كان عزيزاً جليلا ، لا يقال« أبو بكر – أو : على – صلى الله عليه » : هذا لفظه بحروفه . قال : وأما السلام فقال الشيخ أبو محمد الجُوَيْنى(١) من أصحابنا : هو فى معنى الصلاة ، فلا يستعمل فى الغائب ، ولا يفرد به غير الأنبياء ، فلا يقال : « على عليه السلام » ، وسواء فى هذا الأحياء والأموات ، وأما الحاضر فيخاطب به،فيقال: سلام عليكم،أو سلام عليك،أو السلام عليك أو عليكم . وهذا مجمع عليه .انتهى ما ذكره

قلت : وقد غلب هذا فى عبارة كثير من النساخ للكتب ، أن يفرد على رضى الله عنه بأن يقال : « عليه السلام » ، من دون سائر الصحابة ، أو : « كرم الله وجهه » وهذا وإن كان معناه صحيحاً ، لكن ينبغى أن يُسَاوى بين الصحابة فى ذلك ؛ فان هذا من باب التعظيم والتكريم ، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان أولى بذلك منه ، رضى الله عنهم أجمعين .

قال إسماعيل القاضى : حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب(٢) ، [حدثنا عبد الواحد] بن زياد ، حدثنى عثمان بن حكيم ابن عَبَّاد بن حُنَيف ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال : لا تصح(٣) الصلاة على أحد إلا على النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالمغفرة(٤) .

وقال أيضاً : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا حسين بن على ، عن جعفر بن بُرْقان قال : كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله : أما بعد ، فإن أناسا من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة ، وإن ناساً من القصاص قد أحدثوا فى الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدْلَ الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، فاذا جاءك كتابى هذا فَمُرْهم أن تكون صلاتهم على النبيين ودعاؤهم للمسلمين عامة ، ويدعوا ما سوى ذلك . أثر حسن .

قال إسماعيل القاضى : حدثنا معاذ بن أسد ، حدثنا عبد الله بن المبارك،حدثنا ابن لهيعة،حدثنى خالد بن يَزيد(٥)، عن سعيد بن أبى هلال ، عن نُبَيه بن وهب : أن كعباً دخل على عائشة رضى الله عنها ، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال كعب : ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبى صلى الله عليه وسلم ، سبعون ألفاً بالليل ، وسبعون ألفاً بالنهار ، حتى إذا انشقت عنه الأرض خرج فى سبعين ألفاً من الملائكة يزفونه .

(١) هو عبد الله بن يوسف ، شيخ الشافعية ، وهو والد إمام الحرمين أبى المعالى الجوينى . كان أبو محمد مجتهداً فى العبادة ، وقد تصدر للفتوى والتدريس والتصنيف . وكانت وفاته فى ذى القعدة سنة ٤٣٨ انظر العبر للذهبى : ١٨٨/٣ .

(٢) فى المخطوطة : « حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب بن زياد » . وما بين القوسين عن الطبعات السابقة . هذا وانظر التهذيب ترجمة « عبد الواحد بن زياد » : ٤٣٤/٦ .

(٣) فى المخطوطة : « لا تصلح » . والمثبت من الطبعات السابقة .

(٤) فى المخطوطة : « بالاستغفار » . والمثبت أيضاً من الطبعات السابقة .

(٥) فى المخطوطة : « خالد بن زيد » . والصواب من الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٣٥٨/٢/١ .

[فرع]

قال النووى : إذا صلى على النبى صلى الله عليه وسلم فليجمع بين الصلاة والتسليم ، فلا يقتصر على أحدهما فلا يقول : « صلى الله عليه فقط » ، ولا : « عليه السلام » فقط ، وهذا الذى قاله منتزع من هذه الآية الكريمة ، وهى قوله : (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) ، فالأولى أن يقال : صلى الله عليه وسلم تسليما .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾

يقول تعالى متهدداً ومتوعداً مَن آذاه ، بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك ، وأذى رسوله بعيب أو تنقص ، عياذا بالله من ذلك .

قال عكرمة فى قوله : (إن الذين يؤذون الله ورسوله) ، نزلت فى المصوِّرين :

وفى الصحيحين ، من حديث سفيان بن عيينة ، عن الزهرى ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل : يؤذينى ابن آدم ، يسب الدهر ، وأنا الدهر ، أقلب ليله ونهاره » (١)

ومعنى هذا أن الجاهلية كانوا يقولون : ياخيبة الدهر . فعل بنا كذا وكذا . فيسندون أفعال الله تعالى إلى الدهر ويسبونه ، وإنما الفاعل لذلك هو الله عز وجل ، فنهى عن ذلك . هكذا قرره الشافعى وأبو عبيد وغيرهما من العلماء رحمهم الله .

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله (يؤذون الله ورسوله) ، نزلت فى الذين طعنوا فى تزويجه صفية بنت حُيَىّ ابن أخطب(٢) .

والظاهر أن الآية عامة فى كل من آذاه بشىء ، من آذاه فقد آذى الله ، ومن أطاعه فقد أطاع الله ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا يونس ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، عن عَبيدة بن أبى رائطة الحذاء التميمى ، عن عبد الرحمن [بن زياد (٣)] ، عن عبد الله بن المغفل المزنى قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « الله الله فى أصحابى . لا تتخذوهم غَرَضا بعدى ، فمن أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه(٤) » .

---

(١) البخارى ، تفسير سورة الجاثية : ١٦٦/٦ . وكتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : (يريدون أن يبدلوا كلام الله) : ١٧٥/٩ . ومسلم ، كتاب الألفاظ من الأدب ، باب « النهى عن سب الدهر » : ٤٥/٧ .

(٢) تفسير الطبرى : ٣٢/٢٢ .

(٣) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة ، ومثله فى المسند : ٥٤/٥ ، ٥٧ . وفى هذين الموضعين أيضاً : « عبد الرحمن بن زياد » ، أو : عبد الرحمن بن عبد الله » . ولكن فى الموضع الذى معنا ٨٧/٤ : « ابن أبى رائطة ، عن عبد الله بن عبد الرحمن » .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٨٧/٤ .

وقد رواه الترمذى من حديث عَبيدة بن أبي رائطة ، عن عبد الرحمن بن زياد ، عن عبد الله بن المغفل ، به . ثم قال « وهذا حديث غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه »(١) .

وقوله : (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا) ، أى : ينسبون إليهم ما هم برآء منه لم يعملوه ولم يفعلوه ، (فقد احتملوا بهتانا وإثماً مبيناً) ، وهذا هو البهت البيّن أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه ، على سبيل العيب والتنقص لهم ، ومن أكثر من يدخل فى [هذا] الوعيد الكفرةُ بالله ورسوله ، ثم الرافضة الذين يتنقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برّأهم الله منه ، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم ؛ فان الله عز وجل قد أخبر أنه قد رضى عن المهاجرين والأنصار ومدحهم ، وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم ويتنقصونهم ، ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبداً ، فهم فى الحقيقة منكوسو القلوب ، يذمون الممدوحين ، ويمدحون المذمومين .

وقال أبو داود : حدثنا القعنبى ، حدثنا عبد العزيز — يعنى ابن محمد — عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبى هريرة أنه قيل : يارسول الله ، ما الغيبة ؟ قال : ذكرُكَ أخاك بما يكره . قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتَّه(٢) » .

وهكذا رواه الترمذى ، عن قتيبة ، عن الدراوردى ، به . قال : « حسن صحيح »(٣) .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سلمة ، حدثنا أبو كريب ، حدثنا معاوية بن هشام ، عن عمار بن أنس ، عن ابن أبى مليكة ، عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : أىُّ الربا أربى عند الله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : أربى الربا عند الله استحلالُ عرض امرىء مسلم . ثم قرأ : (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً) .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾

يقول تعالى آمراً رسوله — صلى الله عليه وسلم تسليما — أن يأمر النساء المؤمنات — خاصة أزواجه وبناته لشرفهن — بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ، ليتميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإماء . والجلباب هو : الرداء فوق الخمار ؛ قاله ابن مسعود ، وعبيدة ، [وقتادة] والحسن البصرى ، وسعيد بن جبير ، وإبراهيم النخعى ، وعطاء الخراسانى ، وغير واحد . وهو بمنزلة الإزار اليوم .

---

(١) تحفة الأحوذى ، أبواب المناقب ، باب « فيمن سب أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ٣٩٠٤ : ١٠/٣٦٥ .

(٢) أى : كذبت وافتريت عليه . والحديث أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب ، باب فى الغيبة .

(٣) تحفة الأحوذى ، أبواب البر ، باب « ما جاء فى الغيبة » ، الحديث ١٩٩٩ : ٦/٦٣ — ٦٤ . وقد أخرجه مسلم فى كتاب البر ، باب « تحريم الغيبة » : ٨/٢١ من طريق العلاء .

قال الجوهرى : الجلباب : الملحفة ، قالت امرأة (١) من هذيل ترثى قتيلا لها :

تَمْشِى النسور إليه وَهْىَ لاهيَةٌ • مَشْىَ العَذَارَى عَلَيْهِنَّ الجَلابيبُ(٢)

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن فى حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب ، ويبدين عيناً واحدة(٣)

وقال محمد بن سيرين : سألت عَبيدَةَ السّلمانى عن قول الله تعالى : (يدنين عليهن من جلابيبهن) ، فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى .

وقال عكرمة : تغطى ثُغْرَة نحرها بجلبابها تدنيه عليها .

وقال ابن أبى حاتم : أخبرنا أبو عبد الله الطّهرانى فيما كتب إلىّ ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن ابن خُثَيم ، عن صفية بنت شيبة ، عن أم سلمة قالت : لما نزلت هذه الآية : (يدنين عليهن من جلابيبهن) ، خرج نساء الأنصار كأن على رءوسهن الغربان من السكينة ، وعليهن أكسية سُود يلبسنها .

وقال ابن أبى حاتم ، حدثنا أبى ، حدثنا أبو صالح ، حدثنى الليث ، حدثنا يونس بن يزيد قال : وسألناه — يعنى الزهرى — : هل على الوليدة خمار متزوجة أو غير متزوجة ؟ قال : عليها الخمار إن كانت متزوجة ، وتنهى عن الجلباب لأنه يكره لهن أن يتشبهن بالحرائر إلا محصنات : وقد قال الله تعالى : (يا أيها النبى ، قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين ، يدنين عليهن من جلابيبهن) .

ورُوى عن سفيان الثورى أنه قال : لا بأس بالنظر إلى زينة نساء أهل الذمة ، إنما ينهى عن ذلك لخوف الفتنة ، لا لحرمتهن . واستدل بقوله تعالى : (ونساء المؤمنين) .

وقوله : (ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) ، أى : إذا فعلن ذلك عُرِفْنَ أنهن حرائر ، لسن بإماء ولا عواهر .

قال السدى فى قوله تعالى : (قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) ، قال : كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة ، يتعرضون للنساء ، وكانت مساكن أهل المدينة ضَيّقة ، فاذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن ، فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن ، فاذا رأوا امرأة عليها جلباب قالوا : هذه حرة ، كفوا عنها . وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب ، قالوا : هذه أمة . فوثبوا إليها . .

وقال مجاهد : يتجلبن فيعلم أنهن حرائر فلا يعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة .

وقوله : (وكان الله غفوراً رحيما) ، أى : لما سلف فى أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك .

ثم قال تعالى متوعداً للمنافقين ، وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر : (والذين فى قلوبهم مرض) — قال عكرمة وغيره : هم الزناة هاهنا . (والمرجفون فى المدينة) ، يعنى : الذين يقولون : « جاء الأعداء » ، « وجاءت الحروب » . وهو كذب وافتراء — لئن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق (لنغرينك بهم) ، قال على بن أبى طلحة ،

---

(١) فى اللسان : « قالت جنوب أخت عمرو ذى الكلب ترثيه » .

(٢) الصحاح ، مادة « جلب » : ١/١٠١ .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٢/٣٣ .

عن ابن عباس : أى لنسلطنَّك عليهم(١) . وقال قتادة رحمه الله : لنحرّشنَّك(٢) بهم . وقال السدى : لنعلمنك بهم ؛ (ثم لا يجاورونك فيها) ، أى : فى المدينة (إلا قليلا . ملعونين) حال منهم فى مدة إقامتهم فى المدينة مدة قريبة مطرودين مبعدين ، (أينما ثقفوا) ، أى : وجدوا ، (أخذوا) لذلتهم وقلتهم ، (وقتلوا تقتيلا) .

ثم قال : (سنة الله فى الذين خلوا من قبل) ، أى : هذه سنته فى المنافقين إذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه : ان أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم ، (ولن تجد لسنة الله تبديلا) ، أى : وسنة الله فى ذلك لا تبدل ولا تغير .

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

يقول تعالى مخبرا لرسوله - صلى الله عليه وسلم - : أنه لا علم له بالساعة ، وإن سأله الناس عن ذلك : وأرشده أن يرد علمها إلى الله عز وجل كما قال له فى « سورة الأعراف » ، وهى مكية وهذه مدنية ، فاستمر الحال فى ردّ علمها إلى الذى يقيمها ، لكن أخبره أنها قريبة بقوله : (وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً) ، كما قال : (اقتربت الساعة وانشق القمر(٣)) ، وقال : (اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون (٤)) ، وقال : (أتى أمر الله فلا تستعجلوه (٥)) ؛

ثم قال : (إن الله لعن الكافرين) ، أى : أبعدهم من رحمته (وأعد لهم سعيرا) ، أى : فى الدار الآخرة : (خالدين فيها أبدا) ، أى : ماكثين مستمرين ، فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها ، (لا يجدون ولياً ولا نصيراً) ، أى : وليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه .

ثم قال : (يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون : ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) ، أى : يسحبون فى النار على وجوههم ، وتلوى وجوههم على جهنم ، يقولون وهم كذلك ، يتمنون أن لو كانوا فى الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول ، كما أخبر عنهم فى حال العرصات بقوله : (ويوم يعَضُّ الظالم على يديه يقول : ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . ياويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا(٦)) . وقال تعالى : (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) . وهكذا أخبر عنهم فى حالتهم هذه أنهم يوَدّون أن لو كانوا أطاعوا

---

(١) تفسير الطبرى : ٣٤/٢٢ .
(٢) التحريش : أن يحمل على حربهم .
(٣) سورة القمر ، آية : ١ .
(٤) سورة الأنبياء ، آية : ١ .
(٥) سورة النحل ، آية : ١ .
(٦) سورة الفرقان ، الآيات : ٢٧ - ٢٩ .

الله وأطاعوا الرسول فى الدنيا ، (وقالوا : ربنا ، إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) : وقال طاوس : سادتنا يعنى الأشراف ، وكبراءنا يعنى العلماء . رواه ابن أبى حاتم .

أى : اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة ، وخالفنا الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئاً ، وأنهم على شىء [فإذا هم ليسوا على شىء] ، (ربنا آتهم ضعفين من العذاب) ، أى : بكفرهم وإغوائهم إيانا ، (والعنهم لعناً كثيراً) — قرأ بعض القراء بالباء الموحدة . وقرأ آخرون بالثاء المثلثة ، وهما قريبا المعنى ، كما فى حديث عبد الله بن عمرو : أن أبا بكر قال : يارسول الله ، علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى . قال : قل : اللهم ، إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيرا ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم . أخرجاه فى الصحيحين (١) ، يروى « كبيراً » و « كثيراً » ، وكلاهما بمعنى صحيح .

واستحب بعضهم أن يجمع الداعى بين اللفظين فى دعائه ، وفى ذلك نظر ؛ بل الأولى أن يقول هذا تارة ، وهذا تارة ، كما أن القارىء مخير بين القراءتين أيتهما قرأ فحسَن ، وليس له الجمع بينهما ، والله أعلم

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا ضرار بن صُرَد ، حدثنا على بن هاشم ، عن عبيد الله بن أبى رافع ، عن أبيه ، فى تسمية من شهد مع على رضى الله عنه : الحجاج بن عمرو بن غَزِيَّة ، وهو الذى كان يقول عند اللقاء : يامعشر الأنصار ، أتريدون أن تقولوا لربنا إذا لقيناه : (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيرا (٢))؟ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾

قال البخارى عند تفسير هذه الآية : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا روح بن عبادة ، حدثنا عوف ، عن الحسن [ومحمد] وخلاس ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن موسى كان رجلا حَيِيًّا ، وذلك قوله : (يا أيها الذين آمنوا ، لاتكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا ، وكان عند الله وجيهاً(٣)) .

هكذا أورد هذا الحديث هاهنا مختصرا جداً ، وقد رواه فى أحاديث « الأنبياء » بهذا السند بعينه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن موسى عليه السلام كان رجلا حييا ستيرا ، لا يُرَى من جلده شَىء استحياء منه ، فآذاهُ من آذاهُ من بنى إسرائيل ، فقالوا : « ما يتستّر هذا التستّر إلا من عيب بجلده ، إما برص وإما أُدْرَة(٤) وإما آفة » ، وإن الله عز وجل أراد أن يبرِّئه مما قالوا لموسى عليه السلام ، فخلا يوماً وحده ، فخلع ثيابه على حجر ، ثم اغتسل ، فلمَّا فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبى

---

(١) البخارى ، كتاب التوحيد : ٩/ ١٤٤ . ومسلم ، كتاب الذكر ، باب « استحباب خفض الصوت بالذكر » : ٨/ ٧٤ .
(٢) أسد الغابة ، الترجمة ١٠٨٤ : ١/ ٤٥٨ .
(٣) البخارى ، تفسير سورة الأحزاب : ٦/ ١٥١ – ١٥٢ .
(٤) الأدرة : نفخة فى الخصية . ويقال للرجل : آدر .

حَجَر . ثوبى حَجَر(١) . حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل ، فرأوه عُرياناً أحسن ما خلق الله عز وجل وأبرأه مما يقولون ، وقام(٢) الحجر ، فأخذ ثوبَه فلبسه ، وطَفِق بالحجر ضرباً بعصاه ، فوالله إن بالحجر لَنَدَباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً ــ قال : فذلك قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ، لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا ، وكان عند الله وجيهاً (٣)) .

وهذا سياق حسن مطول ، وهذا الحديث من أفراد البخارى دون مسلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا روح ، حدثنا عوف ، عن الحسن ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ــ وخلاس ومحمد ، عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا ، لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا) ، قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن موسى كان رجلاً حَيِيّاً ستيرا ، لا يكاد يرى من جلده شىء استحياء منه ... » (٤) .

ثم ساق الحديث كما رواه البخارى مطولا ، ورواه فى تفسيره عن روح ، عن عوف ، به . ورواه ابن جرير من حديث الثورى ، عن جابر الجعفى ، عن عامر الشعبى(٥) ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم بنحو هذا (٦) ؛ وهكذا رواه من حديث سليمان بن مهران الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، وعبد الله بن الحارث ، عن ابن عباس فى قوله : (لا تكونوا كالذين آذوا موسى) قال : قال قومه له : إنك آدر . فخرج ذات يوم يغتسل ، فوضع ثيابه على صخرة ، فخرجت الصخرة تشتد (٧) بثيابه ، وخرج يتبعها عرياناً حتى انتهت به مجالسَ بنى إسرائيل ، قال : فرأوه ليس بآدرَ ، فذلك قوله : (فبرأه الله مما قالوا) .

وهكذا رواه العوفى ، عن ابن عباس سواء .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا روح بن حاتم وأحمد بن المعلى الأدمى قالا : حدثنا يحيى بن حماد ، حدثنا حماد ابن سلمة ، عن على بن زيد ، عن أنس ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : قال : « كان موسى عليه السلام رجلا حيياً ، وإنه أتى ــ أحسبه قال : الماء ــ ليغتسل ، فوضع ثيابه على صخرة ، وكان لا يكاد تبدو عورته ، فقال بنو إسرائيل : إن موسى آدر ــ أو : به آفة ، يعنون أنه لا يضع ثيابه ــ فاحتملت الصخرة ثيابه حتى صارت بحذاء مجالس بنى إسرائيل ، فنظروا إلى موسى كأحسن الرجال ، أو كما قال ، فذلك قوله : (فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها)

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا عباد بن العوام ، عن سفيان بن حسين(٨) ، حدثنا الحكم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن على بن أبى طالب رضى الله عنهم فى قوله : (فبرأه الله مما قالوا) ،

---

(١) أى : ثوبى يا حجر ! .
(٢) أى : وقف وثبت .
(٣) البخارى ، كتاب الأنبياء : ٤/١٩٠ ــ ١٩١ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٢/٥١٤ ــ ٥١٥ .
(٥) فى تفسير الطبرى مكان « عامر الشعبى » : عكرمة .
(٦) تفسير الطبرى : ٢٢/٣٦ .
(٧) أى : تسرع وتجرى .
(٨) فى تفسير الطبرى : « سفيان بن حبيب » . والصواب ما هنا ؛ انظر التهذيب : ٤/٩٩ .

قال : صعد موسى وهارون الجبل ، فمات هارون عليه السلام ، فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : أنت قتلته ، كان ألين لنا منك وأشد حياء . فآذوه من ذلك ، فأمر الله الملائكة فحملته ، فمروا به على مجالس بني إسرائيل ، فتكلمت بموته ، فما عرف موضع قبره إلا الرخم ، وإن الله جعله أصم أبكم .

وهكذا رواه ابن جرير ، عن علي بن موسى الطوسي ، عن عباد بن العوام ، به(١) .

ثم قال : وجائز أن يكون هذا هو المراد بالأذى ، وجائز أن يكون الأول هو المراد ، فلا قول أولى من قول الله عز وجل .

قلت : يحتمل أن يكون الكل مراداً ، وأن يكون معه غيره ، والله أعلم .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن شقيق ، عن عبد الله قال : قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم قسما ، فقال رجل من الأنصار : إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله . قال : فقلت : ياعدو الله ، أما لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قلت . قال : فذكَر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فاحمرّ وجهه ، ثم قال : « رحمة الله على موسى ، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر (٢) » .

أخرجاه في الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الأعمش ، به(٣) .

طريق أخرى ، قال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، سمعت إسرائيل بن يونس ، عن الوليد بن أبي هاشم(٤) - مولى الهمداني ، عن زيد بن زائد(٥) ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئاً ، فاني أحب أن أخرج إليكم وأنا [سليم الصدر(٦)] . فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مالٌ فقسمه ، قال : فمررت برجلين وأحدهما يقول لصاحبه : والله ما أراد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة . قال : فتَثَبَّتُّ حتى سمعت ما قالا ، ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله ، إنك قلت لنا : « لا يبلغني أحد عن أصحابي شيئاً » ، وإني مررت بفلان وفلان ، وهما يقولان كذا وكذا . فاحمر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وشَقّ عليه ، ثم قال : « دعنا منك ، لقد أوذي موسى بأكثر من هذا ، فصبر » (٧) .

وقد رواه أبو داود في الأدب ، عن محمد [بن يحيى الذهلي ، عن محمد بن يوسف الفريابي ، عن إسرائيل عن الوليد] ابن أبي هاشم به مختصراً : « لا يبلغني أحد [من أصحابي(٨)] عن أحد شيئاً ؛ إني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر(٩) » .

---

(١) تفسير الطبري : ٣٧/٢٢ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٣٨٠/١ .

(٣) البخاري ، كتاب الأنبياء : ١٩١/٤ . ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب « إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه » : ١٠٩/٣ .

(٤) في المسند : « هشام » . وكلاهما مروي في اسمه ، انظر التهذيب : ١٠٦/١١ .

(٥) في المسند : « زائدة » بهاء . وكلاهما مروي أيضاً ، انظر التهذيب : ٤١٣/٣ .

(٦) ما بين القوسين عن المسند ومكانه بياض في المخطوطة ، وفي الهامش عنده : « ها هنا سقط ، لعله ورقتين فإنه في نصف كراس » . كذا ، والنص مستقيم !

(٧) مسند الإمام أحمد : ٣٩٥/١ - ٣٩٦ .

(٨) ما بين القوسين عن سنن أبي داود .

(٩) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « في رفع الحديث » .

وكذا رواه الترمذى فى « المناقب » ، عن الذهلى سواء ، إلا أنه قال : « زيد بن زائدة » . ورواه أيضاً عن محمد بن إسماعيل ، عن عبد الله بن محمد ، عن عبيد الله بن موسى وحسين بن محمد ، كلاهما عن إسرائيل ، عن السدى ، عن الوليد بن أبى هاشم ، به مختصراً أيضاً ، فزاد فى إسناده السدى ، ثم قال : « غريب من هذا الوجه (١) » .

وقوله : (وكان عند الله وجيهاً) ، أى : له وجاهة وجاه عند ربه عز وجل .

قال الحسن البصرى : كان مستجابَ الدعوة عند الله . وقال غيره من السلف : لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه ، ولكن منع الرؤية لما يشاء الله عز وجل .

وقال بعضهم : من وجاهته العظيمة : أنه شفع فى أخيه هارون أن يرسله الله معه ، فأجاب الله سؤاله ، وقال : (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا) .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه ، وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه ، وأن يقولوا (قولا سديدا) ، أى : مستقيما لا اعوجاج فيه ولا انحراف . ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك ، أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم ، أى : يوفقهم للأعمال الصالحة ، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية . وما قد يقع منهم فى المستقبل يلهمهم التوبة منها

ثم قال : (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) ، وذلك أنه يجار من النار ، ويصير إلى النعيم المقيم .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عمرو بن عون ، حدثنا خالد ، عن ليث ، عن أبى بردة ، عن أبى موسى [الأشعرى قال] ، صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الظهر ، فلما انصرف أومأ إلينا بيده فجلسنا ، فقال : « إن الله أمرنى أن آمركم ، أن تتقوا الله وتقولوا قولا سديداً » . ثم أتى النساء فقال : « إن الله أمرنى أن آمركن : أن تتقين الله وتقلن قولا سديداً » .

وقال ابن أبى الدنيا فى كتاب « التقوى » : حدثنا محمد بن عباد بن موسى ، حدثنا عبد العزيز بن عمران الزهرى ، حدثنا عيسى بن سَمُرة ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : ما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر إلا سمعته يقول : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا) ... الآية . غريب جدا .

وروى من حديث عبد الرحيم بن زيد العَمِّى ، عن أبيه ، عن محمد بن كعب عن ابن عباس موقوفاً : من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله .

قال عكرمة : القول السديد : لا إله إلا الله .

وقال غيره : السديد : الصدق . وقال مجاهد : هو السداد . وقال غيره : هو الصواب. والكل حق .

---

(١) تحفة الأحوذى ، أبواب المناقب ، الحديث ٣٩٨٧ ، ٣٩٨٨ : ١٠/٣٩٥ – ٣٩٧ .

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

قال العوفي ، عن ابن عباس: يعني بالأمانة : الطاعة ، وعرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم ، فلم يطقنها . فقال لآدم : إني قد عرضتُ الأمانةَ على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها ، فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال : يارب ، وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . فأخذها آدم فتحملها ، فذلك قوله : (وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا (١)) .

وقال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس ، الأمانة : الفرائض ، عرضها الله على السموات والأرض والجبال ، إن أدوها أثابهم . وإن ضيعوها عذبهم ، فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية ، ولكن تعظيما لدين الله أن لا يقوموا بها ، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها ، وهو قوله : (وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا) ، يعني : غِرّاً بأمر الله .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) ، قال : عرضت على آدم فقال : خذها بما فيها ، فإن أطعت غَفَرتُ لك ، وإن عصيت عذبتك. قال : قبلت فما كان إلا قدر ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم ، حتى أصاب الخطيئة (٢) .

وقد رَوى الضحاك ، عن ابن عباس ، قريبا من هذا . وفيه نظر وانقطاع بين الضحاك وبينه ، والله أعلم . وهكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، والحسن البصري ، وغير واحد : إن الأمانة هي الفرائض .

وقال آخرون : هي الطاعة .

وقال الأعمش ، عن أبي الضحى ، عن مسروق : قال أبي بن كعب : من الأمانة [أن المرأة] أؤتمنت على فرجها (٣) .

وقال قتادة : الأمانة الدين والفرائض والحدود .

وقال بعضهم : الغسل من الجنابة .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم قال : الأمانة ثلاثة : الصلاة ، والصوم ، والاغتسال من الجنابة .

وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها ، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف ، وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أثيب ، وإن تركها عُوقِبَ ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه ، إلا من وفق الله ، وبالله المستعان .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبد العزيز بن المغيرة ، حدثنا حماد بن واقد — يعني أبا عمر الصفار — سمعت أبا معمر — يعني عون بن معمر — يحدث عن الحسن — يعني البصري — أنه تلا هذه الآية : (إنا عرضنا الأمانة على السموات

(١) تفسير الطبري : ٢٢/٣٨ — ٣٩ .

(٢) تفسير الطبري : ٢٢/٣٨ .

(٣) تفسير الطبري : ٢٢/٣٩ .

والأرض والجبال) ، قال : عرضها على السبع الطباق الطرائق التي زينت بالنجوم ، وحملة العرش العظيم ، فقيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال قيل لها : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . قالت : لا . ثم عرضها على الأرضين السبع الشداد ، التي شدت بالأوتاد ، وذللت بالمهاد ، قال : فقيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال قيل لها : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . قالت : لا. ثم عرضها على الجبال الشم الشوامخ الصعاب الصلاب ، قال قيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال قيل لها : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . قالت : لا .

وقال مقاتل بن حيان : إن الله حين خلق خلقه ، جمع بين الإنس والجن ، والسموات والأرض والجبال ، فبدأ بالسموات فعرض عليهن الأمانة وهي الطاعة ، فقال لهن : أتحملن هذه الأمانة ، ولكن على الفضل والكرامة والثواب في الجنة . . ؟ فقلن : يارب ، إنا لانستطيع هذا الأمر ، وليست بنا قوة ، ولكنا لك مطيعين . ثم عرض الأمانة على الأرضين ، فقال لهن : أتحملن هذه الأمانة وتقبلنها مني ، وأعطيكن الفضل والكرامة ؟ فقلن : لا صبر لنا على هذا يارب ولا نطيق ، ولكنا لك سامعين مطيعين ، لا نعصيك في شيء تأمرنا به . ثم قرب آدم فقال له : أتحمل هذه الأمانه وترعاها حق رعايتها ؟ فقال عند ذلك آدم : مالي عندك ؟ قال : يا آدم ، إن أحسنت وأطعت ورعيت الأمانة ، فلك عندي الكرامة والفضل وحسن الثواب في الجنة . وإن عصيت ولم ترعها حق رعايتها وأسأت ، فإني معذبك ومعاقبك وأنزلك النار . قال : رضيت رب . وتحملها ، فقال الله عز وجل : قد حملتكها . فذلك قوله : (وحملها الإنسان) . رواه ابن أبي حاتم .

وعن مجاهد أنه قال : عرضها على السموات فقالت : يا رب ، حملتني الكواكب وسكان السماء وما ذكر ، وما أريد ثوابا ولا أحمل فريضة . قال : وعرضها على الأرض فقالت : يا رب ، غرست في الأشجار ، وأجريت في الأنهار وسكان الأرض وما ذكر ، وما أريد ثوابا ولا أحمل فريضة . وقالت الجبال مثل ذلك ، قال الله تعالى : (وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا) في عاقبة أمره . وهكذا قال ابن جريج .

وعن ابن أشوع أنه قال : لما عرض الله عليهن حمل الأمانة ، ضججن إلى الله ثلاثة أيام ولياليهن ، وقلن : ربنا ، لا طاقة لنا بالعمل ، ولا نريد الثواب .

ثم قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا هارون بن زيد بن أبي الزرقاء الموصلي ، حدثنا أبي ، حدثنا هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم في هذه الآية : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال) ، فقال الإنسان : بين أذني وعاتقي . فقال الله تعالى : إني معينك عليها ، أي : معينك على عينيك بطبقتين ، فإذا نازعاك إلى ما أكره فأطبق . ومعينك على لسانك بطبقتين ، فإذا نازعك إلى ما أكره فأطبق . ومعينك على فرجك بلباس ، فلا تكشفه إلى ما أكره . .

ثم روى عن أبي حازم نحو هذا .

وقال ابن جرير : حدثنا يونس ، حدثنا ابن وهب قال : قال ابن زيد في قول الله عز وجل : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) ، قال : إن الله عرض عليهن الأمانة أن يفترض عليهن الدين ، ويجعل لهن ثوابا وعقابا ، ويستأمنهن على الدين . فقلن : لا ، نحن مسخرات لأمرك لا [نريد] ثوابا ولا عقابا ، قال : وعرضها الله على آدم فقال : بين أذني وعاتقي . قال ابن زيد : فقال الله تعالى له : أما إذ تحملت هذا فسأعينك ،

أجعل لبصرك حجابا ، فإذا خشيت أن تنظر إلى ما لا يحل لك فأرخ عليه حجابه، واجعل للسانك بابا وغلقا ، فإذا خشيت فأغلق . واجعل لفرجك لباسا فلا تكشفه إلا على ما أحللت لك (١) :

وقال ابن جرير : حدثني سعيد بن عمرو السَّكُوني ، حدثنا بقية ، حدثنا عيسى بن إبراهيم ، عن موسى بن أبي حبيب ، عن الحكم بن عمير — وكان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم — قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الأمانة والوفاء نزلا على ابن آدم مع الأنبياء ، فأرسلوا به . فنهم رسول الله ، ومنهم نبي ، ومنهم نبي رسول ، ونزل القرآن وهو كلام الله ، ونزلت العربية والعجمية ، فعلموا أمر القرآن وعلموا أمر السنن بألسنتهم ، ولم يدع الله شيئا من أمره مما يأتون وما يجتنبون وهي الحجج عليهم ، إلا بينه لهم . فليس أهل لسان إلا وهم يعرفون الحسن والقبيح ، ثم الأمانة أول شيء يرفع ويبقى أثرها في جذور قلوب الناس ، ثم يرفع الوفاء والعهد والذمم وتبقى الكتب ، فعالم يعمل ، وجاهل يعرفها وينكرها ولا يحملها ، حتى وصل إليّ وإلى أمتي ، ولا يهلك على الله إلا هالك ، ولا يغفله إلا تارك . فالحذر أيها الناس ، وإياكم والوسواس الخناس ، فإنما يبلوكم أيكم أحسن عملا (٢) .

هذا حديث غريب جدا ، وله شواهد من وجوه أخرى .

ثم قال ابن جرير : حدثنا محمد بن خلف العسقلاني حدثنا عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي أخبرنا أبو العوام (٣) القطان ، حدثنا قتادة ، وأبان بن أبي عياش ، عن خُلَيد العَصَرِيّ ، عن أبي الدرداء — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « خمس من جاء بهن يوم القيامة مع إيمان دخل الجنة : من حافظ على الصلوات الخمس على وضوئهن وركوعهن وسجودهن ومواقيتهن ، وأعطى الزكاة من ماله طيّب النفس بها ، وكان يقول : وايم الله لا يفعل ذلك إلا مؤمن [وصام رمضان ، وحج البيت إن استطاع إلى ذلك سبيلا(٤)] ، وأدى الأمانة . قالوا: يا أبا الدرداء ، وما أداء الأمانة قال : الغسل من الجنابة ، فان الله لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيره (٥) .

وهكذا رواه أبو داود عن محمد بن عبد الرحمن العنبري ، عن أبي علي عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي ، عن أبي العوام عمران بن داوَر القطان ، (٦) به .

وقال ابن جرير أيضا : حدثنا تميم بن المنتصر ، أخبرنا إسحاق ، عن شريك ، عن الأعمش ، عن عبد الله بن السائب ، عن زاذان ، عن عبد الله بن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها — أو قال : يكفر كل شيء — إلا الأمانة ، يؤتى بصاحب الأمانة فيقال له : أد أمانتك . فيقول : أنى يارب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال له : أد أمانتك . فيقول : أنى يارب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال له : أد أمانتك . فيقول : أنى يا رب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقول : اذهبوا به إلى أمه الهاوية . فيذهب به إلى الهاوية ، فيهوى فيها حتى ينتهي إلى قعرها ، فيجدها هنالك

(١) تفسير الطبري : ٢٢/٣٩ — ٤٠ .
(٢) تفسير الطبري : ٢٢/٣٩ .
(٣) في تفسير الطبري : « ثنا العوام » دون « أبو » . وهو خطأ ، وسيأتي تعريف ابن كثير بأبي العوام .
(٤) ما بين القوسين عن تفسير الطبري .
(٥) تفسير الطبري : ٢٢/٣٩ .
(٦) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب « في المحافظة على وقت الصلاة » .

كهيئتها ، فيحملها فيضعها على عاتقه ، فيصعد بها إلى شفير جهنم ، حتى إذا رأى أنه قد خرج زَلّت فهوي فى أثرها أبد الآبدين » : قال : والأمانة فى الصلاة ، والأمانة فى الصوم ، والأمانة فى الوضوء ، والأمانة فى الحديث ، وأشد ذلك الودائع : فلقيت البراء فقلت : ألا تسمع إلى ما يقول أخوك عبد الله ؟ فقال : صدق .

قال شريك : وحدثنا عياش العامرى ، ، عن زاذان ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، بنحوه : ولم يذكر « الأمانة فى الصلاة وفى كل شيء » (١) : إسناده جيد ، ولم يخرجوه .

ومما يتعلق بالأمانة الحديث الذى رواه الإمام أحمد :

حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن زيد بن وهب ، عن حذيفة قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا أن الأمانة نزلت فى جذْر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة : ثم حدثنا عن رفع الأمانة ، فقال : ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر الوَكْت (٢) ، فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر (٣) [المجل (٤) كجمر دحرجته [على رجلك ، تراه مُنتبرا (٥) وليس فيه شيء ــ قال: ثم أخذ حصى فدحرجه](٣) على رجله ــ قال : فيه بح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدى الأمانة ، حتى يقال : إن فى بنى فلان رجلا أمينا ، حتى يقال للرجل : ما أجلده وأظرفه وأعقله . وما فى قلبه حبة من خردل من إيمان : ولقد أتى علىّ زمان وما أبالى أيكم بايعت ، إن كان مسلماً ليردنه علىّ دينه ، وإن كان نصرانيا أو يهوديا ليردنه علىّ ساعيه (٦) ، فأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلانا وفلانا (٧) .

وأخرجاه فى الصحيحين من حديث الأعمش ، به (٨) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ،حدثنا ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد الحضرمى، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أربع إذا كنّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا ، حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ، وعفة طُعمة (٩) » .

هكذا رواه الإمام أحمد فى مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

---

(١) تفسير الطبرى : ٤٠/٢٢ .

(٢) الوكت ــ بفتح فسكون ــ : واحده وكتة ، وهى : الأثر فى الشيء كالنقطة من غير لونه .

(٣) ما بين القوسين عن مسند الإمام أحمد .

(٤) يقال : مجلت يده : إذا ثخن جلدها وتعجر ، وظهر فيها ما يشبه البثر ، من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة .

(٥) الانتبار : التورم والانتفاخ . ولفظ البخارى ومسلم : « فنفط فتراه منتبرا » ، يقال : نفطت يده ــ من باب تعب ــ : إذا صار بين الجلد واللحم ماء .

(٦) يعنى : رئيسهم الذى يصدرون عن رأيه ، ولا يمضون أمراً دونه . وقيل : أراد الوالى الذى عليه ، أى : ينصفنى منه ، وكل من ولى أمر قوم فهو ساع عليهم .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٣٨٣/٥ .

(٨) البخارى ، كتاب الفتن ، باب « إذا بقى حثالة من الناس » : ٦٦/٩ . ومسلم ، كتاب الإيمان .

(٩) مسند الإمام أحمد : ١٧٧/٢ .

وقد قال الطبراني في مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب : حدثنا يحيى بن أيوب العلاف المصرى ، حدثنا سعيد بن أبي مريم ، حدثنا ابن لهيعة ، عن الحارث بن يزيد ، عن ابن حجَيرة ، عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ، وعفة طعمة » . فزاد في الاسناد : « ابن حُجَيرة » ، وجعله من مسند ابن عمر :

وقد ورد النهى عن الحلف بالأمانة ، قال عبد الله بن المبارك في كتاب الزهد : حدثنا شريك ، عن أبي إسحاق الشيباني ، عن خُنَاس بن سُحَيم — أو قال : جَبَلَة بن سُحَيم — قال : أقبلت مع زياد بن حُدَير من الجابية فقلتُ في كلامى : لا والأمانة . فجعل زياد يبكى ويبكى ، فظننت أنى أتيتُ أمراً عظيما ، فقلت له : أكان يكره هذا ؟ فقال : نعم . كان عمر ابن الخطاب ينهى عن الحلف بالأمانة أشد النهى .

وقد ورد في ذلك حديث مرفوع ، قال أبو داود : حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس ، حدثنا زهير ، حدثنا الوليد ابن ثعلبة الطائى ، عن ابن بُرَيدة ، عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حلف بالأمانة فليس منا (١) » . تفرد به أبو داود ، رحمه الله .

وقوله تعالى : (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) ، أى : إنما حمل ابن آدم الأمانة وهى التكاليف ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات ، وهم الذين يظهرون الإيمان خوفا من أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله ، (والمشركين والمشركات) ، وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله عز وجل ومخالفة رسله ، (ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) ، أى : وليرحم المؤمنين من الخلق [الذى آمنوا] بالله [وملائكته] وكتبه ورسله العاملين بطاعته ، (وكان الله غفوراً رحيما) .

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب الإيمان والنذور ، باب « في كراهية الحلف بالأمانة » .

تفسير سورة سبأ

وهى مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ (٢)

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة : أن له الحمدَ المطلقَ فى الدنيا والآخرة ، لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة ، المالك لجميع ذلك ، الحاكم فى جميع ذلك ، كما قال :(وهو الله لا إله إلا هو، له الحمد فى الأولى والآخرة ، وله الحكم وإليه ترجعون) . ولهذا قال هاهنا : (الحمد لله الذى له مافى السموات ومافى الأرض) ، أى : الجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وتصرفه ، كما قال : (وإن لنا للآخرة والأولى(١)) .

ثم قال : (وله الحمد فى الآخرة) ، فهو المعبود أبدا ، المحمود على طول المدى . وقال : (وهو الحكيم) ، أى : فى أقواله وأفعاله وشرعه وقدَره ، (الخبير) الذى لا تخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه شىء .

وقال مالك عن الزهرى : خبير بخلقه ، حكيم بأمره . ولهذا قال : (يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها) ، أى : يعلم عدد القطر النازل فى أجزاء الأرض ، والحب المبذور والكامن فيها ، ويعلم ما يخرج من ذلك: عدده وكيفيته وصفاته ، (وما ينزل من السماء) ، أى : من قطر ورزق ، (وما يعرج فيها) ، أى : من الأعمال الصالحة وغير ذلك ، (وهو الرحيم الغفور) ، أى : الرحيم بعباده فلا يعاجل عُصاتهم بالعقوبة ، الغفور عن ذنوب التائبين إليه المتوكلين عليه .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ (٣) لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (٥) وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ (٦)

هذه إحدى الآيات الثلاث التى لا رابع لهن ، مما أمر الله رسولَه صلى الله عليه وسلم أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لـمَّا أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد، فإحداهن فى سورة يونس: (ويستنبئونك أحق هو؟ قل إى وربى إنه لحق

---

(١) سورة الليل ، آية : ١٣ .

وما أنتم معجزين(١)) ، والثانية هذه : (وقال الذين كفروا : لا تأتينا الساعة ، قل: بلى وربى لتأتينكم) : والثالثة فى التغابن (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل : بلى وربى لتبعثن ، ثم لتنبؤن بما عملتم ، وذلك على الله يسير) (٢) ، فقوله : (قل : بلى وربى لتأتينكم) ، ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره : (عالم الغيب ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) .

قال مجاهد وقتادة : (لا يعزب عنه) ، لا يغيب عنه (٣) ، أى : الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه منه شىء ، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت ، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة ، فإنه بكل شىء عليم .

ثم بين حكمته فى إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله : (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا فى آياتنا معاجزين) ، أى : سعوا فى الصد عن سبيل الله وتكذيب رسله ، (أولئك لهم عذاب من رجز أليم) ، أى : لينعم السعداء من المؤمنين ، ويعذب الأشقياء من الكافرين، كما قال : (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون(٤)) ، وقال تعالى : (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار (٥)) .

وقوله : (ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق) ، هذه حكمة أخرى معطوفة على التى قبلها ، وهى أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذى كانوا قد علموه من كتب الله فى الدنيا رأوه حينئذ عين اليقين ، ويقولون يومئذ أيضاً : (لقد جاءت رسل ربنا بالحق (٦)) ، ويقال أيضا : (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون (٧)) ، (لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث (٨)) ، (ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ، ويهدى إلى صراط العزيز الحميد) — العزيز هو : المنيع الجناب، الذى لا يُغالب ولا يُمانَع ، بل قد قهر كل شىء ، الحميد فى جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ، وهو المحمود فى ذلك كله .

---

(١) سورة يونس ، آية : ٥٣ .
(٢) سورة التغابن ، آية : ٧ .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٢/٤٣ .
(٤) سورة الحشر ، آية : ٢٠ .
(٥) سورة « ص » ، آية : ٢٨ .
(٦) سورة الأعراف ، آية : ٤٣ .
(٧) سورة « يس » ، آية : ٥٢ .
(٨) سورة الروم ، آية : ٥٦ .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ۗ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾

هذا إخبار من الله عن استبعاد الكفرة الملحدين قيامَ الساعة واستهزائهم بالرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ في إخباره بذلك : (وقال الذين كفروا : هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مُزِّقتم كل ممزق) ، أي : تفرقت أجسادكم في الأرض وذهبت فيها كل مذهب ، وتمزقت كل ممزق : (إنكم) ، أي : بعد هذا الحال (لفي خلق جديد) ، أي : تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك : وهو في هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله أنه قد أوحى إليه ذلك ، أو أنه لم يتعمد لكن لُبِّس عليه كما يُلَبَّس على المعتوه والمجنون ، ولهذا قالوا : (أفترى على الله كذبا ، أم به جنة) ؟ قال الله تعالى راداً عليهم : (بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد) ، أي : ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه، بل محمد صلى الله عليه وسلم هو الصادق البار الراشد الذي جاء بالحق ، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء ، (في العذاب) ، أي : الكفر المفضى بهم إلى عذاب الله ، (والضلال البعيد) من الحق في الدنيا .

ثم قال منبهاً لهم على قدرته في خلق السموات والأرض ــ فقال : (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض) ، أي : حيثما توجهوا وذهبوا فالسماء مُظِلّة عليهم ، والأرض تحتهم ، كما قال : (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون . والأرض فرشناها فنعم الماهدون (١)) .

قال عبد بن حميد : أخبرنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة : (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض) ، قال : إنك إن نظرت عن يمينك أو عن شمالك ، أو من بين يديك أو من خلفك ، رأيت السماء والأرض .

وقوله : (إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء) ، أي : لو شئنا لفعلنا بهم ذلك لظلمهم وقدرتنا عليهم ، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا .

ثم قال : (إن في ذلك لآية لكل عبد منيب) ، قال معمر ، عن قتادة : (منيب) تائب .

وقال سفيان عن قتادة : المنيب : المقبل إلى الله عز وجل .

أي : إن في النظر إلى خلق السماء والأرض لدلالة لكل عبد فَطِن لبيب رَجَّاع إلى الله ، على قدرة الله على بعث الأجساد ووقوع المعاد، لأن من قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها، وهذه الأرضين في انخفاضها وأطوالها وأعراضها، إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام، كما قال تعالى : أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى (٢)) ، وقال : (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٣)) .

---

(١) سورة الذاريات ، آية : ٤٧ ، ٤٨ .
(٢) سورة « يس » ، آية : ٨١ .
(٣) سورة غافر ، آية : ٥٧ .

* وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ (١٠) أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١)

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود — صلوات الله وسلامه عليه — مما آتاه من الفضل المبين ، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن ، والجنود ذوى العَدَد والعُدَد ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم ، الذى كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات ، الصم الشامخات ، وتقف له الطيور السارحات ، والغاديات والرائحات ، وتجاوبه بأنواع اللغات . وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع صوت أبى موسى الأشعرى يقرأ من الليل ، فوقف فاستمع لقراءته ، ثم قال « لقد أوتى هذا مِزْماراً من مزامير آل داود (١) » .

وقال أبو عثمان النهدى : ما سمعت صوت صَنج ولا بَرْبَط (٢) ولا وَتَر أحسنَ من صوت أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

ومعنى قوله : (أوبى) ، أى : سبحى . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد .

وزعم أبو ميسرة أنه بمعنى سبِّحى بلسان الحبشة . وفى هذا نظر ، فإن التأويب فى اللغة هو الترجيع ، فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها .

وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجى فى كتابه « الجُمل » فى باب النداء منه : (يا جبال ، أوبى معه) ، أى : « سيرى معه بالنهار كله ، والتأويب : سير النهار كله ، والإسآد : سير الليل كله . وهذا لفظه ، وهو غريب جداً لم أجده لغيره ، وإن كان له مساعدة من [حيث] اللفظ فى اللغة ، لكنه بعيد فى معنى الآية هاهنا . والصواب أن المعنى فى قوله تعالى : (أوبى معه) ، أى : رَجِّعى مُسَبِّحة معه ، كما تقدم ، والله أعلم .

وقوله : (وألنا له الحديد) ، قال الحسن البصرى ، وقتادة ، والأعمش وغيرهم : كان لا يحتاج أن يُدخله ناراً ولا يضربه بمطرقة ، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط ، ولهذا قال : (أن اعمل سابغات) ، وهى : الدروع — قال قتادة : وهو أول من عملها من الخلق ، وإنما كانت قبل ذلك صفائح (٣)

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا ابن سماعة ، حدثنا ابن ضَمْرة ، عن ابن شوذب قال : كان داود — عليه السلام — يرفع فى كل يوم درعاً فيبيعها بستة آلاف درهم : ألفين له ولأهله ، وأربعة آلاف درهم يطعم بها بنى إسرائيل خبز الحُوّارى (٤) .

(وقدر فى السرد) ، هذا إرشاد من الله لنبيه ، داود عليه السلام ، فى تعليمه صنعة الدروع .

---

(١) البخارى ، كتاب فضائل القرآن ، باب « حسن الصوت بالقراءة » : ٢٤١/٦ . ومسلم ، كتاب المسافرين ، باب « استحباب الصوت بالقرآن » : ١٩٢/٢ — ١٩٣ .
(٢) تقدم تفسير هذه الكلمة فى : ١٧٤/٣ .
(٣) تفسير الطبرى : ٤٦/٢٢ .
(٤) الخبز الحوارى : الذى نخل مرة بعد أخرى .

قال مجاهد فى قوله : (وقدر فى السرد) : لا تُدِقَّ المسمار (١) فيقلق فى الحلقة ، ولا تُغلِّظه فيفصمها (٢) ، واجعله بقدر :

وقال الحكم بن عُتَيبة : لا تُغلِّظه فيفصم ، ولا تُدِقَّه فيقلق . وهكذا روى عن قتادة ، وغير واحد .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : السرد : حَلَقُ الحديد . وقال بعضهم : يقال : درع مسرودة : إذا كانت مسمورة الحلق ، واستشهد بقول الشاعر (٣) :

وَعَلَيهما مَسْـرُودَتَانِ قَضَـاهُما * « دَاوُد » ، أو صَنَعُ السَّوابغ « تُبَّعُ (٤) »

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة داود — عليه السلام — من طريق إسحاق بن بشر . وفيه كلام — عن أبى إلياس ، عن وهب بن مُنَبِّه ما مضمونه : أن داود عليه السلام كان يخرج متنكراً ، فيسأل الركبان عنه وعن سيرته ، فلا يسأل أحداً إلا أثنى عليه خيراً فى عبادته وسيرته ومعدلته — صلوات الله وسلامه عليه — قال وهب : حتى بعث الله ملكا فى صورة رجل ، فلقيه داود فسأله كما كان يسأل غيره ، فقال : هو خير الناس لنفسه ولأمته ، إلا أن فيه خصلة لو لم تكن فيه كان كاملا . قال : ما هى ؟ قال : يأكل ويطعم عياله من مال المسلمين . يعنى بيت المال ، فعند ذلك نصب داود عليه السلام إلى ربه فى الدعاء أن يعلمه عملا بيده يستغنى به ويغنى به عياله ، فألان له الحديد ، وعلمه صنعة الدروع ، فعمل الدرع ، وهو أول من عملها ، فقال الله : (أن اعمل سابغات وقدر فى السرد) ، يعنى مسامير الحلق ، قال : وكان يعمل الدرع ، فإذا ارتفع من عمله درع باعها ، فتصدق بثلثها ، واشترى بثلثها ما يكفيه وعياله ، وأمسك الثلث يتصدق به يوما بيوم إلى أن يعمل غيرها . وقال : إن الله أعطى داود شيئاً لم يعطه غيره من حسن الصوت ، إنه كان إذا قرأ الزبور تسمع الوحش (٥) حتى يؤخذ بأعناقها وما تنفر ، وما صنعت الشياطين المزامير والبرابط والصنوج إلا على أصناف صوته . وكان شديد الاجتهاد ، وكان إذا افتتح الزبور بالقراءة كأنما ينفخ فى المزامير ، وكأن قد أعطى سبعين [مزماراً] فى حلقه .

وقوله : (واعملوا صالحا) ، أى : فى الذى أعطاكم الله من النعم ، (إنى بما تعملون بصير) ، أى : مراقب لكم ، بصير بأعمالكم وأقوالكم ، لا يخفى على من ذلك شىء .

وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾

---

(١) أى : لا تجعله دقيقاً رقيقاً . ويقلق : يتقلقل ويتحرك ويكون غير ثابت .

(٢) أى : يكسرها .

(٣) هو أبو ذؤيب الهذلى ، من قصيدته العينية المشهورة ، انظر ديوان الهذليين : ١/١٩ . ولسان العرب ، مادة « قضى » .

(٤) قضاهما : فرغ منهما . والصنع — بفتحتين — : الحاذق بالعمل . وتبع ملك من ملوك حمير ، كانت تنسب إليه الدروع التبعية . وقد ذكر الأصمعى أن أبا ذؤيب قد غلط فى هذا فقال : إنه — أى أبا ذؤيب — سمع بالدروع التبعية ، فظن أن تبعا عملها ، وكان تبع أعظم شأناً من أن يصنع شيئاً بيده ، وإنما عملت بأمره وفى ملكه .

(٥) فى الطبعات السابقة : « تجتمع الوحوش إليه حتى ... » .

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود ، عطف بذكر ما أعطى سليمان ، من تسخير الريح له تحمل بساطه ، غدوها شهر ورواحها شهر .

قال الحسن البصرى : كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل باصطخر(١) يتغدّى بها، ويذهب [رائحا] من إصطخر فيبيت بكابل ، وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع ، وبين إصطخر وكابل شهر كامل للمسرع .

وقوله : (وأسلنا له عين القطر) – قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعطاء الخراسانى ، وقتادة ، والسدى ، ومالك عن زيد بن أسلم ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغير واحد : القطر النحاس . قال قتادة : وكانت باليمن ، فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان عليه السلام .

قال السدى : وإنما أسيلت له ثلاثة أيام .

وقوله : (ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه) ، أى : وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن الله ، أى : بقدره، وتسخيره لهم بمشيئته ما يشاء من البنايات وغير ذلك .(ومن يزغ منهم عن أمرنا) ، أى : ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة (نذقه من عذاب السعير) ، وهو الحريق .

وقد ذكر ابن أبى حاتم هاهنا حديثا غريبا فقال : حدثنا أبى [حدثنا أبو] صالح ، حدثنا معاوية بن صالح ، عن أبى الزاهرية ، عن جبير بن نُفَير ، عن أبى ثعلبة الخُشَنىّ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الجن على ثلاثة أصناف : صنف له أجنحة يطيرون فى الهواء ، وصنف حيات وكلاب ، وصنف يحلون ويظعنون » . رفعه غريب جداً .

وقال أيضا : حدثنا أبى ، حدثنا حرملة ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى بكر بن مضر ، عن محمد ، عن ابن أنعم أنه قال : الجن ثلاثة : صنف لهم الثواب وعليهم العقاب ، وصنف طيارون فيما بين السماء والأرض ، وصنف حيات وكلاب .

قال بكر بن مضر : ولا أعلم إلا أنه قال : حدثنى أن الإنس ثلاثة : صنف يظلهم الله بظل عرشه يوم القيامة ، وصنف كالأنعام بل هم أضل سبيلا . وصنف فى صُوَر الناس على قلوب الشياطين

وقال أيضا : حدثنا أبى ، حدثنا على بن هاشم بن مرزوق حدثنا سلمة – يعنى ابن الفضل – عن إسماعيل ، عن الحسن قال : الجن ولد إبليس ، والإنس ولد آدم ، ومن هؤلاء مؤمنون ومن هؤلاء مؤمنون ، وهم شركاؤهم فى الثواب والعقاب، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمنا فهو ولى الله، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافرا فهو شيطان .

وقوله : (يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل)، أما المحاريب فهى البناء الحسن ، وهو أشرف شئ فى المسكن وصدره،

وقال مجاهد : المحاريب بنيان دون القصور . وقال الضحاك : هى المساجد . وقال قتادة : هى المساجد والقصور ، وقال ابن زيد : هى المساكن . وأما التماثيل فقال عطية العوفى ، والضحاك والسدى : التماثيل : الصور . قال مجاهد : وكانت من نحاس . وقال قتادة : من طين وزجاج .

وقوله : (وجفان كالجواب وقدور راسيات) ، الجواب : جمع جابية ، وهى الحوض الذى يجبى فيه الماء ، كما قال الأعشى ميمون بن قيس (٢) :

---

(١) إصطخر – بكسر الهمزة ، وسكون الخاء المعجمة – : بلدة بفارس ، وهى من أقدم مدنها . وأما كابل فهى – كما فى معجم البلدان لياقوت – : من ثغور طخارستان .

(٢) ديوانه ، ط بيروت : ١٢١ . ورواية الشطر الأول فيه :

* نفى الذم عن آل المحلق جفنة *

والبيت أيضاً فى تفسير الطبرى : ٤٩/٢٢ .

تَرُوحُ علَى آلِ المحلّقِ جَفْنَةٌ * كجابيةِ الشّيخِ العراقى تَفْهَقُ (١)

وقال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (كالجواب) ، أى : كالجَوْبة (٢) من الأرض .

وقال العوفى ، عنه : كالحياض (٣) . وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك وغيرهم .

والقدور الراسيات : أى الثابتات ، فى أماكنها لا تتحول ولا تتحرك عن أماكنها لعظمها . كذا قال مجاهد ، والضحاك ، وغيرهما .

وقال عكرمة : أثافيها (٤) منها .

وقوله : (اعملوا آل داود شكرا) ، أى : وقلنا لهم اعملوا شكراً على ما أنعم به عليكم فى الدنيا والدين .

وشكراً: مصدر من غير الفعل(٥)، أو أنه مفعول له ، وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول وبالنية ، كما قال :

أفادَتْكُمُ النعْماءُ منّى ثلاثةً : * يدِى ، ولسانِى ، والضّمير المحَجّبَا

قال أبو عبد الرحمن [الحُبلى] (٦) : الصلاة شكر ، والصيام شكر ، وكل خير تعمله لله شكر . وأفضل الشكر الحمد . رواه ابن جرير .

وروى هو وابن أبى حاتم ، عن محمد بن كعب القرظى قال : الشكر تقوى الله والعمل الصالح .

وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل ، وقد كان آل داود ـ عليه السلام ـ كذلك قائمين بشكر الله قولا وعملا .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن أبى بكر ، حدثنا جعفر ، ـ يعنى ابن سليمان ـ عن ثابت البُنانى قال : كان داود عليه السلام قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة ، فكان لا تأتى عليهم ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلى ، فغمرتهم هذه الآية : (اعملوا آل داود شكرا ، وقليل من عبادى الشكور) .

وفى الصحيحين عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « إن أحب الصلاة إلى الله صلاةُ داودَ ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان يصوم يوما ويفطر يوما . ولا يفر إذا لاقى (٧) » .

---

(١) الشيخ العراقى : قيل إنه أراد به كسرى . تفهق : تفيض .

(٢) الجوبة : الحفرة المستديرة الواسعة .

(٣) تفسير الطبرى : ٤٩/٢٢ .

(٤) الأثافى : جمع أثفية ـ بضم الهمزة ، وسكون الثاء ، وكسر الفاء ، وياء مشددة وقد تخفف ـ وهى الحجارة التى تنصب وتجعل القدر عليها .

(٥) أخذ ابن كثير ذلك من الطبرى ، قال ابن جرير ٥٠/٢٢ : « وإخراج قوله (شكراً) مصدرا من قوله : (اعملوا آل داود) ، لأن معنى قوله (اعملوا) : « اشكروا ربكم بطاعتكم إياه » .

(٦) ما بين القوسين من تفسير الطبرى : ٥٠/٢٢ ، ومكانه فى المخطوطة : « السلمى » . وقد روى عنه هذا الأثر زهرة ابن معبد ، وزهرة بن معبد ـ كما فى التهذيب : ٣٤١/٣ ـ يروى عن أبى عبد الرحمن الحلبى .

(٧) البخارى ، كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى: (وآتينا داود زبورا) : ١٩٥/٤ ، وباب « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود » : ١٩٥/٤ ـ ١٩٦ ، ومسلم ، كتاب الصيام ، باب « النهى من صوم الدهر ... » : ١٦٥/٣ .

وقد روى أبو عبد الله بن ماجه من حديث سنيد بن داود ، حدثنا يوسف بن محمد بن المنكدر ، عن أبيه ، عن جابر قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « قالت أمّ سليمان بن داود لسليمان : يا بنى ، لا تكثر النوم بالليل ؛ فان كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيراً يوم القيامة(١) » :

وروى ابن أبى حاتم عن داود — عليه السلام — هاهنا أثرا غريبا مطولا جدا ، وقال أيضاً :

حدثنا أبى ، حدثنا عمران بن موسى ، حدثنا أبو يزيد(٢) فيض بن إسحاق الرقى قال : قال فضيل فى قوله تعالى : (اعملوا آل داود شكرا) . فقال داود : يارب ، كيف أشكرك ، والشكر نعمة منك ؟ قال : « الآن شكرتنى حين علمت أن النعمة منى » .

وقوله : (وقليل من عبادى الشكور) ، إخبار عن الواقع .

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾

يذكر تعالى كيفية موت سليان عليه السلام ، وكيف عمّى الله موته على الجانّ المسخرين له فى الأعمال الشاقة ، فانه مكث متوكئاً على عصاه — وهى منسأته — كما قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة وغير واحد — مدة طويلة نحوا من سنة ، فلما أكلتها دابةُ الأرض ، وهى الأرضة ، ضعفت وسقط إلى الأرض ، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة — تبينت الجن والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب ، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك .

وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع غريب ، وفى صحته نظر ، قال ابن جرير :

حدثنا أحمد بن منصور ، حدثنا موسى بن مسعود أبو حذيفة ، حدثنا إبراهيم بن طهمان ، عن عطاء(٣) ، عن السائب ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، قال : كان سليان نبى الله — عليه السلام — إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه فيقول لها : ما اسمك ؟ فتقول : كذا . فيقول : لأىّ شىء أنت ؟ فان كانت لغرس غُرِسَتْ ، وإن كانت لدواء كُتِبَتْ(٤) . فبينما هو يصلى ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه ، فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : الخروب . قال : لأى شىء أنت؟ قالت : لخراب هذا البيت . فقال سليان : اللهم ، عَمِّ على الجن موتى حتى يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب . فنحتها عصاً ، فتوكأ عليها حولا ميتا ، والجن تعمل . فأكلتها الأرضة ، فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا [حولا] فى العذاب المهين .

---

(١) سنن ابن ماجه ، كتاب « إقامة الصلاة والسنة فيها » ، باب « ماجاء فى قيام الليل » ، الحديث ١٣٣٢ : ١/٤٢٢ .

(٢) فى المخطوطة : « زيد » . والمثبت عن الجرح والتعديل : ٣/٢/٨٨ .

(٣) فى المخطوطة : « عن عطاء بن السائب » ، ومثله فى تفسير الطبرى . وما أثبتناه من الطبعات السابقة ، والذى رجحه قول ابن كثير بعد : « والأقرب أن يكون موقوفا ، وعطاء بن أبى مسلم الخراسانى له غرابات » . وعليه فهو عطاء بن أبى مسلم لا عطاء بن السائب ، هذا ويروى عن عطاء بن أبى مسلم ابراهيم بن طهمان ، انظر التهذيب : ٧/٢١٢ .

(٤) أى : تقطع وتصر ، ويكتب على الصرة اسمها ودواؤها . انظر النهاية ، مادة (خرب) .

قال : وكان ابن عباس يقرؤها كذلك . قال : فشكرت الجن الأرضة ، فكانت تأتيها بالماء(١) .

وهكذا رواه ابن أبي حاتم ، من حديث إبراهيم بن طهمان ، به . وفي رفعه غرابة ونكارة ، والأقرب أن يكون موقوفاً ، وعطاء بن أبي مسلم الخراساني له غرابات ، وفي بعض حديثه نكارة .

وقال السدي ، في حديث ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح ، عن ابن عباس – وعن مُرة الهمْداني ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : كان سليمان يتحرر(٢) في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين ، وأقل من ذلك وأكثر ، يدخل طعامه وشرابه ، فأدخله في المرة التي توفي فيها ، وكان بدء ذلك(٣) أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت في بيت المقدس شجرة ، فيأتيها فيسألها ، فيقول : ما اسمك ؟ فتقول : اسمي كذا وكذا (٤) . فإن كانت لغرس غرسها ، وإن كانت نبتَتْ دواء قالت : نَبَتُّ دواء لكذا وكذا . فيجعلها كذلك ، حتى نبتت شجرة يقال لها : الخرّوبة ، فسألها : ما اسمك ؟ فقالت : أنا الخروبة . قال : ولأي شيء نَبَتِّ ؟ قالت نبت لخراب هذا المسجد ؟ قال سليمان : ما كان الله ليُخَرّبه وأنا حي ؟ أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس . فنزعها وغرسها في حائط له ، ثم دخل المحراب فقام يصلي متكئا على عصاه ، فمات ولا تعلم به الشياطين ، وهم في ذلك يعملون له ، يخافون أن يخرج فيعاقبهم . وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب ، وكان المحراب له كُوَى بين يديه وخلفه ، فكان الشيطان الذي يريد [أن] يخلع يقول : ألست جلدا إن دخلت فخرجت من ذلك الجانب ؟ فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر ، فدخل شيطان من أولئك فمر ، ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان في المحراب إلا احترق . فمر ولم يسمع صوت سليمان ، ثم رجع فلم يسمع ، ثم رجع فوقع في البيت ولم يحترق . ونظر إلى سليمان عليه السلام قد سقط ميتا . فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات . [ففتحوا عليه](٥) فأخرجوه . ووَجدوا منسأته – وهي : العصا بلسان الحبشة – قد أكلتها الأرضة ، ولم يعلموا منذ كم مات ؟ فوضعوا الأرضة على العصا ، فأكلت منها يوما وليلة ، ثم حسبوا على ذلك النحو ، فوجدوه قد مات منذ سنة . وهي في قراءة ابن مسعود . فمكثوا يدأبون(٦) له من بعد موته حولا ، فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبونهم ولو أنهم علموا الغيب ، لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا في العذاب يعملون له سنة ، وذلك قول الله عز وجل : (ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) ، يقول : تبين أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم . ثم إن الشياطين قالوا للأرضة : لو كنت تأكلين الطعام أتيناك بأطيب الطعام ، ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب ، ولكنا سننقل إليك الماء والطين – قال : فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت – قال : ألم تر إلى الطين(٧) الذي يكون في جوف الخشب ؟ فهو ما تأتيها به الشياطين ، شكراً لها(٨) .

---

(١) تفسير الطبري : ٢٢/٥١ .

(٢) كذا في المخطوطة ، وفي تفسير الطبري : « يتجرد » . وفي الدر المنثور ٥/٢٢٩ : « يخلو » .

(٣) لفظ الطبري : « فأدخله في المرة التي مات فيها ، وذلك أنه لم يكن يوم يصبح ... » .

(٤) بعده في تفسير الطبري : « فيقول لها : لأي شيء نبت ؟ فتقول : نبت لكذا وكذا . فيأمر بها فتقطع » .

(٥) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة . وفي المخطوطة : « فتنحوا عنه » . وفي الدر المنثور ٥/٢٢٩ : « ففتحوا عنه » .

(٦) في المخطوطة : « يدئؤن » . والمثبت من تفسير الطبري . وفي الدر المنثور : « يدينون » .

(٧) وقع هنا سقط في تفسير الطبري .

(٨) تفسير الطبري : ٢٢/٥١ – ٥٢ .

وهذا الأثر – والله أعلم – إنما هو مما تلقي من علماء أهل الكتاب ، وهي وَقْفٌ ، لا يصدق منها إلا ما وافق الحق ، ولا يكذب منها إلا ما خالف الحق ، والباقي لا يصدق ولا يكذب .

وقال ابن وهب(١) وأصبغ بن الفرج ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله : (ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته) ، قال : قال سليمان عليه السلام لملك الموت : إذا أمرتَ بي فأعلمني . فأتاه فقال : يا سليمان ، قد أمرت بك ، قد بقيت لك سويعة ؟ فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحا من قوارير ، وليس له باب ، فقام يصلي فاتكأ على عصاه ، قال : فدخل عليه ملك الموت ، فقبض روحه وهو متوكىء على عصاه ، ولم يصنع ذلك فراراً من ملك الموت – قال : والجن يعملون بين يديه وينظرون إليه ، يحسبون أنه حي . قال : فبعث الله – عز وجل – دابة الأرض ، قال : والدابة تأكل العيدان – يقال لها : القادح – فدخلت فيها فأكلتها ، حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت ، وثقل عليها فخر ميتاً ، فلما رأت ذلك الجن انفضوا وذهبوا ، قال : فذلك قوله : (ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته) – قال أصبغ : بلغني عن غيره أنها قامت سنة تأكل منها قبل أن يخر . وقد ذكر غير واحد من السلف نحوا من هذا ، والله أعلم .

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾

كانت سبأ ملوكَ اليمن وأهلها ، وكانت التبابعة منهم ، وبلقيس – صاحبة سليمان – منهم ، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم ، وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم . وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ، ويشكروه بتوحيده وعبادته ، فكانوا كذلك ما شاء الله ثم أعرضوا عما أمروا به ، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ ، شذر مَذرَ كما يأتي تفصيله وبيانه قريباً إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

قال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا ابن لهيعة ، عن عبد الله بن هُبَيْرة ، عن عبد الرحمن بن وَعلة قال : سمعت ابن عباس يقول : إن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبأ : ما هو ؟ رجل أم امرأة أم أرض ؟ قال : «بل هو رجل ، ولد عشَرَة ، فسكن اليمن منهم ستة ، وبالشام منهم أربعة ، فأما اليمانيون فَمَذْحِجُ ، وكندةُ ، والأزد ، والأشعريون وأنمار وحمير(٢) ، وأما الشامية فلخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسان (٣)» .

ورواه عَبْدُ ، عن الحسن بن موسى ، عن ابن لهيعة(٤) ، به . وهذا إسناد حسن ، ولم يخرجوه . وقد رواه الحافظ

---

(١) رواية ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد في تفسير الطبري : ٢٢/٥٢ .

(٢) بعده في المسند : «عربا كلها» .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١/٣١٦ .

(٤) في المخطوطة مكان «ابن لهيعة» : «عربة» . والمثبت من الطبعات السابقة ، وفي التهذيب ٢/٣٢٣ أن الحسن بن موسى الأشيب يروى عن ابن لهيعة .

أبو عمر بن عبد البر فى كتاب « القصد والأمم » ، بمعرفة أصول أنساب العرب والعجم » ، من حديث ابن لهيعة ، عن علقمة بن وعلة ، عن ابن عباس فذكر نحوه . وقد روى نحوه من وجه آخر .

وقال الإمام [أحمد](١) أيضاً وعبد بن حميد : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا أبو جَنَاب يحيى بن أبى [حيَّة] الكلبى ، عن يحيى بن هانىء بن عروة ، عن فروة بن مُسَيك قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله أقاتل بمقبل قومى مدبرهم ؟ قال : « نعم ، فقاتل بمقبل قومك مدبرهم » . فلما وليت دعانى فقال : « لا تقاتلهم حتى تدعوهم إلى الإسلام » . فقلت : يا رسول الله ، أرأيت سبأ أواد هو ، أو رجل ، أو ما هو ؟ قال : « بل رجل من العرب ، ولد له عشرة فتيامن ستة وتشاءم أربعة ، تيامن الأزد ، والأشعريون ، وحمير ، وكندة ، ومذحج ، وأنمار الذين يقال لهم : بجيلة وخثعم . وتشاءم لخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسَّان » .

وهذا أيضاً إسناد جيد وإن كان فيه أبو جَنَاب الكلبى ، وقد تكلموا فيه . لكن رواه ابن جرير عن أبى كريب ، عن العنقزىّ ، عن أسباط بن نصر ، عن يحيى بن هانىء المرادى ، عن عمه أو عن أبيه ــ يشك أسباط ــ قال : قدم فروة بن مُسَيك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكره (٢) .

طريق أخرى لهذا الحديث : قال ابن أبى حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب ، حدثنى ابن لهيعة ، عن توبة بن نَمر(٣) ، عن عبد العزيز بن يحيى أنه أخبره قال : كنا عند عبيدة بن عبد الرحمن بافريقية فقال يوماً : ما أظن قوما بأرض إلا هم من أهلها . فقال على بن رباح : كلا ، قد حدثنى فلان أن فروة بن مُسَيك الغُطَيفى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إن سبأ قوم كان لهم عز فى الجاهلية ، وإنى أخشى أن يرتدّوا عن الإسلام ، أفأقاتلهم ؟ فقال : « ما أمرت فيهم بشىء بعد » . فأنزلت هذه الآية : (لقد كان لسبأ فى مساكنهم(٤) آية) ... الآيات ، فقال له رجل : يا رسول الله ، ما سبأ ؟ فذكر مثل [هذا] الحديث [الذى] قبله : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل عن سبأ : ما هو ؟ أبلد ، أم رجل ، أم امرأة ؟ قال : « بل رجل ، وَلَد عَشَرَة فسكن اليمن منهم ستة ، والشام أربعة ، أما اليمانيون فمذحج ، وكندة ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحمير غير ما حلها . وأما الشام فلخم ، وجذام ، وغسان ، وعاملة » .

فيه غرابة من حيث ذكر الآية بالمدينة ، والسورة مكية كلها ، والله أعلم .

طريق أخرى قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنى الحسن بن الحكم ، حدثنا أبو سبرة النخعى ، عن فروة بن مسيك الغطيفى قال : قال رجل : يا رسول الله ، أخبرنى عن سبأ : ما هو ؟ أرض ، أم امرأة ؟ قال : « ليس بأرض ولا امرأة ، ولكنه رجل ولد عشرة من الولد ، فتيامن ستة وتشاءم أربعة ، فأما الذين تشاءموا فلخم وجذام

(١) ما بين القوسين من الطبعات السابقة ، وفى مخطوطة الأزهر مكان « أحمد » كلمة مضروب عليها . على أنا لم نجد هذا الحديث فى مسند الإمام أحمد ، وانظر حديث فروة بن مسيك فى المسند : ٤٥١/٣ . ولعل هذا الحديث قد أدرج فى مسند غيره من الصحابة ، فقد قال السيوطى فى الدر المنثور ٢٣١/٥ : إن الإمام أحمد وعبد بن حميد أخرجاه ، ونخشى أن يكون السيوطى قد اعتمد على بعض مخطوطات هذا التفسير ، وكذلك قال الحافظ أبو العلى فى تحفة الأحوذى ٩٠/٩ : إن الإمام أحمد أخرجه ، فالله أعلم .

(٢) تفسير الطبرى : ٥٣/٢٢ .

(٣) فى المخطوطة : « نمير » . والمثبت عن الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٤٤٦/١/١ .

(٤) كذا فى مخطوطة الأزهر (مساكنهم) ، جمعاً . وهى قراءة الجمهور . انظر البحر المحيط لأبى حيان : ٢٦٩/٧ .

وعاملة وغسان ، وأما الذين تيامنوا فكندة ، والأشعريون،والأزد،ومذحج ، وحمير ، وأنمار» : فقال رجل : ما أنمار ؟ قال : «الذين منهم خثعم وبجيلة(١)» .

ورواه الترمذي في جامعه ، عن أبي كريب وعبد بن حميد قالا : حدثنا أبو أسامة ... فذكره أبسط من هذا ، ثم قال : «هذا حديث حسن غريب(٢)» .

وقال أبو عمر بن عبد البر : حدثنا عبد الوارث بن سفيان ، حدثنا قاسم بن أصبغ ، حدثنا أحمد بن زهير ، حدثنا عبد الوهاب بن نجدة الحوطي ، حدثنا ابن كثير — هو عثمان بن كثير — عن الليث بن سعد ، عن موسى بن علي ، عن يزيد بن حصين ، عن تميم الداري أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن سبأ ... فذكر مثله ، فقوى هذا الحديث وحسّن .

قال علماء النسب ، منهم محمد بن إسحاق : اسم سبأ : عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان (٣) ؛

وإنما سمي سبأ لأنه أول من سبأ في العرب ، وكان يقال له الرائش ، لأنه أول من غنم في الغزو فأعطى قومه ، فسمي الرائش ، والعرب تسمي المال : ريشا ورياشا . وذكروا أنه بشر برسول الله صلى الله عليه وسلم في زمانه المتقدم ، وقال في ذلك شعراً(٤) :

سَيَمْلِكُ بَعْدَنَا مُلْكاً عَظِيماً ... نَبِيٌّ لا يُرَخِّصُ فِي الحَرَامِ

وَيَمْلِكُ بَعْدَهُ مِنْهُمْ مُلُوكٌ ... يَدِينُونَ العِبادَ بِغَيْرِ ذامِ

ويَملِكُ بَعدَهم منا مُلُوكٌ ... يَصِيرُ المُلْكُ فِينَا باقْتِسَامِ

وَيَمْلِكُ بَعْدَ قَحْطَانَ نَبِيٌّ ... تَقِيٌّ خَبْتَةٌ (٥) خَيرُ الأَنامِ

وسُمِّيَ أَحْمَدًا يَالَيْتَ أَنِّي ... أُعَمَّرُ بَعْدَ مَبْعَثِه بِعَامِ

فأَعضُدُه وأَحبوه بِنَصْرِي ... بِكُلِّ مُدَجَّجٍ وبِكُلِّ رامِ

مَتى يَظْهَرْ فَكُونُوا نَاصِرِيه ... وَمَنْ يَلْقَاهُ يُبْلِغُه سَلامِي

ذكر ذلك الهمداني في كتاب «الإكليل» .

واختلفوا في قحطان على ثلاثة أقوال ، أحدها : أنه من سلالة إرم بن سام بن نوح ، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق

---

(١) تفسير الطبري : ٢٢/٥٣ .

(٢) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة سبأ ، الحديث ٣٢٧٥ : ٩/٨٨ – ٨٩ .

هذا وقد أخرجه أبو داود ، في كتاب الحروف والقراءات من طريق عثمان بن أبي شيبة وهارون بن عبد الله ، عن أبي أسامة .

(٣) سيرة ابن هشام : ١/١٠ . والذي في جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٣٢٩ ، ونسب عدنان وقحطان للمبرد ١٨ أن اسم سبأ : عامر .

(٤) الأبيات في البداية والنهاية لابن كثير ، طبعة بيروت : ٢/١٥٨ .

(٥) وردت هذه الكلمة في المخطوطة دون نقط . وفي البداية والنهاية مكانها : «جبينه» ولا معنى لها هنا ، ولا يستقيم عليها وزن البيت . ولعل الصواب ما أثبتناه ، ويكون من الوصف بالمصدر ، يقال : «هذا الرجل فيه خبته» ، أي : تواضع .

والثاني : أنه من سلالة عابَر ، وهو هود عليه الصلاة والسلام ، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضاً .

والثالث : أنه من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل ـ عليهما السلام ـ واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضا . وقد ذكر ذلك مستقصى الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر النَّمَري رحمه الله ، في كتابه : « الإنباه على ذكر أصول القبائل الرواة » :

ومعنى قوله عليه السلام : « كان رجلا من العرب » ، يعني : العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل عليه السلام ، من سلالة سام بن نوح . وعلى القول الثالث : كان من سلالة الخليل عليه السلام ، وليس هذا بالمشهور عندهم (١) ، والله أعلم . وفي صحيح البخاري : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بنفر من « أسلَمَ » ينتضلون (٢) ، فقال : « ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان راميا (٣)» . فأسلم قبيلة من الأنصار ، [والأنصار] أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ ـ نزلوا بيثرب لما تفرقت سبأ في البلاد ، حين بعث الله عليهم سيل العرم ، ونزلت طائفة منهم بالشام ، وإنما قيل لهم : غَسَّان بماء نزلوا عليه قيلَ باليمن . وقيل : إنه قريب من المُشَلَّل (٤) ، كما قال حسان بن ثابت (٥) :

إمَّا سألتَ فإنَّا معشرٌ نُجُبُ ، الأزْدُ نِسبَتُنَا ، والماء غَسَّانُ

ومعنى قوله : « ولد له عشرة من العرب » ، أي : كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن ، لا أنهم ولدوا من صلبه ، بل منهم من بينه [وبينه] الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر ، كما هو مقرر مبين في مواضعه من كتب النسب .

ومعنى قوله : « فتيامن منهم ستة ، وتشاءم منهم أربعة » ، أي : بعد ما أرسل الله عليهم سيل العرم ، منهم من أقام ببلادهم ، ومنهم من نزح عنها إلى غيرها . وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضا سيول أمطارهم وأوديتهم ، فعَمَدَ ملوكهم الأقادم ، فبنوا بينهما سداً عظيما محكما حتى ارتفع الماء ، وحَكَمَ على حافات ذينك الجبلين ، فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن ، كما ذكر غير واحد من السلف ، منهم قتادة : أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل ، وهو الذي تخترف (٦) فيه الثمار ، فيتساقط من الأشجار في ذلك مايملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قُطَّاف ، لكثرته ونضجه واستوائه . وكان هذا السد بمأرب : بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ، ويعرف بسد مأرب .

وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ، ولا شيء من الهوام ، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم ، ليوحدوه ويعبدوه ، كما قال تعالى : (لقد كان لسبأ في مساكنهم آية) ، ثم فسرها

---

(١) انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ٧ . ونسب عدنان وقحطان للمبرد : ١٨ .

(٢) أي : يرتمون بالسهام .

(٣) البخاري ، كتاب المناقب ، باب « نسبة اليمن إلى إسماعيل » : ٤/٢١٩ .

(٤) المشلل ـ بضم الميم ، وفتح الشين واللام المشددة ـ: جبل وراء عزور ـ واد قريب من المدينة ـ يهبط منه إلى قديد من ناحية البحر .

(٥) ديوانه ، طبعة بيروت : ٢٥١ ، وسيرة ابن هشام : ١/١٠ .

(٦) أي : تجنى .

بقوله : (جنتان عن يمين وشمال) ، أي : من ناحيتي الجبلين والبلدة بين ذلك ، (كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور) ، أي : غفور لكم إن استمررتم على التوحيد .

وقوله : (فأعرضوا) ، أي : عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم ، وعدلوا إلى عبادة الشمس ، كما قال هدهد سليمان : (وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون (١)) .

وقال محمد بن إسحاق ، عن وهب بن مُنَبِّه : بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبياً .

وقال السّدّي : أرسل الله إليهم اثني عشر ألف نبي . والله أعلم .

وقوله : (فأرسلنا عليهم سيل العرم)، قيل المراد بالعرم المياه . وقيل : الوادي . وقيل : الجُرَذ(٢) . وقيل: الماء الغزير . فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته ، مثل : « مسجد الجامع » و « سعيد كُرْز (٣) » ، حكى ذلك السهيلي .

وذكر غير واحد منهم ابن عباس ، ووهب بن منبه ، وقتادة ، والضحاك : أن الله عز وجل لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم ، بعث على السد دابة من الأرض ، يقال لها « الجُرَذ » نقبته — قال وهب بن منبه : وقد كانوا يجدون في كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجُرَذ فكانوا يرصدون عنده السنانير (٤) برهة من الزمان ، فلما جاء القدر غلبت الفأر السنانير ، وولجت إلى السَّدّ فنقبته ، فانهار عليهم .

وقال قتادة وغيره : الجُرَذ : هو الخُلْد(٥) ، نقبت أسافله حتى إذا ضَعف ووَهَى، وجاءت أيام السيول، صدَمَ الماءُ البناءَ فسقط ، فانساب الماء في أسفل الوادي ، وخرّبَ مابين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك ، ونضب الماء عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال ، فيبست وتحطمت ، وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة ، كما قال الله تعالى : (وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط) .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعطاء الخراساني ، والحسن ، وقتادة ، والسدي : وهو الأراك ، وأكلة البَرير (٦) .

(وأثل) ، قال العوفي ، عن ابن عباس : هو الطَّرْفاء .

وقال غيره : هو شجر يشبه الطرفاء . وقيل : هو السَّمُر(٧) . فالله أعلم .

---

(١) سورة النمل ، آية : ٢٢ — ٢٤ .

(٢) الجرذ : الذكر من الفئران .

(٣) الكرز — بضم فسكون — : الخرج ، والجوالق الصغير . و « كرز » في هذا المثال لقب لسعيد . وعلى ذلك فليست الإضافة إلى الصفة وإنما هي إلى اللقب .

هذا وانظر قول السهيلي في الروض الأنف : ١/١٥ ، والتعريف والإعلام : ١٠٦ ، ١٠٧ . ونتائج الفكر في النحو ، ورقـــة « ١ » .

(٤) السنانير : جمع سنور ، وهو القط .

(٥) الخلد — بضم الخاء وفتحها ، وسكون اللام — : نوع من الفيران . وقيل : الخلد : الفأرة العمياء ، أو التي خلقت ولم تخلق لها عيون .

(٦) الأراك : شجر له ثمر كعناقيد العنب . والبرير — بفتح الباء ، وكسر الراء ، وياء بعدها راء ثانية — : ثمر الأراك إذا أســـود .

(٧) تقـــدم تفسير هذه الكلمة في : ٣/٦٩ .

وقوله : (وشيء من سدر قليل) ، لما كان أجودَ هذه الأشجار المبدل بها هو السِّدْر قال : (وشيء من سدر قليل) ، فهذا الذى صار أمر تينْك الجنتين إليه ، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة ، والظلال العميقة والأنهار الجارية ، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسِّدْر ذى الشوك الكثير والثمر القليل . وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله ، وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل . ولهذا قال : (ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى إلا الكفور) ؟ أى : عاقبناهم بكفرهم .

قال مجاهد : ولا يعاقب إلا الكفور .

وقال الحسن البصرى : صدق الله العظيم . لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور .

وقال طاوس : لايناقش (١) إلا الكفور .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أبو عمر بن النحاس الرملى ، حدثنا حجاج بن محمد ، حدثنا أبو البيداء ، عن هشام بن صالح التغلبى ، عن ابن خيره ــ وكان من أصحاب على رضى الله عنه ــ قال : جزاء المعصية الوهن فى العبادة ، والضيق فى المعيشة ، والتعسر فى اللذة . قيل : وما التعسر فى اللذة ؟ قال : لا يصادف لذة حلال إلا جاءه من يُنَغِّصه إياها .

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾

يذكر تعالى ما كانوا فيه من الغبطة والنعمة ، والعيش الهنى الرغيد ، والبلاد الرخيةِ ، والأماكن الآمنة ، والقرى المتواصلة المتقاربة ، بعضها من بعض ، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها ، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حَمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماء وثمرا ، ويَقيل فى قرية ويبيت فى أخرى ، بمقدار ما يحتاجون إليه فى سيرهم ، ولهذا قال تعالى : (وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها) ــ قال وهب بن منبه : هى قرى بصنعاء . وكذا قال أبو مالك .

وقال مجاهد ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، ومالك عن زيد بن أسلم ، وقتادة ، والضحاك ، والسدى ، وابن زيد ، وغيرهم : يعنى قرى الشام . يعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام فى قرى ظاهرة [متواصلة] (٢) .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : القرى التى باركنا فيها بيت المقدس .

وقال العوفى ، عنه أيضا : هى قرى عربية بين المدينة والشام .

(قرى ظاهرة) ، أى : بينه واضحة ، يعرفها المسافرون ، يَقيلون فى واحدة ، ويبيتون فى أخرى : ولهذا قال : (وقدرنا فيها السير) ، أى : جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ، (سيروا فيها ليالى وأياما آمنين) ، أى : الأمن حاصل لهم فى سيرهم ليلا ونهارا .

---

(١) المناقشة : الاستقصاء فى المحاسبة .

(٢) تفسير الطبرى : ٥٧/٢٢ – ٥٨ .

(فقالوا : ربنا ، باعد بين أسفارنا ، وظلموا أنفسهم) — وقرأ آخرون : (بعد بين أسفارنا) (١) — وذلك أنهم بَطروا هذه النعمة — كما قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وغير واحد — وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون فى قطعها إلى الزاد والرواحل والسير فى الحَرُور (٢) والمخاوف ، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض ، من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، مع أنهم كانوا فى عيش رغيد فى مَنّ وسلوى وما يشتهون من [مآكل ومشارب و] ملابس مرتفعة ، ولهذا قال لهم : (أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله) (٣) ، وقال تعالى : (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها) (٤) ، وقال تعالى : (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) (٥) . وقال فى حق هؤلاء : (وظلموا أنفسهم) ، أى : بكفرهم ، (فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق) ، أى : جعلناهم حديثا للناس ، وسَمَراً يتحدثون به من خبرهم ، وكيف مكر الله بهم ، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنىء ، تفرقوا فى البلاد هاهنا وهاهنا ؛ ولهذا تقول العرب فى القوم إذا تفرقوا : « تفرقوا أيدى سبا » « وأيادى سبأ (٦) » و « تفرقوا شَذَرَ مَذَرَ (٧) » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد (٨) بن يحيى بن سعيد القطان ، حدثنا إبراهيم بن حبيب بن الشهيد ، سمعت أبى يقول : سمعت عكرمة يحدث بحديث أهل سبأ ، قال : (لقد كان لسبأ فى مساكنهم آية جنتان) إلى قوله : (فأرسلنا عليهم سيل العرم) : وكانت فيهم كهنة ، وكانت الشياطين يسترقون السمع ، فأخبروا الكهنة بشىء من أخبار السماء ، فكان فيهم رجل كاهن شريف كثير المال ، وإنه خُبِّر أن زوال أمرهم قد دنا ، وأن العذاب قد أظلهم ، فلم يدر كيف يصنع ، لأنه كان له مال كثير من عقار ، فقال لرجل من بنيه — وهو أعزهم أخوالا — : إذا كان غدا وأمرتك بأمر فلا تفعل ، فاذا انتهرتك فانتهرنى ، فإذا تناولتك فالطمنى . فقال : يا أبت ، لا تفعل ، إن هذا أمر عظيم ، وأمر شديد . قال : يا بنى ، قد حدث أمر لا بد منه . فلم يزل به حتى وافاه على ذلك . فلما أصبحوا واجتمع الناس ، قال : يا بنى ، افعل كذا وكذا . فأبى ، فانتهره أبوه ، فأجابه ، فلم يزل ذلك بينهما حتى تناوله أبوه ، فوثب على أبيه فلطمه ، فقال : ابنى يلطمنى ؟ . علَىّ بالشفرة . قالوا : وما تصنع بالشفرة ؟ قال : أذبحه . قالوا: تذبح ابنك؟ الطمه أواصنع مابدا لك؛ قال : فأبى ، قال : فأرسلوا إلى أخواله فأعلموهم ذلك ، فجاء أخواله فقالوا : خذمنا ما بدالك ، فأبى إلا أن يذبحه ، قالوا : فلتموتن قبل أن تذبحه . قال : فإذا كان الحديث هكذا فإنى لا أرى أن أقيم ببلد يحال بينى وبين ولدى فيه ، اشتروا منى دورى ، اشتروا منى أرضى . فلم يزل حتى باع دوره وأراضيه وعقاره ، فلما صار الثمن فى يده [وأحرزه] ، قال :

---

(١) البحر المحيط : ٢٧٢/٧ ، وتفسير الطبرى : ٥٨/٢٢ .

(٢) الحرور : حـــر الشمس .

(٣) سورة البقرة ، آية : ٦١ .

(٤) سورة القصص ، آية : ٥٨ .

(٥) سورة النحل ، آية : ١١٢ .

(٦) أى : فرقتهم طرقهم التى سلكوها ، كما تفرق أهل سبأ فى مذاهب شتى . واليد فى اللغة : الطريق ، يقال : أخذ القوم يد بحر ، أى : طريق بحر . والعرب لا تهمز « سبا » فى هذا المثل ، لأنه كثر فى كلامهم ، فاستثقلوا فيه الهمزة .

(٧) أى : ذهبوا فى كل وجه . ولا يقال ذلك فى الإقبال .

(٨) هو أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان . انظر ترجمته فى الجرح والتعديل لابن ابى حاتم : ٧٤/١/١ .

أى قوم ، إن العذاب قد أظلكم ، وزوال أمركم قد دنا ، فمن أراد منكم دارا جديدا ، وجملا شديدا ، وسفرا بعيدا ، فليلحق بعمان ؛ ومن أراد منكم الخَمْر والخَمِير (١) والعَصِير — وكلمة ، قال إبراهيم : لم أحفظها — فليلحق ببُصْرَى ؛ ومن أراد الراسخات فى الوحل ، المطعمات فى المَحْلُ ، المقيمات فى الضحل (٢) ، فليلحق بيثرب ذات نخل . فأطاعه قومه ، فخرج أهل عمان إلى عمان ؛ وخرجت غسان إلى بصرى . وخرجت الأوس والخزرج وبنو عثمان إلى يثرب ذات النخل ؛ قال : فأتوا على بطن (٣) مر فقال بنو عثمان : هذا مكان صالح ، لا نبغى به بدلا . فأقاموا [به] ، فسموا لذلك خزاعة ، لأنهم انخزعوا من أصحابهم ، واستقامت الأوس والخزرج حتى نزلوا المدينة ، وتوجه أهل عمان إلى عمان وتوجهت غسان إلى بصرى :

هذا أثر غريب عجيب ، وهذا الكاهن هو عمرو بن عامر أحد رؤساء اليمن وكبراء سبأ وكهانهم .

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار فى أول السيرة ما كان من أمر [عمرو بن] عامر الذى كان أول من خرج من بلاد اليمن ، بسبب استشعاره بارسال العَرِم فقال : وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن — فيما حدثنى أبو زيد الأنصارى — : أنه رأى جرذاً (٤) يَحفرُ فى سد مأرب ، الذى كان يحبس عنهم الماء فيصرفونه حيث شاءوا من أرضهم ؛ فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك ، فاعتزم على النُّقْلة عن اليمن فكاد قومه ، فأمر أصغر أولاده إذا أغلظ له ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه ، ففعل ابنه ما أمره به ، فقال عمرو : لا أقيم ببلد لَطَم وجهى فيها أصغر ولدى . وعرض أمواله ، فقال أشراف من أشراف اليمن : اغتنموا غَضْبَةَ عمرو . فاشتروا [منه] أمواله ، وانتقل فى ولده وولد ولده . وقالت الأزد : لا نتخلف عن عمرو بن عامر ؛ فباعوا أموالهم ، وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا بلاد « عك » مجتازين يرتادون البلدان ، فحاربتهم عك ، وكانت حربهم سِجَالا (٥) . ففى ذلك يقول عباس بن مرداس السلمى :

وَعَكَّ بنُ عدنانَ الذين تَغَلَّبُوا (٦) • بغَسَّانَ ، حتى طُرِّدُوا كُلَّ مَطْرَدِ

وهذا البيت من قصيدة له :

قال : ثم ارتحلوا عنهم فتفرقوا فى البلاد ، فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام ، ونزلت الأوس والخزرج يثرب ، ونزلت خزاعة مَرًّا ؛ ونزلت أزد السراة السراة ، ونزلت أزد عُمَان عُمَان ؛ ثم أرسل الله على السد السيل فهدمه ، وفى ذلك أنزل الله عز وجل هذه الآيات (٧) ؛

وقد ذكر السدى قصة عمرو بن عامر بنحو مما ذكر محمد بن إسحاق ، إلا أنه قال : « فأمر ابن أخيه » ، مكان « ابنه » ، إلى قوله : « فباع ماله وارتحل بأهله ، فتفرقوا » ؛ رواه ابن أبى حاتم .

(١) الخمر : معروف . ولعله أراد : الخمر — بفتحتين — وهو الشجر . والخمير : ما يجعل فى العجين من الخميرة . ولعله يعنى ما يجعل فى النبيذ من الخمر .

(٢) المحل : الجدب . والضحل : القليل من الماء . وقيل : هو الماء القريب المكان . وكان فى المخطوطة : « القحل » . والمثبت من الدر المنثور .

(٣) بطن مر : من نواحى مكة .

(٤) الجرذ : الذكر من الفئران .

(٥) السجال : أن يغلب هؤلاء مرة ، وهؤلاء مرة .

(٦) فى سيرة ابن هشام : « تلقبوا » . والمثبت من المخطوطة . وفى البداية والنهاية : « تلعبوا » .

(٧) سيرة ابن هشام : ١/١٠ — ١٣ .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، أخبرنا [سلمة] ، عن ابن إسحاق قال : يزعمون أن عمرو (١) بن عامر — وهو عم القوم — كان كاهناً ، فرأى فى كهانته أن قومه سيمزّقون ويباعَدُ بين أسفارهم . فقال لهم : إنى قد علمت أنكم ستمزقون ، فمن كان منكم ذاهَمّ بعيد وجمل شديد ، ومَزَاد جَدِيد (٢) — فليلحق بكاس أو كرود (٣) . قال : فكانت وادعة بن عمرو . ومن كان منكم ذاهَمّ مُدْن ، وأمر دَعْن (٤) ، فليلحق بأرض شَنّ . فكانت عوف بن عمرو ، وهم الذين يقال لهم : بارق . ومن كان منكم يريد عيشا آنيا (٥) ، وحرما آمنا ، فليلحق بالأرزين (٦) . فكانت خزاعة ، ومن كان منكم يريد الراسيات فى الوحل ، المطعات فى المحل ، فليلحق بيثرب ذات النخل . فكانت الأوس والخزرج ، وهما هذان الحيان من الأنصار . ومن كان منكم يريد خمرا وخميرا ، وذهبا وحريرا ، وملكا وتأميرا ، فليلحق بكُوثى وبُصرى ، فكانت غسانَ بنو جَفْنة ملوكُ الشام . ومن كان منهم بالعراق .

قال ابن إسحاق : وقد سمعت بعض أهل العلم يقول : إنما قالت هذه المقالة طريفةُ امرأة عمرو بن عامر ، وكانت كاهنة ، فرأت فى كهانتها [ذلك] ، فالله أعلم أىّ ذلك كان (٧) .

وقال سعيد ، عن قتادة ، عن الشعبى : أما غسان فلحقوا بالشام ، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب ، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة ، وأما الأزد فلحقوا بعمان فرقهم الله كل ممزق . رواه ابن أبى حاتم وابن جرير (٨) .

ثم قال محمد بن إسحاق : حدثنى أبو عبيدة قال : قال الأعشى — أعشى بنى قيس بن ثعلبة — واسمه : ميمون ابن قيس (٩) :

وَفِى ذَاكَ لِلْمُؤْتَسِى أُسْوَةٌ ... وَمَأْرِبَ عَفَّى (١٠) عَلَيْهَا الْعَرِمْ
رُخَامٌ (١١) بَنَتْهُ لَهُمْ حِمْيَرُ ... إِذَا جَاءَ مَوَّارُهُ (١٢) لَمْ يَرِمْ
فَأَرْوَى الزُّرُوعَ وَأَعْنَابَهَا ... عَلَى سَعَةٍ مَاؤُهُمْ إِذْ قُسِمْ
فَصَارُوا أَيَادِى مَا يَقْدِرُو ... نَ مِنْهُ عَلَى شُرْبِ طِفْلٍ فُطِمْ (١٣)

---

(١) فى تفسير الطبرى : « عمران بن عامر » . وهو خطأ ، انظر الآثار المتقدمة .
(٢) المزاد — بفتح الميم — واحدها مزادة ، وهو ما يحمل فيها الماء ، وتسمى الراوية .
(٣) يبدو أن « كاس » و « كرود » وغير ذلك مما هو فى هذا الأثر أماكن على أنا لم نهتد إلى تحديدها .
(٤) كذا ، ومثله فى تفسير الطبرى . ولا ندرى ما المقصود به ؟ .
(٥) أى : حاضراً .
(٦) كذا فى تفسير الطبرى ، وفى المخطوطة : « بالأرذين » .
(٧) تفسير الطبرى : ٢٢/ ٥٩ — ٦٠
(٨) تفسير الطبرى ، ٢٢/ ٥٩ .
(٩) انظر الأبيات فى ديوان الأعشى أيضاً : ٢٠١ .
(١٠) أى : طمسها وأذهب معالمها .
(١١) الرخام : حجر أبيض .
(١٢) الموار : الشديد المور ، يقال : « مار الشىء يمور موراً » : إذا جعل يذهب ويجىء ويتردد .
(١٣) سيرة ابن هشام : ١/ ١٤ .

وقوله تعالى : (إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) ، أى : إن فى هذا الذى حل بهم لاء من النقمة والعذاب ، وتبديل النعمة وتحويل العافية ؛ عقوبةً على ما ارتكبوه من الكفر والآثام ــ لعبرةً وَدَلالةً لكل عبد صبار على المصائب ، شكور على النعم .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن وعبد الرزاق المعنى ، قالا : أخبرنا سفيان ، عن أبى إسحاق ، عن العَيْزَار بن حُرَيث عن عمر بن سعد ، عن أبيه ــ هو سعد بن أبى وقاص ، رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عجبت من قضاء الله للمؤمن ، إن أصابه خير حَمِدَ رَبَّه وشكر ، وإن أصابته مصيبة حَمِد ربه وصَبَر ، يؤجر المؤمن فى كل شىء ، حتى فى اللقمة يرفعها إلى فى امرأته (١) » .

وقد رواه النسائى فى « اليوم والليلة » ، من حديث أبى إسحاق السَّبيعى ، به ــ وهو حديث عزيز (٢) ــ من رواية عمر بن سعد ، عن أبيه . ولكن له شاهد فى الصحيحين من حديث أبى هريرة : « عجباً للمؤمن . لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ؛ وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له . وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن (٣) » .

قال عبد : حدثنا يونس ، عن شيبان ، عن قتادة (إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) قال : كان مطرِّف يقول : نعم العبد الصبار الشكور ، الذى إذا أعطى شكر ، وإذا ابتلى صبر .

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾

لما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم فى اتباعهم الهوى والشيطان ، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى ، وخالف الرشاد والهدى ، فقال : (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه) .

قال ابن عباس وغيره : هذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم ، ثم قال : (أرأيتك هذا الذى كرمت على : لئن أخرتن إلى يوم القيامة ، لأحتنكن ذريته إلا قليلا (٤)) ، ثم قال : (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين (٥)) ؛ والآيات فى هذا كثيرة .

وقال الحسن البصرى : لما أهبط الله آدم من الجنة ومعه حواء ، هبط إبليس فَرِحا بما أصاب منهما ، وقال : « إذا أصبت من الأبوين ما أصبت ، فالذرية أضعف وأضعف » . وكان ذلك ظناً من إبليس ، فأنزل الله عز وجل : (ولقد صدق عليهم إبليس

(١) مسند الإمام أحمد ١ / ١٧٣ .
(٢) العزيز : ما انفرد من راويه اثنان أو ثلاثة .
(٣) وقع لنا الحديث فى مسلم عن صهيب . انظر كتاب الزهد ، باب « المؤمن أمره كله خير » ٨ / ٢٢٧ .
(٤) سورة الإسراء آية : ٦٢ .
(٥) سورة الأعراف ، آية : ١٧ .

ظنه فاتبعوه ، إلا فريقا من المؤمنين)، فقال عند ذلك إبليس : « لا أفارق ابن آدم ما دام فيه الروح ، أعدُه وأمنّيه وأخدَعه » . فقال الله : « وعزتى لا أحجب عنه التوبة ما لم يُغَرغر بالموت ، ولا يدعونى إلا أجبته ، ولا يسألنى إلا أعطيته ، ولا يستغفرنى إلا غفرت له » . رواه ابن أبى حاتم .

وقوله : (وما كان له عليهم من سلطان) — قال ابن عباس : أى من حجة .

وقال الحسن البصرى : والله ما ضربهم بعصا ، ولا أكرههم على شىء ، وما كان إلا غرورا وأمانى دعاهم إليها فأجابوه (١) .

وقوله : (إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك) ، أى : إنما سلطناه عليهم ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء ، فيحسن عبادة ربه عز وجل فى الدنيا ، ممن هو منها فى شك .

وقوله : (وربك على كل شىء حفيظ) ، أى : ومع حفظه ضلّ من ضل من أتباع إبليس ، وبحفظه وكلاءته سلِم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل .

قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾

بيّن تعالى أنه الإله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لا نظير له ولا شريك له ، بل هو المستقل بالأمر وحده ، من غير مشارك ولا منازع ولا معارض ، فقال : (قل : ادعوا الذين زعمتم من دون الله) ، أى : من الآلهة التى عبدت من دونه [لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض) ، كما قال تبارك وتعالى : (والذين تدعون من دونه] ما يملكون من قطمير) (٢) :

وقوله : (وما لهم فيهما من شرك) ، أى : لا يملكون [شيئا] استقلالا ولا على سبيل الشركة ، (وما له منهم من ظهير) أى : وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به فى الأمور ، بل الخلق كلهم فقراء إليه ، عبيد لديه ؛

قال قتادة فى قوله : (وما له منهم من ظهير) ، من عون يعينه بشىء (٣) .

وقال : (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) ، أى : لعظمته وكبريائه لا يجترئ أحد أن يشفع عنده تعالى فى شىء ، إلا بعد إذنه له فى الشفاعة ، كما قال تعالى : (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه (٤)) ، وقال : (وكم من ملك فى السموات

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٢ / ٦١ .
(٢) سورة فاطر ، آية : ١٣ .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٢ / ٦٢ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ٢٥٥ .

لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء (١)) ، وقال : (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون (٢)) .

ولهذا ثبت فى الصحيحين (٣) ، من غير وجه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ وهو سيد ولد آدم ، وأكبر شفيع عند الله ــ : أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع فى الخلق كلّهم أن يأتى ربّهم لفصل القضاء ، قال : « فأسجد لله فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ، ويفتح على بمحامد لا أحصيها الآن ، ثم يقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تُعطَه ، واشفع تشفع » ... الحديث بتمامه .

وقوله : (حتى إذا فزع عن قلوبهم ، قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق) : وهذا أيضا مقام رفيع فى العظمة : وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحى ، سمع أهل السموات كلامه ، أرْعِدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشى ، قاله ابن مسعود ومسروق ، وغيرهما (٤) .

(حتى إذا فزع عن قلوبهم) ، أى : زال الفزع عنها ، قال ابن عباس ، وابن عمر وأبو عبد الرحمن السلمى ، والشعبى ، وإبراهيم النخعى ، والضحاك والحسن ، وقتادة فى قوله تعالى: (حتى إذا فزع عن قلوبهم) يقول : جُلّى عن قلوبهم ، وقرأ بعض السلف ــ وجاء مرفوعا ــ : (إذا فُرّغ) بالغين المعجمة ، ويرجع إلى الأول (٥) .

فإذا كان كذلك يسأل بعضهم بعضا : ماذا قال ربكم ؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم ، حتى ينتهى الخبر إلى أهل السماء الدنيا ، ولهذا قال : (قالوا : الحق) ، أى : أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ، (وهو العلى الكبير) .

وقال آخرون : بل معنى قوله : (حتى إذا فزع عن قلوبهم) ، يعنى المشركين عند الاحتضار ، ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة فى الدنيا ، ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة ، قالوا : ماذا قال ربكم ؟ فقيل لهم : الحق ، وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين فى الدنيا .

قال ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد : (حتى إذا فزع عن قلوبهم) ، كشف عنها الغطاء يوم القيامة .

وقال الحسن : (حتى إذا فزع عن قلوبهم) ، يعنى : ما فيها من الشك والتكذيب .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (حتى إذا فزع عن قلوبهم) ، يعنى : ما فيها من الشك ، قال : فزع الشيطان عن قلوبهم وفارقهم وأمانيهم وما كان يضلهم ، (قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق ، وهو العلى الكبير) ، قال : وهذا فى بنى آدم ، هذا عند الموت ، أقروا حين لا ينفعهم الإقرار (٦) .

(١) سورة النجم ، آية : ٢٦ .
(٢) سورة الأنبياء ، آية : ٢٨ .
(٣) تقدمت أحاديث الشفاعة عند الآية التاسعة والسبعين من سورة الإسراء ، وخرجناها هنالك ، انظر ، ٥/١٠٣-١٠٨ .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٢ / ٦٢ .
(٥) أنظر البحر المحيط : ٧/٢٧٨ ، وتفسير الطبرى ٢٢ / ٦٤ .
(٦) تفسير الطبرى : ٢٢ / ٦٤ .

وقد اختار ابن جرير القول الأول : أن الضمير عائد على الملائكة ؛ هذا هو الحق الذى لا مرية فيه ، لصحة الأحاديث فيه والآثار ، ولنذكر منها طرفا يدل على غيره .

قال البخارى عند تفسير هذه الآية الكريمة فى صحيحه : حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو ، سمعت عكرمة ، سمعت أبا هُرَيرة يقول : إن نبى الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « إذا قضى الله الأمرَ فى السماء ، ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعاناً (١) لقوله ، كأنه سلسلة على صفوانٍ ، فاذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذى قال : الحقَّ ، وهو العلى الكبير ، فيسمعها مُسْتَرِق السمع ، ومسترق السمع — هكذا بعضه فوق بعض — وَوصف سفيان بيده (٢) — فَحرَّفها (٣) وبَدَّد بين أصابعه — فيَسمع الكلمة ، فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيَها على لسان الساحر أو الكاهن . فربما أدركه الشّهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كَذْبة ، فيقال : أليس قد قال لنا يومَ كذا وكذا ، كذا وكذا ؟ فيصدّق بتلك الكلمة التى سُمعت من السماء (٤) » .

انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم من هذا الوجه ، وقد رواه أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه ، من حديث سفيان ابن عيينة ، به (٥) .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر وعبد الرزاق : أخبرنا معمر ، أخبرنا الزهرى ، عن على بن الحسين ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم [جالسا] فى نفر من أصحابه — قال عبد الرزاق : « من الأنصار » — فَرُمِىَ بنجم فاستنار ، [قال] : « ما كنتم تقولون إذا كان مثلُ هذا فى الجاهلية ؟ » قالوا : كنا نقول يُولَد عظيم ، أو يموت عظيم — قلت للزهرى : أكان يرمى بها فى الجاهلية ؟ قال : نعم ، ولكن غُلِّظت (٦) حين بعث النبى صلى الله عليه وسلم — قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا — تبارك وتعالى — إذا قضى أمرا سبح حَمَلَةُ العرش ، [ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح هذه الدنيا ، ثم يستخبر أهل السماء الذين يَلُونَ حملة العرش ، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش] : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ، ويخبر أهل كل سماء سماء ، حتى ينتهى الخبر إلى هذه السماء ، وتخطف الجن السمع فيرمون ، فما جاءوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون (٧) » .

هكذا رواه الإمام أحمد ، وقد أخرجه مسلم فى صحيحه ، من حديث صالح بن كيسان ، والأوزاعى ، ويونس ومعقل ابن عبيد الله ، أربعتهم عن الزهرى ، عن على بن الحسين ، عن ابن عباس عن رجل من الأنصار ، به ، ورواه وقال يونس :

---

(١) تقدمت سياقة هذا الحديث عن البخارى عند تفسير الآية الثامنة عشرة من سورة الحجر : ٤/١٤٦ – ١٤٧ ، وذلك من طريق على بن عبد الله ، عن سفيان . وشرحنا هنالك غريب هذه الرواية ، ونشرح هنا ما انفردت به رواية الحميدى .

(٢) فى الصحيح : « بكفه » .

(٣) حرفها : أمالها . وبدد بين أصابعه : أى فرق بينها .

(٤) البخارى ، تفسير سورة سبأ : ٦/١٥٢ – ١٥٣ .

(٥) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة سبأ : ٩/٩٠ . وسنن ابن ماجه ، المقدمة ، باب « فيما أنكرت الجهمية » ، الحديث ١٩٤ : ١/٦٩ – ٧٠ .

(٦) كذا ومثله فى المسند . ولعل المعنى : أحكمت السماء بعد بعثة النبى صلى الله عليه وسلم .

(٧) مسند الإمام أحمد : ١/٢١٨ .

عن رجال من الأنصار (١) : وكذا رواه النسائى فى « التفسير » من حديث الزبيدى ، عن الزهرى ، به : ورواه الترمذى فيه (٢) عن الحُسَين بن حريث ، عن الوليد بن مسلم ، عن الأوزاعى ، عن الزهرى ، عن عُبَيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس ، عن رجل من الأنصار ــ رضى الله عنه ــ والله أعلم

حديث آخر ، قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عوف وأحمد بن منصور بن سيار الرمادى ــ والسياق لمحمد بن عوف قالا : حدثنا نعيم بن حماد ، حدثنا الوليد ــ هو ابن مسلم ــ عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، عن عبد الله بن أبى زكرياء ، عن رجاء بن حيوة ، عن النواس بن سمعان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ : « إذا أراد الله أن يوحى بأمره تكلم بالوحى ، فاذا تكلم أخذت السموات منه رجفة ــ أو قال : رعدة ــ شديدة ؛ من خوف الله . فاذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدا ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، فيمضى به جبريل على الملائكة ، كلما مرّ بسماء سماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول : قال : الحقّ ، وهو العلى الكبير . فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهى جبريل بالوحى حيث أمره الله من السماء والأرض » .

وكذا رواه ابن جرير (٣) وابن خزيمة ، عن زكريا بن أبان المصرى ، عن نعيم بن حماد ، به .

قال ابن أبى حاتم : سمعت أبى يقول : ليس هذا الحديث بالشام عن الوليد بن مسلم رحمه الله .

وقد روى ابن أبى حاتم من حديث العوفى ، عن ابن عباس ــ وعن قتادة : أنهما فسرا هذه الآية بابتداء إيحاء الله سبحانه إلى محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعد الفترة التى كانت بينه وبين عيسى . ولا شك أن هذا أولى مادخل فى هذه الآية .

* قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى مُقَرِّراً تفردَه بالخلق والرزق ، وانفراده بالإلهية أيضا ، فكما كانوا يعترفون بأنه لا يرزقهم من السماء والأرض ــ أى : بما ينزل من المطر وينبت من الزرع ــ [إلا الله] ، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره .

وقوله : (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) ، هذا من باب اللف والنشر (٤) ، أى : واحد من الفريقين مبطل ، والآخر محق ، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال ، بل واحد منا مصيب ، ونحن قد أقمنا البرهانَ على التوحيد ، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله . ولهذا قال : (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) .

---

(١) مسلم ، كتاب السلام ، باب « تحريم الكهانة وإتيان الكهان » : ٣٦/٧ – ٣٧ .

(٢) كذا ، ولم يقع لنا فى الترمذى من هذه الطريق . انظر تحفة الأحوذى : ٩١/٩ – ٩٢ .

(٣) تفسير الطبرى : ٦٣/٢٢ .

(٤) انظر التعريف بهذا المصطلح البلاغى فى : ٢٦٢/٦ .

قال قتاده : قد قال ذلك أصحاب محمد – صلى الله عليه وسلم – للمشركين : والله ما نحن وإياكم على أمر واحد ، إن أحد الفريقين لمهتد (١) .

وقال عكرمة وزياد بن أبي مريم : معناه : إنا نحن لعلى هدى ، وإنكم لفي ضلال مبين (٢) :

وقوله : (قل لا تسئلون عما أجرمنا ولا نسئل عما تعملون) ، معناه التبرى منهم ، أى : لستم منا ولا نحن منكم ، بل ندعوكم إلى الله وإلى توحيده وإفراد العبادة له ، فان أجبتم فأنتم منا ونحن منكم ، وإن كذبتم فنحن برآء منكم وأنتم برآء منا ؛ كما قال تعالى : (فان كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل ، وأنا برئ مما تعملون(٣)) ؛ وقال : (قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين (٤)) ؛

وقوله : (قل يجمع بيننا ربنا) ، أى : يوم القيامة ، يجمع الخلائق فى صعيد واحد ، ثم يفتح بيننا بالحق ، أى : يحكم بيننا بالعدل ، فيجزى كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر ؛ وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية ، كما قال تعالى : (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ؛ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون ؛ وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة ، فأولئك فى العذاب محضرون (٥)) ؛ ولهذا قال تعالى : (وهو الفتاح العليم) ، أى : [الحاكم العادل] العالم بحقائق الأمور ؛

وقوله : (قل : أرونى الذين ألحقتم به شركاء) ، أى : أرونى هذه الآلهة التى جعلتموها لله أندادا وصيّرتموها له عدلا ؟ . [كلا] ، أى : ليس له نظير ولا نديد ، ولا شريك ولا عديل ؛ ولهذا قال : (بل هو الله) ، أى : الواحد الأحد الذى لا شريك له [العزيز الحكيم] ، أى : ذو العزة التى قد قهر بها كل شىء ، وغلبت كل شىء ، الحكيم فى أفعاله وأقواله ، وشرعه وقدره ، تعالى وتقدس :

وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد – صلوات الله وسلامه عليه – : (وما أرسلناك إلا كافة للناس) ، أى : إلا إلى جميع الخلق من المكلفين ، كقوله تعالى : (قل : يا أيها الناس ، إنى رسول الله إليكم جميعاً (٦)) ، (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا (٧)) ؛

(١) تفسير الطبرى ، ٦٤/٢٢ .
(٢) تفسير الطبرى : ٦٥/٢٢ .
(٣) سورة يونس ، آية : ٤١ .
(٤) سورة الكافرون .
(٥) سورة الروم ، الآيات : ١٤ – ١٦ .
(٦) سورة الأعراف ، آية : ١٥٨ .
(٧) سورة الفرقان ، آية : ١ .

(بشيرا ونذيرا) ، أى : تبشر من أطاعك بالجنة ، وتنذر من عصاك بالنار .

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ، كقوله تعالى : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين (١)) ، (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله) (٢) .

قال محمد بن كعب فى قوله : (وما أرسلناك إلا كافة للناس) ، يعنى إلى الناس عامة .

وقال قتادة فى هذه الآية : أرسل الله محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى العرب والعجم ، فأكرمُهم على الله أطوعهم لله عز وجل (٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو عبد الله الظهرانى ، حدثنا حفص بن عمر العدنى ، حدثنا الحكم ــ يعنى ابن أبان ــ عن عكرِمة قال : سمعت ابن عباس يقول : إن الله فضل محمداً صلى الله عليه وسلم على أهل السماء وعلى الأنبياء . قالوا : يا ابن عباس ، فيم فضله الله على الأنبياء؟ قال : إن الله قال : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) ، وقال للنبى صلى الله عليه وسلم : (وما أرسلناك إلا كافة للناس) ، فأرسله الله إلى الجن والإنس .

وهذا الذى قاله ابن عباس قد ثبت فى الصحيحين رَفْعُه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر . وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل . وأحلت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى . وأعطيت الشفاعة . وكان النبى يبعث إلى قومه ، وبعثت إلى الناس عامة(٤) » .

وفى الصحيح أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بعثت إلى الأسود والأحمر (٥) » . قال مجاهد : يعنى الجن والإنس ، وقال غيره : يعنى العرب والعجم . والكل صحيح .

ثم قال تعالى مخبرا عن الكفار فى استبعادهم قيام الساعة : (ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) ، كما قال تعالى : (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق (٦)) ... الآية .

ثم قال : (قل : لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون) ، أى : لكم ميعاد مؤجل معدود محرر ، لا يزداد ولا ينتقص ، فاذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم ، كما قال تعالى : (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر (٧)) وقال (وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فمنهم شقى وسعيد (٨)) .

---

(١) سورة يوسف ، آية : ١٠٣ .
(٢) سورة الأنعام ، آية : ١١٦ .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٢/٦٦ .
(٤) تقدم الحديث فى سورة الأنفال : ٣/٥٤٩ ، وخرجناه هنالك .
(٥) مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة : ٢/٦٣ . ومسند الإمام أحمد عن ابن عباس : ١/٢٥٠ ، ٣٠١ . وعن أبى موسى : ٤/٤١٦ . وعن أبى ذر : ٥/١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٦٢ .
(٦) سورة الشورى ، آية : ١٨
(٧) سورة نوح ، آية : ٤ .
(٨) سورة هـود ، آية : ١٠٤ - ١٠٥ .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٣٣)

يخبر تعالى عن تمادى الكفار فى طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن وما أخبر به من أمر المعاد ، ولهذا قال : (وقال الذين كفروا : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه) ، قال الله تعالى متهددا لهم ومتوعدا ، ومخبرا عن مواقفهم الذليلة بين يديه فى حال تخاصمهم وتحاجّهم : (يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا) ، منهم وهم الأتباع (للذين استكبروا) ، وهم قادتهم وسادتهم : (لولا أنتم لكنا مؤمنين) ، أى : لولا أنتم تصدونا [لكنا] اتبعنا الرسل وآمنا بما جاءونا به. فقال لهم القادة والسادة ، وهم الذين استكبروا : (أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم؟) أى : نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنّا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان ، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التى جاءت بها الأنبياء ، لشهوتكم واختياركم لذلك ، ولهذا قالوا : (بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار) ، أى : بل كنتم تمكرون بنا ليلا ونهارا ، وتغُرّونا وتُمنّونا ، وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شىء ، فإذا جميع ذلك باطل وكَذِبٌ ومَيْن .

قال قتادة ، وابن زيد : (بل مكر الليل والنهار) ، يقول : بل مكرهم بالليل والنهار . وكذا قال مالك ، عن زيد بن أسلم : مكرهم بالليل والنهار .

(إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا) ، أى : نظراء وآلهة معه ، وتقيموا لنا شُبَهاً وأشياءَ من المحال ، تضلونا بها . (وأسروا الندامه لما رأوا العذاب) ، أى : الجميع من السادة والأتباع ، كُلٌ نَدِم على ما سلَف منه .

(وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا) ، وهى السلاسل التى تجمع أيديهم مع أعناقهم ، (هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) ، أى : إنما نجازيكم بأعمالكم ، كلٌ بحسبه ، للقادة عذاب بحسبهم ، وللأتباع بحسبهم ؛ (قال : لكل ضعف ولكن لا تعلمون) (١) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا فروة بن أبى المغراء ، حدثنا محمد بن سليمان ابن الأصبهانى ، عن أبى سنان ضرار بن صُرَد ، عن عبد الله بن أبى الهُذَيل ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن جهنم لما سيق إليها أهلها تلقّاهم لهبها ، ثم لفَحتهم لفحةً فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب » .

وحدثنا أبى ، حدثنا أحمد بن أبى الحوارى ، حدثنا الطيب أبو الحسن ، عن الحسن بن يحيى الخُشَنى قال : ما فى جهنم دار ولا مغار ولا غل ولا سلسلة ولا قيد ، إلا اسم صاحبها عليه مكتوب . قال : فحدثتُه أبا سليمان — يعنى الدارانى ،

(١) سورة الأعراف ، آية : ٣٨ .

رحمة الله عليه ـ فبكى ثم قال : ويحك ، فكيف به لو جمع هذا كله عليه ، فجعل القيد فى رجليه ، والغُلّ فى يديه والسلسلة فى عنقه ، ثم أدخل الدار وأدخل المغار .

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ (٣٧) وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (٣٩)

يقول تعالى مسليا لنبيه، وآمرا له بالتأسى بمن قبله من الرسل ، ومخبره بأنه ما بعث نبيا فى قرية إلا كذبه مترفوها ، واتبعه ضعفاؤهم ، كما قال قوم نوح : (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون (١)) ، (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى(٢)) ، وقال الكبراء من قوم صالح : (للذين استضعفوا لمن آمن منهم : أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا : إنا بالذى آمنتم به كافرون (٣)) وقال تعالى : (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ، ليقولوا : أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ أليس الله بأعلم بالشاكرين (٤)) ؟ وقال (وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها) (٥) ، وقال : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها) ففسقوا فيها (٦)) .

وقال هاهنا : (وما أرسلنا فى قرية من نذير) ، أى : نبى أو رسول (إلا قال مترفوها) ، وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة .

قال قتادة : هم جبّابرتهم وقادتهم ورءوسهم فى الشر . (إنا بما أرسلتم به كافرون) ، أى : لا نؤمن به ولا نتبعه .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا هارون بن إسحاق حدثنا محمد بن عبد الوهاب عن سفيان عن عاصم ، عن أبى رزين قال : كان رجلان شريكان خرج أحدهما إلى الساحل وبقى الآخر ، فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم كتب إلى صاحبه يسأله : ما فعل ؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش ، إنما اتبعه أراذل الناس ومساكينهم . قال : فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال : دلنى عليه ـ قال : وكان يقرأ الكتب ، أو بعض الكتب ـ قال : فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إلام تدعو ؟ قال : إلى كذا وكذا . قال : أشهد أنك رسول الله . قال : وما علمك بذلك ؟ قال : إنه لم يبعث نبى إلا اتبعه رُذَالة الناس ومساكينهم . قال : فنزلت هذه الآية : (وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا بما أرسلتم به كافرون) ، قال : فأرسل إليه النبى صلى الله عليه وسلم : إن الله قد أنزل تصديق ما قلت .

(١) سورة الشعراء ، آية : ١١١ .
(٢) سورة هود ، آية : ٢٧ .
(٣) سورة الأعراف ، آية : ٧٥ ، ٧٦ .
(٤) سورة الأنعام ، آية : ٥٣ .
(٥) سورة الأنعام ، آية : ١٢٣ .
(٦) سورة الإسراء ، آية : ١٦ .

وهكذا قال هرقل لأبى سفيان حين سأله عن تلك المسائل ، قال فيها :وسألتك : أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم ؟ فزعمت : بل ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسل .

وقوله تعالى إخبارا عن المترفين المكذبين : (وقالوا : نحن أكثر أموالا وأولادا ، وما نحن بمعذبين) ، أى : افتخروا بكثرة الأموال والأولاد ، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم واعتنائه بهم ، وأنه ما كان ليعطيهم هذا فى الدنيا ، ثم يعذبهم فى الآخرة ، وهيهات لهم ذلك . قال الله : (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون)، (١) وقال : (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ، إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا،وتزهق أنفسهم وهم كافرون (٢)) . وقال تعالى : (ذرنى ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا . وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا (٣)) .

وقد أخبر الله عن صاحب تينك الجنتين : أنه كان ذا مال وولد وثمر ، ثم لم تُغن عنه شيئا ، بل سُلِب ذلك كله فى الدنيا قبل الآخرة ، ولهذا قال تعالى هاهنا : (قل : إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) ، أى : يعطى المال لمن يحب ومن لا يحب ، فيفقر من يشاء ويغنى من يشاء ، وله الحكمة التامة البالغة والحجة الدامغة القاطعة (ولكن أكثر الناس لا يعلمون .)

ثم قال : (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى) أى : ليست هذه دليلا على محبتنا لكم ، ولا اعتنائنا بكم .

قال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا كثيرَ ، حدثنا جعفر ، حدثنا يزيد بن الأصم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم(٤) » رواه مسلم وابن ماجه ، من حديث كثير بن هشام ، عن جعفر بن بُرْقان ، به (٥) .

ولهذا قال : (إلا من آمن وعمل صالحا) ، أى : إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمانُ والعمل الصالح ، (فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا) ، أى : تضاعف [لهم الحسنة] بعشرة أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف . (وهم فى الغرفات آمنون) ، [أى : فى منازل الجنة العالية آمنون] من كل بأس وخوف وأذى ، ومن كل شر يُحذر منه .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا فروة بن أبى المغراء الكندى ، حدثنا القاسم وعلى بن مسهر ، عن عبد الرحمن ابن إسحاق ، عن النعمان بن سعد ، عن على — رضى الله عنه — قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن فى الجنة لغرفا ترى ظهورها من بطونها ، وبطونها من ظهورها » . فقال أعرابى : لمن هى ؟ قال : لمن طيب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام (٦) » .

---

(١) سورة « المؤمنون » ، آية : ٥٥ ، ٥٦ .
(٢) سورة التوبة ، آية : ٥٥ .
(٣) سورة المدثر ، الآيات : ١١ — ١٧ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٢/٥٣٩ .
(٥) مسلم ، كتاب البر ، باب « تحريم ظلم المسلم .. » : ٨/١١ . وسنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « القناعة » ، الحديث ٤١٤٣ : ٢/١٣٨٨ .
(٦) انظر تفسير الآية الثامنة والخمسين من سورة العنكبوت : ٦/٢٩٩ — ٣٠٠ .

(والذين يسعون فى آياتنا معاجزين) ، أى : يسعون فى الصد عن سبيل الله ، واتباع الرسل والتصديق بآياته : (فأولئك فى العذاب محضرون) ، أى : جميعهم مَجْزيون بأعمالهم فيها بحسبهم .

وقوله : (قل : إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له) ، أى : بحسب ماله فى ذلك من الحكمة ، يبسط على هذا من المال كثيرا ، ويضيق على هذا ويقتر عليه رزقه جدا ، وله فى ذلك من الحكمة مالا يدركها غيره ، كما قال تعالى : (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا(١)) ، أى : كما هم متفاوتون فى الدنيا : هذا فقير مدقع ، وهذا غنى مُوَسَّع عليه ، فكذلك هم فى الآخرة : هذا فى الغُرفات فى أعلى الدرجات ، وهذا فى الغَمَرات فى أسفل الدركات : وأطيب الناس فى الدنيا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قد أفلح من أسلم ورُزِق كَفَافا ، وقَنَّعه الله بما آتاه(٢) » : رواه مسلم من حديث ابن عَمْرو (٣) .

وقوله : (وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه) ، أى : مهما أنفقتم من شئ فيما أمركم به وأباحه لكم ، فهو يخلفه عليكم فى الدنيا بالبدل ، وفى الآخرة بالجزاء والثواب ، كما ثبت فى الحديث : « يقول الله تعالى : أَنْفِق أُنْفِق عليك(٤) » . وفى الحديث أن ملكين يَصيحان كل يوم ، يقول أحدهما : « اللهم أعط ممسكا تلفا » ، ويقول الآخر : « اللهم أعط منفقا خلفا (٥) » : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنفق بلالا ، ولا تخش من ذى العرش إقلالا(٦) » .

وقال ابن أبى حاتم عن يزيد بن عبد العزيز الطلاس (٧) حدثنا هشيم عن الكوثر بن حكيم ، عن مكحول قال : بلغنى عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا إن بعدكم زمان عضوض ، يعض الموسر على ما فى يده حذارَ الإنفاق » : ثم تلا هذه الآية : (وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين) .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا روح بن حاتم ، حدثنا هُشَيم ، عن الكوثر بن حكيم ، عن مكحول قال : بلغنى عن حذيفة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض ، يعض الموسر على ما فى يديه حذار الإنفاق » ، قال الله تعالى : (وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه وهو خير الرازقين) ، وَيَنْتَهِل(٨) شرار الخلق يبايعون

(١) سورة الإسراء ، آية : ٢١ .

(٢) مسلم ، كتاب الزكاة ، باب « فى الكفاف والقناعة » : ١٠٢/٣ .

(٣) فى المخطوطة : « ابن عمر » ؛ والصواب من مسلم .

هذا وقد أخرجه ابن ماجه فى كتاب الزهد ، باب « القناعة » ، الحديث ٤١٣٨ : ١٣٨٦/٢ ، والإمام أحمد فى مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص : ١٦٨/٢ ، ١٧٢ – ١٧٣ .

(٤) البخارى ، تفسير سورة هود : ٩٣/٦ ، وكتاب التوحيد : ١٧٥/٩ – ١٧٦ . ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب « الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف » ٧٧/٣ . وابن ماجه ، كتاب الكفارات ، باب « النهى عن النذر » ، الحديث ٢١٢٣ : ٦٨٦/١ . ومسند الإمام أحمد عن أبى هريرة : ٢٤٢/٢ ، ٣١٤ ، ٤٦٤ .

(٥) البخارى ، كتاب الزكاة ، باب « قول الله تعالى : (فأما من أعطى واتقى ...) : ١٤٢/٢ . ومسلم ، كتاب الزكاة أيضاً ، باب « فى المنفق والممسك » : ٨٣/٣ – ٨٤ . ومسند الإمام أحمد عن أبى هريرة : ٣٠٥/٢ – ٣٠٦ ، ٣٤٧ . وعن أبى الدرداء : ١٩٧/٥ .

(٦) أخرجه أبو يعلى فى مسنده ، والبزار ، والطبرانى فى المعجم الكبير . انظر الكنز الثمين لعبد الله بن الصديق : ١٩٣ .

(٧) فى المخطوطة : « الفلاس » . والمثبت من الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٢٧٨/٢/٤ .

(٨) وقعت هذه الكلمة فى المخطوطة دون نقط . ولعل الصواب ما أثبتناه . وفى اللغة : « كل شىء انهل فقد انصب » ، والمعنى أن الشرار يقبلون فى هذا الزمان على هذا البيع دون وازع من ضمير ، والله أعلم .

كل مضطر ، ألا إن بيع المضطرين حرام ، [ألا إن بيع المضطرين حرام] ، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ، إن كان عندك معروف ، فَعُد به على أخيك ، وإلا فلا تزده هلاكا إلى هلاكه ».

هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وفى إسناده ضعف .

وقال سفيان الثورى ، عن أبى يونس الحسن بن يزيد قال : قال مجاهد : لا يتأولن أحدكم هذه الآية : (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه) : إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه ، فإن الرزق مقسوم .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رءوس الخلائق ، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التى هى على صور الملائكة ليقربوهم إلى الله زلفى ، فيقول للملائكة : (أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) ، أى : أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم ؟ كما قال فى سورة الفرقان : (أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل (١)) ؟ وكما يقول لعيسى : (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق (٢)) . وهكذا تقول الملائكة : (سبحانك) ، أى : تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله . (أنت ولينا من دونهم) ، أى : نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء ، (بل كانوا يعبدون الجن) ، يعنون الشياطين [لأنهم هم (٣)] الذين يزينون لهم عبادة الأوثان ويضلونهم ، (أكثرهم بهم مؤمنون) ، كما قال تعالى : (إن يدعون من دونه إلا إناثا ، وإن يدعون إلا شيطانا مريدا (٤)) قال الله تعالى : (فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً) ، أى : لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان ، التى ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكُرَبكم ، اليوم لا يملكون لكم نفعا ولا ضرا ، (ونقول للذين ظلموا) — وهم المشركون — (ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون) ، أى : يقال لهم ذلك ، تقريعا وتوبيخا .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب ، لأنهم كانوا إذا تتلى عليهم آياته بينات يسمعونها غضة طرية من لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، (قالوا : ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم) ،

---

(١) سورة الفرقان ، آية : ١٧ .

(٢) سورة المائدة ، آية : ١١٦ .

(٣) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة ، ومكانه فى المخطوطة : « م » .

(٤) سورة النساء ، آية : ١١٧ .

يعنون أن دين آبائهم هو الحق ، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل ــ عليهم وعلى آبائهم لعائن الله ــ (وقالوا : ما هذا إلا إفك مفترى) ، يعنون القرآن ، (وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم : إن هذا إلا سحر مبين) . قال الله تعالى : (وما آتيناهم من كتب يدرسونها ، وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير) ، أى : ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن ، وما أرسل إليهم نبياً قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد كانوا يوَدّون ذلك ويقولون : لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب ، لكنا أهدى من غيرنا ، فلما مَنّ الله عليهم بذلك كذبوه وعاندوه وجحدوه . ثم قال : (وكذب الذين من قبلهم) ، أى : من الأمم ، (وما بلغوا معشار ما آتيناهم) ــ قال ابن عباس : أى من القوة فى الدنيا (١) . وكذلك قال قتادة ، والسدّى ، وابن زيد . كما قال تعالى : (ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ، وجعلنا لهم سمعاً وأبصارا وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ، ولا أفئدتهم من شئ ، إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون (٢)) ، (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أكثر منهم وأشد قوة (٣)) ، أى : وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده ، بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسله ، ولهذا قال : (فكذبوا رسلى فكيف كان نكير) ، أى : كيف كان نكالى وعقابى وانتصارى لرسلى ؟ .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون : (إنما أعظكم بواحدة) ، أى : إنما آمركم بواحدة ، وهى : (أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة) ، أى : تقوموا قياما خالصاً لله ، من غير هوى ولا عصبية ، فيسأل بعضكم بعضا : هل بمحمد من جنون ؟ فينصح بعضكم بعضا ، (ثم تتفكروا) ، أى : ينظر الرجل لنفسه فى أمر محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ، ويتفكر فى ذلك ، ولهذا قال : (أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة) :

هذا معنى ما ذكره مجاهد ، ومحمد بن كعب ، والسدى ، وقتادة ، وغيرهم ، وهذا هو المراد من الآية : فأما الحديث الذى رواه ابن أبى حاتم :

حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة بن خالد ، حدثنا عثمان بن أبى العاتكة ، عن على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « أعطيت ثلاثا لم يعطهن مَن قبلى ولا فخر : أحلت لى الغنائم ، ولم تحل لمن قبلى ، كانوا قبلى يجمعون غنائمهم فيحرقونها . وبُعثت إلى كل أحمر وأسود ، وكان كل نبى يبعث إلى قومه ،

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٢/٧٠ .
(٢) سورة الأحقاف ، آية : ٢٦ .
(٣) سورة غافر ، آية : ٨٢ .

وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، أتيمم بالصعيد ، وأصلى حيث أدركتنى الصلاة ، قال الله: (أن تقوموا لله مثنى وفرادى) وأعنت بالرعب مسيرة شهر بين يدى ».

فهو حديث ضعيف الإسناد ، وتفسير الآية بالقيام فى الصلاة فى جماعة وفرادى ، بعيد ، ولعله مقحم فى الحديث من بعض الرواة، فان أصله ثابت فى الصحاح وغيرها (١) ، والله أعلم .

وقوله : (إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد) — قال البخارى عندها:

حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا محمد بن خازم ، حدثنا الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : صعد النبى صلى الله عليه وسلم الصفا ذات يوم ، فقال : يا صباحاه . فاجتمعت إليه قريش ، فقالوا : مالك ؟ فقال : أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم ، أما كنتم تصدقونى ؟ قالوا : بلى ؟ قال : فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبالك ! ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله : (تبت يدا أبى لهب (٢)) .

وقد تقدم عند قوله : (وأنذر عشيرتك الأقربين (٣)) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا بشير بن المهاجر ، حدثنى عبد الله بن بريدة ، عن أبيه قال : خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فنادى ثلاث مرات فقال : « أيها الناس تدرون ما مثلى ومثلكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم : قال : « إنما مثلى ومثلكم مثل قوم خافوا عدوا يأتيهم ، فبعثوا رجلا يتراءى لهم ، فبينما هو كذلك أبصر العدو ، فأقبل لينذرهم وخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه ، فأهوى بثوبه : أيها الناس ، أوتيتم : أيها الناس ، أوتيتم : ثلاث مرات » .

وبهذا الإسناد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بعثت أنا والساعة جميعاً ، إن كادت لتسبقنى » . تفرد به الإمام أحمد فى مسنده .

قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى آمراً رسوله أن يقول للمشركين : (ما سألتكم من أجر فهو لكم) ، أى : لا أريد منكم جعلا ولا عطاء على أداء رسالة الله إليكم ، ونصحى إياكم ، وأمركم بعبادة الله ، (إن أجرى إلا على الله) ، أى : إنما أطلب ثواب ذلك عند الله ، (وهو على كل شئ شهيد) ، أى : عالم بجميع الأمور ، بما أنا عليه من إخبارى عنه بإرساله إياى إليكم ، وما أنتم عليه .

---

(١) انظر الحديث عند تفسير الآية الثامنة والعشرين من هذه السورة .

(٢) البخارى ، تفسير سورة سبأ : ١٥٣/٦ .

(٣) سورة الشعراء ، آية : ٢١٤ . هذا وانظر تفسير هذه الآية ، والأحاديث المروية فى شأنها فى : ١٧٦/٦ – ١٧٨ .

وقوله : (قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب) ، كقوله تعالى : (يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده (١)) ، أي : يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض ، وهو علام الغيوب ، فلا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض .

وقوله : (قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد) ، أي : جاء الحق من الله والشرع العظيم ، وذهبَ الباطل وزهق واضمحل ، كقوله : (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه (٢)) ، ولهذا لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد الحرام يوم الفتح ، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة ، جعل يَطعُن الصنم بسيَة (٣) قوْسه ، ويقرأ : (وقل : جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا) ، (قل : جاء الحق ، وما يبدئ الباطل وما يعيد) : رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وحده عند هذه الآية ، كلهم من حديث الثوري ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن أبي معمر عبد الله بن سَخْبَرَة ، عن ابن مسعود (٤) به .

أي : لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة .

وزعم قتادة والسدي : أن المراد بالباطل هاهنا إبليس ، أي : إنه لا يخلق أحدا ولا يعيده ، ولا يقدر على ذلك : وهذا وإن كان حقاً ولكن ليس هو المراد هاهنا ، والله أعلم .

وقوله : (قل إن ضللت فانما أضل على نفسي ، وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربي) ، أي : الخير كله من عند الله ، وفيما أنزله عز وجل من الوحي والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد ، ومن ضل فانما يضل من تلقاء نفسه ، كما قال عبد الله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ لما سئل عن تلك المسألة في المفوّضة : أقول فيها برأيي ، فان يكن صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه (٥) .

---

(١) سورة غافر ، آية : ١٥ .

(٢) سورة الأنبياء ، آية : ٨ .

(٣) سية القوس ــ بكسر السين ، وفتح الياء ــ : ما عطف من طرفها ، ولها سيتان .

(٤) البخاري ، كتاب المظالم ، باب : « هل تكسر الدنان التي فيها الخمر ... » : ٣/١٧٨ . وكتاب المغازي : ٥/١٨٨ . وتفسير سورة الإسراء : ٦/١٠٨ . ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب « إزالة الأصنام من حول الكعبة » : ٥/١٧٣ . وتحفة الأحوذي ، تفسير سورة بني إسرائيل ، الحديث ٥١٤٦ : ٨/٥٧٣ ، وقال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح » . ومسند الإمام أحمد : ١/٣٧٧ ، ٣٧٨ .

هذا وانظر تفسير الآية الحادية والثمانين من سورة الإسراء : ٥/١٠٩ .

(٥) انظر سنن أبي داود ، كتاب النكاح ، باب « فيمن تزوج ولم يسم صداقاً حتى مات » . ومسند الإمام أحمد : ١/٤٧٧ .

وذلك أنهم قد ترددوا على ابن مسعود في شأن رجل تزوج امرأة فمات عنها ، ولم يدخل بها ، ولم يفرض لها ــ وظل هذا التردد نحوا من شهر أو قريباً من ذلك ، إلى أن قالوا له : « لا بد من أن تقول فيها » ، أي : تقضي فيها بقضائك . فقال : « فإني أقضي لها مثل صدقة امرأة من نسائها ، لا وكس ولا شطط ، ولها الميراث ، وعليها العدة ، فإن يك صواباً فمن الله ، وإن يك خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ــ عز وجل ــ ورسوله بريئان » . فقام رهط من أشجع فيهم الجراح وأبو سنان ، فقالوا : نشهد أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قضى في امرأة منا يقال لها « بروع بنت واشق » بمثل الذي قضيت . ففرح ابن مسعود بذلك فرحاً شديداً ، حين وافق قوله قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقوله : (إنه سميع قريب) ، أي : سميع لأقوال عباده ، قريب مجيب دعوة الداعي إذا دعاه ؛ وقد روى النسائي هاهنا حديث أبي موسى الذي في الصحيحين : « إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنما تدعون سميعاً قريبا مجيبا (١) » .

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى : ولو ترى – يا محمد – إذ فزع هؤلاء المكذبون يوم القيامة ، (فلا فوت) ، أي : فلا مفر لهم ، ولا وزر ولا ملجأ . (وأخذوا من مكان قريب) ، أي : لم يكونوا يمنعون في الهرب ، بل أخذوا من أول وهلة .

قال الحسن البصري : « حين خرجوا من قبورهم » .

وقال مجاهد ، وعطية العوفي ، وقتادة : « من تحت أقدامهم » .

وعن ابن عباس والضحاك : « يعني عذابهم في الدنيا » .

وقال عبد الرحمن بن زيد : « يعني قتلهم يوم بدر » .

والصحيح أن المراد بذلك يوم القيامة ، وهو الطامة العظمى ، وإن كان ما ذكر متصلا بذلك .

وحكى ابن جرير عن بعضهم قال : إن المراد بذلك جيش يخسف بهم بين مكة والمدينة في أيام بني العباس (٢) ، ثم أورد في ذلك حديثا موضوعا بالكلية . ثم لم ينبه على ذلك ، وهذا أمر عجيب غريب منه .

(وقالوا آمنا به) ، أي : يوم القيامة يقولون : آمنا بالله وبكتبه ورسله ، كما قال تعالى : (ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم : ربنا ، أبصرنا وسمعنا ، فارجعنا نعمل صالحا ، إنا موقنون (٣)) ، ولهذا قال تعالى : (وأنى لهم التناوش من مكان بعيد) ، أي : وكيف لهم تعاطي الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم وصاروا إلى الدار الآخرة ، وهي [دار] الجزاء لا دار الابتلاء ، فلو كانوا آمنوا في الدنيا لكان ذلك نافعهم ، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان ، كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد .

قال مجاهد : (وأنى لهم التناوش) ، قال : التناول لذلك (٤) .

وقال الزهري : التناوش : تناولهم الإيمان وهم في الآخرة ، وقد انقطعت عنهم [الدنيا] .

وقال الحسن البصري : أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال ، تعاطوا الإيمان من مكان بعيد .

---

(١) البخاري ، كتاب الدعاء ، باب « الدعاء إذا علا عقبة » : ٨/١٠١ – ١٠٢ . ومسلم ، كتاب الذكر ، باب « استحباب خفض الصوت بالذكر » : ٨/٧٣ – ٧٤ .

(٢) تفسير الطبري : ٢٢/٧٢ – ٧٣ .

(٣) سورة السجدة ، آية : ١٢ .

(٤) أثر مجاهد كما في تفسير الطبري ٢٢/٧٤ : « وأنى لهم التناوش ، قال : الرد » ، ونخشى أن يكون المثبت هنا من قول غيره .

وقال ابن عباس : طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة مما هم فيه ، وليس بحين رجعة ولا توبة : وكذا قال محمد بن كعب القرظى رحمه الله .

وقوله : (وقد كفروا به من قبل) ، أى : كيف يحصل لهم الإيمان فى الآخرة ، وقد كفروا بالحق فى الدنيا ، وكذبوا الرسل ؟ .

(ويقذفون بالغيب من مكان بعيد) ، قال مالك ، عن زيد بن أسلم : (ويقذفون بالغيب) ، قال : بالظن .

قلت : كما قال تعالى : (رجما بالغيب (١)) ، فتارة يقولون : شاعر . وتارة يقولون : كاهن . وتارة يقولون : ساحر . وتارة يقولون : مجنون . إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة ، ويكذبون بالغيب والنشور والمعاد ، (ويقولون : إن نظن إلا ظناً ، وما نحن بمستيقنين) .

قال قتادة : يرجمون بالظن ، لا بعث ولا جنة ولا نار(٣) .

وقوله : (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) ، قال الحسن البصرى ، والضحاك ، وغيرهما : يعنى الإيمان .

وقال السدى : (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) ، وهى : التوبة . وهذا اختيار ابن جرير ، رحمه الله .

وقال مجاهد : (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) من هذه الدنيا ، من مال وزهرة وأهل . وروى عن ابن عباس وابن عمر والربيع بن أنس . وهو قول البخارى وجماعة . والصحيح أنه لا منافاة بين القولين ، فانه قد حيل بينهم وبين شهواتهم فى الدنيا وبين ما طلبوه فى الآخرة ، فمنعوا منه .

وقد ذكر ابن أبى حاتم هاهنا أثراً غريباً جدا ، فلنذكره بطوله فانه قال : حدثنا محمد بن يحيى ، حدثنا بشر بن حجر السامى ، حدثنا على بن منصور الأنبارى ، عن الشَرَقىّ بن قُطَامى ، عن سعد بن طريف ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى قول الله عز وجل : (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) ... إلى آخر الآية ، قال : كان رجل من بنى إسرائيل فاتحاً(٤) أى : فتح الله له مالا ـ فمات فورثه ابن له تافه ـ أى : فاسد ـ فكان يعمل فى مال الله بمعاصى الله : فلما رأى ذلك إخوان أبيه أتوا الفتى فعذلوه ولاموه ، فضجر الفتى فباع عقاره بصامت(٥) ، ثم رحل فأتى عينا ثجاجةً(٦) فسرّح فيها ماله ، وابتنى قصراً : فبينما هو ذات يوم جالس إذ شملت عليه [ريح] بامرأة من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم أرَجا ـ أى : ريحاً ـ فقالت : من أنت ياعبد الله ؟ فقال : أنا امرؤ من بنى إسرائيل . قالت : فلك هذا القصر ، وهذا المال ؟ قال : نعم . قالت : فهل لك من زوجة ؟ قال : لا . قالت : فكيف يَهْنيك(٧) العيش ولا زوجة لك ؟ قال : قد كان ذلك : فهل لك من بَعل ؟ قالت : لا . قال : فهل لك إلى أن أتزوجك ؟ قالت : إنى امرأة منك على مسيرة ميل ، فاذا كان

---

(١) سورة الكهف ، آية : ٢٢ .

(٢) سورة الجاثية ، آية : ٣٢ .

(٣) تفسير الطبرى : ٧٥/٢٢ .

(٤) فى المخطوطة : « إن فتح » . والمثبت من الدر المنثور : ٢٤٢/٥ .

(٥) الصامت : الذهب والفضة ، خلاف الناطق ، وهو : الحيوان .

(٦) أى : يسيل منها الماء سيلا .

(٧) أى : كيف تهنأ به ؟ .

غد فتزوّد زاد يوم وائتني ، وإن رأيت في طريقك هولا فلا يَهولنّك . فلما كان من الغد تزود زاد يوم ، وانطلق فانتهى إلى قصر ، فقرع رتاجه(١) ، فخرج إليه شاب من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم أرَجاً – أى : ريحاً – فقال : من أنت يا عبد الله ؟ فقال : أنا الإسرائيلي . قال : فما حاجتك ؟ قال : دعتني صاحبة هذا القصر إلى نفسها . قال : صدقت ، فهل رأيت فى طريقك [هولا ؟] قال : نعم ، ولولا أنها أخبرتني أن لا بأس على لهالني الذى رأيت . [قال : ما رأيت ؟ قال] : أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل ، إذا أنا بكلبة فاتحة فاها ، ففزعت ، فوثبت فاذا أنا من ورائها ، وإذا جراؤها(٢) ينبحن فى بطنها . فقال له الشاب : لست تدرك هذا ، هذا يكون فى آخر الزمان ، يقاعد الغلام المشيخة فى مجلسهم ويَبُزّهم حديثهم (٣) .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل ، إذا أنا بمائة عنز حُفَّل(٤) ، وإذا فيها جدى يمصّها ، فاذا أتى عليها وظن أنه لم يترك شيئاً ، فتح فاه يلتمس الزيادة . فقال : لست تدرك هذا ، هذا يكون فى آخر الزمان ، ملك يجمع صامت الناس كلّهم ، حتى إذا ظن أنه لم يترك شيئاً فتح فاه يلتمس الزيادة .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل إذا أنا بشجر ، فأعجبنى غصن من شجرة منها ناضر ، فأردت قطعه ، فنادتنى شجرة أخرى : « ياعبد الله ، منى فخذ » . حتى نادانى الشجر أجمع : « ياعبد الله ، منا فخذ» . قال : لست تدرك هذا ، هذا يكون فى آخر الزمان ، يقل الرجال ويكثر النساء ، حتى إن الرجل ليخطب امرأة فتدعوه العشر والعشرون إلى أنفسهن .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل إذا أنا برجل قائم على عين ، يغرف لكل إنسان من الماء ، فاذا تصدّعوا(٥) عنه صبّ فى جرّته فلم تعلق جرّته من الماء بشيء . قال : لست تدرك هذا ، هذا يكون فى آخر الزمان ، القاص يعلم الناس العلم ثم يخالفهم إلى معاصى الله .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل إذا أنا بعنز ، وإذا بقوم قد أخذوا بقوائمها ، وإذا رجل قد أخذ بقرنيها ، وإذا رجل قد أخذ بذنبها ، وإذا رجل قد ركبها ، وإذا رجل يحلبها . فقال : أما العنز فهى الدنيا ، والذين أخذوا بقوائمها يتساقطون من عيشها ، وأما الذى قد أخذ بقرنيها فهو يعالج من عيشها ضيقاً ، وأما الذى أخذ بذنبها فقد أدبرت عنه ، وأما الذى ركبها فقد تركها . وأما الذى يحلبها فبخٍ (٦) ، ذهب ذلك بها .

---

(١) الرتاج – بكسر الراء – الباب العظيم .
(٢) الجراء – بكسر الجيم – : جمع جرو ، وهو ولد الكلب .
(٣) فى الدر المنثور : « ويأسرهم حديثهم » .
(٤) أى : كثيرة اللبن ، جمع حافل .
(٥) أى : ذهبوا وتفرقوا .
(٦) بخ بخ : كلمة تقال عند المدح والرضا بالشيء .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل، وإذا أنا برجل يمتح على قليب(١)، كلما أخرج دلوه صبه فى الحوض، فانساب الماء راجعاً إلى القليب . قال : هذا رجل ردّ الله صالح عمله ، فلم يقبله . .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل، إذا أنا برجل يبذُر بذراً فيستحصد(٢)، فاذا حنطة طيبة . قال : هذا رجل قبل الله صالح عمله ، وأزكاه له .

قال : ثم أقبلت حتى انفرج بى السبيل ، إذا أنا برجل مستلق على قفاه ، قال : ياعبد الله ، ادن منى فخذ بيدى وأقعدنى ، فوالله ما قعدت منذ خلقنى الله فأخذت بيده ، فقام يسعى حتى ما أراه . فقال له الفتى : هذا عُمر الأبعد نَفَد ، [أنا] ملك الموت [وأنا المرأة التى أتتك] . . . أمرنى الله بقبض روح الأبعد فى هذا المكان ، ثم أصيره إلى نار جهنم . قال : ففيه نزلت هذه : (وحيل بينهم وبين ما يشتهون (٣)) الآية .

هذا اثر غريب ، وفى صحته نظر ، وتنزيل الآية عليه وفى حقه بمعنى أن الكفار كلهم يتوفون وأرواحهم متعلقة بالحياة الدنيا ، كما جرى لهذا المغرور المفتون ، ذهب يطلب مراده فجاءه الموت فجأة بغتة ، وحيل بينه وبين ما يشتهى .

وقوله : (كما فعل بأشياعهم من قبل) ، أى : كما جرى للأمم الماضية المكذبة للرسل، لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم ، (فلما رأوا بأسنا قالوا : آمنا بالله وحده ، وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده ، وخسر هنالك الكافرون (٤)) .

وقوله : (إنهم كانوا فى شك مريب) أى : كانوا فى الدنيا فى شك وريبة ، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب ، قال قتادة : إياكم والشك والريبة ، فانه من مات على شك بُعِثَ عليه ، ومن مات على يقين بعث عليه ،

آخر تفسير سورة سبأ ، ولله الحمد والمنة

(١) يمتح : يستقى . والقليب : البئر .
(٢) أى : يحين حصاده .
(٣) الأثر فى الدر المنثور عن ابن أبى حاتم : ٥/٢٤٢ – ٢٤٣ .
(٤) سورة غافر ، آية : ٨٤ ، ٨٥ .

تفسير سورة فاطر

وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)

قال سفيان الثورى ، عن إبراهيم بن مهاجر ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : كنت لا أدرى ما فاطر السموات والأرض ، حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أنا بدأتها . فقال ابن عباس أيضاً : (فاطر السموات والأرض) ، بديع السموات والأرض .

وقال الضحاك : كل شىء فى القرآن فاطر السموات والأرض فهو خالق السموات والأرض .

وقوله : (جاعل الملائكة رسلا) ، أى : بينه وبين أنبيائه ، (أولى أجنحة) ، أى : يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعاً (مثنى وثلاث ورباع) ، أى : منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك ، كما جاء فى الحديث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى جبريل ليلة الإسراء وله ستمائة جناح ، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب . ولهذا قال : (يزيد فى الخلق ما يشاء ، إن الله على كل شىء قدير) — قال السدى : يزيد فى الأجنحة وخلقهم ما يشاء .

وقال الزهرى ، وابن جريج فى قوله : (يزيد فى الخلق ما يشاء) ، يعنى : حسن الصوت . رواه عن الزهرى البخارى فى الأدب ، وابن أبى حاتم فى تفسيره .

وقُرِئ فى الشاذ : (يزيد فى الحلق) ، بالحاء المهملة ، والله أعلم .

مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)

يخبر تعالى أنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع .

قال الإمام أحمد : حدثنا على بن عاصم ، حدثنا مغيرة(١) ، أخبرنا عامر ، عن وَرَّاد — مولى المغيرة بن شعبة — قال : كتب معاوية إلى المغيرة بن شعبة : اكتب إلىّ بما سمعتَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فدعانى المغيرة فكتبت إليه : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من الصلاة قال : « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجدّ » ؛ وسمعته ينهى عن قيل وقال ، وكثرة السؤال وإضاعة المال ، وعن وأد البنات ، وعقوق الأمهات ، ومَنْع وهَات (٢) .

---

(١) فى المسند : « ثنا المغيرة بن شبل عامر » . والصواب : « عن عامر » . وانظر المسند أيضاً : ٤/٢٥٠ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٤/٢٥٤ — ٢٥٥ .

وأخرجاه من طرق عن ورّاد به (١)

وثبت فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : « سمع الله لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ، ملْء السماء والأرض(٢) ، وملء ما شئت من شىء بعد ، اللهم ، أهلَ الثناء والمجد . أحقّ ما قال العبد ــ وكلنا لك عبد ــ اللهمّ لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجدّ » .

وهذه الآية كقوله تعالى : (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله(٣)) . ولهذا نظائر كثيرة .

وقال الإمام مالك : كان أبوهريرة إذا مُطروا يقول : مُطرنا بنَوء(٤) الفتح ، ثم يقرأ هذه الآية : (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم(٥)) . ورواه ابن أبى حاتم ، عن يونس ، عن ابن وهب ، عنه .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده فى إفراد العبادة له ، كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فليُفرد بالعبادة ، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان . ولهذا قال : (لا إله إلا هو فأنى تؤفكون) ، أى : فكيف تؤفكون بعد هذا البيان ، ووضوح هذا البرهان ، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان ؟ .

---

(١) تقدم تخريج الحديث فى الصحيحين عند تفسير الآية السابعة عشرة من سورة الأنعام وشرحنا غريبه ، انظر : ٣/٢٤٠ .
(٢) فى المخطوطة : « وملء الأرض » . والمثبت عن صحيح مسلم ، والطبعات السابقة .
(٣) سورة يونس ، آية : ١٠٧ .
(٤) النوء : واحد أنواء القمر ، وهى منازله ، وللقمر ثمان وعشرون منزلة ، ينزل القمر كل ليلة فى منزلة منها . وتسقط فى الغرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلة مع طلوع الفجر ، وتطلع أخرى مقابلها ذلك الوقت فى المشرق ، فتنقضى جميعها مع انقضاء السنة . وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر ، وينسبونه إليها ، فيقولون : مطرنا بنوء كذا . وإنما سمى نوءاً ؛ لأنه إذا سقط الساقط منها بالمغرب ناء الطالع بالمشرق ، أى : طلع ونهض .
وإنما أدان النبى صلى الله عليه وسلم العرب فى أمر الأنواء ، لأنها كانت تنسب المطر إليها ، فأما من جعل المطر من فعل الله تعالى ، وأراد بقوله : « مطرنا بنوء كذا » ، أى فى وقت كذا ، فإن ذلك جائز .
(٥) الموطأ ، كتاب الاستسقاء ، باب « الاستمطار بالنجوم » ، الحديث ٦ : ١/١٩٢ .

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾

يقول : وإن يكذبوك — يا محمد — هؤلاء المشركون بالله ويخالفوك فيما جئتهم به من التوحيد ، فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة ؛ فإنهم كذلك جاءوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم ، (وإلى الله ترجع الأمور) ، أي : وسنجزيهم على ذلك أوفر الجزاء .

ثم قال : (يا أيها الناس ، إن وعد الله حق) ، أي : المعاد كائن لا محالة ، (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) ، أي : العيشة الدنيئة بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم فلا تتلهوا عن ذلك الباقي بهذه الزهرة الفانية ، (ولا يغرنكم بالله الغرور) ، وهو الشيطان ، قاله ابن عباس . أي : لا يفتننكم الشيطان ويصرفنكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته ، فإنه غرّار كذاب أفاك . وهذه الآية كالآية التي في آخر لقمان : (فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور (١)) .

قال مالك ، عن زيد بن أسلم : هو الشيطان . كما قال : يقول المؤمنون للمنافقين يوم القيامة حين يضرب (بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . ينادونهم : ألم نكن معكم ؟ قالوا : بلى ، ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني ، حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور(٢)) .

ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال : (إن الشيطان لكم عدوّ ، فاتخذوه عدوًّا) ، أي : هو مبارز لكم بالعداوة ، فعادوه أنتم أشد العداوة ، وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به ،(إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) ، أي : إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير ، فهذا هو العدو المبين . فنسأل الله القوي العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان ، وأن يرزقنا اتباع كتابه ، والاقتفاء بطريق رسوله ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير . وهذه كقوله : (وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو ، بئس للظالمين بدلا (٣)) .

---

(١) سورة لقمان ، آية : ٣٣ .
(٢) سورة الحديد ، آية : ١٣ ، ١٤ .
(٣) سورة الكهف ، آية : ٥٠ .

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨)﴾

لما ذكر تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى السعير ، ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد ، لأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن ، وأن الذين آمنوا بالله ورسله (وعملوا الصالحات لهم مغفرة) أي: لما كان منهم من ذنب ، (وأجر كبير) على ما عملوه من خير .

ثم قال: (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا)، يعني كالكفار والفجار، يعملون أعمالا سيئة، وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، أي : أفمن كان هكذا قد أضله الله ، ألك فيه حيلة ؟ لا حيلة لك فيه ، (فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء) ، أي : بقدره كان ذلك ، (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) ، أي : لا تأسف على ذلك فإن الله حكيم فى قدره إنما يضل من يضل ويهدى من يهدى ،لما له فى ذلك من الحجة البالغة، والعلم التام ، ولهذا قال: (إن الله عليم بما يصنعون) ؛

وقال ابن أبى حاتم عند هذه الآية : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن عوف الحمصى ، حدثنا محمد بن كثير ، عن الأوزاعى ، عن يحيى بن [أبى] عمرو السَّيبانى ــ أو : ربيعة(١) ــ عن عبدالله بن الديلمى قال : أتيت عبدالله بن عمرو ، وهو فى حائط بالطائف يقال له : الوهط ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله خلق خلقه فى ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى ، ومن أخطأه منه ضل ، فلذلك أقول جف القلم على ما علم الله عز وجل » .

ثم قال : حدثنا يحيى بن عبدك القزوينى ، حدثنا حسان بن حسان البصرى ، حدثنا إبراهيم بن بشير(٢) ، حدثنا يحيى بن معن ، حدثنا إبراهيم القرشى ، عن سعد بن شرحبيل ، عن زيد بن أبى أوفى قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « الحمد لله الذى يهدى من الضلالة ، ويلبس الضلالة على من أحب » ؛

وهذا أيضا حديث غريب جداً .

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ (٩) مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١)﴾

كثيراً ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها ــ كما فى سورة الحج(٣) ــ ينبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك ، فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها ، فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها، (اهتزت وربت ، وأنبتت

---

(١) هو ربيعة بن يزيد الدمشقى ، يروى عن عبد الله بن الديلمى ، ويروى عنه الأوزاعى . انظر الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ١/٢/٤٧٤ – ٤٧٥ .

(٢) فى المخطوطة : « بشر » . والمثبت من ترجمة « إبراهيم بن بشير » فى الجرح : ١/١/٩٠ .

(٣) سورة الحج ، الآيات : ٥ – ٧ ، وانظر فيما تقدم : ٥/٣٩٠ – ٣٩٤ .

من كل زوج بهيج) ، كذلك الأجساد ، إذا أراد الله سبحانه بعثها ونشورها ، أنزل من تحت العرش مطرا يعم الأرض جميعاً فتنبت الأجساد فى قبورها كما ينبت الحب فى الأرض ولهذا جاء فى الصحيح: «كل ابن آدم يبلى إلا عَجْبُ الذنب ، منه خلق ومنه يركب» (١) : ولهذا قال تعالى : (كذلك النشور) .

وتقدم فى «الحج» حديث أبى رَزين «قلت: يارسول الله ،كيف يحيى الله الموتى؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟» قال : يا أبا رزين، أما مررت بوادى قومك مُحْلاً ثم مررت به يهتز خَضِرا ؟ قلت : بلى . قال : «فكذلك يحيى الله الموتى» (٢) .

وقوله : (من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً) ، أى: من كان يحب أن يكون عزيزاً فى الدنيا والآخرة ، فليلزم طاعة الله فإنه يحصل له مقصوده ، لأن الله مالك الدنيا والآخرة ، وله العزة جميعها [كما قال تعالى: (الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتغون عندهم العزة ، فإن العزة لله جميعا (٣)] .

وقال تعالى : (ولا يحزنك قولهم ، إن العزة لله جميعاً) (٤) ، وقال: (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) (٥) .

قال مجاهد : (من كان يريد العزة) بعبادة الأوثان ، (فإن العزة لله جميعاً) .

وقال قتادة : (من كان يريد العزة ، فإن العزة لله جميعاً) ، أى : فليتعزز بطاعة الله عز وجل (٦) .

وقيل : من كان يريد علْم العزة ، لمن هى ؟ (فإن العزة لله جميعاً) ، حكاه ابن جرير (٧) .

وقوله : (إليه يصعد الكلم الطيب) ، يعنى : الذكر والتلاوة والدعاء ، قاله غير واحد من السلف .

وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن إسماعيل الأحمسى ، أخبرنى جعفر بن عون ، عن عبد الرحمن بن عبد الله المسعودى ، عن عبدالله بن المخارق، عن أبيه المخارق بن سليم قال: قال لنا عبد الله — هو ابن مسعود — إذا حدثناكم حديثا أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله : إن العبد المسلم إذا قال : « سبحان الله وبحمده ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، تبارك الله » ، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ، ثم صعِد بهن إلى السماء فلا يمُرّ بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن، حتى يجيء بهن وجه الرحمن عز وجل ، ثم قرأ عبد الله : (إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه) .

وحدثنى يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عُلية ، أخبرنا سعيد الجُرَيْرِيّ ، عن عبد الله بن شقيق قال : قال كعب الأحبار : إن لـ : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله، والله أكبر ، لدويا حول العرش كدويّ النحل ، يُذَكِّرنَ بصاحبهن، والعمل الصالح فى الخزائن(٧) .

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية الرابعة عشرة من سورة المؤمنون ، وخرجناه هناك ، وشرحنا غريبه . انظر : ٥/٤٦١ .
(٢) انظر الحديث فى : ٥/٣٩٣ — ٣٩٤ .
(٣) سورة النساء ، آية : ١٣٩ .
(٤) سورة يونس ، آية : ٦٥ .
(٥) سورة « المنافقون » ، آية : ٨ .
(٦) تفسير الطبرى : ٢٢/٧٩ — ٨٠ .
(٧) تفسير الطبرى : ٢٢/٨٠ .

وهذا إسناد صحيح إلى كعب الأحبار رحمه الله ، وقد روى مرفوعا .

قال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير ، حدثنا موسى ــ يعنى ابن مسلم الطحان ــ عن عون بن عبد الله ، عن أبيه ــ أو : عن أخيه ــ عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الذين يذكرون من جلال الله ، من تسبيحه وتكبيره وتحميده وتهليله ، يتعاطفن حول العرش ، لهن دوى كدوى النحل ، يذكرون بصاحبهن ألا يحب أحدكم أن لا يزال له عند الله شيء يذكر به »(١) ؟ .

وهكذا رواه ابن ماجه عن أبي بشر بكر بن خلف ، عن يحيى بن سعيد القطان ، عن موسى بن أبي [عيسى] (٢) الطحان ، عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، عن أبيه ــ أو : عن أخيه ــ عن النعمان بن بشير ، به(٣) .

وقوله : (والعمل الصالح يرفعه) ، قال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : الكلم الطيب : ذكر الله ، يصعد به إلى الله عز وجل ، [والعمل الصالح أداء فرائضه] ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه ، رد كلامه على عمله ، فكان أولى به(٤) .

وكذا قال مجاهد : العمل الصالح يرفع الكلام الطيب . وكذا قال أبو العالية ، وعكرمة ، وإبراهيم النخعي ، والضحاك ، والسدى ، والربيع بن أنس ، وشهر بن حوشب ، وغير واحد .

وقال إياس بن معاوية القاضي : لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام .

وقال الحسن ، وقتادة : لا يقبل قول إلا بعمل .

وقوله : (والذين يمكرون السيئات) ، قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وشهر بن حوشب : هم المراءون بأعمالهم ، يعني يمكرون بالناس ، يوهمون أنهم فى طاعة الله ، وهم بُغَضاء إلى الله عز وجل ، يراءون بأعمالهم ، (ولا يذكرون الله إلا قليلا) .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المشركون .

والصحيح أنها عامة ، والمشركون داخلون بطريق الأولى . ولهذا قال : (لهم عذاب شديد ، ومكر أولئك هو يبور) ، أى : يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولى البصائر والنهى ، فإنه ما أسر عبد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله رداءها ، إن خيرا فخير ، وإن شراً فشر . فالمرائى لا يروج أمره ويستمر إلا على غبى ، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم ، بل يُكشَفُ لهم عن قريب ، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية .

وقوله : (والله خلقكم من تراب ، ثم من نطفة) ، أى : ابتدأ خلق أبيكم آدم من تراب ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، (ثم جعلكم أزواجا) ، أى : ذكرا وأنثى ، لطفاً منه ورحمة أن جعل لكم أزواجا من جنسكم ، لتسكنوا إليها .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢٦٨/٤ ، وانظر أيضاً : ٢٧١/٤ .

(٢) ما بين القوسين عن سنن ابن ماجه ومكانه بياض . ولكن المشكل فى هذا أن موسى بن أبى عيسى هذا يدعى الحناط لا الطحان ، ولعل هذا كان داعياً للمؤلف لأن يترك فراغاً . انظر التهذيب : ٣٦٥/١٠ .

(٣) سنن ابن ماجه ، كتاب الأدب ، باب « فضل التسبيح » ، الحديث ٣٨٠٩ : ١٢٥٢/٢ .

(٤) تفسير الطبرى : ٨٠/٢٢ ، وما بين القوسين منه .

وقوله : (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) ، أى : هو عالم بذلك ، لا يخفى عليه من ذلك شىء ، بل (ماتسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس ، إلا فى كتاب مبين (١)) ، وقد تقدم الكلام على قوله تعالى : (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام) ... إلى قوله : (المتعال (٢)) .

وقوله : (وما يعمر من معمَّر ، ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب) ، أى : ما يعطى بعض النطف من العمر الطويل يعلمه ، وهو عنده فى الكتاب الأول ، (وما ينقص من عمره) الضمير عائد على الجنس ، لا على العين ، لأن العين الطويل العمر فى الكتاب وفى علم الله لا ينقص من عمره ، وإنما عاد الضمير على الجنس .

قال ابن جرير : وهذا كقولهم : « عندى ثوب ونصفه » ، أى : ونصف آخر(٣) .

وروُى من طريق العَوْفىّ ، عن ابن عباس فى قوله : (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب ، إن ذلك على الله يسير) ، يقول : ليس أحد قضيت له طول عُـمُـر وحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضيت ذلك له ، فإنما ينتهى إلى الكتاب الذى قدرت لا يزاد عليه ، وليس أحد قَضَيْتُ له أنه قصير العمر والحياة ببالغ العمر ، ولكن ينتهى إلى الكتاب الذى كتبت له ، فذلك قوله : (ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب ، إن ذلك على الله يسير) ، يقول : كل ذلك فى كتاب عنده(٣) .

وهكذا قال الضحاك بن مزاحم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه : (ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب) ، قال : مالَفَظت الأرحام من الأولاد من غير تمام .

وقال عبد الرحمن فى تفسيرها : ألا ترى الناس ، يعيش الإنسان مائة سنة ، وآخر يموت حين يولد ، فهذا هذا .

وقال قتادة : والذى ينقص من عمره : فالذى يموت قبل ستين سنة .

وقال مجاهد : (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب) ، أى : فى بطن أمه يكتب له ذلك ، لم يخلق الخلق على عمر واحد ، بل لهذا عمر ، ولهذا عمر هو أنقص من عمره ، وكل ذلك مكتوب لصاحبه ، بالغ ما بلغ .

وقال بعضهم : بل معناه : (وما يعمر من معمر)، أى : ما يكتب من الأجل (ولا ينقص من عمره) ، وهو ذهابه قليلا قليلا ، الجميع معلوم عند الله سنة بعد سنة ، وشهراً بعد شهر ، وجمعة بعد جمعة ، ويوماً بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ، الجميع مكتوب عند الله فى كتاب .

نقله ابن جرير عن أبى مالك . وإليه ذهب السدى ، وعطاء الخراسانى . واختار ابن جرير الأول ، وهو كما قال .

وقال النسائى عند تفسير هذه الآية الكريمة : حدثنا أحمد بن يحيى بن أبى زيد بن سليمان ، سمعت ابن وهب يقول : حدثنى يونس ، عن ابن شهاب ، عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من سره أن يبسط له فى رزقه ، وينسأ له فى أجله فليصل رحمه » .

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ٥٩ .
(٢) سورة الرعد ، الآية : ٨ ، ٩ . وانظر فيما تقدم : ٤/٣٥٧ — ٣٥٨ .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٢/٨١ .

وقد رواه البخارى ومسلم وأبو داود ، من حديث يونس بن يزيد الأيلى ، به (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا الوليد(٢) بن عبد الملك بن عبيد الله أبو مسرح ، حدثنا عثمان ابن عطاء ، عن مسلمة بن عبد الله ، عن عمه أبى مَشْجَعَة بن ربعى ، عن أبى الدرداء ــ رضى الله عنه ــ قال : ذكرنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن الله لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها ، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها العبد ، فيدعون له من بعده ، فيلحقه دعاؤهم فى قبره ، فذلك زيادة العمر » .

وقوله : (إن ذلك على الله يسير) ، أى : سهل عليه ، يسير لديه عامه بذلك وبتفصيله فى جميع مخلوقاته ، فإن علمه شامل لجميع ذلك لا يخفى منه عليه شىء .

وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى منبها على قدرته العظيمة فى خلقه الأشياء المختلفة : وخلق البحرين العذب الزلال ، وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس ، من كبار وصغار ، بحسب الحاجة إليها فى الأقاليم والأمصار ، والعمران والبرارى والقفار ، وهى عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك ، (وهذا ملح أجاج) ، وهو البحر الساكن الذى تسير فيه السفن الكبار ، وإنما تكون مالحة زُعاقاً مُرَّة ، ولهذا قال : (وهذا ملح أجاج) ، أى : مر .

ثم قال : (ومن كل تأكلون لحماً طرياً) ، يعنى السمك ، (وتستخرجون حلية تلبسونها) ، كما قال تعالى : (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان . فبأى آلاء ربكما تكذبان (٣) .

وقوله : (وترى الفلك فيه مواخر) ، أى : تمخره وتشقه بحيزومها ، وهو مقدمها المُسَنَّم الذى يشبه جؤجؤ الطير ــ وهو : صدره .

وقال مجاهد : تمخر الريح السفن ، ولا يمخر الريح من السفن إلا العظام .

وقوله : (لتبتغوا من فضله) أى : بأسفاركم بالتجارة ، من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم : (ولعلكم تشكرون) أى : تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم ، وهو البحر ، تتصرفون فيه كيف شئتم ، وتذهبون أين أردتم ، ولا يمتنع عليكم شئ منه ، بل بقدرته قد سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ، الجميع من فضله ومن رحمته .

---

(١) البخارى ، كتاب البيوع ، باب « من أحب البسط فى الرزق » : ٧٣/٣ . ومسلم ، كتاب البر ، باب « صلة الرحم وتحريم قطيعتها » : ٨/٨ . وسنن أبى داود ، كتاب الزكاة ، باب « فى صلة الرحم » ، الحديث ١٦٩٣ : ١٣٢/٢ – ١٣٣ .

(٢) فى المخطوطة : « على بن الحسين بن الوليد » . وليس ــ فيما عهدنا من شيوخ ابن أبى حاتم ــ من ينسب هكذا ، بل هما اثنان : على بن الحسين بن الحر بن إشكاب ، وعلى بن الحسين بن الجنيد . انظر الجرح له : ١٧٩/١/٣ . وقد وضعت هذه الزيادة ، وهى : « بن الوليد » فى الشيخ الذى بعده ، فقيل : « الوليد بن الوليد بن عبد الملك » . وهو خطأ ، انظر الجرح : ١٠/١/٤ .

(٣) سورة الرحمن ، آية : ٢٢ ، ٢٣ .

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ
وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا
لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤)

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم ، فى تسخيره الليل بظلامه والنهار بضيائه ، ويأخذ من طول هذا فيزيده على قصر هذا فيعتدلان . ثم يأخذ من هذا [فى هذا] فيطول هذا ويقصر هذا ، ثم يتقارضان صيفاً وشتاء ، (وسخر الشمس والقمر) ، أى : والنجوم السيارات ، والثوابت الثاقبات بأضوائهن أجرام السموات ، الجميع يسيرون بمقدار معين ، وعلى منهاج مقنن محرر ، تقديراً من عزيز عليم .

(كل يجرى لأجل مسمى) ، أى : إلى يوم القيامة :

(ذلكم الله ربكم) ، أى : الذى فعل هذا هو الرب العظيم ، الذى لا إله غيره ، (والذين تدعون من دونه) ، أى : من الأنداد والأصنام التى هى على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين ، (ما يملكون من قطمير) .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعطاء ، وعطية العوفى ، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم : القطمير : هو اللفافة التى تكون على نواة الثمرة (١) . أى : لا يملكون من السموات والأرض شيئاً ، ولا بمقدار هذا القطمير .

ثم قال : (إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم) ، يعنى الآلهة التى تدعونها من دون الله لا يسمعون دعاءكم ؛ لأنها جماد لا أرواح فيها . (ولو سمعوا ما استجابوا لكم) ، أى : لا يقدرون على ما تطلبون منها ، (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) ، أى : يتبرءون منكم ، كما قال تعالى : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين (٢)) ، وقال : (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً (٣)) .

وقوله : (ولا ينبئك مثل خبير) ، أى : ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه ، مثلُ خبير بها .

قال قتادة : يعنى نفسه تبارك وتعالى ، فإنه أخبر بالواقع لا محالة .

* يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦)
وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا
قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ
الْمَصِيرُ (١٨)

يخبر تعالى بغنائه عما سواه ، وبافتقار المخلوقات كلها إليه ، وتذللها بين يديه ، فقال : (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله) ، أى : هم محتاجون إليه فى جميع الحركات والسكنات ، وهو الغنى عنهم بالذات ، ولهذا قال : (والله هو الغنى الحميد) ، أى : هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له ، وهو الحميد فى جميع ما يفعله ويقوله ، ويقدره ويشرعه .

(١) تفسير الطبرى : ٢٢/ ٨٢ — ٨٣ .
(٢) سورة الأحقاف ، آية : ٥ ، ٦ .
(٣) سورة مريم ، آية : ٨١ ، ٨٢ .

وقوله : (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) ، أى : لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم ، وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع . ولهذا قال : (وما ذلك على الله بعزيز) .

وقوله : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) ، أى : يوم القيامة ، (وإن تدع مثقلة إلى حملها) ، أى : وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تُساعَدَ على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه ، (لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى) ، أى : ولو كان قريبا إليها ، حتى ولو كان أباها أو ابنها ، كل مشغول بنفسه وحاله .

قال عكرمة فى قوله : (وإن تدع مثقلة إلى حملها) الآية ، قال : هو الجار يتعلق بجاره يوم القيامة ، فيقول : يارب ، سل هذا : لم كان يغلق بابه دونى . وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة ، فيقول له : يا مؤمن ، إن لى عندك يداً ، قد عرفت كيف كنت لك فى الدنيا ؟ وقد احتجت إليك اليوم . فلا يزال المؤمن يشفع له إلى ربه حتى يرده إلى [منزل دون] منزله ، وهو فى النار . وإن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة ، فيقول : يا بنى ، أىّ والد كنتُ لك ؟ فيثنى خيرا ، فيقول له : يا بنى إنى قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى . فيقول له ولده : يا أبت ، ما أيسر ما طلبت ، ولكنى أتخوف مثل ما تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئا . ثم يتعلق بزوجته فيقول : يا فلانة ــ أو : يا هذه ــ أىّ زوج كنت لك ؟ فتثنى خيرا ، فيقول لها : إنى أطلب إليك حسنة واحدة تهبينها لى ، لعلى أنجو بها مما ترين . قال : فتقول : ما أيسر ما طلبت . ولكنى لا أطيق أن أعطيك شيئا ، إنى أتخوف مثل الذى تتخوف ، يقول الله : (وإن تدع مثقلة) .. الآية ، ويقول الله : (لا يجزى والد عن ولده [ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً) ، ويقول تعالى] : (يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) .

رواه ابن أبى حاتم رحمه الله ، عن أبى عبد الله الطهرانى ، عن حفص بن عمر ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، به .

ثم قال : (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة) ، أى : إنما يتعظ بما جئت به أولو البصائر والنهى ، الخائفون من ربهم ، الفاعلون ما أمرهم به ، (ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه) ، أى : ومن عمل صالحا فإنما يعود نفعه على نفسه ، (وإلى الله المصير) ، أى : وإليه المرجع والمآب ، وهو سريع الحساب ، وسيجزى كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى : كما لاتستوى هذه الأشياء المتباينة المختلفة ، كالأعمى والبصير لايستويان ، بل بينهما فرق وبون كثير ، وكما لاتستوى الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، كذلك لاتستوى الأحياء ولا الأموات : وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين وهم الأحياء ، وللكافرين وهم الأموات ، كقوله تعالى : (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس ، كمن

مثله فى الظلمات ليس بخارج منها (١)) ، وقال تعالى (مثل الفريقين كالأعمى و الأصم والبصير والسميع ، هل يستويان مثلا(٢)) ؟ فالمؤمن سميع بصير فى نور يمشى ، على صراط مستقيم فى الدنيا والآخرة ، حتى يستقر به الحال فى الجنات ذات الظلال والعيون ، والكافر أعمى أصم ، فى ظلمات يمشى ، لا خروج له منها ، بل هو يتيه فى غيه وضلاله فى الدنيا والآخرة ، حتى يفضى به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم ، (وظل من يحموم : لا بارد ولا كريم (٣)) .

وقوله : (إن الله يسمع من يشاء) ، أى : يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها ، (وما أنت بمسمع من فى القبور) ، أى : كما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم ، وهم كفار بالهداية والدعوة إليها ، كذلك هؤلاء المشركون الذين كُتِبَ عليهم الشقاوة لاحيلة لك فيهم ، ولا تستطيع هدايتهم .

(إن أنت إلا نذير) ، أى : إنما عليك البلاغ والإنذار ، والله يضل من يشاء ويهدى من يشاء .

(إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا) أى بشيرا للمؤمنين ، ونذيرا للكافرين ، (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) ، أى : وما من أمة خلت من بنى آدم إلا وقد بعث الله إليهم النذر ، وأزاح عنهم العلل ، كما قال تعالى : (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد (٤)) ، وكما قال تعالى : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة (٥)) . . . الآية ، والآيات فى هذا كثيرة .

وقوله تبارك وتعالى : (وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم ، جاءتهم رسلهم بالبينات) ، وهى : المعجزات الباهرات ، والأدلة القاطعات ، (وبالزبر) ، وهى الكتب ، (وبالكتاب المنير) ، أى : الواضح البين . (ثم أخذت الذين كفروا) ، أى : ومع هذا كله كذّب أولئك رسلهم فيما جاءوهم به ، فأخذتهم : أى بالعقاب والنكال ، (فكيف كان نكير) ؟ أى : فكيف رأيت إنكارى عليهم عظيما شديدا بليغا ؟ .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى منبها على كمال قدرته فى خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشىء الواحد ، وهو الماء الذى ينزله من السماء يخرج به ثمرات مختلفا ألوانها ، من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض ، إلى غير ذلك من ألوان الثمار ، كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : (وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب

(١) سورة الأنعام ، آية : ١٢١ .
(٢) سورة هود ، آية : ٢٤ .
(٣) سورة الواقعة ، آية : ٤٣ ، ٤٤ .
(٤) سورة الرعد ، آية : ٧ .
(٥) سورة النحل ، آية : ٣٦ .

وزرع ونخيل ، صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون (١)) .

وقوله تبارك وتعالى : (ومن الجبال جُدَد بيض وحمر مختلف ألوانها) ، أى : وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان ، كما هو المشاهد أيضا من بيض وحمر ، وفى بعضها طرائق ــ وهى : الجُدَد ، جمع جُدَّة ــ مختلفة الألوان أيضا .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : الجُدَد الطرائق . وكذا قال أبو مالك ، والحسن ، وقتادة ، والسدى .

ومنها (غرابيب سود) ، قال عكرمة : الغرابيب : الجبال الطوال السود . وكذا قال أبو مالك ، وعطاء الخرسانى وقتادة .

وقال ابن جرير : والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد ، قالوا : أسود غربيب (٢) .

ولهذا قال بعض المفسرين فى هذه الآية : هذا من المقدم والمؤخر فى قوله تعالى : (وغرابيب سود) ، أى : سود غرابيب .

وفيما قاله نظر .

وقوله تعالى : (ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك) ، أى : كذلك الحيوانات من الأناسى والدواب ــ وهو : كل ماهب على قوائم ــ والأنعام : من باب عطف الخاص على العام ، كذلك هى مختلفة أيضا ، فالناس منهم بربر وحبُوش وطُمَاطم (٣) فى غاية السواد ، وصقالبة وروم فى غاية البياض ، والعرب بين ذلك ، والهنود دون ذلك ؛ ولهذا قال تعالى فى الآية الأخرى : (واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين (٤)) . وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان ، حتى فى الجنس الواحد ، [بل النوع الواحد منهن مختلف الألوان ، بل الحيوان الواحد] يكون أبلق (٥) ، فيه من هذا اللون وهذا اللون ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده : حدثنا الفضل بن سهل ، حدثنا عبد الله بن عمر (٦) بن أبان بن صالح ، حدثنا زياد بن عبد الله ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أيصبغ ربك ؟ فقال : « نعم صبغا لا يُنفَض (٧) ، أحمر وأصفر وأبيض » . ورُوى مرسلا وموقوفا ، والله أعلم .

ولهذا قال تعالى بعد هذا : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ، أى : إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى ــ كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل ، كانت الخشية له أعظم وأكثر .

---

(١) سورة الرعد ، آية : ٤ .
(٢) تفسير الطبرى : ٨٦/٢٢ .
(٣) الطماطم ــ بضم الطاء الأولى ــ : الأعجم الذى لا يفصح . انظر تاج العروس .
(٤) سورة الروم ، آية : ٢٢ .
(٥) الأبلق : ما جمع بين الأبيض والأسود .
(٦) فى الجرح لابن أبى حاتم ١١٠/٢/٢ : « عمر بن محمد بن أبان » .
(٧) أى : لا يزول لونه .

قال على ابن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ، قال : الذين يعلمون أن الله على كل شىء قدير (١) .

وقال ابن لَهيعة ، عن ابن أبى عمرة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : العالم بالرحمن من لم يشرك به شيئا ، وأحل حلاله ، وحرم حرامه ، و حفظ وصيته ، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله .

وقال سعيد بن جبير : الخشية هى التى تحول بينك وبين معصية الله عز وجل .

وقال الحسن البصرى : الإيمان (٢) منْ خشى الرحمن بالغيب ، ورغب فيما رغب الله فيه ، وزهد فيما سَخط الله فيه ، ثم تلا الحسن : (إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور) .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : ليس العلم عن كثرة الحديث ، ولكن العلم عن كثرة الخشية .

وقال أحمد بن صالح المصرى ، عن ابن وهب ، عن مالك قال : إن العلم ليس بكثرة الرواية ، وإنما العلم نور يجعله الله فى القلب .

قال أحمد بن صالح المصرى : معناه أن الخشية لا تدرك بكثرة الرواية ، وأما العلم الذى فرض الله عز وجل أن يتبع فإنما هو الكتاب والسنة ، وما جاء عن الصحابة — رضى الله عنهم — ومن بعدهم من أئمة المسلمين — فهذا لا يدرك إلا بالرواية ويكون تأويل قوله : « نور » يريد به فهم العلم ، ومعرفة معانيه .

وقال سفيان الثورى ، عن أبى حيان ، عن رجل قال : كان يقال : العلماء ثلاثة : عالم بالله ، عالم بأمر الله . وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله . وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله . فالعالم بالله وبأمر الله : الذى يخشى الله ويعلم الحدود والفرائض . و العالم بالله ليس بعالم بأمر الله : الذى يخشى الله ولا يعلم الحدود ولاالفرائض . والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله : الذى يعلم الحدود والفرائض ،ولا يخشى الله عز وجل.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه ، من إقام الصلاة ، والإنفاق مما رزقهم الله فى الأوقات المشروعة ليلا ونهارا ، سرا وعلانية ، (يرجون تجارة لن تبور) ، أى : يرجون ثوابا عند الله لا بد من حصوله . كما قدمنا فى أول التفسير عند فضائل القرآن أنه يقول لصاحبه : « إن كل تاجر من وراء تجارته ، وإنك اليوم من وراء كل تجارة » . ولهذا قال تعالى : (ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) ، أى : ليوفيهم ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم ، (إنه غفور) ، أى : لذنوبهم ، (شكور) للقليل من أعمالهم .

(١) تفسير الطبرى : ٢٢/٨٨ .

(٢) كذا فى المخطوطة ، والدر المنثور عن عبد بن حميد ، وابن أبى حاتم : ٥/٢٥٠ . ويمكن توجيهه عربية بأن يقال : الإيمان الكامل إيمان من خشى ...

قال قتادة : كان مُطَرِّف رحمه الله إذا قرأ هذه الآية يقول : هذه آية القراء .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حيوة ، حدثنا سالم بن غيلان أنه سمع دَرّاجا أبا السمح يحدث عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد الخُدْرِيّ رضي الله عنه ـ أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله تعالى إذا رضي عن العبد أثنى عليه سَبْعَةَ أصناف من الخير لم يعمله ، وإذا سخط على العبد أثنى عليه سَبْعَةَ أصناف من الشر لم يعمله(١) » . غريب جدا .

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (٣١)

يقول تعالى : (والذي أوحينا إليك) ، يامحمد من الكتاب ، وهو القرآن (هو الحق مصدقا لما بين يديه) ، أي من الكتب المتقدمة يصدقها ، كما شهدت له بالتنويه ، وأنه منزل من رب العالمين .

(إن الله بعباده لخبير بصير) ، أي : هو خبير بهم ، بصير بمن يستحق مايفضله به على من سواه : ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر ، وفضل النبيين بعضهم على بعض ، ورفع بعضهم درجات ، وجعل منزلة محمد صلى الله عليه وسلم فوق جميعهم ، صلوات الله عليهم أجمعين .

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (٣٢)

يقول تعالى : ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم ، المصدق لما بين يديه من الكتب ، الذين اصطفينا من عبادنا ، وهم هذه الأمة ، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع ، فقال : (فمنهم ظالم لنفسه) ، وهو : المفرط في فعل بعض الواجبات ، المرتكب لبعض المحرمات . (ومنهم مقتصد) ، وهو : المؤدي للواجبات ، التارك للمحرمات : وقد يترك بعض المستحبات ، ويفعل بعض المكروهات . (ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) ، وهو : الفاعل للواجبات والمستحبات ، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات .

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا) ، قال : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ورّثهم الله كل كتاب أنزله ، فظالمهم يُغفَر له ، ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب (٢) .

وقال أبو القاسم الطبراني : حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح ، وعبد الرحمن بن معاوية العُتْبِيّ قالا : حدثنا أبو الطاهر ابن السرح ، حدثنا موسى بن عبد الرحمن الصنعاني ، حدثني ابن جريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ذات يوم : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » ـ قال ابن عباس : السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله ، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣/٣٨ .
(٢) تفسير الطبري : ٢٢/٨٨ .

وهكذا رُوى عن غير واحد من السلف : أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين ، على مافيه من عوج وتقصير .

وقال آخرون : بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ، ولا من المصطفين الوارثين الكتاب :

قال ابن أبي حاتم ، حدثنا أبي ، حدثنا على بن هاشم بن مرزوق ، حدثنا ابن عيينة ، عن عمرو ، عن ابن عباس — رضى الله عنهما — : (فمنهم ظالم لنفسه) ، قال : هو الكافر . وكذا رَوَى عنه عكرمة ، وبه قال عكرمة أيضا فيما رواه ابن جرير (١) .

وقال ابن أبي نَجيح ، عن مجاهد فى قوله : (فمنهم ظالم لنفسه) ، قال : هم أصحاب المشأمة .

وقال مالك عن زيد بن أسلم ، والحسن ، وقتادة : هو المنافق .

ثم قد قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة : وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام الثلاثة المذكورة فى أول « سورة الواقعة » وآخرها .

والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة : وهذا اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية ، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من طرق يشد بعضها بعضا ، ونحن نورد منها ما تيسر :

الحديث الأول : قال الإمام أحمد : حدثنا محمد (٢) بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن الوليد بن العيزار : أنه سمع رجلا من ثقيف يُحدّث عن رجل من كنانة ، عن أبي سعيد الخدرى — رضى الله عنه — عن النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : فى هذه الآية : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) ، قال : هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة ، وكلهم فى الجنة (٣) .

هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وفى إسناده من لم يسمّ . وقد رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ، من حديث شعبة ، به نحوه (٤) .

ومعنى قوله « بمنزلة واحدة » أى : فى أنهم من هذه الأمة ، وأنهم من أهل الجنة ، وإن كان بينهم فرق فى المنازل فى الجنة .

الحديث الثانى : قال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنا أنس بن عياض الليثى أبو ضمرة ، عن موسى بن عقبة ، عن ابن عبد الله الأزدى ، عن أبي الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) ، فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون حسابا يسيرا ، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون فى طول المحشر ، ثم هم الذين تلافاهم برحمته ، فهم الذين يقولون : (الحمد لله

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٢/٨٩ .

(٢) فى المسند : « حدثنا محمد بن شعبة ، عن الوليد » . وهو خطأ ، صوابه : « محمد عن شعبة » .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣/٧٨ .

(٤) تفسير الطبرى : ٢٢/٩٠ . وقد أخرجه أيضاً الترمذى فى تفسير سورة فاطر ، عن أبى موسى محمد بن المثنى ومحمد ابن بشار ، عن محمد بن جعفر بإسناده . انظر تحفة الأحوذى ، الحديث ٣٢٧٨ : ٩/٩٢ — ٩٣ ، وقال : « هذا حديث غريب حسن » . وأخرجه أيضاً أبو داود الطيالسى عن شعبة بإسناده . انظر منحة المعبود ، تفسير سورة فاطر : ٢/٢٢ .

الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور . الذى أحلنا دار المقامة من فضله ، لا يمسنا فيها نصب ، ولا يمسنا فيها لغوب(١))

طريق أخرى ، قال ابن أبى حاتم : حدثنا أسيد بن عاصم ، حدثنا الحسين بن حفص ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن رجل ، عن أبى ثابت ، عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، قال : فأما الظالم لنفسه فيحبس حتى يصيبه الهم والحزن ، ثم يدخل الجنة »

ورواه ابن جرير من حديث سفيان الثورى ، عن الأعمش قال : ذكر أبو ثابت أنه دخل المسجد ، فجلس إلى جنب أبى الدرداء ، فقال : اللهم ، آنس وحشتى ، وارحم غربتى ، ويسر لى جليسا صالحا . قال أبو الدرداء : لئن كنت صادقا لأنا أسعد بك منك ، سأحدثك حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أحدث به منذ سمعته منه ، ذكر هذه الآية : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات) — فأما السابق بالخيرات فيدخلها بغير حساب ، وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا . وأما الظالم لنفسه فيصيبه فى ذلك المكان من الغم والحزن ، وذلك قوله : (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) (٢) .

الحديث الثالث : قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس ، حدثنا ابن مسعود ، أخبرنا سهل بن عبد ربه الرازى ، حدثنا عمرو بن أبى قيس ، عن ابن أبى ليلى ، عن أخيه ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن أسامة بن زيد : (فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات) ... الآية ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلهم من هذه الأمة » .

الحديث الرابع : قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عزيز ، حدثنا سلامة ، عن عقيل ، عن ابن شهاب ، عن عوف ابن مالك ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أمتى ثلاثة أثلاث ، فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ثم يدخلون الجنة ، وثلث يُمَحَّصون ويكشفون ، ثم تأتى الملائكة فيقولون : وجدناهم يقولون : « لا إله إلا الله وحده » ، يقول الله عز وجل : صدقوا ، لا إله إلا أنا ، أدخلوهم الجنة بقولهم : « لا إله إلا الله وحده » واحملوا خطاياهم على أهل النار ، وهى التى قال الله تعالى : (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) ، وتصديقها فى التى فيها ذكر الملائكة ، قال الله تعالى : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) ، فجعلهم ثلاثة أنواع ، وهم أصناف كلهم ، فمنهم ظالم لنفسه ، فهذا الذى يكشف ويمحص : غريب جدا .

أثر عن ابن مسعود ، قال ابن جرير : حدثنى ابن حميد ، حدثنا الحكم بن بشير ، عن عمرو بن قيس ، عن عبد الله ابن عيسى ، عن يزيد بن الحارث ، عن شقيق أبى وائل(٣) ، عن عبد الله بن مسعود أنه قال : هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة ، ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ، وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول : ماهؤلاء — وهو أعلم تبارك وتعالى — فتقول الملائكة : هؤلاء جاءوا بذنوب عظام ، إلا أنهم لم يشركوا بك فيقول الرب عز وجل :

(١) مسند الإمام أحمد : ١٩٨/٥ .
(٢) تفسير الطبرى : ٩٠/٢٢ .
(٣) فى تفسير الطبرى : « عن شقيق ، عن أبى وائل » . وهو خطأ ، والصواب ما هنا ، وهو : شقيق بن سلمة الأسدى أبو وائل ، صاحب عبد الله بن مسعود . انظر ترجمته فى أسد الغابة : ٥٢٧/٢ بتحقيقنا .

أدخلوا هؤلاء فى سعة رحمتى (١) وتلا عبد الله هذه الآية : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) ... الآية (٢) .

أثر آخر : قال أبو داود الطيالسى ، عن الصلت بن دينار [أبو شُعيب(٣)] ، عن عقبة بن صهبان الهنائى قال : سألت عائشة رضى الله عنها عن قول الله : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه) ... الآية ، فقالت لى : يابنى ، هؤلاء فى الجنة ، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحياة والرزق . وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به . وأما الظالم لنفسه فمثلى ومثلكم ، قال : فجعلت نفسها (٤) معنا .

وهذا منها رضى الله عنها ، من باب الهضم والتواضع ، وإلا فهى من أكبر السابقين بالخيرات ، لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام .

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله : قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه : فى قوله تعالى : (فمنهم ظالم لنفسه) ، قال : هى لأهل بدونا ، ومقتصدنا أهل حضرنا ، وسابقنا أهل الجهاد . رواه ابن أبى حاتم .

وقال عوف الأعرابى : حدثنا عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: حدثنا كعب الأحبار قال : إن الظالم لنفسه من هذه الأمة ، والمقتصد والسابق بالخيرات كلهم فى الجنة ، ألم تر أن الله تعالى قال : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير . جنات عدن يدخلونها) .. إلى قوله : (والذين كفروا لهم نار جهنم) ، قال : فهؤلاء أهل النار (٥) .

رواه ابن جرير من طرق ، عن عوف به . ثم قال :

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن علية ، أخبرنا حميد ، عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث ، عن أبيه أن ابن عباس سأل كعباً عن قوله : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) إلى قوله : (بإذن الله) ، قال : تماسّت مناكبهم وربّ كعب (٦) ، ثم أعطوا الفضل بأعمالهم .

ثم قال ابن جرير : حدثنا بن حميد ، حدثنا الحكم بن بشير ، حدثنا عمرو بن قيس ، عن أبى إسحاق السبيعى فى هذه الآية : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) ... الآية ، قال أبو إسحاق : أما ماسمعت منذ ستين سنة فكلهم ناج .

ثم قال : حدثنا ابن حميد ، حدثنا الحكم ، حدثنا عمرو ، عن محمد بن الحنفية قال : إنها أمة مرحومة ، الظالم مغفور له ، والمقتصد فى الجنان عند الله ، والسابق بالخيرات فى الدرجات عند الله .

---

(١) فى المخطوطة : « فى جنة رحمتى » . والمثبت من الطبرى والطبعات السابقة .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٢/٨٨ .
(٣) ما بين القوسين عن منحة المعبود ، والجرح ٢/١/٤٣٧ . ومكانه فى المخطوطة : « ابن الأشعث » .
(٤) منحة المعبود ، تفسير سورة فاطر : ٢/٢٢ .
(٥) تفسير الطبرى : ٢٢/٨٨ .
(٦) فى تفسير الطبرى : « ورب الكعبة » . والصواب ما هنا .

ورواه الثورى ، عن إسماعيل بن سميع ، عن رجل ، عن محمد بن الحنفية بنحوه ؛

وقال أبو الجارود : سألت محمد بن على ـ يعنى الباقر ـ عن قوله : (فمنهم ظالم لنفسه) ، فقال : هو الذى خلط عملا صالحا وآخر سيئا .

فهذا ماتيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام . وإذا تقرر هذا فإن الآية عامة فى جميع الأقسام الثلاثة من هذه الأمة ، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة ، وأولى الناس بهذه الرحمة ، فإنهم كما قال الإمام أحمد رحمه الله :

حدثنا محمد بن يزيد ، حدثنا عاصم بن رجاء بن حيوة ، عن قيس بن كثير قال : قدم رجل من المدينة إلى أبى الدرداء ـ وهو بدمشق ـ فقال : ماأقدمك أىْ أخى ؟ قال : حديث بلغنى أنك تحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال أما قدمت لتجارة ؟ قال : لا . قال : أما قدمت لحاجة ؟ قال : لا ؟ قال : أما قدمت إلا فى طلب هذا الحديث ؟ قال : نعم . قال : فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من سلك طريقا يطلب [فيه] علماً ، سلك الله به طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم ، وإنه ليستغفر للعالم من فى السموات والأرض حتى الحيتان فى الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب . إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر »(١) .

وأخرجه أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه ، من حديث كثير بن قيس ـ ومنهم من يقول : قيس بن كثير ـ عن أبى الدرداء(٢) . وقد ذكرنا طرقه واختلاف الرواة فيه فى شرح «كتاب العلم» من « صحيح البخارى » ، ولله الحمد والمنة ؛

وقد تقدم فى أول « سورة طه » حديث ثعلبة بن الحكم ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء : إنى لم أضع علمى وحكمتى فيكم إلا وأنا أريد أغفر لكم ، على ماكان منكم ، ولا أبالى » . (٣)

جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾

يخبر تعالى أن مأوى هؤلاء المصطفين من عباده ، الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة (جنات عدن) ، أى : جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على ربهم عز وجل : (يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا) ، كما ثبت

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١٩٦/٥ .

(٢) سنن أبى داود ، كتاب العلم ، باب « الحث على طلب العلم » . وتحفة الأحوذى ، كتاب العلم أيضا ، باب « فى فضل الفقه على العبادة » ، الحديث ٢٨٢٢ : ٤٥٠/٧ ـ ٤٥٣ . وسنن ابن ماجه ، المقدمة ، باب « فى فضل العلماء والحث على طلب العلم » ، الحديث ٢٢٣ : ٨١/١ .

(٣) انظر : ٢٦٧/٥ .

فى الصحيح عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء(١) » .

(ولباسهم فيها حرير)، ولهذا كان محظورا عليهم فى الدنيا، فأباحه الله لهم فى الدار الآخرة، وثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة » وقال : « هى لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة(٢) »

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا عمرو بن سواد السرحى ، أخبرنا ابن وهب ، عن ابن لهيعة ، عن عقيل بن خالد ، عن الحسن ، عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن أبا أمامة حدث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم ، وذكر حلى أهل الجنة فقال : مسورون بالذهب والفضة ، مكللة بالدر ، وعليهم أكاليل من دُرّ وياقوت متواصلة ، وعليهم تاج كتاج الملوك ، شباب جُرْدٌ مُرْدٌ مكحَّلُون .

(وقالوا: الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) ، وهو الخوف من المحذور ، أزاحه عنا ، وأراحنا مما كنا نتخوفه ، ونحذره من هموم الدنيا والآخرة .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس على أهل « لا إله إلا الله » وحشة فى قبورهم ولا فى منشرهم ، وكأنى بأهل « لا إله إلا الله » ينفضون التراب عن رءوسهم، ويقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) . رواه ابن أبى حاتم من حديثه .

وقال الطبرانى : حدثنا جعفر بن محمد الفريابى ، حدثنا موسى بن يحيى المروزى ، حدثنا سليمان بن عبد الله بن وهب الكوفى ، عن عبد العزيز بن حكيم ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس على أهل « لا إله إلا الله » وحشة فى الموت ولا فى قبورهم ولا فى النشور : وكأنى أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رءوسهم من التراب ، يقولون : (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، إن ربنا لغفور شكور) .

قال ابن عباس ، وغيره : غَفَر لهم الكثير من السيئات ، وشكر لهم اليسيرَ من الحسنات .

(الذى أحلنا دار المقامة من فضله) ، يقولون : الذى أعطانا هذه المنزلة ، وهذا المقام من فضله ومَنّه ورحمته ، لم تكن أعمالنا تساوى ذلك . كما ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة » قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل (٣) » .

(لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) ، أى : لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء .

والنصَب واللغوب : كل منهما يستعمل فى التعب ، وكأن المراد بنفى هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٢٣ من سورة الحج ، وخرجناه هنالك : ٦/٤٠٣ .

(٢) تقدم أيضاً هذا الحديث فى الموضع المتقدم ، وخرجناه ، انظر : ٦/٤٠٤ .

(٣) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب « القصد والمداومة على العمل » : ٨/١٢٢ . ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب « لن يدخل أحد الجنة بعمله ، بل برحمة الله تعالى » : ٨/١٣٩ – ١٤٠ .

والله أعلم : لمن ذلك أنهم كانوا يُدْئِبُون أنفسهم فى العبادة فى الدنيا ، فسقط عنهم التكليف بدخولها ، وصاروا فى راحة دائمة مستمرة . قال الله تعالى : (كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية) (١) .

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾

لما ذكر تعالى حال السعداء ، شرع فى بيان مآل الأشقياء ، فقال : (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا) ، كما قال تعالى : (لا يموت فيها ولا يحيى(٢)) . وثبت فى صحيح مسلم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «أما أهل النار الذين هم أهلها ، فلا يموتون فيها ولا يحيون(٣)» . قال تعالى : (ونادوا : يا مالك ، ليقض علينا ربك ؟ قال : إنكم ماكثون(٤)) . فهم فى حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم ، ولكن لا سبيل إلى ذلك ــ قال الله تعالى : (لا يقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها) ، كما قال تعالى : (إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون . لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون(٥)) ، وقال : (كلما خبت زدناهم سعيرا(٦))، (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا(٧)) ، ثم قال : (كذلك نجزى كل كفور) ، أى : هذا جزاء كل من كفر بربه ، وكذّب بالحق .

وقوله : (وهم يصطرخون فيها) ، أى : ينادون فيها ، يجأرون إلى الله عز وجل بأصواتهم : (ربنا ، أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل) ، أى : يسألون الرجعة إلى الدنيا ، ليعملوا غير عملهم الأول ، وقد علم الرب جل جلاله أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا ، لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون . فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم ، كما قال تعالى مخبرا عنهم فى قولهم : (فهل إلى خروج(٨) من سبيل ؟ . ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا) ، أى : لا يجيبكم إلى ذلك ، لأنكم [كنتم] كذلك ، ولو رددتم لعدتم إلى ما نهيتم عنه . ولهذا قال هاهنا : (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) ، أى : أو ما عشتم فى الدنيا أعمارا لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به فى مدة عمركم ؟ .

وقد اختلف المفسرون فى مقدار العمر المراد هاهنا ، فروى عن على بن الحسين زين العابدين . أنه قال : مقدار سبع عشرة سنة .

---

(١) سورة الحاقة ، آية : ٢٤ .
(٢) سورة طـه ، آية : ٧٤ .
(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية الرابعة والسبعين من سورة طه ، وخرجناه هنالك ، انظر : ٢٩٩/٥ .
(٤) سورة الزخرف ، آية : ٧٧ .
(٥) سورة الزخرف ، آية : ٧٤ ، ٧٥ .
(٦) سورة الإسراء ، آية : ٩٧ .
(٧) سورة النبأ ، آية : ٣٠ .
(٨) فى المخطوطة : «فهل إلى مرد من سبيل» . والصواب ما أثبتناه . والآيتان من سورة غافر : ١١ ، ١٢ .

وقال قتادة : اعلموا أن طول العمر حجة ، فنعوذ بالله أن نُعَيَّر بطول العمر ! ، قد نزلت هذه الآية : (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) ، وإن فيهم لابن ثماني عشرة سنة . وكذا قال أبو غالب الشيباني.

وقال عبد الله بن المبارك ، عن معمر ، عن رجل ، عن وهب بن منبه فى قوله : (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) ، قال : عشرين سنة .

وقال هشيم ، عن منصور ، عن زاذان ، عن الحسن فى قوله : (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) ، قال : أربعين سنة .

وقال هشيم ، عن مجاهد ، عن الشعبي ، عن مسروق أنه كان يقول : إذا بلغ أحدكم أربعين سنة ، فليأخذ حذره من الله عز وجل .

وهذا رواية عن ابن عباس فيما قال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا بشر بن المفضل ، حدثنا عبد الله ابن عثمان بن خُثَيم ، عن مجاهد قال : سمعت ابن عباس يقول : العمر الذى أعذر الله إلى ابن آدم : (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) أربعون سنة .

هكذا رواه من هذا الوجه ، عن ابن عباس . وهذا القول هو اختيار ابن جرير . ثم رواه من طريق الثورى وعبد الله ابن إدريس ، كلاهما عن عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : العمر الذى أعذر الله فيه لابن آدم فى قوله : (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) ، ستون سنة .

فهذه الرواية أصح عن ابن عباس ، وهى الصحيحة فى نفس الأمر أيضاً ، لما ثبت فى ذلك من الحديث — كما سنورده — لا كما زعمه ابن جرير ، من أن الحديث لم يصح ، لأن « فى إسناده من يجب التثبت فى أمره » (١) .

وقد روى أصبغ بن نُبَاتة ، عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : العمر الذى عَيَّرهم الله به فى قوله تعالى : (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) : ستون سنة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا دُحَيم ، حدثنا ابن أبى فديك ، حدثنى إبراهيم بن الفضل المخزومى ، عن ابن أبى حُسَيْن المكى : أنه حدثه عن عَطاء — هو ابن أبى رباح — عن ابن عباس — رضى الله عنهما : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كان يوم القيامة قيل : أين أبناء الستين ؟ وهو العمر الذى قال الله فيه : (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) » .

وكذا رواه ابن جرير ، عن على بن شعيب ، عن [محمد بن(٢)] إسماعيل بن أبى فُدَيك به . وكذا رواه الطبرانى من طريق ابن أبى فُدَيك ، به . وهذا الحديث فيه نظر ، لحال إبراهيم بن الفضل ، والله أعلم .

---

(١) تفسير الطبرى : ٩٣/٢٢ .

(٢) فى تفسير الطبرى ٩٣/٢٢ : « فى نقله » .

(٣) ما بين القوسين عن تفسير الطبرى : ٩٣/٢٢ . وانظر الجرح والتعديل : ٣/٢/١٨٨-١٨٩ ، والتهذيب : ٩/١٦١/١٠٥ .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن رجل من بني غفار، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لقد أعذر الله إلى عبد أحياه حتى بلغ ستين أوسبعين سنة، لقد أعذر الله إليه لقد أعذر الله إليه(١) » .

وهكذا رواه الإمام البخاري في «كتاب الرقاق» من صحيحه : حدثنا عبد السلام بن مطهر ، عن عمر بن علي ، عن معن بن محمد الغفاري، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [أعذر الله عز وجل إلى امرئ أخر عمره حتى بلغه ستين سنة :

ثم قال البخاري : تابعه أبو حازم وابن عجلان ، عن سعيد المقبري(٢)] .

فأما أبو حازم فقال ابن جرير : حدثنا أبو صالح الفزاري ، حدثنا محمد بن سوار ، أخبرنا يعقوب بن عبد الرحمن ابن عبد القاري الإسكندري ، حدثنا أبو حازم ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « [من عمره] (٣) الله ستين سنة ، فقد أعذر إليه في العمر » .

وقد رواه الإمام أحمد والنسائي في الرقاق جميعا عن قتيبة [عن يعقوب بن عبد الرحمن ، به(٤) .

ورواه البزار قال : حدثنا هشام بن يونس ، حدثنا عبد العزيز بن أبي حازم ، عن أبيه] عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة » . يعني : (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) .

وأما متابعة « ابن عجلان » فقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو السفر يحيى بن محمد بن عبد الملك بن قرعة بسامراء ، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرى ، حدثنا سعيد بن أبي أيوب ، حدثني محمد بن عجلان ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أتت عليه ستون سنة فقد أعزر الله عز وجل إليه في العمر » : وكذا رواه الإمام أحمد عن أبي عبد الرحمن هو المقرئ — به(٥) . ورواه أحمد أيضا عن خلف عن أبي معشر ، عن سعيد المقبري .

طريق أخرى : عن أبي هريرة ، قال ابن جرير : حدثني أحمد بن الفرج أبو عتبة الحمصي ، حدثنا بقية ابن الوليد ، حدثنا المطرف بن مازن الكناني ، حدثني معمر بن راشد قال : سمعت محمد بن عبد الرحمن الغفاري يقول : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد أعذر الله عز وجل في العمر إلى صاحب الستين سنة والسبعين » .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢/٢٧٥ .
(٢) البخاري في كتاب الرقاق ، باب « من بلغ ستين سنة ، فقد أعذر الله إليه » . ٨/١١١ .
(٣) ما بين القوسين من الطبعات السابقة ، وتفسير الطبري : ٢٢/٩٣ . ولفظ مخطوطة الأزهر : إذا أحيا الله ابن آدم » .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٢/٤١٧ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٢/٣٢٠ .

فقد صح هذا الحديث من هذه الطرق ، فلو لم يكن إلا الطريق التى ارتضاها أبو عبد الله البخارى شيخ هذه الصناعة [لكفت] . وقول ابن جرير : « إن فى رجاله بعض من يجب التثبت فى أمره » ، لا يلتفت إليه مع تصحيح البخارى ، والله أعلم .

وذكر بعضهم أن العمر الطبيعى عند الأطباء مائة وعشرون سنة ، فالإنسان لا يزال فى ازدياد إلى كمال الستين ، ثم يشرع بعد هذا فى النقص والهرم ، كما قال الشاعر :

إذَا بَلَغَ الفَتى ستِين عَامًا ✽ فقد ذَهَبَ المَسَرَّةُ والفَتَاءُ(١)

ولما كان هذا هو العمر الذى يعذر الله إلى عباده به ، ويزيح به عنهم العلل ، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة ، كما ورد بذلك الحديث ، قال الحسن بن عرفة رحمه الله :

حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى ، حدثنا محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين ، وأقلهم مَن يجوز ذلك » .

وهكذا رواه الترمذى وابن ماجه جميعا فى كتاب الزهد ، عن الحسن بن عرفة ، به . ثم قال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه(٢) » .

وهذا عَجَب من الترمذى ، فانه قد رواه أبو بكر بن أبى الدنيا من وجه آخر وطريق أخرى ، عن أبى هريرة ، حيث قال :

حدثنا سليمان بن عمر ، عن محمد بن ربيعة ، عن كامل أبى العلاء ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين ، وأقلهم من يجوز ذلك » .

وقد رواه الترمذى فى « كتاب الزهد » أيضا ، عن إبراهيم بن سعيد الجوهرى ، عن محمد بن ربيعة ، به . ثم قال : « هذا حديث حسن غريب ، من حديث أبى صالح عن أبى هريرة . وقد روى من غير وجه عنه (٣) » . هذا نصه بحروفه فى الموضعين ، والله أعلم .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو موسى الأنصارى ، حدثنا ابن أبى فُديك ، حدثنى إبراهيم بن الفضل — مولى بنى مخزوم عن المقبُرى ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مُعْتَرَكُ المنايا ما بين الستين إلى السبعين » .

وبه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أقل أمتى أبناء سبعين » . إسناده ضعيف .

حديث آخر فى معنى ذلك ، قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده :

---

(١) الفتاء : الشباب . وقد أنشد أبو عبيد للربيع بن ضبع الفزارى :

إذا عاش الفتى مائتين عاما ✽ فقد ذهب اللذاذة والفتاء

(٢) تحفة الأحوذى ، أبواب الدعوات ، الحديث ٣٦٢٠ : ٥٣٧/٩ . وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « الأمل والأجل » ، الحديث ٤٢٣٦ : ١٤١٥/٢ .

(٣) تحفة الأحوذى ، أبواب الزهد ، باب « ما جاء فى أعمار هذه الأمة ما بين الستين إلى سبعين » ، الحديث ٢٤٣٣ : ٦٢٣/٦ — ٦٢٤ .

حدثنا إبراهيم بن هانئ، حدثنا إبراهيم بن مهدى ، حدثنا عثمان بن مطر ، عن أبى مالك ، عن ربعى عن حذيفة أنه قال : يارسول الله ، أنبئنا بأعمار أمتك . قال : « ما بين الخمسين إلى الستين » . قالوا : يارسول الله ، فأبناء السبعين ؟ قال : « قل من يبلغها من أمتى ، رحم الله ابناء السبعين ورحم الله أبناء الثمانين » .

ثم قال البزار : لا يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد ، وعثمان بن مطر من أهل البصرة ليس بقوى .

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاش ثلاثة وستين سنة ، وقيل : ستين . وقيل : خمسا وستين سنة : والمشهور(١) الأول ، والله أعلم .

وقوله : (وجاءكم النذير) ، روى عن ابن عباس ، وعكرمة ، وأبى جعفر الباقر ، وقتادة ، وسفيان بن عيينة أنهم قالوا : يعنى الشيب .

وقال السدى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى به الرسول صلى الله عليه وسلم وقرأ ابن زيد : (هذا نذير من النذر الأولى) . وهذا هو الصحيح عن قتادة ، فيما رواه شيبان ، عنه أنه قال : احتج عليهم [بالعمر] والرسل .

وهذا اختيار ابن جرير ، وهو الأظهر ؛ لقوله تعالى : (ونادوا : يامالك ، ليقض علينا ربك ، قال : إنكم ماكثون . لقد جئناكم بالحق ، ولكن أكثركم للحق كارهون(٢)) ، أى : لقد بينا لكم الحق على ألسنة الرسل ، فأبيتم وخالفتم . وقال تعالى : (وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا (٣)) ، وقال تبارك وتعالى : (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها : ألم يأتكم نذير . قالوا : بلى ، قد جاءنا نذير ، فكذبنا وقلنا : ما نزل الله من شىء ، إن أنتم إلا فى ضلال كبير (٤)) .

وقوله : (فذوقوا فما للظالمين من نصير) ، أى : فذوقوا عذابَ النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء فى مدة أعمالكم ، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال .

إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾

يخبر تعالى بعلمه غيبَ السموات والأرض ، وأنه يعلم ما تكنه السرائر وتنطوى عليه الضمائر ، وسيجازى كل عامل بعمله .

ثم قال : (هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض) ، أى : يخلفَ قوم لآخرين قبلهم ، وجيل لجيل قبلهم ، كما قال : (ويجعلكم خلفاء الأرض ، فمن كفر فعليه كفره(٥)) ، أى : فإنما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره ، (ولا يزيد

(١) انظر أسد الغابة : ١/٤٢ بتحقيقنا .
(٢) سورة الزخرف ، آية : ٧٧ ، ٧٨ .
(٣) سورة الأسراء ، آية : ١٥ .
(٤) سورة الملك ، آية : ٨ ، ٩ .
(٥) سورة فاطر ، آية : ٣٩ .

الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا) ؛ أي : كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله ، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، بخلاف المؤمنين فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحَسُن عمله ، ارتفعت درجته ومنزلته في الجنة ، وزاد أجره ، وأحبه خالقه وبارئه رب العالمين .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾

يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين : (أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله) ؛ أي : من الأصنام والأنداد ، (أروني ماذا خلقوا من الأرض ، أم لهم شرك في السموات) ؟ أي : ليس لهم شيء من ذلك ، ما يملكون من قطمير .

وقوله : (أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه) ، أي : أم أنزلنا عليهم كتابا بما يقولونه من الشرك والكفر ؟ ليس الأمر كذلك ، (بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غروراً) ، أي : بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيهم التي تمنوها لأنفسهم ، وهي غرور وباطل وزور .

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التي بها تقوم السماء والأرض عن أمره ، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما ، فقال : (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) ، أي : أن تضطربا عن أماكنهما ، كما قال : (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه(١)) ، وقال تعالى : (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره(٢)) (ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده(٣)) ، أي : لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو ، وهو مع ذلك حليم غفور أي : يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه ، وهو يحلم فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يَعجَل ، ويستر آخرين ويغفر ، ولهذا قال : (إنه كان حليما غفوراً) ،

وقد أورد ابن أبي حاتم هاهنا حديثا غريبا بل منكراً ، فقال : حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثني هشام بن يوسف ، عن أمية بن شبل(٤) ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه سلم يحكي عن موسى — عليه السلام — على المنبر قال : « وقع في نفس موسى — عليه السلام —

---

(١) سورة الحج ، آية : ٦٥ .

(٢) سورة الروم ، آية : ٢٥ .

(٣) سورة فاطر ، آية : ٤١ .

(٤) في المخطوطة « سنبل » . والمثبت من الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ١/١/٣٠٢ ، وقد تقدم كذلك في سند الطبري ١/٤٠٦ .

هل ينام الله عز وجل ، فأرسل الله إليه ملكا ، فأرّقه ثلاثا ، وأعطاه قارورتين [فى كل يد قارورة] وأمره أن يحتفظ بهما ، قال : فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان ، ثم يستيقظ فيحبس إحداهما عن الأخرى ، حتى نام نومه فاصطفقت يداه فتكسّرت القارورتان ، قال: ضرب الله له مثلا : إن الله لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض (١) »

والظاهر أن هذا الحديث ليس بمرفوع ، بل من الإسرائيليات المنكرة ، فان موسى ــ عليه السلام ــ أجلّ من أن يُجَوّز على الله ــ سبحانه وتعالى ــ النوم ، وقد أخبر الله تعالى فى كتابه العزيز بأنه : (الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض) . وثبت فى الصحيحين(٢) عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه(٣) ما انتهى إليه بصره من خلقه (٤) » .

وقد قال أبو جعفر بن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبى وائل قال : جاء رجل إلى عبد الله ــ هو ابن مسعود فقال : من أين جئت ؟ قال : من الشام . قال : من لقيت ؟ قال : لقيت كعبا . قال ما حدثك كعب ؟ قال : حدثنى أن السموات تدور على منكب ملك . قال : أفصدقته أو كذبته ؟ قال : ما صدقته ولا كذبته . قال : لوددت أنك افتديت من رحلتك إليه براحلتك ورحلها ، كذب كعب . إن الله تعالى يقول : (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده(٥)) .

وهذا إسناد صحيح إلى كعب وإلى ابن مسعود . ثم رواه ابن جرير عن ابن حميد(٦) ، عن جرير ، عن مغيرة ، عن إبراهيم قال : ذهب جُندَب البَجَلى إلى كعب بالشام ، فذكر نحوه . وقد رأيت فى مصنف الفقيه يحيى بن إبراهيم ابن مُزَيْن الطليطلى ، سماه « سير الفقهاء » ، أورد هذا الأثر عن محمد بن عيسى بن الطبّاع ، عن وكيع ، عن الأعمش ، به . ثم قال : وأخبرنا زونان ــ يعنى عبد الملك بن الحسن ، عن ابن وهب ، عن مالك أنه قال : السماء لا تدور . واحتج بهذه الآية ، وبحديث : « إن بالمغرب بابا للتوبة لا يزال مفتوحا حتى تطلع الشمس منه » .

قلت : وهذا الحديث فى الصحيح(٧) ، والله أعلم .

---

(١) تقدم الأثر فى سورة البقرة عند تفسير الآية ٢٥٥ : ١/٤٥٦ من ابن جرير ، من إسحاق بن إبراهيم أبى إسرائيل ، به

(٢) كذا ويبدو أن الصواب : «فى الصحيح» ، فلم نجده إلا فى مسلم ، وكذلك قال ابن كثير فى سورة البقرة : ١/٤٥٥ .

(٣) أى : ضياؤه ، وجلاله وعظمته .

(٤) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب قوله عليه السلام : « إن الله لا ينام . . . » . ١/١١١ . وقد أخرجه ابن ماجه فى المقدمة باب « فيما أنكرت الجهمية » ، الحديث ١٩٦ : ١/٧١ . والإمام أحمد فى مسنده : ٤/٤٠٠ ــ ٤٠١ ، ٤٠٥ .

(٥) تفسير الطبرى : ٢٢/٩٤ ــ ٩٥ .

(٦) سقط من تفسير الطبرى « ابن حميد » .

(٧) أخرجه الإمام أحمد عن صفوان بن عسال المرادى : ٤/٢٤٠ ، ٢٤١ .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾

يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم ، قبل إرسال الرسول إليهم : (لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم) ، أى : من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل . قاله الضحاك وغيره ، كقوله تعالى : (أن تقولوا : إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ، وإن كنا عن دراستهم لغافلين . أو تقولوا : لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ، فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها(١) ، وكقوله تعالى: (وإن كانوا ليقولون . لو أن عندنا ذكراً من الأولين . لكنا عباد الله المخلصين . فكفروا به فسوف يعلمون)(٢) .

قال الله تعالى (فلما جاءهم نذير) — وهو : محمد صلى الله عليه وسلم — بما أنزل معه من الكتاب العظيم ، وهو القرآن المبين ، (مازادهم إلا نفورا) ، أى : ما ازدادوا إلا كفراً إلى كفرهم ; ثم بين ذلك بقوله : (استكباراً فى الأرض) ، أى : استكبروا عن اتباع آيات الله ، (ومكر السيء) ، أى : ومكروا بالناس فى صدهم إياهم عن سبيل الله ، ولايحيق المكر السيء إلا بأهله(٣)) ، [أى : وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم .

قال ابن أبى حاتم : ذكر على بن الحسين ، حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن أبى زكريا الكوفى عن رجل حدثه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إياك ومكر السيء ، فإنه لايحيق المكر السيء إلا بأهله(٣)] ، ولهم من الله طالب» .

وقد قال محمد بن كعب القرظى : ثلاث من فعلهن لم ينجُ حتى ينزل به من مكر أوبغى أونكث ، وتصديقها فى كتاب الله : (ولايحيق المكر السيء إلا بأهله) ، [(إنما بغيكم على أنفسكم) ، (ومن نكث فإنما ينكث على نفسه)] .

وقوله : (فهل ينظرون إلا سنة الأولين) ، يعنى : عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره ، (ولن تجد لسنة الله تبديلا) ، أى : لا تغير ولاتبدل ، بل هى جارية كذلك فى كل مكذب ، (ولن تجد لسنة الله تحويلا) ، أى : (وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له) (٤) ، ولا يكشف ذلك عنهم ، ويحوله عنهم أحد .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ١٥٦ ، ١٥٧ .
(٢) سورة الصفات ، الآيات : ١٦٧ — ١٧٠ .
(٣) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة .
(٤) سورة الرعد ، آية : ١١ .

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

يقول تعالى : قل يامحمد لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الرسالة : سيروا فى الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل ، كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، فَخَلَيَتْ منهم منازلهم ، وسلبوا ماكانوا فيه من النّعَم بعد كمال القوة ، وكثرة العدد والعُدَد ، وكثرة الأموال والأولاد ، فما أغنى ذلك شيئا ، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء ، لما جاء أمر ربك لأنه تعالى لايعجزه شيء ، إذا أراد كونه فى السموات والأرض ، (إنه كان عليما قديراً) ، أى عليم بجميع الكائنات ، قدير على مجموعها .

ثم قال تعالى : (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة) ، أى : لو آخذهم بجميع ذنوبهم ، لأهلك جميع أهل الأرض ، وما يملكونه من دواب وأرزاق .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان الثورى ، عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله قال : كاد الجُعَل أن يعذب فى جُحْره بذنب ابن آدم ، ثم قرأ : (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ، ما ترك على ظهرها من دابة) .

وقال سعيد بن جبير ، والسُّدّىّ فى قوله : (ما ترك على ظهرها من دابة) ، أى : لما سقاهم المطر ، فماتت جميع الدواب .

(ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) ، أى : ولكن يُنْظِرُهم إلى يوم القيامة ، فيحاسبهم يومئذ ، ويوفى كل عامل بعمله ، فيجازى بالثواب أهلَ الطاعة ، وبالعقاب أهلَ المعصية . ولهذا قال تعالى : (فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً) .

[آخر تفسير سورة فاطر ، ولله الحمد والمنة] (١)

---

(١) وقع فى مخطوطة الأزهر بعد هذا : « وهو آخر الجزء الخامس ، يتلوه إن شاء الله تعالى فى أول السادس تفسير سورة « يس » . والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً ، ورضى عن أصحاب رسول الله أجمعين » .

هذا وقد وقع فى أول الجزء السادس : « بسم الله الرحمن الرحيم ، رب أعن على إتمامه » .

تفسير سورة يس

مكية

قال أبو عيسى الترمذى : حدثنا قتيبة وسفيان بنُ وكيع ، حدثنا حُمَيد بن عبد الرحمن الرؤاسى ، عن الحسن ابن صالح ، عن هارون أبى محمد ، عن مقاتل بن حيان ، عن قتادة ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لكل شىء قلبا ، وقلب القرآن يس . ومن قرأ يس كَتَبَ الله له بقراءتها قراءةَ القرآن عشر مرات » .

ثم قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حُمَيد بن عبد الرحمن ؛ وهارون أبو محمد شيخ مجهول .... وفى الباب عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ولا يصح لضعف إسناده ، وعن أبى هريرة(١) منظور فيه .

أما حديث الصديق فرواه [الحكيم الترمذى فى كتابه نوادر الأصول(٢)] ، وأما حديث أبى هريرة فقال أبو بكر البزار : حدثنا عبد الرحمن بن الفضل ، حدثنا زيد — هو ابن الحباب — حدثنا حُميد — هو المكى ، مولى آل علقمة — عن عطاء — هو ابن أبى رباح — عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لكل شىء قلبا ، وقلب القرآن يس » .

ثم قال : لا نعلم رواه إلا زيد ، عن حميد .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا إسحاق بن أبى إسرائيل ، حدثنا حجاج بن محمد ، عن هشام بن زياد ، عن الحسن قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ يس فى ليلة أصبح مغفوراً له . ومن قرأ : « حم » التى يذكر فيها الدخان أصبح مغفوراً له » إسناد جيد .

وقال ابن حبان فى صحيحه : حدثنا محمد بن إسحاق بن إبراهيم مولى ثقيف ، حدثنا الوليد بن شجاع بن الوليد السكونى ، حدثنا أبى ، حدثنا زياد بن خيثمة ، حدثنا محمد بن جُحَادة ، عن الحسن ، عن جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ يس فى ليلة ابتغاء وجه الله غفر له » .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عارم ، حدثنا معتمر ، عن أبيه ، عن رجل ، عن أبيه ، عن معقل بن يَسَار رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « البقرة سنام القرآن وذِرْوَته ، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكا ، واستخرجت (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) من تحت العرش فوصلت بها — أو : فوصلت بسورة البقرة — ويس قلب القرآن ، لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة ، إلا غفر له ، واقرءوها على موتاكم (٣) .

---

(١) تحفة الأحوذى ، أبواب فضائل القرآن ، الحديث ٣٠٤٨ : ٨/١٩٦ - ١٩٨ .

(٢) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة ، ومكانه فى المخطوطة بياض

(٣) مسند الإمام أحمد : ٥/٢٦ .

وكذا رواه النسائى فى « اليوم والليلة » ، عن محمد بن عبد الأعلى ، عن معتمر بن سليمان ، به .

ثم قال الإمام أحمد : حدثنا عارم ، حدثنا ابن المبارك ، حدثنا سليمان التيمى ، عن أبى عثمان — وليس بالنهدى — عن أبيه ، عن معقل بن يسار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقرءوها على موتاكم » يعنى يس(١) .

ورواه أبو داود، والنسائى فى« اليوم والليلة » ، وابن ماجه(٢) من حديث عبد الله بن المبارك، به إلا أن فى رواية النسائى : عن أبى عثمان ، عن معقل بن يسار .

ولهذا قال بعض العلماء : من خصائص هذه السورة أنها لا تقرأ عند أمر عسير إلا يسره الله : وكأن قراءتها عند الميت لتنزل الرحمة والبركة ، وليسهل عليه خروج الروح ، والله أعلم .

قال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا صفوان قال : كان المشيخة يقولون : إذا قرئت — يعنى يس — عند الميت خُفّف عنه بها(٣) .

وقال البزار : حدثنا سلمة بن شبيب ، حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان ، عن أبيه ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لوددت أنها فى قلب كل إنسان من أمتى ، يعنى يس » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أول « سورة البقرة » . وروى عن ابن عباس وعكرمة ، والضحاك ، والحسن ، وسفيان بن عيينة : أن « يس » بمعنى : يا إنسان(٤) .

وقال سعيد بن جبير : هو كذلك فى لغة الحبشة .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : هو اسم من أسماء الله تعالى .

(والقرآن الحكيم) ، أى : المحكم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، (إنك) يا محمد (لمن المرسلين . على صراط مستقيم) ، أى : على منهج ودين قويم ، وشرع مستقيم ، (تنزيل العزيز الرحيم) ، أى : هذا الصراط والمنهج والدين الذى جئت به مُنَزَّل من رب العزة ، الرحيم بعباده المؤمنين ، كما قال تعالى : (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور) (٥) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/٢٦ .

(٢) سنن أبى داود ، كتاب الجنائز ، باب « القراءة عند الميت » ، الحديث ٣١٢١ : ٣/٩١ . وسنن ابن ماجه ، كتاب الجنائز أيضاً ، باب « ما جاء فيما يقال عند المريض إذا حضر » ، الحديث ١٤٤٨ : ١/٤٦٥ — ٤٦٦ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٤/١٠٥ .

(٤) انظر تفسير الطبرى : ٢٢/٩٧ .

(٥) سورة الشورى ، آية : ٥٢ ، ٥٣ .

وقوله تعالى : (لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون) ، يعنى بهم العرب ؛ فإنه ما أتاهم من نذير من قبله ، وذكرُهم وحدَهم لا ينفى من عداهم ، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفى العموم . وقد تقدم ذكْر الآيات والأحاديث المتواترة فى عموم بعثته — صلوات الله وسلامه عليه — عند قوله تعالى : (قل : يا أيها الناس ، إنى رسول الله إليكم جميعا[1]) .

وقوله :(لقد حق القول على أكثرهم) — قال ابن جرير : لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن[2] حتَّم عليهم فى أم الكتاب أنهم لا يؤمنون ، (فهم لا يؤمنون) بالله[3] ، ولا يصدقون رسله .

إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾

يقول تعالى : إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة من جُعل فى عنقه غُلٌّ ، فجمَع يديه مع عنقه تحت ذقنه ، فارتفع رأسُه ، فصار مقمَحا ، ولهذا قال : (فهم مقمحون) ، والمقمح هو الرافع رأسه ، كما قالت أم زَرْع فى كلامها : « وأشرب فأتقمَّح »[4] ، أى : أشرب فأروى ، وأرفع رأسى تهنيئا وتَرَوِّيا . واكتفى بذكر الغل فى العنق عن ذكر اليدين ، وإن كانتا مرادتين ، كما قال الشاعر[5] :

فَمَا أدْرى إذَا يَمَّمْتُ أرْضا أريد الخَيْرَ أيُّهما يَليِنى

أألْخيرُ الذى أنَا أبْتَغيه أم الشَّرّ الذى لا يَأتَليِنى[6]

فاكتفى بذكر الخير عن ذكر الشر لَمَّا دل السياق والكلام عليه ، وكذا هذا ، لما كان الغُلّ إنما يعرف فيما جمَع اليدين مع العنق ، اكتفى بذكر العنق عن اليدين .

قال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : (إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون) ، قال : هو كقول الله تعالى : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك) ، يعنى بذلك أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم ، لا يستطيعون أن يبسطوها بخير .

---

(١) سورة الأعراف ، آية : ١٥٨ . وانظر فيما تقدم : ٣/٤٨٨ — ٤٩٠ .
(٢) فى تفسير الطبرى ٢٢/٩٨ : « لأن الله قد حتم .. » .
(٣) وقع هنا فى تفسير الطبرى سقط ، وهو سقط نظر .
(٤) البخارى ، كتاب النكاح ، باب « حسن المعاشرة مع الأهل » : ٧/٣٥ . ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب « ذكر حديث أم زرع » : ٧/١٣٩ — ١٤٠ .
(٥) معانى القرآن للفراء : ٢/٣٧٢ . وتفسير الطبرى : ٢٢/٩٨ .
(٦) أى : الذى لا يقصر فى طلبه .

وقال مجاهد : (فهم مقمحون)، قال : رافعو رءوسهم، وأيديهم موضوعة على أفواههم ، فهم مغلولون عن كل خير [١]

وقوله : (وجعلنا من بين أيديهم سدا) قال مجاهد : عن الحق ، (ومن خلفهم سدا) ، قال مجاهد : عن الحق، فهم يترددون . وقال قتادة : الضلالات[٢] .

وقوله : (فأغشيناهم) ، أى : أغشينا أبصارهم عن الحق ، (فهم لا يبصرون) ، أى : لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه .

قال ابن جرير : وروى عن ابن عباس أنه كان يقرأ (فأعشيناهم) ، بالعين المهملة ، من العشا وهو داء فى العين[٣] .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : جعل الله هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان ، فهم لا يخلصون إليه ، وقرأ (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) . ثم قال : من منعه الله لا يستطيع .

وقال عكرمة : قال أبو جهل : لئن رأيتُ محمداً لأفعلن ولأفعلنّ . فأنزلت : (إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا) إلى قوله : (لا يبصرون) ، قال : وكانوا يقولون : هذا محمد . فيقول : أين هو ؟ أين هو ؟ لا يبصره . رواه ابن جرير[٤]

وقال محمد بن إسحاق : حدثنى يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب قال : قال أبو جهل وهم جلوس : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوكا ، فإذا متم بُعثتم بعد موتكم ، وكانت لكم جِنانٌ خير من جنان الأُرْدُنّ . وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح ، ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم نار تُعذّبون بها . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك ، وفى يده حفنة من تراب ، وقد أخذ الله على أعينهم دونه ، فجعل يَذُرّها على رءوسهم ، ويقرأ : (يس . والقرآن الحكيم) ، حتى انتهى إلى قوله : (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون) ، وانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته ، وباتوا رُصَداء على بابه ، حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار ، فقال : مالكم ؟ قالوا : ننتظر محمداً . قال : قد خرج عليكم ، فما بقى منكم رجل من إلا وضع على رأسه ترابا ، ثم ذهب لحاجته . فجعل كل رجل منهم ينفض ما على رأسه من التراب . قال : وقد بلغ النبىّ ــ صلى الله عليه وسلم ــ قول أبى جهل فقال : « وأنا أقول ذلك : إن لهم منى لذبحا ، وإنه أحدهم » .

وقوله : (وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) ، أى : قد ختم الله عليهم بالضلالة ، فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به .

وقد تقدم نظيرها فى أول سورة البقرة[٥] ، وكما قال تعالى : (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) [٦] .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٢/٩٨ .

(٢) فى المخطوطة : « فى الضلالات » . والمثبت من تفسير الطبرى : ٢٢/٩٩ .

(٣) لفظ الطبرى ٢٢/٩٩ : « وقد روى عن ابن عباس أنه كان يقرأ (فأعشيناهم فهم لا يبصرون) ، بالعين ، بمعنى أعشيناهم عنه ، وذلك أن العشا هو أن يمشى بالليل ولا يبصر » .

(٤) تفسير الطبرى : ٢٢/٩٩ .

(٥) هى الآية السادسة من سورة البقرة وقد مضى تفسيرها فى : ١/٦٩ – ٧٠ .

(٦) سورة يونس ، آية ٩٦ ، ٩٧ .

(إنما تنذر من اتبع الذكر) ، أى : إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر ، وهو القرآن العظيم ، (وخشى الرحمن بالغيب) ، أى : [حيث] لا يراه أحد إلا الله ، يعلم أن الله مطلع عليه ، وعالم بما يفعله ، (فبشره بمغفرة) ، أى : لذنوبه ، (وأجر كريم) ، أى : كبير واسع حسن جميل ، كما قال : (إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير (١)) .

ثم قال تعالى : (إنا نحن نحيي الموتى) ، أى : يوم القيامة ، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيي قلب من يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة ، فيهديهم بعد ذلك إلى الحق ، كما قال بعد ذكر قسوة القلوب : (اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها ، قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون (٢)) .

وقوله : (ونكتب ما قدموا) ، أى : من الأعمال . وفى قوله : (وآثارهم) قولان :

أحدهما : نكتب أعمالهم التى باشروها بأنفسهم ، وآثارهم التى أثروها من بعدهم ، فنجزيهم على ذلك أيضاً ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « من سن فى الإسلام سنة حسنة ، كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً » .

رواه مسلم ، من رواية شعبة ، عن عون بن أبى جُحَيْفَة ، عن المنذر بن جرير ، [عن أبيه جرير] بن عبد الله البَجلى رضى الله عنه ، وفيه قصة مُجْتَابِي النِّمار (٣) المضريين . ورواه ابن أبى حاتم عن أبيه ، عن يحيى بن سليمان الجعفى ، عن أبى المحياة يحيى بن يعلى ، عن عبد الملك بن عمير ، عن جرير بن عبد الله ، فذكر الحديث بطوله ، ثم تلا هذه الآية : (ونكتب ما قدموا وآثارهم) .

وقد رواه مسلم من رواية أبى عوانة ، عن عبد الملك بن عمير ، عن المنذر بن جرير ، عن أبيه ، فذكره (٤) .

وهكذا الحديث الآخر الذى فى صحيح مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : من علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده (٥) » .

وقال سفيان الثورى ، عن أبى سعيد قال : سمعت مجاهداً يقول فى قوله : (إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم) ، قال : ما أورثوا من الضلالة .

---

(١) سورة الملك ، آية : ١٢ .

(٢) سورة الحديد ، آية : ١٧ .

(٣) النمار - بكسر النون - : جمع نمرة ، وهى كل شملة مخططة من مآزر الأعراب ، كأنها أخذت من لون النمر ، لما فيها من السواد والبياض . ومجتابو النمار : لابسوها خارقون أوساطها ، يقال : اجتبت القميص : دخلت فيه ، قال ابن الأثير : وكل شيء قطع وسطه فهو مجوب .

(٤) مسلم ، كتاب الزكاة ، باب « الحث على الصدقة ولو بشق تمرة ، أو كلمة طيبة ، وأنها حجاب من النار » : ٣/٨٦-٨٧ .

(٥) مسلم ، كتاب الوصية ، باب « ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته » : ٥/٧٣ .

وقال ابن لهيعة ، عن عطاء بن دينار ، عن سعيد بن جبير فى قوله : (ونكتب ما قدموا وآثارهم) ، يعنى : ما أثَرُوا يقول : ماسَنّوا من سنة ، فعمل بها قوم من بعد موتهم ، فإن كان خيرا فله مثل أجورهم ، لا ينقص من أجر من عمله شيئاً ، وإن كانت شراً فعليه مثل أوزارهم ، ولا ينقص من أوزار من عمله شيئاً : ذكرهما ابن أبى حاتم .

وهذا القول هو اختيار البَغَوِىّ .

والقول الثانى : أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية .

قال ابن أبى نَجيح وغيره ، عن مجاهد : (ما قدموا) ، أعمالهم ، (وآثارهم) ، قال : خطاهم بأرجلهم(١). وكذا قال الحسن وقتادة : (وآثارهم) ، يعنى : خطاهم . قال قتادة : لو كان الله تعالى مُغْفِلا شيئاً من شأنك ياابن آدم ، أغفل ما تُعَفِّىّ الرياحُ(٢) من هذه الآثار ، ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله ، حتى أحصى هذا الأثر فيما هو من طاعة الله أو من معصيته ، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره فى طاعة الله فليفعل .

وقد وَرَدت فى هذا المعنى أحاديث :

الحديث الأول ، قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا أبى ، حدثنا الجُرَيْرى ، عن أبى نَضْرَةَ ، عن جابر ابن عبد الله قال : خلت البقاع حول المسجد ، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد ، فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم : إنه بلغنى أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد ؟ قالوا : نعم ، يارسول الله ، قد أردنا ذلك . فقال : يابنى سلمة ، دياركم تكتب آثاركم ، دياركم تكتب آثاركم (٣) .

وهكذا رواه مسلم ، من حديث سعيد الجُرَيرى وكَهْمَس بن الحسن ، كلاهما عن أبى نضرة — واسمه : المنذر بن مالك ابن قِطْعَة العَبْدى — عن جابر (٤) .

الحديث الثانى ، قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن الوزير الواسطى ، حدثنا إسحاق الأزرق ، عن سفيان الثورى ، عن أبى سفيان ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد الخدرى قال : كانت بنو سَلِمة فى ناحية من المدينة ، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قريب من المسجد ، فنزلت : (إنا نحن نحيى الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم) ، فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : « إن آثاركم تُكْتَبُ » : فلم ينتقلوا .

انفرد بإخراجه الترمذى عند تفسير هذه الآية الكريمة ، عن محمد بن الوزير ، به . ثم قال : « حسن غريب من حديث الثورى(٥) » .

ورواه ابن جرير ، عن سليمان بن عمر بن خالد الرقى ، عن ابن المبارك ، عن سفيان الثورى ، عن طريف — وهو ابن شهاب أبو سفيان السعدى — عن أبى نضرة ، به(٦) .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٢/١٠٠ .
(٢) أى تمحوه وتذهبه .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٣/٣٣٢ — ٣٣٣ .
(٤) مسلم ، كتاب المساجد ، باب « فضل كثرة الخطا إلى المساجد » : ٢/١٣١ .
(٥) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة يس ، الحديث ٣٢٧٩ : ٩/٩٤ — ٩٥ .
(٦) تفسير الطبرى : ٢٢/١٠٠ .

وقد رُوِيَ من غير طريق الثوري ، فقال الحافظ أبو بكر البزار :

حدثنا عباد بن زياد الساجي ، حدثنا عثمان بن عمر ، حدثنا شعبة ، عن سعيد الجُرَيري ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد قال : إن بني سَلِمة شكَوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد منازلهم من المسجد ، فنزلت : (ونكتب ما قدموا وآثارهم) ، فأقاموا في مكانهم .

وحدثنا ابن المثنى ، حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا الجُرَيري ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، بنحوه .

وفيه غرابة مِن حيثُ ذِكْرُ نزول هذه الآية ، والسورة بكمالها مكية ، فالله أعلم .

الحديث الثالث ، قال ابن جرير :

حدثنا نصر بن علي الجهضمي ، حدثنا أبو أحمد الزبيري ، حدثنا إسرائيل ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كانت منازل الأنصار متباعدة من المسجد ، فأرادوا أن ينتقلوا إلى المسجد ، فنزلت : (ونكتب ما قدموا وآثارهم) ، فقالوا : نثبت مكاننا . هكذا رواه وليس فيه شيء مرفوع .

ورواه الطبراني عن عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم ، عن محمد بن يوسف الفريابي ، عن إسرائيل ، عن سماك ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كانت الأنصار بعيدة منازلهم من المسجد ، فأرادوا أن يتحولوا إلى المسجد ، فنزلت : (ونكتب ما قدموا وآثارهم) ، فثبتوا في منازلهم .

الحديث الرابع ، قال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لَهِيعة ، حدثني حُيَيّ بن عبد الله ، عن أبي عبدالرحمن الحُبُلي ، عن عبد الله عمرو قال : توفي رجل بالمدينة ، فصلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : « ياليته مات في غير مولده » . فقال رجل من الناس : ولم يارسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل إذا توفي في غير مولده ، قيس له من مولده إلى منقطع أثره في الجنة(١) » .

ورواه النسائي عن يونس بن عبد الأعلى ، وابن ماجه عن حرملة ، كلاهما عن ابن وهب ، عن حيي بن عبد الله ، به(٢)

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا أبو تميلة ، حدثنا الحسين ، عن ثابت قال : مشيت مع أنس فأسرعتُ المشي ، فأخذ بيدي فمشينا رويداً ، فلما قضينا الصلاة قال أنس : مشيت مع زيد بن ثابت فأسرعت المشي ، فقال : يا أنس ، أما شَعَرتَ أن الآثار تكتب ؟ أما شَعَرتَ أن الآثار تكتب؟ .

وهذا القول لا تنافي بينه وبين الأول ، بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأحرى ، فإنه إذا كانت هذه الآثار تُكتَب ، فلأنْ تُكْتَبَ تلك التي فيها قُدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى ، والله أعلم .

وقوله : (وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) ، أي : جميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ ، والإمام المبين هنا هو أم الكتاب . قاله مجاهد ، وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وكذا في قوله تعالى :

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢/٧٧ .

(٢) النسائي ، كتاب الجنائز ، باب « الموت بغير مولده » : ٤/٧ – ٨ . وسنن ابن ماجه ، كتاب الجنائز أيضاً ، باب « ماجاء فيمن مات غريباً » ، الحديث ١٦١٤ : ١/٥١٥ .

(يوم ندعوا كل أناس بإمامهم)(١) ، أى : بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عملوه من خير وشر ، كما قال تعالى : (ووضع الكتاب ، وجىء بالنبيين والشهداء(٢)) ، وقال تعالى : (ووضع الكتاب، فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون : ياويلتنا ، ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ، ولا يظلم ربك أحد(٣)) .

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾

يقول تعالى : واضرب ــ يامحمد ــ لقومك الذين كذبوك (مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون) .

قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس ، وكعب الأحبار ، ووهب بن منبه : أنها مدينة أنطاكية ، وكان بها ملك يقال له : انطيخس بن انطيخس بن انطيخس ، وكان يعبد الأصنام ، فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل ، وهم : صادق وصدوق وشلوم ، فكذبهم(٤) .

وهكذا رُوى عن بُرَيْدة بن الحُصَيب ، وعكرمة ، وقتادة ، والزهرى : أنها أنطاكية .

وقد استشكل بعضُ الأئمة كونَها أنطاكية ، بما سنذكره بعد تمام القصة ، إن شاء الله تعالى .

وقوله : (إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما) ، أى : بادروهما بالتكذيب ، (فعززنا بثالث) ، أى : قويناهم وشددنا أزرهما برسول ثالث .

قال ابن جريج ، عن وهب بن سليمان ، عن شعيب الجبائى قال : كان اسم الرسولين الأولين شمعون ويوحنا ، واسم الثالث بولص ، والقرية انطاكية .

(فقالوا) ، أى : لأهل تلك القرية : (إنا إليكم مرسلون) ، أى : من ربكم الذى خلقكم ، نأمركم بعبادته وحده لا شريك له ، قاله أبو العالية .

وزعم قتادة بن دعامة : أنهم كانوا رسل المسيح عليه السلام إلى أهل أنطاكية ، (قالوا : ما أنتم إلا بشر مثلنا) ، أى : فكيف أوحى إليكم وأنتم بشر ونحن بشر ، فلم لا أوحىَ إلينا مثلكم ؟ ، ولو كنتم رسلا لكنتم ملائكة . وهذه شُبْهَة كثير من الأمم المكذبة ، كما أخبر الله تعالى عنهم فى قوله : (ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ، فقالوا : أبشر يهدوننا ؟ (٥)) ، فاستعجبوا من ذلك وأنكروه، وقوله : (قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا ، تريدون أن تصدونا عما كان يعبد

(١) سورة الإسراء ، آية : ٧١ .
(٢) سورة الزمر ، آية ٦٩ .
(٣) سورة الكهف ، آية : ٤٩ .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٢/ ١٠١ .
(٥) سورة التغابن ، آية : ٦ .

آباؤنا ، فائتونا بسلطان مبين) (١) . وقوله حكاية عنهم فى قوله : (ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون) (٢) ، (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا) (٣) . ولهذا قال هؤلاء : (ما أنتم إلا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شىء إن أنتم إلا تكذبون . قالوا : ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون) ، أى : أجابتهم رُسُلهم الثلاثة قائلين : الله يعلم أنا رسله إليكم ، ولو كنا كذَبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام ، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم ، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار ، كقوله تعالى : (قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا ، يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون) (٤) .

(وما علينا إلا البلاغ المبين) ، يقولون : إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم ، فإن أطعتم كانت لكم السعادة فى الدنيا والآخرة ، وإن لم تجيبوا فستعلمون غِبَّ ذلك(٥) والله أعلم .

قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾

فعند ذلك قال لهم أهل القرية : (إنا تطيرنا بكم) ، أى : لم نر على وجوهكم خيراً فى عيشنا .

وقال قتادة : يقولون : إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم(٦) .

وقال مجاهد : يقولون : لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عُذّب أهلها .

(لئن لم تنتهوا لنرجمنكم) ، قال قتادة : بالحجارة . وقال مجاهد : بالشتم .

(وليمسنكم منا عذاب أليم) ، أى : عقوبة شديدة . فقالت لهم رسلهم : (طائركم معكم) ، أى : مردود عليكم ، كقوله تعالى فى قوم فرعون : (فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ، ألا إنما طائرهم عند الله)(٧) ، وقال قوم صالح : (اطيرنا بك وبمن معك ، قال : طائركم عند الله) (٨) — وقال قتادة ، ووهب بن منبه : أى أعمالكم معكم — وقال تعالى : (وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك ، قل : كل من عند الله ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) ؟ (٩) .

---

(١) سورة إبراهيم ، آية : ١٠ .
(٢) سورة المؤمنون ، آية : ٣٤ .
(٣) سورة الإسراء ، آية : ٩٤ .
(٤) سورة العنكبوت ، آية : ٥٢ .
(٥) أى : عاقبته .
(٦) تفسير الطبرى : ٢٢ / ١٠١ – ١٠٢ .
(٧) سورة الأعراف ، آية : ١٣١ .
(٨) سورة النمل ، آية : ٤٧ .
(٩) سورة النساء ، آية : ٧٨ .

وقوله : (أئن ذكرتم ، بل أنتم قوم مسرفون) ، أى : من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له ، قابلتمونا بهذا الكلام ، وتوعدتمونا وتهددتمونا ؟ : بل أنتم قوم مسرفون .

وقال قتادة ، أى : إن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا ، بل أنتم قوم مسرفون(١) .

وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾

قال ابن إسحاق – فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه – : إن أهل القرية همّوا بقتل رسلهم فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى ، أى : لينصرهم من قومه – قالوا : وهو حبيب ، وكان يعمل الجَرير – وهو الحبال – وكان رجلا سقيما ، قد أسرع فيه الجذام ، وكان كثير الصدقة ، يتصدق بنصف كسبه ، مستقيم النظرة .

وقال ابن إسحاق عن رجل سماه(٢) ، عن الحكم ، عن مِقْسَم – أو : عن مجاهد – عن ابن عباس قال : اسم صاحب يس حبيب ، وكان الجذام قد أسرع فيه .

وقال الثورى ، عن عاصم الأحول ، عن أبى مجلز : كان اسمه حبيب بن مرى .

وقال شبيب بن بشر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : اسم صاحب يس حبيب النجار ، فقتله قومه .

وقال السدى : كان قَصَّارا (٣) . وقال عمر بن الحكم : كان إسكافا . وقال قتادة : كان يتعبد فى غار هناك .

(قال : يا قوم ، اتبعوا المرسلين) ، يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم ، (اتبعوا من لا يسألكم أجرا) ، أى : على إبلاغ الرسالة ، (وهم مهتدون) فيما يدعونكم إليه ، من عبادة الله وحده لا شريك له .

(ومالى لا أعبد الذى فطرنى) ، أى : وما يمنعنى من إخلاص العبادة للذى خلقنى وحده لا شريك له ، (وإليه ترجعون) ، أى : يوم المعاد ، فيجازيكم على أعمالكم ، إن خيرا فخير ، وإن شراً فشر .

(أأتخذ من دونه آلهة) ، استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع ، (إن يردن الرحمن بضر ، لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون) ، أى : هذه الآلهة التى تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئا ، فإن الله لو أرادنى بسوء (فلا كاشف له إلا هو(٤)) : وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه ، ولا ينقذوننى مما أنا فيه ، (إنى إذاً لفى ضلال مبين) ، أى : إن اتخذتها آلهة من دون الله .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٠٢/٢٢ .

(٢) فى تفسير الطبرى ١٠٣/٢٢ : « عن ابن إسحاق ، عن الحسن بن عمارة ، عن الحكم . . . » .

(٣) يقال : قصر الثوب ، قصارة ، وقصره – بالتشديد : حوره أى بيضه – ودقه بالقصرة – بفتح القاف والصاد – وهى قطعة من الخشب .

(٤) سورة يونس ، آية : ١٠٧ .

وقوله : (إنى آمنت بربكم فاسمعون) ــ قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب ، يقول لقومه : (إنى آمنت بربكم) ، الذى كفرتم به ، (فاسمعون) ، أى : فاسمعوا قولى (١) .

ويحتمل أن يكون خطابه للرسل بقوله : (إنى آمنت بربكم) ، أى : الذى أرسلكم ، (فاسمعون) ، أى : فاشهدوا لى بذلك عنده . وقد حكاه ابن جرير فقال : وقال آخرون : بل خاطب بذلك الرسل ، وقال لهم : اسمعوا قولى ، لتشهدوا لى بما أقول لكم عند ربى ، إنى آمنت بربكم واتبعتكم (٢) .

وهذا الذى حكاه عن هؤلاء أظهر فى المعنى ، والله أعلم .

قال ابن إسحاق ــ فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب ــ : فلما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه ، ولم يكن له أحد يمنع عنه .

وقال قتادة : جعلوا يرجمونه بالحجارة ، وهو يقول : « اللهم ، اهد قومى ، فإنهم لا يعلمون » ، فلم يزالوا به حتى أقعصوه وهو يقول كذلك ، فقتلوه رحمه الله .

قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾

قال محمد بن إسحاق ، عن بعض أصحابه ، عن ابن مسعود : أنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُهُ (٣) من دبره . وقال الله له : (ادخل الجنة) ، فدخلها فهو يرزق منها ، قد أذهب الله عنه سُقْمَ الدنيا وحُزْنَها ونَصَبَها .

وقال مجاهد : قيل لحبيب النجار : ادخل الجنة . وذلك أنه قُتِل فوجبت له ، فلما رأى الثواب (قال : يا ليت قومى يعلمون) .

قال قتادة : لا تلقى المؤمن إلا ناصحا ، لا تلقاه غاشا ؛ لَمَّا عاين من كرامة الله (قال : يا ليت قومى يعلمون . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) ، تمنى [على](٤) الله أن يعلم قومُه ما عاين من كرامة الله ، وما هجم عليه (٥) .

وقال ابن عباس : نصح قومه فى حياته بقوله : (يا قوم اتبعوا المرسلين) ، وبعد مماته فى قوله : (ياليت قومى يعلمون . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) . رواه ابن أبى حاتم .

وقال سفيان الثورى ، عن عاصم الأحول ، عن أبى مجلز : (بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) ، بإيمانى بربى وتصديقى المرسلين .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٢/١٠٣ – ١٠٤ .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٢/١٠٤ .

(٣) القصب – بضم فسكون – : المعى ، وجمعه أقصاب . وقيل : القصب اسم للأمعاء كلها . وقيل : هو مكان أسفل البطن من الأمعاء .

(٤) فى المخطوطة : « تمنى والله » . والمثبت عن تفسير الطبرى .

(٥) تفسير الطبرى : ٢٢/١٠٤ .

ومقصوده أنهم لو اطلعوا على ما حصّل من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم ، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل ، فرحمه الله ورضي عنه ، فلقد كان حريصا على هداية قومه .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا هشام بن عبيد الله ، حدثنا ابن جابر ــ وهو محمد ــ عن عبد الملك ــ يعني ابن عمير ــ قال : قال عروة بن مسعود الثقفي للنبي صلى الله عليه وسلم : ابعثني إلى قومي أدعوهم إلى الإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني أخاف أن يقتلوك » . فقال : لو وجدوني نائما [ما] أيقظوني . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انطلق » . فانطلق فمر على اللات والعزى ، فقال : لأصبّحنّك غدا بما يسوؤك . فغضبت ثقيف ، فقال : يا معشر ثقيف ، إن اللات لا لات ، وإن العزّى لا عزّى ، أسلموا تسلموا . يا معشر الأحلاف ، إن العزى لا عزى ، وإن اللات لا لات ، أسلموا تسلموا . قال ذلك ثلاث مرات ، فرماه رجل فأصاب أكْحَله(١) فقتله ، فبلغ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « هذا مثله كمثل صاحب يس » ، (قال : يا ليت قومي يعلمون . بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين) .

وقال محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن مَعمر بن حَزْم : أنه حدث عن كعب الأحبار : أنه ذُكر له حبيب بن زيد بن عاصم ــ أخو بني مازن بن النجار ــ الذي كان مسيلمة الكذاب قَطّعه باليمامة ، حين جعل يسأله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل يقول له : أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ فيقول : نعم . ثم يقول : أتشهد أني رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع . فيقول له مسيلمة : أتسمع هذا ولا تسمع ذاك ؟ فيقول : نعم . فجعل يُقَطّعه عضوا عضوا ، كلما سأله لم يزده على ذلك حتى مات في يديه . فقال كعب حين قيل له : اسمه حبيب ، وكان والله صاحب يس اسمه حبيب (٢) .

وقوله : (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين) ، يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه ، غضباً منه تعالى عليهم ، لأنهم كذبوا رسله ، وقتلوا وليه . ويذكر تعالى : أنه ما أنزل عليهم ، وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم ، بل الأمر كان أيسر من ذلك . قاله ابن مسعود ، فيما رواه ابن إسحاق ، عن بعض أصحابه ، عنه أنه قال في قوله : (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين) ، أي : ما كاثرناهم بالجموع الأمر كان أيسر علينا من ذلك ، (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) ، قال : فأهلك الله ذلك الملك ، وأهلك أهل أنطاكيه ، فبادوا عن وجه الأرض ، فلم يبق منهم باقية (٣) .

وقيل : (وما كنا منزلين) ، أي : وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم ، بل نبعث عليهم عذابا يدمرهم .

وقيل : المعنى في قوله : (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء) ، أي : من رسالة أخرى إليهم ، قاله مجاهد وقتادة . قال قتادة : فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله ، (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) (٤) .

قال ابن جرير : والأول أصح ، لأن الرسالة لا تسمى جنداً .

---

(١) الأكحل : عرق في وسط الذراع يكثر فصده .
(٢) تفسير الطبري : ٢٢/١٠٣ .
(٣) تفسير الطبري : ٢٣/٢ ــ ٣ .
(٤) تفسير الطبري : ٢٣/٢ .

قال المفسرون ، بعث الله إليهم جبريل — عليه السلام — فأخذ بعضادتي (١) باب بلدهم ، ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون عن آخرهم ، لم تبق بهم روح تتردد فى جسد :

وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هي أنطاكية ، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلا : من عند المسيح — عليه السلام — كما نص عليه قتادة وغيره ، وهو الذى لم يذكر عن واحد من متأخري المفسرين غيره ، وفى ذلك نظر من وجوه :

أحدها : أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله عز وجل ، لا من جهة المسيح ، كما قال تعالى : (إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما ، فعززنا بثالث ، فقالوا : إنا إليكم مرسلون) .: إلى أن قالوا : (ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين) ، ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام ، والله أعلم : ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : (إن أنتم إلا بشر مثلنا) :

الثانى : أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم ، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح ، ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة اللاتى فيهن بتاركة ، وهن القدس لأنها بلد المسيح ، وأنطاكية لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها ، والإسكندرية لأن فيها اصطلحوا على اتخاذ البتاركة والمطارنة والأسقافة والقساوسة والشمامسة والرهابين ؛ ثم رومية لأنها مدينة الملك قسطنطين الذى نصر دينهم وأطده : ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البترك من رومية إليها ، كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريخهم كسعيد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين ، فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت ، فأهل هذه القرية قد ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله ، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم ، فالله أعلم :

الثالث : أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة ، وقد ذكر أبو سعيد الخدرى وغير واحد من السلف : أن الله تعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين ، ذكروه عند قوله تعالى : (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى (٢)) : فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة فى القرآن قرية أخرى غير أنطاكية ، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضا : أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظا فى هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة ، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا فى الملة النصرانية ولا قبل ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم :

فأما الحديث الذى رواه الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا الحسين بن إسحاق التستري ، حدثنا الحسين بن أبى السرى العسقلانى ، حدثنا حسين الأشقر ، حدثنا ابن عيينة ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « السبق ثلاثة : فالسابق إلى موسى يوشع بن نون ، والسابق إلى عيسى صاحب يس ، والسابق إلى محمد على ابن أبى طالب » — فإنه حديث منكر ، لا يعرف إلا من طريق حسين الأشقر ، وهو شيعيّ متروك :

---

(١) عضادتا الباب : ناحيتاه .

(٢) سورة القصص ، آية : ٤٣ .

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : (يا حسرة على العباد) ، أى : يا ويل العباد (١) .

وقال قتادة : (يا حسرة على العباد) ، أى : يا حسرة العباد على أنفسها ، على ما ضيعت من أمر الله ، فرطت فى جنب الله ــ قال : وفى بعض القراءة : « يا حسرة العباد على أنفسها » .

ومعنى هذا : يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب ، كيف كذبوا رسل الله ، وخالفوا أمر الله ، فإنهم كانوا فى الدار الدنيا المكذبون منهم :

(ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) ، اى : يكذبونه ويستهزئون به ، ويجحدون ما أرسل به من الحق .

ثم قال تعالى : (ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون) ، أى : ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل ، كيف لم تكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة ، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم وفجرتهم من قولهم : (إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيى (٢)) ، وهم القائلون بالدور من الدهرية ، وهم الذين يعتقدون جهلا منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها فرد الله تعالى عليهم باطلهم ، فقال : (ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون) .

وقوله : (وإن كل لما جميع لدينا محضرون) ، اى : وإن جميع الامم الماضية والاتية ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدى الله عز وجل ، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها ، ومعنى هذه كقوله تعالى : (وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم (٣)) .

وقد اختلف القراء فى أداء هذا الحرف ، فمنهم من قرأ : (وإن كل لَمَا) بالتخفيف ، فعنده أن « إن » للإثبات ، ومنهم من شدد (لَمّا) ، وجعل « إن » نافية ، و « لمّا » بمعنى إلا تقديره : وما كل إلا جميع لدينا محضرون (٤) ، ومعنى القراءتين واحد ، والله أعلم .

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى : (وآية لهم) ، أى : دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه الموتى (الأرض الميتة) ، أى : إذا كانت ميتة هامدة لا شئ فيها من النبات ، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ، ولهذا قال :

(١) تفسير الطبرى : ٢٣/٣ .
(٢) سورة « المؤمنون » ، آية : ٣٧ .
(٣) سورة هود ، آية : ١١١ .
(٤) انظر تفسير الطبرى : ٢٣/٤ .

(أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون) ، أى : جعلناه رزقا لهم ولأنعامهم ، (وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون) ، أى : جعلنا فيها أنهاراً سارحة فى أمكنة ، يحتاجون إليها ليأكلوا من ثمره : لما امتن على خلقه بإيجاد الزروع لهم عَطَف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها .

وقوله : (وما عملته أيديهم) ، أى : وما ذاك كله إلا من رحمة الله بهم ، لا بسعيهم ولا كدهم ، ولا بحولهم وقوتهم ، قاله ابن عباس وقتادة . ولهذا قال : (أفلا يشكرون) ، أى : فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التى لا تعد ولا تحصى . واختار ابن جرير – بل جزم به ، ولم يحك غيره إلا احتمالا – أن « ما » فى قوله : (وما عملته أيديهم) ، بمعنى « الذى » ، تقديره : ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم ، أى : غرسوه ونصبوه ، قال : وهى كذلك فى قراءة ابن مسعود (ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم أفلا يشكرون) :

ثم قال : (سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض) ، أى : من زروع وثمار ونبات ، (ومن أنفسهم) ، فجعلهم ذكراً وأنثى ، (ومما لا يعلمون) ، أى : من مخلوقات شتى لا يعرفونها ، كما قال تعالى : (ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) (١) .

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى : ومن الدلالة لهم على قدرته – تعالى – العظيمة خَلْقُ الليل والنهار ، هذا بظلامه وهذا بضيائه ، وجعلهما يتعاقبان ، يجئُ هذا فيذهب هذا ، ويذهب هذا فيجئُ هذا ، كما قال : (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً) (٢) ولهذا قال هاهنا : (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار) ، أى : نصرمه منه فيذهب ، فيقبل الليل ، ولهذا قال : (فإذا هم مظلمون) ، كما جاء فى الحديث : « إذا أقبل الليل من هاهنا ، وأدبر النهار من هاهنا ، وغربت الشمس ، فقد أفطر الصائم » (٣) .

هذا هو الظاهر من الآية ، وزعم قتادة أنها كقوله تعالى : (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) (٤) : وقد ضعف ابن جرير قولَ قتادة هاهنا ، وقال : إنما معنى الإيلاج (٥) الأخذُ من هذا فى هذا ، وليس هذا مرادا فى هذه الآية (٦) : وهذا الذى قاله ابن جرير حق :

---

(١) سورة الذاريات ، آية : ٤٩ .
(٢) سورة الأعراف ، آية : ٥٤ .
(٣) مسلم ، كتاب الصوم ، باب « بيان وقت انقضاء الصوم وخروج النهار » : ٣/١٣٢ . والبخارى ، كتاب الطلاق ، باب « الإشارة فى الطلاق والأمور » : ٧/٦٦ – ٦٧ . ومسند الإمام أحمد عن عبد الله بن أبى أوفى : ٤/٣٨٠ .
(٤) سورة الحج ، آية : ٦١ .
(٥) انظر معنى الإيلاج فى : ٥/٤٤٥ ، ٦/٣٥٢ .
(٦) تفسير الطبرى : ٢٢/٥ .

وقوله : (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) ، فى معنى قوله : (لمستقر لها) قولان ، أحدهما : أن المراد مستقرها المكانى ، وهو تحت العرش مما يلى الأرض من ذلك الجانب ، وهى أينما كانت فهى تحت العرش هى وجميع المخلوقات ، لأنه سقفها ، وليس بكُرَة كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة ، وإنما هو قبة ذات قوائم تحمله الملائكة ، وهو فوق العالم مما يلى رءوس الناس ، فالشمس إذا كانت فى قبة الفلك وقت الظهيرة تكون أقرب ما تكون إلى العرش ، فإذا استدارت فى فلكها الرابع إلى مقابلة هذا المقام ، وهو وقت نصف الليل ، صارت أبعد ما تكون من العرش ، فحينئذ تسجد وتستأذن فى الطلوع ، كما جاءت بذلك الأحاديث :

قال البخارى : حدثنا أبو نُعَيم ، حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم ، عن أبيه ، عن أبى ذر ــ رضى الله عنه ــ قال : كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى المسجد عند غروب الشمس ، فقال : يا أبا ذر ، أتدرى أين تَغْرُبُ الشمس ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش ، فذلك قوله : (والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم) .

حدثنا عبد الله بن الزبير الحُمَيدىّ ، حدثنا وكيع عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن أبيه ، عن أبى ذر قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : (والشمس تجرى لمستقر لها) ، قال : مستقرها تحت العرش (١) .

كذا أورده هاهنا . وقد أخرجه فى أماكن متعددة (٢) ، ورواه بقية الجماعة إلا ابن ماجه ، من طرق ، عن الأعمش ، به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم التيمى ، عن أبيه ، عن أبى ذر قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد حين وجبت الشمس (٣) ، فقال : يا أبا ذر ، تدرى أين تذهب الشمس ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنها تذهب حتى تسجد بين يدى ربها عز وجل ، فتستأذن فى الرجوع فيؤذن لها ، وكأنها قد قيل لها : ارجعى من حيث جئت . فترجع إلى مطلعها ، وذلك مستقرها ، ثم قرأ : (والشمس تجرى لمستقر لها (٤)) .

وقال سفيان الثورى ، عن الأعمش ، عن إبراهيم التيمى ، عن أبيه ، عن أبى ذر ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ لأبى ذر حين غربت الشمس : أتدرى أين تذهب ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنها تذهب حتى تسجد [تحت] العرش ، فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها ؟ وتستأذن فلا يؤذن لها ، ويقال لها : ارجعى من حيث جئت . فتطلع من مغربها ، فذلك قوله : (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن أبى إسحاق ، عن وهب بن جابر ، عن عبد الله بن عمرو قال : فى قوله : (والشمس تجرى لمستقر لها) ، قال : إن الشمس تطلع فتردها ذنوب بنى آدم ، حتى إذا غربت سلّمت وسجدت واستأذنت فيؤذن لها ، حتى إذا كان يوم غربت فسلمت وسجدت ، واستأذنت فلا يؤذن لها ، فتقول : إن المسير بعيد وإنى [إن] لا يؤذن لى

---

(١) البخارى ، تفسير سورة يس : ٦/١٥٤ .
(٢) انظر : ٦/٢٥٢ ، التعليق رقم : ٥ .
(٣) أى : سقطت مع المغيب .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٥/١٥٢ .

لا أبلغ ، فتحبس ماشاء الله أن تحبس ، ثم يقال لها : « اطلعى من حيث غربت» قال: فمن يومئذ إلى يوم القيامة لاينفع نفساً إيمانها ، لم تكن آمنت من قبل ، أوكسبت فى إيمانها خيراً .

وقيل المراد بقوله : (لمستقر لها)، هوانتهاء سيرها وهو غاية ارتفاعها فى السماء فى الصيف وهو أوجها ، ثم غاية انخفاضها فى الشتاء وهو الحضيض .

والقول الثانى : أن المراد بمستقرها هو : منتهى سيرها ، وهو يوم القيامة ، يبطل سيرها وتسكن حركتها وتكور ، وينتهى هذا العالم إلى غايته ، وهذا هو مستقرها الزمانى .

قال قتادة : (لمستقر لها) ، أى : لوقتها ولأجل لاتعدوه (١) ؛

، قيل : المراد أنها لاتزال تنتقل فى مطالعها الصيفية إلى مدة لا تزيد عليها، ثم تنتقل فى مطالع الشتاء إلى مدة لاتزيد عليها يروى هذا عن عبد الله بن عمرو .

وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس: (والشمس تجري ، لامستقرلها) (٢)، أى : لاقرارلها ولاسكون ، بل هي سائرة ليلا ونهاراً ، لاتفتر ولاتقف . كما قال تعالى : (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) ، أى : لايفتران ولايقفان إلى يوم القيامة .

(ذلك تقدير العزيز) ، أى : الذى لا يخالَف ولايُمانَع ، (العليم) بجميع الحركات والسكنات ، وقد قدر ذلك وقنّنَه على منوال لا اختلاف فيه ولاتعاكس، كما قال تعالى: (فالق الإصباح وجاعل(٣) الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً، ذلك تقدير العزيز العليم) (٤) . وهكذا ختم آية « حم السجدة » بقوله :(ذلك تقدير العزيز العليم)(٥) .

ثم قال : (والقمر قدرناه منازل) ، أى جعلناه يسير سيراً آخر يستدل به على مضى الشهور ، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار ، كما قال تعالى : (يسألونك عن الأهلة قل: هى مواقيت للناس والحج) (٦) ، وقال : (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب)(٧) . . . الآية وقال : (وجعلنا الليل والنهار آيتين، فمحونا آية الليل ، وجعلنا آية النهار مبصرة ، لتبتغوا فضلا من ربكم ، ولتعلموا عدد السنين والحساب ، وكل شيء فصلناه تفصيلا)(٨) . فجعل الشمس لها ضوء يخصها ،والقمر له نور يخصه ، وفاوت بين سير هذه وهذا ، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب فى آخره على ضوء واحد ، ولكن تنتقل فى مطالعها ومغاربها صيفاً وشتاء ، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل ،

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٣/٥ .
(٢) البحر المحيط : ٣٣٦/٧ .
(٣) كذا فى مخطوطة الأزهر : « وجاعل » وهى قراءة خرجناها عند هذه الآية ، انظر : ٢٩٧/٣ .
(٤) سورة الأنعام ، آية : ٩٦ .
(٥) سورة فصلت ، آية : ١٢ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ١٨٩ .
(٧) سورة يونس ، آية : ٥ .
(٨) سورة الإسراء ، آية : ١٢ .

ثم يطول الليل ويقصر النهار ، وجعل سلطانها بالنهار ، فهى كوكب نهارى . وأما القمر فقدره منازل ، يطلع فى أول ليلة من الشهر ضئيلا قليل النور ، ثم يزداد نوراً فى الليلة الثانية ، ويرتفع منزلة ، ثم كلما ارتفع ازداد ضياء ، وإن كان مقتبساً من الشمس ، حتى يتكامل نوره فى الليلة الرابعة عشرة ، ثم يشرع فى النقص إلى آخر الشهر ، حتى يصير كالعرجون القديم .

قال ابن عباس : وهو أصل العِذْق(١) .

وقال مجاهد : العرجون القديم ، أى : العذق اليابس .

يعنى ابن عباس أصل العنقود من الرطب إذا عتُق(٢) ويبس وانحنى ، وكذا قال غيرهما : ثم بعد هذا يبديه الله جديداً فى أول الشهر الآخر ، والعرب تسمى كل ثلاث ليال من الشهر باسم باعتبار القمر ، فيسمون الثلاث الأول « غُرَر » ، واللواتى بعدها « نُفَل » ، واللواتى بعدها « تُسَع » لأن أخراهن التاسعة ، واللواتى بعدها « عُشَر » ، لأن أولاهن العاشرة ، واللواتى بعدها « البيض » لأن ضوء القمر فيهن إلى آخرهن ، واللواتى بعدهن « دُرَع »(٣) جمع دَرْعاء ، لأن أولهن سُود ، لتأخر القمر فى أولهن ، ومنه الشاة الدرعاء وهى التى رأسها أسود . وبعدهن ثلاث « ظُلَم » ثم ثلاث « حَنَادس » ، وثلاث « دَآدىء »(٤) ، وثلاث « مِحَاق » ، لانمحاق القمر أواخر الشهر فيهن . وكان أبو عُبَيد(٥) ينكر التُسَع والعُشَر . كذا قال فى كتاب « غريب المصنف » .

وقوله : (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر) ، قال مجاهد : لكل منهما حد لا يعدوه ولا يُقَصّر دونه ، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا ، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا(٦) .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن الحسن فى قوله : (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر) ، قال : ذلك ليلة الهلال .

وروى ابن أبى حاتم هاهنا عن عبد الله بن المبارك أنه قال : إن للريح جناحاً ، وإن القمر يأوى إلى غلاف من الماء .

وقال الثورى ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن أبى صالح : لا يدرك هذا ضوء هذا ، ولا هذا ضوء هذا .

وقال عكرمة : (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر) ، يعنى أن لكل منهما سلطاناً ، فلا ينبغى للشمس أن تطلع بالليل .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٣/٦ .

(٢) أى : قدم ومضت عليه فترة جف فيها .

(٣) ضبط فى اللسان مادة « درع » بضم فسكون . وفى مادة « ظلم » ضبط بضم ففتح ، ونقل ابن منظور عن أبى عبيد أنه قال : والواحدة من الدرع والظلم : درعاء وظلماء » . ثم قال ابن منظور : « وقال أبو الهيثم وأبو العباس المبرد : واحدة الدرع والظلم – يعنى بضم ففتح – درعة وظلمة – يعنى بضم فسكون . قال أبو منصور : وهذا الذى قالاه هو القياس الصحيح » .

(٤) فى اللسان ، مادة « دأدأ » : وفى الصحاح : الدآدئ : ثلاث ليال من آخر الشهر قبل ليالى المحاق . والمحاق آخرها وقيل : هى هى » ونقل ابن منظور عن أبى الهيثم أنهن الليالى الثلاث التى بعد المحاق ، سمين دآدئ لأن القمر يدأدئ إلى الغيوب ، أى يسرع ، من دأدأة البعير » .

(٥) فى المخطوطة : « وأبو عبيدة » ، بالهاء . والصواب « أبو عبيد » . وهو القاسم بن سلام صاحب الغريب المصنف .

(٦) تفسير الطبرى ٢٣ : ٦ .

وقوله : (ولا الليل سابق النهار) ، يقول : لاينبغى إذا كان الليلُ أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار ، فسلطان الشمس بالنهار ، وسلطان القمر بالليل .

وقال الضحاك : لا يذهب الليل من هاهنا حتى يجيء النهار من هاهنا ، وأومأ بيده إلى المشرق .

وقال مجاهد : (ولا الليل سابق النهار) : يطّلبان(١) حثيثين ، ينسلخ أحدهما من الآخر .

والمعنى فى هذا : أنه لا فترة بين الليل والنهار ، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ ، لأنهما مسخران دائبين يتطالبان طلباً حثيثاً .

وقوله : (وكل فى فلك يسبحون) ، [يعنى الليل والنهار ، والشمس والقمر ، كلهم يسبحون] ، أى : يدورون فى فلك السماء . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، وعطاء الخراسانى .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : فى فلك بين السماء والأرض . رواه ابن أبى حاتم ، وهو غريب جداً ، بل منكر .

قال ابن عباس وغير واحد من السلف : فى فَلْكة كفَلْكة المغزَل (٢) .

وقال مجاهد : الفَلَك كحديدة الرَّحَى ، أو كفلكة المغزل ، لايدور المغزل إلا بها ، ولا تدور إلا به .

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول تعالى : ودلالة لهم أيضا على قدرته تعالى تسخيره البحر ليحمل السفن ، فن ذلك — بل أوله — سفينة نوح عليه السلام التى أنجاه الله فيها بمن معه من المؤمنين ، الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم غيرهم . ولهذا قال : (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم) ، أى : آباءهم ، (فى الفلك المشحون) ، أى : فى السفينة المملوءة من الأمتعة والحيوانات ، التى أمره الله أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين .

قال ابن عباس : المشحون : المُوقَر (٣) . وكذا قال سعيد بن جبير ، والشعبى ، وقتادة ، والسدى .

وقال الضحاك ، وقتادة ، وابن زيد : وهى سفينة نوح عليه السلام .

وقوله : (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) — قال العوفى ، عن ابن عباس : يعنى بذلك الإبل ، فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبونها . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة — فى رواية — وعبد الله بن شدّاد ، وغيرهم .

---

(١) فى تفسير الطبرى ٢٣/٦ : « يتطالبان » . وفى مخطوطة الأزهر : نسلخ أحدهما » . والمثبت من الطبرى .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٣/٧ .

(٣) أى : المحمل حملا ثقيلا .

وقال السدى ـ فى رواية ـ : هى الأنعام .

وقال ابن جرير : حدثنا الفضل بن الصباح ، حدثنا محمد بن فضيل ، عن عطاء ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس قال : تدرون ما (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) ؟ [قلنا : لا] . قال : هى السفن ، جعلت من بعد سفينة نوح على مثلها(١)

وكذا قال أبومالك ، والضحاك ، وقتادة ، وأبو صالح ، والسدى أيضاً : (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) ، أى : السفن .

ويُقَوِّى هذا المذهب فى المعنى قوله تعالى : (إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية • لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية(٢)) .

وقوله : (وإن نشأ نغرقهم) ، يعنى الذين فى السفن ، (فلا صريخ لهم) ، أى : فلا مغيث لهم مما هم فيه ، (ولا هم ينقذون) ، أى : مما أصابهم ، (إلا رحمة منا) . وهذا استثناء منقطع ، تقديره : لكن برحمتنا نسيركم فى البر والبحر ، ونُسَلِّمكم إلى أجل مسمى ، ولهذا قال : (ومتاعاً إلى حين) ، أى : إلى وقت معلوم عند الله .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن تمادى المشركين فى غيهم وضلالهم ، وعدم اكتراثهم بذنوبهم التى أسلفوها ، وما هم يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة : (وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم) ـ قال مجاهد : من الذنوب . وقال غيره بالعكس ـ (لعلكم ترحمون) ، أى : لعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمنكم من عذابه . وتقدير الكلام : أنهم لايجيبون إلى ذلك ويعرضون عنه . واكتفى عن ذلك بقوله : (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم) ، أى : على التوحيد وصدق الرسل (إلا كانوا عنها معرضين) ، أى : لايتأملونها ولاينتفعون بها .

وقوله : (وإذا قيل لهم : أنفقوا مما رزقكم الله) ، أى : وإذا أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج من المسلمين (قال الذين كفروا للذين آمنوا) ، أى : عن الذين آمنوا من الفقراء ، أى : قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالإنفاق محاجّين لهم فيما أمروهم به : (أنطعم من لويشاء الله أطعمه) ، أى : هؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم ، لوشاء الله لأغناهم ولأطعمهم من رزقه ، فنحن نوافق مشيئة الله فيهم ، (إن أنتم إلا فى ضلال مبين) ، أى : فى أمركم لنا بذلك .

قال ابن جرير : ويحتمل أن يكون من قول الله للكفار حين ناظروا المسلمين وردوا عليهم ، فقال لهم : (إن أنتم إلا فى ضلال مبين)(٣) . وفى هذا نظر .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٣/٨ .
(٢) سورة الحاقة ، آية : ١١ ، ١٢ .
(٣) انظر تفسير الطبرى : ٢٣/ ٩ ـ ١٠ .

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾

يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة فى قولهم : (متى هذا الوعد)؟ (يستعجل بها الذين لايؤمنون بها)(١)، قال الله تعالى : (ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون) ، أى : ما ينتظرون إلا صيحة واحدة، وهذه — والله أعلم— نفخة الفزع ، ينفخ فى الصور نفخة الفزع ، والناس فى أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم ، فبينا هم كذلك إذ أمر الله تعالى إسرافيل فنفخ فى الصور نفخة يُطوّلها ويَمُدّها، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى ليتاً، ورفع ليتاً — وهى صفحة العنق — يتسمع الصوت من قبل السماء . ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار ، تحيط بهم من جوانبهم ، ولهذا قال : (فلا يستطيعون توصية) ، أى : على ما يملكونه ، الأمر أهم من ذلك ، (ولا إلى أهلهم يرجعون) .

وقد وردت هاهنا آثار وأحاديث ذكرناها فى موضع آخر(٢)، ثم تكون بعد هذا نفخة الصعق، التى تموت بها الأحياء كلهم ماعدا الحى القيوم ، ثم بعد ذلك نفخة البعث .

وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

هذه هى النفخة الثالثة ، وهى نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث والقبور ، ولهذا قال : (فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) ، والنَّسلان هو : المشى السريع ، كما قال تعالى : (يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون) (٣) .

(قالوا : ياويلنا من بعثنا من مرقدنا) ؟ يعنون قبورهم التى كانوا يعتقدون فى الدار الدنيا أنهم لايبعثون منها ، فلما عاينوا ماكذبوه فى محشرهم (قالوا : يا ويلنا ! من بعثنا من مرقدنا)، وهذا لاينفى عذابهم فى قبورهم ، لأنه بالنسبة إلى ما بعده فى الشدة كالرقاد .

وقال أبى بن كعب ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة : ينامون نومة قبل البعث(٤) .

قال قتادة : وذلك بين النفختين .

---

(١) سورة الشورى ، آية : ١٨ .

(٢) انظر : ٣/٢٧٦ – ٢٨٢ ، ٦/٢٢٦ .

(٣) سورة المعارج ، آية : ٤٣ .

(٤) تفسير الطبرى : ٢٣/١٢ .

فلذلك يقولون : (من بعثنا من مرقدنا) ، فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون ــ قاله غير واحد من السلف ــ : (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) .

وقال الحسن : إنما يجيبهم بذلك الملائكة .

ولا منافاة إذ الجمع ممكن ، والله أعلم .

وقال عبد الرحمن بن زيد : الجميع من قول الكفار : (ياويلنا ! من بعثنا من مرقدنا ؟ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) .

نقله ابن جرير ، واختار الأول ، وهو أصح ، وذلك كقوله تعالى فى الصافات : (وقالوا: يا ويلنا ! هذا يوم الدين . هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون)(١) وقال تعالى : (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون . وقال الذين أوتوا العلم والإيمان : لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث ، فهذا يوم البعث ، ولكنكم كنتم لا تعلمون)(٢) .

وقوله : (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون) ، كقوله : (فإنما هى زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة)(٣) وقال تعالى : (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر ، أوهو أقرب)(٤) . وقال : (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ، وتظنون إن لبثتم إلا قليلا)(٥) .

أى : إنما نأمرهم أمراً واحداً ، فإذا الجميع محضرون ، (فاليوم لا تظلم نفس شيئاً) ، أى : من عملها ، (ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) .

إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾

يخبر تعالى عن أهل الجنة : أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العَرَصات فنزلوا فى رَوْضات الجنات : أنهم فى شُغُل عن غيرهم ، بما هم فيه من النعيم المقيم ، والفوز العظيم .

قال الحسن البصرى ، وإسماعيل بن أبى خالد : (فى شغل) عما فيه أهل النار من العذاب .

وقال مجاهد : (فى شغل فاكهون) ، أى : فى نعيم معجبون ، أى : به . وكذا قال قتادة .

وقال ابن عباس : (فاكهون) ، أى : فرحون .

---

(١) سورة الصافات ، آية : ٢٠ ، ٢١ .
(٢) سورة الروم ، آية : ٥٥ ، ٥٦ .
(٣) سورة النازعات ، آية : ١٣ ، ١٤ .
(٤) سورة النحل ، آية : ٧٧ .
(٥) سورة الإسراء ، آية : ٥٢ .

وقال عبدالله بن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والأعمش ، وسليمان التيمى ، والأوزاعى فى قوله : (إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون) ، قالوا : شغلهم افتضاض الأبكار(١) .

وقال ابن عباس — فى رواية عنه — : (فى شغل فاكهون) ، أى : بسماع الأوتار .

وقال أبو حاتم : لعله غلط من المستمع ، وإنما هو افتضاض الأبكار .

وقوله : (هم وأزواجهم) — قال مجاهد : وحلائلهم — (فى ظلال) ، [أى : فى ظلال] الأشجار ، (على الأرائك متكئون) .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب ، والحسن ، وقتادة ، والسدى ، وخُصيف : (الأرائك) ، هى : السرر تحت الحجال(٢) .

قلت : نظيره فى الدنيا هذه التخوت تحت البشاخين ، والله أعلم .

وقوله : (لهم فيها فاكهة) ، أى : من جميع أنواعها ، (ولهم ما يدعون) ، أى : مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عوف الحمصى ، حدثنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار ، حدثنا محمد بن مهاجر ، عن الضحاك المَعَافرى ، عن سليمان بن موسى ، حدثنى كُرَيب : أنه سمع أسامة بن زيد يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا هل مُشَمِّر إلى الجنة ؟ فإن الجنة لا خَطَر(٣) لها ، هى — ورب الكعبة — نور كلها يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مَشيد ، ونهر مُطَّرِد(٤) ، وثمرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام فى أبد ، فى دار سلامة ، وفاكهة خضرة وحَبْرَة ونعمة ، ومحلة عالية بَهِيَّة . قالوا : نعم يارسول الله ، نحن المشمِّرون لها . قال : قولوا : « إن شاء الله » . قال القوم : إن شاء الله .

وكذا رواه ابن ماجه فى « كتاب الزهد » من سننه ، من حديث الوليد بن مسلم ، عن محمد بن مُهَاجر ، به(٥) .

وقوله : (سلام قولا من رب رحيم) — قال ابن جريج — : قال ابن عباس فى قوله : (سلام قولا من رب رحيم) : فإن الله نفسه سلام على أهل الجنة .

وهذا الذى قاله ابن عباس كقوله تعالى : (تحيتهم يوم يلقونه سلام(٦)) .

---

(١) انظر تفسير الطبرى : ٢٣/ ١٣ .
(٣) الحجال : جمع حجلة — بفتح الحاء والجيم — وهى : بيت كالقبة يستر بالثياب ، وتكون له أزرار كبار .
(٢) أى : لا مثل لها .
(٤) أى : جار .
(٥) سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « صفة الجنة » ، الحديث ٤٣٣٢ : ٢/ ١٤٤٨ — ١٤٤٩ .
(٦) سورة الأحزاب ، آية : ٤٤ .

وقد روى ابن أبي حاتم هاهنا حديثاً في إسناده نظر ، فانه قال : حدثنا موسى بن يوسف ، حدثنا محمد بن عبد الملك ابن أبي الشوارب ، حدثنا أبو عاصم العبَّادانى ، حدثنا الفضل الرّقاشىّ ، عن محمدبن المنكدر ، عن جابربن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بينا أهل الجنة فى نعيمهم ، إذ سطع لهم نور ، فرفعوا رءوسهم فاذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم ، فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة . فذلك قوله : (سلام قولا من رب رحيم) ، قال : فينظر إليهم وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ماداموا ينظرون إليه ، حتى يحتجب عنهم ، ويبقى نوره وبركته عليهم وفى ديارهم » .

ورواه ابن ماجه فى «كتاب السنة » من سننه ، عن محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب ، به(١)

وقال ابن جرير : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، حدثنا حَرمَلَة ، عن سليمان بن حُمَيد قال : سمعت محمد بن كعب القرظى يحدّث عن عمر بن عبد العزيز قال : إذا فرغ الله من أهل الجنة والنار ، أقبل فى ظُلَل من الغمام والملائكة ، قال : فيسلم على أهل الجنة ، فيردون عليه السلام – قال القرظى : وهذا فى كتاب الله : (سلام قولا من رب رحيم) – فيقول : سلونى : فيقولون : ماذا نسألك أىْ ربّ ؟ قال : بلى سلونى : قالوا : نسألك – أىْ رب – رضاك : قال : رضائى أحلكم دار كرامتى : قالوا : يارب ، فما الذى نسألك ، فوعزتك وجلالك وارتفاع مكانك ، لو قسمت علينا رزق الثقلين لأطعمناهم ولأسقيناهم ولألبسناهم ولأخدمناهم ، لاينقصنا ذلك شيئاً . قال : إن لدىّ مزيداً . قال : فيفعل ذلك بهم فى درجهم ، حتى يستوى فى مجلسه : قال : ثم تأتيهم التحف من الله عز وجل تحملها إليهم الملائكة . ثم ذكر نحوه .

وهذا أثر غريب ، أورده ابن جرير من طرق(٢) .

﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾

يقول تعالى مخبراً عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا ، بمعنى يتميزون عن المؤمنين فى موقفهم ، كقوله تعالى : (ويوم نحشرهم ثم نقول للذين أشركوا : مكانكم أنتم وشركاؤكم ، فزيلنا بينهم(٣)) . وقال تعالى : (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون)(٤) ، (يومئذ يصدعون(٥)) ، أى : يصيرون صِدْعَين فرقتين ، (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله ، فاهدوهم إلى صراط الجحيم(٦)) .

(١) سنن ابن ماجه ، المقدمة ، باب « فيما أنكرت الجهمية » ، الحديث ١٨٤ : ١/٦٥ – ٦٦ .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٣/١٥ .
(٣) سورة يونس ، آية : ٢٨ .
(٤) سورة الروم ، آية : ١٤ .
(٥) سورة الروم ، آية : ٤٣ .
(٦) سورة الصافات ، آية : ٢٢ ، ٢٣ .

وقوله تعالى : (ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لاتعبدوا الشيطان ، إنه لكم عدو مبين) : هذا تقريع من الله للكفرة من بنى آدم ، الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين ، وعصوا الرحمن وهو الذى خلقهم ورزقهم ؛ ولهذا قال : (وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم) ، أى : قد أمرتكم فى دار الدنيا بعصيان الشيطان ، وأمرتكم بعبادتى ، وهذا هو الصراط المستقيم ، فسلكتم غير ذلك واتبعتم الشيطان فيما أمركم به ، ولهذا قال : (ولقد أضل منكم جبلا كثيراً)، يقال : «جِبِلاً» بكسر الجيم ، وتشديد اللام . ويقال : «جُبُلاً» بضم ، الجيم والباء ، وتخفيف اللام ؛ ومنهم من يسكن الباء ؛ والمراد بذلك الخلق الكثير ، قاله مجاهد ، والسدي ، وقتادة ، وسفيان بن عيينة ؛

وقوله : (أفلم تكونوا تعقلون) ، أى : أفما كان لكم عقل فى مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته وحده لاشريك له ، وعدُولكم إلى اتباع الشيطان ؛

قال ابن جرير :حدثنا أبو كريب ،حدثنا عبدالرحمن بن محمد المحاربى ،عن إسماعيل بن رافع ،عمن حدثه عن محمد بن كعب القرظى، عن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كان يوم القيامة أمر الله جهنم فيخرج منها عُنُق ساطع مظلم، يقول : (ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لاتعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين • وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم• ولقد أضل منكم جبلا كثيراً أفلم تكونوا تعقلون • هذه جهنم التى كنتم توعدون) امتازوا اليوم أيها المجرمون . فيتميز الناس ويجثون ، وهى التى يقول الله تعالى: (وترى كل أمة جاثية ، كل أمة تدعى إلى كتابها ، اليوم تجزون ماكنتم تعملون (١))

هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾

يقال للكفرة من بنى آدم يوم القيامة ، وقد برزّت الجحيم لهم تقريعاً وتوبيخاً : (هذه جهنم التى كنتم توعدون) ، أى : هذه التى حذّرتكم الرسل فكذبتموهم، (اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون) ، كما قال تعالى : (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا . هذه النار التى كنتم بها تكذبون • أفسحر هذا أم أنتم لاتبصرون)(٢) .

وقوله تعالى : (اليوم نختم على أفواههم ، وتكلمنا أيديهم ، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) ، هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة ، حين ينكرون ما اجترموه فى الدنيا ، ويحلفون مافعلوه ، فيختم الله على أفواههم ، ويستنطق جوارحهم بما عملت ؛

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو شيبة إبراهيم بن عبد الله بن أبى شيبة ، حدثنا منْجاب بن الحارث التميمى ، حدثنا أبوعامر الأسدى، حدثنا سفيان، عن عبيد المُكْتِب، عن الفُضَيل بن عمرو ، عن الشعبى ، عن أنس بن مالك قال : كنا عند النبى —

(١) تفسير الطبرى : ٢٣ / ١٦ .
(٢) سورة الطور ، الأيات : ١٣ — ١٥ .

صلى الله عليه وسلم ــ فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال : أتدرون مم أضحك؟ ؛ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول : رب، ألم تجرني من الظلم ؟ فيقول : بلى . فيقول : لا أجيز على إلا شاهداً من نفسى . فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك حَسيباً ، وبالكرام الكاتبين شهودا . فيختم على فيه ، ويُقال لأركانه : « انطقى » . فتنطق بعمله، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول : بُعداً لكن وسُحقاً ، فعنكن كنتُ أناضل » .

وقد رواه مسلم والنسائى ، كلاهما عن أبى بكر بن أبى النضر، عن أبى النضر، عن عُبَيد الله بن عبد الرحمن الأشجعى، عن سفيان ــ هو الثورى ــ به . ثم قال النسائى : [لا أعلم(١) أحداً روى هذا الحديث عن سفيان غير الأشجعى، وهو حديث غريب ، والله تعالى أعلم » .

كذا قال ، وقد تقدم(٢) من رواية أبى عامر عبد الملك(٣) بن عمرو الأسدى ــ وهو العَقَدِىّ ــ عن سفيان .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن بَهْز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنكم تُدْعَون مُفَدَّمة(٤) أفواهكم بالفِدَام ، فأول ما يسأل عن أحدكم فخذه وكتفه . رواه النسائى(٥)] عن محمد بن رافع ، عن عبد الرزاق ، به .

وقال سفيان بن عيينة ، عن سُهَيل ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم فى حديث القيامة الطويل ، قال فيه : « ثم يلقى الثالث فيقول : ما أنت ؟ فيقول : أنا عبدك ، آمنت بك وبنبيك وبكتابك ، وصمت وصليت وتصدقت ــ ويثنى بخير ما استطاع ــ قال : فيقال له : ألا نبعث عليك شاهدنا ؟ قال : فيفكر فى نفسه، من الذى يشهد عليه ، فيختم على فيه، ويقال لفخذه : « انطقى » . فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بما كان يعمل ، وذلك المنافق ، وذلك ليعذر من نفسه . وذلك الذى سَخط الله عليه » .

ورواه [مسلم(٦)] وأبو داود ، من حديث سفيان بن عيينة ، به(٧) بطوله .

ثم قال ابن أبى حاتم رحمه الله : حدثنا أبى، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا إسماعيل بن عياش ، حدثنا ضَمْضَم بن زُرْعَة، عن شريح بن عبيد ، عن عقبة بن عامر : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يُختَم على الأفواه، فَخِذُه من الرجل اليسرى » .

---

(١) من هنا وقع سقط فى مخطوطة الأزهر ، وما أثبت من الطبعات السابقة .

(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية الرابعة والعشرين من سورة النور ، وخرجناه هنالك ، انظر : ٦/ ٣٤ .

(٣) فى الطبعات السابقة : « أبى عامر عن عبد الملك » . وأبو عامر هو عبد الملك انظر التهذيب : ٦/ ٤٠٩ .

(٤) فى الطبعات السابقة : « مفدما على أفواهكم » .

وما أثبتناه عن مسند الإمام أحمد : ٥/ ٤ ، ٥ .

والفدام : ما يشد على فم الإبريق والكوز من خرقة لتصفية الشراب الذى فيه ، أى : إنهم يمنعون الكلام بأفواههم حتى تكلم جوارحهم ، فشبه ذلك بالفدام .

(٥) إلى هنا ينتهى السقط الذى أشرنا إليه من قبل .

(٦) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة .

(٧) مسلم ، كتاب الزهد : ٨/ ٢١٦ .

ورواه ابن جرير عن محمد بن عوف ، عن عبد الله بن المبارك ، عن إسماعيل بن عياش ، به مثله(١).

وقد جوّد إسنادَه الإمام أحمد رحمه الله فقال : حدثنا الحكم بن نافع ، حدثنا إسماعيل بن عيّاش ، عن ضَمْضَم بن زُرْعَة ، عن شُرَيح بن عُبَيد الحَضْرَمي، عمن حدّثه عن عقبة بن عامر: أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يُختَم على الأفواه ، فَخِذه من الرجل الشمال(٢) » .

وقال ابن جرير : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عُلَيَّة ، حدثنا يونس بن عُبَيد، عن حُمَيد بن هلال قال : قال أبو بردة: قال أبو موسى هو الأشعري ، رضي الله عنه -: يدعى المؤمن للحساب يوم القيامة ، فيَعرِضُ عليه ربّه عملَه فيما بينه وبينه ، فيعترف فيقول : نعم أيْ ربّ ، عملتُ عملتُ عملت. قال: فيغفر الله له ذنوبه، ويستره منها : قال: فما على الأرض خَليقة ترى من تلك الذنوب شيئاً ، وتبدو حسناته ، فوَدّ أن الناس كلهم يرونها ، ويدعى الكافر والمنافق للحساب ، فيعرض ربه عليه عمله ، فيجحد فيقول : أي رب ، وعزتك لقد كتب على هذا الملَك مالم أعمل . فيقول له الملك : أما عملتَ كذا ، في يوم كذا ، في مكان كذا ؟ فيقول : لا ، وعزتك أيْ رب ماعملتُه : فإذا فعل ذلك خُتِم على فيه — قال أبو موسى الأشعري : فإني أحسب أول ما ينطق منه الفخذ(٣) اليمنى ، ثم تلا : (اليوم نختم على أفواههم ، وتكلمنا أيديهم ، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) (٤) .

وقوله : (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم ، فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون) — قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في تفسيرها : يقول : ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى ، فكيف يهتدون ؟ وقال مرة : أعميناهم .

وقال الحسن البصري : لوشاء الله لطمس على أعينهم ، فجعلهم عُمياً يترددون .

وقال السدي : لو شئنا أعمينا أبصارهم .

قال مجاهد ، وأبو صالح ، وقتادة ، والسدي : (فاستبقوا الصراط) ، يعني الطريق .

وقال ابن زيد : يعني بالصراط هاهنا الحق ، (فأنى يبصرون) ، وقد طمسنا على أعينهم .

وقال العَوفي ، عن ابن عباس : (فأنى يبصرون) : لايبصرون الحق(٥) .

وقوله: (ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم)، قال العوفي عن ابن عباس : أهلكناهم.

وقال السدي : يعني لغيّرنا خَلْقهم .

وقال أبو صالح : لجعلناهم حجارة .

وقال الحسن البصري ، وقتادة : لأقعدهم على أرجلهم .

---

(١) تفسير الطبري: ٢٣ / ١٧ .
(٢) مسند الإمام أحمد: ٤/ ١٥١ .
(٣) في تفسير الطبري : « لفخذه » .
(٤) تفسير الطبري : ٢٣/ ١٧ .
(٥) انظر هذه الآثار في تفسير الطبري : ٢٣/ ١٧ – ١٨ .

ولهذا قال تعالى : (فما استطاعوا مضياً) ، أى : إلى أمام ، (ولايرجعون)،أى : إلى وراء ، بل يلزمون حالا واحداً، لايتقدمون ولايتأخرون .

وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾

يخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره رُدّ إلى الضعف بعد القوة والعجز بعد النشاط، كما قال تعالى : (الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة ، يخلق ما يشاء وهو العليم القدير)(١) ، وقال : (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر، لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً)(٢) .

والمراد من هذا ــ والله أعلم ــ الإخبارُ عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال، لادار دوام واستقرار ، ولهذا قال : (أفلا يعقلون) ، أى : يتفكرون بعقولهم فى ابتداء خلقهم ثم صيرورتهم إلى الشَّبيبة ، ثم إلى الشيخوخة ، ليعلموا أنهم خُلِقوا لدار أخرى ، لازوال لها ولا انتقال منها ، ولا محيد عنها ، وهى الدار الآخرة .

وقوله : (وما علمناه الشعروما ينبغى له) ، يقول تعالى مخبراً عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : أنه ما علمه الشعر ، (وما ينبغى له) ، أى : وما هو فى طبعه، فلا يحسنه ولايحبه ، ولا تقتضيه جبِلَّته ، ولهذا وَرَد أنه عليه الصلاة والسلام كان لايحفظ بيتاً على وَزْن منتظم ، بل إن أنشده زَحَّفه(٣) أولم يتمه .

وقال أبو زُرْعة الرازى : حُدِّثت عن إسماعيل بن مجالد ، عن أبيه، عن الشعبى أنه قال : ما ولد عبد المطلب ذكراً ولاأنثى إلا يقول الشعر ، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم. ذكره ابن عساكر فى ترجمة «عتبة بن أبى لهب» الذى أكله السَّبُع بالزرقاء.

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا حماد بن سلمة، عن على [بن زيد](٤) ، عن الحسن ــ هو البصرى ــ قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتمثل بهذا البيت (٥) :

* كَفَى بالإسلام والشَّيْب للمرء نَاهياً *

فقال أبو بكر : يارسول الله :

* كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً *

قال أبو بكر، أوعمر : أشهد أنك رسول الله ، يقول الله : (وما علمناه الشعر وما ينبغى له) .

---

(١) سورة الروم ، آية : ٥٤ .

(٢) سورة النحل ، آية : ٧٠ .

(٣) الزحاف ــ بكسر الزاى ــ : من مصطلحات علم العروض فى الشعر ، وهو أن يسقط بين الحرفين حرف ، فيزحف أحدهما إلى الآخر ، أى يدنى منه بعد أن كان مفصولا منه بهذا الحرف الذى سقط .

(٤) ما بين القوسين من الطبعات السابقة .

(٥) البيت لسحيم عبد بنى الحسحاس ، وصدره :

* عميرة ودع إن تجهزت غادياً *

انظره فى البيان والتبيين للجاحظ : ١/٧١ ، والكامل للمبرد : ٥٨٥ .

وهكذا روى البيهقي في الدلائل: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: للعباس بن مرداس السلمي(١): أنت القائل

* أتجعل نَهْبِي ونَهْبَ العُبَيد بينَ الأقرع وعُيَينة *

فقال: إنما هو: «بين عيينة والأقرع» فقال: «الكل سواء».

يعني في المعنى، صلوات الله وسلامه عليه.

وقد ذكر السهيلي في «الروض الأنف» لهذا التقديم والتأخير الذي وقع في كلامه عليه السلام في هذا البيت مناسبة أغربه فيها حاصلها شَرَفُ الأقرع بن حابس على عُيَيْنَةَ بن بَدْر الفَزَارِيّ، لأنه ارتد أيام الصديق، بخلاف(٢) ذاك، والله أعلم.

وهكذا روى الأموي في مغازيه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل يمشي بين القتلى يوم بدر، وهو يقول:

نُفَلِّق هَاماً . . . .

فيقول الصديق رضي الله عنه متمماً للبيت:(٣)

. . . . . . مِنْ رجَالٍ أعزّة * عَلَيْنَا، وهُمْ كانُوا أعَقّ وأظلما

وهذا لبعض شعراء العرب في قصيدة له، وهي في الحماسة(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، حدثنا مغيرة، عن الشعبي، عن عائشة — رضي الله عنها — قالت: كان رسول الله إذا استراث(٥) الخبر، تمثل فيه ببيت طَرَفَةَ(٦):

* ويَأتيكَ بالأخْبارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّد (٧) *

وهكذا رواه النسائي في «اليوم والليلة» من طريق إبراهيم بن مهاجر، عن الشعبي، عنها ورواه الترمذي والنسائي أيضاً، من حديث المقدام بن شريح بن هانىء، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها، كذلك. ثم قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»(٨).

---

(١) البيت في سيرة ابن هشام مع أبيات أخر: ٢/٤٩٣، ٤٩٤. وأسد الغابة ٣/١٦٨، وروايته هكذا:

* أتجعل نهبي ونهب العبيد بين عيينة والأقرع *

والنهب — بفتح فسكون —: ما ينهب ويغنم.

(٢) ليس هذا حاصل ما قاله السهيلي في الروض، فقد قدم لمقالته بأسباب التقديم وتنزيل الكلام، وذكر منها قبلية الرتبة والفضل، وقال: «أما قبلية الرتبة فإنه من خندف، ثم من بني تميم، فهو أقرب إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — من عيينة، فيرتب في الذكر قبله. وأما قبلية الفضل فإن الأقرع حسن إسلامه، وعيينة لم يزل معدوداً في أهل الجفاء حتى ارتد وآمن بطليحة، وأخذ أسيراً، فجعل الصبيان يقولون له وهو يساق إلى أبي بكر: ويحك ياعدو الله! ارتددت بعد إيمانك؟! فيقول: والله ما كنت آمنت! ثم أسلم في الظاهر. ولم يزل جافياً أحمق حتى مات، وبحسبك تسمية النبي صلى الله عليه وسلم — له: الأحمق المطاع...» وذكر السهيلي بعد هذا مثلا آخر على جفائه. انظر الروض الأنف: ٢/٣٠٩ — ٣١٠.

(٣) تقدم البيت عند تفسير الآية الثانية عشرة من سورة الأنفال، وخرجناه هنالك، انظر: ٣/٥٦٥ — ٥٦٦.

(٤) حماسة أبي تمام: ١/١٠٧ — ١٠٩، وانظرها في المفضليات للضبي: ٦٤ — ٧٣

(٥) أي: استبطأه، يقال: راث علينا خبر فلان، إذا أبطأ.

(٦) ديوانه: ٦٦.

(٧) مسند الإمام أحمد: ٦/٣١، ١٤٦.

(٨) تحفة الأحوذي، أبواب الأدب، باب «ما جاء في إنشاد الشعر»، الحديث ٣٠٠٦: ٨ — ١٤٠/١٤١.

وقال الحافظ أبوبكر البزار : حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا أسامة ، عن زائدة، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل من الأشعار :

* وَيَأْتِيكَ بالأخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ *

ثم قال : رواه غير زائدة ، عن سماك ، عن عكرمة عن عائشة .

وهذا فى شعر طرفة بن العبد ، فى معلقته المشهورة ، وهذا المذكور منها ، أوله :

سَتُبْدِى لكَ الأيامُ ما كُنْتَ جاهلا   ويَأْتِيكَ بالأخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ
ويَأْتِيكَ بالأخْبَارِ مَنْ لَمْ تَبِعْ له   بَتَاتاً ، ولم تَضْرِبْ لهُ وَقْتَ مَوْعِدِ

وقال الحافظ أبو بكر البيهقى : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، حدثنا أبوحفص عمر بن أحمد بن نعيم ــ وكيل المتقى ببغداد ــ حدثنا أبو محمد عبد الله بن هلال النحوى الضرير ، حدثنا على بن عمرو الأنصارى ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت: ما جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت شعر قط، إلا بيتاً واحداً:

تَفَاءَلْ بما تَهْوَى يَكُنْ ، فَلَقَلَّمَا * يُقَالُ لشىء كانَ إلاَّ تَحَقَّقَا

سألت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزّى عن هذا الحديث، فقال : هو منكر . ولم يعرف شيخ الحاكم ، ولا الضرير .

وقال سعيد بن أبى عَرُوبة عن قتادة: قيل لعائشة: هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل بشىء من الشعر؟ قالت: كان أبغضَ الحديث إليه ، غير أنه كان يتمثل ببيت [أخى] بنى قيس، فيجعل أوله آخره، وآخره أوله . فقال أبوبكر ليس هكذا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إنى والله ما أنا بشاعر ولا ينبغى لى » . رواه ابن أبى حاتم وابن جرير ، وهذا لفظه(١)

وقال معمر عن قتادة : بلغنى أن عائشة سُئلت : هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل بشىء من الشعر ؟ فقالت : لا ، إلا بيت طَرَفَةَ :

سَتُبْدِى لكَ الأيامُ ما كُنْتَ جاهلا * ويَأْتِيكَ بالأخْبَارِ مَنْ لم تُزَوِّدِ

فجعل يقول : « من لم تُزَوِّد بالأخبار» . فقال أبو بكر : ليس هذا هكذا . فقال : « إنى لست بشاعر ، ولا ينبغى لى » .

وثبت فى الصحيحين أنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ تمثل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة، ولكن تبعاً لقول أصحابه ، فإنهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون ، فيقولون :

لا هُمَّ لولاَ أنتَ ما اهتَدَيْنَا   ولاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا
فأنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا   وَثَبِّتِ الأقْدَامَ إنْ لاقَيْنَا
إنَّ الأُولى قَدْ بَغَوا عَلَيْنَا   إذا أرَادُوا فِتْنَةً أبَيْنَا

ويرفعُ صوته بقوله « أبينا» ويمدها(٢) . وقد روى هذا بزحاف فى الصحيح أيضاً . وكذلك ثبت أنه قال يوم حنين(٣) وهو راكب البغلة ، يقدم بها فى نحور العدو :

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٣/ ١٩ .

(٢) البخارى ، كتاب المغازى ، باب غزوة الخندق : ٥/١٤٠ ; ومسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب « غزوة خيبر» . « وغزوة الأحزاب» : ٥/١٨٥ - ١٨٨ .

(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية الخامسة والعشرين من سورة براءة ، وخرجناه هنالك ، انظر : ٤/ ٧٠ .

أنا النبيّ لا كَذِبْ * أنا ابنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ

لكن قالوا : هذا وقع اتفاقاً من غير قصد لوزن شعر ، بل جرى على اللسان من غير قصد إليه .

وكذلك ما ثبت فى الصحيحين عن جُنْدَب بن عبد الله قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غار فنَكِبت(١) أصبعه ، فقال :

هَلْ أنْتِ إلاّ إصْبَع دَميت * وفى سَبِيل الله مَا لَقِيت (٢)

وسيأتى عند قوله تعالى : (إلا اللمم(٣)) إنشاد :

إنْ تَغْفِر اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا * وأىّ عَبْدٍ لكَ مَا ألَمَّا

وكل هذا لاينافى كونه صلى الله عليه وسلم ما عُلِّم شعراً ولا ينبغى له ، فإن الله تعالى إنما علمه القرآن العظيم ، (الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد) (٤) . وليس هو بشعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش ، ولا كهانة ، ولا مفتعل ، ولا سحر يُؤثر ، كما تنوعت فيه أقوال الضُلاَّل وآراء الجُهَّال . وقد كانت سجيته صلى الله عليه وسلم تأبى صناعة الشعر طبعاً وشرعاً ، كما رواه أبو داود قال :

حدثنا عبيد الله بن عُمَر ، حدثنا عبد الله بن يزيد(٥) ، حدثنا سعيد بن أبى أيوب ، حدثنا شرحبيل بن يزيد المَعَافرى عن عبد الرحمن بن رافع التَّنُوخىّ [قال] : سمعت عبد الله بن عمرو يقول : [سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول] : ما أبالى ما أوتيت إن أنا شَرِبت تِرْياقا(٦) ، أو تعلقت تميمة ، أو قلت الشعر من قبل نفسى (٧) . تفرد به أبو داود .

وقال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، عن الأسود بن شيبان ، عن أبى نوفل قال : سألت عائشة أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتسامع (٨) عنده الشعر ؟ فقالت : كان أبغض الحديث إليه وقال عن عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه الجوامع من الدعاء ، ويدع ما بين ذلك(٩) .

وقال أبو داود : حدثنا أبو الوليد الطيالسى ، حدثنا شعبة ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة — رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً(١٠) » .

---

(١) أى : نالتها الحجارة .

(٢) أخرجاه فى كتاب الجهاد ، انظر البخارى ، باب « من ينكب فى سبيل الله » : ٢٢/٤ ، ومسلم ، باب « مالقى النبى صلى الله عليه وسلم — من أذى المشركين والمنافقين » : ١٨١/٥ — ١٨٢ .

(٣) سورة النجم ، آية : ٣٢ .

(٤) سورة فصلت ، آية : ٤٢ .

(٥) فى المخطوطة : « عبد الله بن سويد » . والصواب من سنن أبى داود ، ومسند الإمام أحمد .

(٦) الترياق : ما يستعمل لدفع السم من الأدوية .

(٧) سنن أبى داود ، كتاب الطب ، باب « فى الترياق » . وانظر مسند الإمام أحمد : ٢٢٣/٢ .

(٨) فى المخطوطة : « يسائغ عنده » . والمثبت من المسند بهذا السند ، وانظر أيضاً المسند : ١٣٤/٦ ، ١٨٩ .

(٩) مسند الإمام أحمد : ١٤٨/٦ .

(١٠) سنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب « ما جاء فى الشعر » ، الحديث ٥٠٠٩ : ٣٥٢/٤ — ٣٥٣ .

تفرّد به من هذا الوجه ، وإسناده على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا قَزَعَةُ بن سُوَيد الباهلي ، عن عاصم بن مخلد ، عن أبي الأشعث الصنعاني (ح) وحدثنا الأشيب فقال : عن ابن عاصم ، عن [أبي] الأشعث ، عن شدّاد بن أوس،قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرض بيت شعر بعد العشاء الآخرة ، لم تقبل له صلاة تلك الليلة(١) » .

وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة : والمراد بذلك نظمه لا إنشاده ، والله أعلم؛ على أن الشعر فيه ما هو مشروع ، وهو هجاء المشركين الذي كان يتعاطاه شعراء الإسلام ، كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك وعبد الله بن رَوَاحة ، وأمثالهم وأضرابهم ، رضي الله عنهم أجمعين . ومنه ما فيه حكم ومواعظ وآداب ، كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلية، ومنهم أمية بن أبي الصلت الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: « آمن شعره وكفر قلبه » . وقد أنشد بعض الصحابة منه للنبي صلى الله عليه وسلم مائة بيت، يقول عقب كل بيت: « هيه » . يعني يستطعمه(٢)، فيزيده من ذلك(٣)؛

وقد روى أبو داود من حديث أبي بن كعب ، وبُريدة بن الحُصَيب ، وعبد الله بن عباس ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إن من البيان سحراً ، وإن من الشعر حُكما(٤) » .

ولهذا قال تعالى: (وماعلمناه الشعر)،يعني: محمداً صلى الله عليه وسلم ما علمه الله شعراً، (وما ينبغي له) ، أي: وما يصلح له ، (إن هو إلاذكر وقرآن مبين) ، [أي : ما هذا الذي علمناه(إلا ذكر وقرآن مبين] ، أي : بين واضح جلي لمن تأمله وتدبره ، ولهذا قال : (لينذر من كان حيا) ، أي : لينذر هذا القرآن البيّن كلّ حي على وجه الأرض ، كقوله : (لأنذركم به ومن بلغ) (٥) ، وقال: (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده)(٦) ،وإنما ينتفع بنذارته من هو حيّ القلب ، مستنير البصيرة ، كما قال قتادة : حي القلب ، حي البصر . وقال الضحاك : يعني عاقلا (٧) ، ويحق القول على الكافرين) ، أي : هو رحمة للمؤمن ، وحجة على الكافر .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التي سخرها لهم ، (فهم لها ما لكون) ـــ قال قتادة : مطيقون : أي: جعلهم يقهرونها،وهي ذليلة لهم ، لاتمتنع منهم ، بل لوجاء صغير إلى بعير لأناخه ، ولوشاء لأقامه وساقه ، وذاك ذليل منقاد معه ، وكذا لوكان القِطَارُ مائة بعير أو أكثر ، لسار الجميع بسير صغير .

(١) مسند الإمام أحمد : ٤/ ١٢٥ .

(٢) أي : يطلب منه أن يذيقه المزيد من طعم هذا الحديث .

(٣) أنظر صحيح مسلم ، كتاب الشعر : ٧/ ٤٨ – ٤٩ . وابن ماجه ، كتاب الأدب ، باب « الشعر » ، الحديث ٣٧٥٨ : ٢/ ١٢٣٦ . ومسند الإمام أحمد عن الشريد بن سويد : ٤/ ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

(٤) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « ما جاء في الشعر » الأحاديث ٥٠١٠ – ٥٠١٢ : ٤/ ٣٠٣ .

(٥) سورة الأنعام ، آية : ١٩ .

(٦) سورة هود ، آية : ١٧ .

(٧) تفسير الطبري : ٢٣/ ١٩ .

وقوله : (فنها ركوبهم ومنها يأكلون) ، أى : منها ما يركبون في الأسفار ، ويحملون عليه الأثقال ، إلى سائر الجهات والأقطار . (ومنها يأكلون) ، إذا شاءوا نحروا واجتزروا ، (ولهم فيها منافع) ، أى : من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ، (ومشارب) ، أى : من ألبانها وأبوالها لمن يتداوى ، ونحو ذلك : (أفلا يشكرون) ، أى : أفلا يُوحِّدُون خالق ذلك ومسخره ، ولا يشركون به غيره ؟ .

وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين فى اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله ، يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى : قال الله تعالى : (لايستطيعون نصرهم) ، أى : لاتقدر الآلهة على نصر عابديها ، بل هى أضعف من ذلك وأقل وأذل وأحقر وأدحر ، بل لاتقدر على الانتصار لأنفسها ، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء ، لأنها جماد لاتسمع ولا تعقل .

وقوله : (وهم لهم جند محضرون) — قال مجاهد : يعنى عند الحساب(١) يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة ، محضرة عند حساب عابديها ، ليكون ذلك أبلغ فى خزيهم ، وأدل عليهم فى إقامة الحجة عليهم .

وقال قتادة : (لايستطيعون نصرهم) ، يعنى الآلهة ، (وهم لهم جند محضرون) ، والمشركون يغضبون للآلهة فى الدنيا وهى لاتسوق إليهم خيراً ، ولاتدفع عنهم سوءاً ، إنما هى أصنام (١) .

وهكذا قال الحسن البصرى . وهذا القول حسن ، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله .

وقوله : (فلا يحزنك قولهم) ، أى : تكذيبهم لك وكفرهم بالله ، (إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون) ، أى : نحن نعلم جميع ما هم عليه ، وسنجزيهم وصفَهم ونعاملهم على ذلك ، يوم لايفقدون من أعمالهم جليلا ولاحقيراً ، ولا صغيراً ولا كبيراً ، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً .

أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾

قال مجاهد ، وعكرمة وعروة بن الزبير ، والسدى ، وقتادة : جاء أبى بن خلف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى يده عظم رميم وهو يُفَتِّتُه ويُذَرِّيه فى الهواء ، وهو يقول : يا محمد ، أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ فقال : « نعم يميتك الله تعالى ، ثم يبعثك ، ثم يحشرك إلى النار » . ونزلت هذه الآيات من آخر « يس » : (أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة) إلى آخرهن .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٣/٢٥ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا على بن الحسين بن الجنيد ، حدثنا محمد بن العلاء ، حدثنا عثمان بن سعيد الزيات ، عن هشيم ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس أن العاصي بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففته بيده ، ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أيحيي الله تعالى هذا بعد ما أرى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعم ، يميتك الله ثم يحييك ، ثم يدخلك جهنم » . قال : ونزلت الآيات من آخر « يس » .

ورواه ابن جرير عن يعقوب بن ابراهيم ، عن هُشَيم ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، فذكره ولم يذكر « ابن عباس »[1] .

وروى من طريق العَوفى ، عن ابن عباس قال : جاء عبد الله بن أبي بعظم ففته . . وذكر نحو ما تقدم .

وهذا منكر ، لأن السورة مكية ، وعبد الله بن أبي ابن سلول إنما كان بالمدينة . وعلى كل تقدير سواء كانت هذه الآيات نزلت في أبي بن خلف ، أو العاص ، أو فيهما ، فهي عامة في كل من أنكر البعث ، والألف واللام في قوله : (أولم ير الإنسان) للجنس ، يعم كل منكر للبعث .

(أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين) ، أى : أولم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة ، فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين ، فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين ، كما قال تعالى : (ألم نخلقكم من ماء مهين • فجعلناه في قرار مكين • إلى قدر معلوم)[2] . وقال : (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه)[3] ، أى : من نطفه من أخلاط متفرقة ، فالذى خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته ، كما قال الإمام أحمد في مسنده :

حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا حَريز ، حدثني عبد الرحمن بن ميسرة ، عن جبير بن نفير ، عن بسر بن جحاش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بَصَق[4] يوماً في كفه ، فوضع عليها أصبعه ، ثم قال : قال الله تعالى : ابن آدم ، أنَّى تُعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سوّيتك وعدّلتك ، مشيت بين بُردَيك وللأرض منك وئيد[5] ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلَغَت التراقى قلت : « أتصدق » وأنَّى أوان الصدقة[6] ؟

ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن يزيد بن هارون ، عن حَريز بن عثمان ، به[7] .

ولهذا قال : (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال : من يحيي العظام وهى رميم) ؟ أى : استبعد إعادة الله تعالى ــ ذى القدرة العظيمة التي خلقت السموات والأرض ــ للأجساد والعظام الرميمة ، ونسى نفسه ، وأن الله خلقه من العدم ، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده ، ولهذا قال تعالى : (قل : يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم) ، أى : يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها ، أين ذهبت ، وأين تفرقت وتمزقت ؟

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٣/٢١ .
(٢) سورة المرسلات ، الآيات : ٢٠ ــ ٢٢ .
(٣) سورة الإنسان ، آية : ٢ .
(٤) في المسند : « بزق » .
(٥) الوئيد : صوت شدة الوطء على الأرض يسمع كالدوى من بعد .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٤/٢١٠ .
(٧) سنن ابن ماجه ، كتاب الوصايا ، باب « النهى عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت » ، الحديث ٢٧٠٧ : ٢/٩٠٣ .

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا أبوعوانة ، عن عبد الملك بن عمير ، عن رِبْعيّ قال : قال عقبة بن عمرو لحذيفة ، ألا تحدثُنا ما سمعتَ من(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال سمعته يقول « إن رجلا حضره الموت ، فلما أيسَ من الحياة أوصى أهله : إذا أنا مِتّ فاجمعوا لى حَطَباً كثيراً جزْلا (٢) ،ثم أوقدوا فيه ناراً ، حتى إذا [أكلت] لحمى وخَلَصت إلى عظمى فامتُحشْتُ (٣) ، فخذوها فَذَرّوها (٤) فى اليم » ففعلوا ، فجمعه الله إليه فقال له : لم فعلت ذلك ؟ قال : من خشيتك : فغفر الله له » فقال عقبة بن عمرو : وأنا سمعته يقول ذلك « وكان نَبّاشا(٥) » .

وقد أخرجاه فى الصحيحين ، من حديث عبد الملك بن عمير ، بألفاظ كثيرة ، منها : أنه أمر بنيه أن يحرقوه ثم يسحقوه ، ثم يذَرّوا نصفه فى البر ونصفه فى البحر ، فى يوم رائح ، أى : كثير الهواء — ففعلوا ذلك ، فأمر الله البحر فجمع مافيه ، وأمر البر فجمع ما فيه ، ثم قال له : كن ، فإذا هو رجل قائم ، فقال له : ما حملك على ما صنعت فقال : مخافتك وأنت أعلم . فما تلافاه(٦) أن غفر له(٧) .

وقوله (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم توقدون) ، أى : الذى بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خَضِراً نَضِراً ذا ثمر ويَنْع (٨) ، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً ، توقد به النار ، كذلك هو فعال لما يشاء ، قادر على ما يريد لايمنعه شىء .

قال قتادة فى قوله : (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ، فإذا أنتم منه توقدون) ، يقول : الذى أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر أن يبعثه(٩) .

وقيل : المراد بذلك سَرْح(١٠) المرخ والعَفَار ،ينبت فى أرض الحجاز فيأتى من أراد قَدْح نار وليس معه زناد ، فيأخذ منه عودين أخضرين ، ويقدح أحدهما بالآخر ، فتتولد النار من بينهما ، كالزناد سواء . روى هذا عن ابن عباس رضى الله عنهما : [وفى المثل(١١)] : « لكل شجر نار ،واستمجد المَرْخُ والعَفَار(١٢) » ، وقال الحكماء : فى كل شجر نار إلا العناب .

---

(١) هنا اختصر ابن كثير متن الحديث .

(٢) أى : غليظا قوياً .

(٣) المحش : احتراق الجلد وظهور العظم .

(٤) فى المسند : « فأذروها » .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٥/٣٩٥ .

(٦) التلافى : تداوك الشىء بعد أن فات .

(٧) البخارى ، كتاب ، الأنبياء : ٤/٢١٤ . وكتاب الرقاق ، باب « الخوف من الله » ٨/١٢٦ ، وكتاب التوحيد : ٩/١٧٨-١٧٩ . ومسلم ، كتاب التوبة ، باب « فى سعة رحمة الله تعالى ، وأنها سبقت غضبه » ٨/٩٨ .

(٨) أى : ونضج .

(٩) تفسير الطبرى : ٢٣/٢٢ .

(١٠) السرح : شجر ، واحده سرحة ، وهى من كبار الشجر .

(١١) فى المخطوطة مكان « وفى المثل » : « وقال الراجز » . والمثبت عن الطبعات السابقة ، وهو مثل مشهور .

(١٢) مجمع الأمثال للميدانى ، المثل رقم ٢٧٥٢ : ٢/٧٤ – ٧٥ . ونتائج الفكر للسهيلى ، ورقة ، : ٤٤ .

والمعنى أن المرخ والعفار — قد استكثرا وأخذا من النار ما هو حسبهما ، لأنهما يسرعان فى الورى ، والزناد الأعلى يكون من العفار والأسفل من المرخ . يضرب هذا المثل فى تفضيل بعض الشىء على بعض .

أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

يقول تعالى منبهاً على قدرته العظيمة فى خلق السموات السبع ، بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت ، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال ، وبحار وقفار ، وما بين ذلك ، ومرشداً إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة ، كقوله تعالى : (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس (١)) . وقال هاهنا : (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟) أى : مثل البشر ، فيعيدهم كما بدأهم . قاله ابن جرير (٢) .

وهذه الآية كقوله تعالى : (أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ، ولم يعى بخلقهن ، بقادر على أن يحيى الموتى ؟ بلى إنه على كل شىء قدير (٣)) . وقال : (بلى وهو الخلاق العليم • إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) ، أى : يأمر بالشىء أمراً واحداً ، لايحتاج إلى تكرر :

إِذَا مَا أَرَادَ اللهُ أَمْراً فَإِنَّمَا * يَقُولُ لهُ « كُنْ » قَوْلَةً فَيَكُونُ (٤)

وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير ، حدثنا موسى بن المسيب ، عن شهر ، عن عبد الرحمن بن غَنْم ، عن أبى ذَرّ ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يقول : ياعبادى ، كلكم مذنب إلا من عافيت ، فاستغفرونى أغفر لكم ؛ وكلكم فقير إلا من أغنيت ، إنى جواد ماجد واجد أفعل ما أشاء ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إذا أردت شيئاً فإنما أقول له كن فيكون » (٥) .

وقوله : (فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء ، وإليه ترجعون) . أى : تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحى القيوم ، الذى بيده مقاليد السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، وله الخلق والأمر ، وإليه ترجع العباد يوم القيامة ، فيجازى كل عامل بعمله ، وهو العادل المنعم المتفضل .

ومعنى قوله : (فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء) كقوله : [عز وجل : قل من بيده ملكوت كل شىء (٦) ؟] ، وكقوله تعالى : (تبارك الذى بيده الملك (٧)) ، فالملك والملكوت واحد فى المعنى . كرحمة ورَحَمُوت ، ورَهْبة ورهبوت ، وجَبْر وجَبَرُوت . ومن الناس من زعم أن المُلْك هو عالم الأجساد ، والملكوت هو عالم الأرواح ، والأول هو الصحيح ، وهو الذى عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم .

---

(١) سورة غافر ، آية : ٥٧ .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٢/٢٣ .
(٣) سورة الأحقاف ، آية : ٣٣ .
(٤) تقدم البيت عند تفسير الآية ١١٧ من سورة البقرة : ٢٣٢/١ ، والآية الأربعين من سورة النحل ٤٩٠/٤ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ١٧٧/٥ . وقد اختصر ابن كثير متنه .
(٦) سورة « المؤمنون » ، آية : ٨٨ .

٥ ١

قال الإمام أحمد : حدثنا سُرَيج بن النعمان ، حدثنا حماد ، عن عبد الملك بن عمير ، حدثني ابن عم لحذيفة ، عن حذيفة — وهو ابن اليمان — ، رضي الله عنه — قال : قمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، فقرأ السبع الطُّوَل في سبع ركعات ، وكان إذا رفع رأسه من الركوع قال : سمع الله لمن حمده ، ثم قال : « الحمد لله ذي الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة » وكان ركوعه مثل قيامه ، وسجوده مثل ركوعه ، فانصرف وقد كادت تنكسر رجلاي(١) .

وقد روى أبو داود ، والترمذي في الشمائل ، والنسائي ، من حديث شعبة ، عن عمرو بن مُرَّة ، عن أبي حَمْزة — مولى الأنصار — عن رجل من بني عَبْس ، عن حذيفة : أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل ، وكان يقول : « الله أكبر — ثلاثاً — ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة » . ثم استفتح فقرأ البقرة ، ثم ركع فكان ركوعه نحواً من قيامه ، وكان يقول في ركوعه : « سبحان ربي العظيم » . ثم رفع رأسه من الركوع ، فكان قيامه نحواً من [ركوعه ، يقول : « لربي الحمد » ثم سجد ، فكان سجوده نحواً من] قيامه ، وكان يقول في سجوده : « سبحان ربي الأعلى » . ثم رفع رأسه من السجود ، وكان يقعد فيما بين السجدتين نحواً من سجوده ، وكان يقول : « رب ، اغفر لي ، رب اغفر لي » : فصلى أربع ركعات ، فقرأ فيهن البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة — أو الأنعام ، شك شعبة : هذا لفظ أبي داود(٢) .

وقال النسائي : « أبو حمزة عندنا طلحة بن يزيد ، وهذا الرجل يشبه أن يكون صلة(٣) » : كذا قال ، والأشبه أن يكون ابن عم حذيفة ، كما تقدم في رواية الإمام أحمد ، فأما رواية صلة بن زفر ، عن حذيفة ، فإنها في صحيح مسلم ، ولكن ليس فيها ذكر الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة .

وقال أبو داود : حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، حدثني معاوية بن صالح ، عن عمرو بن قيس ، عن عاصم ابن حُمَيد ، عن عوف بن مالك الأشجعي قال : قمتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقام فقرأ سورة البقرة ، لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوّذ ، قال : ثم ركع بقدر قيامه ، يقول في ركوعه : « سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة » . ثم سجد بقدر قيامه ، ثم قال في سجوده مثل ذلك ، ثم قام فقرأ بآل عمران ، ثم قرأ سورة سورة(٤) .

ورواه الترمذي في الشمائل ، والنسائي ، من حديث معاوية بن صالح ، به .

[آخر تفسير سورة يس]

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/٣٨٨ . وانظر أيضاً : ٥/٣٩٦ – ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب « ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده » ، الحديث ٨٧٤ : ١/٢٣١ . والنسائي ، كتاب الافتتاح ، باب « ما يقول في قيامه » : ٢/١٩٩ – ٢٠٠ ، وباب الدعاء بين السجدتين : ٢/٢٣١ .

(٣) يعني : صلة بن زفر العبسي .

(٤) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب « ما يقول في ركوعه وسجوده » ، الحديث ٨٧٣ : ١/٢٣٠ – ٢٣١ .

الفهـــــارس

فهرس موضوعى

سورة سبأ

سورة فاطر

فهرس الأعلام

(ا)

(ب)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(ف)

(ق)

فهرس الأماكن والبلدان ونحوهما

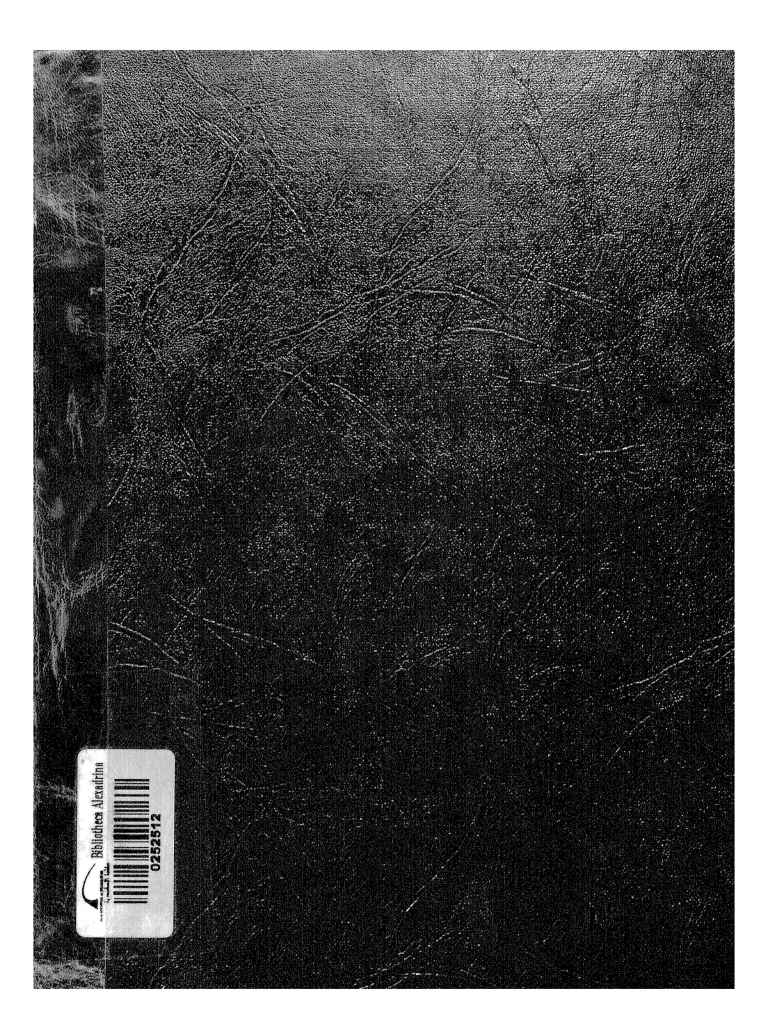
فهرس القبائل والطوائف ونحوهما

فهرس الشعر

فهرس غريب اللغة

تصويبـــات

الصفحة	السطر	خطأ	صوابه
١٧	٦	[أبي] ابى إسحاق	[ابن] أبي إسحاق
١٨	١٥	يُهَلِّبْهُنَّ	يُهَبِّلْهُنَّ
١٩	٥	مُتَبَرِّزنا	مُتَبَرَّزُنا
٢٦	٩	ولى	تولى
٨٢	١٢	لا ينصرفون	(لا ينصرون)
٨٧	١٨	اليوم القيامة	يوم القيامة
٩١	السطر الأخير من التعليق	(٦) ؟؟؟	(٦) لم نهتد إلى تفسير هذه الكلمة
٩٤	١٨	نابيا (٩)	نابيا
١٠٨	الأول	أكثرهم به	(أكثرهم بهم)
١٣١	٢٠	اللغو من أعرضوا	(اللغو أعرضوا)
١٨٥	٢٣	تجلوا	تجلو
٢٠٥	٢٣	تحن	تحن
٢٢٣	٢٠	اثنا ذراعا	اثنا عشر ذراعاً
٢٢٧	١٨	هذا اليت	(هذا البيت)
٤١١	السطر الأخير	كلمة مقلوبة	(٣) مسلم
٤٦٧	١٢	رحمه الله : كثيراً	رحمه الله كثيراً
٤٨٣	١٥	جاء رسل	(جاءت رسل)
٥٢٦	السطر الرابع من التعليق	وقد وضعت	وفى الطبعات السابقة وضعت


Bibliotheca Alexadrina
0252512